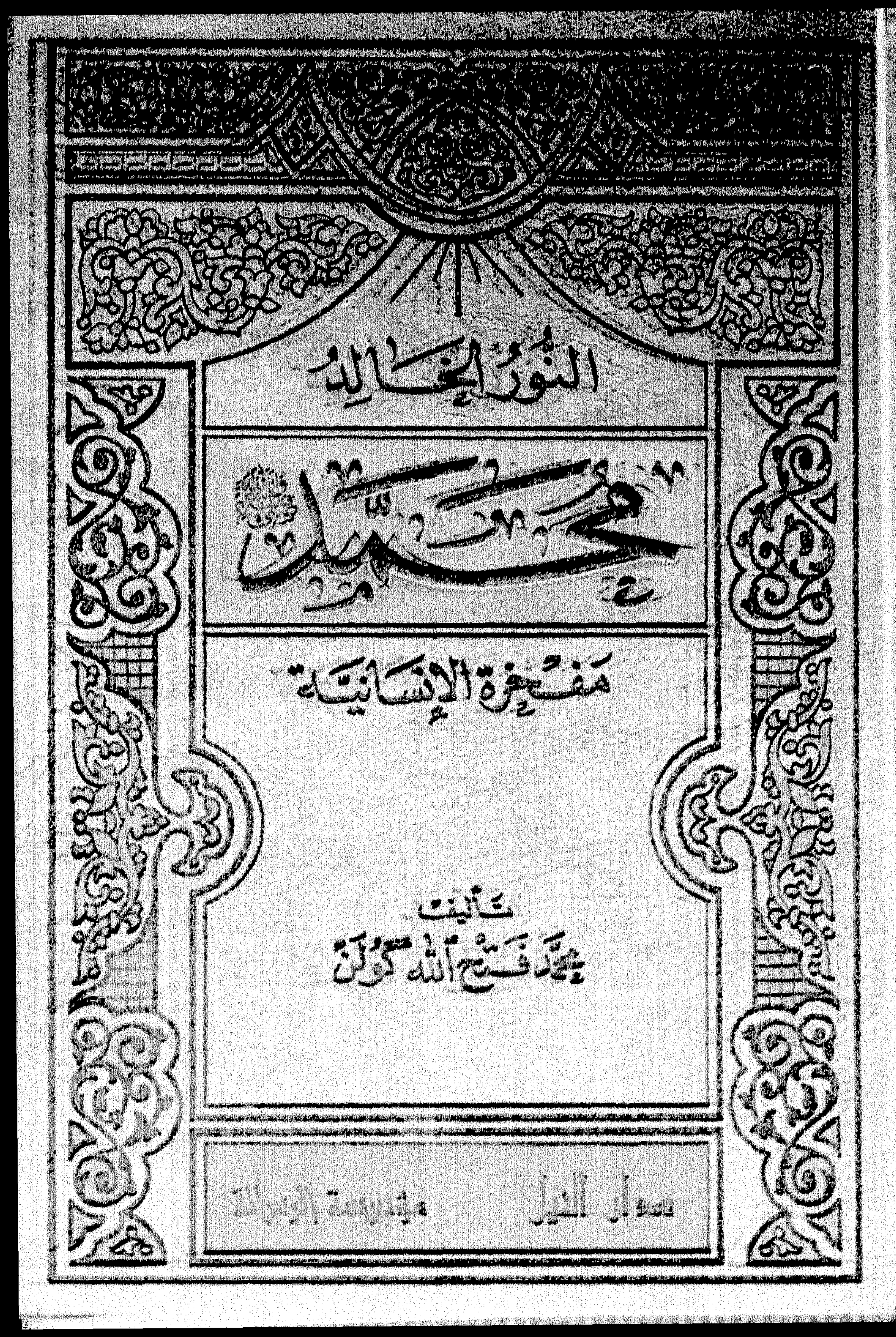


النور الخالد

محمد ﷺ

مفخرة الإنسانية

تأليف

محمد فتح الله كولن

دار النيل

النور الخالد

محمد ﷺ

مفخرة الإنسانية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

Nil Basim Yayin A.S. Kisikli Cad. Kusbakisi SK.No:4
Altunizade 81190 Uskudar/Istanbul TURKEY Tel.:+90 216 391 7031



وطى المصيطبة شارع حبيب أبي شهلا بناية المسكن
تلفاكس ٨١٥١١٢ .. ٣١٩٠٣٩ ٦٠٣٢٤٣ ص.ب ١١٧٤٦٠ - برقيا بيوشران

Al-Resalah
PUBLISHERS

BEIRUT/LEBANON TELEFAX 815112 319039 - 603243 - P.O. BOX. 117460
E. mail Resalah@Cyberia net. lb

النُّورُ الخَالِدُ

مُحَمَّدٌ ﷺ

مَفْخَرَةُ الإِنْسَانِيَّة

تأليف

مُحَمَّد فَتْح الله كُولَن

الجُزْءُ الأَوَّل

دار النيل

مؤسسة الرسالة



فهرس

تمهيد:

النبي المرسل رحمة للعالمين

القسم الأول:

الأنبياء والرسل

القسم الثاني:

النبي ﷺ مربيا

القسم الثالث:

لا مثيل لرسول الله ﷺ في حل المعضلات

مقدمة المترجم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

لم تكن البعثة المحمدية أمراً بسيطاً أو عادياً مرت عبر أبواب الزمن، ثم اختفت بين هرج الحياة ولَغَطها... وحوادث التاريخ وحروبه... وزحام المبادئ وصُراخها... بل كانت أمراً جللاً رنّ تحت قبة السماء... وحدثاً مدوّياً في سمع الزمان... فكأن الكون كله كان يولد من جديد... ويتلبس بالوجود ثانية... ويظهر من ظلام العدم مرة أخرى... ويفتح عينيه من إغماءة الفناء... كانت ميلاداً معنوياً رائعاً شحنت فيه كل بسمة من بسمات الجمال... وكل دفقة من دفقات الخير... وكل نبضة من نبضات الحق... لقد أصبحت الأرض بعد هذه البعثة زهرة الكون... ولؤلؤة صدفته... ونور جبينه... وبؤبؤ عينه وبسمة شفتيه... كانت هذه البعثة اللحظة التي انتظرها الأزل ليناولها إلى الأبد... فإن كان الكون المنظور كله صورة واحدة فقط من صور الوجود... وانعكاساً لجانب واحد من جوانب الحقيقة المطلقة... وعالماً واحداً من عوالم الخلق. فإن البعثة المحمدية التي حملت الحق المطلق لم تكن بهذا المقياس أمراً عالمياً فقط... أو أرضياً فقط... أو كونياً فقط بل طوت بين جناحيها الأرض والكون المنظور والعالم المشهود وغير المشهود. ذلك لأننا إن أدركنا أن البعثة المحمدية كانت تعكس الحقيقة الإلهية الأزلية وتنطق بها وتحملها، وقلنا إن شموليتها وسعتها تتجاوز الأرض والكون فإننا لا نقول شططاً.

لذا، ألا تعجب من المسلم الغافل الذي يترك عوالم الشموس والخلود هذه ليلهث وراء أفكار أرضية محدودة المحتوى وقصيرة العمر... محرومة من العمق والأصالة... تسقط

كأوراق الخريف في أول هبة ريح... غافلة عن الحقيقة الإلهية العظمى... مقطوعة الصلة عن روح الإنسان وقلبه... وعن أشواقه ووجده... تنتهي مع الإنسان على أبواب القبر... ولا ترافقه في رحلته الأبدية، ثم تثقل كاهله يوم القيامة.

ولكن البشائر تترى الآن... لقد بدأت أيام الغفلة بالانتهاء... وبدأ مخاض ميلاد جديد حافل بالألم... مخاض ميلاد المسلم مرة أخرى... شجرة الإيمان بدأت تهتز... والنُّسْغُ يصعد ويتحرك في أغصانها وعروقها... والأوراق الصفراء بدأت تخضرّ... إذن، فالجذور كانت حية... لقد عاد الغريب إلى دياره بعد طول الغربة واللوعة والفراق... والشمس التي غربت تحت ظلال وألوان حمراء دامية وباكية بدأت تشرق من جديد... وترتفع أمام الأنظار في الأفق رويداً رويداً... تهب النور والفرحة والأمل من جديد...

في هذه الصحوة الإسلامية المباركة كم يحتاج المسلم أن يعرف نبيه ويتعلم منه ويجدد إيمانه ويلهب مشاعره، ويعرف بعض أسرار هذه البعثة المحمدية ومداها وشمولها وعمقها والطريق التي اختطّتها وحكمة يد القدرة فيها... لذا، فإن هذا الكتاب وأمثاله من الكتب التي لا تتناول السيرة كسرد أحداث وذكر تواريخ، بل تتناولها من ناحية فقهها وحكمتها ومعانيها وأسرارها تبقى من أهم الكتب في تغذية هذه الصحوة وإنارة الطريق أمامها والتحذير من مفاوزها ومخاطرها. لذا، فهو كتاب كل مسلم وضع قدمه ليسير –على بركة الله– في هذه الطريق، ويتوجه إلى رسوله ومرشده وقائده وزعيمه ﷺ.

والحمد لله أولاً وآخراً.

الأورخان محمد علي

إسطنبول – ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م

نبذة عن المؤلف

أما المكان الذي ولد فيه الشيخ (محمد فتح الله گولن) -الذي لفت إليه جميع الأنظار بما قدمه من خدمات هي بداية لعهد جديد ومرحلة جديدة، والذي لايحب أن ينسب إليه أي فضل أو زعامة - فهو قرية صغيرة في الأناضول يستمر فيها موسم الشتاء تسعة أشهر في السنة، وهي قرية (كوروجك) التي لايتجاوز عدد سكانها (٦٠-٧٠) عائلة، وهي إحدى قرى قضاء (حسن قلعة) المرتبطة بمحافظة (أرضروم). وكان أجداده قد جاءوا إليها من قضاء (أخلاط) التاريخية وهي إحدى أقضية محافظة (بتليس) الصغيرة الواقعة في أحضان الجبال. وكان بعض أحفاد الرسول ﷺ قد هربوا إلى منطقة وادي (بتليس) هربا من ظلم الأمويين والعباسيين، وأصبحوا مرشدين معنويين في هذه المنطقة، فامتزج الروح الإسلامي في نفوس القبائل التركية الموجودة في هذه المنطقة.

فتح محمد فتح الله عينيه في بيت يشيع في أرجائه الروح الإسلامي، فوالده ووالدته كانا عميقي التدين. كان جده (شامل آغا) تمثالا للجد والوقار ولصلابة الدين، وكان على علاقة روحية وقلبية وثيقة مع حفيده. أما والده (رامز أفندي) فكان - حتى في تلك الفترة الصعبة والقاحلة - شخصا مشهودا له بالعلم والادب والدين والذكاء، لايصرف وقته إلا في شئ مفيد، خفيف الظل، معروفا بالكرم والسخاء. أما جدته من طرف والده (مؤنسة هانم) فكانت سيدة معروفة بتدينها العميق وارتباطها الوثيق بإيمانها بالله، ينعكس

إيمانها هذا في كل شأن من شؤونها وفي كل تصرف من تصرفاتها. وكانت جدته من طرف أمه (خديجة هانم) من سليلة عائلة باشا مثالا للوداعة واللطف والأدب، أما والدته (رفيعة هانم) فكانت تدرس القرآن الكريم لنساء القرية ومعروفة بحنانها وشفقتها وحبها للخير.

نشأ (محمد فتح الله) في مثل هذا البيت، لذا نراه يتعلم قراءة القرآن من والدته ولمّا يتجاوز عمره الرابعة، وختم القرآن في شهر واحد. كانت أمه (رفيعة) تقوم في وسط الليل وتوقظ ابنها وتعلمه قراءة القرآن.

كان البيت الذي نشأ فيه مزارا ومحل ضيافة لجميع العلماء والمتصوفة المعروفين في تلك المنطقة. كان والده (رامز أفندي) يحب العلماء ومجالستهم، ويرغب في إستضافة أحدهم في الأقل كل يوم، وهكذا تعود (محمد فتح الله) منذ صغره مجالسة الكبار، ووجد نفسه منذ نعومة أضفاره في بيت علم وتصوف. كان الشيخ (محمد لطفي آلوارلي) على رأس هؤلاء العلماء الذي تأثر بهم، إلى درجة أنه كان يحسب كل كلمة تخرج من فمه « كأنها إلهامات آتية من عوالم أخرى »، ولكي ندرك مدى تأثره به نذكر أنه وبعد كل هذه السنوات لايزال يتذكره ويقول عنه: « أستطيع أن أقول بأنني مدين له بقسم كبير من مشاعري وأحاسيسي وبصيرتي لما كنت أسمع منه ».

بدأ محمد فتح الله بتعلم اللغة العربية والفارسية من والده المغرم بمطالعة الكتب الذي كان يقرأ القرآن على الدوام في رواحه ومجيئه، ويترنم بأبيات من الشعر العربي والفارسي. كان والده يحب النبي ﷺ والصحابة إلى حد العشق، ويقرأ الكتب العديدة عن حياتهم حتى تهرأت هذه الكتب من كثرة القراءة، وكان من أهم ما قام به والده هو زرع حب الرسول ﷺ وحب الصحابة في قلب ابنه. أجل! لايمكن فهم محمد فتح الله إلا بعد فهم ما أورثه إياه والده (رامز أفندي) من حب النبي ﷺ وصحابته الكرام والتعلق بهم، ويمكن القول بأن من الصعب حقا رؤية شخص ثان أو لنقل شخص ثالث يكون قلبه متعلقا بهذه الدرجة بالنبي ﷺ وبصحابته، بحيث تدمع عيناه ويختلج قلبه في صدره كلما ورد ذكرهم على لسانه.

دراسته الأولية وخلفيته النفسية

لقد وجه القدر جميع الاستعدادات الباطنية الكاملة لدى « محمد فتح الله گولن » لكي تنمو في جو من العدل والتوازن. ولو تم توجيه الاستعدادات الفطرية لدى « فتح الله گولن » المتمثلة في طاقته الكبيرة ونشاطه الفعال وجرأته وشجاعته وميله إلى التنظيم الدقيق ونظرته

الثاقبة للتاريخ، وقلبه الطافح بالحماسة... بينما نشأ كشخص مملوء بالحنان والشفقة، متعلقا بعائلته وأقربائه. ونتيجة لحساسيته المرهفة وتعلقه بأقربائه فإن ما تعرضت عائلته من حرمان وما عاناه والده من جفاء وجحود بعض أصدقائه، وتنقل عائلته وهجرتها، ثم الآلام تجرعها قلبه الصغير إثر وفاة شقيقه ثم وفاة جده وجدته في أوقات متقاربة... كل هذه الحوادث تركت جرحا غائرا في قلبه، وكان من الممكن تحت هذه الظروف أن ينقلب إلى درويش متصوف. ولكن القدر ساقه إلى المدرسة الدينية (أي إلى تحصيل العلوم الدينية)، وإلى التكية (أي إلى التربية الروحية) وإلى العلوم الوضعية وإلى الفلسفة في الوقت نفسه. واستمرت دراسته (التي بدأها في بيت والده) في مدينة (أرضروم)، كما إن التربية الروحية التي تلقاها أول مرة في البيت استمرت في تكية (محمد لطفي أفندي)، لذا لم تنقطع صلته بالتربية الروحية، بل استمرت طوال عمره كاستمرار تلقيه للعلوم الإسلامية جنبا إلى جنب. فقد تلقى العلوم الإسلامية على علماء معروفين من أبرزهم العالم (عثمان بكتاش) الذي كان من أبرز الفقهاء في زمنه، حيث درس عليه النحو والبلاغة والفقه وأصول الفقه والعقائد.

وفي أثناء أعوام دراسته تعرف برسائل النور وبحركة طلاب النور... هذه الحركة الاحيائية والتجديدية الشاملة التي كان الاستاذ بديع الزمان سعيد النورسي قد بدأها في الربع الثاني من هذا القرن.

وبتقدمه في العمر وتعرفه على رسائل النور التي هي عبارة عن مدرسة إسلامية شاملة ومعاصرة، علاوة على أخذه نصيبه من المدارس الدينية والتكايا، تفتحت جميع استعداداته وقابلياته التي أودعها خالقه في فطرته، فتابع قراءة ومتابعة العلوم الوضعية التي درسها في المدارس الرسمية (كالفيزياء والكيمياء وعلم الفلك والبيولوجيا) فملك معلومات عميقة ومركزة لأسس هذه العلوم، كما بدأ بقراءة كتب (كامو) و(سارتر)، (ماركوس) وغيرهم من الفلاسفة الوجوديين، وتعرف على المنابع الرئيسة لأفكار الفلاسفة الغربيين الآخرين والفلاسفة الشرقيين. كل هذه العوامل والظروف ساهمت في تكوين شخصية الشيخ «فتح الله» كما هو مشهور على لسان الناس في تركيا.

الشيخ فتح الله

ما أن بلغ «محمد فتح الله گولن» العشرين من عمره حتى ترك مدينة «أرضروم» الموجودة في أقصى الشرق متوجها إلى مدينة «أدرنة» التي تُعد باب تركيا المؤدي إلى الغرب، حيث تعين هناك إماما في جامع «أُج شَرَفَلي»، حيث قضى في هذا الجامع سنتين

ونصف السنة في جو من الزهد ورياضة النفس، وقد فضل البقاء والمبيت في الجامع وعدم الخروج إلى الشارع إلا للضرورة. ولم يكن هناك مكان صالح للمبيت في الجامع، مما اضطره إلى فرش فراشه البسيط والمتواضع على صحن إحدى النوافذ الكبيرة للجامع والمبيت هناك.

ثم جاء موعد أداء الخدمة العسكرية فأداها في (ماماك) و(اسكندرون). ثم رجع إلى (أدرنة) ومنها إلى (كركلار ألي). وفي سنة ١٩٦٦ ساقه القدر إلى (إزمير). وبينما كانوا يدعونه في (أدرنة) بـ(الشيخ الارضروملي)، نرى أنه عندما ذهب إلى (أرضروم) أصبح لقبه (الشيخ الأدرنلي). ولكن عندما حل في (إزمير) أصبح معروفا بـ(الشيخ فتح الله).

بدأ عمله في إزمير في مدرسة تحفيظ القرآن (كستانه بازاري) ثم كواعظ متجول، فطاف في جميع أنحاء غربي الأناضول. وعندما حل عام ١٩٧٠ بدأت أيام (المخيمات)... كانت هذه أيام نذر فيها نفسه لخدمة ربه ودينه ووطنه والإنسانية بالقيام بتربية وتنشئة النفوس على طاعة الله والعبودية له. كانت العقول والقلوب والأحاسيس الباطنية الخفية تمتلئ هنا بالمعاني العميقة، كانت النفوس وكأنها تستيقظ من سبات الموت وتُبعث من جديد من وراء ماض سحيق... كان الفارس الذي كثيرا ما صور بطولاته ووصفه في أشعاره ومقالاته... الفارس الذي رثاه وذرف عليه الدموع... الفارس ذو النظرات الحديدية الحزينة النافذة والقلب الحزين المهموم، الذي صوره وهو يصعد بفرسه الأشهب سفح جبل على الرغم من تعبه حتى يقف قلب فرسه من الإرهاق ويقع الفارس من فوق فرسه على الأرض، فيتجمعون عليه ويكومون عليه الحجارة والصخور كي لا يقوم من مكانه أبدا... كان هذا الفارس الذي تضطرب البراكين في صدره، والذي ثمل روحه بالأحزان، وقلبه بالأتراح ونفسه بالعواطف العميقة... كان هذا الفارس قد عاد من جديد... لم يكن يحمل هذه المرة سيفا من حديد ولا مسدسا في يده... بل عاد وهو يحمل السيف الماسي لحقائق الإيمان... سيف العلم الياقوتي، وزبرجد العشق والشوق، ومرجان الفكر ولؤلؤه... والعبودية اللانهائية لله تعالى، وعاطفة العجز والفقر أمامه.

في ١٢ مارت من سنة ١٩٧١ اعتقل الشيخ فتح الله، بعد الإنذار العسكري الموجه إلى الحكومة آنذاك، وذلك بتهمة: (محاولة تغيير الأسس الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للنظام، واستغلال الشعور الديني للشعب، وذلك بالقيام بتشكيل جمعية سرية للوصول إلى هذا الهدف)، ودام اعتقاله ستة أشهر، وهي المدة التي انقضت في محاكمته، تم بعدها إطلاق سراحه، وعاد إلى وظيفته بعد صدور قانون العفو العام.

أرسلوه أول الأمر إلى مدينة (أدرميت)، ثم نُقل منها إلى (مانيسا) ثم إلى (بورنوفا) في إزمير، حيث بقي هناك في وظيفته هذه حتى شهر أيلول من سنة ١٩٨٠ . في هذه السنوات كان يجوب البلاد طولا وعرضا، ويلقي المواعظ والمحاضرات العلمية والدينية والاجتماعية والفلسفية والفكرية، ويعقد الندوات والمجالس الخاصة التي كان يجيب فيها على الأسئلة الحائرة التي تجول في أذهان الشباب، ولاسيما من خريجي الجامعات، والشبهات التي تدور في عقولهم، فكانت الأجوبة التي يعطيها في هذه المجالس والندوات ينير أذهان الجميع من طلاب أو أساتذة أو أرباب التجارة والأعمال الحرة أو العمال والكسبة، وهذا أدى إلى التفاف العديد من الأفراد حوله من جميع الأصناف والمهن، وقيامهم بأداء الخدمات الدينية والإنسانية والوطنية في ضوء إرشاداته ونصائحه.

قامت هذه الفئة – دون انتظار اي نفع دنيوي أو مادي من أحد – وضمن إطار القوانين المرعية في تركيا بإنشاء العديد من المدارس والأقسام الداخلية ومدارس تهيئة الطلاب لدخول الجامعات. وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي انتشروا في العالم بأسره تقريبا، ولاسيما في بلدان آسيا الوسطى. وبينما كان العديد من البعيدين عن أداء الخدمات الإيجابية يغرقون في مناقشات لمسائل فرعية لا أهمية لها كالنقاش حول (دار الاسلام ودار الحرب) فإن جواب الشيخ فتح الله: (إن تركيا هي دار الخدمة) حسم الأمر، وانتشرت هذه الخدمة إلى الدنيا بأسرها تقريبا. وأصبح هناك جيل يؤدي خدمة صامتة لايروم من ورائها أي أجر أو نفع دنيوي، بل (لكي لايشوب إخلاصهم أي شئ) نراهم لايبغون من ورائها حتى أي منزلة معنوية، شعارهم الحب والصبر، لا وقت لديهم للخصومة يهمهم التعاون والتساند والعمل الإيجابي، لايقابلون الإساءة بالإساءة.

وسرعان ماشملت خدماتهم ساحات ومجالات أخرى، فبدأوا بإصدار الصحف والمجلات وإنشاء محطة إذاعة ثم محطة تلفيزيون، وأصبحوا محط الأمل والرجاء بإذن الله.

نسيم الحب والفهم والمرونة والحوار

بدأ الشيخ فتح الله – ولاسيما منذ عام ١٩٩٠ – بحركة رائدة في الحوار والفهم والمرونة البعيدة عن التعصب والتشنج، ووجدت هذه الحركة صداها في تركيا أول الأمر، ثم في خارجها، حتى وصلت الحركة إلى ذروتها في الاجتماع الذي تم عقده في الفاتيكان بين الشيخ فتح الله وبين البابا إثر دعوة البابا له. لقد آمن الشيخ فتح الله بأن الثورة التي تمت في وسائل الاتصالات حولت الدنيا إلى قرية عالمية، لذا فإن أي حركة قائمة على التعصب والخصومة والتنافر لن تؤدي إلى أي نتيجة إيجابية، وإن أي حدث أو تحول في أي جزء من العالم قد يؤثر على العالم بأسره، لذا وجب الانفتاح على الجميع مهما كان فكره أو عقيدته

أو مبدأه. وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي وحلف وارشو رأى أن النظم التي تحكم العالم وضعت الإسلام والمسلمين في خانة الاعداء الضعفاء الذين يجب محاربتهم، وإن هذا قد يدفع البعض إلى الحدة بل إلى الارهاب... كانت هذه النظم تسمي الجهاد بغيا والحرب سلاما والظلم عدلا والحقد حبا.

لذا بدأ بالدعوة الى فتح باب الحوار والمسامحة في المجتمع التركي الذي تحاول قوى عديدة تمزيقه بالخلافات العنصرية والقومية والمذهبية والطائفية والفكرية، ثم نشر الدعوة إلى الحوار والمسامحة إلى جميع الأماكن التي يمكن الوصول إليها خارج تركيا كذلك.

مؤلفاته:

هناك عظماء يكونون منظّرين جيدين، ولكنهم يفشلون عندما يحاولون تطبيق نظرياتهم في الواقع العملي. وهناك رجال دعوة وحركة ونشاط، ولكنهم لايملكون المعرفة الكافية ولا البصيرة النافذة. وهناك رجال دولة وإدارة، أو أصحاب اختصاص في الاستراتيجية وفنون المناورة فقط. هناك العديد ممن يتفوقون ويكونون زعماء أو في الصفوف الأولى من بعض شعب الحياة، ولكن لايملكون حظا في الساحات الأخرى. منهم الكتاب أو الشعراء أو الفنانون أو رجال العلم أو الخطباء أو الفلاسفة، ولكنهم لايكونون رجال حركة تغيير وتحويل وتبديل. هناك رجال يشغلون الصفوف الأولى في علم الاقتصاد أو السياسة أو يكونون قوادا عسكريين عباقرة، ولكن عندما يكون الموضوع موضوع دين وأخلاق تراهم يضطرون للصمت. كذلك هناك الكثير ممن يصرفون كل طاقاتهم في مسائل الدين والأمور المعنوية والأخلاقية، ولكن يكون باعهم قصيرا في المسائل الاقتصادية والاجتماعية. والخلاصة إن عالمنا شهد رجالا عظاما كثيرين في عمره الطويل، ولكن آثارهم انحصرت في ساحة معينة ولم تستطع إجراء التأثير الكافي. ولكن في مقابل هذا عندما يذكر الشيخ «فتح الله گولن» لايخطر على البال كتبه أو مواعظه أو محاضراته أو شرائط خطبه المسموعة أو خطبه على شرائط الفيديو، ولكن يخطر على البال أيضا ما يسميه بـ«جيش النور» أو «جنود الحق» الذين نهلوا من منهله الثر وعُدوا أثرا من آثاره. ولايمكن أن ينظر الانسان إلى جنود الحق هؤلاء بمعزل عن المؤسسات التي نشروها ونثروها في أرجاء العالم.

ولكن إن أحببت أن تعرفه ككاتب وكفنان فإننا ندرج أدناه آثاره باختصار:

١ ـ الآلاف من شرائط الكاسيت وشرائط الفيديو المحتوية على خطبه ومواعظه ومحاضراته وندواته.

٢- الأسئلة الحائرة التي أفرزها العصر (٤ أجزاء): وتحتوي على الأجوبة التي أعطاها للأسئلة الموجهة إليه في أوقات مختلفة، ثم تم جمعها في هذه المجلدات.

٣- الموازين أو أضواء على الطريق (٤ أجزاء): وهي عبارة عن موازين للعقل والروح في مواجهة معترك الحياة، وموازين للسلوك وحِكَم.

٤- (العصر والجيل)، (الإنسان في تيار الأزمات)، (نحو الجنة المفقودة)، (الصفحة الذهبية للزمن)، (أنفاس الربيع)، و(عندما نقيم معبد روحنا): وهذه الكتب الخمسة هي مجموعة مقالاته التي نشرها طوال سنوات عدة في بعض المجلات الشهرية أو الفصلية.

٥- النور الخالد: مفخرة الإنسانية محمد ﷺ (٣ مجلدات): وهي عبارة عن مجموع محاضراته التي ألقاها حول السيرة الطاهرة لخاتم الأنبياء ورحمة الله تعالى للعالمين محمد ﷺ.

٦- في ظلال الإيمان (مجلدان): وهو كتاب يحتوي على الأدلة التي لايمكن جرحها حول حقائق الإيمان.

٧- تلال القلب الزمردية: وهو عن الحياة الروحية للقلب النابعة من الإسلام، وعن الاصطلاحات الصوفية الرشيدة.

٨- براعم الحقيقة في جيل الألوان (مجلدان): مختارات من أشعاره ومقالاته، ثم تقييم قد يكون للمرة الأولى في الأدب العالمي - لبعض الصور الجميلة التي تسر النظر والناظرين.

٩- تأملات في سورة الفاتحة: وهو عبارة عن دروس في التفسير ألقاها على بعض طلبة العلوم الشرعية.

١٠- من فصل لفصل (٣ مجلدات): عبارة عن مسامراته وأحاديثه في حلقات خاصة كان يعقدها للمقربين منه.

١١- المنشور (مجلدان): وهما عبارة عن أحاديثه ضمن ندوات ومسامرات وأجوبة عن الأسئلة الموجهة إليه عن مختلف المواضيع.

١٢- الجهاد: إعلاء كلمة الله: وهو شرح للجوانب العملية والنظرية لموضوع الجهاد في ظروفنا الحالية.

١٣- الحياة بعد الموت: وهو يتناول الآخرة من جوانبها العديدة.

١٤- القدر في ضوء الكتاب والسنة: وهو بحث في القدر من جوانبه المختلفة.

١٥- محور الإرشاد: وهو شرح عن كيفية القيام بفعاليات ونشاطات الإرشاد في عصرنا الحالي.

١٦- البُعد الميتافيزيقي للوجود (مجلدان): وهو يتناول حقيقة وجود وماهية الروح والجن والملائكة بالادلة العلمية والعقلية والنقلية.

١٧- ريشة العازف المكسورة: وهو ديوان شعره.

طبع من كل كتاب من كتبه هذه داخل تركيا بمعدل سبعين ألف نسخة، وترجم بعض كتبه إلى اللغات الأخرى:

ترجمت كتبه الآتية إلى الإنجليزية:

(النور الخالد)، (في ظلال الإيمان)، (الحياة بعد الموت)، الجزء الأول من (الأسئلة الحائرة التي أفرزها العصر)، الجزء الأول من (براعم الحقيقة)، الجزء الأول من (الموازين)، (التلال الزمردية للقلب) و(نحو الجنة المفقودة).

وترجمت كتبه الآتية إلى اللغة الألمانية:

المجلد الأول من كل من: (النور الخالد)، (في ظلال الإيمان)، (الحياة بعد الموت)، (الموازين)، (الأسئلة الحائرة)، وكتابه (نحو الجنة المفقودة).

كما ترجم كتابه (في ظلال الايمان) إلى اللغة البلغارية. وديوانه (ريشة العازف المكسورة) ومختارات من كتابه (الأسئلة الحائرة التي أفرزها العصر) إلى اللغة الألبانية، والجزء الأول من كتابه (الأسئلة الحائرة) إلى اللغة الروسية.

أما كتبه المترجمة إلى العربية والتي تنتظر الطبع فهي:

١- القدر في ضوء الكتاب والسنة.

٢- الموازين، أو أضواء على الطريق.

٣- مختارات من كتاب (الأسئلة الحائرة التي أفرزها العصر)

٤- الجهاد: أو إعلاء كلمة الله.

وسيتم إن شاء الله ترجمة كتبه الأخرى إلى اللغة العربية وطبعها كلما تيسر ذلك.

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

إن تسليط الأضواء على شخصية الرسول محمد ﷺ السامية، وشرحها وبيانها، ثم تقديمها كمنقذ للبشرية، وكإكسير للمشاكل المستعصية على الحل، وللأمراض غير القابلة للشفاء، وإظهار هذه الشخصية السامقة وسيرتها بما هي أهل له كان رغبة ملحة لدي -كما هي عند كثيرين- وهاجساً من هواجس فكري ومشاعري، وموضوعاً مهماً من المواضيع التي لا سبيل للوقوف أمام سحرها وجاذبيتها أو الفكاك منها.

إنه ﷺ فخر للبشرية جمعاء... فمنذ أربعة عشر قرناً يقف وراءه أكبر الفلاسفة وأعظم المفكرين وأشهر العباقرة وأذكى رجال العلم الذين زينوا سماء الفكر عندنا.. يقفون وراءه خاشعين قد عقدوا أيديهم أمامهم وهم يخاطبونه ويقولون: "أنت الإنسان الذي نفخر بانتسابنا إليه."

ويكفي للاستدلال على مدى عظمته بأنه على الرغم من كل عوامل الهدم والنخر التي أصابت عصرنا، فنحن لا نزال نسمع من فوق المآذن أصداء نداء "أشهد أن محمداً رسول الله"، ولا نزال نشاهد كيف أن الروح المحمدية تفتح في كل مكان آفاق السمو نحو الأعالي، فيغمرنا الوجد والشوق خمس مرات كل يوم في عالم الروح. ونستطيع أن نشير إلى دليل عظمته فنقول بأنه على الرغم من كل هذا العمل المتواصل لأعداء الله في الداخل والخارج في الإفساد والإضلال، فإننا نرى حتى في هذه الأيام كيف أن العديد من الشباب في عمر الزهور -رغم عدم إحاطتهم التامة بالحقيقة الأحمدية التي ليس من اليسير

معرفة مفاهيمها الدقيقة والصعبة– يتراكضون نحوه، ويحومون حوله مثلما تحوم الفراشات حول النور. وهذا أمر فريد لا نجد له مثيلاً في العالم؛ فالزمن لم يستطع أن يمحو من قلوبنا ومن صدورنا أي حقيقة من الحقائق العائدة له ﷺ، ولا أن يبليها... أجل، فهي حقائق غضة ندية ونضرة على الدوام. وكما قلت لإخواني مراراً إنني عندما أذهب إلى المدينة المنورة أجد رائحته العطرة محيطة بي إلى درجة تشعرني وكأنني سأقابله بعد خطوة واحدة، وكأن صوته الشجي الذي يحيي القلوب يقول لي: "أهلاً وسهلاً.. ومرحباً."

أجل، إنه حي ونضر في صدورنا إلى هذه الدرجة، فكلما تقادم الزمن ازداد نضارة وطراوة وحيوية في قلوبنا.

إن الزمن يتقادم ويشيخ، وإن بعض المبادئ والأفكار تتعفن وتتهاوى، أما منزلة الرسول محمد ﷺ فستبقى متفتحة في الصدور كأكمام الورود العبقة أبد الدهر، وستبقى نضرة في القلوب على الدوام.

وأنا أرى لو أننا اهتممنا واعتنينا بتقديمه والاهتمام به مثلما فعل الآخرون في تقديم شخصياتهم، ولو أن المؤسسات العلمية والمؤسسات الأخرى المتعلقة بشؤون الحياة نذرت نفسها للاهتمام به وشرحه وتوضيحه وبيان جوانب شخصيته، لما تَربّع على عرش القلوب غيره، ولما تخلل في الضلوع والصدور سواه.

ولكن مع كل هذا، وعلى الرغم من كل شيء يهرع الكل من شرق الدنيا وغربها حاملاً معه دلوه، مسرعاً نحو نبعه الصافي الفياض.. نحو المنهل العذب المورود، يحدوه الوجد والهيام ليبلغ قبته.. قبة الإنسان الذي يضع التيجان على هامات الشموس.

أجل، إننا نشاهد في جميع أنحاء العالم –ولاسيما في أمريكا وإنكلترة وفرنسا وألمانيا– انبعاثاً جديداً لمنهجه ﷺ، وحركة دائبة من قبل المسلمين لشرح وبيان مبادئه، ونسج نسيجه المزخرف ذي النقوش البديعة والألوان الجميلة المتناسقة، فكأنهم يعيشون روح عهد النبوة من جديد. ونرى الأمر نفسه في العالم الإسلامي.. فقبل قرن أو قرنين كان

هناك أناس يشعرون بارتباطهم مع المسلمين عن طيب قلب دون تدقيق أو تمحيص، أما الآن فهنـاك مثقفون يعرفون لماذا يؤمنون بالإسلام، ولماذا يقتدون بالرسول محمـد ﷺ؛ لأنهـم بدأوا بتحليل المسائل الإسلامية تحليلاً علمياً دقيقـاً. فحتى الآن استغل أعـداؤه الجامعات والكليات والمدارس والطبقة المثقفة، وخدعوها بشعارات براقة، واستخدموا المؤسسات الوطنية لحساب الكفر والضلال، ولكن كل هذه الأمور آذنت بالانتهـاء، وبدأت تتفتت وتذوب وتضمحل مثل جبال الثلج الطافية على المياه، وبدأت الإنسانية تتجه نحو رسول الله ﷺ وتقبل عليه.

أما الذين غيّروا مذاهبهم وأفكارهم مرات ومرات منذ سنوات عديدة، وانتقلوا من هذا المبدأ إلى ذاك، ومن هـذه الإيدولوجية إلى تلك، فقد رأى هؤلاء كيف باءت محاولاتهم هذه بالفشل والخذلان، ورأوا أن المدرسة الوحيدة التي لم يقربها الخذلان هي مدرسته ﷺ، وأن سبيله وطريقه هو الصراط المستقيم، فاتجهوا إليه وأقبلوا عليه.. هكذا فعل "موريس بوكاي (Maurice Bucaille)"، وهكذا تصرف "روجه غارودي (Roger Garaudy)"، وغيرهم وغيرهم.[١]

ولكن هل استطعنا أن نفهم الرسول ﷺ سلطان القلوب المتربع على عرش الأفئدة حق الفهم، وندركه حق الإدراك؟

ولكن ما بالي أشير إليكم، أو أعنيكم؟ ما بالي أنا؟ هل استطعت أن أشرح جوانب عظمته كما يجب، وأكشف معالم شخصيته كما ينبغي؟ أنا الذي أضع جبهتي للصلاة منذ الخامسة من عمري، وأنا الذي أدّعي أنني وضعت الطوق حول عنقي لكي أكون "قطميرا"[٢] له. هل استطعت أن أشعركم بما يجيش في صدري من عظمة النبي ﷺ كما يليق بجوانب هذه العظمة؟ إنني أسائل نفسي وأسائل جميع الذين يتصدون للتبليغ

---

(١) وغير هؤلاء كثيرون ممن آمن بكل قلوبهم بالإسلام، أمثال "ليوبولد فايس (محمد أسد)" و"كولن تورنر" وغيرهم. (المترجم)

(٢) **القطمير**: هو اسم كلب أهل الكهف. (المترجم)

والدعوة: هل استطعنا أن نشرح لإنسان هذا القرن حبه.. حب سيد السادات حباً تجيش به القلوب؟ هل استطعنا أن نبهر القلوب والأرواح بهذه العظمة، عظمته ﷺ؟

كلا! فلو عرفته البشرية حق المعرفة، وفهمته حق الفهم لهامت به حباً ووجداً.. ولو تغشت الأرواحَ ذكراه الجميلة، لثارت أشواقها وفاضت عيونها بالدموع، ولاقشعرّ جلدها وهي تخطو إلى عالمه.. عالم النبوة الطاهر، ولألقت بنفسها للريح كي تشعل جذوة قلوبها المتقدة بحبه بعدما صارت رماداً، فتذروها الريح نحوه ﷺ.

ولأن الإنسان يحب بمقياس إدراكه وفهمه، ولأنه عدو ما يجهل.. فإننا نرى أن البؤرة التي تتجمع حولها محاولات أعدائنا على الدوام ومؤامراتهم، هي بذل الجهود لإقصائه ﷺ عن القلوب، وإهمال ذكره، وتنشئة الأجيال الجديدة على عداوته وبغضه، وتوجيه وتربية هذه الأجيال وتعليمها في هذا الاتجاه.

ولكن انظروا إلى هذا التجلي الإلهي.. فجميع العقبات والسدود والموانع التي وضعها خصومنا لكي يمنعوا حبه ﷺ من القلوب، ويزيلوا ذكره من العقول، قد انهارت جميعها وتهدمت وأزيلت وتجاوزتها الإنسانية، وبدأ الشباب يهرع إليه بكل فرح وحبور، كفرح ظمآن في صحراء موحشة وجد بالقرب منه ماء سلسبيلاً بارداً بعد أن قاسى آلام العطش والظمأ أياماً عديدة. ولا شك أن قلباً رحيماً مثل قلبه ﷺ لا يَردّ أبداً من يقبل عليه بكل هذا الشوق وبكل هذا الوجد والعشق، بل يحتضنه بكل حنان وشفقة، ويضمه إلى صدره.

لا أدري إن كنتم انتبهتم إلى الناس الذين يملؤون المساجد على سعتها أيام الجمع؟ فلو دققتم النظر لرأيتم أن معظمهم من الشباب.

فيا ترى ما الذي يدفع هؤلاء الشباب في برد الشتاء القارس، وفي المطر والثلج إلى الجوامع وإلى الوضوء وأسنانهم تصطكّ من البرد؟ من يدفع هؤلاء على الرغم من محاولة أرباب الضلالة والطغيان جذبهم نحوهم بقوة لا تقاوم؟ سأجيبكم أنا: إنها قوة الجاذبية القدسية للرسول محمد ﷺ.

وسواء استطاعت عقولنا أن تفهم وتستوعب هذه الحقيقة، أو عجزت عن ذلك، فإن القلوب دائما ترف حول هذه الشمعة وتطوف حول هذه الشمس. وفي المستقبل القريب سوف يتجرع مرارة الألم ولوعة الندم من فاتته المسارعة إلى رحابه، والتوجه إلى جنابه ﷺ، ومن لم يقف في صفه، وبقي متشرداً، بائساً، وحيداً، منفرداً مثل ذبابة الشتاء... سيتأوه من الألم، وسيعض أنامله حسرة وندما قائلا: "لِم لم أتوجه إليه وأحُمْ حوله كالفَراش؟" وحينذاك قد يكون الوقت متأخراً ومنتهياً بالنسبة للكثيرين منهم.

سيهرع العالم والدنيا إليه، وستدفقه المحافل العلمية، وستسير وراءه كل نفس متفتحة على عالم الفكر، وسيتحول العديد من أعدائه إلى أخلص محبّيه وأتباعه، ويهرع إليه ليلوذ به. بل إن منزلة الرسول الكريم بدأت ترجح في كفة ميزان الطرف الخصم حتى بمقاييسه وبموازينه، وبدأت الأوساط المعادية له تقر وتعترف بعظمته. وقد ورد في الحديث بأن الرسول ﷺ وزن بعشرة من أمته فرجَحهم، ثم وزن بمائة فوَزَنهم، ثم وزن بألف من أمته فوزنهم، فقال المَلَك لصاحبه: "دعه عنك فلو وزنته بأمته لوزنها."[1] وجاء هذا المعنى في حديث آخر كذلك.[2]

أجل، فلو وُضع الصحابة والتابعون وتابعو التابعين وأكبر الناس وأعلمهم حتى يوم القيامة، وجميع المتصوفة والزهاد الذين فتحوا القلوب ونفذوا إليها، وكل الأولياء والأصفياء، وكل الأبرار والمقربين في كفة، ووضع محبوب قلوبنا وسلطانها، وضياء عيوننا ونورها في كفة لرجحهم جميعا، ذلك لأنه هو سبب الوجود وحكمته.

فهو علة الكون والكائنات. وهناك قول مشهور يتردد على ألسنة الكثير من الناس: «لولاك لولاك ما خلقتُ الأفلاك.»[3] أجل، فمن العبث كتابة كتاب لا يمكن فهم معناه، والله ﷻ منزّه عن العبث، لذا فهناك حاجة إلى مرشد جهوري الصوت مثل سيدنا

---

(١) الدارمي، المقدمة، ١٣؛ «المسند» للإمام أحمد ١٨٤/٤؛ «الشفاء» للقاضي عياض ١٧٣/١

(٢) «المسند» للإمام أحمد ٧٦/٢

(٣) «كشف الخفاء» للعجلوني ١٦٤/٢

محمد ﷺ سيد الزمان والمكان لكي يشرح معنى الوجود، ومعنى الكون والكائنات. كذلك هناك حاجة إلى شارح وإلى مبلغ مثله لكي يشرح لهذا الإنسان الذي سخرت له هذه السماء الواسعة والأرض والشمس والقمر والنجوم وكل الوجود.. يشرح له من أين أتى وإلى أين هو كادح وإلى أي شيء هو مرشَّح؟ أجل، لكي يعلن ويوضح هذا، ويوصل ما وراء أستار الوجود إلى الأرواح. فلو لم يكن موجوداً لما كان للكون ولا للإنسان أي معنى، لأن الرسول محمدا ﷺ هو الإنسان الذي أسبغ المعاني على الأشياء.

هو أقرب وأحب إلينا من كل المحبوبين. ومع أنني أعدّ نفسي أكثر المؤمنين قصوراً وذنباً، إلا أنني لا أملك نفسي من شرح إحدى مشاعري.. وغايتي من هذا الشرح هو لكي أبين: إذا كنت أستطيع أن أحب رسول الله كل هذا الحب، فما بالك بالقلوب والأرواح الواصلة إلى مراتب عُليا في حبها لهذا الرسول الحبيب، وكيف تشتعل هذه القلوب بعشقه ووجده؟ لذا، أودّ أن يتم تقييم شرح مشاعري من هذه الزاوية، وإلا فإن أدبي كان يمنعني من طرح مشاعري في حضوركم:

عندما مَنّ عليّ الله ﷻ بزيارة الأراضي المقدسة لكي أعفر وجهي بترابها بدت لي بلدة رسول الله مضيئة ونورانية، إلى درجة أنني ذقت معها سعادة روحية غامرة، وفرحا لا يوصف، بحيث أنني شعرت بأنه –على فرض المستحيل– لو فتحت لي حينذاك أبواب الجنة كلها، ودعيت للدخول إليها.. أجل، لو تم هذا، فصدقوني بأنني كنت سأرفض دخول أي باب من أبواب الجنة، بل كنت أختار وأفضّل البقاء هناك.

والحقيقة أن الجنة أملنا جميعا، ومن الصعب تصور أن هناك مسلماً واحداً لا يرغب في الدخول إليها.. ألا نبتهل لله ﷻ كل صباح وكل مساء في أدعيتنا أن يجيرنا من النار وأن يدخلنا جنته؟ ومع اعترافي بهذا وقبولي له، فإنه لو عرضت عليّ تلك المرتبة العليا، ودُعيت لها، لربما استأذنت ربنا أن يسمح لي بالبقاء في الروضة الطاهرة لرسول الله ﷺ. ولا يذهبن الظن بأحدهم بأنني أرى نفسي لائقاً لتلك المرتبة العليا، بل إنني أردت فقط إظهار مدى حبي لرسول الله ﷺ، وإلا فإنني قضيت حياتي أدعو الله أن ينيلني شرف

الخدمة لأصغر صحابي من صحابة رسول الله ﷺ، وكان ابتهالي من الله تعالى أن لا يُبعد فكرنا لحظة واحدة من أمنية تعفير وجوهنا بتراب أرجلهم، وكان الكثير من الأوراد التي يكررها لساني على الدوام تحمل هذه المعاني.

وجاشت المشاعر نفسها عندي في بيت الله، وقد تكون هذه المشاعر مشاعر مشتركة لدينا جميعاً. ثم إن من يحمل هذه المشاعر غير محصور فيَّ وفي أفراد قلائل، فكم وكم من ذائب في عشق رسول الله ﷺ تُعدّ هذه المشاعر بالنسبة له مشاعر بدائية وخشنة.

وما دمنا وصلنا إلى هذا الموضوع من الحديث فإنني أود أن أسوق ذكرى أخرى من ذكرياتي:

كنا في الحج معاً مع السيد "عارف حكمت"، وكان آنذاك نائباً في المجلس الوطني، وكان قد قطع عهداً على نفسه أن يتمرغ في تراب المدينة المنورة حالما يصل إليها.. وما أن وصل إليها حتى ألقى هذا الرجل الفاضل نفسه على التراب، وبدأ يتقلب ويتمرغ في ترابها. فكلما تذكرت هذه الحادثة امتلأت عيوني بالدموع.

إن رسول الله نبي، ولكنه نبي بَشّر به جميع الأنبياء السابقين. فقد أخذ الله ميثاق النبيين جميعاً لَيؤمنُنّ به ولينصرنه: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لَمَا آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدِّق لِما معكم لتؤمنُنَّ به ولتنصرُنَّه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصْري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾ (آل عمران. ٨١).

وقد التزم جميع الأنبياء بهذا العهد الذي قطعوه لله ﷻ وعاشوا لتحقيق هذا العهد، وكان نشاطهم منصباً في هذا الاتجاه. وعندما عرج برسول الله ﷺ إلى السماء صلّت أرواح هؤلاء الأنبياء وراءه.[1] أجل، فكأن جميع الأنبياء وفي مقدمتهم النبي إبراهيم عليه السلام ونوح عليه السلام وموسى عليه السلام وعيسى عليه السلام كانوا يريدون أن يكونوا مؤذّنين عنده. يقول عيسى عليه السلام في الإنجيل: [إنني ذاهب لكي يأتي سيد الزمان.] (يوحنا - الباب: ١٦، الآية: ٨)، أي

---

(١) انظر: «جامع البيان» للطبري ١٥/٥؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٣/١٣٩

كان يلفت أنظار الإنسانية إلى هذا النبي العظيم.

أجل، فعندما عرج إلى السماء امتلأت حجور السموات باللآئي والجواهر، وفُرشت النجوم تحت قدميه كأحجار الرصيف.. وعندما وصل إلى أفق الشمس تمنّت الشمس أن تكون جوهرة على تاجه.. كل هذه الموجودات كانت تطوف وتدور حول نبوته.

ثم إنه كان يمثل الصفات الإنسانية في ذروتها ليكون قدوة وأسوة حسنة لنا. فمثلاً كان رئيس عائلة مثالي، وفي ذلك البيت حيث كان إكسير النبوة يتقطر فيه قطرة قطرة، لو توزّع كل ولد من أولاده الناشئين فيه للعصور، لنشأ منهم مجتهدون ومجددون ينير كل منهم عصره. ولا أدري كم من الناس نجح في معرفته من هذه الزاوية.

كان في الوقت نفسه قائداً عسكرياً لا يشق له غبار. فبواسطة نفر من أصحابه الذين تحلّقوا حوله كما تتحلق الهالة حول القمر أهوى عروشاً لسلاطين جبابرة كانوا قد أعلنوا الحرب على العالم بأسره، ودخل ملوك عظام في إسار حبه.. إسار لا يريد الفكاك عنه، مع أنه إن أخذنا بظاهر الحال فإنه لم يدرس علم الحرب وفنونها، ولم يتعلمها من أحد.

ثم إنه الشخص الذي تنتهي عنده العلوم. فكأنه جالس أمام شاشة يشاهد جميع الحوادث حتى يوم القيامة، ثم يخبر عنها.[١] ومع أن عصوراً عديدة مرت منذ ارتحاله إلى دار البقاء، ففي المحطة الأخيرة التي وصلت إليها البحوث والتقنية المعاصرة بكل إمكانياتها الهائلة، نرى الراية التي ثبتها رسول الله ﷺ قبل أربعة عشر قرناً ترفرف في السماء، ونرى الذين هداهم الله ﷻ ينطقون بالشهادتين، ويكوّنون حلقة من الحلقات المضيئة لقافلة الإسلام. إليكم مثالاً واحداً من أمثلة لا تعد ولا تحصى:

ففي شريط فيديو شاهدتُ البروفسور الكندي "كيث مور (Keith Moore)" أستاذ التشريح في كلية الطب في جامعة تورونتو (Toronto) والمتخصص في علم الأجنة وهو ينبهر بما ورد في القرآن الكريم حول مراحل نموّ الجنين في بطن أمه، هذه المراحل التي لم

---

(١) انظر: البخاري، القدر، ٤؛ مسلم، الفتن، ٢٢-٢٥؛ أبو داود، الفتن، ١؛ «المسند» للإمام أحمد ٤/١؛ ٣٨٦/٥

يكن في الإمكان اكتشافها إلا بعد التطور التكنولوجي الحالي.

كما شاهدتُ عالماً فيزيولوجياً يابانياً وهو يتلفظ بكلمة الشهادة بصعوبة، ودخل بكل اطمئنان ورضا إلى صفوف المسلمين بعدما رأى وسمع الآيات القرآنية المتعلقة بساحة اختصاصه.

أجل، فكما هو ظاهر فالقرآن الكريم يفتح المنافذ أمام العلم كلما انسدّت السبل أمامه، وإن نقطة النهاية للعلم هي نقطة البداية عند رسول الله ﷺ، ولكن من علّمه كل هذا؟ لقد أخذ درسه من الله "العليم" "الخبير". فوراء هذه المعارف هناك المعلم الأزلي، ومن ثم فإن المعارف التي استقاها لم تتعرض للقِدم والبِلى، بل اكتسبت شباباً وحيوية ونضارة كلما تعاقبت عليها العصور، وستتجدد على الدوام ما دامت السموات والأرض.

ثم إنه ﷺ كان محبوباً من أصحابه وأصدقائه حباً لم يكن من نصيب أحد. فمثلاً عندما أحضر الكفار الصحابي خُبيب بن عدي رضي الله عنه بعدما أسروه عقب غزوة "ماء الرجيع" سألوه قبل إعدامه: "أتشتهي أن يكون محمد مكانك وتكون أنت آمناً في بيتك؟" فأجابهم: "لا والله، لا أحب أن يشاك شوكة في قدمه وأنا في موضعي هذا." وبعد هذه الإجابة الشجاعة رفع يديه ودعا قائلاً: "اللهم إنا قد بلّغنا رسالة رسولك فبلّغه الغداة ما يُصنع بنا" ثم دعا على الكفار: "اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بَدَداً ولا تغادر منهم أحداً." ثم قتلوه رحمه الله.[1]

وقد تلقى الرسول ﷺ هذا السلام، وأبلغ أصحابه باستشهاد خُبيب وهو في غاية التأثر، إذ يروي موسى بن عُقْبة أن خُبيباً وزيد بن الدَّثِنَة رضي الله عنهما قُتلا في يوم واحد، وأن الرسول الله ﷺ سُمع يوم قُتلا وهو يقول: «وعليكما -أو عليك- السلام، خُبيب قتلته قريش.»[2]

---

(١) البخاري، المغازي، ١٠؛ «المسند» للإمام أحمد ٢٩٤/٢؛ «السيرة النبوية» لابن هشام ١٨٢/٣

(٢) «البداية والنهاية» لابن كثير ٧٦/٤؛ «حياة الصحابة» للكاندهلوي ٥٢٤/١-٥٢٥

وهاكمْ مشهداً آخر يشرح قلب كل مؤمن رغم مرور الدهور وتعاقب العصور:

عندما سمعتْ الصحابية سُميراء في معركة أُحد أن رسول الله قد استشهد، أسرعت إلى سفح جبل أُحد، وهناك أروْها جثث أبيها وزوجها وأولادها، ولكنها لم تلق بالاً لذلك، بل كانت تبحث عن رسول الله، وتسأل على الدوام: "ما فعل رسول الله؟" وعندما أشاروا لها أخيراً إلى مكان رسول الله هرعت إليه، وألقت بنفسها على الأرض أمامه قائلة: "كل مصيبة بعدك جَلَل!"[1][2] إذن، فهكذا تَربّع حب رسول الله في القلوب والصدور.

وإليكم مثالاً آخر يظهر مدى حب الصحابة للنبي ﷺ:

كان رسول الله وفخر العالمين قد أبلغ بقرب رحيله إلى الرفيق الأعلى، فكأنه استلم دعوة من وراء السموات بذلك.. إذن، فقد حان وقت فراقه عن أحبائه وأصحابه الذين جاهدوا معه طوال ثلاث وعشرين سنة، لذا كان يخرج للقاء أصحابه حزيناً في أيامه الأخيرة. وكان الصحابة يتأثرون من حاله هذه ويحزنون، وصدورهم تمور بالحزن والأسى كلما رأوا رسول الله ﷺ يدخل بيته. وكان رسول الله ﷺ قد أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن ليبلّغ رسائل النبي ﷺ وأوامره وتعليماته، وعندما يرجع من اليمن يعرض على رسول الله ما رآه من أمور وأحداث وما قابله من مشاكل. وقبل سفره الأخير ذهب إلى رسول الله ليأخذ دعاءه قبل التوجه إلى اليمن، ولكنه سمع رسول الله ﷺ وهو يقول له: «يا معاذ! إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدي وقبري.»[3] فكأن صاعقة نزلت على رأس معاذ.. شعر كأنه طير قد قُصّت جناحاه.. وانهمرت الدموع من عينيه.

---

(١) معنى جلل هنا: هين أو صغير. (المترجم)

(٢) «مجمع الزوائد» للهيثمي ١١٥/٦؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٥٤/٤

(٣) «المسند» للإمام أحمد ٢٣٥/٥

وكان ﷺ يحل أعقد المشاكل الاجتماعية بكل بساطة وسهولة، وبعده بثلاثة عشر قرناً أشار "جورج برنار شو (George Bernard Shaw)" إلى هذه الحقيقة قائلاً: "ما أحوج عصرنا إلى شخص مثل محمد ﷺ، يحل له مشاكله ريثما يشرب فنجاناً من القهوة." وهذا هو المهم، فالفضل ما شهدت به الأعداء.

أجل، إن البشرية حينما تتوجه إليه تشعر بالأمن والطمأنينة، وتصل إلى الآفاق النيّرة المضيئة، وتتخلص من السفالة والسفاهة، ولا تكون ألعوبة بيد الأيام، بل تتخلص من الخسران في الدنيا وفي الآخرة، وترتفع وتسمو إلى المرتبة اللائقة بالإنسانية. والحقيقة أنه بالرغم من كل القوى المعادية، ومن كل الموانع والعقبات، فإن جميع المؤشرات والأمارات تومئ إلى بداية البعث والنهوض من جديد مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ۞ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ (الصف: ٨-٩).

أجل، إن الله سيظهر دينه، ويتم نوره، وستهرع إليه القلوب والنفس الظامئة لكي تجد الأمن والطمأنينة في رحابه، فتعيش سعادة أهل الجنة في الدنيا؛ وسيأتي اليوم الذي تتفتح جميع القلوب وجميع الضمائر وجميع النفوس لمحبة خاتم الأنبياء وسلطان الأولياء -الذي نعلن اسمه خمس مرات على الملأ كل يوم- ولو لم يرض كفار أوروبا وظالموه، ومنافقو آسيا والغافلون عندنا.

وكان أيضاً مبعثاً للطمأنينة، فنحن نؤمن إيماناً راسخاً لا شك فيه بأن الرسالة التي جاء بها منبع للأمن والطمأنينة.. والتاريخ هو أكبر شاهد على ما نقول. ولكي تذوق الإنسانية هذه الطمأنينة مرة أخرى، فليس هناك إلا حل واحد أمامها، وهو أن تهتدي بالنور الذي أتى به الرسول ﷺ، إذ كلما ازداد الإنسان معرفة به ازداد حباً له.. وبهذه المحبة سيتغير وجه المجتمع.[1]

---

(١) جاء في الحديث: «من خالطه معرفةً أحبه.» الترمذي، المناقب، ٨

في هذه "المقدمة" التي كان القدماء يعبرون عنها بـ"الديباجة" حاولت مستنداً إلى عـون الله تعالى وكرمه وإحسانه أن أشير باختصار، وبأسلوب الفهارس إلى جوانب عظمة فخر الكائنات، وسيد الدنيا والآخرة.

كل كلام في مدحه جميل، فإن وجدتم شيئا نابيا، فمني ومن أسلوبي، أما ما يتعلق بفخر الكائنات فكله مشرق وجميل.



تمهيد:

النبى المرسل
رحمة للعالمين

﴿أ﴾ الفجر المرتقب

دنيا يسودها ظلام دامس... ظلام يحمل في طيّاته نوراً مرتقباً... وأصداءً تحمل بشرى ظهور نبي جديد... وتتسرب أصداء هذه البشرى، وتطرق الأسماع والقلوب حتى بدأ الكثير من أهل مكة يتحدثون عن هذا النبي المرتقب ويوصي بعضهم بعضا: "عليكم أن تسرعوا إلى هذا النبي حالما يظهر.. أسرعوا إليه وآمنوا به!"[1]

كل القلوب واجفة... فالآمال جميعها معقودة عليه... على خاتم المنقذين... والأمهات والآباء يطمعون أن يكون هذا النبي من نسلهم، لذا يسمي العديد منهم أبناءهم "محمدا."[2] ولكن النبي المرتقب يجب أن يكون من سلسلة نسب ذهبية، تبدأ من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وتنتهي بعبد المطلب فعبد الله.. كانت القلوب ترتقب هذا النور من هذا الطريق. وكانت الأحداث تشير إلى قرب قدومه، ودنو مجيئه.. فحلكة الظلام تؤذن بقدوم الفجر.

لم يكن إنسان ذلك العصر يحمل قيمةً تعطي للحياة معنى، أي تعطي للحياة غاية وهدفاً يستحق العيش من أجله، بل كانت أعمال الناس آنذاك مثلما قال القرآن الكريم: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بِقِيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾ (النور: ٣٩).

ولم تكن المشاعر والأفكار والتصرفات تتباين عن هذا كثيراً: ﴿أو كظلمات في بحر لُجِّيّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها﴾ (النور: ٤٠)

---

(١) انظر إلى: «السيرة النبوية» لابن هشام ٢٠٣/١-٢٠٤

(٢) «الطبقات الكبرى» لابن سعد ١٦٩/١

كان اسم هذا العهد "عهد الجاهلية"، غير أن الجاهلية هنا لم تكن تأتي كنقيض للعلم، بل كمرادف للكفر الذي هو نقيض الإيمان والاعتقاد. ولا أريد هنا أن أعرض -ولو بشكل موجز- مَعالم هذا القبح في ذلك العهد، لأنني لا أريد أن أعرض أمامكم -ولو لوقت قصير- لوحة سوداء مقززة. كما أن تصوير الباطل قد يفسد الأذهان ويضلها، وأنا أرى أن هذا يشكل جريمة. بيد أنه يلزم لفهم ذلك العهد أن نشير إلى بعض عاداته وتقاليده ليتسنى لنا أن نعي فضل الله على العالمين، ورحمة الرحمن الرحيم، في إرسال فخر الكائنات وسيد المرسلين.

إن مجيئه ﷺ كان من أكبر نعم الله ﷻ للعالمين، وأفضل إحسانه، وهذا هو ما يشير إليه القرآن الكريم إذ يقول: ﴿لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة﴾ (آل عمران: ١٦٤).

إذن، فانظروا إلى مدى رحمة الله ولطفه وإحسانه عندما يرسل إلى الناس رسولاً من عند أنفسهم، يحس بما يحسون، ويفكر كما يفكرون، ويكون لهم مرشداً وهاديا في الطريق الموصل إلى الله تعالى.. فإن احتاجوا إلى إمام تقدمهم وأصبح لهم إماما، وإن احتاجوا إلى خطيب اعتلى المنبر فكان خطيباً مفوّها، وإن احتاجوا إلى أمير كان لهم أميراً يرسل الرسائل للملوك ويختم المعاهدات، وإن احتاجوا إلى قائد تقدم صفوفهم في الحرب، وأصبح لهم قائداً أفضل من جميع القواد المتمرسين...

هناك عقيدة خاطئة لدى النصارى، فهم يعتقدون أن الله ﷻ قد ضحّى بعيسى عليه السلام ليفتدي به الخطيئة الأولى للإنسانية، أي يؤمنون بأن الله -ﷻ عما يقولون- قد ضحّى بابنه المسيح لكي يصفح عن الإنسانية كلها، لذا فقد صلب المسيح على الصليب حسب هذه العقيدة الخاطئة، وهكذا تم الصفح عن الخطيئة الأولى التي بدأت مع آدم عليه السلام وانتقلت إلى كل إنسان، فكل إنسان يحمل هذه الخطيئة منذ مجيئه إلى الدنيا، ومنذ ولادته. وهذه عقيدة خاطئة من جهة، وضالة من جهة أخرى لكونها قابلة لتأويلات عديدة إلا أن لها تلميحاً صحيحاً، وهو أن الله تعالى أرسل أفضل خلقه محمداً ﷺ وأحبهم إليه

رسولاً إلى الناس مع علمه بما سيتعرض له من أذى وآلام. وذلك لكي يخلصهم من الضلالة والانحراف والطغيان حتى لا يضيعوا في الطرق والمتاهات، بل يرتقوا إلى المستوى اللائق بالإنسان الكامل.. وحسب تعبير المحقق والمتصوف الشاعر "إبراهيم حقي"، فإن على المؤمنين أن يعرفوا ربهم ككنز في قلوبهم.

فالقلب مصدر للخزائن، بحيث أن الله تعالى الذي لم تسعه السموات والأرض يتجلّى في هذا القلب. لا الكتب ولا العقول ولا الأفكار ولا الفلسفات ولا البلاغة والفصاحة ولا السموات والأرض ولا الكائنات بأجمعها تستطيع الإحاطة بالله ﷻ، بل تعجز عن التعبير عنه، القلب فقط يستطيع أن يكون –ولو بمقياس صغير– ترجماناً له.

أجل، للقلب لسان لم تسمع الآذان بياناً مثل بيانه، وبلاغة مثل بلاغته. إذن، فعلى الإنسان أن يقطع المسافات في قلبه، وأن يبحث فيه عما يبحث ، فيصل إلى ربه هناك، ويفنى في حبه، علماً بأن الله ﷻ أرسل رسوله محمداً ﷺ إلينا من أجل هذا.

أجل، فقد أُرسل إلى الإنسانية لكي يتلو عليها آيات ربها، ويعرض أمام عينيها معجزاته، ولكي يعلّم الإنسانية ماهيتها الحقيقية. وبفضله تستطيع البشرية أن تتطهر من أرجاس الطبْيعة، فتصبح نقية صافية، وتسمو من المرتبة الدنيا للجسم إلى المرتبة العليا لحياة القلب والروح، وقد سمت فعلا.

أجل، إنه سيعلّم الناس الكتاب والحكمة، وفي نور وضوء الكتاب والحكمة ستجد الإنسانية نفسها، وتنتبه وتلتفت إلى الآخرة، فتسلك الطريق إلى الحياة الأبدية، وقد سلكت هذا الطريق فعلا.

هناك أيام مباركة وأيام مهمة وكريمة عندنا، وبعضها يعدّ عيداً للمؤمنين، ففي كل أسبوع يعيش المؤمنون فرحة يوم الجمعة. ونعيش هذه الفرحة بمقياس أكبر في عيد الفطر وفي عيد الأضحى. وأيام عيد الأضحى أيام، يتذكر فيها المسلمون التضحية التي قدّمها النبي إبراهيم عليه السلام، وأيام يبتهل فيها المسلمون، ويدعون الله من قلوبهم، وبكل إخلاص أن يغفر

لهم ذنوبهم، ومن أجل ذلك يهرع بعضهم إلى بيت الله ليتمسحوا بأستاره، وعندما يقفون في عرفات يتوجهون بقلوبهم إلى الله، ويبتهلون إليه بروح محمدية ليغفر لهم.

وأما عيد الفطر فهو عيد مبارك غنيّ بمعانيه، إذ هو تعبير عن الفرحة التي يشعرها المسلم وهو يعيش فرحة الاقتراب من الرضا الإلهي بعد شهر كامل من الصوم. ولكن هناك عيد آخر يعد عيداً للإنسانية، بل لعالم الوجود كله؛ وهو يوم تشريف ومجيء رسول الله ﷺ إلى الدنيا، أي يوم الميلاد الأحمدي.[1] أي هو اليوم الذي علّق الله ﷻ النور الأحمدي، والسراج المحمدي في سماء الإنسانية مثل شمس مضيئة. أجل، فبهذا النور تبدد ظلام الجاهلية، وغمر النور العالم بأسره، فكان هذا أفضل وأكبر وأعظم نعمة لله ﷻ على الإنس والجن.

---

(١) اليوم هو يوم الأربعاء الموافق لـ ١٣ تشرين الأول لسنة ١٩٨٩. من التوافقات -ولا تقول الصدف- الجميلة أن تصحيح هذه الأسطر وافق يوم الميلاد الأحمدي.

(ب) عـهـد مـظـلـم

كل عهد اهتزت فيه عقيدة التوحيد يعد عهداً مظلماً، ذلك لأن الإيمان بالله عز وجل الذي هو نور السموات والأرض، إن لم يحكم جميع القلوب، سيطر الظلام على الأرواح، واسودّت القلوب؛ فمثل هذه القلوب المظلمة تبتلى بقصر النظر عند مراقبة الأحداث، وتكون رؤيتها متعكرة وغير صافية، ويعيش صاحب مثل هذا القلب كالخفافيش في دنيا الظلام.

ففي هذا العهد الذي اهتزت فيه جميع أسس الدين من قواعدها، وحرفت فيه الديانات السماوية من قبل أتباعها، لم يبق هناك سوى فئة قليلة من الموحّدين الذين كانوا يؤمنون بالله تعالى، ولكن دون أن يدركوا صفاته وأسماءه الحسنى، لذا فما كانوا يعرفون كيف يوفون وظيفة العبودية لله.

١- بـصيرة عمياء

كان المشركون يعبدون الأوثان والأصنام التي ملأوا بها الكعبة، ويفخرون بهذه العبادة، ويجدون فيها السلوى. والذين كانوا يملكون نصيباً قليلاً من العلم كانوا يقولون بأنهم لا يعبدون هذه الأصنام إلا لتقربهم إلى الله. والقرآن الكريم يشير إلى هذا فيقول عن لسانهم: ﴿ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زُلفى﴾ (الزمر: ٣).

وهكذا، فإن شعور العبودية الذي أودع في فطرة الإنسان كأمانة مهمة تعرّض للخيانة وسوء الاستغلال.. فكيف يمكن أن يعبد الحجر والشجر والتراب أو الشمس والقمر والنجوم؟ بل كانوا يعبدون حتى بعض أصناف الأطعمة التي يعملونها بأيديهم كالحلوى والجبن، وبعد عبادتها لفترة من الوقت يقومون بأكلها.

ويشير القرآن الكريم إلى مثل هذا التفكير الفاسد والفهم البالي فيقول: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ (يونس: ١٨). و﴿ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقرِّبونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ماهم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كَفّار﴾ (الزمر: ٣).

ثم ها هم يبحثون عن عذر لهذا التفكير المنحرف، وأكبر عذر يجدونه هو القول بأنهم وجدوا آباءهم لها عابدين: ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾ (البقرة: ١٧٠).

٢- براعم تُوأد

والقرآن الكريم يشير إلى شر آخر من شرور الجاهلية: ﴿وإذا بُشِّر أحدهم بالأنثى ظَلّ وجهه مسوداً وهو كظيم ۞ يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر به أيمسكه على هُون أم يَدُسُّه في التراب ألا ساء ما يحكمون﴾ (النحل: ٥٨-٥٩).

أجل، فما إن يبشَّر أحدهم بميلاد طفلة له حتى يربدّ وجهه غضبا، ويعروه السواد خجلا من وقع هذا الخبر الأليم، فلا يستطيع أن يغشى الناس. فالخبر عنده بلغ من السوء حداً حدا به إلى الرغبة في التواري من القوم، ويوقن بأن عليه أن يختار أمراً من أمرين، ولكنه متردد لا يدري أيهما يختار: أيختار الإبقاء على حياة الطفلة، وتجرّع آلام الهوان من المجتمع، أم يقوم بغسل العار (!) بقتل تلك الطفلة ووأدها؟

تلك كانت المنزلة المهانة للمرأة في الجاهلية. ولم تكن مهانة المرأة هذه، وتحقيرها والحط من شأنها قاصرة على عرب الجاهلية وحدهم، فالوضع نفسه كان موجوداً في الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفارسية. لذا، يمكن القول أن ما قام به الإسلام فيما يتعلق بعالم

المرأة بين عرب الجاهلية، يعدّ عملا لا مثيل لها باسم المرأة على نطاق العالم بأسره.

أجل، فقد كان القرآن أول من يقف في وجه مثل هذه الوحشية، فيحرّم قتل الأطفال تحت أي ذريعة من الذرائع: ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم﴾ (الأنعام: ١٥١). فكأن الله تعالى يقول لهم: لِمَ تقتلون أولادكم؟ إنني أنا الذي أرزقكم وإياهم.. ألا ترون أن وجه الأرض حافل بمئات من موائد الأطعمة المزجاة لكم؟ ألا ترون أن السماء تهرع لنجدتكم، والغيوم فيها مساقة لإنزال الماء والثلج عليكم؟ وهذه الملايين من أنواع النباتات على وجه البسيطة، مَن أنبتها غيري؟ وعلى الرغم من رؤيتكم لكل هذا، فأيّ عقل وأيّ ضمير وأيّ وجدان يسوقكم للخوف على رزقكم، فتقدمون على قتل أولادكم؟ إياكم أن تنسوا أن من يقترف مثل هذا الجرم لن يكون أهلاً لخطاب الله تعالى له أبدا، بل سيخاطب الله تعالى هؤلاء الأبرياء، ويسألهم عن الجرم الذي اقترفوه وكان سبباً لقتلهم؛ سينال الظالمون جزاءهم العادل لاقترافهم هذا الظلم الشنيع، والآية الكريمة: ﴿وإذا الموؤدة سُئلت ۞ بأيّ ذنب قُتلت﴾ (التكوير: ٨-٩) تبين لنا بأسلوب يقشعر منه البدن طبيعة أخلاق ذلك العهد.

حضر مرة أحد الصحابة مجلس رسول الله ﷺ، وذكر له هذه الوحشية الجاهلية، وقال:

يا رسول الله! إنا كنا أهل جاهلية وعبادة أوثان، فكنا نقتل الأولاد، وكانت عندي ابنة لي، فلمّا أجابت، وكانت مسرورة بدعائي إذا دعوتها، فدعوتها يوماً فاتّبعتني، فمررت حتى أتيت بئراً من أهلي غير بعيد، فأخذت بيدها، فرديت بها في البئر، وكان آخر عهدي بها أن تقول: "يا أبتاه! يا أبتاه!" فبكى رسول الله ﷺ حتى وكف[1] دمع عينيه، فقال له رجل من جلساء رسول الله ﷺ: "أحزنتَ رسول الله ﷺ!" فقال له: «كُفّ،[2] فإنه يسأل عمّا أهمّه.» ثم قال له: «أعِدْ عليّ حديثَك» فأعاده، فبكى حتى

(١) وكف: تقاطر (المترجم)

(٢) كُفّ: أي أمسك عن تأنيبهٔ ولومه. (المترجم)

وكف الدمع من عينيه على لحيته ثم قال له: «إن الله قد وضع عن الجاهلية ما عملوا، فاستأنفْ عملَك.»[1] فكأن رسول الله ﷺ كان يقصد من تكرار هذه الحادثة إفهامهم: "هكذا كنتم قبل الإسلام.. وما قمت باستعادة الحادثة إلا لأذكركم بالقيم الإنسانية التي منحها لكم الإسلام."

من هذا المثال الأليم المفجع، تدرك مدى الأزمة التي كان يعيش فيها إنسان ذلك العصر.. فإلى جانب آلاف الفظائع الأخرى، كانت تُحفَر هناك حفر عميقة في ظلام كل يوم في تلك الصحراء، ويرمى فيها أطفال أبرياء ليلقوا هناك حتفهم. أجل، لقد سبقت البشرية الضباع في الوحشية بمسافات كثيرة.. فالذي لا يملك المخلب والناب، كان مصيره الافتراس والقتل من قبل ذي المخلب والأنياب، وكان المجتمع يتقلب بين آلام أزمات حادة، ولم يكن هناك من ينهي هذه الأزمات، أو يجد لها حلاً ودواء.

في هذه الأثناء، يعتكف نبينا في غار حراء –الذي سيكون اسمه بين أمته فيما بعد "جبل النور"– ويفارق مجتمع الناس؛ هناك يثبت ناظريه في الأفق، وينتظر فجر الخلاص.. والظاهر أنه كان يضع جبهته على الأرض، ويبتهل لربه ساجداً لساعات طويلة، يسأله خلاص الإنسانية، وإرسال منقذ لها، ذلك لأن الشيخين عندما يقصّان هذه الفترة يستعملان تعبير "فيتحنث فيها"، وهذا التعبير يعني أنه قد اعتزل عن الناس وأسلم نفسه للعبادة.

أجل، كان رسول الله ﷺ يبقى أحياناً هناك، ولا يرجع إلى مكة إلا عندما تنفَد مؤونته، ثم يرجع إلى الغار مرة أخرى حاملاً معه ما يكفيه من الزاد.[2] لا شك أنه كان في الغار يتأمل الوجود، وما وراء هذا الوجود.. يتأمل الخلق والكائنات، والغاية من هذا الخلق، والهدف منه.. ثم يتأمل ما آلت إليها الإنسانية من حال مفجعة تقشعرّ منها الأبدان، وتتفطر لها القلوب.

---

(١) الدارمي، المقدمة، ١

(٢) البخاري، بدء الوحي، ٣؛ مسلم، الإيمان، ٢٥٢

٣- قـيم متـغيرة

أجل، لقد كان المجتمع منحدراً إلى هاوية مظلمة، إذ تغيرت فيه جميع القيم الإنسانية، وانقلبت رأساً على عقب، فأصبحت الفضيلة عيباً، والعيب والنقيصة فضيلةً وفخراً.. الوحشية تُمجّد، والرحمة والإنسانية تُمتهن.. قد وضعت الذئاب نفسها موضع الرعاة، أما الأغنام التي لم يعد لها حول ولا قوة، فتئن في أيدي هؤلاء الرعاة القساة وتتوجع، وما لها من سامع.. وشاع الفحش والزنا والانحلال الأخلاقي، ولم يكن شرب الخمر ولعب القمار عيباً، ولم يكن الاحتكار شيئاً غريباً، بل أمراً مألوفاً.. أما طرق النهب والسلب، وامتصاص دماء الناس، فكان يعدّ ذكاء ومهارة وحذقا.

ومن ثم، فقد كانت هناك حاجة لشخص ساحر البيان، مؤثر الكلام ليقول لكل هذا الفساد: "قف!" كانت الحاجة ملحة وشديدة إلى درجة اهتزت معها الرحمة الإلهية، واستجابت، فأرسلت فخر الكائنات رسولاً.. وبمجيئه تغير كل شيء وتبدل، وتحقق الانقلاب الأعظم. أجل، وصدق ما قاله أمير الشعراء أحمد شوقي:

ولد الهدى فالكائنات ضياء   وفم الزمان تبسم وثناء

وبعد أن كان الزمان والمكان غارقين في الظلام، إذا بثغرهما يفترّان بالبسمة والفرحة بالنور الذي جاء به الرسول محمد ﷺ.. وبعد سنوات كان أهل المدينة ينشدون لمجيئه، ويهللون لقدومه، مرددين في استقباله:

طلع البدر علينا   من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا   ما دعا لله داع [(١)]

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير ٢٤١/٣؛ «دلائل النبوة» للبيهقي ٥٠٧/٢

٤- إعداد إلهي

لقد كانت كل مراحل طفولته وشبابه ونضوجه بمثابة مقدمات وسلالم لنبوته، إلى درجة أنه ما إن أعلن نبوته ورسالته حتى آمن به من عرفه عن قرب.

فهو الصادق الذي ما جُرّب عليه كذب قط، وها هو يتكلم عن الله تعالى، وأنه رسول من عنده، إذن، فكيف يمكن لإنسان لم ينطق بكذبة واحدة في أصغر شأن من الشؤون أن يكذب في مثل هذا الموضوع الخطير، وفي هذا الموضوع العلوي؟[1] كان هذا شيئاً مستحيلاً، وأمراً محالاً. هكذا كان يفكر إنسان ذلك العهد. ومع أن الجميع لم يؤمنوا به، إلا أن من نبذ العناد والحسد، أسرع إلى الإيمان به.

صحيح أن العهد الذي كان يعيش فيه كان عهد جاهلية، ولكن صفة الجاهلية كانت بعيدة عن حياته الخاصة وخارجة عنها؛ فما عاش النبي حياة جاهلية قط، فلقد كان شخصاً أميناً، يعرفه الجميع بهذه الصفة؛ فلنفرض مثلاً أنك عزمت على السفر، وأردت أن تودع زوجتك في مكان، فإنك تستطيع دون أي تردد أن تودعها عند محمد الأمين، وأنت مطمئن البال بأنه لن يرفع طرفه لينظر إليها.. وإن كنت ترغب في إيداع مالك عند أحد الناس، فإنك لا تتردد لحظة واحدة أن تذهب، وتسلمه إليه، وأنت على يقين تام بأن ذرة واحدة من مالك لن يصيبها أي ضرر، وأنه في غاية الحفظ وأتمه.. وإذا أردت العلم اليقين في أمر من الأمور، فما عليك إلا المسارعة إلى الصادق الأمين، لتستمع إليه، وتُقيم الموضوع على ضوء بيانه، وأنت مرتاح البال؛ لأنه لم ينطق بكذبة واحدة طوال حياته.

أتريد دليلاً على هذا؟ حسناً.. ها هو يصعد الصفا، ويسأل الناس حواليه: «أرأيتم إن أخبرتكم أنّ خيلاً تَخرج من سَفْح هذا الجبل أكنتم مصدقيّ؟»، قالوا: "ما جرّبنا عليك كذبا." حتى عُتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة وأبو جهل وغيرهما من أعداء الدين، كانوا

---

(١) انظر: البخاري، بدء الوحي، ٣، ٦؛ ٤؛ مسلم، الجهاد، ٧٤

من ضمن هؤلاء المجيبين والمصدقين.[1] فالجميع يسلمون بصدقه واستقامته وأمانته.

فقدَ أباه في بطن أمه، وفقد أمه في سن السادسة من عمره، فكفله جده عبد المطلب، وما أن بلغ الثامنة من عمره حتى توفي جده كذلك.. كأن القدر كان يجرّده من كل شيء، ويهيئه لتسليم أمره كله لله ﷻ؛ فكل من مدّ يده إليه، أو أخذه في حمايته كان سرعان ما يرحل.. فكأن القدر كان يومئ بالحماية الإلهية الفعلية والمباشرة في ظل نور التوحيد، وتجلي سر الأحدية.. كان عليه أن يحس بكلمة التوحيد، وبجملة "حسبي الله" في أعماق وجدانه، وينطق بها.. كان من الضروري أن تفقد الأسباب الظاهرية قيمتها عنده.. ولقد حدث هذا فعلاً.

جاء إلى الدنيا من أب اسمه "عبد الله"، وأم اسمها "آمنة"؛ وليس هذا تصادفا، بل تقدير إلهي؛ فأمّ يحمل اسمها معنى الأمن والأمانة، وأب يحمل اسمه معنى العبودية لله تعالى، تهيئةربانية، وإعداد إلهي، لينشأ الأمين قبل الرسالة في جو من معاني العبودية.

نشأ يتيماً.. فلقد كان هناك في انتظاره عبء ثقيل، ووظيفة هامة، وكان عليه أن يتهيأ لها منذ الآن. كان عليه بلوغ الذروة في التوكل على الله، والاستعداد لمواجهة جميع الصعاب والمشاكل.. وقد حفظه الله تعالى من الغنى المفرط المؤدي إلى البطر والكبرياء، ومن الفقر المدقع المؤدي إلى الذل والعجز، وأنشأه شخصاً معتدلاً ومستقيماً في شؤون حياته طوال عمره، بعيداً عن الإفراط والتفريط.

إن من المهم جداً للقائد أن يمر بمثل هذه الأيام الصعبة.. فمن عرف معنى اليتم، يعرف كيف يكون أباً رحيماً على أمته، عطوفاً عليها.. كان عليه أن يذوق طعم الفقر لكي يحس بمعاناة الذين يقوم بأمر إدارتهم، وتصريف شؤون حياتهم. وهكذا، فإن خُلُق مساعدة اليتامى الفقراء، ومعاونتهم، والحدب عليهم، ورعايتهم، والاهتمام بهم كان من ضمن الخلق العظيم لرسول الله ﷺ الذي امتدت جذوره إلى هذه المرحلة من حياته،

---

(١) البخاري، تفسير سورة (١١١) ١-٣؛ مسلم، الإيمان، ٣٥٥

وشربت من مائها، وتنفست من هوائها. وعندما ارتقى الذُرى فيما بعد، لم يتخلّ عن هذا الخلق ولم يتبدل، ولم يغير سمة حياته البسيطة المتقشفة، فلم يقهر طوال حياته يتيماً، ولم يرد سائلاً ولم ينهره؛ ذلك لأن هذا الخلق كان مما علّمه الله ﷻ، وربّاه عليه حينما قال: ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى ۞ ووجدك ضالاً فهدى ۞ ووجدك عائلاً فأغنى ۞ فأما اليتيم فلا تقهر ۞ وأما السائل فلا تنهر ۞ وأما بنعمة ربك فحدث﴾ (الضحى: ٦-١١).

وأنا كلما قرأت هذه السورة خطر على بالي أن أعرض يتمي على رسول الله ﷺ باعتباره شفيعاً لنا -مع أنني فقدتُ والدي منذ سنوات- فأقول له: "يا رسول الله! ها أنا ذا يتيم، واقف على عتبة بابك، فلا تطردني عن بابك، ولا تحرمني من شفاعتك."

٥- نور مرتقَب

كان جده عبد المطلب قد استشفّ فيه نور النبوة من زمن طويل، فقد كانت جميع أيامه معه أيام يمن وبركة؛ فكان يأخذه معه إلى مجالس الكبراء، ويكرمه هناك، فلربما رأى فيه منقذ البشرية، إذ كان يرى في نظرات عينيه عمقاً لم يره في أحد. كما أنه قد سمع الروايات المنقولة عن "لُؤَيّ" -أحد أجداده- حول ظهور نبي من نسله؛ واستناداً إلى هذه البشارة، لعله اكتشف علامات النبوة أو استشفها فيه، ولعل هذا كان هو السبب في حبه الشديد وشغفه الكبير بحفيده حتى أنه يغار عليه من عينيه. وعندما حضرته الوفاة بكى بكاء شديداً.. بكى لأنه لن يستطيع بعد الآن أن يضم محمدا إلى صدره..[1] بكى هذا الشيخ هذا البكاء، وهو الذي لم تطرف عيناه أمام جيش أبرهة، ولم تدمع عيناه في حرب الفِجار مع القبائل العديدة المعادية التي استمرت سنوات عديدة، ولكن هذا الشخص العظيم بكى مثل طفل صغير قبيل فراق حفيده السعيد. وهكذا انتهت وصاية وكفالة عبد المطلب بوفاته وتوديعه للحياة، وكان على لؤلؤة الخَلق وجوهرته أن ينتقل إلى كفالة عمه أبي طالب.

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ١٧٨/١؛ «الطبقات الكبرى» لابن سعد ١١٨/١

٦- مكافأة جزيلة

وفى أبو طالب بوعده، فحمى رسول الله ﷺ مدة أربعين سنة تقريباً وسانده. ولم يبق معروفه هذا دون مقابل، إذ وهبه الله تعالى ابناً مثل علي ﷺ، وبينما كان نسل كل نبي يستمر عن طريقه، إلا أن نسل رسول الله ﷺ استمر عن طريق علي كرم الله وجهه، وهناك رواية عن رسولنا في هذا الخصوص.[1]

كان علي ﷺ يمثل جانب الولاية لرسول الله، إذ يُعدّ من هذه الناحية أمير الأولياء؛ فجميع أرباب الطرق ورجالهم سيذكرونه بالتقدير والأجلال حتى يوم القيامة وسينقادون له. فعلي المرتضى، الفارس المغوار، والحيدر الكرار، وصهر رسول العالمين ﷺ كان هدية رب العالمين لأبي طالب، جزاء العناية التي أبداها لرسوله الكريم، والمؤازرة التي قدمها له. وما كان أبو طالب ووالده عبد المطلب إلا أسباباً ظاهرية، وإلا فإن الله ﷻ كان هو صاحب الحماية الحقة له، وصاحب العناية به.

فبينما كان يرفع هذه الشخصية النادرة، ويسمو به إلى مرتبة النبوة، كان في الوقت نفسه يهيئ المجتمع لقبوله، إذ أصبحت إيماءات نبوته وعلاماتها تتضح يوماً بعد يوم، وأصبح محمد ﷺ شخصاً يتحدث عنه الكل، ويعرفه الجميع.. شخصاً يحافظ على أهميته كموضوع ساعة على الدوام.

---

(١) في الحديث: «إن الله تعالى جعل ذرية كل نبي في صُلبه وجعل ذريتي في صلب علي بن أبي طالب.» («مجمع الزوائد» للهيثمي ١٧٢/٩؛ «فيض القدير» للمناوي ٢٢٣/٢؛ «تاريخ بغداد» للبغدادي ٣١٧/١)

(ج) علامات النبوة

١- رحلته إلى الشام والراهب بَحيرى

تشير كتب السير كلها إلى أن رحلته الأولى كانت إلى الشام مع عمه أبي طالب عندما كان عمره اثني عشر عاماً. وعندما حطّت القافلة في الطريق للاستراحة تُرك رسول الله حارساً وناظراً لها. في هذه الأثناء لاحظ راهب اسمه "بَحِيرى" -يتلفظه البعض "بُحيْرى" خطأً- أمراً غريباً في هذه القافلة التي كان يراقب سيرها، إذ لاحظ أن هناك غيمة تتعقبها وتظللها، فإن سارت القافلة سارت معها، وإن وقفت وقفت معها. لذا، أرسل هذا الراهب من يدعو جميع أفراد هذه القافلة إلى تناول الطعام معه. وقد دهش أفراد القافلة من هذه الدعوة، فهذا الراهب لم يكن ليهتمّ بالقوافل من قبل. واستجاب للدعوة جميع أفراد القافلة عدا سيدنا محمد ﷺ، إلا أن الراهب لم يجد فيهم ضالته، فسألهم عما إذا كان هناك من تأخر عن الحضور من القافلة، وعلى إثر الجواب الذي تلقاه منهم أرسل إليه يدعوه كذلك، وما أن رآه حتى علم أنه ضالته، وتوجه إلى أبي طالب يسأله عنه، فقال أبو طالب "إنه ابني"، ولكن الراهب لم يشأ تصديقه، ذلك لأنه حزر أنه هو.. إذن، فوالده يجب أن يكون متوفّى قبل ولادته. ثم دعا أبا طالب وأسرّ في أذنه بوجوب تخلّيه عن هذا السفر، وقال له بأن اليهود قوم يغلب عليهم الحسد، وأنهم ما إن يعرفوا من سيماه بأنه هو خاتم الأنبياء حتى يتعرضوا له بالأذى لكونه ليس منهم. واستجاب أبو طالب لنصيحته، وانسحب من القافلة بعد أن أبدى لأصحابه عذراً، ورجع بمحمد إلى مكة.[1]

كان الراهب "بَحيرى" محقاً في كلامه، ولكن غاب عنه شيء واحد؛ وهو أن رسول

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ١٩١/١-١٩٥

الله ﷺ كـان في حمايـة رب العـالمين، حيـث أن الآيـة الكريمـة: ﴿والله يعصمـك مـن الناس﴾ (المائدة: ٦٧) تشير إلى هذه الحماية والعصمة. أجل، كان هذا هو يقوله له ربه، وقد صدق له وعده.

٢- رحلتـه الثانية إلى الشام

قام فخر الكائنات برحلته الثانية إلى الشـام، وعمره خمس وعشرون سنة. كـان على رأس القافلة التي أرسلتها خديجة ﷺ، وكان يعمل معها. وفي هذه الرحلة أيضاً تقابل مع راهب آخر اسمه "نَسْطُورًا"، وقد تَوسّم هذا الراهب فيه أيضاً علامات النبوة.[1]

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ١٩٩/١

(د) النبي المرتقب والمبشر به

١- دعاء إبراهيم وبشارة عيسى عليهما السلام

سأله أحد الصحابة يوماً: ما كان بدءُ أمرك؟ فقال: «أنا دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى بن مريم.»[1] ويتناول القرآن الكريم هذا الموضوع في آيتين مستقلتين:

الأولى: دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾ (البقرة: ١٢٩).

الثانية: بشرى عيسى عليه السلام: ﴿وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدِّقاً لِما بين يديّ من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾ (الصف: ٦).

أجل، فرسول الله ﷺ لم يظهر هكذا فجأة، بل هو نبي تمّت البشارة بقدومه منذ عصور وعصور، وكان العالم بأسره في انتظاره.

إن أكبر دليل وبرهان على نبوته هو هذا القرآن الكريم الذي يُعدّ معجزة خالدة أبد الدهر. أجل، ففي القرآن ذي البيان المعجز مئات من الآيات التي تدل وتبرهن على نبوة فخر العالمين. فمن لم يستطع إنكار القرآن بأجمعه، لا يستطيع إنكار نبوته أبداً. غير أن هذا موضوع مستقل لن نتناوله الآن، وشروح الآيات القرآنية التي سنعرضها كأدلة، كلما جاء موضعها، ستساعد في إيضاح هذا الموضوع بعض الشيء.

---

(١) «كنز العمال» للهندي ١١/٣٨٤

٢- بشارات التوراة

سنتناول هنا بعض البشارات التي لا تزال موجودة في التوراة والإنجيل والزبور حول رسول الله ﷺ على الرغم من تعرّض هذه الكتب إلى مئات من التحريفات. ومن أراد التفصيل في هذا الموضوع، فعليه بمراجعة الكتب التي شَرحت وفصلّت هذا الموضوع، ولاسيما كتاب "الرسالة الحَميدية" للشيخ حسين الجِسْر، أما هنا فسنكتفي بإيراد بعض هذه الأدلة التي نراها مهمة.

أ- جبال فاران

جاء في الترجمة العربية لنسخة التوراة المطبوعة في إنكلترة عام ١٩٤٤ ما يأتي: [جاء الله من سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران.] (التثنية - الباب: ٣٣، الآية: ٢)، أي أن رحمة الله ﷻ وفضله على الإنسانية ظهرت في سيناء، وهي الموضع الذي كلم الله تعالى فيه النبي موسى عليه السلام، وهذه الرحمة هي النبوة التي أعطيت لموسى عليه السلام؛ أما ساعير فهو فلسطين، وتجلت رحمة الله تعالى فيه بإرساله الوحي إلى عيسى عليه السلام. والمسيح عليه السلام من الأنبياء العظام، وموضع تجليات وأفضال عديدة لله ﷻ؛ ونظراً لأن العديدين التبس عليهم مفهوم التجلي مع مفهوم الظهور، فقد أدى هذا إلى مشاكل عديدة.

أجل، فإن التجلّي عند عيسى عليه السلام هي النفخة الإلهية في مولده؛ أما في جبال فاران فقد ظهر الله تعالى فيها بسر أحديته، ومقام فرديته. وفاران هي مكة، إذ ورد في موضع آخر من التوراة بأن إبراهيم عليه السلام ترك ابنه إسماعيل في فاران، إذن، فإن المقصود من فاران في التوراة هي مكة. فالبشارات الثلاثة متعلقة بالنبي موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام ومحمد عليه الصلاة والسلام الذي هو خاتم الأنبياء.

وتستمر هذه الآية من التوراة بالعبارة التالية: [ومعه ألوف الأطهار، في يمينه سنّة

النار.[1]][2] وهي تدل على أنه سيكون مأموراً بالجهاد.

من المعلوم أن رسول الله ﷺ كان يعتكف قبيل نزول الوحي في غار حراء، حيث يتأمل ويتحنّث فيه، وكان أول نزول الوحي عليه في هذا الغار.[3] فإذا لم يكن فاران مكة، فأيّ مكان يكون إذن؟ وأيّ مكان شعّ نوراً مثل الدين الإسلامي الذي ظهر منه، وانتشر شرقاً وغرباً؟ ولـمّا لم يكن هناك في العالم بأسره مكان آخر، فيه كل هذه المواصفات غير مكة، فإن فاران الوارد في التوراة لا يعني سوى مكة. وكما قلنا سابقاً، فإن الآية رقم ٢ من الباب ٣٣ من كتاب التثنية، والآية رقم ٢٠ من الباب ٢١ من كتاب التكوين، وهي: [وسكن بريّة فاران.] تشير إلى الموضع الذي سكن فيه سيدنا إسماعيل عليه السلام. وهذا دليل واضح وقاطع على أن فاران هو مكة، وليس بمقدور أحد أن يثبت العكس، والاعتراضات التي أثيرت في هذا الموضوع اعتراضات سطحية وغير علمية. ثم إن ختام الآية التي تشير إلى أصحابه، وإلى كونه مكلفاً بالجهاد لا يدع مجالاً لأي شك أو شبهة في أن رسول الله محمداً ﷺ هو المقصود، وهو المعنيّ.

ب- من نسل إسماعيل عليه السلام

والآية الثانية من التوراة تقول: [وسوف أقيم لهم نبياً مثلك من بين إخوتهم، وأجعل كلامي في فمه، ويكلمهم بكل شيء آمر به] (التثنية - الباب: ١٨، الآية: ١٨).

فالله تعالى يخاطب موسى عليه السلام ويقول له: إنني سأرسل لهم، أي لبني إسرائيل نبياً مثلك من بين إخوتهم، وسأجعل كلامي في فمه لكي يبلغهم بأوامري.

---

(١) سِنّة النار: أي فأس من النار ذو رأسين. (المترجم)

(٢) في الطبعة الإنكليزية للتوراة وردت هذه الآية هكذا: [ومعه عشرة آلاف من الأطهار.] وهي تشير إلى فتح مكة، غير أنهم حذفوا [عشرة آلاف] من التراجم العربية (المترجم)

(٣) البخاري، بدء الوحي، ٣؛ مسلم، الإيمان، ٢٥٢

والآية رقم ١٩ التي تكمل هذه الآية هي: [ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به باسمي فأنا أكون المنتقم من ذلك]

وتعبير "إخوة بني إسرائيل" الواردة في تلك الآية، تشير إلى نبي يأتي من نسل إسماعيل عليه السلام، والنبي الوحيد الذي أتى من نسل إسماعيل عليه السلام هو نبينا محمد ﷺ. ثم إن الآية تشير إلى أن هذا النبي سيأتي بشريعة مثلما أتى موسى عليه السلام بشريعة. كما أن هذه الآية تومئ إلى أن النبي المبشر به سيكون أمياً.

أما الانتقام من غير المطيعين المذكور في الآية فتشير إلى الحدود والعقوبات، وهي غير موجودة إلا في الدين الإسلامي. ولا يمكن أن يكون عيسى عليه السلام ولا يوشع عليه السلام النبي المبشر به في التوراة على الإطلاق، ذلك لأن هذين النبيين هما من بني اسرائيل. ثم إن عيسى عليه السلام لم يأت في معظم المسائل بأحكام جديدة أو بشريعة جديدة، بل كان متبعاً لشريعة موسى عليه السلام.

أما يوشع فمن الواضح جداً أنه لا يشبه موسى عليه السلام، لأنه لم يأت بشريعة جديدة، بينما تشير الآية الكريمة: ﴿إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً﴾ (المزمل: ١٥) إلى وجه الشبه بين موسى عليه السلام ونبينا عليه الصلاة والسلام. والحقيقة أنه لا حاجة بعد هذا إلى أي دليل آخر.

ج- صفاته الأخرى

كان قد اشتهر عبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن سلام وكعب الأحبار رضي الله عنهم بأنهم أعلم الناس بالكتب القديمة. ويروى عنهم أن التوراة التي لم تكن قد حُرّفت بنسبة تحريفها الحالي، كانت تحتوي على هذه الآية: يا أيها النبي، إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحِرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سمّيتُك المتوكّل، ليس بفَظّ ولا غليظ ولا سَخّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئةَ، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى

يُقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله.[١]

والآن لنفكر: مَن المقصود بهذا في التوراة؟ لا نحتاج حتى إلى تحليل عميق لندرك أن المعنى الظاهري لهذه الآية يتعلق بنبي سيأتي، وندرك من الآية أن هذا النبي ليس سوى النبي محمد ﷺ، فقد أرسل رحمة للعالمين وللناس أجمعين، فكأن هذه الآية تقول له:

إنا نرسلك أيها النبي إلى العالمين مبشراً بالطريق القويم، والصراط المستقيم، ونذيراً لسالكي الطرق المعوجة الملتوية من وخامة العاقبة. ستقف أمام جميع الشرور والرذائل لتَحول دون سقوط الناس في هاوية السعير، وستكون نوراً وضياء للتائهين في ظلام هذه الطرق الملتوية لتقودهم من أيديهم إلى الجنة، وإلى رضاء الله.

إنا أرسلناك حِرْزاً للأميين في عهد الجاهلية وملاذاً، فطالما اتبعوك واستندوا إليك، فسيكونون في حرز وأمان، وفي رحمة من الله وفضل. أنت عبدي ورسولي -أجل، فنحن نشهد دوماً في الصلاة عندما نقرأ التحيّات أنه عبد الله ورسوله- لقد وضعتُ لك اسم وصفة "المتوكل"، فلو خاصمك العالم بأسره، وعاداك وحاربك لَما اهتزّت منك شعرة واحدة. أجل، فلكل نبي أفق خاص به في التوكل، أما أنت فلك شأن آخر في هذا الخصوص، لذا فقد سميتك "المتوكل".

ثم يتوجه هذا الخطاب إلى الغيب: هو ليس بالشخص الصخّاب الغضبان على الدوام، الفظ الغليظ، بل صاحب أدب وخلق ووقار ورزانة، ليس بالشخص الذي يصرخ ويشتم في الأسواق، ذلك لأن هذا الأسلوب في جلب اهتمام الناس ليس إلا دليل ضعف، وعلامة غرور.. وهو بعيد عن مثل هذه الصفات الذميمة ومبرأ منها.

لا يقابل السيئة بالسيئة والشر بالشر.. يأتي إليه أحد الأعراب، ويجرّه من ردائه بقوة قائلاً له: "أعطني حقي!" فلا يقابل النبي ﷺ هذه المعاملة الخشنة التي تثير الغضب في

(١) البخاري، البيوع، ٥٠؛ «المسند» للإمام أحمد ١٧٤/٢

نفوس صحابته إلا بالتبسم، ثم يقول لأصحابه: «أعطوه حقه.»[1]

أجل، لقد كان يعفو عن أكبر الذنوب، ولكن بشرط ألا ينتهك شـرع الله. تـأملوا سماحته وحلمه وعفوه مع أهل مكة –الذين آذوه أذى شديداً طوال سنوات– بعد فتحها، وبعد أن أصبح قادراً على أن يفعل بهم ما يشاء، ولكنه قال لهم: «اذهبوا فأنتم الطُلَقاء.»[2]

وَعَدَ الله ألا يتوفاه، ويرفعه إليه إلا بعد أن يهتدي أهل الجاهلية التائهين في ظلمات الباطل بالنور الذي أرسل به. وأنجز الله وعده، فلم يلتحق بالرفيق الأعلى إلا بعد أن أكمل الله دينه، وأتم نعمته، وربّى صحابة له، وأتباعاً يمثلون هذا الدين أصدق تمثيل. عند ذلك فقط، كانت مهمته قد انتهت، ووظيفته قد استوفيت.. إذن، كان يستطيع أن يفارق الناس، ويلتحق بحبيبه الحقيقي.. فقد أدى رسالته في الدنيا.

أجل، كانت التوراة تصفه بهذه الصفات، وعندما حان موعد مجيئه، جاء وهذه الصفات بأجمعها متحققة فيه. فالحقيقة أن ما ورد في التوراة يتطابق مع سيرة رسول الله ﷺ، إذن، فمن هو النبي الكريم الذي تذكره التوراة؟ أهناك شخص آخر في التاريخ تتطابق حياته مع ماجاء أعلاه؟ كلاّ دون شك. إذن، فالمقصود هو الرسول محمد ﷺ، وليس غيره.

٣- بشارات الإنجيل

أ- فارقليط

جاء في إنجيل يوحنا: [قال المسيح: إنني ذاهب إلى ربي وربكم لكي يرسل لكم فارقليط، الذي سيأتي إليكم بالتأويل] (الباب: ١٦، الآية: ٧). ويأتي فارقليط بمعنى روح الحق، الذي يفرق بين الحق والباطل.

---

(١) أبو داود، الأدب، ١؛ «المسند» للإمام أحمد ٣٧٧/٢

(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام ٥٥/٤

أجل، إن رسول الله هو روح الحق، ذلك لأن القلوب الميتة لا تحيا إلا بالحق الذي جاء به. وقد بذل كل شيء، وكافح لكي يوصل الهداية إلى الناس، ولم يتميز الحق عن الباطل إلا بعد هذا الجهاد وهذا الكفاح. إذن، فقد جاء فارقليط الذي بشر به المسيح عليه السلام، وهو خاتم النبيين والمرسلين محمد رسول الله ﷺ.

وجاء في إنجيل يوحنا (الباب: ١٤، الآية: ١٥، ١٦): [إن كنتم تحبونني أطعتم أوامري، أما أنا، فسأبتهل إلى الرب ليرسل لكم معيناً آخر، وروح الحقيقة "فارقليط" لكي يبقى معكم على الدوام.] والآن لنتأمل هذه الآيات: [فارقليط هو روح القدس الذي سيرسله الرب باسمي أي نبياً مثلي. سيعلمكم كل شيء، وسيذكّركم بما قلته لكم] (يوحنا - الباب: ١٤، الآية: ١٤).

[عندما يأتي فارقليط سيشهد لي، وستشهدون أنتم لي] (يوحنا - الباب: ١٥، الآية: ٢٦-٢٧). [ولكني أقول لكم الحق: من الأفضل لكم أن أذهب، لأني إن كنت لا أذهب لا يأتي فارقليط إليكم، ولكني إن ذهبت، أرسله إليكم] (يوحنا - الباب: ١٦، الآية: ٧). [وعندما يأتي فارقليط يُبكّت العالَمَ على الخطيئة] (يوحنا - الباب: ١٦، الآية: ٨).

جاء الإنجيل باللغة العبرانية في البداية، ثم ترجم إلى اللغة اليونانية، والتراجم العربية الموجودة في أيدينا مترجمة عن اليونانية، ولما كانت كلمة "فارقليط" واردة في الترجمة الأولى إلى اليونانية، فإننا لا نعرف الكلمة الأصلية المقابلة لها في العبرية، وفارقليط هي الترجمة العربية لهذه الكلمة في اليونانية، أي أنها دخلت إلى العربية عن طريق التعريب، إلا أننا لن نقف عند هذه الكلمة لنبني موضوعنا عليها، بل سنحاول رؤية جميع صفات النبي الذي بَشّر به الإنجيل، وكيفية تطابقها، وملاءمتها مع صفات رسولنا ﷺ.

لنجعل من كلمات عاشق للنبي ﷺ عنواناً.. أجل، فما أجمل ما قاله مولانا جلال الدين الرومي:

بود در انجيل نعت مصطفى	آن سر بيغمبر ان بحر صفا
بود ذكر حليها وشكل او	بو ذكر غزو صوم واكل او

أي:

نعت المصطفى ﷺ موجود في الإنجيل،
هو سر الأنبياء وسر بحرهم الصافي،
صفاته وشمائله وغزواته وصومه وأكله،
مـوجـود كلـه فـي الإنـجيـل.

ب- ﴿ رئيس العالم ﴾

جاء في إنجيل يوحنا (الباب: ١٤، الآية: ٣١) قول المسيح عليه السلام: [لن أكلّمكم كثيراً بعد، فإن سيد هذا العالم قادم عليّ، ولا شيء له فيّ.] وتقول (الآية: ٨ وما بعدها في الزبور، الباب: ٧٢): [ستمتد مملكته من البحر إلى البحر، ومن النهر إلى أقاصي الأرض.. أمامه يركع أهل البادية.. ملوك تَرْشِيش والجزر يحملون إليه الهدايا.. ملوك الشَّبَا وسبأ يقدمون عطايا.. ينحني أمامه جميع الملوك، وتتعبد له كل الأمم، لأنه ينقذ المسكين المستغيث البائس الذي لا معونة له.. يعطف على الفقير والمحتاج، ويخلص نفوس المساكين إذ يفتدي نفوسهم من الظلم والعنف، ويحفظ حياتهم، لأنها ثمينة في عينيه، ليحيي الملك، ليعط له ذهب شبا، وليصلوا من أجله دائماً، ويطلبوا له بركة الله كل النهار. لتتكاثر الغلال في الأرض، وعلى رؤوس الجبال، وتتماوج مثل أرز لبنان، ويُزهر أهل المدينة كعشب الأرض.. يخلد اسمه إلى الدهر، ويدوم اسمه كديمومة الشمس، ويتبارك الناس به، وتُطوّبه كل الأمم.]

وكما قلنا آنفاً، فإننا دخلنا إلى هذا الموضوع استطراداً ومن أجل إعطاء فكرة مختصرة، وليس في نيتنا الدخول إلى تفاصيله، إلا أننا لا نملك هنا أنفسنا من القول بأنه على الرغم من جميع محاولات النصارى واليهود حالياً أو في الماضي من الذين تغلغل الغل والحسد إلى عروقهم ونفوسهم، وعلى الرغم من جميع محاولات التحريف التي قاموا بها، فإن التوراة والإنجيل الموجودين حالياً يحفلان بالكثير من البشارات حول نبوة رسول الله ﷺ،

والعديد من الإشارات إليه. وأنا أعتقد أنه بجهود المحظوظين من مؤرّخينا قد نعثر على النُسخ الأقلّ تعرّضاً للتحريف للتوراة والإنجيل والزبور، وعندئذ سيرى فيها الجميع حتى العامة من الناس الإشارات الصريحة الواضحة التي لا تحتاج إلى أي تفسير أو تأويل حول نبوة رسول الله ﷺ، ولعل الأحاديث التي تخبر عن رجوع المسيحية إلى نقائها القديم إشارة إلى هذا الأمر.(١)

ومن جانب آخر، فإنه من الثابت في القرآن والسنة أن التوراة والإنجيل يشيران إلى النبي ﷺ وإلى أصحابه، لذا فإن إنكار هذا الأمر يعد انحرافاً وكفراً.(٢)

---

(١) البخاري، الأنبياء، ٤٩؛ مسلم، الإيمان، ٢٤٤-٢٤٧

(٢) انظر: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل﴾ (الأعراف: ١٥٧)، ﴿...ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل...﴾ (الفتح: ٢٩)، ﴿وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾ (الصف: ٦). وانظر إلى: (البخاري، البيوع، ٥٠؛ «المسند» للإمام أحمد ١٧٤/٢). وإذا أردت التفصيل فانظر الى: «الخصائص الكبرى» للسيوطي ١٨/١-٣١.

(هـ) قـدوم طـال انـتـظـاره

لم يكن من ينتظره ويبشر بقدومه واحداً أو اثنين، بل كانوا كثيرين، وكان زيد بن عمرو بن نُفَيْل واحداً منهم -وهو والد الصحابي سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرة بالجنة وابن عم عمر بن الخطاب ﷺ- فقد كان من الأحناف، إذ هجر الأصنام ذاكراً أنها لا تضر ولا تنفع. ولكنه كان من الذين توفّوا وهم على أعتاب ظهور النبوة، وكانت له بشارات، أهمها قوله: "إنني أعرف أن ديناً جديداً قد أطلّ، ولكني لا أعرف إن كنتُ أدركه أم لا!"

كانت نسمة قد مسّت قلب زيد.. كانت بمثابة نفحة ربانية فتحت مصاريع هذا القلب تماماً لاستقبال الحق، فكان يؤمن بالله الواحد ﷻ، ويسلم نفسه إليه، ولكنه لم يكن يدري الإله الذي آمن به، ولا يدري كيف يعبده.

ويروي لنا أحد الصحابة وهو عامر بن رَبيعة ما يأتي: سمعت زيد بن عمرو بن نُفَيْل يقول: "أنا أنتظر نبياً من ولد إسماعيل، ثم من بني عبد المطلب، ولا أراني أدركه. وأنا أومن به، وأصدّقه وأشهد أنه نبي، فإن طالت بك مدة فرأيتَه فأقرئه مني السلام، وسأخبرك ما نَعْتُه حتى لا يخفى عليك." قلتُ: هلمّ! قال: "هو رجل ليس بالطويل ولا بالقصير ولا بكثير الشعر ولا بقليله، وليست تفارق عينَه حمرة، وخاتم النبوة بين كتفيه، واسمه أحمد، وهذا البلد مولده ومبعثه. ثم يُخرجه قومه منها، ويَكرهون ما جاء به حتى يهاجر إلى يثرب، فيظهر أمره. فإياك أن تخدع عنه، فإني طُفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم. فكان من أسأل من اليهود والنصارى والمجوس يقولون هذا الدين وراءك، وينعتونه مثل ما نعتّه لك، ويقولون لم يبق نبي غيره."

قال عامر بن ربيعة: فلما أسلمت أخبرت رسول الله ﷺ قول زيد بن عمرو، وإقراءه

السلام فرد ﷺ وترحم عليه وقال: «رأيته في الجنة يسحب ذيولاً.»(١)

كان ورقة بن نوفل عالماً نصرانياً، وكان ابن عم أمّنا خديجة رضي الله عنها، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي.

وعندما نزل أول وحي على النبي ﷺ انطلقت به خديجة إلى ورقة فقالت له: يا ابن عمّ، اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة: "هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى، يا ليتني فيها جذَع، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك"، فقال رسول الله ﷺ: «أوَ مخرجيّ هم؟» قال: "نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودِيَ، وإن يدركني يومك، أنصرك نصراً مُؤَزَّراً."(٢)

أما عبد الله بن سلام، فكان عالماً يهودياً. لنستمع إليه وهو يشرح كيفية إسلامه: لما قدم النبي ﷺ انجفل الناس عليه، فكنت فيمن انجفل، فلما تبيَّنْتُ وجهَه عرفتُ أنّ وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته يقول: «أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلُّوا والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام.»(٣)

كان عبد الله بن سلام شخصية مهمة، يقول عنه ابن حجر في كتابه "الإصابة" إنه كان شخصاً مبرزاً، ومن نسل النبي يوسف ﷺ.(٤) ومدح القرآن شهادته وذكرها كدليل ضد الكفار فقال: ﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ (الأحقاف: ١٠).

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير ٢/٢٩٦-٢٩٩

(٢) البخاري، بدء الوحي، ٣؛ مسلم، الإيمان، ٢٥٢

(٣) «المسند» للإمام أحمد ٥/٤٥١؛ الترمذي، الأطعمة، ٤٥، القيامة، ٤٢؛ ابن ماجة، إقامة الصلاة، ١٧٤، الأطعمة، ١

(٤) «الإصابة» لابن حجر ٢/٣٢٠

وشاهد بني إسرائيل الوارد ذكره هنا، هو عبد الله بن سلام. ومع أن بعض المفسرين يذكرون بأن الشاهد المذكور في هذه الآية الكريمة هو النبي موسى عليه السلام على اعتبار أن هذه الآية مكية، ولكن الرأي الراجح هو أن هذه الآية مدنية، أي أن سورة الأحقاف وإن كانت مكية، إلا أن هذه الآية مدنية، وتشير إلى عبد الله بن سلام.

(و) لماذا لم يؤمنوا؟

مع أن جميع اليهود والنصارى كانوا يعرفون أنه رسول الله إلا أن حقدهم وحسدهم كان يمنعهم من الإيمان به، ويقف حائلاً دون ذلك. وكانت هذه المعرفة دقيقة وواضحة إلى درجة أن نظرة واحدة منهم لرسول الله ﷺ كانت كافية للإيمان به، ذلك لأنهم كانوا يعرفون هيئة رسول الله ﷺ وشمائله وصفاته، ويشير القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة فيقول: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإنّ فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾ (البقرة: ١٤٦).

ولا يصرح الله تعالى في هذه الآية باسم نبيه، بل يذكره بضمير الغائب (ـه)، وهذا يشير إلى أن جميع أهل الكتاب كانوا يعرفون خاتم الأنبياء؛ لذا، فعندما ذكره بالضمير، كانوا يعرفون أنه يعني النبي المذكور اسمه في التوراة والإنجيل، وهو سيدنا أحمد أو محمد عليه الصلاة والسلام، إذ كانوا يعرفونه أكثر مما يعرفون أبناءهم.

ويروى عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال لعبد الله بن سلام: "أتعرف محمداً كما تعرف ولدك؟" قال: "نعم وأكثر، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفتُه، وابني لا أدري ما كان من أمه."[١]

١- الغيرة والحسد

أجل، لقد كانوا يعرفون رسول الله ﷺ معرفة جيدة، ولكن الإيمان شيء، والمعرفة شيء آخر.. كانوا يعرفونه ولكن لا يملكون الإيمان به؛ فغيرتهم وحسدهم وقفا حائلاً أمام إيمانهم، ومانعاً له.

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» للصابوني ١/١٤٠؛ وانظر: «الدر المنثور» للسيوطي ١/٣٥٧

﴿ولـمّا جاءهم كتاب من عند الله مصدّق لِما معهم وكـانوا من قبل يَستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾ (البقرة: ٨٩). يشرح الله تعالى في هذه الآية السبب الحقيقي لعدم إيمانهم برسول الله ﷺ؛ فالقضية كلها تنحصر في عدم كون خاتم الأنبياء يهودياً. فلو ظهر رسول الله ﷺ من بين اليهـود، لكان تصرفهم مختلفاً دون شك.

والدليل على هذا أن عبد الله بن سلام بعد أن أسلم قال لرسول الله ﷺ: "يا رسول الله! إن اليهود قوم بُهْتٌ، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بَهَتُوني عندك." فجاءت اليهود ودخل عبد الله البيت، فقال رسول الله ﷺ: «أيّ رجل فيكم عبد الله بن سلام؟» قالوا: أعلمُنا وابن أعلمنا، وأَخْيَرُنا وابنُ أخْيَرِنا. فقال رسول الله ﷺ: «أفرأيتم إن أسلم عبد الله؟» قالوا: أعاذه الله من ذلك..فخرج عبد الله إليهم فقال: "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله." فقالوا: شرّنا وابن شرّنا. ووقعوا به.[1]

وهذه الحادثة تبين بجلاء أن اليهود كانوا يعرفون رسول الله ولا يجهلونه، غير أن عنادهم منعهم من الإيمان به.

ويُعدّ سلمان الفارسي ﷺ دليلاً قائماً وحده في هذا الموضوع.. فقد كان مجوسياً أول الأمر، ولكنه كان يتحرّق شوقاً للعثور على الدين الحق، فدخل إلى المسيحية وتَنصّر واعتكف في الكنيسة، وعندما حضرت الراهبَ المنتسب إليه الوفاةُ سأله أن يوصيه راهباً آخر، فوصفه له، وهكذا انتقل من راهب إلى راهب، وصحب كثيراً منهم، وأخيراً سأل السؤال نفسه من راهب شيخ يعيش الدقائق الأخيرة من حياته، فقال له ذلك العالم النصراني:

أيْ بنيّ، واللهِ ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك به أن تأتيه، ولكنه قد أظل زمان نبي، وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام، يخرج بأرض العرب،

---

(١) البخاري، الأنبياء، ١، مناقب الأنصار، ٥١؛ «المسند» للإمام أحمد ١٠٨/٣، ٢٧١، ٢٧٢

مُهاجَره إلى أرض بين حَرّتين،[١] بينهما نخل به علامات لا تخفى، يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل.

قال ثم مات، وغُيِّب، ومكثت بعَمُّورية ما شاء الله أن أمكث، ثم مر بي نفر من كَلْب[٢] تجّار، فقلت لهم: إحْمِلوني إلى أرض العرب، وأعطيكم بقراتي هذه، وغُنيمتي هذه. قالوا: نعم، فأعطيتهموها، وحملوني معهم، حتى إذا بلغوا وادي القُرى ظلموني، فباعوني من رجل يهودي عبداً، فكنت عنده، ورأيت النخل، فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي، ولم يَحِقَّ في نفسي. فبينا أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بني قريظة من المدينة، فابتاعني منه، فاحتملني إلى المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي، فأقمت بها. وبُعث رسول الله ﷺ، فأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق. ثم هاجر إلى المدينة، فوالله إني لفي رأس عَذْق[٣] لسيدي أعمل له فيه بعض العمل وسيدي جالس تحتي، إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه، فقال: يا فلان، قاتل الله بني قَيْلَة، واللهِ إنهم الآن لمجتمعون بقُباء[٤] على رجل قدم عليهم من مكة اليوم، يزعمون أنه نبي.

قال سلمان: فلما سمعتها، أخذتني العُرَواء[٥] حتى ظننت أني سأسقط على سيدي، فنزلت عن النخلة، فجعلت أقول لابن عمه ذلك: ماذا تقول؟ فغضب سيدي، فلكمني لكمة شديدة. ثم قال: ما لك ولهذا! أَقْبِلْ على عملك. قلت: لا شيء، إنما أردت أن أستثبته عما قال.

وكان عندي شيء قد جمعته، فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ وهو

---

(١) الحَرّة: كل أرض ذات حجارة سود. (المترجم)

(٢) كَلْب: اسم قبيلة عربية. (المترجم)

(٣) عَذْق: النخلة. (المترجم)

(٤) قُباء: أصله اسم بئر عُرفت القرينة بها. (المترجم)

(٥) العُرَواء: الرعدة والانتفاض. (المترجم)

بقُباء. فدخلت عليه، فقلت له: إنه قد بلغني أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء قد كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحقَّ به من غيركم. قال: فقربته إليه، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «كلوا!»، وأمسك يده فلم يأكل. فقلت في نفسي: هذه واحدة. قال: ثم انصرفت عنه، فجمعت شيئاً، وتحول رسول الله ﷺ إلى المدينة، ثم جئته به، فقلت: إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها. قال: فأكل رسول الله ﷺ منها، وأمر أصحابه فأكلوا معه. قال: فقلت في نفسي: هاتان ثنتان.

ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببَقيع الغَرْقَد،[1] قد تبع جنازة رجل من أصحابه، وعليّ شملتان[2] لي، وهو جالس في أصحابه، فسلمت عليه ثم استدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي. فلما رآني رسول الله ﷺ استدبرته عرف أني أستثبت في شيء وُصف لي، فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فأكببت عليه أقبّله وأبكي، فقال رسول الله ﷺ: «تحوّلْ!» فتحولت فجلست بين يديه، فقصصت عليه حديثي، فأعجب رسولَ الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابُه..[3]

٢- شعور المنافسة

يقول المغيرة بن شعبة: إن أول يوم عرفتُ رسول الله ﷺ أني أمشي أنا وأبو جهل في بعض أزقة مكة، إذ لقينا رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل: «يا أبا الحكم! هل لك إلى الله وإلى رسوله، وأدعوك إلى الله؟» فقال أبو جهل: يا محمد هل أنت مُنْتَهٍ عن سب آلهتنا؟ هل تريد إلا أن نشهد أنك قد بلّغت؟ فنحن نشهد أن قد بلّغت، فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حق لاتّبعتك. فانصرف رسول الله ﷺ، وأقبل عليّ فقال: والله إني

---

(١) بَقيع الغَرْقَد: مقبرة أهل المدينة وهي داخل المدينة. (المترجم)

(٢) الشملة: الكساء الغليظ يشتمل به الإنسان أي يلتحف. (المترجم)

(٣) «السيرة النبوية» لابن هشام ١/٢٢٨-٢٣٤

لأعلم أن ما يقول حق، ولكن يمنعني شيء: إن بني قُصَيّ قالوا: فينا الحِجابة، فقلنا: نعم، ثم قالوا: فينا السِقاية، فقلنا نعم، ثم قالوا: فينا الندوة، فقلنا: نعم، ثم قالوا: فينا اللواء، فقلنا نعم، ثم أطعموا فأطعمنا، حتى إذا تحاكَّت الرُكَب قالوا: منا نبي. والله لا أفعل.[1]

وفي رواية أخرى أن أبا جهل قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا؛ وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الرُكَب وكنّا كفرسيْ رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نسمع به أبداً ولا نصدقه.[2]

واجتمع رجال قريش وقرروا أن يرسلوا عُتْبة بن ربيعة لكي يكلم النبي، ويقنعه للعدول عن دعوته. وكان عتبة هذا يعدّ من حكماء قريش، ومن المقدَّمين في قريش، وكان أديباً، وشخصاً موسراً. فقام عُتبة وذهب إلى الرسول ﷺ، وأراد أن يلعب معه لعُبة المنطق، فقال له: يا محمد أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال عُتبة: أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ ولم يجبه.. ربما كان سكوته هو الجواب المناسب للأحمق. فقال عتبة: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك، فقد عبدوا الآلهة التي عبدت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم، فتكلم حتى نسمع قولك.

فقال رسول الله: «أفرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم. فبدأ رسول الله ﷺ يقرأ عليه سورة فصلت: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ۞ حم ۞ تنزيل من الرحمن الرحيم ۞ كتاب فُصِّلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ۞ بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ۞ وقالوا قلوبنا في أكنّة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وَقْر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ۞ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين ۞ الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون ۞ إن

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير ٨٣/٣؛ «كنز العمال» للهندي ٣٩/١٤-٤٠

(٢) «البداية والنهاية» لابن كثير ٨٣/٣

الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ﴿ وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ﴿ فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ (فصلت: ١-١٣).

فلما وصل النبي إلى هذه الآية ارتجف عُتبة كمن أصابته حُمّى، ومدّ يده إلى شفتي الرسول ﷺ قائلاً ومتوسلاً: اصمُتْ يا محمد بحق إلهك الذي تؤمن به! ثم قام عُتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلِف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلسوا إليه قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني والله قد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا الكهانة. يا معشر قريش أطيعوا واجعلوها بي. خلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكونَنّ لقوله الذي سمعتُ نبأ، فإن تُصِبْه العرب، فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يَظهر على العرب، فمُلكه ملككم، وعزّه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سَحَرَك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي لكم، فاصنعوا ما بدا لكم.[1]

٣- أسباب أخرى

لم تكن هذه الاعترافات اعترافات فردية تعود لشخص أو شخصين، بل كانت هذه قناعة عامة لديهم، ولكن أسباباً سلبية كانت تمنعهم من الإيمان به، مثل مشاعر الخوف والطمع والحرص والعناد. أجل، فمع أنهم يعلمون أنه نبي، إلا أنهم كانوا يعاندون في

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير ٣/٨١-٨٢؛ «السيرة النبوية» لابن هشام ٣١٣/١

الإيمان به. ويشرح القرآن الكريم حالهم هذه وهو يسرّي عن الرسول ﷺ، فيقول: ﴿قد نعلم أنه لَيحزُنك الذي يقولون فإنهم لا يكذّبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ (الأنعام: ٣٣).

إنهم يلصقون بك تهماً عدة، وأنت تحزن من هذه الاتهامات الباطلة ولكن إياك أن تحزن مما يتقوّل عليك هؤلاء البائسون المغلوبون تحت ثقل أجسادهم، الأسارى بيد شهواتهم، العاجزون عن مغالبة عاداتهم. والحقيقة أنهم لا يكذبونك، إذ لا يستطيعون إسناد الكذب إليك، فأنت بريء من الكذب، وقد سبق وأن دعوك بـ"الأمين." وانظر إلى مدى حماقتهم، فهم لا يؤمنون بما يسندونه إليك، ومع ذلك يتجرؤون على ذلك.. إذن، فلا تحزن.

أجل، إن كان هناك من يجب أن يحزن فهو هؤلاء القوم الذين عادَوْا من بيده خير الدنيا والآخرة، والذين لم يفتحوا قلوبهم للنور وهم على مقربة منه.

(ز) بُعد آخر وأفق آخر

إن الإنسان المسكين لهذا العصر، الذي فقد الكثير من مقاييس القيم، انقلبت نظرته وسلوكه وفكره تجاه رسولنا محمد ﷺ رأساً على عقب. هذا، علماً بأنه من الخطأ الجسيم القيام بتقييمه ﷺ بأي مقياس أو ميزان بشري. فهذا أمر مستحيل، ذلك لأنه كان شخصاً لا مثيل له، ولا نظير له، إذ زُوّد بروح وبقابليات متميزة فريدة، وأُرسِل إلى الدنيا لكي ينظمها من جديد، وليفتح للإنسانية آفاقاً جديدة مشرقة. لذا، فإن تقييمه أمر يخرج عن نطاق قدرتنا، وعن نطاق مقاييسنا وموازيننا، لذا فمهما وصفه الواصفون فلن يوفوه حقه، ومن هذا المنطلق أنشد حَسّان بن ثابت ﷺ –وهو من أعرف الناس به– قائلاً:

وما مدحت محمداً بمقالتي   ولكن مدحت مقالتي بمحمد

فذِكره السنيّ هو الذي يكسب الجمال للكلام الجميل وللكلمات الجميلة، وإلا فما من شيء في تعابيرنا يمكن أن يكسبه شيئاً. ويكرر الفرزدق المعنى نفسه، ولكن بتصرف قليل. ويستعمل مفكر العصر الكبير المعنى نفسه عندما يتكلم عن القرآن الكريم:

وما مدحث القرآن بكلماتي   ولكن مدحت كلماتي بالقرآن [1]

كل هذا نتيجة الاشتراك في الشعور نفسه وفي الفكر نفسه –لحد مّا–، فكلهم استقوا إلهامهم من نفس المنبع، ومن نفس المصدر؛ فأشاروا إلى الأشياء نفسها بتعابير مختلفة، فما أجمله البعض فصّله البعض الآخر، بينما عبّر الآخرُ عنه بأبيات الشعر.. ولكنهم كانوا يحومون حول المحور نفسه، ويطوفون حول المركز نفسه.

والأمر نفسه وارد بالنسبة إلينا، فنحن نريد أن نتحدث، وأن نعبر عن النعمة الكبرى

---

(١) «المكتوبات» لبديع الزمان سعيد النورسي ص٤٧٧

المتميزة المهداة إلينا عندما أصبحنا من أمته، وأن نهتف من أعماق قلوبنا بالحمد لله رب العالمين والشكر له، لأنه رآنا أهلاً لإسباغ نعمته الكبرى علينا بأن جعلنا من أمة المصطفى محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم. فهذا فضل إلهي، وهو يسبغ فضله ونعمته لمن يشاء وبالمقدار الذي يشاء، إلا أن هذا الفضل لا يمكن أن يزنه ميزان أو يحدّه قياس.. فهو بحر واسع لا يحده ساحل، ولا ينتهي بشاطئ. إلا أن للمسألة وجهة أخرى لا أستطيع إهمالها ولا الهرب من السؤال الذي تطرحه: أنملك قلباً لائقاً بسلطان القلوب هذا؟ هل هذا السلطان مستريح في مجلسه من القلوب؟ هل قلوبنا مفتوحة له على الدوام؟ أنلاحظه في قيامنا وقعودنا، في أكلنا وشربنا؟ أنلاحظ محمداً ﷺ بقلوبنا في جميع حركاتنا وسكناتنا؟ أنسير في جميع شؤون حياتنا على الخط الذي رسمه لنا؟ فإن كان جوابنا بالإيجاب فما أسعدنا! لأن هذا يعني أن خيالنا وأحلامنا مزيّنة بجمال صورته.. وإننا بذلك نكون جماعة محمدية، نتخلق بأخلاقه ونتأدب بآدابه.. وإن أيّ جماعة تتزين بمثل زينة أخلاقه، تكون عنصر توازن في هذا العالم. وأنا أعتقد أن هناك سبباً واحداً فقط في عدم وصولنا إلى مثل هذا التوازن، وهو أننا لم نرتق بعد إلى المستوى اللائق للروح المحمدية.

إنه الإنسان المصنوع على عين الله.. وإن مجرد مجيئه إلينا كإنسان يعد أكبر سعادة لنا، ذلك لأن الجنّات نفسها، والفردوس نفسه يتشرف بقدومه. وإن وصفه بما هو أهل له لهو من أكبر مهماتنا، وأشرف وظائفنا؛ فالإنسانية لا تبلغ مرتبة الكمال الحقة إلا بعد أن تفهمه بحق، وتتبع خطاه. وقد عقدتُ نيتي على تنفيذ هذا، إلا أنني سبق وأن ذكرت بأنني لست فارس هذا الميدان، ولكن أملي الوحيد هو محاولة إفهامه وشرحه.. وكل ما أملكه في هذا الخصوص هو نيتي الخالصة.

كنت قد وضعت نفسي منه منذ مدة طويلة موضع "قطمير"، وأسرّي عن نفسي بهذا، غير أنني بدأت أفقد هذا الأمل بمرور الزمن.. ثم تمنيت لو أنني خُلقت شعرة ببدنه، فأكون بهذا القرب من مثل هذا الشخص الذي كان مظهراً لمثل هذه الدرجة من اللطف الإلهي الخاص.. ومرّ زمن عليّ وأنا في مثل هذه الأمنية، إلا أنني كلما ازددت

معرفة به، تأكدت أكثر بأنني لست أهلاً لتحقق هذه الأمنية، لذا فقد انحصرتْ كل رغبتي وأملي في أن أكون فرداً من أمته، ذلك لأنني آمل ألا يحرم الله تعالى فرداً من أمته من شفاعته، فيقول وهو يدخلني بينهم: «هم القوم لا يشقى بهم جليسهم.»[1]

أجل، فقد عقدت نيتي على القيام بشرح وإيضاح هذه الذات السامية، فما أسعدني إن استطعت قدح شرارة واحدة من حبه في قلب هذا الجيل! ولكن ما حيلتي، فمثلي في هذا مثل نملة نَوَتِ الحج، فهي تعلم أن أرجلها الضعيفة لا تقوى على قطع تلك المسافة الطويلة، ولكنها مسرورة لكونها ستموت وهي في الطريق إلى الحج.. فكل أملي أن أموت في هذا الدرب.

إنه إنسان أبعاد أخرى غير هذه الأبعاد.. لذا، فإن الوظيفة الملقاة على عاتقنا هي تعيير أنفسنا حسب تردد موجات ذلك العالم. وعندما يتم هذا، يبدأ التخاطب الصريح، والتخاطب بالشفرات، وتصدر الأوامر من قِبله هو، إذ يتولّى القيادة والإدارة بنفسه. أما الجماعة التي يقودها، والمجتمع الذي يديره فمجتمع عميق المعاني، سامي الأغراض، تغبطه الملائكة، ويقصر عنه كل وصف وتعبير.

قد يبدو للبعض أن ما نقوله بعيد عن الموضوعية. وهذا أمر يؤسَف له، أيقال هذا، وكل يوم يَتلقّى بعض الشباب من ذوي الوجوه النيرة البشارات المعنوية من رسول الله ﷺ؟ وبعد قيام البعض بالاتصال به مباشرة دون أستار ولا حجب وفي عالم الشهادة نفسه؟

إنه بيننا على الدوام بروحه، وحسب بعضهم بجسده النوراني؛ فالإمام السيوطي يذكر أنه التقى برسول الله ﷺ، وتحدث معه مرات عديدة. أجل، إنه لم يمت بالمعنى الذي نفهمه من الموت، بل غيّر أبعاد الوجود فقط، فمن الخطأ النظر إلى وفاته وكأنها مثل وفاة أي شخص اعتيادي، ذلك لأن القرآن يذكر لنا ألا نقول عن الشهداء –وهم أقل بمرتبتين اثنتين عن الأنبياء– إنهم أموات. إذن، فكيف يجوز لنا أن نقول عنه إنه "ميت" بالمعنى الذي نفهمه

---

(١) البخاري، الدعوات، ٦٦؛ مسلم، الذكر، ٢٥؛ الترمذي، الدعوات، ١٢٩؛ «المسند» للإمام أحمد ٢/٢٥٢-٢٥٣

عن الموت؟ أجل، لا يسعنا إلا أن نقول إنه انتقل إلى بُعد آخر، لذا فإن الأشخاص الذين استطاعت أنظارهم وأبصارهم الامتداد إلى هذه الأبعاد يستطيعون رؤيته ومشاهدته.

إن الذين استطاعوا الخلاص من سجن الجسم، ووصلوا إلى مرتبة حياة القلب والروح، يستطيعون عيش الماضي والمستقبل معاً وفي الوقت نفسه. إذن، فلِمَ لا يَتواجد سلطان الرسل في الآخرة وفي الدنيا وأمام الملائكة وأمام الأنبياء في الوقت نفسه وفي اللحظة نفسها؟ أجل، إنه يتواجد وسيتواجد، وسأجعل من كل ما ذكرتُه أساساً وقاعدة لِـما سأذكره، لأن تعيين زاوية النظر إلى الأنبياء وإلى نبينا مهم جداً. فإن كان فهم وحدس الأولياء والأصفياء والأبرار والمقربين -دع عنك الأنبياء العظام- يحتاج إلى صفاء روحي وإلى نقاء قلبي خاص، فكيف يمكن فهم الأنبياء في هذا العالم المادي الغليظ الذي تكثر فيه الحجب والأستار؟ إذن، فلكي نفهمهم فإن علينا التوجه إليهم بكل استعداداتنا القلبية، ولطائفنا الروحية، وبكل دقة واهتمام وتركيز. فإن كان المطلوب فهم شخصية رسول الله ﷺ، فإن هذه الدقة والاهتمام والتركيز يجب أن يزداد أضعافاً مضاعفة، هذا علماً بأن درجة معرفة وفهم كلٍّ منا يتبع درجة قوة نظرته القلبية، ولكن لا أحد يستطيع أن يفهمه ككل أو يحيط به إحاطة تامة، فهو كما قال البوصيري:

وكيف يُدرِك حقيقتَه قومٌ   نيامٌ تَسلّوْا عنه بالحُلُم



القسم الأول:

الأنبياء والرسل

الباب الأول:

إن الأنبياء والرسل رغم وجود فروق بينهم من ناحية المراتب والدرجات إلا أنهم يشتركون في شيء واحد وهو أنهم أناس مختارون مصطفون تجلت عليهم ذات الله ﷻ وربّاهم وأدبهم وفضلهم على العالمين، وجعل قلوبهم مقتصرة عليه لا تحوم حول أحد غيره.

ومثل جميع الأنبياء والمرسلين اقتصر نظر نبينا ﷺ –وبدرجة أكبر– على ربه ﷻ فلم ير شيئاً غيره، ولم يستطع أحد دون الله أن يستميل نظره إليه وأن يصرف وجهه إليه أو يحوّل نظره عنه، فهو منذ فتَح عينيه على الدنيا رأى ربه، وعندما أغمض عينيه الإغماضة الأخيرة قال: «اللهم الرفيق الأعلى....»

لنسمع هذا من أمنا عائشة رضي الله عنها:

إن النبي ﷺ كان ينفُث على نفسه في مرضه الذي قُبض فيه بالمعوِّذات، فلما ثقل كنت أنا أنفث عليه بهنّ فأمسح بيد نفسه لبركتها. فلما مرض رسول الله ﷺ وثقل أخذت بيده لأصنع به نحو ما كان يصنع فانتزع يده من يدي ثم قال: «اللهم اغفر لي واجعلني مع الرفيق الأعلى.»[1]

فمن الواضح أن رسول الله ﷺ كان لا يرغب بالرفيق الدنيوي بل بالرفيق الحقيقي، وهو ربه، وكان يرغب في الوصول إليه في بُعد آخر. إذن، فما السبب في مجيء هؤلاء الأنبياء والمرسلين –ولاسيما رسولنا ﷺ– إلى الدنيا وهم الذين عاشوا من لحظة مجيئهم إلى الدنيا حتى وداعهم وفراقهم لها هذا الطراز من العيش؟ ولتحقيق أي غاية وهدف أرسلوا؟ إن فحص وتحليل هذا الموضوع مهم جداً وذلك لسببين رئيسين:

---

(١) البخاري، المغازي، ٨٣، المرضى، ١٩؛ مسلم، السلام، ٤٦؛ أبو داود، الطب، ١٩؛ الترمذي، الدعوات، ٧٦

الأول: لكي يتم فهم ومعرفة مدى سمو مرتبة النبوة وتجنّب الظن بأنهم كانوا أناساً عاديين، وتهيئة الرد على من يظن ذلك.

الثاني: الإشارة إلى الطريق الواجب سلوكها للذين يمثلون وظيفة الأنبياء وإلى النظام الذي يجب أن يتبعوه في هذا الموضوع.

ولا يفقد هذا الموضوع أهميته مهما تغيرت زاوية النظر إلى هذه المسألة، لذا فسنقوم بإيراد رأينا في هذا الموضوع بشكل نقاط لم نرتبها حسب أهميتها.

(أ) العبودية

تلتقي الغاية التي من أجلها أرسل الأنبياء والرسل مع غاية خلق الإنسان ألا وهي العبودية لله ﷻ، والقرآن الكريم يشير إلى هذه الغاية فيقول: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ (الذاريات: ٥٦).

إذن، فإن الغاية الأساسية من خلقنا والهدف الرئيسي له هو معرفة الله ﷻ وإيفاء وظيفة العبودية له بشكلها الصحيح واللائق. وليس اقتناء الأموال والأملاك والقصور، أو الأكل والشرب والتمتع بلذائذ الدنيا. صحيح أن هذه الأمور حاجات فطرية إلا أنها لا تشكل غاية لخلقنا.

وما جاء الأنبياء والرسل إلا لكي يَدلّونا على هذه الغاية ويرشدوا إلى هذا الطريق. والقرآن الكريم يشير إلى هذا فيقول: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥).

ويقول في آية أخرى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حَقّت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذّبين﴾ (النحل: ٣٦). وهذه الآية تشير بوضوح إلى أن سبب إرسال الرسل هو تجنب عبادة الأصنام والأوثان، وإرشاد الناس إلى عبادة الله تعالى، وجعل أنفسهم قدوة حسنة ومثلاً يُحتذى في هذا الأمر.

أما وضع رسولنا ﷺ فمختلف، فهو إضافة إلى كونه مرسلاً رحمة للعالمين إلا أنه كان مكلّفا في الوقت نفسه بدعوة الإنس والجن إلى عبودية الله تعالى، إذ يروى عن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بِتُّ الليلة أقرأ

على الجن ربُعاً بالحَجُون[1].»[2]

وبعد أن بلّغ الرسول ﷺ رسالته إلى الإنس والجن علم أن مهمته في الحياة قد انتهت وأنه آن الأوان إلى أن يرجع إلى الرفيق الأعلى؛ لذا، نجده يقول في آخر خطبة له يقول: "إن عبدا خيره الله بين أن يختار من زهرة الدنيا ما يشاء أو أن يختار ما عند الله فاختار ما عند الله." فذلك العبد المخير هو رسول الله ﷺ.[3]

---

(١) الحَجُون: اسم موضع. (المترجم)

(٢) «المسند» للإمام أحمد ٤٤٩/١؛ «جامع البيان» للطبري ٣٣/٢٤

(٣) البخاري، مناقب الأنصار، ٤٥؛ مسلم، فضائل الصحابة، ٢

(ب) التبليغ

الغاية الأخرى من إرسال الأنبياء والمرسلين هو القيام بالتبليغ الديني. فلو لم يأتوا لما عرفنا المسائل المتعلقة بالعبادة، ولما وصلتْنا الأوامر والنواهي ولما عرفنا واجباتنا وما فُرض علينا. أي لما عرفنا معنى الصلاة والصيام والزكاة والحج. ولما عرفنا أبداً موقفنا من المحرمات كالخمر والمَيْسِر والزنا والاحتكار والربا. فنحن لم نعرف هذه الأمور وأشباهها إلا بوساطة الأنبياء، ونحن نسمي هذا الأمر بإيجاز "وظيفة الرسالة" حيث جاء الرسل والأنبياء جميعاً بالرسالة نفسها مع اختلاف في الفروع والتفاصيل وبلّغوا الشيء نفسه في الأمور الأساسية.[1]

ويوضح القرآن الكريم الغاية العامة للأنبياء والرسل والوظيفة العامة لهم فيقول: ﴿الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً﴾ (الأحزاب: ٣٩).

إذن، فقد جاءوا لتحقيق هذه الغاية، وما كان يهمهم أبداً ولا يؤثر فيهم أبداً نوع العقبات المنتصبة أمامهم ولا الأشخاص الواقفين تجاههم، إذ ما كانوا يعرفون الخوف، فخوفهم وخشيتهم كانت من الله تعالى وحده.

وفي هذا المجال يخاطب الوحي رسولنا ﷺ فيقول:

﴿يا أيها الرسول بلِّغْ ما أُنزِل إليك من ربك وإن لم تَفْعل فما بلَّغتَ رسالته والله يَعصِمك من الناس إنّ الله لا يهدي القوم الكافرين﴾ (المائدة: ٦٧).

أي إنك إن قصّرت في وظيفتك التي هي وظيفة تبليغ الرسالة فإن هذا القصور لن يعدّ

---

(١) «الأنبياء إخوة لِعَلّات، أمهاتهم شتّى ودينهم واحد.» أي إن الأنبياء إخوة من ناحية الأب مع اختلاف أمهاتهم، أي إن الأنبياء يتفقون في أصل الدين وقاعدته وهي "التوحيد" ويختلفون في الفروع. (البخاري، الأنبياء، ٤٨؛ مسلم، الفضائل، ١٤٥)

قصوراً متعلقاً بحياتك الشخصية والفردية، بل هو موضوع متعلق بالحياة الفردية والاجتماعية لكل الناس، ذلك لأن وظيفتك هي تنوير طريق الإنسانية كلها، فلو قصرت في إيفاء وظيفتك هذه لبقيتْ البشرية جمعاء في الظلام. وفي الحقيقة فإن الرسول الكريم كان على يقين بمدى أهمية رسالته، ولولا ذلك لما أُرسل بهذه المهمة ولما قُدّرت له هذه الوظيفة. بعد أن كُلّف رسول الله ﷺ بهذه المهمة المقدسة قضى حياته كلها في سبيل تبليغ الدين، فبدأ بطَرْق كل باب وبالبحث عمن يتوسم فيه قبول دعوته.

كان ردُّ فعلِ الجبهة المعارضة هو إبداء اللامبالاة وعدم الاهتمام والمقاطعة في بداية الأمر، ثم انقلب إلى الاستهزاء والسخرية، وفي المرحلة الأخيرة تحول إلى استعمال القوة والعنف وتطبيق صنوف التعذيب، إذ بدأوا بإلقاء الأشواك في طريقه، ووضع الروْث على رأسه عندما يقف للصلاة... الخ من ألوان الإهانة والتحقير. ولكن رسول الله ﷺ لم يهن ولم ييأس ولم تفتر عزيمته، ذلك لأن مهمته هذه كانت سبب وهدف مجيئه للدنيا. فدعا الجميع -ومنهم أعداءه الألداء- مرات عديدة وبلغهم الرسالة الإلهية. أجل، فمن يدري كم من مرة ذهب إلى أعداء الله وأعداء الدين مثل أبي جهل وأبي لهب وعرض عليهم الهدى والحق، فكان يتجول في الأسواق ويزور الناس في خيامهم خيمة خيمة لعله يكون وسيلة لهداية أحدهم... ولكن الأبواب كلها كانت توصَد في وجهه، ومع ذلك يذهب ويطرق الأبواب نفسها ويكرر الكلام نفسه... وعندما قطع الأمل عن مكة ذهب إلى الطائف، وكانت مكان نزهة وبساتين، فقابله أهل الطائف -الذين أبطرتهم النعم وأعماهم الترف- شر مقابلة وفاقوا في ذلك أهل مكة، فاجتمع صبيانهم وسفهاؤهم وأخذوا يقذفونه بالحجارة... أجل، قذفوا بالحجارة فخر العالمين ومن تستحي الملائكة من التطلع إلى وجهه الكريم، وطردوه من الطائف، وكان زيد بن حارثة -ابنه بالتبني آنذاك- معه، ومع أن زيداً حاول أن يحمي بجسده رسول الله من هذه الحجارة المنهمرة عليه، إلا أن الجسد المبارك لرسول الله أصابته الحجارة وأدْمته.

التجأ رسول الله ﷺ من هذا الوسط العدائي إلى ظل شجرة في بستان، وظهر جبريل

الأمين أمامه قائلاً له إنه مستعد لأن يرفع جبلاً ويقلبه على رؤوس هؤلاء المتوحشين، ولكن رسول الله ﷺ لم يقبل ذلك مع أنه كان في غاية التأثر، ذلك لأنه في المستقبل البعيد قد يؤمن أحدهم، لذا قال لجبريل «لا.»

ثم فتح يديه ودعا ربه:

«اللهم إليك أشكو ضَعْفَ قُوَّتي وَقِلّة حِيلتي وهَواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستَضعفين وأنت ربي إلى من تَكِلني؟ إلى بعيد يَتجهّمني أم إلى عدوّ ملّكته أمري. إن لم يكن بك غضبٌ عليّ فلا أبالي، ولكن عافيتَك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقتْ له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنزل بي غضبَك أو يحلّ عليّ سخطُك. لك العُتْبَى حتى تَرضى ولا حول ولا قوة إلا بك.»

"فلما رآه ابنا ربيعة عُتبة وشيبة وما لقي تحركت له رحِمهما، فدعوا غلاماً لهما نصرانيا يقال له عَدّاس وقالا له: خذ قِطفاً من هذا العنب فضعه في هذا الطَبَق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه ففعل عدّاس ثم ذهب به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ ثم قال له: كل. فلما وضع رسول الله ﷺ يده فيه قال: «بسم الله» ثم أكل، ثم نظر عدّاس في وجهه ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد. فقال له رسول الله ﷺ: «ومِن أهل أيّ بلاد أنت يا عَدّاس، وما دينك؟» قال أنا نصراني وأنا رجل من أهل نِينوى. فقال رسول الله ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متّى.» فقال له عدّاس: وما يُدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ: «ذلك أخي كان نبياً وأنا نبيّ» فأكبّ عداس على رسول الله ﷺ يقبّل رأسه ويديه وقدميه فقال ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أمّا غلامك فقد أفسده عليك. فلما جاء عداس قالا له، ويلك يا عدّاس مالك تقبّل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي ما في الأرض شيء

خير من هذا. لقد أخبرني بأمرٍ ما يعلَمه إلا نبي.»[١]

ولولا هذه الحادثة الأخيرة لعاد محزوناً ومهموماً من الطائف... ليس لِما قاساه منهم، بل لأنه لم يُعطَ الفرصة لتبليغ دعوته لأيٍ منهم، ولكنه الآن فرح فقد أصبح سبباً في هداية عدّاس.

وإذا كان التعبير جائزاً فقد كان ﷺ يمامة الأنبياء لا يفتر في البحث عن القلوب النقية المنفتحة على الحقيقة، وعن الوجوه المقبلة على الهداية، وعندما يجدها يتسرب إلى هذه القلوب ويهمس فيها إلهام روحه. وهكذا كلما زادت الحلقات والهالات حوله وتوسعت جُنّ جنون أصحاب الكفر والضلالة.

وكما جُنّ الكفر في الوقت الحالي أمام الصحوة الإسلامية في شرق العالم وغربه وأصبح يهذي، كان الكفر أيضاً قد جن وهو يرى حلقات الأتباع وهي تزداد حول الرسول ﷺ.

وأدى هذا الجنون الذي أصاب الكفر إلى توهم أنهم يستطيعون إطفاء نور الله... ولكن هيهات... فمحاولاتهم تلك كانت أشبه بمن يحاول إطفاء نور الشمس بأفواههم... والشمس هنا تأتي من باب التمثيل وإلا فإن النور الذي أتى به كان يفوق نور الشموس، لأنه كان من نور الله عزّوجلّ. والقرآن الكريم يصور حالتهم المضحكة هذه فيقول: ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ (التوبة: ٣٢).

وفي القرن العشرين... في أيامنا الحالية هذه انقدحت الشرارات في نفوسنا من المشعل الذي أشعله نبينا ﷺ، فسارت مئات الآلاف في طريقه وهم يحملون أرواحهم في أكفهم من أجله ومن أجل إعلاء دعوته. إذن، فالله جلّ جلاله شاء أن تتجدد الآن تلك الحالة المحمدية، وأن تتكرر تلك السلسلة الذهبية، أما حقد الكفر وغيظه وشدته وحدّته ومكره وخديعته فلن تستطيع الوقوف أمامها أو إيقاف سيرها... أجل، فإن هذه البذور التي زرعها

---

(١) البخاري، بدء الخلق، ٧؛ مسلم، الجهاد، ١١١؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ١٦٦/٣؛ «السيرة النبوية» لابن هشام ٦٠/٢-٦٣

الإخلاص ستنبت عاجلاً أم آجلاً... إن لم يكن اليوم فغداً؛ فالنور الذي نشره رسول الله ﷺ لن ينطفئ أبداً.

وعندما لم تعد مكة قادرة على إيوائه هاجر إلى المدينة لكي يستمر في نشر الهداية والنور هناك، ولكن كان عليه أن ينشغل مع اليهود والمنافقين هناك، وأن يقود الحرب ضد الكفار، وتنكسر سِنّه في الحرب ويدمى وجهه وأن يجوع ويظمأ، حتى أنه كثيراً مّا كان يربط الحجر على بطنه، وأن يستمر سائراً في دربه دون أي تراخ أو تباطؤ، فلم يتوقف أبداً عن إيفاء وظيفته في الدعوة، ولم يهمل لحظة واحدة مهمة التبليغ فأوضح كل أمور الدين وشرح كل دقائقها وقام بمهمته في تبليغ دين الله أفضل قيام، ولم يهمل إرشاد الأفراد طوال إقامته في المدينة المنورة رغم كل مشاغله ونضاله مع الدول الأخرى؛ فعندما يأتيه أعرابي ويسأله عن مسألة شرَحَها قَبله مئات المرات ما ضاق به وبسؤاله، بل يشرحها له بكل سرور وبكل انشراح وبكل مودة.

والتبليغ يعني إرشاد الناس إلى الصراط المستقيم، والحقيقة أن التبليغ هو سر إرسال الأنبياء وإرسال سلطان الأنبياء. هذا الصراط المستقيم الذي يعرفه كل المؤمنين ويجب أن يعرفوه جيدا، فنحن ندعو الله أربعين مرة أو أكثر كل يوم أن يهدينا إلى الصراط الذي سلكه الأنبياء والصديقون والشهداء، وأن يبلغنا مرامنا ومرادنا مثلهم. والصراط المستقيم طريق عريض، ولكل واحد نصيبه المعلوم منه، ذلك لأن خاتم الرسل أرسل رحمة للعالمين كما تشير إلى ذلك الآية الكريمة. ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

ثم إنه كان شاهدا ومبشرا ونذيرا كما تنص على ذلك الآية الكريمة:

﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾ (الأحزاب: ٤٥).

إن رسولنا ﷺ تحمّل عِبْئاً كبيراً وثقيلاً مثل عبء النبوة ثلاثة وعشرين عاما، وقام بإيفاء وظيفته بنجاح منقطع النظير لم يتيسر لأي صاحب دعوة آخر... وبمثل هذا الروح وبهذه المشاعر المضطرمة بحب الله كان يتقدم ويقترب من الهدف المنشود ومن النهاية المباركة.

وحج حجة الوداع، إذ حج مرة واحدة، ولأنه جمع بين الحج والعمرة فإننا نسمي ذلك بـ"الحج الأكبر"[(١)] وفي هذا الحج ركب رسول الله ﷺ ناقته وبلّغ كل ما يجب تبليغه مرة أخرى... فمن قضايا القتل والفدية إلى حقوق المرأة... إلى قضايا الربا... إلى العلاقات بين الأقوام والقبائل... إلى سواها من الأمور والمواضيع... بلغ كل ذلك مرة أخرى وكان يتوجه كل مرة إلى الجماعة المؤمنة قائلاً: «ألا هل بلّغتُ؟» فكانت تردّ عليه: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فكان يشير بأصبعه إلى السماء وينكبها على الناس قائلاً: «اللهم اشهد. اللهم اشهد» ثلاث مرات.[(٢)]

لقد أدّى مهمته بحقّ، وقام بالتبليغ على أفضل وجه، لذا فقد كان مستريح الضمير، مرتاح النفس، مطمئن القلب، وكان يتهيأ لملاقاة ربه... كان إنسان مراقبة للنفس مراقبة حساسة جدا، لذا فقد قضى حياته كلها في إطار هذه المراقبة الحساسة يسائل نفسه: هل استطعت أن أبلغ رسالتي كما يجب وهل عشت لتحقيق الهدف الذي من أجله أرسلني الله تعالى إلى الناس؟

---

(١) الحج الأكبر: وهو القيام بإيفاء العمرة والحج معا. علما بأن هناك اعتقاد خاطئ شاع بين الناس حول الحج الأكبر مفاده أنه الحج الذي يصادف فيه يوم عرفة يوم الجمعة.

٩١

(٢) البخاري، الحج، ١٣٢، المغازي، ٧٧؛ مسلم، الحج، ١٤٧؛ ابن ماجة، المناسك، ٨٤؛ أبو داود، المناسك، ٥٦

(ج) القـدوة الحسـنـة

ومن الأسباب التي يمكن ذكرها لإرسال الله تعالى لأنبيائه ورسله هو أن يكونوا أسوة حسنة وقدوة متبعة لأممهم. فالله تعالى يذكر في قرآنه الكريم: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ (الأنعام: ٩٠). هذه الآية موجهة للرسول ﷺ توصيه بالاقتداء بالأنبياء الذين سبقوه بعد أن ذكرت أسماءهم واحداً تلو الآخر... فتأمل.

ثم إن القرآن الكريم يخاطبنا قائلاً: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾ (الأحزاب: ٢١).

فالأنبياء أسوة حسنة لنا وهم أئمتنا؛ فكما نتبع الإمام في الصلاة، نتبع سلوك الأنبياء في جميع تفاصيل الحياة ونقتدي بهم. ذلك لأن الحياة الحقيقية بالنسبة إلينا يمثلها نبينا ﷺ والأنبياء الآخرون. والصحابة الذين عاشوا عهد رسول الله ﷺ اقتدوا به حذو النعل بالنعل، لذا وصل هؤلاء الصحابة والتابعون لهم إلى هذه المنزلة التي بينها رسول الله ﷺ في حديثه:

«يأتي على الناس زمان يغزو فِئام من الناس. فيقال لهم: فيكم من رأى رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم، فيُفتَح لهم. ثم يغزو فئام من الناس فيقال لهم: فيكم من رأى من صَحِبَ رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم. ثم يغزو فئام من الناس. فيقال لهم: هل فيكم من رأى من صَحِب من صحب رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم.»[1]

ويقول النبي ﷺ في حديث آخر: «خير الناس قَرْني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم.»[2]

فيشير إلى فضل القرون القريبة منه، ذلك لأن أهل هذه القرون كانوا يبدون حساسية

---

(١) البخاري، فضائل الصحابة، ٤؛ مسلم، فضائل الصحابة، ٢٠٨-٢٠٩

(٢) البخاري، فضائل الصحابة، ٤؛ مسلم، فضائل الصحابة، ٢١٢

شديدة في اتباع سنن الرسول ﷺ في كل شيء: في حياتهم ومشاعرهم وأفكارهم. وفي الحقيقة كان من المهمّ أن يكون التشبه برسول الله ﷺ -المبعوث من قبل الله أسوة حسنة- غاية وهدفاً... وتحقق هذا فعلاً.

أجل، لقد أبدى الصحابة والتابعون وتابعو التابعين حساسية شديدة في هذا الموضوع، لذا كانوا أفضل من الناس الذين عاشوا في القرون الأخرى، وكان النبي عيسى عليه السلام يقصد أمة نبينا ﷺ عندما قال: [في يدهم أعلام القِدِّيسين] (التثنية - الباب: ٣٣، الآية: ٣) وهذا تبجيل كبير. وهناك حديث ضعيف يقول: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل.»[١] وهذا مما يدل على فضل هذه الأمة المحمدية.

أجل، فقد وصلوا باتباعهم النبي ﷺ إلى الحد الذي لا يوجد وراءه سوى النبوة. وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يمثل أنموذجاً مدهشاً لهذا النوع من الرجال الذين اتخذوا من الرسول ﷺ مُرشداً لهم في جميع أمور وتفاصيل ودقائق حياتهم، وزيّنوا وعطّروا حياتهم بهذه القدوة المباركة. ولم يتغير نظام حياته قيد شعرة بعدما دالت له الدول وانفتحت أمامه أبواب البيزنطية ودانت له الشعوب والأمم؛ أما القُدس الحزينة الأسيرة اليوم... اللطخة السوداء على جبين العالم الإسلامي... هذه البلدة الطيبة التي فتحت في عهده والتي لم يرض قساوستها ورهبانها تسليم مفاتيحها على الرغم من انتصار المسلمين وفتحهم لها قائلين: "لا نرى فيكم أوصاف الشخص الذي يجب أن يتسلم هذه المفاتيح..." وعندما أخبر بذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب سافر إلى القُدس على ناقة استعارها من بيت المال متناوبا ركوبها مع خادمه حتى وصلا المدينة.

ولننظر هنا إلى تجلي عظمة القدر حيث يتوافق دخول الأمير المدينة وهو يقود الدابة لخادمه؛ إذ كانت نوبة الركوب له، فنزل الخليفة عن الناقة ولم يلتفت إلى إصرار الخادم، فأركبه الناقة وأمسك بمقودها يقودها وهو يدخل إلى المدينة.

---

(١) «كشف الخفاء» للعجلوني ٢/٦٤؛ «الفوائد المجموعة» للشوكاني ص٢٨٦

ولكم أن تتصوروا أنتم حال من يرى هذا المنظر الفريد... لقد بهتهم هذا المنظر، وأذهلهم حتى تسمّروا في أماكنهم لا يصدقون ما تراه أعينهم، وقالوا: "أجل، هذه هي صفات الشخص المذكور في كتبنا" وسلموا له مفاتيح المدينة.

ثم تأملوا حاله وهو مسجًّى على الأرض بعد أن طعنه ذلك المجوسي. وأثر ما أكله من طعام أوشراب يخرج من جرحه... كان صامتاً لا يبدر منه صوت ولا يهتم بما يدور حوله، وها هو خادمه يأتيه ويسأله إن كان يريد طعاما أو شرابا فلا يجيبه وإنما يشير بعينيه أن "لا". ويروي المِسْوَر بن مَخْرَمَة قال: دخلت على عمر بن الخطاب وهو مسجى فقلت: كيف ترونه. قالوا: كما ترى. قلت: أيقظوه بالصلاة فإنكم لن توقظوه لشيء أفزع[1] له من الصلاة. فقالوا: الصلاة يا أمير المؤمنين. فقال "ها الله ولا حقّ في الإسلام لمن ترك الصلاة." فصلى وإن جرحه لَيَثْعَب[2] دما.[3]

هكذا كان عمر ﷺ... هكذا كان لأنه تعلم ذلك من سيده وحبيبه ورسوله، لذا يجب أن يتبعه ويقتدي به بهذا الشكل كي يكون أسوة حسنة لمن يأتي بعده.

أجل، فإرسال الرسل والأنبياء ليكونوا قدوة وأسوة حسنة لأممهم من أسمى غاياتهم.

---

(١) أي يلجأ اليها. (المترجم)

(٢) يثعب: أي يجري. (المترجم)

(٣) «مجمع الزوائد» للهيثمي ٢٩٥/١؛ «الطبقات الكبرى» لابن سعد ٣٥٠/٣

(د) تأمين التوازن بين الدنيا والآخرة

أتى الأنبياء والرسل لتأمين التوازن بين الدنيا والآخرة. فبمقياس التوازن الذي جاءوا به يستطيع ابن آدم أن يجد طريقه المستقيم ومنهاجه الصحيح ويتخلص من الإفراط والتفريط.

أجل، فلا يجب ترك الدنيا والاعتكاف في الأديرة والصوامع كالرهبان. ولا يجب الانغماس في الدنيا والانقلاب إلى عبد لها وأسير في يدها، بل الأفضل العثور على الطريق الوسط، ولا يمكن ذلك إلا بوساطة الوحي؛ فالعقل والوجدان لا يستطيعان إنشاء مثل هذا التوازن؛ والعلم الصرف أبعد منهما عن الوصول إلى هذا الهدف وتحقيق هذه الغاية، إذ لا يستطيع رفع الإنسان إلى هذا المستوى.

والقرآن الكريم يشرح هذا التوازن فيقول: ﴿وابتغِ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين﴾ (القصص: ٧٧).

فإذا وضعتَ في إحدى كفتي هذا الميزان الإلهي الحقائق التي تنطق بها الآية الكريمة: ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ (الضحى: ١١) عليك أن تضع التحذير الذي تتضمنه الآية ﴿ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم﴾ (التكاثر: ٨).

وهكذا يتم حفظ التوازن بهذه المقاييس والموازين.أما إنفاق أبي بكر الصديق ﷺ كل ماله في سبيل الله وعدم إبقائه لأهله شيئاً فما ذلك إلا لأن مرتبة "الصدّيقية" تستلزم هذا.

يروي زيد بن الأرقم الحادثة التالية عن أبي بكر ﷺ في أيام خلافته فيقول: إن أبا بكر ﷺ استسقى فأتي بإناء فيه ماء وعسل، فلما أدناه من فيه بكى وأبكى من حوله، فسكت وما سكتوا، ثم عاد فبكى حتى ظنوا أن لا يقدروا على مساءلته، ثم مسح وجهه وأفاق فقالوا: ما هاجك على هذا البكاء؟ قال: كنت مع النبي ﷺ، وجعل يدفع عنه شيئاً

ويقول: «إليك عني... إليك عني...» ولم أر معه أحداً فقلت: "يا رسول الله! أراك تدفع عنك شيئاً ولا أرى معك أحدا؟" قال: «هذه الدنيا تمثلت لي بما فيها، فقلت لها إليك عني فتَنحّتْ وقالت: أما والله لئن انفلتَّ مني لا ينفلتُ مني مَن بعدك.» فخشيت أن تكون قد لحقتني فذاك الذي أبكاني.[1]

أجل، فمع أن الدنيا أقبلت عليهم فإنهم عاشوا حياة متوازنة، ذلك لأن قدوتهم وأسوتهم ومرشدهم عاش كذلك.

---

(١) «حلية الأولياء» لأبي نعيم ١/٣٠-٣١

(هـ) سد باب المعذرة

من أسباب إرسال الرسل والأنبياء هو سد باب معذرة الناس أمام الله ﷻ يوم القيامة. قال الله تعالى موضحا هذه الغاية ومبينا هذا السبب: ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلاّ يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ (النساء: ١٦٥).

لم يستطع القادة والزعماء -عدا الأنبياء والرسل- المداومة على إقناع الأمم والشعوب إقناعاً مستمراً. إنهم قد يفعلون ذلك لمدة وقد ينجحون، ولكن نجاحهم هذا نجاح مؤقت؛ إذ سرعان ما يتجاوزهم الزمن ويبلي أفكارهم فتسقط كما تسقط أوراق الخريف. ذلك لأن دعوتهم غير مستندة إلى العون الإلهي لذا، فهم لم يستطيعوا أن يتخطوا الصفة البشرية قولا وفعلا.

أما الأنبياء والرسل فهم بخلاف ذلك. إنهم أشخاص معدّون سلفاً ومختارون للنبوة والرسالة وهم في أرحام أمهاتهم. فحياتهم حياة متناغمة تناغم لحن موسيقي، وحديثهم حديث عذب عذوبة الشعر، فعندما يتحدثون ينصت الوجود كله لهم، ويرهف الجميع أسماعهم لهم، فكم من أمر تغير بمجيئهم، وكم من حادثة حولت طريق سيرها بقدومهم، وكم من قلب أسلم قياده لهم واتبعهم، وكم من ناموس جار في الكون وقف من أجلهم بل غير مجراه من أجلهم ونتيجة طلبهم.

ويكفينا في هذا أن نوجه النظر إلى سلطان الأنبياء وسيد المرسلين محمد ﷺ؛ فالأرض والشجر والحيوان توجه إليه وكأن كلاً منهم يرغب في أن يقيم علاقة معه باسم النوع الذي ينتسب إليه وأن يظهر تصديقه بنبوته وبرسالته، فكما قال البوصيري:

جاءت لدعوته الأشجار ساجدة[1]

ذلك لأن الأشياء اكتسبت معانيها بعد قدومه هو، وتخلص الوجود كله من ركام الفوضى... كان يقول بلسان القرآن ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون

---

(١) انظر الى: مسلم، الزهد، ٧٤؛ «المسند» للإمام أحمد ٢٢٣/١؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ١٣٥/٦

تسبيحهم﴾ (الإسراء: ٤٤). يقول هذا وكأنه ينفخ الحياة والروح في كل موجود. كل ما تعلمناه تعلمناه منه، وما بانت حكم الأشياء إلا به،[١] ويجدر بنا أن نورد في هذا الصدد أن الإنسان لم يخلق عبثاً ولم يترك سدى.[٢]

لقد جاء كل نبي ورسول بمعجزات عديدة ليزداد الذين آمنوا إيمانا، ولا يبقى لغير المؤمنين أي عذر لهم في عدم الإيمان. أما سيد المرسلين فقد أتى بجميع معجزات الأنبياء والمرسلين السابقين له. أجل، فقد رأت كل أمة معجزات نبيها أو سمعت بها، أما نحن فقد سمعنا آلافاً من معجزات نبينا، ونرى بين أيدينا في كل حين معجزة خالدة وهي القرآن الكريم؛ ومن ثم فلا عذر لأي شخص، ولا مجال لأي اعتراض لأن الله ﷻ قد أوضح بوساطة نبيه جميع الحقائق التي تعود إلى الإيمان إيضاحاً كاملاً وعرضها أمام الأنظار بكل جلاء، ويعد هذا الأمر أحد أسباب بعث الأنبياء والرسل؛ لأن الله تعالى قرر في القرآن هذه القاعدة حيث يقول: ﴿وما كنا معذّبين حتى نبعث رسولاً﴾ (الإسراء. ١٥).

فإذا ما نصبت موازين الحساب يوم القيامة فلا عذر لأحد ولا حجة لكائن من كان؛ فقد أرسلت الرسل وبعثت الأنبياء.[٣]

---

(١) انظر إلى: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾ (البقرة: ١٢٩)، ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ (البقرة: ١٥١) ، ﴿لقد مَنّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ (آل عمران: ١٦٤)، ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ (الجمعة: ٢). وانظر إلى: «المسند» للإمام أحمد ٢٠٢/١ (الحديث الذي جرى بين جعفر بن أبي طالب والنجاشي).

(٢) الآيات التالية تشرح هذا الأمر بوضوح: ﴿أيحسب الإنسان أن يُترَك سُدًى﴾ (القيامة: ٣٦)، ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ (المؤمنون: ١١٥)

(٣) انظر: ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين﴾ (الزمر: ٧١)

الباب الثاني:

خصائص الأنبياء

(أ) الربانية

ما قام أي نبي أو رسول بدعوته نتيجة تفكيره الذاتي أو قناعته بفلسفة خاصة أو نظام معين رآه صالحاً... لم يقم بهذا أي نبي ولا يمكن أن يقوم. فالله ﷻ يختار شخصاً معيّناً من بين الناس ليجعله رسولاً... وعندما يحين الوقت المناسب يكلف الله تعالى هذا الشخص المصطفى بمهمة الرسالة، ويبلغه بأداء وظيفة النبوة، فيقوم هذا الشخص بإعلان نبوته. نعم.. يأتي كل نبي بالوحي... ويعيش بالوحي... ويموت بعد انقطاع الوحي؛ فالوحي بالنسبة لهم شيء أساسي كالهواء والماء والخبز بالنسبة إلينا... فنسيم "الأنس الإلهي" غذاء أرواحهم، ومن الفيوض القدسية تهبّ عليهم نسائم مثل ريح الصبا؛ وهم يتحمّلون البقاء بين الناس ما دامت هبوب تلك النسمات، فإذا ما انقطعت طاروا بأجنحة الشوق إلى ربهم وبارئهم، أو انتظروا الرحيل إلى ذلك العالم المضيء؛ فهم أناس سلّموا أنفسهم لله، فلا يتحدثون من أنفسهم أبداً بل ينطقون فقط بما أراده الله منهم وبالأسلوب والكيفية التي أرادها الله تعالى. والدين الذي أتوا به هو الدين الذي وضعه الله تعالى، ودورهم قاصر على إيفاء بدور الربانيين ووظيفتهم.

وعند دعوتهم الناسّ لا يكلفون هدايتهم، فسواء آمن الناس بهم أم لم يؤمنوا فليس هذا من اختصاصهم؛ لأن وظيفتهم هي التبليغ المبين، وهم في أدائهم لهذه الوظيفة لا يعبئون بما يقوله أو يفعله أعداؤهم ومعارضوهم. ولا تجدهم عند قيامهم بهذه الوظيفة يتنازلون عن أدنى شيء في دعوتهم مهما كان المقابل «لو وَضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركتُه أوْ أهلِك دونه.»[1]

---

(١) انظر إلى «السيرة النبوية» لابن هشام ٢٨٥/١

(ب) التجرد والتوجه إلى الله وحده

عند قيام الأنبياء والمرسلين بمهمتهم لا ينتظرون أي أجر أو مقابل، مادياً كان أم معنوياً. فشعارهم الموحد كما بينه القرآن في آيات عديدة وفي مناسبات مختلفة على لسان معظم الأنبياء والرسل ﴿إن أجري إلا على الله﴾ (يونس: ٧٢ وهود: ٢٩). إننا قد ننتظر أجراً معنوياً إن لم ننتظر الأجر المادي. أما هذا الأمر غير وارد مطلقاً مع الأنبياء، فهم لا ينتظرون أجراً من أحد، إذ إن ما يفعلونه يكون لأنه أمر من الله تعالى. ولو فرضنا المستحيل وقلنا بأنهم عرفوا أن مصيرهم سيكون صلي لهيب جهنم لما ترددوا أبداً عن أداء مهمتهم لحظة واحدة. ولما انحرفوا عن غايتهم قيد شعرة.

إن الأنبياء والرسل أشخاص في الذروة، مستعدون للتضحية بكل مشاعرهم المادية والمعنوية في سبيل دعوتهم، فليس حب الجنة ونعيمها وخشية النار وجحيمها هما الحادي لهم لتنفيذ هذه المهمة الشاقة والقيام بهذه الوظيفة الصعبة؛ بل إن الحصول على رضا الله تعالى وحسن قبوله هو أسمى غاية لهم.

أجل، إن جميع أعمال الأنبياء خالصة لله عز وجل، ويبلغ هذا الأمر عند رسولنا ﷺ مبلغ الذروة. ففي الدنيا قال «أمتي» وعند المحشر يوم القيامة يقول: «أمتي!.. أمتي!...»[1] فتأملوا درجة إخلاصه أن أبواب الجنة مفتحة له على مصراعيها تنتظر تشريفه لها، غير أنه منشغل الفكر بمصير أمته يبتغي أن يوصلها إلى الجنة، من أجل ذلك يرجح البقاء في جو ذلك المحشر الرهيب على التنعم بنعيم الجنة. وهو لا يفعل هذا لأصهاره ولأقربائه فقط، بل لأمته جميعاً حتى المجرمين منها.

أجل، إن منافذ أرواحهم منفتحة على غاية واحدة لا غير، هي الحصول على رضا الله

---

(١) البخاري، التوحيد، ٣٢؛ مسلم، الإيمان، ٣٢٦

تعالى، ومغلقة أمام جميع المنافذ والأبواب الأخرى.

إن الذين يقومون بمهمة التبليغ والدعوة اليوم –وهي مهمة الأنبياء والمرسلين كما قلنا– يجب أن ينتبهوا لهذا الأمر ويكونوا شديدي الحساسية تجاهه، فهو في غاية الأهمية وشديد الخطورة. فتأثير الكلام والخطاب لا يرتبط بمدى بلاغته وفصاحته بل بمقدار ما يتضمنه من إخلاص وتجرد.

والقرآن الكريم يشير إلى هذا فيقول: ﴿اِتّبعوا مـن لا يسألكم أجراً وهـم مهتدون﴾ (يس: ٢١).

أجل، اتبعوا الأنبياء الذين يحلقون في سماء التجرد والهداية؛ لانهم لا يطلبون منكم أجراً دنيوياً. وفكّروا مليا قبل أن تسيروا وراء أي شخص، فالشخص الذي تسيرون وراءه وتتبعون خطاه يجب أن يكون متجرداً لله، وأن يكون حب العمل في سبيل الله شاغله ليلا ونهارا لا يلتفت إلى زخرف الدنيا، بل يصب همه في تهيئة طرق النصر للأجيال القادمة. فلا يكون لحب الدنيا وزينتها أي ظل على قلبه المنطوي على التجرد لله... ومن ثم فلتفتشوا لزعامتكم وقيادتكم عن مثل هذا الشخص ولتسيروا وراءه.

لقد كان رسول الله ﷺ شخصاً متجرداً لله، لم يشبع حتى من خبز الشعير، وربما تمر أيام وأسابيع بل شهور فلا توقد في بيته نار لطبخ طعام أو عمل حُساء.[1]

يروي أبو هريرة ﷺ: دخلت على النبي ﷺ وهو يصلي جالساً، فقلت: يا رسول الله أراك تصلي جالساً فما أصابك؟ قال: «الجوع.» فبكيت، فقال: «لا تبكِ يا أبا هريرة، فإن شدة الحساب يوم القيامة لا تُصيب الجائع إذا احتسب في دار الدنيا.»[2]

وتروي أمنا عائشة ﷺ فتقول:

دخلتْ عليّ امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله عباءة مثنية، فانطلقتْ فبعثتْ إليّ

(١) البخاري، الرقاق، ١٧؛ مسلم، الزهد، ٢٨

(٢) «كنز العمال» للهندي ١٩٩/٧

بفراش حَشْوُه الصوف، فدخل عليّ رسول الله فقال: «ما هذا يا عائشة؟» قالت: قلت: يا رسول الله فلانة الأنصارية دخلتْ عليّ فرأت فراشك فذهبت فبعثت إليّ بهذا فقال: «رُدِّيه.» قالت: فلمْ أَرُدّه وأعجبني أن يكون في بيتي حتى قال. ذلك ثلاث مرات. قالت: فقال: «رُدِّيه يا عائشة فوالله لو شئتُ لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة.»[١]

أجل، فلو أراد الرسول ﷺ لعاش حياة لينة ومرفهة ولكنه لم يرد ذلك.

يروي أبو هريرة ﷺ: جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء فإذا ملك ينزل فقال جبريل هذا الملك ما نزل منذ خلق قبل الساعة. فلما نزل قال: "يا محمد! أرسلني إليك ربك أفملِكا نبياً أجعلك أوْ عبداً رسولاً؟" قال جبريل: "تواضعْ لربك يا محمد" قال: «بل عبداً رسولاً.»[٢] فما رُئِيَ رسول الله ﷺ أكل متكئاً حتى لحق بربه. وعن أبي أُمامة قال: كانت امرأة تُرافِث الرجال وكانت بذيئة فمرت بالنبي ﷺ وهو يأكل ثريداً على طربال فقالت انظروا إليه يجلس كما يجلس العبد ويأكل كما يأكل العبد فقال النبي ﷺ: «وأيُّ عبدٍ أعبد مني؟.»[٣]

إن صفحات حياة الرسول ﷺ مملوءة بأمثلة التجرد لله، ومن أراد الاطلاع على هذه الأمثلة وتفاصيلها فهناك مئات من الكتب حولها. أجل، لقد عاش جميع الأنبياء —وفي مقدمتهم رسول الله ﷺ— حياة تجرد ووهبوا أنفسهم لله، ولم يطلبوا مقابل خدماتهم التي أدّوها أي أجر دنيوي أو أخروي؛ وهذا هو السر الذي يكمن وراء قابلية الإقناع عندهم وقابلية التأثير. إن من يرغب أن يكون لكلامه تأثير ومفعول كمفعول إكسير الحياة فعليه ألا يطلب أو ينتظر أجرا مقابل الخدمات التي يؤديها.

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير ٦٠/٦

(٢) «المسند» للإمام أحمد ٢٣١/٢؛ «مجمع الزوائد» للهيثمي ١٨/٩-١٩

(٣) «مجمع الزوائد» للهيثمي ٢١/٩

(ج) الإخلاص

معنى الإخلاص هو أن يكون كل ما تعمله أو تتركه من عمل في سبيل الله. والأنبياء أشخاص وصلوا إلى مرتبة الإخلاص منذ بداية مهمتهم. نعم إن الأشخاص العاديين يمكنهم أن يصلوا إلى درجة معيَّنة من مرتبة الإخلاص إن هم بذلوا جهدهم، إلا أن النهاية التي يصلونها هي درجة البداية عند الأنبياء. فكأنهم هم لب الإخلاص وجوهره... لذا، فهم من مرتبة "المخلَصين". ويشير القرآن الكريم إلى هذه الدرجة من الإخلاص في الأنبياء ويذكر أسماء بعضهم كنماذج لهذه المرتبة السامية: ﴿واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلَصاً وكان رسولاً نبياً﴾ (مريم: ٥١). ويقول عن يوسف عليه السلام: ﴿...إنه من عبادنا المخلَصين﴾ (يوسف: ٢٤). ويخاطب أمة رسول الله في شخص رسول الله فيقول: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلِصاً له الدين﴾ (الزمر: ٢). ويطلب منه أن يذكر ويقول: ﴿قل الله أعبد مخلِصاً له ديني﴾ (الزمر: ١٤).

وسبب العبودية راجع لأمر الله تعالى، ونتيجتها رضا الله وثمرتها في الآخرة. وهذه العبودية تحتضن الحياة بأكملها ويبدو تأثيرها ومفعولها في جميع تصرفات العبد وسلوكه.

يقول مفكر العصر وهو يعر ف الإخلاص ويبين أهميته كذلك:

"فيا نفسي!! إن كنت تأبين أن تكوني مثل الأحمق الأبله، فأعطي باسم الله... وخذي باسم الله... وابدئي باسم الله... واعملي باسم الله... والسلام."[1] والإخلاص هو عنوان الإنسان المستقيم، فالمخلص لا يعرف الطرق الملتوية؛ لأن حياته المعنوية والروحية حياة مستقيمة وهي في ارتقاء دائما نحو السمو؛ ومن ثم فهؤلاء يحافظون على طهارة الإخلاص الذي بدأوا به حياتهم... ولكن ما أقل أمثال هؤلاء!.

---

(١) «الكلمات» لبديع الزمان سعيد النورسي ص٤٨؛ «اللمعات» لبديع الزمان سعيد النورسي ص٢٤٢

هناك شخصية فريدة فقط في تاريخ الإنسانية وصلت إلى سامق قمة الإخلاص وإلى شاهق ذروتها، وإلى الأفق الذي لا أفق بعده... وهو سيدنا رسول الله ﷺ... كيف لا؟ وهو الذي لا تجد فرق قيد شعرة بين إخلاصه وتواضعه في أول يوم لبدء دعوته وإخلاصه وتواضعه وهو يدخل مكة فاتحاً.

لقد تم فتح مكة صلحا، هذا إذا استثنينا بعض الحوادث المنفردة التي لا يصح تشميلها. وعندما دخل فخر الكائنات إلى تلك المدينة المباركة التي أخرج منها قبل سنوات، لم يدخلها بصورة القائد الفاتح الظافر، بل دخلها وقد حنى رأسه حتى كاد أن يلامس ظهر بغلته.[1]

وفي المدينة لم يغير سلوكه قط. فها هم الصحابة كانوا يقومون أجلالاً له عند دخوله عليهم... كان يجب أن يقوموا... بل لو مرّ على ميت لكان عليه أن يهبّ من رقدته ويقف أجلالاً له؛ فقد كان أهلاً لكل احترام وتوقير وتبجيل، ولكنه لم يكن يرضى لصحابته القيام إذ يضيق صدره فيقول لهم منبّهاً:

«لا تقوموا كما تقوم الأعاجم.»[2]

أجل، فلقد أتم مهمته المقدسة بنفس السلوك الذي بدأ به؛ إذ مرت سنوات حياته مثل لحن متناغم، فما كان يبدأ بعمل شيء إلا أتمه، وقد كان هذا نجاحاً منقطع النظير... ويمكن القول أنه بدأ اللحن الإلهي بعزف الطبقات الهادئة من الموسيقى التي سرعان ما تصاعدت حتى تزلزلت منها الأرض والسماء.

لقد نذر حياته كلها ونفسه في عبودية خالصة لله... حتى فاضت نفسه بمعرفته... لقد سرح ناظريه في آثار خلقه وعظمته فامتلأت روحه باللذائذ المعنوية حتى أترعت.. فصحا على الحقيقة وفتح أشرعة قلبه نحو الحق، ولم يفتُر أبداً عن ذكر الله... ذلك لأنه

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٤/٤٧-٤٤٨؛ «مجمع الزوائد» للهيثمي ١٦٩/٦

(٢) أبو داود، الأدب، ١٥٢؛ «المسند» للإمام أحمد ٢٥٣/٥

كان رجل إخلاص وتجرد، وكان شعور الإحسان عنده يُضيف لـه بُعداً آخر، فقـد عرّفـه ﷺ بقوله: «أن تَعْبد اللّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.»[1]

(١) البخاري، الإيمان، ٣٧؛ مسلم، الإيمان، ٥، ٧

﴿د﴾ الموعظة الحسنة

لم يدخل الأنبياء في المراء أبدا أثناء قيامهم بمهمتهم في التبليغ والدعوة، بل كانوا يقتربون من الناس بالحكمة والموعظة الحسنة. والقرآن الكريم يوجه الرسول ﷺ قائلاً له: ﴿أُدْعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ (النحل: ١٢٥). أي اشرح حِكَم الأشياء وأسرار الخلق بشكل هين لين، وبأسلوب مقنع دون أن تمس مشاعرهم بأذى، محاولا إشباع عقولهم.

لم يُقبل الأنبياء على الجدل والمراء والنقاش، ولم يهتموا بالأسلوب الفلسفي، إذ لم تؤد هذه الأساليب –لا في الماضي ولا في الحاضر– إلى هداية أي شخص، ولا إلى تقديم أي فائدة للإنسان، وقد صانهم الله تعالى من الانشغال بأي عبث، ومن ثم كانت مهمتهم في التبليغ تنحصر في الدعوة إلى الله بالحكمة وبالموعظة الحسنة.

إن الإنسان ليس عقلاً وفكراً فقط، بل له قلب وروح... فيه سرّ وخفيّ وأخفى... وكل لطيفة من لطائفه تحتاج إلى إشباعها؛ ومن هنا يتناول الأنبياء الإنسان بكل جوانبه محاولين إشباع جميع هذه الأحاسيس والمشاعر عند قيامهم بمهمة الدعوة. وهذه الدعوة التي لا تُهْمِل أيَّ جانب من جوانب الإنسان وأي شعور من مشاعره أو لطيفة من لطائفه تفضي في النهاية إلى إزالة جميع الشبه أمام الإنسان المخاطب ليصل إلى وحدة الإيمان التي هي غاية الوجود الإنساني.

إن الذين يتخرجون من مدارس الأنبياء يحملون إيماناً متميزاً ويقيناً ثابتا؛ فأعينهم التي تُطلّ على العالم تنفتح بجانبها بصائر أخرى يرون بها ما لا يرى الناس. فلو امتلأت الدنيا بالشبه والشكوك لَما أثّرت فيهم ولَما أثارت لديهم سوى مشاعر الإشفاق؛ لأن هذه الشبه والشكوك لا تستطيع النفوذ إلى ضمائرهم وقلوبهم المملوءة بالمعرفة الحقة والعلم اليقين..

والله تعالى يبارك علمهم ويضاعفه لهم ويعلّمهم ما لم يكونوا يعلمون.[1] فنسيم الإلهام السماوي يهبّ على قلوبهم فيحوّلها إلى سماء؛ وعندما يعمل هؤلاء بما يعلمون يجدون أنفسهم على مركب "الكلمة الطيبة" المنطلقة في أبعاد السماء... فتسمو بهم وترقّى...[2]

حتى إنه ينشأ من بينهم شخصٌ مثل علي بن أبي طالب ﷺ الذي قال: "لو كُشف الغِطاء ما ازددتُ يقيناً"[3]. فيفرج أبواب السر، أي لو رفع ستار الغيب وشاهدت كل ما يمكن مشاهدته لما كان هناك احتمال وصولي إلى مرتبة أعلى في الإيمان والمعرفة، ذلك لأنني على يقين بأني في ذروة الإيمان بالغيب.

وهذا الكلام الذي قاله رجل كعلي بن أبي طالب ﷺ هو من باب التحدث بنعم الله، وقد أعلنه رسول الله ﷺ –بتقدير من الله– أباً للأولياء حتى يوم القيامة، فقد رباه في كنفه وزوَّجه أفضل النساء وأجملَهنّ وأظرفهنّ وزهرة حديقة النبوة التي فاقت الحور العين في جمالها وهي ابنته فاطمة ﷺ. ومن هذا الزواج المبارك جاء ريحانتا الجنة الحسن والحسين، ومن هذا النسل المبارك جاء جميع الأولياء وجميع الأقطاب. ومثلما كان علي ﷺ بهذه المنزلة، فإن كل حلقة من حلقات سلالته، وكل حفيد من أحفاده يعد كل واحد منهم مثال البطولة في التاريخ؛ ولا يَبلُغ هذه المرتبة إلا منْ بلَغ مرتبة الإحسان بإيمانه وإسلامه، وعند ذلك يكون من الذين تَصدُق عليهم هذه الآية الكريمة وهم في الدنيا ﴿فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ (ق: ٢٢).[4]

وهذه الفراسة التي يُطلِق عليها الغربيون اصطلاح "Sihashsti" عندما تبدأ بالعمل داخل الإنسان انقطع عمل العالم الخارجي عنده، حيث يستولي عليه هذا الإلهام الداخلي وقابلية الحدس؛ ذلك لأن الحقيقة آنذاك تكون قد استقرت داخل النفس فما الحاجة إلى البحث

---

(١) انظر إلى هذا الحديث: «من عمل بما يعلم ورّثه الله عِلْمَ ما لم يعلم.» («حلية الأولياء» لأبي نعيم ١٠/١٥)

(٢) انظر: ﴿إليه يَصعَد الكَلِم الطيِّب والعمل الصالح يَرفعه﴾ (فاطر: ١٠).

(٣) «الأسرار المرفوعة» لعلي القاري ص١٩٣

(٤) مسلم، فضائل الصحابة، ٦١

عنها في الخارج؟ والنبي ﷺ الذي سما بطلابه وجعلهم يبلغون هذه المرتبة العالية كان قد اتخذ من الموعظة الحسنة أساساً في دعوته وفي بنائه للنفوس.

وما نحاول نحن أن نشرحه في هذا الصدد قامت هذه الآية الكريمة ببيانه بأوجز صورة وأعمقها ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ (البقرة: ١٥١).

وإننا نرى من الأفضل عدم الإطالة هنا؛ لأننا قمنا بإيراد الأمثلة حول مدى اهتمام رسولنا الكريم ﷺ ومدى حساسيته في هذه الناحية. ولكن إن أردنا تلخيص الموضوع في جملتين أو ثلاث فيمكننا أن نقول:

لقد كان ﷺ يخاطب كل إنسان حسب مستواه العقلي ووضعه النفسي دون زيادة ولا نقصان، وبأسلوب حكيم بحيث لا يترك ذلك الإنسانُ مجلسه إلا وهو مطمئن القلب مكتسب الإيمان. وكثير من الأشخاص الذين عاندوا في الإيمان كأبي جهل والوليد بن المغيرة وعُتبة بن ربيعة كانوا أسرى غرورهم وعنادهم، وبعضهم أسرى خوفهم، أي أن سبب الإنكار كان يعود إليهم وليس إلى أي قصور في طريقة تبليغ الرسول ﷺ. وكان منهم -مثل الشاعر الأعشى- من قبِل كل شيء إلاّ أنه لم يكن يستطيع التخلّي عن كل ما ألفه سابقاً من عادات، لذا طلبوا منه إمهالهم، ولو مات أحد من هؤلاء قبل وصولهم إلى الهداية التامة لكان معنى ذلك أن كتاب القضاء والقدر سبق إليهم؛ وهنا أيضاً لا نجد قصوراً أو إهمالاً في التبليغ عند رسول الله ﷺ.

(هـ) الدعوة إلى التوحيد

قام الأنبياء جميعاً بدعوة أقوامهم إلى توحيد الله تعالى ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ (هود: ٨٤). فكل دعوات الأنبياء تبدأ بالدعوة لهذه الحقيقة وتنتهي بها.

واتفاق كل هؤلاء الأنبياء على هذه الحقيقة رغم اختلاف أزمنتهم وأماكنهم وبلدانهم يدل دلالة قاطعة لا شبهة فيها على أن هذه الحقيقة ليست من بنات أفكارهم. بل هي الرسالة التي بلَغتهم من ربهم وأُمروا بتبليغها للناس، إذ لا يعقل أن يتفق أناس لهم قابليات مختلفة واستعدادات مختلفة وعاشوا في أزمنة مختلفة وفي أمكنة مختلفة... أن يتفقوا مثل هذا الاتفاق في موضوع واحد. فلو تتبعتَ أيّ مدرسة فلسفية أو فكرية معينة لرأيت خلافات واسعة حتى في الأمور الثانوية والفرعية بين أنصار هذه المدرسة، مع أنهم يعيشون في عصر واحد وفي بلد واحد.

وهذه الاختلافات الموجودة في التيارات الفكرية الإنسانية، وهذا الاتفاق في النظم الإلهية التي جاء بها الرسل بالوحي الإلهي تدلاّن على أن الهوى هو المنبع في الأولى، والوحي هو المنبع في الثانية.

أجل، إن إجماع الأنبياء على حقيقة التوحيد من خصائص مقام النبوة. يقول رسول الله ﷺ: «أفضل ما قلتُ أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له.»[1]

---

(١) الموطأ، القرآن، ٣٢، الحج، ٢٤٦؛ «كنز العمال» للهندي ٧٣/٥

الباب الثالث:

صفات الأنبياء ومكانتها من سيد الأصفياء

الفصل الأول: الصدق

الصدق هو محور النبوة، ومدار ارتكازها؛ فكُل ما تلفّظه الأنبياء صدقٌ خالص، ولا يمكن أن يجافي الواقع أو الحقيقة. وعندما يشرح القرآن الكريم فضائل الأنبياء يشير إلى هذه الصفة عندهم:

﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صدّيقاً نبياً﴾ (مريم: ٤١) أي اذكر في القرآن الذي هو مستنسخ للوح المحفوظ ومبين حقيقته الثابتة أو في اللوح المحفوظ بأن إبراهيم كان نبياً صفته الصدق التامّ في القول والسلوك.

﴿واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً﴾ (مريم: ٥٤).

﴿واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صدّيقاً نبياً ۞ ورفعناه مكاناً علياً﴾ (مريم: ٥٦-٥٧)

ويوسف عليه السلام... نرى رفقاءه في السجن يخاطبونه فيقولون: ﴿يوسف أيها الصديق﴾ (يوسف: ٤٦).

وكيف لا يكونون مجهّزين بالصدق والله تعالى يخاطب عامة المؤمنين ويطلب منهم أن يكونوا صادقين:﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ (التوبة. ١١٩). كما يبين أن المؤمنين المجاهدين في سبيل الله هم الصادقون فيقول: ﴿إنما المؤمنون الذي آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾ (الحجرات: ١٥).

الصادقون أهل للثناء

والقرآن يثني على الصادقين: ﴿من المؤمنين رجال صدَقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قَضَى نَحْبَه ومنهم مَنْ ينتظر وما بَدّلوا تبديلاً﴾ (الأحزاب: ٢٣).

ولنستروح في ظلال فنن هذه الآية قليلا ثم نتابع المسير:

كان أنس بن مالك خادما للرسول ﷺ وذلك حينما أخذت أمه بيده وهو إذ ذاك في العاشرة من عمره إلى رسول الله ليخدمه قائلة: "يا رسول الله! خادمك أنس." وتركت ابنها وذهبت.[١] يقول أنس بن مالك: "إن هذه الآية نزلت في عمي أنس بن النضر وأمثاله."

عندما رأى أنس بن النضر رسول الله في بيعة العَقَبة أحبّه وتعلّق به. ولكنه لم يستطع لأسباب عدّةٍ الاشتراكَ في معركة بدر. ولمعركة بدر مكانة خاصة ومتميزة، حتى الذين اشتركوا فيها لهم مكانة خاصة بين أصحاب رسول الله ﷺ. بل إن من اشترك فيها من الملائكة لهم مكانة خاصة بين سائر الملائكة كما حدث بهذا جبريل عليه السلام الذي كان على رأس الملائكة يوم بدر.[٢]

قال أنس رضي الله عنه عن عمه:

عمي الذي سُمّيتُ به لم يشهد مع رسول الله ﷺ بدراً، قال: فشَقّ عليه. قال: أوّلُ مشهَدٍ شهده رسول الله ﷺ غُيِّبتُ عنه، وإن أراني الله مشهداً فيما بعدُ مع رسول الله ﷺ لَيراني الله ما أصنع. قال: فهاب أن يقول غيرَها. قال: فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أُحد. قال: فاستقبل سعد بن معاذ. فقال له أنس: يا أبا عمرو أين؟ فقال: واهاً لريح الجنة (والقائل هو أنس) أَجِده دون أحد. قال: فقاتلهم حتى قتل.[٣]

---

(١) مسلم، فضائل الصحابة، ١٤١

(٢) البخاري، المغازي، ١١؛ ابن ماجة، المقدمة، ١١

(٣) مسلم، الإمارة، ١٤٨

وعندما نتداعى ذكريات معركة أُحد لا نستطيع أن ندفع الإحساس بهذه الغصة التي تنشب في حلوقنا... فهي المعركة التي استشهد فيها سبعون صحابياً. ومن يدري فقد يكون هذا هو السبب الذي قال من أجله النبي ﷺ وهو يمر من أمام جبل أُحد: «أُحد جبل يحبنا ونحبه.»[1] لكي لا نَحمِل أي ضغينة تجاهه.

أُحد جبل صعب المرتقى... ولكن معركة أُحد كانت أصعب... فقد ترك بعض الصحابة مواضعهم المستحكمة التي عيّنها لهم النبي ﷺ مدة وجيزة... كان هذا مجرد تغيير استراتيجي، لذا لا يمكن إطلاق كلمة "الهزيمة" عليه... فتوقيرنا للصحابة وزاوية نظرتنا إليهم تستلزم هذا.

في هذه المعركة جُرح رسول الله ﷺ وانكسرت سنه، ودخلت حلقتا المِغفر في وجهه الشريف فأدماه، ومع ذلك فلأنه رسول الله ﷺ ولأنه أرسل رحمة للعالمين فإنه فتح ذراعيه مبتهلا إلى الله تعالى «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.»[2]

وفي هذه المعركة كان أنس بن النضر يصول ويجول هنا وهناك يحاول أن يبر بوعده الذي قطعه للرسول ﷺ قبل عام. ولكن سرعان ما امتلأ جسده بضربات السيوف وطعنات الرماح فهوى إلى الأرض مضرجاً بدمائه... كان قد اقترب من النهاية، وعندما مرّ به سعد بن معاذ قال له وهو يبتسم بوهن: "واهاً لريح الجنة أجده دون أُحد."

في هذه المعركة صعب التعرف على كثير من الشهداء مثل حمزة ومصعب بن عمير وعبد الله بن جحش، وأنس بن النضر الذي ما تعرفت عليه أخته إلا من بنانه، فلعلها المكان الوحيد الذي لم تصبه الجروح.

والآن لنسمع بقية رواية أنس بن مالك ﷺ عن عمه:

قال: فقاتلهم حتى قتل. قال: فوُجِد في جسده بضع وثمانون من بين ضربة وطعنة

---

(١) البخاري، الزكاة، ٥٤؛ مسلم، الحج، ٥٠٣، الفضائل، ١١

(٢) البخاري، الأنبياء، ٥٤؛ مسلم، الجهاد، ١٠١، ١٠٥

ورمية. قال: فقالت أخته عمتي الرُّبيِّع بنت النضر: فما عرفتُ أخي إلا ببنانه. ونزلت هذه الآية ﴿من المؤمنين رجال صدَقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً﴾ (الأحزاب: ٢٣). فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه.[١]

كانت هذه الآية تشرح هذه الشهامة... لقد بَرّ بوعده الذي قطعه على نفسه من أنه سيقاتل حتى الموت... وقُتل، ولم يستطع الموتُ دفعَه لِنكث وعده.

نعم لقد صدق ما عاهد الله عليه. والآية الكريمة عندما تثني على مثل هؤلاء الشهداء تريد أن تقدمهم لنا كقدوة حسنة يجب أن يحتذِي بها كل من شهد أنه "لا إله إلا الله" لكي لا يضيع الدين ولا ينتكس الإيمان ولا تُمتهن شرائع الله.

لقد صدق أنس بن النضر وعده، وصدق الآخرون –من أشباه أنس– وعودهم، ذلك لأنهم تربوا في مدرسة الحبيب محمد ﷺ. فمثلما كان الحبيب صادقاً أميناً كان أصحابه وتلامذته صادقين أمناء.

---

(١) مسلم، الإمارة، ١٤٨

الصدق عند رسولنا ﷺ

أ- الأمين قبل الرسالة

ما كان أهل مكة يخاطبونه باسمه، بل كانوا يخاطبونه بصفته "الأمين..." أجل، فقد كان مشتهراً بهذا اللقب... وما أسعدنا ونحن نكرر صباحاً ومساء هذا الوِرْد: "لا إله إلا الله الملك الحق المبين، محمد رسول الله صادق الوعد الأمين."

لما قام أهل مكة بتعمير بيت الله وإصلاحه بعد أن تشقق بفعل السيول، برزت هنالك مشكلة كبيرة في موضوع إعادة الحجر الأسود -نحن ندعوه "الحجر الأسعد"- إلى موضعه السابق. إذ امتَشقت القبائل سيوفها، تبغي كل قبيلة أن يكون لها هذا الفخر وكادت أن تقوم بينهم فتنة عظيمة. ولكن أخمد أوارها اتفاقهم على أن يجعلوا أول من يدخل الكعبة حَكَماً بينهم. وتعلقت الأنظار بمدخل البيت ترتقب من يدخله، وما إن أطلّ محمد ﷺ بوجهه المنير عليهم حتى صاحوا جذلين: "هذا الأمين... رضينا... هذا محمد!"[1] ولم يكن رسول الله يعرف شيئاً أثناء دخوله إلى البيت الحرام.

ذلك لأن ثقتهم به كانت تامة. ومع أنه لم يكن قد بُعث بعدُ نبيا، إلا أنه كان محطّ ثقة الجميع، إذ كان يحمل جميع صفات الأنبياء.

أجل، فالفضل ما شهدت به الأعداء. فها هو أبو سفيان ألد أعداء الرسول ﷺ آنذاك يشهد بصدقه. ففي رواية لعبد الله بن عباس عن أبي سفيان أنه قال: إن هرقل أرسل إليه في رَكْب من قريش، وكانوا تجاراً بالشام، في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادّ فيها[2]

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٢٠٩/١؛ «المسند» للإمام أحمد ٤٢٥/٣

(٢) مادّ فيها: صالحهم على ترك القتال. (المترجم)

أبا سفيان وكفار قريش. فأتوه وهم بإيلياء[1] فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسباً. فقال: أدنوه مني وقرّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره. ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذَبني فكذّبوه. فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليّ كذباً لكذبت عنه. ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه مِن ملِك؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتدّ أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها. قال: ولم تمكني كلمة أدخل فيه شيئاً غير هذه الكلمة. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سِجال، ينال منا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا، واتركوا ما يقول آباؤكم. ويأمرنا بالصلاة والصدق والعَفاف والصلة.[2]

فقال للترجمان: قل له: سألتُك عن نسبه فذكرتَ أنه فيكم ذو نسب. فكذلك الرسل تُبعَث في نسب قومها. وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول فذكرت لا، فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسي بقولٍ قيل قبله وسألتك هل كان من آبائه من ملك، فذكرت أن لا. قلت: فلو كان من آبائه من ملك، قلت رجل يطلب مُلك أبيه. وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن لِيَذَر الكذب على الناس ويكذب على الله... الخ"[3]

---

(١) إيلياء: بيت المقدس. (المترجم)

(٢) الصلة: الإحسان إلى الأقارب. (المترجم)

(٣) انظر: البخاري، بدء الوحي، ٣، ٤٦؛ مسلم، الجهاد، ٧٤

والنص طويل ونقتصر على هذا القدر. وأهم ما يلفت النظر هنا وجود دليلين على صدق رسول الله ﷺ؛ أولهما هو هرقل إمبراطور الروم الذي قال ما أوردناه آنفاً، والثاني هو جواب أبي سفيان الذي كان يعترف بصدق رسول الله ويقبله مع أنه لم يكن قد أسلم بعد. ولكن هرقل أضاع فرصة ذهبية جاءت إليه، إذ أن حبه لملكه أضاع عليه الحصول على الملك الحقيقي الخالد فلم يسلم ولم يدخل في أمة الإسلام السعيدة. ولكن على الرغم من هذا فقد تصرّف باحترام أمام الرسالة التي بعثها إليه الرسول ﷺ، إذ تصرف ببصيرة، وكان اعترافه بصدق النبي ﷺ مدعاة لسرورنا.

والحقيقة أن ما قاله هرقل له معان ودلالات عميقة... أجل، فإن شخصاً لم ينطق بكذبة واحدة للناس العاديين –وإن كانت مزحة– حتى بلوغه سن الأربعين أيمكن أن يكذب على الله وقد اقترب من الكهولة، ومن الموت؟

سأل ياسر قبل إسلامه ابنه عمّاراً إلى أين تذهب؟ فأجابه: "إلى محمد ﷺ"

كان هذا الجواب كافياً له: "إنه الأمين... هكذا يعرفه أهل مكة... إن كان قال إنه نبي فهو نبي، ذلك لأنه ما من أحد جرّب عليه الكذب." لم يكن هذا قول فرد واحد ولا اعتقاد شخص واحد أو بضعة أشخاص، بل اعتقاد كل من عرفه قبل بعثته وقبل نبوته.

ب- الموصي بالصدق دائماً

وكما عاش صادقاً فقد أوصى أمته بالصدق على الدوام، وندرج هنا بعض هذه الوصايا تبركاً بها: «اِضْمَنُوا لي ستاً من أنفسكم أَضمن لكم الجنة: اُصدقوا إذا حَدَّثتم، وأوْفوا إذا وعدتم، وأدّوا إذا اؤْتُمنتم، واحفظوا فروجكم، وغُضّوا أبصاركم، وكُفّوا أيديكم.»[1]

(١) «المسند» للإمام أحمد ٣٢٣/٥

لقد عاش النبي ﷺ مستقيماً مثل شعاع ضوء، وأوصى بالاستقامة بعد أن حققها في نفسه إلى ذروة ما بين الإمكان والوجوب، إلى ذروة ليس وراء ها سوى الصدق الإلهي، أي إن رسول الله ﷺ كان يجول في عالم الصدق في أفق ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ (النجم: ٩). فمن ناحية كان في دائرة "الإمكان" ومن ناحية أخرى كان قد تجاوز دائرة "الإمكان" وكما قال القاضي عياض في معرض المعراج "إنه وصل إلى موضع لم يدْرِ فيه أين يضع قدمه، فقيل له أن يضع إحدى قدميه فوق الأخرى." صحيح أنه كان بشراً من جميع النواحي. ولكن الصدق رفعه إلى مثل هذا المستوى. وهو يوصينا بالوصية نفسها "اِضْمَنُوا لي الصدق وعدم الكذب في حياتكم أضمن لكم الجنة."

ويقول في حديث آخر: «دع ما يَريبك إلى ما لا يَريبك، فإن الصدق طمأنينة، وإن الكذب ريبة.»[1] ويقول أيضاً: «وإن رأيتم أن فيه الهلكة فإن فيه النجاة.»[2] أي اصدقوا وإن رأيتم أن الصدق سيجرّ عليكم الهلاك، لأنه سيؤدي بكم إلى النجاة في الحقيقة. ويقول أيضاً: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة. وما يزال الرجل يصدُق ويَتحرّى الصدقَ حتى يُكتب عند الله صدّيقاً. وإياكم والكذبَ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذِب ويتحرّى الكذب حتى يُكتب عند الله كذّابا.»[3]

النجاة والخلاص في الصدق. فالإنسان عندما يموت بصدقه يموت مرة واحدة بينما يموت مرات بعدد كذبه. يقول كعب بن مالك ﷺ: "لقد نجوت بصدقي." وعندما نتكلم عن الصدق فلا يمكن ألاّ نذكره ﷺ.

كان كعب بن مالك ﷺ ذا لسان صادق وسيف قاطع.. كان شاعراً استطاع بشعره أن يُلقم الكفار حجراً في العَقَبة، لذا كان من أوائل الأنصار. ولكنه لم يشترك في غزوة

---

(١) الترمذي، القيامة، ٦٠؛ «المسند» للإمام أحمد ٢٠٠/١

(٢) «فيض القدير» للمناوي ٢٣٢/٣؛ «كنز العمال» للهندي ٣٤٤/٣

(٣) البخاري، الأدب، ٦٩؛ مسلم، البر، ١٠٥؛ أبو داود، الأدب، ٨٠

تبوك التي كانت غزوة صعبة، تناوش فيها حفنة من المؤمنين مع الإمبراطورية البيزنطية في لهيب الصحراء اللافح... ذهبوا بهذه النية... وأبدوا تلك البسالة... كسبوا الثواب ولم يبق من الحرب سوى ذكرياتها.

قال كعب بن مالك ﷺ في رواية أخرجها أحمد والبخاري ومسلم عن طريق الزهري:

"لم أتخلّف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتِب أحدا تَخلّف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عِير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العَقَبَة، حين تواثقنا على الإسلام، وما أُحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أَذْكَرَ في الناس منها كان من خبري: أني لم أكن قط أقوى ولا أيسرَ حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، واللهِ ما اجتمعتْ عندي قبله راحلتان قط، حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا وَرَّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفرا بعيدا، ومفازا وعدوا كثيرا، فجَلّى للمسلمين أمرهم ليتأهّبوا أُهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ، يريد الديوان. قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيّب إلا ظن أن سيَخفَى له، ما لم يَنزل فيه وحي الله، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقتُ أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجعُ ولم أقض شيئا، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه، فلم يزل يتمادى بي حتى اشتدّ بالناس الجِدّ، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئا، فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئا، ثم غدوت ثم رجعت ولم أقض شيئا، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتَفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأُدركهم، وليتني فعلت، فلم يُقدَّر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم، أحزنني أني لا أرى إلا رجلا مغموصا عليه النفاق، أو رجلا ممن عَذَرَ اللهُ من الضعفاء ولم يذْكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو

جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب؟» فقال رجل من بني سلِمة: يا رسول الله حبسه بُرْداه ونظرُه في عِطفيه. فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا. فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجه قافلا حضرني همّي، وطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غدا، واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادما زاح عني الباطل، وعرفت أني لن أخرج منه أبدا بشيء فيه كذب، فأجمعت صدقه، وأصبح رسول الله ﷺ قادما، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فيركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلَّفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكّلَ سرائرهم إلى الله، فجئته فلما سلمت عليه تبسّم تبسُّم المُغْضَب، ثم قال: «تعال.» فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي: «ما خلّفك، ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟» فقلت: بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطيتُ جدلا ولكني والله لقد علمتُ لئن حدّثتُك اليوم حديث كَذِب ترضى به عني لَيوشكنّ الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدثتُك حديث صدق تجد عليّ فيه، إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك.» فقمت، وثار رجال من بني سلِمة فاتبعوني فقالوا لي: والله ما علِمناك كنتَ أذنبت ذنبا قبل هذا، ولقد عجزتَ أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلّفون، قد كان كافيك ذنبَك استغفارُ رسول الله ﷺ لك. فوالله ما زالوا يؤنّبونني حتى أردت أن أرجع فأُكذّب نفسي ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثل ما قلت فقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: من هما؟ قالوا: مُرارة بن الربيع العَمْريّ وهلال بن أمية الواقفيّ فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيُّها الثلاثةُ من بين

مَن تخلَّف عنه، فاجتنبَنا الناسُ وتغيروا لنا حتى تَنكَّرتْ في نفسي الأرضُ فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشبّ القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرّك شفتيه بِرَدّ السلام عليّ أم لا؟ ثم أصلي قريبا منه فأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليّ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عني، حتى إذا طال عليّ ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسوَّرتُ جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحبّ الناس إليّ، فسلمت عليه، فوالله ما ردّ عليّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة، أَنشدك بالله هل تعلمني أُحِب الله ورسوله؟ فسكَتَ، فعدتُ له فنشدتُه فسكتَ، فعدتُ له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار.

قال: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة، إذا نَبَطِيٌّ من أنباط أهل الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدل على كعب بن مالك، فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءني دفع إليّ كتاباً من ملك غَسّان، فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هَوان ولا مَضْيَعَة فالْحَقْ بنا نُواسِكَ فقلت لمّا قرأتها وهذا أيضا من البلاء، فتيممت بها التَّنُّور فسجَرته بها، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أُطلّقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقرَبها وأرسل إلى صاحبيّ مثل ذلك، فقلت لامرأتي: الْحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا، ولكن لا يقرَبْكِ.» قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه؟ فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ما يقول

رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب؟ فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صليت صلاة الفجر صُبْحَ خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله، قد ضاقت عليّ نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ، أوفَى على جبل سَلْعٍ بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشِرْ، قال: فخررت ساجدا وعرفت أن قد جاء فرَج، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبل صاحبيّ مبشّرون وركض إلي رجلٌ فَرَساً، وسعى ساع مِن أَسْلَمَ فأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيّ، فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فيتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنّوني بالتوبة يقولون: لِتَهْنِكَ توبة الله عليك، قال كعب: حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناسُ، فقام إليّ طلحة بن عُبيد الله يهرول حتى صافحني وهنّاني والله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة، قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يومٍ مر عليك منذ ولدتك أمك» قال قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «لا، بل من عند الله» وكان رسول الله ﷺ إذا سُرّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله، وإلى رسول الله قال رسول الله ﷺ: «أمسِكْ عليك بعض مالك فهو خير لك.» قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر ، فقلت: يا رسول الله، إن الله إنما نجّاني بالصدق، وإنْ من توبتي أن لا أحدّث إلا صدقا ما بقيت. فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني، ما تعمَّدتُ منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذبا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت وأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة

من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم ۞ وعلى الثلاثة الذين خُلِّفُوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ۞ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ (التوبة. ١١٧-١١٩). فوالله ما أنعم الله عليّ من نعمة قط، بعد أن هداني للإسلام، أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ، أن لا أكون كذَبتُه فأهلك كما هلك الذين كذَبوا فإن الله قال للذين كذَبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى: ﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون ۞ يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ (التوبة: ٩٥-٩٦). قال كعب: وكنا تُخُلِّفْنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قَبِل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله: ﴿وعلى الثلاثة الذين خُلِّفُوا﴾ (التوبة: ١١٨). وليس الذي ذكر الله مما خُلِّفنا عن الغزو إنما هو تخليفه إيّانا وإرجاؤه أمرنا عمّن حلف له واعتذر إليه فقَبِل منه.[١]

أجل، إن حقيقة النبوة قائمة على أساس من الصدق والاستقامة. فكل نبي صادق، ويجب أن يكون صادقاً، ذلك لأنه الشخص الذي يبلّغ الأوامر الآتية إليه من عالم الغيب إلى الناس فلو كان هناك احتمال لأيّ خطأ مهما كان قليلاً في مهمة التبليغ، لانقلبت الأمور رأساً على عقب، لأن جميع الحقائق التي نتعلمها باسم الإنسانية تنتقل إلينا عن طريقهم، وهذا موضوع حساس جداً لا يتحمل مثقال ذرة من الخطأ أو الوهم، لذا نرى الله تعالى يقول في هذا الأمر: ﴿ولو تَقوَّل علينا بعض الأقاويل ۞ لأخذنا منه باليمين ۞ ثم لقطعنا منه الوتين[٢] ۞ فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ (الحاقة: ٤٤-٤٧).

---

(١) مسلم، التوبة، ٥٣؛ البخاري، المغازي، ٧٩

(٢) الوتين: هو نياط القلب. (المترجم)

لقد كان ﷺ في موضوع أوامر الله ونواهيه مثل الميت في يد المغسل يستطيع أن يقلبه يمينا أو يساراً كيفما شاء. فوجهته دائما هي الوجهة التي يوجهه إليها الله تعالى حتى بعد وصوله إلى ذروة القرب من الله تعالى. وما كان له أن يفقد شيئاً ولو هينا من حساسيته في هذا... بل لقد تعمقت فيه هذه الحساسية ونزلت إلى أعماق وأغوار قلبه.

لقد كان عند وعده دائما فلم يسمع عنه أحد حتى بلوغه سن الأربعين كذبة ولا جرّب عليه خلف وعد. يروي عبد الله بن أبي الحَمْساء. قال: بايعت النبي ﷺ ببيع قبل أن يُبعث، وبقيتْ له بقية فوعدتُه أن آتيه بها في مكانه فنسيتُ. ثم ذكرت بعد ثلاث. فجئت فإذا هو في مكانه فقال: «يا فتى! لقد شققتَ عليّ، أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك.»[1]

ج- أقواله علامة صدقه

لقد كان منذ مولده الصادقَ الأمين المختار، لذا أسرع الناس إلى الإيمان بكل ما قاله بعد نبوته، فكأن العالم كله يهتف به: "لقد صدقت يا رسول الله..." لا البشر فحسب... بل كل كائن يقول بلسان حاله وبلسان المعجزة هذا القول له ويبايعه.

ولأقف هنا لحظة لأستطرد ولأوضح موضوعاً مهماً فأقول: إن الآيات القرآنية وأقوال نبينا ﷺ النورانية لهما مقام رفيع جداً لا يستطيع الفلاسفة بعقولهم ولا الأولياء بقلوبهم ولا الأصفياء بأرواحهم أن يفهموه حق الفهم ولا أن يبلغوا ذلك المستوى أو يسموا إليه، فالوصول متعذر بل مستحيل؛ وذلك من ناحية الدقة في التعبير عن العلاقات الموجودة بين ذات الله وصفاته وأسمائه الحسنى.

غير أن الأرواح السامية والواصلة رأت من تجاربها أنها كلما غذت السير نحو الأعالي كلما تبيّن لهم مدى صدق بيان القرآن وبيان الرسول ﷺ ومدى مطابقتهما للحق وللحقيقة، ويصلون إلى هذا عن طريق الكشف والذوق.

---

(١) أبو داود، الأدب، ٨٢

أجل، فما قاله الرسول ﷺ حول الألوهية يتم التصديق عليه من قِبَل أهل الاختصاص ويُتّخذ أساساً وقاعدة، حتى أنه تناول مواضيع حساسة جداً حول مسائل الألوهية والحشر والنشر والقدر مع احتفاظه بالتوازن الدقيق بين هذه المواضيع بحيث أنه لو لم يبحث هذه المسائل ويشرحها لما استطاع أحد أن يقول كلمة واحدة حولها.

يروى عن عمرو بن أخطب ﷺ أنه قال: "صلّى بنا رسول الله ﷺ الفجر وصعد المنبر فخطبَنا حتى حضرت الظهر فنزل فصلى، ثم صعد المنبر فخطبَنا حتى حضرت العصر. ثم نزل فصلى، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس فأَخبَرَنا بما كان وبما هو كائن فأعلمُنا أحفظُنا."[1]

أجل، فقد فَتح أبواب الماضي وشَرح كلَّ الأنبياء حتى آدم الطَّيِّلا، وشرح أوصافهم وشمائلهم؛ ثم حوّل بصرَه إلى المستقبل فشرح كل شيء حول المحشر والجنة والجحيم، وهو الذي لم يقرأ كتاباً ولم يدرس على أحد؛ فكيف تسنّى له معرفة كل هذا..؟ لا شك أن الله ﷻ هو الذي علّمه ما لم يكن يعلمه من قبلُ من شؤون الدنيا وشؤون الآخرة، وما كان هناك غير هذا السبيل لِمعرفة كل هذه الأمور، وهذا هو ما يَقبله ويصدّق به كل العقلاء حالياً وهو دليل آخر على صدق رسول الله ﷺ.

كان رسول الله ﷺ يتكلم عن الأنبياء ويصفهم ويصف ملامح وجوههم حتى كأنه رسام يرسم اللوحات. وكان أهل الكتاب في زمانه يصدقون كلامه ووصفه ولا يعترضون عليه ويقولون: "أجل، هذه هي أوصافهم كما جاءت في كتبنا."[2] أوليس هذا دليلاً قاطعاً لصدق نبوة رجل يصف جميع الأنبياء والرسل السابقين وصفاً دقيقاً يوافق عليه أهل العلم آنذاك وأهل الاختصاص دون أن يقرأ كتاباً واحداً من الكتب القديمة كالتوراة والإنجيل وغيرهما؟

---

(١) مسلم، الفتن، ٢٥ ؛ «المسند» للإمام أحمد ٣٤١/٥

(٢) مسلم، الإيمان، ٢٧١

إن هذا الموضوع الذي قدّمنا لمحة منه موضوع لا أستطيع إيفاء حقه، فهو خارج طاقتي وقدرتي... والحال نفسها واردة مع القرّاء، إذ ليس من السهل فهم وشرح هذا الموضوع بالشكل المطلوب، غير أننا استناداً إلى أقوال وشهادة مَن بلَغوا هذا المستوى من آلاف الأولياء والأصفياء الذين سلكوا طريق الولاية وصعدوا مراتب الولاية مرتبة مرتبة؛ والعلماء والفلاسفة الذين ملئوا رؤوسهم بالعلم وبالمعرفة نعلم أن أقوال رسول الله ﷺ كانت في الذروة في كل أمر من الأمور، وهذا يشكل بعداً آخر حول صدقه واستقامته. فتصديق هؤلاء الأشخاص الممتازين والمتميزين يُرينا أنه ﷺ لم يتحدث أبداً خلاف الحقيقة وخلاف الحق، ذلك لأن ما تَحدّث فيه لم يكن من عنده بل من الوحي الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.[1] وهذا هو السبب في أنه أصبح سلطان الكلام للعصور بأجمعها.

وما نريد أن نقف عليه هنا هو بعض أقواله المتعلقة بالغيب والتي ظهر صدقها بعد مرور أربعة عشر قرناً، وهذا دليل آخر على صدقه وصدق نبوته. غير أننا نود قبل الدخول إلى هذا الموضوع إيضاح بعض المسائل حول معاني الغيب لإيقاننا بضرورة وفائدة هذه الشروح.

جاءت كلمة "الغيب" في القرآن الكريم في مواضع متعددة وبمعانٍ مختلفة ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلَمها إلا هو ويعلَم ما في البَرّ والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رَطْبٍ ولا يابسٍ إلا في كتاب مبين﴾ (الأنعام:٥٩). فالغيب هنا غيب موجود في مقام الألوهية لا يعلمه أحد سواه ﷻ... غيب لا يعلمه حتى رسوله محمد ﷺ.

ثم ألا يذكر الله ﷻ لنبيه بأن عليه أن يقول: ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتّبع إلا ما يوحى إليّ قل هل يستوي

(١) انظر الآية: ﴿وما ينطق عن الهوى ۞ إن هو إلا وحي يوحى﴾ (النجم. ٣-٤).

الأعمى والبصير أفلا تتفكرون﴾ (الأنعام: ٥٠)، ﴿قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾ (الأعراف: ١٨٨).

وفي سورة الجن نرى الآية: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ۞ إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلُك من بين يديه ومن خلفه رصداً ۞ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً﴾ (الجن: ٢٦-٢٨).

في ضوء هذه الآيات نستطيع أن نقدم التحليل الآتي: إن من يقول إن رسول الله ﷺ كان يعلم الغيب علماً مطلقاً يميل إلى الإفراط والمبالغة. ومن يقول إن رسول الله ﷺ لم يكن يعرف الغيب مطلقاً يميل إلى التفريط. فهو لم يكن يعرف الغيب، إلا أن الله تعالى كان يطلعه على الغيب. فكان رسول الله ﷺ يشرح الأمور الأساسية للحوادث حتى يوم القيامة وكأنه جالس أمام شاشة تليفزيونية. وهذا هو ما نريد الوقوف عنده بكل عناية. فما قاله لم يكن من عنده بل مما أخبره الله تعال عن طريق الوحي. وبما أن الله تعالى هو مصدر هذا الغيب، لذا لم يكن الرسل وحدهم ولا رسولنا ﷺ فقط من يعلم الغيب عن هذا الطريق، بل كان بعض الواصلين من الأولياء مطّلعين على قسم من الغيب عن طريق الكرامة إذ يقول الرسول ﷺ: «قد كان يكون في الأمم قبلكم محدَّثون، فإن يكن في أمتي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم» قال ابن وهب: تفسير "محدَّثون" مُلْهَمون.[1] لذا، نرى أن عمر بن الخطاب ﷺ يقطع خطبته ويهتف: "يا سارية! الجبل.. الجبل.. الجبل!" يحذّر جيشَ المسلمين من الكمين المعدّ له من الأعداء.ويسمع قائد المسلمين نداء عمر فينجو بجيشه من كمين الأعداء.[2]

وهناك أولياء مثل محيي الدين بن عربي ومولانا جلال الدين الرومي والإمام الرباني

---

(١) البخاري، الأنبياء، ٥٤؛ مسلم، فضائل الصحابة، ٢٣؛ الترمذي، المناقب، ١٧

(٢) «كنز العمال» للهندي ٥٧١/١٢

ومشتاق أفندي ومئات غيرهم أخبروا عن الغيب ثم صدّقت الأيام كلامهم. وكلهم كانت قلوبهم مرتبطة برسولهم محمد ﷺ، مستمدين إلهاماتهم من مشكاة نوره. فإذا كان هذا هو حال بعض طلابه ودرجة قربهم من النسائم الرحمانية واللطف والإلهام الإلهي، والاطّلاع على الغيب فكيف برسول الله ﷺ وهو الذي لو وُضع في كفة ووُضعت أمته في كفة لرجَحَها؟ وكيف يُستبعد اطّلاعه على الغيب كجزء من معجزاته؟ (١)

هناك ما يقارب ثلاثمائة معجزة نبوية مذكورة في كتب الأحاديث المعتمدة، وقد تحقق القسم الأعظم من الأخبار الغيبية التي أخبرها النبي ﷺ. ولسنا هنا في معرض استعراض هذه الأخبار، بل سنتناول أمثلة منها لكي تعطينا فكرة عن الموضوع.

وسنقسم هذه الأمثلة إلى مجموعات ثلاث:

الأولى: الأخبار الغيبية المتعلقة بعهده ﷺ.

الثانية: الأخبار المتعلقة بالمستقبل القريب أو البعيد.

الثالثة: الحقائق التي أوضحها ببيانه السهل الممتنع والتي لم يعرف معناها إلا بعد تقدم العلوم.

أولاً: أخبار الغيب المتعلقة بزمانه

١- تورد كتب الأحاديث وفي مقدمتها صحيح البخاري ومسلم الرواية التالية:

عن أنس ﷺ قال: سألوا النبي ﷺ حتى أحفوه بالمسألة، فصعد النبي ﷺ ذات يوم المنبر فقال: «لا تسألوني عن شيء إلا بيّنتُ لكم» فجعلتُ أنظر يميناً وشمالاً، فإذا كل رجل رأسه في ثوبه يبكي، فأنشأ رجل كان إذا لاحى يُدعى إلى غير أبيه فقال: يا نبي الله من أبي؟ فقال: «أبوك حُذافة» ثم أنشأ عمر فقال: رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً

---

(١) انظر: أبو داود، السنة، ٨؛ «المسند» للإمام أحمد ٢/٧٦

وبمحمد رسولاً، نعوذ بالله من سوء الفتن، فقال النبي ﷺ: «ما رأيت في الخير والشر كاليوم قط، إنه صُوِّرت لي الجنة والنار، حتى رأيتهما دون الحائط.»[١]

٢- يورد مسلم في صحيحه وأبو داود والنسائي عن أنس ﷺ عن عمر بن الخطاب ﷺ: ...ثم أنشأ يحدّثنا عن أهل بدر فقال: إن رسول الله ﷺ كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول: «هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله» قال فقال عمر: فوالذى بعثه بالحق! ما أخطأوا الحدود التي حدّ رسول الله ﷺ.[٢]

أجل، فهؤلاء الكفار الذين لم يؤمنوا برسول الله ﷺ في حياتهم كانت أجسادهم الآن وجثثهم تنطق بشهادة صدقه عليه الصلاة والسلام... ذلك لأنه كان يخبر، ثم يتحقق ذلك الخبر بحذافيره.

٣- ينقل الإمام أحمد بن حنبل في مسنده الحادثة التالية:

قال جرير: لمّا دنوتُ من المدينة أنختُ راحلتي ثم حلّلْتُ عيبتي ثم لبست حُلّتي ثم دخلت، فإذا رسول الله يخطب فرماني الناس بالحَدَق فقلت لجليسي: يا عبد الله، ذَكَرني رسول الله ﷺ؟ فقال: نعم ذكرك آنفاً باحسن ذكر، فبينما هو يخطب إذ عرض له في خطبته، وقال: «يدخل عليكم من هذا الباب أو من هذا الفَجّ من خير ذي يمن، ألا وإن على وجهه مسحة ملَك.»[٣]

٤- ينقل ابن كثير في "البداية والنهاية" والبيهقي في "دلائل النبوة" الحادثة التالية:

رأى أبو سفيان رسول الله ﷺ يمشي والناس يطئون عقبه، فقال بينه وبين نفسه: لو عاودت هذا الرجل القتال؟ فجاء رسول الله ﷺ حتى ضرب بيده على صدره فقال: «إذن، يُخزيك الله» فقال: أتوب إلى الله وأستغفر الله مما تفوّهتُ به.

---

(١) البخاري، الدعوات، ٣٥، الفتن، ١٥؛ مسلم، الفضائل، ١٣٤

(٢) مسلم، الجنة، ٧٦، ٧٧؛ النسائي، الجنائز، ١١٧

(٣) «المسند» للإمام أحمد ٤/٣٦٠-٣٦٤

وفي رواية: إن أبا سفيان بن حرب بعد فتح مكة كان جالساً فقال في نفسه: لو جمعت لمحمد جَمْعاً؟ فإنه لَيحدّث نفسه بذلك إذ ضرب رسول الله ﷺ بين كتفيه وقال: «إذن، يُخزيك الله» قال فرفع رأسه فإذا رسول الله ﷺ قائم على رأسه فقال: ما أيقنت أنك نبيّ حتى الساعة.[١]

٥- وهناك حادثة أخرى جاءت حول عُمَيْر بن وهْب الذي كان لقبه "الشيطان" في الجاهلية فأصبح لقبه "راهب الإسلام" بعد هدايته. وخلاصة هذه الحادثة أنه جلس يوماً في مكة مع صفوان بن أمية واتفقا على أن يذهب عمير بن وهب إلى المدينة ويتظاهر بأنه أسلم ويقتل رسول الله ﷺ وذلك مقابل أن يعطيه صفوان عدداً من الإبل.

حدّ عمير سيفه وتوجه إلى المدينة وعندما وصلها قال بأنه قد أسلم ويريد مبايعة رسول الله. فذهبوا به إلى مسجد رسول الله ﷺ. ولكن الصحابة لم يكونوا يأمنون جانبه ولا يأمنون اختلاءه بالنبي ﷺ فذهبوا به إلى المسجد وأحاطوا بالنبي ﷺ الذي سأل عميراً عما جاء به وعندما أجابه بأنه جاء ليسلم لم يصدّقه الرسول ﷺ وقال له: «أنا أخبرك لم جئت.» وأخبره ما كان من أمره مع صفوان في مكة واتفاقه معه على قتله ﷺ. فذهل عمير مما سمع وأكبّ على يدي رسول الله ﷺ يعلن إسلامه ويشهد أنه رسول الله.[٢] ثم أصبح من أصحاب العبادات ومجاهدة النفس حتى أطلق عليه اسم "راهب الإسلام".

فمن الذي أخبر رسول الله ﷺ بما جرى بين عمير وصفوان في مكة؟

---

(١) «دلائل النبوة» للبيهقي ١٠٢/٥؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٣٤٨/٤

(٢) «الإصابة» لابن حجر ٣٦/٣؛ «رجال حول الرسول» لخالد محمد خالد ص٣٠٤-٣١٢

ثانياً: ﴿ الأخبار المتعلقة بالمستقبل ﴾

أ – المستقبل القريب

يروي البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد بن حارثة:

كان رسول الله ﷺ يأخذني فيُقعدني على فخِذه ويقعد الحسن على فخذه الأخرى ثم يضمهما ثم يقول: «اللهم ارحمهما فإني أرحمهما.»[(١)] وبعد أن أصبح شاباً عيّنه رسول الله ﷺ –وهو في أواخر أيامه– قائداً على الجيش الذي هيأه لقتال الروم... أي كان يريد إرساله إلى الأرض التي استشهد فيها أبوه قبل سنوات. غير أن أسامة عندما رأى اعتلال صحة الرسول ﷺ فضّل الانتظار في المدينة ولم يغادرها حتى وفاة النبي ﷺ.[(٢)] يقول أسامة: أشرف النبي ﷺ على أُطُمٍ من آطام المدينة. فقال: «هل ترون ما أرى، إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القَطْر.»[(٣)]

وبعد أن فارق رسول الله ﷺ الحياة وأصحابه امتلأت شوارع المدينة وأزقتها بالفتن. وكان عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ﷺ من ضحايا هذه الفتن. فكأن هذه الفتن كانت تقول لرسول الله ﷺ بلسان حالها "لقد صدقت."

١– * الفتن

كان عمر بن الخطاب يخشى هذه الفتن طوال حياته، وفي رواية عن الأعمش عن شقيق عن حُذيفة ﷺ أنه في أحد الأيام بينما كان عمر جالساً في جمع من الصحابة في المسجد سألهم:

---

(١) البخاري، الأدب، ٢٢؛ «المسند» للإمام أحمد ٢٠٥/٥

(٢) «البداية والنهاية» لابن كثير ٣٣٥/٢؛ «مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر» لابن المنظور ٢٥٠/٤

(٣) البخاري، فضائل المدينة، ٨؛ مسلم، الفتن، ٩

أيكم يحفظ حديث رسول الله ﷺ في الفتنة كما قال؟ قال فقلت: أنا. قال: إنك لجريء. وكيف قال؟ قال قلت: سمعت رسول الله ﷺ يقول «فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وولده وجاره، يكفّرها الصيام والصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.» فقال عمر: ليس هذا أريد، إنما أريد التي تموج كموج البحر. قال فقلت: مالك ولها؟ يا أمير المؤمنين! إن بينك وبينها باباً مغلقاً. قال: أفيُكسر الباب أم يُفتح؟ قال قلت: لا. بل يُكسر قال: ذلك أحرى أن لا يغلَق أبداً.

قال: فقلنا لحُذيفة: هل كان عمر يعلم من الباب؟ قال: نعم. كما يعلم أن دون غد الليلة. إني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط. قال فهبنا أن نسأل حُذيفة: من الباب؟ فقلنا لمسروق: سله. فسأله فقال: عمر.[1]

كان عمر رضي الله عنه يعلم ذلك. فقد طرق سمعَه سابقاً حديثُ رسول الله ﷺ عن الفتنة. وعندما جاء ميعادها ظهرت كما أخبر رسول الله ﷺ. فطُعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه من قبل مجوسي فارسي، فتلقّت الوحدة الإسلامية ذلك اليوم طعنةً عميقة في صدرها... أجل، لقد اختار أعداء الإسلام هدفهم اختياراً جيداً، وضربوا هذا الهدف في الصميم. فبوفاته سالت الفتن كالسيل الجارف على أرض الإسلام... صحيح أن هذا كان خَطْباً عظيماً ورزءاً كبيراً، ولكنه كان من جهة أخرى تصديقاً وبرهاناً ناصعاً على صدق النبوة.

٢- * النصر

جاء في البخاري وفي سنن أبي داود عن خبّاب بن الأرتّ رضي الله عنه قال:

شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: «كان الرجل فيمن قبلكم يُحفَر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضَع على رأسه فيُشَقّ باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه. ويمشط بأمشاط

---

(١) مسلم، الفتن، ٢٦؛ البخاري، الصوم، ٣

الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، واللهِ ليتمـنّ الله هـذا الأمر، حتى يسير الراكـب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم قوم تستعجلون.»[(١)] وتحققت نبوءة الرسول ﷺ بحذافيرها.

٣- * «أنتِ أول من يلحق بي»

جاء في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها وهي تروي ذكرياتها عن الأيام الأخيرة للرسول ﷺ قالت: كُنّ أزواج النبي ﷺ عنده. لم يغادر منهن واحدة. فأقبلت فاطمة تمشي. ما تُخطئ مِشيتها من مشية رسول الله ﷺ شيئاً. فلما رآها رحّب بها فقال: «مرحباً بابنتي» ثم أجلسها عن يمينه.[(٢)] قالت عائشة رضي الله عنها: فسارّها بشيء فبكتْ، ثم دعاها فسارّها بشيء فضحكت، فسألناها عن ذلك فقالت: سارّني النبي ﷺ أنه يُقبَض في وجعه الذي توفي فيه، فبكيت ثم سارّني فأخبرني أني أول أهل بيته يتبعه فضحكت".[(٣)]

فكأنها في بكائها كانت تصف حالها بعد وفاة والدها:

ماذا عليّ مَنْ شَمّ تربة أحمدا ... ألا يَشُمّ مدى الزمان غَواليا

صُبّت عليّ مصائبُ لو أنها ... صُبّت على الأيام عُدْنَ لياليا [(٤)]

وبعد ستة أشهر فقط من وفاته ﷺ لحقت به فاطمة رضي الله عنها. وكانت وفاتها تصديقاً لنبوة أبيها رسول الله ﷺ.[(٥)]

---

(١) البخاري، المناقب، ٢٥؛ أبو داود، الجهاد، ٩٧

(٢) البخاري، الاستئذان، ٤٣؛ مسلم، فضائل الصحابة، ٩٨، ٩٩؛ ابن ماجة، الجنائز، ٦٤

(٣) البخاري، المغازي، ٨٣؛ مسلم، فضائل الصحابة، ٩٨

(٤) «سير أعلام النبلاء» للذهبي ١٣٤/٢؛ ابن ماجة، الجنائز، ٦٥؛ «المسند» للإمام أحمد ١٩٧/٣

(٥) البخاري، المغازي، ٣٨؛ مسلم، الجهاد، ٥٢؛ «المسند» للإمام أحمد ٦/١

٤- * الصلح

ذكر معظم رجال الحديث في كتب الأحاديث الستة أن الرسول ﷺ أشار يوماً وهو على المنبر إلى الحسن ﷺ قائلاً: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يُصْلِح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين.»(١)

أجل، إنه كريم بن كريم وحفيد لرسول الله ﷺ، وعندما أصبح خليفة ذات يوم تخلّى عنها وعن السلطة حتى لايكون سبباً في التفرقة بين أمة الإسلام، وأثبت بذلك كيف أنه سيد وابن سيد... فلم يمر سوى خمس وعشرين أو ثلاثين سنة على نبوءة رسول الله ﷺ حتى تحقق ما قاله حرفياً... فالأمويون رأوا الحسن أمامهم بعد وفاة علي بن أبي طالب، ولكن الحسن كان رجل صلح وسلام، لذا فقد تنازل عن جميع حقوقه لكي يصلح بين جيشي المسلمين ويمنع -ولو بشكل مؤقت- وقوع فتنة كبرى بين المسلمين.(٢)

وما أصدق ما قال الشاعر في حقه:

كريم بن كريم بن كريم   وجده خير الأنام

عندما أخبر الرسول ﷺ هذه الحادثة بحقه كان الحسن ﷺ طفلاً صغيراً، وربما لم يَفهم مراد الرسول ﷺ ولا ما أشار إليه، أي أنه لم يفعل ما فعله لأن رسول الله ﷺ قال ذلك، بل قال رسول الله ﷺ ذلك القول لكونه عالماً بما سيفعله، وكان الحسن ﷺ بعمله هذا يصدّق جده، ويقول له بلسان الحال: "صدقت!"

٥- * سيعيش قرناً

عن عبد الله بن بُسْر: قال وضع رسول الله ﷺ يده على رأسي فقال: «يعيش هذا الغلام قرناً.» فعاش مائة سنة وكان في وجهه ثؤلول، فقال: «لا يموت حتى يذهب

---

(١) البخاري، الصلح، ٩؛ الترمذي، المناقب، ٣٠؛ النسائي، الجمعة، ٢٧؛ أبو داود، السنة، ١٢؛ «المسند» للإمام أحمد ٤٩/٥

(٢) «البداية والنهاية» لابن كثير ٤٥/٨

الثؤلول.» ويقول الصحابة إنه عاش مائة سنة وذهب الثؤلول عن وجهه.[١]

وكما كان رسول الله ﷺ حسب سر الآية ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾ (الضحى: ٤). يتقدم كل يوم ويقطع الدرجات نحو العُلى ونحو الأفضل ويكون يومه دائماً أفضل من أمسه، فإنه كان يستغفر كل يوم مائة مرة.[٢] وكانت أمته تعرفه أكثر فأكثر كل يوم، وكان إيمانها يزداد به وبصدقه كلما أظهرت الأيامُ صِدقَ الأخبار التي أخبرها الرسول ﷺ عن المستقبل فتُرَدّد وتقول: "صدقت يا رسول الله!"

والآن لنعط بعض الأمثلة المتعلقة بالعهود البعيدة عن زمن الرسول ﷺ والقريبة من زماننا الحالي. والأمثلة عن الأخبار المستقبلية التي ننتظر تحققها أيضاً.

٦- * الأخبار التي أخبرها في وقعة "الخندق"

تكاد جميع كتب الأحاديث تجمع على إيراد الحادثة التالية التي جرت أثناء حفر الخندق حول المدينة. وكان النبي ﷺ يشارك صحابته في الحفر، وينشد:

«اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة» [٣]

فينشدون:

«واللهِ لولا أنت ما اهتدينا ولا تَصدّقنا ولا صلّينا

فأنزِلنْ سكينة علينا وثبّت الأقدام إن لاقينا» [٤]

يقول البراء بن عازب الأنصاري:

لما كان حين أمرَنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق عرض لنا في بعض الخندق صخرة

---

(١) «مجمع الزوائد» للهيثمي ٤٠٤/٩-٤٠٥

(٢) مسلم، الذكر، ٤٢؛ أبو داود، الوتر، ٢٦

(٣) البخاري، مناقب الأنصار، ٩؛ مسلم، الجهاد، ١٢٧

(٤) البخاري، المغازي، ٢٩؛ مسلم، الجهاد، ١٢٣-١٢٥

عظيمة شديدة لا تأخذ فيها المعاول، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فلما رآها أخذ المعول وقال: «بسم الله» وضرب ضربة فكَسَّر ثلثها وقال: «الله أكبر! أُعطيتُ مفاتيح الشام، والله إنّي لأُبصِر قصورها الحمر إن شاء الله» ثم ضرب الثانية فقطع ثلثاً آخر فقال: «الله أكبر! أُعطيتُ مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض» ثم ضرب الثالثة فقال: «بسم الله» فقطع بقية الحجر فقال: «الله أكبر! أُعطيتُ مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صَنْعاء من مكاني الساعة.»[١]

ولم تمض إلا بضع سنين حتى فتح الله تعالى بسيوف سعد بن أبي وقّاص وخالد بن الوليد وغيرهما من كبار القوّاد كل هذه البلدان والممالك. وتم تسليم مفاتيحها إلى الشخصية المعنوية لرسولنا محمد ﷺ. وكان هذا دليلاً آخر على صدقه. ولم يكن في الإمكان أصلاً إلا أن يكون هكذا، فلو فرضنا المستحيل ولم يحصل ما وعده رسولنا ﷺ، لحقق الله تعالى هذا الوعد لكي لا يكذّب رسوله... كيف لا ورسول الله ﷺ يصف الصحابي البراء بن مالك ﷺ بأنه «لو أقْسم على الله لأبرّه.»[٢] أي لو أقسم البراء حول أمر صعب التحقق لحقق الله تعالى قَسَمه هذا. وكان الصحابة يقدمونه في الحرب لكي يضمنوا انتصارهم.[٣] فهل يعطي الله أحد الصحابة مثل هذه المِيزة ولا يعطيها لرسوله ﷺ؟ فالله سبحانه تعالى أراه فتح هذه البلدان رأي العين، وكان الرسول ﷺ يخبر عما رآه.

٧- * بشرى الأمن والغنى

روى عَدِيّ بن حاتِم ﷺ قال:

بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا قطع السبيل، فقال: «يا عديّ! هل رأيت الحِيرة؟» قلت: لم أرها، وقد أُنبئتُ عنها. قال: «فإن طالت

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير ١١٦/٤؛ «السيرة النبوية» لابن هشام ٢٣٠/٣؛ «المسند» للإمام أحمد ٣٠٣/٤

(٢) الترمذي، المناقب، ٥٤ (والصحابي المذكور هو البراء بن مالك أخ أنس بن مالك)

(٣) «الإصابة» لابن حجر ١٤٣/١-١٤٤

بك حياة، لتَرَيَنّ الظعينة[١] تَرتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف الا الله» –قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دُعّار[٢] طَيِّئ الذين قد سَعّروا[٣] البلاد– «ولئن طالت بك حياة لتُفتحَنّ كنوزُ كسرى.» قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لَترَيَنّ الرجلَ يُخرج ملء كفه من ذهب أو فضة، يطلب من يَقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه.»

إلى أن يقول: فرأيت الظعينة ترتحل من الحِيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوزَ كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياةٌ، لترَوُنّ ما قال النبي أبو القاسم ﷺ: «يُخرج ملء كفه.»[٤]

لم ير عديّ تحقق النبوءة الثالثة، ولكن جاء اليوم الذي تحققت فيه أيضاً. ففي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز تحقق الشق الثالث من النبوءة، وأصبح واقعاً مُعاشاً. ففي تلك الدولة الواسعة المترامية الأطراف كان توزيع الثروة عادلاً ومنظماً إلى درجة أنه لم يبق فيها فقير واحد. ولا نبالغ إن قلنا بأن مستوى الحياة الحالية في الولايات المتحدة الأمريكية وفي دول الغرب أقل بكثير من مستوى الحياة آنذاك في تلك الدولة. هذا علاوة على أن نظام توزيع الثروات في هذه الأمم غير عادل وغير متوازن أبداً؛ فإلى جانب فئة غنية وموسرة ومرفهة جداً نجد الطبقات الفقيرة التي تعيش ظروف حياة قاسية. وما كان مثل هذا التوزيع الجائر غير المتوازن موجوداً في ذلك العهد... عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز.[٥]

---

(١) **الظعينة:** هو في الأصل اسم الهودج ثم قيل للمرأة في الهودج. (المترجم)

(٢) **دُعّار:** جميع داعر وهو الخبيث المفسد الفاسق. (المترجم)

(٣) **سعّروا البلاد:** أسعلوا فيها نار الفتنة وأفسدوها. (المترجم)

(٤) **البخاري، المناقب، ٢٥**

(٥) **«البداية والنهاية» لابن كثير ٢٢٥/٩**

٨- * شهادة عمّار

كان المسلمون منهمكين ببناء المسجد النبوي... الكل يعمل... فمنهم من يصنع اللبِن ومنهم من ينقلها ومنهم من يبني. وكان رسول الله ﷺ يعمل معهم . فمر به عمّار بن ياسر رضي الله عنه وهو يحمل لبنتين -بينما كان الباقون يحملون لبنة واحدة- فقال له رسول الله ﷺ: «ما دأبك إلى هذا؟» قال: يا رسول الله أريد الأجر. فجعل يمسح التراب عن منكبيه وظهره وهو يقول: «ويحك يا عمّار! تقتلك الفئة الباغية.»[1] أو: «أبشر! تقتلك الفئة الباغية.»[2] فأخبر النبي علي بن أبي طالب رضي الله عنه بذلك ونبهه إلى أن عمّاراً سيستشهد وستقتله الفئة الباغية.

في معركة صِفّين كان عمّار في صف علي بن أبي طالب رضي الله عنه واستشهد فيها. وعَدّ أصحاب علي رضي الله عنه هذه الشهادة دليلاً على أن الطرف الآخر فئة باغية.[3] صحيح أن صحابياً جليلاً قُتل في هذه المعركة، ولكن كل قطرة من دمائه سقطت على أرض المعركة كانت تقول: "صدقت يا رسول الله ﷺ!"

أجل، أيها القراء الأعزاء! فلو لم يُخبِر الله تعالى فكيف يستطيع الإنسان أن يعلم هذا..؟ هناك حالياً أفلام خيالية تقوم ببعض التنبؤات حول المستقبل؛ وهذا ليس بالأمر الصعب، ذلك لأن لديهم المقدمات والبدايات، ويمكن القيام ببعض التخمينات في هذه المسائل وربط الحوادث وتركيبها بعضها مع البعض الآخر.

بينما الأمور الغيبية التي أخبر عنها رسول الله ﷺ لم تكن لها مقدمات ولا بدايات، وما كان بمقدور أي بشر مهما كان عبقرياً أن يخبر عُشر معشار ما أخبر الرسول ﷺ من أمور المستقبل وأمور الغيب؛ ذلك لأن العقول لها حدود لا تستطيع تجاوزها. إذ يستحيل

---

(١) البخاري، الصلاة، ٦٣؛ مسلم، الفتن، ٧٠-٧٣

(٢) الترمذي، المناقب، ٣٤

(٣) «كنز العمال» للهندي ٥٣٩/١٢؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٢٩٦/٧

معرفة هذه المسائل دون الاستعانة بالوحي أو الإلهام الغيبي. ومن ثم فلم يكن رسول الله ﷺ يعرف هذه المسائل من نفسه، بل لأن الله تعالى كان يخبره بها، وهذا هو سبب تصديق الأيام لكل ما قاله.

٩- * قوم مارقون من الدين

في أحد الأيام كان رسول الله ﷺ يقسم الغنائم فأقبل شخص غائر العينين ناتئ الجبين كَثّ اللحية مُشرِف الوجنتين محلوق الرأس ، ولعله كان يمثل ظهور أمة في المستقبل، فخاطب رسول الله ﷺ بكل صفاقة قائلاً: يا محمد اِعْدِلْ.قال: «ويلك! ومن يَعدِل إذا لم أكن أعدل؟ لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل.»[١]

والرواية إما "خبتَ وخسرتَ" بفتح التاء الأخيرة، أي بضمير المخاطب، أو "خبتُ وخسرتُ" بضم التاء الأخيرة أي بضمير المتكلم. فالرسول ﷺ يريد أن يقول حسب الرواية الأولى: إن لم يكن نبي أمة شخصاً عادلاً فكيف تتعلم تلك الأمة العدالة؟ والناس الذين يعيشون في جو بعيد عن العدالة لا شك يعيشون في خيبة وخسران. ويريد أن يقول حسب الرواية الثانية: لو لم أعدل أُعَدّ من الخاسرين بينما بعثت نبياً ورسولاً ورحمة للعالمين.. إذن، فلا يمكن الاّ أعدل.

وأراد عمر بن الخطاب ﷺ أن يؤدب هذا الشخص الذي لا يعرف أدب الحديث، فقال لرسول الله ﷺ : ائْذَنْ لي فَأَضْرِبَ عُنُقَه. ولكن رسول الله ﷺ قال: «دعه فإنّ له أصحاباً يَحقِر أحدُكم صَلاتَه مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم يَقرأون القرآن لا يجاوز تَراقيَهم، يَمرُقون من الدين كما يَمْرُق السَهْم من الرَّمِيَّة، يُنظَر إلى نَصْله فلا يوجد فيه شيء، ثم يُنظَر إلى رِصافه[٢] فلا يوجد فيه شيء ثم يُنظَر إلى نَضِيِّه[٣] وهو قِدْحُه[٤] فلا يوجد فيه شيء،

(١) مسلم، الزكاة، ١٤٢؛ البخاري، الأدب، ٩٥، المناقب، ٢٥

(٢) إلى رِصافه: الرصاف مدخل النصل من السهم. والنصل هو حديدة السهم

(٣) إلى نَضِيِّه: السهم بلا نصل ولا ريش.

(٤) القدح: هو السهم الذي كانوا يستقسمون به.

ثم يُنظَر إلى قُذَذه[١] فلا يوجد فيه شيء، قد سَبَق الفَرْثَ والدَّمَ،[٢] آيتُهم رَجُلٌ أسودُ إحدى عَضُدَيْه مثل ثَدْيِ المرأة. أو مثل البَضْعة[٣] تَدَرْدَرُ ويَخرجون على حينِ فُرْقَةٍ من الناس.[٤]

قال أبو سعيد الخدري ﷺ: فأشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ وأشهد أن علي بن أبي طالب ﷺ قاتلهم وأنا معه، فأَمَر بذلك الرجل فالتُمس فأُتي به حتى نظرتُ إليه على نَعْتِ النبي ﷺ الذي نَعَتَه.[٥]

إذن، فالذين مرقوا من الدين مروق السهم هم الخوارج الذين قاتلهم علي بن أبي طالب ﷺ.[٦] وهناك رواية في حديث صحيح: أن الرسول ﷺ قال قاصداً علي بن أبي طالب ﷺ: «إن منكم من يقاتل على تأويل هذا القرآن كما قاتلتُ على تنزيله.»[٧]

أي إن الناس حاربوني ووقفوا ضدي عند نزول القرآن، وقاتلتهم على ذلك، وسيأتي يوم يفسَّر فيه القرآن تفسيراً خاطئاً ويؤَوَّل تأويلاً خاطئا، وستحارب أنت هؤلاء الناس... وقد حدث هذا كما ذكرت كتب السير.

فكأن ذلك الشخص الغائر العينين، الناتئ الجبين قد خُلق وعامل رسول الله ﷺ تلك المعاملة السلبية لكي يظهر صدق رسول الله ﷺ. ولكن لا يرد على خاطر أحدكم بأنه سيؤجر على هذا... كلا! فكما لا يؤجر الشيطان لتسببه في اكتساب المؤمن ثواباً من الله بسبب مقاومته لوسوسته. كذلك لا يؤجر ذلك الشخص بسبب أنه كان وسيلة لظهور صدق رسول الله ﷺ. لأنها كانت وسيلة بطريقة غير محببة وغير مؤدبة مع رسول الله ﷺ.

---

(١) قُذَذه: القذذ ريش السهم واحدتها قُذّة.

(٢) سبق الفرث والدم: أي إن السهم قد جاوزهما و لم يعلق فيه منهما شيء. والفرث اسم ما في الكرش.

(٣) مثل البضعة تَدردر: البضعة: القطعة من اللحم. تدردر: تضطرب وتذهب وتجيء.

(٤) البخاري، المناقب، ٢٥، الأدب، ٩٥؛ «المسند» للإمام أحمد ٥٦/٣

(٥) البخاري، المناقب، ٢٥، الأدب، ٩٥؛ «المسند» للإمام أحمد ٥٦/٣

(٦) «البداية والنهاية» لابن كثير ٣٢٠/٧-٣٢١

(٧) «المسند» للإمام أحمد ٨٢/٣؛ «مجمع الزوائد» للهيثمي ١٨٦/٥؛ ١٣٣/٩

١٠- * أمّ حرام وركوب البحر

كانت أم حرام بنت مِلحان خالة رسول الله ﷺ بالرضاعة في رواية، وفي رواية أخرى قريبة أمه ﷺ وبمثابة خالته. فكان رسول الله ﷺ يزورها من حين لآخر، وقد يستريح عندها. وفي إحدى المرات استراح عندها ثم استيقظ يتبسم. فقالت له أم حرام:

ما أضحكك؟ قال: «أناس من أمتي عُرضوا عليّ يركبون هذا البحر الأخضر كالملوك على الأسِرّة» قالت: فادْعُ الله أن يجعلني منهم فدعا لها، ثم نام الثانية، ففعل مثلها فقالت مثل قولها فأجابها مثلها. فقالت: اُدْعُ الله أن يجعلني منهم فقال: «أنتِ من الأولى.»[1] فخرجتْ مع زوجها عبادة بن الصامت غازياً أول من ركب المسلمون البحر مع معاوية إلى جزيرة قبرص، فلما انصرفوا من غزوهم قافلين فنزلوا الشام، فقُرِّبت إليها دابة لتركبها فصرعتْها فماتت.[2] والمسلمون يزورون قبرهما في قبرص من ذلك الوقت حتى الآن ويذرفون الدموع ويدعون لهما؛ ولكن كل قطرة دمع تقع هي بمثابة تصديق لرسول الله ﷺ الذي أخبر خبراً غيبيا، وصدّقت الأيام والحوادث قوله بكل دقة. وجزيرة قبرص وقبرهما هناك شاهدان لا يمكن لأحد أن يكذبهما.

أجل، إن الأيام تظهر على الدوام صدق كل ماقاله وأخبر به رسول الله ﷺ عندما يحين الوقت المناسب لذلك. لذا، فإننا نجدد على الدوام شهادتنا بأنه رسول الله الصادق الأمين، ونقول بعدد ذرات أجسادنا: "صدقت يا رسول الله!"

أجل، قد تقصر تعابيرنا عن إيفاء هذه المعاني حقها، ولكن كل مؤمن يسمع هذا الصوت في ضميره، وهذا الصوت قوي وهادر إلى درجة أن عدم سماعه أو عدم الالتفات إليه يعد إنكاراً له، وهذا شيء مستحيل.

(١) البخاري، الجهاد، ٣، ٨؛ مسلم، الإمارة، ١٦٠-١٦١

(٢) «الإصابة» لابن حجر ٤/٤٤١؛ البخاري، الجهاد، ٨

ب – المستقبل البعيد

١- * بنو قنطوراء

أخبر رسول الله ﷺ بأن قوماً سيظهرون وسيتسلطون على العالم الإسلامي فقال: «فإذا كان آخر الزمان جاء بنو قَنْطُوراء عِراض الوجوه صِغار الأعين ذُلْف الأنوف[١].»[٢]

وتقول كتب التاريخ بأن هؤلاء القوم هم الـمُغول، والحقيقة أن هناك مصيبتين فادحتين ألـمّتا بالعالم الإسلامي وقعت إحداهما في الأندلس من قبل "فردينان (Ferdinand)" وكانت أنموذجاً للوحشية الغربية حيث قتل فيها الناس وأحرقت الكتب والمكتبات. والثانية كانت غزو الـمُغول الذي امتد إلى الأناضول وسورية ومصر، وتم فيه هدم كل معالم الحضارة والتمدن في هذه البلدان وحوّلت إلى خرائب قبل أن يتم انسحابهم.

ولكون رسول الله ﷺ يهتم بأمر أمته وقَدَرها فإنه كان يقوم بتنبيهها بمثل هذه الأخبار، وكأنه يقول لها: عندما تستحق هذه الأمة العقاب فإن الله تعالى يرسل لها الظالمين لتأديبها. فالظالمون هم سيف الله الذي يتم بهم الانتقام أول الأمر، ثم ينتقم الله منهم. أي إن الظالمين لن يهنأوا بظلمهم ولكن الله يسلط الظالمين على المسلمين أول الأمر، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر. وهو يحذر أمته من مثل هذه العواقب الوخيمة ومن التصرف بما يغضب الله تعالى ويجلب سخطه؛ ويصور لهم هذه المصائب والعواقب الوخيمة؛ كل ذلك لكي يتجنبوها، لأنه كان أنموذجاً للرحمة وللشفقة.

وعندما صدقت الأيام وبعد مضي (٦–٧) من القرون على ما تَنبّأ به وما أخبر عنه كانت هذه الأيام والتواريخ تشهد على صدقه وعلى صدق نبوته.

---

١) ذلف الأنوف: في أنوفهم فطس وقصر، مع استواء الأرنبة وغلظها. (المترجم).

(٢) البخاري، الجهاد، ٩٥، ٩٦؛ أبو داود، الملاحم، ١٠؛ ابن ماجة، الفتن، ٣٦؛ «المسند» للإمام أحمد ٥/٤٠، ٤٥

٢- * فتح إسطنبول

ينقل الحاكم في "المستدرك" بأن رسول الله ﷺ أخبر بأن أمته ستفتح إسطنبول التي كانت تدعى آنـذاك بـ"القسـطنطينية". والروايـة هـي: قـال رسـول الله ﷺ: «لَتُفتحَنَّ القسطنطينية، فلَنِعْمَ الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش.»(١)

وقد حاول كثير من الحكام العظام والقواد الكبار فتح إسطنبول في كل عهد، لكي يكونوا هم المعنيين بهـذه البشارة. ولكنهـم أتـوا إلى إسطنبول ثـم رجعوا عنهـا. فهـا هـو الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصـاري -الـذي يعَد ضريحـه في إسطنبول جوهـرة ثمينـة في صدرها- شاهد من الشهود حول مجيء الكثيرين إلى أسوار إسطنبول ثـم رجوعهـم عنهـا. وأنا في الحقيقة أشعر بالحرج لأنني أضطر إلى تكرار معلومات يعلمهـا الجميع؛ وأعُدّ هـذا مضيعة للوقت ولكني مع هذا أضطر إلى الوقوف حول مسألة أو مسألتين:

إن "اولوباطلي حسن" الذي تسلق أسوار إسطنبول في يوم فتحها لم يكن جندياً عادياً بل خِرّيج مدرسة "أندرون" التي كـانت أفضـل المدارس آنـذاك وصديق دراسة لـ"محمد الفاتح". كان هؤلاء آنذاك بضعة أشخاص منهم "خضر جلبي" القاضي الأول لإسطنبول و"اولوباطلي حسن" ثم الفاتح الكبير محمد الثاني... فهؤلاء الثلاثة درسوا معاً ونشأوا معاً وكانوا طلاباً في حلقة الدراسة نفسها.

تسـلق "اولوبـاطلي حسـن" أسوار إسـطنبول واسـتطاع أن يثبـت العَلَـم العثمـاني علـى أسوارها على الرغم من أن جسمه قد أثخن من كثرة الطعنات والجروح. وبعد قليل كـان محمـد الفـاتح بجانبـه، فـرأى ابتسـامة عريضـة ترتسـم علـى وجـه هـذا البطـل المسجّى علـى الأرض، سأله بحَيْرة: "ما هذه الابتسامة على شفتيك يا حسن؟" أجابه: "لقد كان رسول الله ﷺ يتجول هنا... لقد شاهدت وجهه الجميل... هذا سبب سروري"

(١) «المستدرك» للحاكم ٤٤٢٢/٤ «المسند» للإمام أحمد ٣٣٥/٤

وقد أخبر ﷺ بنبأ هذا الفتح قبل تسعة قرون... وها هو في يوم الفتح يتجول بين أبطال هذا الجيش الفاتح. وأنا أقول دائماً استناداً إلى هذا وسأقول بأنه لو اجتمع ثلاثة أنفار معاً بإخلاص قلب وصفاء نية لخدمة الدين فلا بد أن روحانية رسول الله ﷺ ستكون معهم وتباركهم.

وهكذا كان فتح إسطنبول ومن قبله استشهاد الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري دليلاً آخر وشاهداً على صدق رسول الله ﷺ؛ ذلك لأنه كان من أوائل من سمع بشرى فتح هذه المدينة. فتَحمّل مشقة الخروج للجهاد من المدينة المنورة حتى الوصول إلى هذه المدينة البعيدة، وأوصى بدفنه عند أعتاب أسوارها.[1]

٣- * الوهن

أخبرنا الرسول ﷺ عن الحوادث القريبة من عصرنا وزماننا، فمن ذلك قوله ﷺ: «يوشك الأمم أن تَداعَى عليكم كما تَداعَى الأَكَلَةُ إلى قَصْعَتها.» فقال قائل: ومِن قِلّة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غُثاء كغثاء السيل، ولَينزِعَنّ الله من صدور أعدائكم المهابة منكم وليقذِفَنّ الله في قلوبكم الوَهَن.» فقال قائل: يا رسول الله وما الوَهَن؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت.»[2]

عند إلقاء نظرة واحدة إلى هذا الحديث نفهم منه أنه سيأتي يوم تتداعى علينا الأمم وتتجمع ضدنا؛ وأنها ستقوم بنهب ثرواتنا الظاهرة منها والمخفية تحت الأرض؛ وتتقاسم هذه الثروات فيما بينها بعد أن تضع يدها عليها بكل وقاحة؛ وأننا سنقوم بوضع مائدتنا أمامهم وتهيئة اللقم لأفواههم؛ وأنهم سيبتلعون ما وضع أمامهم بشهية لا تَعرف الشبع... ولماذا يكون كل هذا؟ لأننا آنذاك لسنا أمة أصيلة مثل شجرة باسقة، بل نشبه الزبد

---

(١) «الإصابة» لابن حجر ٤٠٥/١

(٢) أبو داود، الملاحم، ٥؛ «المسند» للإمام أحمد ٢٧٨/٥

والأوساخ التي تجرفها السيول... أجل، فمقابل خلافاتنا الفكرية والمزاجية التي مزّقتنا شيعاً وأحزاباً، وحّدت المنافع والمصالح الدنيوية أعداءنا، وجعلتهم جبهة واحدة ضدنا فغلبونا وأذلونا.

كان الأعداء يخشوننا سابقا، لأننا كنا لانخشى الموت مثلهم، بل نُقبل على الموت فرحين مستصغرين الدنيا ونراها لاتساوي شيئاً بالنسبة للآخرة؛ أما الآن فقد أصبحنا نخشى الموت ونحب الحياة الدنيا ونتعلق بها أكثر منهم، وهم يعرفون ضعفنا هذا ويستغلونه أبشع استغلال فيضربوننا في الصميم.

قد يبدو هذا الحديث لأوّل وهلة وكأنه يتحدث عن الحروب الصليبية ويخبر عنها، ولكن إن تمعنّا قليلاً لرأينا أنه ينطبق وبوضوح تامّ على الحوادث القريبة أيضاً.

كتب السيد "رائف قَرَه داغ" كتاباً أسماه "عاصفة البترول "، وقد اغتيل بسبب كتابه هذا، لأنه شرح في هذا الكتاب ما تَعرّض له الأتراك في القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين من غدر وخيانة، كما شرح المؤامرات التي حاكها الأعداء.

كلنا يعرف كيف تكالب الأعداء على الدولة العلية العثمانية،[1] فقد كان كل همهم الاستيلاء على ثرواتها ما ظهر منها وما بطن؛ وكان هذا التكالب والافتراس وحشياً بدرجة أفظع من أشد الحروب الصليبية شراسة... أجل، فقد دعا بعضهم بعضاً إلى هذه المائدة واقتسموا ثروات البلاد فيما بينهم ونهبوها.

قام أصحاب نحلة معينة كانت تُدبّر الفتنة في الخفاء بضرب النظام في عهد عثمان وعلي ﷺ من الخلف فصبغوا ذلك العهد الراشدي المنير بالدم، وقام أحفاد هؤلاء بضرب آل عثمان من الخلف أيضاً وحرموا العالم الإسلامي من الرأس الموجه ومن القيادة الواحدة. تسابقوا علينا كمن يتسابق للوصول إلى مائدة شهية معدّة لهم... كانوا كما

---

(١) أنا ضد استعمال تعبير الإمبراطورية العثمانية ذلك لأنها لم تكن إمبراطورية بل أفضل دولة إسلامية بعد عهد الصحابة والتابعين وأكثرها إشراقا وزهوا ومجدا. (المترجم)

وصفهم الشاعر محمد عاكف:

"بلايا مختلفة...
بعضهم من الهنود،
وبعضهم من آكلي لحوم البشر...
وبلايا أخرى لا أعرفها."

هذه البلايا اجتمعت ونهشت جسد الدولة العثمانية ومزقته إرباً إرباً ونهبت ثروتها وسرقتها. هجم علينا الصليبيون في الماضي تحت تأثير فكرة معينة، وكانت هذه هجمة الشخص الأوروبي الساذج الأحمق. فالجموع الأوروبية الساذجة المخدوعة كانت تتصور أنها آتية لإنقاذ قبر مريم العذراء.

وما كانوا يعرفون بأننا نبجل ونحترم مريم العذراء أكثر منهم، ذلك لأننا نعتقد أن مريم العذراء ستكون زوجة لرسولنا ﷺ في الجنة، أي إننا ننظر لها كأم للمؤمنين،[1] ولو كانت سيدتنا مريم العذراء حية لكنا نحن المدافعين عنها ضد أي شخص يريد مسها بأذى من قريب أو بعيد.

ما أريد أن أقوله هنا هو أن الإشارات الواردة في أحاديث رسولنا ﷺ ليست في حق الحروب الصليبية التي كانت نتيجة لمثل هذا التفكير الباطل والاعتقاد الخاطئ، بل هي تومئ إلى الحوادث المرعبة التي جرت في تاريخنا القريب والتي تجري الآن بكل ضراوتها وقسوتها؛ فالغرب لا يزال متفقاً ضدنا ولا يزال العالم الإسلامي مائدة مفتوحة أمامه، ولم يتخلص بعد من هذا الوضع. إذن، فما قيل قبل أربعة عشر قرناً لايزال يتحقق بحذافيره، ونحن نعيش هذا الواقع الآن.

٤- * فتنة الشيوعية

يروي عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ توجه يوماً نحو الشرق وقال: «ألا إن الفتنة

---

(١) «كنز العمال» للهندي ٤٢٤/١١

هاهنا من حيث يطلع قَرْنُ الشيطان.»[١]

فهناك احتمال قوي أن الرسول ﷺ كان يريد بهذا الحديث الإشارة إلى الفتنة التي ستظهر من جهة الشرق كبديل لأوروبا الظالمة. وكلمة "قرن" الواردة في الحديث تأتي بمعنى القرن الموجود في الحيوانات، أو تأتي بمعنى "العصر"، وأنا أرى أن المعنى الأخير هو المعنى المقصود، أي أن القرن هنا يأتي بمعنى العصر أو العهد، أي أن "قرن الشيطان" معناه "عصر وعهد الشيطان" وهو نقيض "عهد النبوة". فهذا النظام الشيوعي قائم على الإلحاد وعلى الإباحية وعلى جميع المفاسد الشيطانية التي تحاول التسللَ إلى القلب عن طريق النفس الأمّارة... ومع أن هذا النظام الشيوعي الذي يُعَدّ الابن غير الشرعي للنظام الرأسمالي يحتضر في هذه الأيام إلا أنه لا يزال يعد ألد أعداء الدين والمقدسات والمواريث التاريخية، ولا يزال كابوساً مخيفاً،[٢] وأنا أعتقد أن رسول الله ﷺ يطلق على هذا العهد الذي سيطر فيه هذا النظام الشيوعي على مساحات واسعة من العالم... يطلق عليه "العهد الشيطاني" أو "القرن الشيطاني" ويحذر أمته من هذا الوباء ومن هذا البلاء.

٥- * كنز نهر الفرات

يقول الرسول ﷺ: «يوشك الفُراتُ أن يَحسِر عن كنز من ذهب -أو جبل من ذهب- فمن حضره فلا يأخذ منه شيئاً.»[٣]

لقد جرت مقاتل كبيرة بالقرب من نهر الفرات حتى الآن. وإذا تناولنا التاريخ القريب نرى قتالاً كبيراً جرى بين العراق وإيران قرب نهر الفرات. وفي سنة ١٩٥٨ وقعت قرب نهر الفرات مجزرة قتل فيها أحفاد الرسول ﷺ.

إن هاتين الحادثتين لا يصح إيرادهما كتفسير للحديث الشريف أعلاه، غير أنه حتما

---

(١) البخاري، الفتن، ١٦؛ مسلم، الفتن، ٤٥ ؛ «المسند» للإمام أحمد ٢/٥٠، ٧٢

(٢) أطلقت هذه الكلمات سنة ١٩٨٩

(٣) البخاري، الفتن، ٢٤؛ مسلم، الفتن، ٣٠؛ أبو داود، الملاحم، ١٣

يشير إلى حادثة مستقبلية ستجري هناك. مثلا قد تصبح مياه الفرات ثمينة مثل الذهـب في عهد من العهود في المستقبل، والحديث يشير إلى هذا بشكل مجازي، أو أن الواردات التي سيتم الحصول عليها بعد إنشاء الخزانات والسدود عليه ستكون ثمينة وقيمة مثل الذهـب. أو قد يكون معناه بأن مياه الفرات ستنحسر تماماً وتكتشف تحتها منابع نفط غنية أو مناجم ذهب. ولكن مهما يكن فلا شك أن هذه المنطقة منطقة نهر الفرات ستكون مثل قنبلة موقتة وخطرة للعالم الإسلامي.

هذه الأمور والحوادث لم تظهر حتى الآن، فهي من الحوادث المستقبلية، وسيهتف الأقوام الذين سيدركون ويشاهدون تحقق هذه النبوءة "صدقت يا رسول الله!" وسيجددون إيمانهم.

٦- * رجوع المسيحية إلى نقائها القديم

ينبئنا الرسول ﷺ بأن المسيحية ستنقرض وتزول وستتحد مع الدين الإسلامي.[١]

أجل، فعندما يقوم الملحدون بإلقاء القبض على المؤمنين، يقوم الذين بيدهم القوة الجوية بنصرة المؤمنين بعون من الله تعالى رغم أنوف الملحدين حيث سيكسرون شوكة الملحدين.

في هذه الحرب العالمية ستملأ الجثث كل مكان... وستقوم النسور بنقل هذه الجثث المنتشرة في كل مكان على سطح الأرض، والنسور هنا رمز لمؤسسة معينة وتحمل معنى خاصاً وإيماءة خاصة.

٧- * الإصلاحات في الزراعة

ستكون هناك تطورات وقفزات في الزراعة، ونتيجة هذه التطويرات ستكون ثمرة الرمان ثمرة ضخمة تكفي الواحدة منها عشرين شخصاً. ويستطيع الشخص أن يستظل في ظل

---

(١) انظر: مسلم، الإيمان، ٢٤٤-٢٤٧

قِحْفها.[١] كذلك ستكون حبات القمح حبات ضخمة. هذه الأمور غير موجودة حالياً ولا نراها ولكنها ستكون موجودة في المستقبل بكل تأكيد، ستكون مصداقاً لنبوة رسولنا ﷺ ووسيلة لزيادة الإيمان به، لأن العصور والقرون ستكون شاهدة ودليلاً على صدقه.[٢]

إننا مفتونون بالمستقبل الذي سيولد من رحم الغيب، ولكننا في هذا المستقبل لن نجد سوى نوره ﷺ... فإذا انطفأ هذا النور فستصبح الحياة ظلمة أبدية.

٨- * عدم التوازن في أيامنا الحالية

لنرجع إلى الأخبار والإشارات المتعلقة بزماننا الحالي. يقول رسول الله ﷺ:

«إن بين يدي الساعة تسليم الخاصة وفشو التجارة حتى تعين المرأة زوجها على التجارة، وقطع الأرحام وشهادة الزور وكتمان شهادة الحق وظهور القلم.»[٣]

يصف هذا الحديث أيامنا الحالية وصفاً لا يحتاج إلى أي تأويل أو تفسير.

ستروج التجارة إلى درجة أن مقادير هائلة من رؤوس الأموال بالملايين وبمئات الملايين بل المليارات من الدولارات تستخدم فيها، إذ أن الملايين تصرف في الإعلانات وحدها، وكثيراً ما تستخدم المرأة في هذه الإعلانات وأحياناً تكون المرأة شريكة مباشرة في التجارة فتنزل إلى الأسواق وإلى المعارض، ولا يذهبن الظن بأحدكم بأنني ضد التجارة، وإنما أريد فقط الإشارة إلى صحة ما ورد في كلام رسولنا ﷺ.

وستنقطع صلة الأرحام، فحقوق الأم والأب وحقوق الأقارب سوف تهمل ولا يرعاها أحد، ولا يلتفت إليها بل تداس تحت الأقدام، وعندما يشيخ الأب والأم ويتقدم بهما العمر ويصبحان في حاجة إلى الرعاية والاهتمام والحنان يرسلان إلى دار العجزة وإلى

---

(١) قِحْفُ الرُّمّانة: قِشرها. (المترجم)

(٢) مسلم، الفتن، ١١٠؛ الترمذي، الفتن، ٥٩؛ «المسند» للإمام أحمد ١٨٢/٣

(٣) «المسند» للإمام أحمد ٤٠٧/١-٤٠٨؛ «المستدرك» للحاكم ٩٨/٤

دور المسنين لعلهما يجدان العناية التي لا يجدانها في بيتهما، هذا على الرغم من أن الله تعالى ذكر بأن حقوق الوالدين تأتي مباشرة بعد حقوقه ﷻ.[1] ولكن وصايا الله تعالى ستهمل ولا يلتفت إليها أحد، وسيتعرض الآباء والأمهات إلى معاملات وحشية ومهينة وإلى عقوق كبير. أتنطبق هذه الشروح على أيامنا الحالية أم لا؟ سأترك هذا لفطنة القراء.

سيزداد تقدير القلم أي التأليف والكتابة وستعمل المطابع ليل نهار لتخرج مئات وآلاف الجرائد والمجلات والكتب، وستقوم دور النشر والطبع بطبع ونشر الكتب ودوائر المعارف، وستمتلئ رفوف المكتبات بآلاف من مختلف الكتب، وستنقلب الكتابة إلى مهنة رائجة ويحترم الكتاب والمؤلفون. وسيروج الكذب وشهادة الزور حتى تندر الشهادة الصادقة، إذ ينقلب المجتمع إلى مصنع لإنتاج وترويج الأكاذيب، وستستند الحياة الاجتماعية إلى الكذب والتلفيق والخيانة.

والموضوع يكتسب وضوحاً شديداً إلى درجة أن بعضهم قد يتساءل: "أصحيح أن هذا الكلام يعود لرسولنا ﷺ؟"

والإجابة على هذا السؤال بسيط جدا، فهذا الحديث مدون قبل ثلاثة عشر قرناً وهو موجود في كتب الحديث منذ ذلك الوقت. فإن لم تكن هذه الأقوال عائدة لرسول الله ﷺ فإلى من تعود؟ ومن يستطيع شرح وبيان الأحداث التي ستأتي بعده بعدة قرون وعصور وكأنه يراه رأي العين..؟ من يستطيع ذلك غيره؟ ثم لو كانت هذه الأقوال لشخص آخر غيره فإن معنى هذا أن صاحبها يملك رؤية نورانية نحو المستقبل كرؤية الرسول ﷺ. ولكن هل و جد في التاريخ رجل آخر يمكن أن يكون نداً أو شبيها له لكي تسند هذه الأقوال إليه؟ كلا... فهذه الأنباء عن الغيب تعود لرسول الله ﷺ، فقد علمه ربه وقام هو بإخبارنا وإعلامنا. أجل، فهذه الحوادث التي ظهرت في أيامنا دليل قاطع على مدى صدق رسول الله ﷺ.

---

(١) انظر هذه الآيات: ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً﴾ (البقرة: ٨٣)، ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحساناً﴾ (النساء: ٣٦)، ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً...﴾ (الإسراء: ٢٣).

٩- * انتشار العلم

جاء في حديث قدسي أن الله تعالى يقول:

«أبُثّ العلم في آخر الزمان حتى يعلمه الرجل والمرأة والعبد والحر والصغير والكبير.»[(١)]

فالناس على اختلاف طبقاتهم اليوم يدرسون في مختلف المدارس ذات المستويات المختلفة، واصبحوا يتنافسون في الحصول على العلم. فكثرة الجامعات والمدارس وانتشار أجهزة الاتصال والمخابرة واستعمالها في مجال نشر العلم يدلنا على أن مانقله الرسول ﷺ عن ربه هو إشارة إلى عصر العلم والمعرفة، وأن التطورات الحاصلة في هذا المجال تؤيد هذه النبوءة وتصدقها. فكأن هذه المؤسسات العلمية تقول بلسان حالها لرسولنا "أنت صادق في كل كلامك" بل إن العلوم نفسها ستقول هذا بعد أن تحول إلى مجراها الأصلي والحقيقي.

١٠- * الفرار من القرآن

هناك حديث آخر ينطبق أيضاً على أيامنا حيث يقول:

«لا تقوم الساعة حتى يُجعل كتابُ الله عاراً ويكون الإسلام غريباً.»[(٢)]

فبينما يظهر الكافر كفره بكل صراحة وبكل علانية، فسيخجل المسلم من إسلامه، ولا يصرح به إلا وهو محرج. وبينما يعلن الكفار عن أفكارهم وعن مطبوعاتهم وكتبهم في كل مكان، لا يستطيع المسلم فتح المصحف وقراءته علنا، وستكون الضغوط النفسية قاسية وثقيلة إلى درجة أنه ما من شخص يستطيع إعلان أنه من أنصار القرآن دون أن يشعر بالخجل حتى ولو لم يكن هناك قانون يمنع هذا. أيستطيع أحد أن ينكر هذه الحقيقة الواضحة الآن؟ أوليست هذه إحدى المآسي التي يعيشها المسلم الآن؟ ألم يرجع الإسلام غريباً؟

---

(١) الدارمي، المقدمة، ٢٧

(٢) «كنز العمال» للهندي ٢٤٤/١٤

والآن دعونا نختم تصوير هذه الأحوال المؤلمة لنقول أن رسولنا ﷺ أخبرنا ومنذ عدة قرون بما سيحدث مستقبلا، وكلما جاء زمن ذلك الخبر ظهر بشكل يوافق كلامه في كل شيء ويصدقه حتى في تفاصيله الدقيقة. ليت شعري! ألا يكفي هذا لكي نرجع ونجدد البيعة له؟

١١- * مفهوم الزمن

وفي حديث آخر يقول الرسول ﷺ:

«لا تقوم الساعة حتى يكون القرآن عاراً ويتقارب الزمان وتنتقض عراه.»(١)

وكلمة "التقارب" الواردة في الحديث تعني اقتراب شيئين من بعضهما، وهذا يشير من جهة إلى نسبية الزمان، ومن جهة أخرى إلى أن الأمور التى كانت تأخذ وقتاً طويلاً لإنجازها في العهود السابقة ستنجز في وقت قصير. فمن المعلومات البديهية التي يعلمها الآن حتى الأطفال أن التقدم الصناعي والتكنولوجي جعلنا ندخل إلى عالم من السرعة المذهلة في كل ناحية من نواحي حياتنا. وكما يشير الحديث الشريف إلى هذا الأمر فإنه يشير من ناحية أخرى إلى وسائط النقل السريعة التي قربت المسافات. كما أود الإشارة إلى مسألة يعرفها من يعمل في مجال علم الفلك والفيزياء الفلكية. وهي أن الأرض تأخذ تدريجياً وبمرور الزمن شكلاً بيضويا، وهذا التغير يؤثر على الزمن وعلى ساعاتنا دون أن نشعر. وهناك معنى آخر أفهمه من هذا الحديث وهو: أن للزمن ماهية نسبية، ولكن مع هذا فأينما كان فالزمن هو زمن، فلو ذهبت مثلاً إلى برج الثور ونظرت من هناك إلى سحابة تبعد عنك أربعين مليون سنة ضوئية وتتحرك بسرعة ١٥٠ ألف كيلومتر في الثانية فستشاهد أزماناً مختلفة.

ولو استطاع الإنسان يوماً الخروج خارج المجموعة الشمسية فلا شك ان المفهوم الحالي للزمن سينقلب عنده رأساً على عقب. وهكذا فبوساطة كلمتين سحريتين وهما "تقارب الزمان" يشير رسول الله ﷺ إلى ما سيحدث من تغير في مفهوم الزمن عندنا.

---

(١) «مجمع الزوائد» للهيثمي ٣٢٤/٧

ولنا أن نتساءل الآن: أمثل هذا القول قول بشر؟ من غير صاحب الزمان والمكان الذي يغيرهما بيد القدرة... من غيره كان يعلم مثل هذه الحقائق..؟ أكان هذا العلم ضمن قدرة شخص أمي عاش في بيئة أمية..؟ كلا طبعاً. فالله هو الذي علمه هذا من علمه وقام ﷺ بتبليغنا بذلك.

الأيام والشهور والأعوام والعصور تمضي والعلم والتقنية تتقدمان بخطوات جبارة، وعندما يتم الوصول إلى الهدف نرى هناك الحقائق التي أخبرنا بها رسول الله ﷺ قبل عدة قرون، فلا يستطيع رجل العلم أن يخفي إعجابه فيقول من كل قلبه "أنت هو الصدق بعينه يا رسول الله!"

١٢- * انتشار الربا

سيأتي يوم ينتشر فيه الربا ويفشو حتى لا يستطيع أن يتخلص منه من لا يتعامل به إذ سيصيبه غباره. وهناك حديث حول هذه العلة التي تعد من أكبر العلل الموجودة في يومنا هذا، والتي تنتشر انتشار السرطان كل يوم وتتوسع.

«ليأتين على الناس زمان لا يبقى منهم أحد إلا آكل الربا فمن لم يأكل أصابه من غباره.»[1]

هناك نقطتان تجذبان الانتباه في هذا الحديث:

الأولى: بما أن جميع مبالغ ونقود الدولة تنطبخ في قدور الربا، وبما أن جميع المصارف -الربوية منها وغير الربوية- وجميع المؤسسات المالية حتى غير الربوية منها تتعامل بعضها مع البعض الآخر، فإن الإنسان مهما أراد الحيطة في هذا الموضوع فلا بد أن يصيبه شيء من هذه العلة التي أحاطت بكل مظاهر الحياة واحتوتها، أي سيطفر إليه أيضاً شيء منها. ولا يستطيع الإنسان أن ينجو منها إلا بنيته، أي إن نيته هي حصنه وملاذه الوحيد.

---

(١) ابن ماجة، التجارة، ٥٨؛ «المسند» للإمام أحمد ٤٩٤/٢؛ النسائي، البيوع، ٢

الثانية: هناك معنى آخر في اللغة العربية لتعبير "أصابه من غباره" الوارد في الحديث: إذ يقوم قسم من الناس بأكل الربا، أما الذين لا يأكلونه فسيصيبهم غباره. فالرأسماليون سينمون ثرواتهم بالربا ويضاعفونها به؛ وفي الوقت نفسه ستزداد الطبقة العاملة بؤساً وسفالة بنفس النسبة؛ مما سيؤدي في النهاية إلى صراع بين هاتين الفئتين وإلى تصاعد غبار المعركة المحتدمة بينهما؛ مما يغرق المجتمع في اضطرابات وفتن لا أول لها ولا آخر. ولا ينجو أحد من مشاكل ومصائب هذا الصراع وهذه الفتنة. وأنا أعتقد بأن كل هذا قد حصل وهو يحصل الآن. والإنسان المعاصر يشاهد ما أشار إليه الحديث لكلا هذين الأمرين ويقاسي منهما؛ فلم تعد هناك اليوم مؤسسة لم تتلوّث بالربا من قريب أو بعيد،؛ فالتجارة العالمية كلها تدور اليوم حول محور الربا؛ والمعاملة الربوية في العالم كله تَلقى قبولاً عاماً وتُعدّ بمثابة تبادل نقدي.

قام رسول الله ﷺ بتحذير أمته قبل عدة قرون من هذه الأزمة التي يتعرض لها الإنسان المعاصر، وطلب منها أن تكون منتبهة ويقظة وإلا وقعت في مستنقع الربا؛ ولكنه لا يبدي أي محاولة جدية للخروج منه؛ هذا مع العلم أن الإسلام دين أعلن الحرب على الربا.[1]

لو أن المسلمين فهِموا جزءاً من هذا التهديد القرآني؛ لَما كانوا من آكلي الربا، ولما كانت أمتهم من أكثر أمم الأرض بؤساً وسفالة.

١٣- * زمان استخفاء المؤمن

حديث آخر يصور عهدنا:

«يأتي على الناس زمان يستخفي المؤمن فيهم كما يستخفي المنافق فيكم اليوم.»[2]

كيف كان المنافق يتصرف آنذاك؟

---

(١) انظر الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذَرُوا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ۝ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلَمون﴾ (البقرة: ٢٧٨-٢٧٩).

(٢) «كنز العمال» للهندي ١١/١٧٦

سيقوم المؤمن باستعمال الأساليب والوسائل نفسها التي كان يستعملها المنافق في عهد الرسول لكي لا يكشف نفسه؛ سيخفي نفسه وسيخفي عبادته وصلاته، وإلا تعرض لمضايقات وآلام كثيرة. ذلك لأن الطغمة الفاسدة والشريرة لا ترضى أبداً إعطاء فرصة لأمثال هؤلاء للعيش فيما بينهم. فأبواب العمل وكذلك بعض أقسام الوظائف الحكومية تكون مسدودة أمامهم، ويكونون مهانين ومحتقرين في المجتمع.

وهناك حديث آخر يقوي هذا المعنى:

«ستكون فتنة يفارِق الرجل فيها أخاه وأباه؛ تطير الفتنة في قلوب الرجال منهم إلى يوم القيامة حتى يعيَّر الرجل فيها بصلاته كما تُعيَّر الزانية بزناها.»[1] ومن الطبيعي أن تعيير المرأة بالزنى هو تشبيه لدرجة عيب الزنا آنذاك؛ غير أن الزنى أصبح الآن أمره هينا، بل يعد مهنة في بعض الأوساط.

أجل، فإذا قمنا بوضع بعض العهود التي أهين فيها الإنسان لصلاته.. إذا وضعنا هذه العهود جانبا.. فإن هناك عهوداً قادمة سيُحتقر فيها المؤمن وستُعد الصلاة أمراً معيباً من قبل الفئات الحاكمة والظالمة التي سيئنّ المؤمنون تحت قبضتها القاسية، ولا يجدون أمامهم حلاً سوى إخفاء صلاتهم وعباداتهم.

١٤- * النفط في الطالَقان

يقول رسول الله ﷺ:

«ويحاً للطالَقان! فإن لله فيه كنوزاً ليست من ذهب ولا فضة.»[2]

وكلمة "ويح" تستعمل في العربية لبعض البشارات التي تشبه الابتسامة المُرّة. فعندما أخبر رسولنا ﷺ عمّار بن ياسر أنه سيستشهد استعمل التعبير نفسه فقال: «ويحك يا

(١) «مجمع الزوائد» للهيثمي ٣٠٧/٧

(٢) «كنز العمال» للهندي ٥٩١/١٤

عمّارا.»(١) أما الطالَقان(٢) فهي اسم لمنطقة غنية بالبترول في قزوين، أي أن مآل الحديث هو ما يلي: «ويحاً للطالَقان! فإن لله فيها كنوزاً ليست من ذهب ولا فضة.»

وقد تكتشف في هذه المنطقة معادن أخرى كاليورانيوم أو الألماس؛ ولكن هذا لن يغير النتيجة؛ فرسولنا تَحدّث عن كنوز ليست من ذهب ولا فضة وقد ظهرت هذه الكنوز في أيامنا هذه.

إذن، فحتى البترول الذي تم اكتشافه في طالَقان يصدّق رسول الله ويعترف بنبوته.

١٥- * اتباع أهل الكتاب

أخبرنا الرسول ﷺ بأن العالم الإسلامي سيقوم بتقليد الأمم السابقة، أي بتقليد اليهود والنصارى خطوة فخطوة حتى لو أن واحداً منهم أدخل رأسه في جحر ضَبّ لَقلّده المسلمون وأدخلوا رؤوسهم في الجحر. ويشرح الرسول ﷺ هذا الأمر بكلماته البليغة الوجيزة: «لتتبّعُنّ سَنَن الذين من قبلكم شِبْراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا في جُحْر ضَبّ لاتبعتموهم.» قلنا: يا رسول الله! اليهودَ والنصارى؟ قال: «فمن؟.»(٣)

وموقفنا اليوم وموقف العالم الإسلامي اليوم معلوم للجميع... لقد فقدنا شخصيتنا وبدأنا نئنّ تحت أزمات فقدان الهويّة؛ وأصبحنا أشبه بالغنم الحائر بين قطيعين... لقد أصبحت العوامل التي كانت في وقت من الأوقات كافية لهدم الدول الأخرى والقضاء عليها تحيط بنا من كل جانب كالأخطبوط. وبدلاً من الانتباه والحذر فإننا لِغفلتنا حسبنا شباك الموت هذا من علامات المدنية وشروطها... أجل، فما من أمة في العالم قلدت الغرب في أي عهد من العهود مثل تقليدنا له والذي أصبح يحمل صفة الإدمان المزمن؛

(١) البخاري، الصلاة، ٦٣؛ مسلم، الفتن، ٧٠-٧٣؛ «المسند» للإمام أحمد ١٦١/٢، ١٦٤

(٢) الطالَقان: بلدتان إحداهما بخراسان بين مَرْوْ الروذ وبَلْخ. (المترجم)

(٣) مسلم، العلم، ٦؛ البخاري، الأنبياء، ٥٠

فما من شيء جديد يظهر في الغرب حتى نقبله هنا دون أي تدقيق أو تمحيص؛ وأحياناً تفوق سرعة قبولنا له الكثير من الأمم الغربية. هذا بينما كان رسول الله ﷺ يخالفهم حتى في الكثير من المسائل الثانوية والفرعية.[1]

وليست هذه المسألة مناط بحثنا، لذا لا نريد تفصيلها. ولكن الأمر الذي نريد الوقوف عنده والتأكيد عليه هو قيام رسول الله ﷺ بإخبارنا بحدوث هذه المسائل والحوادث قبل عصور وقرون عديدة؛ ولقد وقعت وتحققت هذه الحوادث في حينها وساعتها. فكل حادثة تتجلّى عند كلام رسول الله ﷺ بشكل بشارة أو إنذار، تقوم بتصديق رسول الله ﷺ بلسان فصيح عندما يأتي وقتها.

(١) أبو داود، الصلاة، ٨٨؛ «المسند» للإمام أحمد ٥/٢٦٤-٢٦٥

ثالثاً: ﴿ الأخبار المتعلقة بالعلوم المختلفة ﴾

سنتناول في هذا الفصل بشكل مجمل ما قاله رسول الله ﷺ حول المسائل المتعلقة بالعديد من العلوم وذلك كدليل وشاهد على صدقه.

يقوم رسول الله ﷺ بإيراد قول مّا، ثم ينقضي أربعة عشر قرناً وتقطع العلوم والمعارف الإنسانية أشواطاً بعيدة وتتقدم بسرعة مذهلة؛ فإذا بالعلماء الكبار –كل في ساحته– يصدق على قوله ﷺ ويعترف به باسم العلم وبلسانه.. فما من حديث لرسول الله ﷺ تعرّض لتكذيب أو لتخطئة.

إن العلوم والتكنولوجيا التي بدأت تخطو للأمام خطوات جبارة وسريعة أدارت ظهرها للعلماء ووقفت بأدب وخشوع أمام رسول الله ﷺ لكي تقول له وهي تنحني أمامه: "صدقت." وما كان يمكن أن يحدث إلا هذا، ذلك لأنه رسول من عند الله.

وهنا سنقوم بإيراد بعض الأمثلة فقط، وندع التحليل العلمي لهذه المسائل للكتب والمجلات المتخصصة في هذه المواضيع.

أ – الدواء لكل داء

قال رسول الله ﷺ في حديث رواه البخاري وابن ماجة رحمهما الله:

«ما أنزل الله داء إلا أنزل به شفاء.»[١]

أي ليس هناك من مرض إلا وقد خلق الله تعالى له دواء وشفاء. وليس هناك أي قول آخر يشجّع على استحصال العلم ولاسيما في ميدان الطب والسعي فيه مثل هذا القول الوجيز الجامع والشامل؛ فقوله هذا يعني أنه ما من داء إلا وله دواء، أي يمكن العثور

---

(١) البخاري، الطب، ١؛ ابن ماجة، الطب، ١

على أدوية لكل الأمراض الموجودة وذلك بعد توفيق الله وعنايته.

وفي رواية أخرى: «لكل داء دواء.»[١]

وفي حديث شريف آخر:

«تداووا فإن الله عزّ وجلّ لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد: الهرم.»[٢]

ولو وجدوا طريقة لإطالة العمر ولتأخير الموت بشكل مؤقت فإنهم لن يستطيعوا الحيلولة دون المصير المقدر والطريق المرسوم للموكب الإنساني.. هذا الطريق الذي يبدأ من عالم الروح ويمر من مرحلة الطفولة فالشباب فالشيخوخة وينتهي إلى القبر ومنه إلى الحشر.. ثم ينتهي إمّا إلى الجنة أو إلى الجحيم. وليس في الإمكان سد هذا الطريق أبدا.. فلابد للإنسان أن يولد ويكبر ثم يشيخ ويموت. ولكن خارج هذا الأمر فهناك أدوية لكل داء، وعلاج لكل مرض.. المهم أن يتم البحث عنه واكتشافه.

ورسول الله ﷺ بهذه الأحاديث وبأحاديث أخرى مشابهة يدعو أهل العلم جميعاً وجميع من آتاهم الله موهبة وفضلاء وجميع الباحثين إلى تكثيف جهودهم وبذل مساعيهم لاكتشاف الأدوية ووسائل العلاج؛ ومن ثم فلتخصّصوا من مبالغكم ومن ثرواتكم ما يكفي لإنشاء معاهد البحوث؛ ولتدققوا وتسيطروا على الطريق الواسع الممتد من مرحلة الطفولة حتى شاطئ الموت. فالقرآن الكريم دعا إلى هذا وحثّ على العلم وجعل معجزات الأنبياء مثلاً أعلى في هذا. أجل، فكما كان الأنبياء قدوة حسنة في عالم الروح والمعاني السامية لإنقاذ البشرية من الطرق الملتوية إلى الصراط المستقيم، كذلك كانوا هداة ومرشدين في ساحة العلوم الصرفة؛ أي في الساحة التي يجول فيها العقل الإنساني ويصول. وأصبح كل نبيّ أستاذاً في ساحة من هذه الساحات ومرشداً وهادياً.

ومن ثم يمكن القول بأن البشرية استلمت مفاتيح الهداية المادية والمعنوية من أيدي

---

(١) أبو داود، الطب، ١١؛ مسلم، السلام، ٦٩؛ «المسند» للإمام أحمد ٣٣٥/٣

(٢) الترمذي، الطب، ٢؛ ابن ماجة، الطب، ١؛ ٢٧٨/٤؛ أبو داود، الطب، ١

الأنبياء.. أجل، فإن شرح معجزات الأنبياء في القرآن الكريم تشويق للبشرية وحث لها لكي يبلغوا ويصلوا إلى تلك الحدود النهائية التى خطها الأنبياء بمعجزاتهم.

فمثلاً قام المسيح عليه السلام بإحياء الموتى بإذن الله.. كما نقل لنا ذلك القرآن الكريم. إلا أن هذه هي الحدود النهائية للطاقة الإنسانية. لماذا؟ لأن القوانين تنتهي هناك، ومن بعدها تبدأ الأمور الخارقة. فالقدرة الإنسانية والطاقة الإنسانية والإرادة الإنسانية لا تستطيع تجاوز إطار القوانين الفطرية.. أجل، فمهما ترقّى العلم الإنساني وتقدمت التكنولوجيا الإنسانية فلا يمكنهما تجاوز حدود المعجزات. لأن هذه الحدود هي الساحات التي يجول فيها الأنبياء العظام. بمعنى أن العلم الإنساني يستطيع الوصول إلى الحدود التي تبدأ بعدها المعجزات. ويتم حث وتشجيع الإنسان للوصول إلى هذه الحدود.

فالقرآن الكريم يحدثنا عن معجزات السيد المسيح عليه السلام ليقول لنا: انظروا فإن طرق العلاج والتداوي مفتوحة أمامكم حتى الوصول إلى حدود الموت.. والأمراض التي لم تجدوا لها علاجاً مثل السرطان والأيدز وغيرها من الأمراض، لها أدويتها وعلاجها.. ابحثوا عنها وجِدوها.. فكم من مرض كان يُعتقد من قبل أنه لا علاج له اكتُشف علاجه وطرُق الشفاء منه الآن. فلتحاولوا وعندها ستجدون العلاج لهذه الأمراض.

ولنأخذ مثالا آخر.. إن معجزة النبي موسى عليه السلام تعطي درساً للإنسان حول إمكانية تسخير الجماد في إنجاز وظيفة ومهمة معيّنة. ولقد انفتح باب هذا الأمر قليلاً في أيامنا الحالية، ولكن لا يمكن اليوم ولا غداً إلقاء عصا وقلبُها إلى حيّة تسعى.. لأن هذه حادثة وقعت في ساحة المعجزات والخوارق؛ أما نحن فنستطيع أن نبذل جهودنا ضمن إطار القوانين العادية الجارية على الأرض.

وأرى من المناسب هنا أن أفتح الحديث عن القرآن الكريم الذي يعَدّ معجزة لا تصل إليها الطاقة البشرية... أجل، إن القرآن معجزة أدبية وبيانية لا يمكن الوصول إلى أفقها. فكل الأشعار والقطع الأدبية البليغة التي سحرت الإنسان بجمالها لا تستطيع إلا الاقتراب

فقط من عتبة القرآن الذي يعَدّ الأفق النهـائي للبلاغـة حيـث يقـف قِبلـه الأدبـاء مـن أمثـال "لبيد" وغيره؛ لأن في بيانه معجزة، بينما الكلام البشري لا يستطيع تجاوز ساحته العاديّة.

ولن نطيل في هذا البحث، لأن له موضعه الخاص به في هذا الكتاب.

وجملة القول: إن معجزات الأنبياء تشكل حـدوداً معيَّنـة وتخُـطّ أفقـاً محـددا للعلـم الإنساني.. ويعد ذكر القرآن لها حثاً ودفعاً للإنسان ليبلغ حدود هذه المعجزات.[1]

ومن ثم فعلى الإنسان أن يسعى حتى يصل إلى تلك النقطة ويقـترب من حدود تلك المعجزات الخارقة. ولو فرضنا أنه خطا خطوة واحدة وراء ذلك الحد لجال في الآفاق التي تتدلى منها ثمرات هذه المعجزات.

قد يستطيع الإنسان أن يتقدم في علم الطب حتى يقترب من حدود إحياء الموتى. ولكنه سيقف عاجزاً أمام الموت نفسه. ذلك لأن الموت –مثله في ذلك مثل الحياة– مخلوق من قبل الله ﷻ، والآية الكريمة: ﴿الذي خلق الموت والحياة﴾ (الملك: ٢) تشير إلى هذا.

أجل، إن الموت ليس انقراضاً أو تفسخاً وتحللاً... بل هو استرداد بمشيئة الله وإرادته للأمانة التي سبق وأن استودعها الإنسان. فهذا هو آخر ما يمكن أن يقال في تشجيع أهل الهمّة والعلم لكي يقدّموا كل ما يستطيعونه لخدمة الإنسانية.

إن هناك أحاديث كثيرة مروية عن رسول الله ﷺ في علم الصحة، ولاسيما فيمـا يتعلق بـ"الطب الوقائي" الذي يشكل جزءاً مهماً من علم الطب. وهذا شيء طبيعي، ذلك لأن علاج المرض ليس هو المهم، بل الأهـم منه هـو حفـظ صحـة الإنسـان، وحمايته من الوقوع في المرض. وهذا أسهل بكثير من القيام بعلاجه بعد إصابته بالمرض. لأن العلاج صعب ومكلف وشاق. لذا، فقد اهتـم رسولنا ﷺ أول الأمر بهذا وجعل أكثر وصاياه الطبية مركزة حول الطب الوقائي.

---

(١) «الكلمات» لبديع الزمان سعيد النورسي ص٢٧٩

ولا عجب ألا يجد الأطباء النصارى الذين أتوا إلى المدينة المنورة في العهد النبوي عملا؛ وذلك بفضل رعاية المسلمين لوصايا الرسول ﷺ في هذا الموضوع رعاية تامة. فبينما كان الرسول ﷺ يقوم بإصلاح أمراض القلوب والنفوس فإنه كان يقوم أيضا بشفاء الأمراض الجسدية، أي إنه كان يقوم بحفظ وصيانة أتباعه من الأمراض النفسية والقلبية والجسدية.

كان مرض الطاعون منتشراً في عهد الرسول ﷺ ولم يكن باستطاعة أحد أن يقف أمام هذا المرض القاتل. إذ كان بخطورة مرض الأيدز حالياً. إلا أن الصحابة كانوا على حذر من هذا المرض لأن الرسول ﷺ كان ينبههم إليه ويحذّرهم منه. فكانت هذه الجماعة الطاهرة تعيش في بلدها وتحفظ نفسها منه بحياتها النظيفة الطاهرة. غير أنهم عندما كانوا يشتركون في الحركات العسكرية في الشام وسورية وحلب وأنطاكيا كانوا يتعرضون لهذا المرض لاتصال هذه المناطق آنذاك مع أمراض عالم البيزنطيين... كذلك كان وباء عَمْواس الذي توفي بسببه في ذلك المكان المشؤوم خمسة وعشرون ألف مسلم.[١]

وكان أبو عبيدة بن الجرّاح أمين هذه الأمة ضمن الموجودين في عَمْواس آنذاك. هذا الصحابي الذي قال عمر بن الخطاب ﷺ في حقه بعد سنوات عندما طُعن في صدره: "لو كان أبو عبيدة حياً لولّيتُه."[٢] وعندما أتى وفد نَجْران إلى رسول الله ﷺ طلبوا أن يرسل معهم شخصاً موثوقاً وأمينا، فبعث أبا عبيدة بن الجرّاح.[٣]

أجل، كان هذا الصحابي الجليل أحد العشرة المبشّرة بالجنة وأمين هذه الأمة، وكان موجوداً في موضع يجتاحه هذا المرض الوبيل ويحصد الأرواح فيه.

كان ذلك في أيام خلافة عمر بن الخطاب ﷺ. وكان الخليفة يزور البلدان المفتوحة

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير ٧/٩٠-٩١؛ «الكامل في التاريخ» لابن الأثير ٢/٥٦٠

(٢) «كتاب فضائل الصحابة» للإمام أحمد بن حنبل ٢/٧٤٢

(٣) البخاري، فضائل أصحاب النبي، ٢١؛ مسلم، فضائل الصحابة، ٥٤-٥٥

ويراقب تطوّر الأمور عن كثُب. وكان من المفروض أن يذهب إلى عمواس أيضاً. إلا أنـه عندما سمع بانتشار وباء الطاعون فيها قرر الرجوع، فقال له أبو عبيدة الجرّاح في رواية عن ابن عباس: "أفِراراً من قدر الله؟" فقال عمر: "لو غيرُك قالها يا أبا عبيدة!" -وكان عمر يكره خلافه- "نعم، نفِرّ من قدر الله إلى قدر الله. أرأيت لو كانت لك إبل فهبطت وادياً له عُدْوتان. إحداهما خِصْبة والأخرى جَدْبة، أليس إن رعيتَ الخصبة رعيتَها بقدر الله وإن رعيتَ الجَدبة رعيتَها بقدر الله؟"[١]

كان هذا حدساً وفراسة من عمر بن الخطاب ﷺ. ولكن أكان مصيباً في هذا؟ أكان عليه أن يرجع أم يبقى؟ كان الخبر اليقين عند الصحابي عبد الرحمن بن عوف ﷺ.

لنقرأ بقية الرواية: قال فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيّباً في بعض حاجته، فقال: إنّ عندي من هذا عِلماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدَموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه.» قال: فحمد اللهَ عمرُ بن الخطاب ثم انصرف.[٢]

وأنا أسأل القارئ: أليس هذا هو الحَجْر الصحي الذي يوصي به علم الطب الحديث؟ كان الرسول ﷺ يوصي به قبل قرون عديدة، إذن، فإن علم الطب اليوم لا يملك إلا أن يقول له: "صدقت يا رسول الله!"

ب - مرض الجذام والحَجْر الصحيّ

يقول الرسول ﷺ في حديث يرويه الإمام أحمد بن حنبل والإمام البخاري:

«فِرّ من المجذوم كما تَفِرّ من الأسد.»[٣]

---

(١) البخاري، الطب، ٣٠؛ مسلم، السلام، ٩٨

(٢) البخاري، الطب، ٣٠؛ مسلم، السلام، ٩٨

(٣) البخاري، الطب، ١٩؛ «المسند» للإمام أحمد ٤٤٣/٢

وهذا التمثيل الوارد في هذا الحديث الشريف لا علاقة له بجرثومة الجذام ولا بكون المجذوم يشبه الأسد. فهذا من خيالات وأوهام البعض، إذ لا يوجد مثل هذا المعنى ولا هذا القصد في حديث الرسول ﷺ. والفرار الوارد هنا ليس فراراً بالمعنى الحرفي. فلعل الرسول ﷺ يريد توصيتنا بمكافحة هذا المرض الوبيل والبحث عن طرق الوقاية منه. أي القيام بالحَجْر الصحي وباتخاذ التدابير اللازمة لمنع سرَيانه وانتشاره. فكما يخاف الإنسان من ملاقاة أسد فعليه أن يخشى التلوث بهذا المرض بنفس القدر. إن هناك معان عميقة في جميع أحاديث الرسول ﷺ، لذا يجب بذل مجهود كبير لفهم أبعادها.

ج - ولوغ الكلب

ينقل الإمام مسلم وغيره من أئمة الحديث الحديثَ التالي:

«طهور إناء أحدكم إذا ولَغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات أُولاهن بالتراب.»[(١)]

أوصى الرسول ﷺ باستعمال التراب في عملية التعقيم إذ لم تكن المواد والأدوية المعقّمة موجودة في تلك الأيام.. ثم تبيَّن فيما بعد أن التراب يقوم بعملية التطهير مثل الماء. وبعد أن تقدم العلم أكثر تبين أن التراب يحتوي على مادة "التتراليت" و"تتراسكلين". وهاتان المادتان تستعملان في عمليات التعقيم ضد بعض الجراثيم، فعندما أوصى الرسول ﷺ بغسل الإناء بالتراب أولاً كان يريد تعقيم الإناء قبل غسله.

وشيء آخر تجدر ملاحظته في هذا الحديث، وهو أن بعض الأمراض التي تصيب الكلاب يمكن أن تصيب الإنسان أيضاً وتعيش جراثيمه في جسده، وهذا يعد من المواضيع الحديثة نسبياً في علم الطب.

ثانياً: إن براز الكلب ولعابه يمكن أن يكونا ضارين لصحة الإنسان. وإذا لم تؤخذ التدابير الضرورية في حينه فإن الأمراض السارية والمتنقلة بواسطتها لا يمكن علاجها

---

(١) مسلم، الطهارة، ٩١؛ أبو داود، الطهارة، ٣٧؛ الترمذي، الطهارة، ٦٨؛ النسائي، الطهارة، ٥١، المياه، ٧

بسهولة، لذا فإن عملية التعقيم مهمة جداً.

ثالثاً: والشيء الآخر الذي يجلب الانتباه هو أن الإناء بعد أن يتعقم من الجراثيم عند الغسل الأول بالتراب يجب غسل الإناء ست مرات –وفي رواية: سبع مرات–. وقد تناولت بعض المجلات في إنكلترة وفي ألمانيا هذا الموضوع وأقرت بصحة توصية الرسول ﷺ.

كان رسول الله ﷺ يبدي حساسية شديدة في موضوع الكلاب، حتى أنه أمر مرة –اجتهاداً منه– بقتلها.[1] ولكنه عاد وأوقف هذا الأمر قائلاً: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرتُ بقتلها.»[2]

وهذا معناه أن الكلاب لو لم تكن أمة بين سائر الأمم المختلفة مثل الإنسان والنباتات والجماد والتي لها علاقة بحفظ التوازن البيئي، ولو لم تكن هناك ضرورة فطرية لوجودها لأمرت بقتلها. وذلك لكونها مباءة للجراثيم، وهذا الأمر الأخير أي تناوُل الرسول ﷺ المسألة من هذه الوجهة معجزة أخرى. ذلك لأنه ﷺ كان يتناول موضوع التوازن البيئي –الذي يعد من المواضيع الجديدة في أيامنا– من ذلك التاريخ ويحرم انطلاقاً من وجهة النظر هذه قتل الحيوانات حتى الكلاب. واليوم وبعد أكثر من ألف وأربعمائة سنة بدأنا ننتبه إلى ضرورة منع انقراض أنواع عديدة من الحيوانات والمحافظة عليها كالحيتان والأفيال ووحيدي القرن...الخ. وذلك للحفاظ على التوازن البيئي في الطبيعة. ومن ثم إن تناول رسول الله ﷺ هذا الأمر قبل أكثر من ألف سنة بقوله أنه «لولا أن الكلاب أمة من الأمم» يعد تناولاً مبكراً جداً لموضوع في غاية الأهمية.

أجل، إن الله ﷻ خلق الكون ووضع موازين دقيقة بين مخلوقات وعناصر هذا الكون والآية الكريمة: ﴿والسماء رفعها ووضع الميزان ۝ ألاّ تطغوا في الميزان﴾ (الرحمن: ٧-٨)

---

(١) البخاري، بدء الخلق، ١٧؛ مسلم، الطهارة، ٩٣

(٢) أبو داود، الأضاحي، ٢١؛ الترمذي، الصيد، ١٦؛ النسائي، الصيد، ١٠؛ ابن ماجة، الصيد، ٢؛ «المسند» للإمام أحمد ٨٥/٤

تشير إلى هذا المبدأ العام. فلقد كان رسول الله ﷺ رجل توازن، لذا فمن الطبيعي أنه كان يحافظ على التوازن ويمنع حتى قتل الكلاب. وقد تُستخرج معان أخرى في المستقبل من كلامه الوجيز البليغ. ولو أن شخصا غيره لم يتلفظ طوال حياته إلا بهذه الجملة –إن أخذنا تاريخ هذا الكلام بنظر الاعتبار– لكان ذلك كافياً لأن يأخذ مكانه بين المشهورين في التاريخ، مع أن لرسول الله ﷺ آلافاً من هذه الأحاديث وأمثالها. إذن، لندع العبقرية تتسوّل على بابه لنختم هذا الموضوع.

إننا يحق لنا أن نقول دون أيّ تردد، ونؤكد دون أدنى مبالغة بأن الحوادث والوقائع تقول لرسول الله ﷺ بلسان حالها: "أنت رسول الله الصادق الأمين." وكلما تقدمت العلوم وزادت دقتها وضح هذا الأمر أكثر. وأنا على يقين بأنه سيأتي اليوم الذي سيؤمن بهذا جميع الناس وعامة البشر.

إن العلوم اليوم خاضت في محيط الوجود تحلّل وتدرُس وتمحّص كل الحقائق التي ذكرها القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ. وفي كل يوم تظهر هناك حقائق حول صدق الرسول ﷺ يعلنها كل من يملك شفافية قلب من العلماء من فوق آلاف المنابر على الناس أجمعين.

د– غسل اليدين قبل الأكل وبعده

في حديث يورده الترمذي وأبو داود يقول الرسول ﷺ:

«بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده.»[1] أي إن كنتم ترغبون في بركة الطعام وطهارته ونظافته فاغسلوا أيديكم قبل الطعام وبعده وكأنكم تتوضؤون.

والرسول ﷺ يضع بحديثه هذا مبدأ عاماً في النظافة، وإلا فإننا لم نكن لندرك هذا بعقولنا، ولاسيما إنسان ذلك اليوم ما كان ليعرف أبداً أن الملايين من الجراثيم قد توجد بين أظافره، دع أهل ذلك الزمان وقل لي كم من شخص يعرف اليوم الماهية العلمية لهذه المسألة؟

---

(١) أبو داود، الأطعمة، ١١؛ الترمذي، الأطعمة، ٣٩؛ «المسند» للإمام أحمد ٥/٤٤١

كذلك فمن قواعد النظافة التي علمّنا إياها رسولنا ﷺ هو القيام بغسل اليد جيداً بعد الاستيقاظ من النوم وقبل غمسها في أي إناء. ذلك لأن الإنسان لا يعلم في أثناء نومه أين باتت يده.[1] فرسول الله ﷺ كان يهتم بنظافة الأيدي اهتماماً كبيرا، لذا ركز اهتمامه فيها وأوصى بها في مواضع عديدة.

ولقد بدأ الأطباء يفهمون اليوم حكمة هذه الوصية، فالإنسان لا يدري ماذا مسّت يده وهو يتقلب في فراشه أثناء نومه. فقد تتسخ يده، فكيف إذن، يمدها إلى إنائه أو إلى فمه؟ فهل كانت هناك مجاهر وميكروسكوبات أو أشعة اكس أو مختبرات التحليل لكي يعرف الرسول ﷺ أن اليد ستتلوث بالجراثيم ثم يقوم بتنبيه أمته إلى هذا الأمر؟ كلا. لم يكن أي من هذه الأمور موجودة.. ولكن كان هناك فوق كل هذه الأمور من يوصل إليه هذه الحقائق عن طريق الوحي ويعلمه بالوحي المتلو أو غير المتلو، فيقوم الرسول ﷺ بنقل هذه الحقائق إلى أمته، لذا لايمكن العثور في كلامه على أي خطأ أو على أي خلاف للحقيقة وللواقع.

هـ – السواك: نظافة الفم والأسنان

ورد في كتب الأحاديث الستة وغيره حديث رواه ما يقارب أربعين صحابياً. فهذا الحديث من هذه الجهة يعد حديثاً متواتراً: «لولا أن أَشُقّ على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة.»[2]

وحتى لا يشق النبي ﷺ على أمته فإنه لم يقم بهذا الأمر، وإلا كان السواك حينئذ من فروض الصلاة كالوضوء مثلاً. ولكن هذا لا يتفق مع روح الدين القائم على اليسر، ذلك لصعوبة أن يجد كل شخص سواكاً في كل مكان.

---

(١) البخاري، الوضوء، ٢٦؛ مسلم، الطهارة، ٨٧؛ النسائي، الطهارة، ١، ١١٦؛ أبو داود، الطهارة، ٤٩؛ الترمذي، الطهارة، ١٩

(٢) البخاري، الجمعة، ٨؛ مسلم، الطهارة، ٤٢؛ أبو داود، الطهارة، ٢٥؛ الترمذي، الطهارة، ١٨؛ النسائي، الطهارة، ٦؛ ابن ماجة، الطهارة، ٧؛ «المسند» للإمام أحمد ٨٠/١

السواك ليس فرضاً.. ولكنه سنّة ثابتة. وقد كتب القدماء مجلدات حول هذا الموضوع، وقام اليوم كثير من الباحثين بتناول موضوع السواك من مختلف الجوانب العلمية، وستطّلعون على هذه البحوث في المستقبل إن شاء الله.

السواك يعني تنظيف الأسنان، ولايتم هذا بالسواك فقط، بل يمكن أن يتم باليد أو بالملح أو بالمعجون أو بوسائل أخرى. أجل، يستطيع كل شخص تنظيف أسنانه بالطريقة التي يرغب فيها. ولايستطيع أحد أن ينكر عليه شيئاً ولكن يجب ألا ننسى أن للسواك خصائص خاصة بها.

والآن تأملوا ديناً يقوم مبلِّغه –وليس واضعه، ذلك لأن واضعه هو الله سبحانه تعالى والرسول ﷺ مبلغ للدين– باستعمال السواك ما بين خمس أو عشر مرات في اليوم الواحد، ويقوم بجعل السواك سنة في أمته.. لذا، نستطيع القول بأن مثل هذا الدين سبق المفهومَ الحال لنظافة الأسنان والمفهوم العلمي لوقاية الأسنان أو ما يطلق عليه الفرنسيون (hygieniqui) وأنا لا أعتقد أن هناك طبيب أسنان دع عنك عوام الناس يقوم بتنظيف أسنانه خمس أو عشرة مرات في اليوم. علماً بأن عدد المرات التي كان نبينا ﷺ يقوم بالسواك يومياً هو هذا العدد في الأقل. إذ كان يقوم عدة مرات في الليل للصلاة وفي كل مرة ينظف أسنانه بالسواك.[١] إذ كان يستعمل السواك عند وضوئه وقبل الصلوات في الفجر والضحى والظهر والعصر والمغرب والعشاء، وكذلك بعد تناول أي طعام. فإذا عددنا هذه المرات نرى أنه يفوق العدد الذي سبق وأن ذكرناه في تنظيف أسنانه.

و– التوازن في الأكل

يقول رسول الله ﷺ في باب الطب الوقائي:

«ما ملأ ابن آدم وِعاءً شراً من بطن. بحسْبِ ابن آدم أُكُلات يُقمن به صلبه، فإن كان

(١) البخاري، الوضوء، ٧٣؛ مسلم، الطهارة، ٤٦، ٤٧

لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه.»[١]

وهناك أحاديث أخرى تقوي وتسند هذا الحديث منها: «أخشى ما خشيت على أمتي كِبَر البطن ومداومة النوم والكسل وضعف اليقين.»[٢]

والأمور المذكورة في هذا الحديث تلتقي عند نقطة واحدة، فمن عاش حياته في غفلة دون أن يراقب نفسه فسيقضي معظم وقته في النوم والكسل وسيسمن ويكثر شحمه. وكلما زاد سمنة زاد إقبالاً على الطعام، وكلما زاد نهمه زادت غفلته. أو نستطيع البدء من السبب الأول فنقول إن من يأكل كثيراً سينام كثيراً، ومن ينام كثيراً يكون شخصاً ضعيف اليقين.

فمن أين نظرت علمت أن هذه أمور تسوق رسول الله ﷺ إلى القلق على أمته منها. وهنا أترك الكلام للمختصين في عالم الطب وتحليلاتهم العلمية في هذا الخصوص. وعندما تقرأون أو تستمعون إلى تحليلاتهم سترون مدى مصداقية ما قاله الرسول ﷺ قبل عدة قرون، ولن تجدوا فيه انحرافاً ولو قيد شعرة عن الحق وعن الحقيقة.

ز – الكحل

والآن لننتقل إلى حديث آخر. إذ يقول رسول الله ﷺ:

«...وإن خير أكحالكم الإثمد.. يجلو البصر ويُنبت الشعر.»[٣] أي يطيل أهدابكم.

يقول أطباؤنا –ممن نور الله أبصارهم وبصائرهم– إن الكحل من أفضل الأدوية المستعملة في تغذية العيون والأهداب، ونحن نعتقد بأن السنين القادمة لعالم الزينة ستكون سنين الكحل.

---

(١) الترمذي، الزهد، ٤٧؛ ابن ماجة، الأطعمة، ٥٠؛ «المسند» للإمام أحمد ١٣٢/٤

(٢) «كنز العمال» للهندي ٤٦٠/٣

(٣) مسلم، السلام، ٨٨؛ أبو داود، الطب، ١٤؛ الترمذي، الطب، ٥، ٩؛ النسائي، الزينة، ٢٨؛ ابن ماجة، الطب، ٦، ٢٥

وهناك مادة أخرى في مستوى الكحل من ناحية قيامها بوقاية الجلد وامتلاكها لخصائص المضادات الحيوية هي مادة "الحِنّاء"[١] إذ تبين علمياً أن قوة التعقيم الموجودة فيها أكبر من قوة التعقيم الموجودة في "اليود" أو مادة "مورفسيلون" المستعملتان حاليا.

ب – الحبة السوداء

في حديث ورد في صحيح البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة، عن أبي هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ: «..إن في هذه الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السامَ.»[٢] أي إلا الموت.

وتعبير "كل داء" يرد في اللغة العربية إشارة إلى الكثرة وكناية عنها، ومع ذلك فلو تم تحليل هذه الحبة تحليلاً علمياً دقيقاً وأجريت عليه البحوث العلمية فسيظهر كيف أنها علاج ودواء للكثير من الأمراض. يشير الحديث الشريف إلى نقطتين:

الأولى: حول الناحية العلاجية للحبة السوداء.

الثانية: حول عدم كونها علاجاً للموت.

وكعادتنا فسنترك الناحية العلمية لأهل الاختصاص، ونكتفي هنا بذكر بعض الأمور الواردة على خاطرنا:

إن لتوفر مادة البروتين أهمية خاصة عند الإصابة بالمرض، ولاسيما في دور النقاهة، ولكن يجب أن يتوفر إلى جانب هذا غذاء غني بالفيتامينات وفيه سعرات حرارية عالية وسهل الهضم أيضاً. فهذا هو ما يوصي به الأطباء على الدوام في أثناء فترة المرض لكي يكتسب المريض طاقة وقوة ولكي لا يواجه مشكلة في عملية الهضم.

ولقد أثبتت البحوث العلمية بأن جميع هذه الخصائص موجودة في الحبة السوداء، وهناك

---

(١) ابن ماجة، الطب، ٢٩؛ الترمذي، الطب، ١٣

(٢) البخاري، الطب، ٧

أمثلة واقعية لا تعد ولا تحصى في هذا الموضوع. وهذا يدل أن رسول الله ﷺ لا يرسل الكلام على عواهنه، فما تحدث عنه يتحقق واقعياً والنتائج دائماً تصدقه وتقف في صفه.

ط - الذباب

لنستمر في موضوعنا هذا بحديث وارد في صحيح البخاري حيث يقول رسول الله ﷺ:

«إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه كله ثم ليطرحه فان في أحد جناحيه داء وفي الآخر شفاء.»(١)

أولاً قبل كل شيء لم يكن أحد يعرف في ذلك التاريخ أن الذباب يحمل الجراثيم، والذباب عندما يقع في سائل يرفع أحد جناحيه إلى أعلى على سبيل الاحتياط، أي لا يغمس جناحيه معاً في السائل، لكي يؤمن لنفسه فرصة الطيران إن خلص نفسه من الإناء، ولكن طعامنا أو شرابنا يكون قد تلوث بالجراثيم.

ثانياً: ما يوصى به في مثل هذا الموقف هو القيام بغمس الذباب كله ثم إخراجه وطرحه خارجاً، ذلك لأن في أحد جناحيه داء وهو الجراثيم، وفي الجناح الآخر ما يزيل الأثر السيء للجناح الأول. فعندما تلمس ظهر الذباب وهو يحاول الخلاص بنفسه ينفجر الكيس المخزونة فيه المادة المضادة للجراثيم، وهكذا يكون الذباب قد عقم ما لوثه الجناح الآخر بالجراثيم.(٢)

يقول العلماء الذين قاموا بمراقبة هذه العملية وتحليلها علمياً بأنهم عندما ضغطوا على ظهر الذباب رأوا بالمجهر بأن قسماً من الجراثيم بدأت تتفرق يميناً وشمالا، وفي بحوث لاحقة علموا بأن هذه الجراثيم عناصر معقّمة، أي جراثيم للفتك بالجراثيم الأخرى.

---

(١) البخاري، الطب، ٥٨، بدء الخلق، ١٧؛ أبو داود، الأطعمة، ٤٨

(٢) قد يقول أحدهم: لماذا لا نرمي بالسائل أو الطعام ولا نستعملها بدلا من هذه العملية؟ ونقول لهؤلاء: وما يدريك فلعل الحساء الذي وقع فيه الذباب هو حساء عائلة فقيرة لا تجد من الطعام غيره؟ أ نقول لهذه العائلة أن تستغني عن طعامها أم نقدم لهم هذا الحل؟ (المترجم)

ي - النزيف الداخلي

في رواية عن أم المؤمنين عائشة ﵂ قالت: جاءت فاطمة بنت أبي حُبيش إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إني امرأة أُستحاض فلا أطهر. أفأدع الصلاة؟ فقال رسول الله ﷺ:

«لا، إنما ذلك عرق وليس بحيض فإذا أقبلتْ حيضتكِ فدعي الصلاة، وإذا أدبرت فاغسلي عنك الدم ثم صلي.»(١)

لقد علمنا بعد قرون عديدة من هذا الحديث الشريف أن مصدر دم الحيض هو من نزف داخلي. فكيف عرف رسول الله ﷺ هذه الحقيقة العلمية التي لم تعرف إلا مؤخرا..؟ عرفه طبعاً من ربه الذي علّمه مالم يكن يعلم وقام هو بتبليغنا، لذا فمرور كل هذه السنوات لم يزده إلا سمواً وعلواً في نظرنا، ورجال العلم يقولون اليوم بأن من يقول هذا الكلام لا يمكن أن يكون شخصاً عادياًّ؛ بل لابد أن يكون نبياً.

ك - لا دواء في الخمر

في رواية: أن طارق بن سُويد سأل النبي ﷺ عن الخمر؟ فنهاه أو كره أن يصنعها فقال: إنما أصنعها للدواء. فقال: «إنه ليس بدواء ولكنه داء.»(٢)

لقد عقدت عدة مؤتمرات في مختلف أنحاء العالم ومنها تركيا حول الخمر والمسكرات تكلم فيها العلماء وأجمعوا على أن الخمر -وإن كان قطرة واحدة- ضار لجسم الإنسان ولعقله ولروحه وأنه يؤدي إلى تشوهات فيها، والرسول ﷺ يشخص هذا الأمر في هذا الموضوع ويقول بأن الخمر داء بنفسه وبذاته.

---

(١) البخاري، الوضوء، ٦٣؛ مسلم، الحيض، ٦٢؛ أبو داود، الطهارة، ١٠٩، الطب، ١١

(٢) البخاري، اللباس، ٦٣، الاستئذان، ٥١؛ مسلم، الأشربة، ١٢؛ النسائي، ٩، ١١؛ الترمذي، الأدب، ١٤؛ ابن ماجة، الطب، ٢٧

ل – الختـان

يقول الرسول ﷺ بأن خمسة أمور هي من الفطرة... أحدها هو الختان.[١]

فماذا يقول العلماء المعاصرون؟ ألم يتوصلوا إلى الشيء نفسه؟ ألا يقولون بأن غلاف القضيب محل لتجمع الجراثيم وسبب لإصابة القضيب بالسرطان، وأن السبيل الوحيد للتخلص من هذا هو إجراء الختان؟ وهكذا يظهر بأن الغرب يتصرف في هذه المسألة أفضل بكثير من بعض الحمقى عندنا، فعدد المختونين الآن في إنكلترة وفي الولايات المتحدة الأمريكية يجاوز عدة ملايين.

وهنا يتداعى إلى خاطري ما قاله شاهد هذا القرن: "إن أوروبا حاملة بالإسلامية فستلد يوماً ما، وإن الدولة العثمانية حاملة بأوروبا فستلد يوماً ما."[٢]

لقد قيل هذا القول في أوائل هذا القرن، وقد تحقق شق واحد منه، والآن نحن ننتظر بفارغ الصبر تحقق الشق الآخر، فقد بدأ المخاض وزادت آلام الوضع... وفي القريب سنسمع إن شاء الله تعالى صرخات الوليد المملوءة بشراً وأملاً.

لقد توقفنا حتى الآن في موضوع صدق رسول الله ﷺ وإخلاصه، وصدق وإخلاص الأنبياء الآخرين فكل نبي يمثل ذروة الصدق والإخلاص، لذا لم يجد الكذب مكاناً له قط في حياتهم، ولو كان عندهم أي انحراف –ولو كان قليلاً– لما استطاعوا دعوة الناس إلى الاستقامة وإلى الطريق القويم. هذا علماً بأنهم ما أتوا وما أرسلوا إلا لكي يوصلوا البشرية إلى الصراط المستقيم المؤدي إلى الجنة، ووصف هذا الطريق وتعريفه لها.

أجل، فلو تجسدت الفضيلة والصدق لما ظهرت سوى الشمائل المنيرة والعطرة للأنبياء. ورأينا هنا أيضاً آلاف الأدلة التي تملأ ما بين الأزل والأبد حول صدق نبينا محمد ﷺ.

---

(١) مسلم، الطهارة، ٤٩، ٥٦؛ أبو داود، الطهارة، ٢٩

(٢) «صيقل الإسلام أو آثار سعيد القديم» لبديع الزمان سعيد النورسي ص٣٨٦

وقد حاولنا جمع هذه الأدلة والشواهد ضمن مجموعات ثلاث. وهذا اجتهاد خاص بنا وإلا فإنه يمكن تصنيف صدق الرسول ﷺ إلى آلاف المجموعات ويسند إلى آلاف الأدلة والشواهد. ويعرض بأشكال أخرى مختلفة، وليس هناك من يستطيع الادّعاء بأنه يمكنه أن يوفي هذا الموضوع حقه بحيث لا تبقى هناك زيادة لمستزيد.

إن ما نؤمن به ونعتقده هو أن الأيام ستظهر صدقه على الدوام، وأن الناس في كل عهد سيكتشفون في كلامه ﷺ بُعداً آخر وبُعداً جديداً حول دلائل صدقه. وفي دار الآخرة سيعلم الجميع صدق رسول الله ﷺ، وسيرى الجميع صدق ما قاله حول ذاته عزّ وجلّ وحول أسمائه الحسنى وصفاته الجليلة كل حسب قابليته الروحية، وستظهر أمامنا الجنة والحور العين والغلمان والجحيم وسائر الأمور الغيبية التي أخبر عنها النبي ﷺ تماماً مثلما وصف. وسيقول له الجميع: "صدقت يا رسول الله".

الفصل الثاني: الأمـانـة

الصفة الثانية مـن صفـات الأنبيـاء هي الأمانـة. وكلمـة الأمانة مشتقة مـن "الإيمـان". فالمؤمن هو الشخص الذي يحمل صفة الإيمـان ويعطي انطباعاً بـالأمن. فكمـا أن الأنبيـاء أشخاص في ذروة الإيمان، فكذلـك هـم في ذروة الأمانة، وهـذه الصفـة بـارزة وواضحـة أمام الجميع. والقرآن الكريم يشير إلى صفتهم هذه في آيات عدة منها:

﴿كذّبت قـوم نـوح المرسَلين ۞ إذ قـال لهـم أخوهـم نـوح ألا تتقـون ۞ إنـي لكـم رسـول أمين ۞ فـاتقوا الله وأطيعـونِ﴾ (الشعراء: ١٠٥-١٠٨). أي كـان نـوح عليه السلام يقـول لقومـه: ألا تتقـون؟ إنـي لكـم رسـول أمين لا يتنزل إلى الخيانـة. وهكـذا تـرد هنـا مـن فـم رسـول كريـم صفة الأمانة التي هي من صفات النبوة.

وكذلك: ﴿كذّبت عاد المرسَلين ۞ إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقـون ۞ إنـي لكـم رسول أمين﴾ (الشعراء: ١٢٣-١٢٥)

والآية: ﴿كذّبت قوم لوط المرسَـلين ۞ إذ قـال لهـم أخوهـم لـوطٌ ألا تتقـون ۞ إنـي لكـم رسـول أمين﴾ (الشعراء: ١٦٠-١٦٢).

ومن الممكن إيراد آيات أخرى في هذا الصدد. ولكننا نكتفي هنا بهذا القدر.

إن اسم "المؤمن" هو مـن أسمـاء الله الحسنى، لـذا فهـو مـن الأسمـاء المهمـة للمعتقدين بالله. ولكن لماذا كان "المؤمن" اسماً من الأسماء الحسنى لله تعالى؟ ذلك لأنه مصدر للثقة والاطمئنان، فهو الذي يمنحنا الثقة... أحياناً قطرة قطرة... وأحياناً مثل الشلال المنهمر. وهو الذي زين الأنبياء بصفة الأمـن والأمـان. فـإن صفـة الأمـن والأمـان والإيمـان تربطنـا بالأنبياء، وتربط الأنبياء بالله تعالى. وهذه الرابطة تقودنا إلى العلاقة بين الخالق والمخلوق. فجميع هذه المعاني موجودة في الاشتقاق الجذري لكلمة "الأمانة" علماً بأن أهم ناحية في هذا الموضوع هو فهم هذه العلاقة.

وكما أن الأمانة من أهم صفات الأنبياء والمرسلين، ومن أهم صفات نبينا ﷺ، فهي أيضا من أهم صفات جبريل عليه السلام، فالقرآن يصفه لنا بأنه ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ (التكوير: ٢١). أجل، فجبريل عليه السلام مطيع لله تعالى، ونظراً لطبيعة وظيفته فهو أمين، ومن ثم فإن هذا الكلام الذي يبعث الأمن والطمأنينة أنزله الله تعالى المؤمنُ بوساطة رسوله الأمين على قلب نبيه سيد الأمناء وأصفى المخلصين ليهب لأمته الخيرة الأمن ويجعلهم آمن الآمنين.

لقد عمت الجميعَ بركةُ القرآن الكريم، كل حسب درجته ومنزلته، وكان جبريل عليه السلام ضمن هؤلاء المستفيدين، فقد قال يوماً لرسول الله ﷺ: "كنت أخشى العاقبة، فأمنتُ لثناء الله عز وجل عليّ بقوله ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ (التكوير: ٢٠-٢١)".[1]

(١) «الشفاء» للقاضي عياض ١/١٧

الأمـانـة عند رسولنا ﷺ

رسولنا ﷺ أمين قبل كل شيء، أمين للرسالة التي بعثه الله تعالى بها، فلا يمكن تصور إخلاله لهذه الأمانة قيد شعرة، أمين مع جميع المخلوقات، فالكل يثق به ويطمئن إليه؛ لأنه أظهر للجميع مدى أمانته، فبعث الثقة وأرسى الأمن والاطمئنان إليه في نفوس الجميع. ثم علمنا مدى أهمية الأمانة ومدى ضرورتها وأقنعنا بهذا الأمر.

فتعالوا بنا نستعرض سويا هذه الأمور:

أ- الأمـانـة فـي تـبـلـيـغ الـرسـالـة

لقد اختار الله تعالى إنساناً أميناً لرسالته، وقد عاش هذا الرسول حياته كلها ضمن مشاعر هذه الأمانة، إلى درجة أنه كان عندما يتنزل عليه الوحي حريصاً على ألا تفوته كلمة واحدة من هذا الوحي ويخشى ذلك، فكان يكرر بسرعة ما سمعه من جبريل لكي يحفظه بشكل تام، وذلك قبل أن ينتهي جبريل من إلقاء الوحي عليه. وكان يبدي خشية وحرصاً وقلقاً في هذا الأمر إلى درجة أن القرآن الكريم نبّهه قائلاً: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به ۞ إن علينا جمعه وقرآنه ۞ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ۞ ثم إن علينا بيانه﴾ (القيامة: ١٦-١٩).

لقد أودع القرآنُ أمانة عنده، فكان يخشى ألا يكون أميناً لهذه الأمانة المقدسة خشية كبيرة. لذا، كان الله تعالى يطمئنه ويخبره بأنه أمين وسيبقى أميناً.

لقد عاش رسول الله ﷺ حياته كلها في خضم هذه العاطفة الملتهبة، فقد كان يدرك حق الإدراك مدى ثقل الأمانة المقدسة التي ألقيت على كاهله، ويجتهد بكل ما وسعه من إخلاص وتفان أن يكون أميناً لها. فها نحن نراه في حجة الوداع وقد أحس بدنو رحيله يقول لأصحابه وهو يتذكر هذه الأمانة الكبيرة أنهم سيُسألون غداً عنه، لذا فقد سألهم:

«ألا هل بلّغتُ؟ ألا هل بلّغتُ؟» فقال الحاضرون: نعم. فقال: «اللهم اشهد.»[1]

أجل، فإن حفظ الأمانة يبدأ من الله ﷻ ماراً من عند جبريل عليه السلام ومستقراً عند رسول الله ﷺ ثم سارياً منه إلى أمته... وفي حجة الوداع طلب من أمته الشهادة مرة أخرى بأنه أبلغ الرسالة ثم رجع إلى الرفيق الأعلى بعد هذه الشهادة من أمته.

وردت في كتب السنة المعتبرة رواية عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تتعلق بأمانة الرسول ﷺ في تبليغ الرسالة إذ قالت: "لو كان محمد ﷺ كاتماً شيئاً مما أنزل الله عليه لكتم هذه الآية: ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمتَ عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتُخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحقُّ أن تخشاه﴾ (الأحزاب: ٣٧).[2]

نزلت هذه الآية في حق زيد بن حارثة الذي أعتقه رسول الله ﷺ وتبناه ورباه ثم زوجه من بنت عمته زينب بنت جحش التي قبلت الزواج منه طاعة لرسول الله ﷺ، وتنفيذا لأوامره، فلم تكن لديها الرغبة في هذه الزيجة؛ ولهذا لم يحدث الوفاق بينهما؛ فأمر الله رسوله بطلاقها من زيد وأن يتزوجها لتكون ضمن زوجاته الطاهرات، فشق ذلك على رسول الله ﷺ حيث كانت العرب في تلك الأيام تنظر إلى الابن المتبنى نظرتهم إلى الابن الحقيقي، وتعد زوجة الابن بالتبني بمثابة زوجة الابن الحقيقي. كما كانت أم زينب –عمة رسول الله ﷺ– قد عرضتها عليه من قبل فأبى؛ ولكن ما كان على النبي ﷺ إلا أن ينفذ ذلك الأمر لأنه صادر إليه من السماء، لذا قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "لو كان محمد ﷺ كاتماً شيئاً مما أنزل الله عليه لكتم هذه الآية." ولكنه كان أميناً للوحي الذي كان ينزل عليه، فلم يكتم حرفاً واحداً منه.

وهناك حادثة أخرى وقعت في معركة بدر تبين مدى أمانته، فقد تم أسر بعض كفار قريش فاستشار رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما حول أمرهم.

---

(١) البخاري، الحج، ١٣٢، المغازي، ٧٧؛ مسلم، الحج، ١٤٧؛ أبو داود، المناسك، ٥٦؛ ابن ماجة، المناسك، ٧٦، ٨٤

(٢) البخاري، التوحيد، ٢٢؛ مسلم، الإيمان، ٢٨٨

فكان رأى أبي بكر ﷺ إطلاق سراحهم بعد أخذ الفدية منهم، أما عمر بن الخطاب ﷺ فكان من رأيه أن يقتلوا جميعاً وأن يقوم كل واحد من المسلمين بقتل قريبه بيده. ومال رسول الله ﷺ إلى رأى أبي بكر واطلق سراح الأسرى بعد أخذ الفدية منهم. ولندع سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ يروي هذه القصة بنفسه:

...فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت. فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان. قلت: يا رسول الله! أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك. فإن وجدتُ بكاءً بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي عَرض عليّ أصحابُك من أخذهم الفداء. لقد عُرض عليّ عذابُهم أدنى من هذه الشجرة -شجرة قريبة من نبي الله ﷺ- وأنزل الله عز وجل: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يُثخِن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ۞ لولا كتاب من الله سبق لمسكم في ما أخذتم عذاب عظيم ۞ فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم﴾ (الأنفال: ٦٧-٦٩). فأحلّ الله الغنيمة لهم.[١]

فلو كان هناك أي احتمال لقيام رسول الله بكتمان شيء من الوحي لكتم هذه الآية. ولكنه كان إنساناً أميناً على الوحي. وسنقوم فيما بعد بتناول هاتين الآيتين بتفصيل أكثر عند تناول موضوع عصمة الرسول ﷺ.

ب- الأمين حيال الوجود كله

وكما كان النبي ﷺ أميناً على الوحي الإلهي، فقد كان أمينا حيال الوجود كله، لأن هذه الأمانة كانت قد انغرست في أعماق قلبه وكيانه.

---

(١) مسلم، الجهاد، ٥٨؛ «المسند» للإمام أحمد ١/٣١-٣٣

وللحادثة التالية التي ترويها صفية زوج النبي ﷺ مغزى كبير عن الزهري قال: أخبرني علي بن الحسين ﷺ: أن صفية زوج النبي ﷺ أخبرته: أنها جاءت رسول الله ﷺ تزوره في اعتكافه في المسجد في العشر الأواخر من رمضان. فتحدثت عنده ساعة، ثم قامت تنقلب، فقام النبي ﷺ معها يَقلِبها،[١] حتى إذا بلغت باب المسجد عند باب أم سلمة، مرّ رجلان من الأنصار، فسلما على رسول الله ﷺ، فقال لهما النبي ﷺ: «على رِسْلكما، إنما هي صفية بنت حُيَيّ.» فقالا: سبحان الله يا رسول الله، وكبُر عليهما. فقال النبي ﷺ: «إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً.»[٢]

فهذا الشيطان الذي يجري من الإنسان مجرى الدم يستطيع أن يقذف في قلبه وفكره أشياء كثيرة. ولو كان هناك احتمال ضئيل بنسبة واحد من ألف أو واحد من المليون. بورود سؤال على خاطرهما حول: من هي هذه المرأة التي بجانب رسول الله؟ لوقعت حياتهما الأبدية في خطر شديد والعياذ بالله ولا نطفأ عندهم نور الإيمان. ولذلك نرى الرسول ﷺ -الذي هو مثال الرحمة والشفقة- يسرع للتدخل في الأمر فيظهر مدى أمانته هو، وينقذ في الوقت نفسه إيمان أصحابه وأفراد جماعته.

كان هذا هو مبلغ اهتمامه بالأمن والأمانة، ولا عجب في هذا، ألم يكن اسمه "الأمين" قبل بعثته ونبوته؟[٣] ألم يكن ألدّ أعدائه يعترفون بأمانته؟ لقد كان أميناً إلى درجة لو أن أبا جهل وهو من ألد أعدائه سُئل أين يستطيع إيداع أثمن أمواله، بل حتى عرضه وشرفه لما تردد في القول: "عند الأمي."

أجل، لما خطر بباله شخص آخر غيره... فهكذا كان مقدار أمانته عليه أفضل الصلاة والتسليم.

---

(١) أي يرجعها إلى منزلها. (المترجم)

(٢) البخاري، الاعتكاف، ٨؛ مسلم، السلام، ٢٤؛ أبو داود، الصوم، ٧٩، الأدب، ٨١؛ ابن ماجة، الصيام، ٦٥

(٣) «السيرة النبوية» لابن هشام ٢٠٩/١

كان أميناً إلى درجة أن امرأة دعت طفلها قائلة: ها تعال أُعطك، فقال لها: رسول الله ﷺ: «وما أردتِ أن تعطيه؟» قالت: أُعطيه تمراً. فقال لها رسول الله ﷺ: «أما إنكِ لو لم تعطيه شيئاً كُتبتْ عليكِ كِذبة.»[١]

ذلك لأن رسول الله ﷺ كان يعد الكذب من علامات النفاق، ولأجل ذلك كان يحاول إبعاد الناس عنه قدر استطاعته؛ لأن الكذب علامة من علامات النفاق الثلاثة، والأخريان هما إخلاف الوعد وخيانة الأمانة.[٢] فعلى قدر بُعد الرسول ﷺ من النفاق كان بُعده عن خيانة الأمانة.

ولم تكن روح الأمانة ومفهومها عنده مقتصراً عنده نحو الناس فحسب، بل نحو الوجود كله. إليكم حادثة يرويها عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فانطلق لحاجته فرأينا حُمّرة[٣] معها فرخان، فأخذنا فرخيها فجاءت الحُمّرة فجعلت تَفرُش،[٤] فجاء النبي ﷺ فقال: «من فجع هذه بولدها؟ رُدّوا ولدها إليها.»[٥] فكأن ممثلي الأمن والأمانة على الأرض لا يليق بهم مثل هذه التصرفات.

أما صحابته الغُرّ الميامين الذين تلقوا منه النور والضياء فقد كانوا أمناء أيضا، فهذا هو أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه الذي كان والياً على الشام في زمن خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد أن سمع أن هرقل يعد جيشاً ضخماً لاسترداد الشام منه، ولم يكن مع أبي عبيدة حينئذ إلا نفر قليل لا يستطيع بهم الدفاع عن مدينة دمشق، إذ به يجمع سكان المدينة ويقول لهم بأنه جمع الجزية منهم على أساس أن يدافع عنهم، وهو الآن لا يستطيع أن يدافع عنهم أمام هرقل؛ لذا، فإنه يرد إليهم هذه الأموال لأنه لا يستطيع الاحتفاظ بها من غير وجه حق.

---

(١) «المسند» للإمام أحمد ٤٤٧/٣؛ أبو داود، الأدب، ٨٠

(٢) البخاري، الإيمان، ٢٤؛ مسلم، الإيمان، ١٠٧

(٣) حُمّرة: طائر صغير. (المترجم)

(٤) تَفرُش: ترفرف. (المترجم)

(٥) أبو داود، الجهاد، ١١٢، الأدب، ١٦٤؛ «المسند» للإمام أحمد ٤٠٤/١

وهكذا ردت أموال الجزية لأصحابها، وأمام هذا المنظر الذي لا يُصدق هرع الرهبان والقسس إلى الكنائس والأديرة وتضرعوا إلى الله أن يبقي المسلمين وأن ينصرهم. وعندما ودعوا المسلمين قالوا لهم: سترجعون إن شاء الله وتنقذوننا من ظلم هرقل.[١]

إن أبا عبيدة بن الجرّاح ﷺ قد عاش أميناً وربانياً إلى درجة أنه تربع على عرش قلوب النصارى. فإذا كان الغرب لايسمعنا ولا يهتم بنا، ولا يعير التفاتة للأفراد الذين نرسلهم لأوروبا، فان الذنب في هذا ذنبنا، وينبع من سلبياتنا. ذلك لأن الثقة والأمن والأمانة هي أهم ما ينقصنا، فإذا استطعنا التحلي بهذه الفضائل مرة أخرى فإن الإنسانية ساعتها تكون قد عثرت على أمة يمكن الثقة بها. ونكون قد استرددنا موضعنا في التوازن الدولي وخطونا خطوة واسعة إلى الأمام.

من الممكن ملاحظة هذا الأمر –أي نشر الأمن والأمان– عند توسع العثمانيين وسيطرتهم على معظم أنحاء العالم. فعندما كان الجنود العثمانيون يمرون بالقرب من البساتين والحدائق وهم في طريقهم إلى الحرب، كانوا يعلقون أثمان الفواكه التي يقطفونها من هذه البساتين على أغصان الأشجار. فكانوا بمثل هذه التصرفات الإنسانية النبيلة يفتحون قلوب سكان البلاد قبل فتح هذه البلدان بحد السيف، وإلا ما كان باستطاعتهم فتح بلدان أوروبا، ولا إدامة بقائهم فيها مع وجود كل هذا الحقد الصليبي المرعب. ولكنهم بقوا في البلقان وفي أوروبا أربعة قرون كاملة لأنهم كانوا بأمانة أبي عبيدة؛ لذا، استطاعوا أن يصلوا إلى أبواب فيينا بخسائر قليلة جدا، وكانوا طوال هذه القرون مثالاً للأمن وللطمأنينة في تلك البلدان، وأنا أعتقد بأن الدماء التي سكبت لحفظ الأمن في تركيا بعد تأسيس الجمهورية، لم تسكب طوال خمسة قرون من أجل استتباب الأمن بين الأقوام الأوروبية المختلفة...

أجل، فالإحصاءات تظهر لنا بأن عدد الشهداء الذين سقطوا طوال ستة قرون من

---

(١) «عمر بن الخطاب: جوانبه المختلفة وإدارته للدولة» لشِبْلي النعماني ٢١٣/١-٢١٤

العهد العثماني في جميع الحروب أقل من عدد الذين سقطوا في نصف القرن الأخير. ومن ثم فإن الزعم بأن الفاتحين العثمانيين كانوا يستندون إلى القوة القاهرة فقط زعم باطل. ومن جانب آخر إذا أخذنا بنظر الاعتبار طبيعة وسائط النقل في تلك الأيام تبين لنا بشكل بديهي استحالة إدارة الدولة وفرض سيطرتها ونظامها على تلك المساحات الشاسعة بقوة السلاح وبقوة الجيش لا غير.

نعم! فهذا هو سر نجاحهم في جمع مختلف العناصر والقوميات تحت سقف واحد، وتحت إدارة دولة واحدة طوال تلك المدة دون أن تظهر هناك مشاكل جدية؛ لأنهم قد فتحوا قلوب السكان أولاً. وفتح القلوب والنفوذ إلى النفوس هو وظيفة الدعاة في عصرنا الحالي، وهو الأسلوب والطريقة التي يجب السير عليها.

ج- دعوة أمته إلى الأمن

وكما كان سيد المرسلين يحتفظ بالوحي الإلهي وبالرسالة الإلهية بكل أمانة، فإنه كان يدعو أمته إلى خلق الأمانة نفسها، ويوصي أفرادها أن يعيشوا أمناء بين الناس، وأي شكل من أشكال الخيانة مهما كان ضئيلاً لا يمكن السماح به أو التفكير فيه، لذا حرّم أن يُغتاب ولو مؤمن واحد، إذ سرعان ما ينبه محدثه ويجنبه الإصابة بغبار الغيبة.

دخلت امرأة على عائشة رضي الله عنها فلما قامت لتخرج أشارت عائشة بيدها إلى النبي ﷺ – أي إنها قصيرة– فقال النبي ﷺ: «اغتبتيها.»[1]

وقام النبي ﷺ بالتحذير نفسه في حادثة صاحبة ماعز بن مالك[2] [3].

---

(١) أبو داود، الأدب، ٣٥؛ الترمذي، القيامة، ٥١؛ «المسند» للإمام أحمد ١٨٩/٦

(٢) عند ما تم رجم صاحبة ماعز بن مالك أصاب دمها وجه أحد الصحابة فتشتمها، فحذره النبي ﷺ من ذلك، وقال إنها تابت توبة مقبولة عند الله. (المترجم)

(٣) مسلم، الحدود، ٢٣

وكان الرسول ﷺ يردد دائما هذا الدعاء ويوصي به أمته: «اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة.»[١]

وبقدر ما كان مهتما بمراعاة الأمانة كان اهتمامه بالتحذير من الوقوع في الخيانة لارتباطهما معاً. ويورد الرسول ﷺ خبراً مفزعاً عن الذين يقعون في هاوية الخيانة فيقول: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يُرفع لكل غادر لواء فقيل: هذه غدرة فلان بن فلان.»[٢]

لقد كانت روح النبي ﷺ مغلقة وقلبه موصداً أمام جميع المفاسد والشرور، ومفتوحين لكل خير حتى أصغره وأدقه، فعاش حياته للخير وفي جو من الأمن والطمأنينة، واطمأنت الإنسانية إليه ووثقت به وخاب وخسر الذين ناصبوه العداء وأداروا له ظهورهم. أما هو فقد بسط جناح الرحمة على أمته ولبّى طلب كل من دقّ بابه.

وكما كان شخصاً أمينا، كان يشعر بنفس الأمن والطمأنينة والثقة بالله ﷻ، فكانت ثقته هذه بالله عروجاً لصفة الأمانة والأمن من النبي ﷺ وسمواً ورجوعاً إلى الله تعالى. فالأمانة الهابطة من الله تعالى إلى النبي ﷺ كانت تظهر وتتجلى في صفة الأمن عنده، وعندما يتقارب طرفا هذا القوس ويتحد يظهر الأمن العام.

لقد تميز كل نبي بالثقة بالله تعالى والتوكل عليه، فقد كانت هذه صفة من الصفات اللازمة لهم وخُلقاً من أخلاقهم السامية. ويوضح القرآن هذا الخلق عندهم في آيات عديدة. ﴿واتلُ عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمِعوا أمرَكم وشركاءكم ثم لا يكن أمرُكم عليكم غُمّة ثم اقضوا إليّ ولا تُنظرون﴾ (يونس: ٧١).

كان نوح ﷺ يثق في ربه ويعتمد عليه ويقول لجماعة الكفار:

---

(١) أبو داود، الوتر، ٣٢؛ النسائي، الاستعاذة، ١٩، ٢٠؛ ابن ماجة، الأطعمة، ٥٣

(٢) البخاري، الجزية، ٢٢؛ مسلم، الجهاد، ٩؛ أبو داود، الجهاد، ١٥٠

إن كنتم تنفرون مني ومن دعوتي لكم وتبليغي أمر الله لكم فافعلوا ما شئتم، ذلك لأنني واثق بالله معتمد عليه... أنتم كثر وأنا فرد واحد، ولكن اعلموا أن الله لن يضيعني. فاجمعوا أمركم وتشاوروا وضعوا الخطط ضدي أنتم وكل شركاؤكم ومعاونيكم حتى لا يفوتكم شيء ولا تتحسروا على شيء فاتكم عمله، بل اعملوا ما وسعكم العمل ضدي ونفذوا كل خططكم فانا في انتظار كل ما يأتي من قبلكم.

لقد كان يقول هذا لهم ويتحداهم، لأنه كان شديد الثقة بالله تعالى، وكان يعلم علم اليقين أن الله سوف يعصمه من الناس. ومع أننا لا نعلم عدد الأفراد الذين ركبوا سفينته، إلا أننا نعلم أن كثيراً من الأنبياء -ومنهم إبراهيم عليه السلام- كان من ذريته ومن نسله، فالقرآن الكريم يقول إن إبراهيم عليه السلام من شيعته ﴿وإن من شيعته لإبراهيم﴾ (الصافّات. ٨٣).

والموقف نفسه نراه عند النبي هود عليه السلام: ﴿قال إني أُشهِد الله واشهدوا أني برئ مما تشركون ۞ من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرونِ ۞ إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها أن ربي على صراط مستقيم﴾ (هود: ٥٤-٥٦).

ويشرح القرآن موقف إبراهيم عليه السلام... موقف التسليم المطلق لله فيقول: ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا واليك المصير﴾ (الممتحنة: ٤).

أجل، كان إبراهيم والذين آمنوا معه يرفعون راية العصيان ويتحدون الكفار قائلين لهم: إننا بعيدون من كل ما تعبدون من دون الله بُعدا كبيرا، فنحن ننكركم وننكر كل طواغيتكم، وقد بدت بيننا وبينكم العداوة وتوسعت حتى تؤمنوا بالله.

وهذه العداوة بين المؤمنين وغير المؤمنين بدأت منذ عهد آدم عليه السلام وتواصلت إلى يومنا الحالي. فالإيمان ضد الكفر، والكفر عدو للإيمان، فلا يمكن أن يجتمعا معاً أو يستقرا في

مكان واحد، لأن الكفر سيسعى للقضاء على الإيمان، فكما أن الخفافيش لا تستطيع العيش في النور، فكذلك الكفار يضيقون بنور الإيمان ونور النبوة. فكان أتباع إبراهيم عليه السلام من المؤمنين يقولون للكفار إنه مالم تؤمنوا بالله وتعتمدوا وتتوكلوا عليه فأن العداوة ستبقى فيما بيننا ولن تهدأ.

ذلك لأنه يوجد انحراف وسقم في ماهية الكفر، والكافر ينظر إلى كل الأشياء نظرة عداء. أما المؤمن فإنه يضم في جوانحه مشاعر الإنسانية والمروءة، وهو ينظر إلى الكون كمهد للأخوة، لذا فهو يبحث مع الجميع نقاط الالتقاء والحوار. بينما يجد الكافر لذة ونشوة في التحرش والتشاجر مع الجميع. وعندما يؤمن الجميع بالله تعالى يتأسس سلام عام وشامل. أما توقع مثل هذا السلام من الكافر ومن الكفر فهو غفلة وتفكير سطحي، ذلك لأن الكفر ليس لديه ما يعطيه للإنسانية غير الإيقاع بين الأمم وإضرام العداوة بينها.

ومن ثم فلا يمكن أن يكون هناك حوار بالمعنى الحقيقي بين المؤمن والكافر، أما ما قاله إبراهيم لأبيه فقد عده القرآن الكريم استثناء. رغم أن ما قاله لم يكن إلا عبارة عن أمنية نبعت من شفقته ورأفته الواسعة، هذا مع العلم أنه أوضح بأنه لا يملك لأبيه عند الله شيئاً وعندما قال: ﴿ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير﴾ (الممتحنة: ٤). كان يعبر عن ثقته بالله واعتماده وتوكله عليه وحده.

ولو تم تدقيق حياة جميع الأنبياء لبرزت صفة ثقتهم واعتمادهم وتوكلهم على الله بروزاً واضحا، وتوكلهم على الله ليس مثل توكل عامة الناس أو مثل توكل أي فرد من الأفراد... هكذا كان توكلهم... إذن، فما بالك بتوكل وثقة سيد الأنبياء والمرسلين وخاتمهم..؟

لقد علمه الله تعالى أن يقول: "حسبي الله" ومنذ ذلك الحين قضى حياته مطمئناً معتمداً على الله واثقاً به ومتوكلاً عليه... تأملوا مدى اعتماده على الله وتوكله عليه أن رجلاً بشجاعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول عنه: "لقد رأيتُنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشدّ الناس يومئذ بأساً."[١]

(١) «المسند» للإمام أحمد ٨٦/١

د- التـوكـل الـمـذهـل

عندما هاجر كان بيته محاطاً من جميع جوانبه بأناس مصممين على قتله أشد تصميم، فتلى قوله تعالى: ﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً﴾ (يس: ٩). ونثر عليهم ملء كفه تراباً ثم خرج من بينهم بكل اطمئنان ودون أن يبدي أي قلق...[١] لقد كان محتفظاً برباط جأشه وشجاعة قلبه، ثم توجه نحو غار ثور... هذا الغار الموجود على قمة جبل يصعب ارتقاؤه حتى على الشباب، ولكنه ارتقى ذروة هذا الجبل وهو في الثالثة والخمسين من عمره... لقد كانت حياته عبارة عن سلسلة من المشاق والآلام وهذه المشقة آخرها... كأنما كان يستجيب لدعوة الغار له ويشرفه بالبقاء فيه ضيفاً عدة أيام.

ثم وصل مشركو مكة إلى باب الغار... ولم تبق هناك سوى مسافة متر واحد أو أقل، عندئذ قلق أبو بكر ﷺ واضطرب واصفر وجهه، ذلك لأنه كان يعد رسول الله ﷺ أمانة لديه، فماذا لو لم تصل هذه الأمانة إلى مكانها؟ أما رسول الله ﷺ فلم يتغير شيء في سحنته الباسمة... لقد كان رجلا آمنا مطمئنا، وكان يطمئن أبا بكر ﷺ ويقول له: «يا أبا بكر! لا تخف، إن الله معنا» ثم يقول له: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟!»[٢]

وها هو في غزوة حُنين التي بدا وكأن الجيش الإسلامي يتشتت ويتفرق ذات اليمين وذات الشمال، وأيقن الجميع أن نهاية المعركة ستكون هزيمة منكرة للمسلمين. إذ بالنبي ﷺ يسوق جواده –الذي كان العباس ﷺ يحاول أن يوقفه– نحو صفوف الأعداء وهو يصيح بصوته المهيب:

«أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب.»[٣]

وكانت شجاعته هذه هي التي أدت إلى عودة تماسك الجيش الإسلامي في وقت قصير، فانقلبت هزيمته إلى نصر مبين.

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ١٢٧/٢

(٢) البخاري، تفسير سورة (٩) ٩؛ «المسند» للإمام أحمد ٤/١

(٣) البخاري، الجهاد، ٥٢؛ مسلم، الجهاد، ٧٨

وموقف آخر عندما كان النبي ﷺ نائماً تحت شجرة بعد رجوعه من غزوة ذات الرِّقاع إذ أقبل عليه أحد الكفار واسمه غَوْرَث بن الحارث فأخذ سيفه المعلق على الشجرة وقربه من عنق النبي ﷺ قائلاً له بنبرة استهزاء: من يمنعك مني؟ فلم يضطرب الرسول ﷺ أبدا لأنه كان واثقاً بالله تعالى لذا، أجابه: «الله» فبهت الكافر واضطرب ووقع السيف من يده فالتقطه النبي ﷺ وقال له: «والآن من يمنعك مني؟» فأخذ الكافر يهتزّ من خوفه كريشة في مهب الريح. وهنا أقبل المسلمون الذين سمعوا صوت النبي ﷺ، فذهلوا مما رأوا وعندما علموا ما جرى زاد إيمانهم بالله. أما غَوْرَث فقد أمنه النبي ﷺ وأطلق سراحه دون عقاب.[1]

يقول المفكر الغربي المعروف "جورج برنار شو (George Bernard Shaw)":

"إن محمداً شخص له جوانب سامية متعددة ومذهلة، وليس في الإمكان فهم هذا الإنسان اللغز حق الفهم، ولاسيما فهم أحد جوانبه وهو ثقته المطلقة بالله فهذا سر لا يمكن فهمه."

كانت ثقته بالله لا يمكن قياسها ولا تقييمها بموازيننا العادية، لذا كانت مكانته ومنزلته عند الله منزلة سامية سمو ثقته وإيمانه بالله وتوكله عليه، لذا فلو دعا لانقلب الليل إلى نهار والظلام إلى نور والفحم إلى ماس.

إن رسول الله ﷺ هو أكثر شخص مدعاة للثقة من بين كل العالم، ومن ثم يجب أن تكون أمته أيضاً مدعاة للأمن وللثقة، تقول الآية الكريمة: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدُّوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نِعِمَّا يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً﴾ (النساء: ٥٨).

يشرح علي بن أبي طالب رضي الله عنه سبب نزول هذه الآية فيقول:

(١) البخاري، المغازي، ٣١، الجهاد، ٨٤؛ مسلم، الفضائل، ١٣؛ «المستدرك» للحاكم ٢٩/٣

بعد أن تم فتح مكة أخـذ رسـول الله ﷺ مفـاتيح الكعبـة من عثمـان بـن طلحـة وفتـح الكعبة بنفسه، فأقبل إليه العباس ﷺ وطلب منه هذه المفاتيح، لأنـه كـان يرى أن عثمـان بن طلحة أحق النـاس بحمل هـذه الأمانـة، وهكـذا كـان، فبعـد نـزول هـذه الآيـة سلّمت مفاتيح الكعبة إلى عثمان بن طلحة مرة أخرى.[1]

غير أن حكـم الآيـة حكـم عـام؛ لأن الرسـول ﷺ عـد تضييـع الأمانـة وعـدم رعايتهـا علامة من علامات قيام الساعة إذ يقول لأعرابي سأله عن السـاعة. «فـإذا ضُيِّعـت الأمانـة فـانتظر السـاعة.» قـال: كيـف إضاعتهـا؟ قـال: «إذا وُسِّـد الأمـر إلى غـير أهلـه فـانتظر الساعة.»[2]

أجل، إن الأمانة شيء خطير. وإعطاء الأمر لأهله يعد أمانة وهـو مـن الأمـور المهمـة لحفظ النظام في العالم، وضياع الأمانة يأتي بـالمعنى نفسـه لاختـلال النظـام العـام. ووجـود مثل هذا العالم الذي ضاعت فيه الأمانة واختل فيه النظام أو انعدام وجوده يكون سيان.

وفي حديث آخر يقول الرسول ﷺ:

«كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيتـه. الإمـام راع ومسـؤول عـن رعيتـه. والرجـل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتهـا. والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته وكلكم راع ومسؤول عن رعيته.»[3]

إن ما يراد شرحه هنا ضمن هذا الإطار الشامل هو أن كل شخص مؤتمن عند الآخر، والوجود كله أمانـة لـدى الله ﷻ، والقـرآن كـان أمانـة عنـد جبريل ﷺ في البدايـة، ثـم أمانة عند رسول الله ﷺ، ثم أن حقائق القرآن ونبوة محمد ﷺ أمانـة عنـد أمـة الإسـلام. والأمة بأجمعها أمانة لدى الله ﷻ.

---

(١) «الإصابة» لابن حجر ٤٦٠/٢؛ «السيرة النبوية» لابن هشام ٥٥/٤

(٢) البخاري، العلم، ٢؛ «المسند» للإمام أحمد ٣٢١/٢

(٣) البخاري، الجمعة، ١١، الوصايا، ٩؛ مسلم، الإمارة، ٢٠؛ أبو داود، الإمارة، ١

إن العناصر التي تتألف منها الحياة وكذلك العناصر الضرورية لحياة المجتمع تعتبر كدوائر متداخلة بعضها في بعض، وأي فساد يعرض لإحدى هذه الدوائر مهما كان ضئيلاً يسري إلى الدوائر الأخرى بعد أن يتضاعف أثرها، ولا أعتقد أن أحداً يشك في هذا. فإذا كان هناك أي فساد في مستوى الفرد، ولم يتم علاج هذا الفساد بسرعة، فلا يشكن أحد في أن هذا الفساد سينقلب في وقت قصير إلى فساد مزمن وإلى سرطان لا يمكن علاجه. ولكي يتم سد الطريق أمام جميع أنواع المفاسد، فإن على كل دائرة القيام بإيفاء جميع حقوق الأمانة الموكولة لديها.

والحديث الشريف يشير إلى هذا الترابط الكامل، وفي إطار هذه الإشارة إن كان أفراد الأمة جميعهم -بدءاً من الحارس وانتهاء برئيس الدولة- في وعي كامل في موضوع الأمانة لأصبح هذا المجتمع المثالي المكون من الأفراد الأمناء كمجتمع المدينة الفاضلة التي تخيلها بعض المفكرين.

ولأن الأمانة بهذه الأهمية الجامعة فقد قال الرسول ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له.»[1]

فالشخص الذي لا يراعي الأمانة المودعة لديه لا يكون إيمانه كاملاً؛ لأن علاقة الإيمان بالأمانة هي أن كلا منهما سبب للآخر ونتيجة له. ومن ثم فمن الصعب أن تجد رعاية كاملة للأمانة عند غير المؤمنين.

أجل، فالإنسان ذو الإيمان الكامل يكون أميناً فإن لم يكن أميناً فليس إيمانه كاملاً.

وفي حديث آخر يعرّف الرسول ﷺ المؤمن بقوله: «المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم.»[2]

وهنا أود أن أذكر مرة ثانية حديثاً أوردته في مبحث صدق الرسول ﷺ، وذلك لكونه ذا علاقة بموضوع الأمانة. قال رسول الله ﷺ: «اِضْمَنُوا لي ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة»:[3]

---

(١) «المسند» للإمام أحمد ١٣٥/٣

(٢) الترمذي، الإيمان، ١٢؛ النسائي، الإيمان، ٨؛ ابن ماجة، الفتن، ٢؛ «المسند» للإمام أحمد ٢٠٦/٢، ٢١٠، ٣٧٩

(٣) الترمذي، الإيمان، ١٢؛ ابن ماجة، الفتن، ٢

١- «اُصدقـوا إذا حدثتـم» أجـل، فيجـب أن يكـون كلامكـم وسـلوككم متصفـاً بالصدق والاستقامة... ولتكونوا مستقيمين استقامة الرمح.

٢- «وأوفوا إذا وعدتم»: ومالفة ذلك يكون علامة من علامات النفاق وقد تم شرح هذا الموضوع باختصار فيما سبق.

٣- «وأدّوا إذا اؤتمنتم»: فإن ائتمنك أحد على شيء لتوسمه فيك الأمانة، فـلا تخيب ظنه فيك، بل لا تكذب حسن ظنه بك يوم القيامة.

٤- «واحفظـوا فروجكـم»: أي احفظـوا أعراضكـم، واحفظـوا أعـراض النـاس مثلمـا تحافظون على أعراضكم (سنتناول هذا الموضوع في مبحث "العفة" بشكل مفصل).

٥- «وغضوا أبصاركم»: أي لا تمد عينك إلى مالا تملك. فـالنظر إلى الحرام يفسد القلب، لذا ورد في حديث قدسي:

«إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم، من تركها مخافتي أبدلته إيمانـاً يجـد حلاوتـه في قلبه.»[1]

٦- «وكفوا أيديكم»[2]: أي لا تمدن يدك بالإيذاء لأحد.

هـذه هـي الشـروط الـتي يجـب توفرهـا في الإنسـان لكـي يكـون اميناً يطمئن إليه النـاس... يعيش أميناً في الدنيا ويضمن آخرته. فمن يضمن تحقيق هذه الشروط ضمن له النبي ﷺ الجنة.

فلكي يعم الأمـن والأمـان في الدنيـا، يجـب أن تكـون مقـاليد أمـور الدنيـا في يـد أنـاس أمناء. ولو قام العالم الإسلامي بحمل الأمانة المودعة لديه، وأصبح ممثلاً للأمن والأمـان في العالم لتأسس التوازن والاستقرار في الدنيا، وإلا فإن حال العـالم كلـه -وليـس حـال تركيـا فقط- أليمة تنفطر لها القلوب.

---

(١) «كنز العمال» للهندي ٣٢٨/٥

(٢) «المسند» للإمام أحمد ٣٢٣/٥

هـ- يا براعم الأمل

ستقومون أنتم بإهداء حقائق الدين وإقامتها في الدنيا مرة أخرى... فأنتم باقة ضوء من منبع نور عظيم أضاء أطراف العالم الغارق في الظلام، وأنشأ شجرة إيمان وارفة الظلال كشجرة طوبا[1] ظللت بأوراقها وأزهارها كل الأرجاء.

كانت كل كلمة لأمتنا في المباحثات الدولية في تلك العهود الزاهرة بمثابة أمر. وستقومون أنتم -بإذن الله- باستعادة تلك العهود الزاهرة والتخلص سريعاً من هذا العهد المظلم الذي نعيشه... فهذا هو ما يأمله الجميع منكم... يأمله من يعيش فوق التراب ومن هو مدفون تحته. بل هذا ما يأمله منكم رسول الله محمد ﷺ وهو يتجول بروحانيته بينكم ويربت على أكتافكم ويبتسم لكم وإن كنتم لا ترونه أو تحسون به.

أنتم تستطيعون نشر الأمن والطمأنينة فيما حولكم إن بقيتم أمناء ولم تنحرفوا عن الاستقامة... أجل، إن استطعتم تحقيق هذا انفتح لكم قلب الإنسانية جمعاء على مصراعيه، وستتربعون في هذا القلب كما تربع أجدادكم من قبل. ولكن لا تنسوا أبداً أن شرط الوصول إلى هذه النتيجة وإلى هذه الذروة مرتبط بكونكم أمناء للأمانة الملقاة على عاتقكم.

فإن كنا نريد أن نكون أمة لها وزنها وكلمتها في الشؤون الدولية المهمة وتلعب دوراً بارزاً في تأسيس التوازن الدولي -حيث أننا مضطرون أن نكون كذلك- فيجب أن نكون ممثلين للحق وللعدالة وللاستقامة وللأمن.

---

(١) شجرة طوبا: شجرة الهبة في سدرة المنتهى تظلل الجنة بأكملها. (المترجم)

الفصل الثالث: التبليغ

التبليغ هو الصفة الثالثة للأنبياء، وإذا أردتم أن تطلقوا على هذا اسم تبليغ وبيان حقائق الإسلام أو "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" فالنتيجة واحدة إذ تكونون قد أبنتم عن حقيقة كبيرة من الحقائق المتعلقة بالنبوة.

التبليغ هو الهدف من وجود كل نبي. فلولا مهمة التبليغ لكان إرسال الأنبياء عبثاً ودون معنى. لقد أظهر الله تعالى بأنبيائه عظيم كرمه وتجلت رحمانيته ورحيميته في حياة هؤلاء الأنبياء. وما كان في الإمكان انعكاس هذا الأمر على الناس الآخرين من دون التبليغ.

فكما يظهر الله رحمانيته بالشمس التي تبتسم وهي تشرق لنا كل صباح... هذه الشمس التي هي بمثابة مدفأة لمن يحتاج إلى الدفء، وموقد لما يحتاج إلى الطبخ، وريشة رسام يرسم بها أروع لوحات الجمال ملونةً بأبهى الألوان، فكذلك هم الأنبياء العظام، ولاسيما محمد ﷺ الذي كان أفضل أنموذج لتجلي الرحمانية والرحيمية للبشر والذي قال الله تعالى في حقه ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

فلو لم يأت ويجدد دعوة الأنبياء السابقين لما تجلت علينا رحمة الله ﷻ، ولبقينا تائهين حيارى في صحراء الجهل والكفر والضلالة الموحشة.

فبينما كانت الإنسانية تتردى في مهاوي الجهل والتوحش طرق سمعها أنفاس نبينا ﷺ التي تبعث الحياة في النفوس وتنقل لها أقوال الأنبياء السابقين... عند ذلك أحست وكأن الدنيا تحولت إلى ربيع مزهر وإلى بساتين خضراء نضرة تفتحت فيها آلاف الورود والأزهار، وصدحت في أفنائها وأغصانها آلاف البلابل... ولولا هذا لجُنّت من الوحشة ومن الحيرة ومن الوحدة.

أجل، فمن نحن..؟ من أين أتينا؟ وإلى أين نحن ذاهبون؟

مثل هذه الأسئلة المحيرة كادت أن تنخر أدمغتنا مثل مثقاب... كادت أن تحفر، وما كنا

نملك أو نجد لها أجوبة شافية، وكان حتماً علينا أن نتحمل هذا الألم طوال أعمارنا... وعندما سيخطر على خيالنا منظرنا وقد تحولنا إلى عظام نخرة في القبر كنا سنرتجف من رعب بارد مظلم يستولي على نفوسنا... الرعب من العدم... هذا العدم الذي نقترب منه كل دقيقة... مثل هذا الرعب كان سيحول حياتنا إلى جحيم دائم لا راحة فيه.

جاء الأنبياء فعلمونا غاية الحياة وحقيقة الموت، فتعلمنا منهم أن مجيئنا إلى الدنيا مرتبط بغاية، وأن فراقنا للدنيا مبني على حكمة، وأن الموت ليس فناء ولا عدما، بل هو انتقال من مكان إلى مكان، وتسريح من مهمة ومن وظيفة معينة، أما القبر فهو صالة انتظار وباب مفتوح على عالم الآخرة، وعندما سمعنا هذا من الأنبياء تبددت وحشتنا وتحول كل شيء إلى أ نس وانشراح، وزالت جميع المخاوف والشكوك وأسباب القلق من قلوبنا وعقولنا، وحل الأنس والمسرة محلها.

لقد أرسل الأنبياء إلينا بمثل هذه الرسائل، وكان قيامهم بتبليغها لنا هو غاية وجودهم. وإذا كنا نرى التبليغ واجباً يجب القيام به، فقد كان الأنبياء يقومون بالتبليغ غاية هدفا يرون فيه سر حكمة مجيئهم إلى الدنيا، وكأن لسان حالهم يردد:

"ليس هناك غاية أخرى من مجيئنا إلى الدنيا، فالله تعالى أرسلنا للناس من أجل أن ونزيح الظلام من بين أيديهم ومن خلفهم ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم لكي يستطيعوا المضي قُدما نحو الصراط المستقيم دون أي نحراف، فلا يستطيع الشيطان أن يتسلل إلى أرواحهم او أن يحاول إغوائهم في طريقهم هذا."

أجل، إننا نقوم بالتبليغ كمهمة ووظيفة، أما الأنبياء فيقومون به كغاية لوجودهم وهدف لحياتهم وسر لخلقهم.

أسس ثلاثة في التبليغ

مما لا شك أن مجيء النبي بالرسالة وقيامه بتبليغ هذه الرسالة للآخرين أمر مختلف تماماً عما يفعله الآخرون. فهم أولاً متميزون في موضوع تلقي الرسالة عن الباقين، فهم لايتشابهون مع غيرهم في هذا الموضوع. وهم أثناء قيامهم بمهمة بالتبليغ يعلموننا ما معنى التبليغ وكيف يجب أن يكون. وهذا يشكل بعدا آخر في موضوع تبليغهم.

والآن دعونا نتناول هذا الموضوع بإرسائه على قواعد ثلاثة:

١- النظرة الشمولية

إن الأنبياء عندما يقومون بتبليغ رسالة الله يوفون هذه المهمة بأصولها وقواعدها وطرقها الصحيحة التامة كأهل علم واختصاص في هذا الموضوع. إذ يتناولون الإنسان من جميع جوانبه كلا شاملا وغير مجزأ، ويقدمون له رسالته في إطارها الكامل دون أي نقص. ومن ثم لا يبقى أي من العقل والمنطق والقلب والأحاسيس والشعور خارج أنوار الوحي ولا يترك أو يهمل أيّ من هذا.

ذلك لأن كل نبي بين يدي الوحي كالميت في يد المغسل، يقلبه الوحي ذات اليمين وذات الشمال ويوجهه أنى يريد حتى يبلغ بهم ذلك أنهم يتبعون مشيئة الله وإرادته في أصغر الأمور وأدق التفاصيل، وهذا الأمر شيء ملزِم للأنبياء، لذا نراهم يبدون حساسية شديدة تجاهه.

ومن ثم فإن أي تبليغ وأي دعوة لا تتوافق مع أسلوب تبليغ الأنبياء ودعوتهم لا تنجح في مهمة الإرشاد والدعوة. مثلا إن أهمل نصيب العقل فإن التبليغ لا يعطي النتيجة المرجوة. وإن أهملت المشاعر والأحاسيس سيؤدي أيضاً إلى نفس النتيجة السلبية. ناهيك عن الذين يخرجون خارج نطاق الوحي فهم لا يصلون أبداً إلى الهدف. ولتنظروا إلى حال

جميع النظم البشرية التي سارت خارج الوحي الإلهي وإلى عاقبتها والمسافة التي قطعتها هذه النظم. فهذه هي الشيوعية التي جرت وراءها الجماهير البائسة الفقيرة والمخدوعة زمناً، والتي كانت حلم كثير من البلدان الفقيرة لم تستطع إنقاذ نفسها من السقوط والانهيار مع أنها مرت بكثير من عمليات التصحيح والتبديل والتجميل. برغم أن مؤسسي هذا النظام -والنظم الأخرى- كانوا قد قدموا أنفسهم كأنبياء كذبة وجالوا وصالوا بهذه الصفة. إن الذين يصرون على تطبيق النظم البشرية سيصلون إلى النتيجة نفسها... أجل، سيعلن كل منهم -عاجلاً أم آجلاً- بأنهم كانوا مخدوعين.

إن العقل والمنطق والعواطف تكون جنباً إلى جنب في دعوة النبي. فالنبي لا يفكر في استغلال عواطف الشعب للقيام بمظاهرات صاخبة في الشوارع، كما أنه ليس مفكراً نظرياً قابعاً في ركن منعزل يحرم الجماهير من الحركات والنشاطات العامة والإيجابية. وكما أن النبي لا يجعل من الجماهير كتلاً فوضوية تسد الشوارع، فهو أيضا لا يقف حائلا أمام نمو ورقي عواطف الجماهير. إنه يودع رسالات ربه إلى قلوب الناس ويذكي فيها روح العمل والنشاط ويسمو بهم إلى سماء الإنسانية ويرقى بهم إلى مصاف الملائكة. وعندما يشرح القرآن الكريم هذه المسألة يقول لرسول الله ﷺ: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾ (يوسف: ١٠٨).

هذه السبيل هي سبيل الأنبياء وسبيل العقل والمنطق والحكمة أيضا، وهي في الوقت نفسه لا تهمل العواطف ولا القلب ولا الوجدان، فالكل يأخذ مكانه فيها، والأنبياء وأتباعهم يدعون الناس على بصيرة إلى الحق باتباع هذه السبيل.

٢- عدم انتظار الأجر

إن النبي لا ينتظر النبي أجرا على تبليغه؛ فهو يقوم بدعوته لكونها وظيفته ومهمته،

فكل الأنبياء شعارهم: ﴿إن أجري إلا على الله﴾ (يونس: ٧٢ و هود: ٢٩).[1]

٣- ترك النتائج لله

وعندما يبلغ النبي دعوته لا يتدخل في نتائجها؛ لأنه يعلم أن وظيفته هي التبليغ، أما العاقبة وحسن القبول وتحقق النتائج فمردها إلى الله سبحانه تعالى.

وبعد ذكر هذه الأسس الثلاثة سنتناول ماهية صفة التبليغ والدعوة بالنسبة للنبوة، وأي السبل والطرق والأساليب التي يجب على الدعاة في كل عهد الالتزام بها أثناء قيامهم بالدعوة. وكل ما نرجوه أن يوفقنا الله تعالى للقيام بوظيفة الدعوة كما يحب ويرضى. فالله تعالى هو الذي وهب لقلوبنا الشوق للقيام بالدعوة وهو الذي بيده التوفيق إن شاء، فنحن نثق به ونعتمد عليه.

إن أي نبي لا يفكر إلا في دعوته كما قلنا، وكم من أنبياء جاهدوا طوال حياتهم ووقفوا أعمارهم كلها لدعوتهم وما آمن بهم أحد،[2] ولكنهم بقوا مع ذلك مطمئنين لأنهم أدوا وظيفتهم كما يجب، فلم يصدر من أحدهم اعتراض لحظة واحدة في حياتهم ولم يتفوه قط بمثل هذه الأسئلة:

لماذا لم أوفق في دعوتي؟ لماذا لم يؤمن بي أحد؟ لماذا انتهى عملي إلى لا شيء؟ لماذا تتابع الفشل الواحد منه تلو الآخر؟ لقد كان كل نبي يفكر في دعوته فقط وكيف يؤديها؛ لذا، فهو ينظر إلى جميع الظروف بنظر الاعتبار ويؤدي مهمته في ضوئها. أما النجاح في دعوته فليس ضمن وظيفته. فالحكم في هذا يعود إلى الله تعالى وحده،

---

(١) انظر هذه الآيات: ﴿ويا قوم لا أسالكم عليه مالا إن أجري إلا على الله﴾ (هود: ٢٩)، ﴿وما أسالكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين﴾ (الشعراء: ١٠٩)، ﴿قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد﴾ (سبأ. ٤٧).

(٢) البخاري، الرقاق، ٥٠؛ مسلم، الإيمان، ٣٧٤؛ الترمذي، القيامة، ١٦

وتوضح الآية الكريمة ذلك في خطابها لرسول الله ﷺ قال تعالى:

﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ (القصص: ٥٦).

وبهذا المقياس فإن رسالة النبي تحمل صفة خاصة، فلو لم يؤمن بها أحد ما فتر النبي أبداً وما تردد أو قلق أو اضطرب، ولا سلك طريق اتهام الآخرين، بل استمر يؤدي وظيفته ومهمته، فلم يظهر الأنبياء أي فتور أو تراخ في الدعوة رغم تعرضهم لصنوف من الإهانة والتحقير. وهذا اللون من ألوان الدعوة صفة خاصة بالأنبياء وحدهم، ويستحيل أن يظهر كاملاً في غيرهم؛ لأننا نجد عند هذا الغير في العادة نوعاً من انكسار الخاطر والكدر، فمهما كان هؤلاء الدعاة ناضجين فإنهم لا يتخلصون من الرغبة في الحصول على نتيجة ما من دعوتهم. وعندما لا يحصلون على شيء يظهرون نوعاً من خيبة الأمل وانكسار الخاطر، والأنبياء وحدهم هم الذين لا يحملون مثل هذه الأحاسيس؛ لأن هذه صفة خاصة بهم.

انظروا مثلاً إلى رسول الله ﷺ وما أصابه في أحد من حوادث أليمة فإنه مع هذا لم يتكدر خاطره ولم يصبه هم أو غم... لقد انكسرت سنه، ودخلت حلقات مغفره في وجهه، حتى أن أبا عبيدة انكسرت سنه وهو يحاول تخليص وجه رسول الله ﷺ من حلقات المغفر...[١] ومع أن الدماء غطت وجهه الكريم فإنه اكتفى برفع يده داعياً: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون.»[٢]

ومن ثم عندما اقتنع قومه بنبوته بذلوا أرواحهم في سبيله. وهذه الحادثة وغيرها من الحوادث المماثلة تبين مدى سعة صدر رسول الله ﷺ.

فما كان الرسول ﷺ وغيره من الأنبياء والرسل يقابلون الأذى بالأذى بل كانوا يتحملون الإيذاء في سبيل الله دون أي تذمر أو شكوى وهذا نبينا الله نوح عليه السلام يحكي

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/٨٤-٨٥

(٢) «الشفاء» للقاضي عياض ١/١٠٥؛ البخاري، الأنبياء، ٥٤؛ مسلم، الجهاد، ١٠٥

القرآن عنه أنه قال لقومه: ﴿قال يا قـوم ليس بي ضلالـة ولكـني رسـول رب العـالمين﴾ (الأعراف: ٦١).

لقد قال نوح عليه السلام هذا لقومه ردا عليهم عندما اتهمـوه بـالانحراف والضلالـة إذ قـالوا له ﴿إنا لنراك في ضلال مبين﴾ (الأعراف: ٦٠).

والاتهامات اليوم هي نفس الاتهامـات السـابقة... أنت منحرف... أنـت رجعي... أنت تعيش في القرون المظلمة... الخ.

ويستطرد نوح في خطاب قومه قائلا لهم:

﴿أبلِّغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ (الأعراف: ٦٢).

أي يقول لهم إنني لست على ضلالة... بـل إنـني أريـد أن أنصحكـم وأخلصكـم مـن الضلالات ومن الانحرافات التي تعيشون فيهـا، لأنـني مرسـل إليكـم مـن رب العـالمين نبيـاً ورحمة لكم أبلغكم رسالات ربي وأضيء لكم دروبكم، لأنني أعلم ما لا تعلمون.

ومع مرور عصور وعصور فإن الكفر هو الكفر لا يتغير ولا يتدبل. فنرى النبي هـود عليه السلام يخاطب قومه قائلا: ﴿قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكـني رسـول مـن رب العـالمين ۞ أبلِّغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين﴾ (الأعراف: ٦٧-٦٨).

فمـا مـن شـيء قـد تغـير بالنسـبة للأنبيـاء أو لأقوامهـم... نفـس الاتهامـات ونفـس الأجوبة... هي هي نفسها مع تغير في بعض الكلمات وبعض الجمل.

وبعد أن ذكرنا الأنبياء ضمن هذه القاعدة العامـة لننقـل الحديـث إلى سيد الأنبيـاء ﷺ حيث يخاطبه الله قائلا له: ﴿يا أيها المدثر ۞ قم فأنذر ۞ وربك فكبر﴾ (المدثر: ١-٣)

﴿يا أيها المزمل ۞ قـم الليـل إلا قليـلاً ۞ نصفَـه أو انقُـصْ منـه قليـلاً ۞ أو زِدْ عليـه ورتِّلِ القرآنَ ترتيلاً﴾ (المزمل: ١-٤). أي يـا أيهـا المتدثر والمزمـل في ثيابـه، لقـد مضـى عهـد النوم... فقم لنجدة السـائرين في الظـلام. قـم وأنـذر هـذه الجماعـات الضالـة طريقهـا مـن

عاقبة السير في هذا الطريق المعوج، ومن عاقبة الانحراف والضلالة... ثم كبر ربك تكبيرة تهتز منها الأرض والسماء؛ لكي يسمع الجميع، الإنس منهم والجن كم هو كبير ربك.

يا أيها الخليل المتدثر في الليل بردائه... إن مهمة شاقة مثل مهمة النبوة في انتظارك... قم واعبد ربك... فأنت في حاجة إلى أن تشحن من قبل ربك، لأن بانتظارك وظائف كبيرة عليك أن تنجزها. فكل ما يذكر لك يجب أن تبلغه للناس، ولا يمكنك القيام بمثل هذه المهمة الصعبة إلاّ بمعونة من ربك، ولا تتم هذه إلا بالعبودية له.

لقد أعلن كل نبي كما فعل نبينا ﷺ أنه جاء للتبليغ دون أن ينتظر أجراً من أحد، ودون أن يتعلق قلبه بأي شيء أو يرتبط بأي شخص أو يمد عينيه لأي متاع أو يفقد نقاء بصره وصفاء بصيرته. لقد استمر في مد الإنسانية بالوحي الإلهي. ولولا قيامهم بتبليغ الرسالات النورانية لبقيت الإنسانية في ظلام بهيم ولما كان هناك فرق يذكر بينهم وبين الأنعام.

وقدر ابن آدم متداخل مع بعثات الأنبياء تداخلاً كبيراً، فلا تسأل أي أمة عن بعض أفعالها إن لم يبعث فيهم نبي. ولكن إن جاءها نبي وعاندت في التصديق به ولم يصيخوا سمعهم له فلا شك في كونهم محاسبين، فالقرآن الكريم يعلن البيان الإلهي ﴿وما كنا معذِّبين حتى نبعث رسولاً﴾ (الإسراء: ١٥).

وبيأن آخر: ﴿وما كان ربك مُهْلِكَ القُرَى حتى يَبعث في أُمِّها رسولاً يتلوا عليهم آياتنا وماكنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾ (القصص: ٥٩)

فالله تعالى أولا يرسل الأنبياء، فإن أصر الإنسان على الإنكار رغم قيام الأنبياء بأداء وظائفهم في التبليغ، عند ذلك يستحق هذا الإنسان العذاب من قبل الله تعالى.

وهذا وارد في كل دور وفي كل عهد. فإذا كان الله تعالى معذباً بعض الناس الحاليين فهذا مرتبط بمدى قيام المؤمنين –أو عدم قيامهم– بمهمة التبليغ على وجهها الأتم. فمن استمر في عناده وتمرده رغم وصول التبليغ إليه فإنه يكون مستحقاً للعذاب.

ولهذا السبب قام الأنبياء باستخدام كل أساليب وطرق الدعوة والتبليغ دون كلل ولا

ملل. فنوح عليه السلام يقول بلسان القرآن: ﴿قال رب إني دعوت قومي ليـلاً ونهـاراً ۞ فلَمْ يَزِدْهـم دعـائي إلا فِراراً ۞ وإني كلما دعوتُهـم لِتَغفر لهـم جَعلوا أصـابعهم في آذانهـم واستغشوْا ثيابهم وأصرُّوا واستكبروا استكباراً ۞ ثـم إني دعوتهـم جِهـاراً ۞ ثـم إني أعلنتُ لهم وأسررتُ لهم إسراراً ۞ فقلتُ استَغفِروا ربَّكم إنه كان غَفّاراً﴾ (نوح: ٥-١٠).

يقول النبي نوح عليه السلام: يا رب إنني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ودققت أبوابهم. فما زادتهم دعوتي لهـم إلا ابتعـاداً عـني وفـراراً مـني... تمـردوا فلـم يصيخـوا سمعهـم لي. وحتـى لا يسـمعوني اخـترعوا طرقـاً عديـدة... فتـارةً يسـدون آدانهـم، وتـارة يغطـون رؤوسـهم بملابسهم ويمرون وكأنهم لا يرونني.

التبليغ عند رسولنا ﷺ

أ- أسس مهمة في دعوته ﷺ

إن هناك أسسا مهمة في الدعوة والتبليغ، وقد ذكرنا بعضا منها، والآن نسترجع ذكر تلك الأسس باختصار لنستكمل ذكر الأسس الأخرى.

الأول: الفطنة في الدعوة والتبليغ، وتستطيع أن تسمي هذه الفطنة بـ"منطق النبوة".

الثاني: التمثيل الجيد للدعوة إذ يجب أن يعيش صاحب الدعوة دعوته في جميع مظاهر حياته، وقبل أن يدعو الآخرين إلى دعوته عليه أن يطبقها على نفسه ويعيش دعوته أولا.

الثالث: أن تكون النتيجة المبتغاة من الدعوة رضا الله تعالى وحده، فلا يجب أن تكون لدعوته غاية غير هذا ولو الجنة. وهذا يعني التضحية بجميع الفيوضات والمنافع المادية منها والمعنوية.

١- الفطنة الداخلية

هناك جانب الفطنة في دعوة رسول الله ﷺ. والفطنة هنا ليس مجرد منطق بارد. بل منطق يمتد من الظاهر إلى الباطن ومن الدنيا إلى الآخرة. فكما أن للإنسان جانب مطقي، فله كذلك جانب عاطفي، والذين يخاطبونه من جانبه العاطفي قد يفشلون عند وجود ثغرة في جانبه المنطقي. بينما كان الرسول ﷺ يخاطب الحواس والمنطق والحدس في آن واحد. فلا يهمل الأشياء المادية المرئية عند تناوله للإنسان، بل يجعلها ممراً للنفوذ إلى روحه. وهو يستعمل العقل ويدعو إلى استعماله ويهتم باستعمال المنطق والمحاكمات العقلية ويخاطب الضمائر عن طريقها. فكل من سمع صوته في وجدانه وصل إلى الحقيقة أسرع ممن يخاطب الوجدان وحده. فالفلاسفة من أمثال "باسكال (Pascal)" و"برغسون (Bergson)" وغيرهم من

الذين أرادوا الوصول إلى الله عن طريق الحدس (Intuition) مكانهم وراء التلاميذ الذين رباهم رسول الله ﷺ بمراحل بعيدة برغم أن هذا الميدان المفروض أنه ميدانهم. أما في ساحة الفضيلة والخُلق العام فلا يمكن أن نضعهم حتى بجانب أقل مؤمن.

وكما لا يمكن الوصول إلى الرسول محمد ﷺ في أي ساحة وفي أي ميدان، فإننا نرى هذا الأمر سارياً في موضوع الفطنة أيضاً. فقد غلب خصومه بثاقب بصره، وجعلهم يستسلمون له... فمثلاً نراه يرفع أصبعه مشيراً إلى الأصنام وقائلاً: ماذا تأملون من هذه الأحجار والأخشاب والتراب..؟ وبعد أن يخاطب عقل محدِّثه يأخذ بيده ليقربه إلى القلب أيضاً بطريقة خارقة غير اعتيادية وأحياناً بمعجزة، ثم يجعله يتقدم خطوة أخرى وينصبغ باطمئنان الإيمان ويذوق حلاوته حتى يصبح شخصاً آخر هَمُّه الحياة الأخرى.

لنأخذ مثلاً السيرة الروحية لعمر بن الخطاب ﷺ فقد قال له ﷺ إنه لا يعلم كيف أن شخصاً عاقلاً مثله يبقى بعيداً عن الهداية، ولا يعلم ماذا ينتظر من الأحجار والأوثان.

فهو أولاً يمدح عمر بهذه الأقوال، ثم إنه يقول كلاماً يحترم المنطق؛ وبذلك أخذ عمر في راحة يده، ثم نفذ إلى قلب عمر ﷺ بأسلوبه الهادئ الذي يبعث الأمن والطمأنينة والثقة، وفي المرحلة الثالثة استطاع بعبوديته العميقة أن يجعل عمر الذي كان جباراً في الجاهلية يجلس بين يديه جلسة تلميذ مؤدب أمام استاذه الكبير.

لنعط هنا مثالاً ملموساً قبل الانتقال إلى الأسس الأخرى:

جاء شاب إلى رسول الله ﷺ والصحابة لا يذكرون اسم هذا الشاب، ولكن إن قمنا بجمع الروايات وتوحيدها نعلم أنه جُليبيب ﷺ وقال له: ائْذَنْ لي يا رسول الله بالزنا. لننقل الرواية كاملة:

عن أبي أمامة قال: إن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ائْذَنْ لي بالزنا. فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه مه. فقال: «ادنه» فدنا منه قريباً قال فجلس:

قال: «أتحبه لأمك؟» قال: لا والله جعلني الله فداءك.

قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم» قال: «أفتحبه لابنتك؟»

قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك.

قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم.» قال: «أفتحبه لأختك؟»

قال: لا والله جعلني الله فداءك.

قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم» قال: «أفتحبه لعمتك؟»

قال: لا والله جعلني الله فداءك.

قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم» قال: «أفتحبه لخالتك؟»

قال: لا والله جعلني الله فداءك.

قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم»

قال: فوضع يده عليه وقال: «اللهم اغفرْ ذنبَه وطَهِّرْ قلبَه وحَصِّنْ فَرْجَه» فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلي شيء.[1]

لقد استطاع رسول الله ﷺ بهذا الحوار المنطقي مع الشاب أن يجعله بين راحتي يديه يوجهه الوجهة التي يريدها... ثم وضع يده على صدر هذا الشاب داعياً «اللهم اغفرْ ذنبَه وطَهِّرْ قلبَه وحَصِّنْ فَرْجَه.» فأصبح جُلَيبِيب بعد هذا الدعاء مثال العفة... ولم يرض أحد أن يروج جليبيبا ابنته، لأن حياته الماضية كانت معروفة لديهم. وهنا تدخل رسول الله ﷺ وزوج جُليبيباً.[2] ثم استشهد ﷺ في أول معركة اشترك فيها بعد زواجه... وعندما انتهت المعركة سأل رسول الله ﷺ.

«هل تفقدون من أحد؟» قالوا: نعم، فلاناً وفلاناً وفلاناً ثم قال «هل تفقدون من أحد؟» قالوا: نعم، فلاناً وفلاناً. ثم قال: «هل تفقدون من أحد؟.» قالوا: لا. قال «ولكني أفقد جُليبيباً. فاطلبوه» فطلب في القتلى. فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه. فأتى النبي ﷺ فوقف عليه فقال: «قتل سبعة، ثم قتلوه. هذا مني وأنا منه، هذا مني وأنا منه.»[3]

---

(١) «المسند» للإمام أحمد ٢٥٦/٥-٢٥٧

(٢) «المسند» للإمام أحمد ٤٢٢/٤

(٣) مسلم، فضائل الصحابة، ١٣١؛ «المسند» للإمام أحمد ١٣٦/٢، ٤٢٢/٤، ٤٢٥

نعم! لقد استطاع الرسول ﷺ بفطنته أن يخلص شابا على حافة الزنا من الآثام، ثم رفعه إلى مثل هذه المرتبة السامية في أقصر وقت ممكن. إن هذا لأمر تحتار له العقول!

هب لو أن علماء التربية وعلماء النفس جميعا اجتمعوا وذهبوا إلى شبه جزيرة العرب هل يستطيعون تحقيق التربية والخلق الرفيع الذي حققه رسول الله ﷺ في مثل هذا الزمن القصير..؟ كلا! لن يستطيعوا ذلك... إنهم لن يفشلوا فقط في تحقيق تلك التربية العالية والخلق الرفيع، بل لن يستطيعوا تحقيق مبدإ واحد أو مبدأين فقط من منظومة هذه التربية... وهذا هو ما يشير إليه الواقع العملي.

ولقد عاش رسول الله ﷺ في عهد فشت فيه الأخلاق الذميمة من كل نوع حتى أصبحت طبيعة في النفوس، ولم يكتف رسول الله ﷺ باقتلاع هذه الأخلاق السيئة من النفوس بل زينها بأحلى الأخلاق وأجمل الفضائل، فلم تشاهد البشرية مثل هذه الأخلاق قط ولن تشاهد بعدهم أبداً. والتاريخ الإسلامي شاهد صدق على هذا بما يحويه من آلاف الأمثلة، ولعل فشل الجهود المبذولة الآن لمكافحة بعض العادات السيئة يعد شاهدا آخر على ذلك. فعلى سبيل المثال تقوم الدول حالياً بتسخير كل أجهزتها لمكافحة عادة التدخين، ومن ثم نرى الوزارت تشمر عن سواعد الجد، ويقوم المئات من العلماء بعقد الندوات لهذا الغرض وتخرج المطابع سيلاً من الكتب في مضار التدخين وتعلق الدعايات والإعلانات والشعارات... الخ. ولكن ماذا كانت النتيجة..؟ لاشيء.

ولكن لنتأمل معا إلى الجماعة التي قام رسول الله ﷺ بتربيتها وكيف كانت أقواله تجد طريقها السريع في التطبيق العملي... وإليكم مثالاً واحداً.

يقول أنس رضي الله عنه: ...فإني لَقائم أسقي أبا طلحة وفلاناً وفلاناً إذ جاء رجل فقال: وهل بَلَغكم الخبر؟ فقالوا: وماذاك؟ قال حُرِّمت الخمر. قالوا: أَهرِقْ هذه القِلال يا أنس. قال: فما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر الرجل.[1]

---

(١) البخاري، المظالم، ٢١، تفسير سورة (٥) ١٠؛ مسلم، الأشربة، ٤؛ «المسند» للإمام أحمد ٢١٧/٣

نعم! لقد فعل كل هذا، والذين لا يرغبون أن يروا هذا نقول لهم ونحن نشير إلى شبه الجزيرة العربية: "إذا أردتم أن تفعلوا شيئا فاعملوا واحداً من المليون مما عمله رسول الله ﷺ هناك..." ولن يستطيعوا ذلك أبداً.

٢- تطبيق الدعوة على النفس أولاً

أحد الأساليب الديناميكية التي استعملها النبي ﷺ في دعوته، هو جعل طراز حياته مطابقاً تماماً للمقام الذي يمثله. وتمثيله الحق لِما كان يقوله ويدعو إليه كان صادقاً إلى درجة أن من يشاهده ويراه كان يؤمن بالله تعالى من غير حاجة إلى دليل آخر، حتى أن رؤيته مرة واحدة كانت كافية للإيمان بأنه رسول من عند الله.

يقول عبد الله بن رواحة:

لو لم تكن فيه آيات مبينة لكان منظره ينبئك بالخبر [(١)]

إن الذين آمنوا به ووهبوا قلوبهم له والذين خاطبوه بـ"يا رسول الله" كانوا هم الذين حكموا العالم وأداروه من بعده. فلم يكن نجاحه محصوراً في إيمان نفر قليل به، فمن بين هؤلاء الذين آمنوا به نجد أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً ﷺ أجمعين، إذ كان كل واحد منهم شخصية كبيرة تستطيع إدارة العالم بأجمعه؛ فما كان أي من هؤلاء من ذلك الطراز الذي يمكن أن يسلم قياده بسهولة لكل من يظهر أمامه؛ فلو كان أمامهم أحد سوى رسول الله ﷺ ما كان أي منهم ليؤمن به أو يسلس قياده. إن شخصا في مستوى علي بن أبي طالب ﷺ الذي يقول: "لو كُشف الغِطاء ما ازددتُ يقيناً."[(٢)] والذي وصل في إيمانه إلى مستوى "حق اليقين"، أقول إن إيمان مثل هذا الشخص بالنبي ﷺ يعد دليلاً قائماً بحد ذاته.

---

(١) «الرسول» لسعيد حوى ١٩/١؛ وانظر لرواية أخرى الى: «الإصابة» لابن حجر ٣٠٧/٢

(٢) «الأسرار المرفوعة» لعلي القاري ص١٩٣

لقد كانت كل أحواله مؤثرة وساحرة بلغت أن العالم اليهودي عبد الله بن سلام ما إن رآه للمرة الأولى حتى قال: "فلما تبيَّنْتُ وجهَه عرفتُ أنّ وجهه ليس بوجه كذاب."[1]

أجل، لقد كانت رؤيته كافية للإيمان به. والذين أفنوا حياتهم كلها من أجل إيصال صوتهم وآرائهم للآخرين يعلمون مدى صعوبة هذا الأمر أكثر من غيرهم، أي الإيمان بهم من أول لقاء. لأن معظم هؤلاء يقضون حياتهم كلها في جهد متواصل فلا ينجحون إلا في جذب أشخاص بعدد أصابع اليدين. بينما انظروا إلى رسول الله ﷺ، فهل ترون مثيلاً له أو شخصاً آخر يتربع في قلوب ما يقارب مليار شخص؟ وهل هناك شخص آخر غيره يذكر اسمه خمس مرات في اليوم من فوق المآذن في كل أنحاء العالم..؟ إذن، فالإنسانية تحبه وتعلن هذا الحب كل يوم خمس مرات، هذا على الرغم من كل النظم والأشخاص العاملين ضده.

أجل، فعلى الرغم من كل شيء فما يزال الرسول محمد ﷺ متربعاً على عرش القلوب؛ لأنه طبق على نفسه أولاً ما دعا الناس إليه، وعاش مثالاً حياً للمبادئ التي دعا إليها، لذا كانت كلماته تنفذ إلى أعماق الجماهير وتجد طريقها للتطبيق العملي.

لقد كان يمثل في نفسه أجمل أنموذج لعبودية الله عندما كان يدعو الناس إلى هذه العبودية. تروي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فتصف مبيت رسول الله ﷺ عندها فتقول:...ثم قال: «ذريني أتعبَّد لربي.» قالت فقلت: والله إني لأحب قربك وإني أحب أن تَعَبَّدَ لربك. فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي، فبكى حتى بل لحيته، ثم سجد فبكى حتى بل الأرض. ثم اضطجع على جنبه فبكى، حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح قالت: فقال: يا رسول الله ما يبكيك؟ وقد غفر الله لك ذنبك ما تقدم وما تأخر؟ فقال: «ويحك يا بلال! وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل علي في هذه الليلة ﴿إن

---

(1) الترمذي، القيامة، ٤٢؛ ابن ماجة، إقامة الصلاة، ١٧٤، الأطعمة، ١؛ الدارمي، الصلاة، ١٥٦، الاستئذان، ٤؛ «السيرة النبوية» لابن هشام ١٦٣/٢-١٦٤

في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾ (آل عمران: ١٩٠).» ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها.»[١]

كان يصلي حتى تتورم قدماه. وعندما ذكر له يوماً أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟.»[٢] لقد فتحت أمامه أبواب الشكر فكان جهده من أجل ذلك.

تقول أمنا عائشة رضي الله عنها: افتقدت النبي ﷺ ذات ليلة فظننت أنه ذهب إلى بعض نسائه فتحسست،[٣] ثم رجعت. فإذا هو راكع أو ساجد يقول «سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت» فقلت: بأبي أنت وأمي. إني لفي شأن[٤] وإنك لفي شأن آخر.

وفي رواية أخرى قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعتْ يدي على بطن قدميه وهو في المسجد[٥] وهما منصوبتان وهو يقول: «اللهم أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك. أنت كما أثنيت على نفسك.»[٦]

لو شاء لعاش عيشة رخية وهينة مثل عيشة الملوك. ولقد اقترح عليه في مكة مثل هذا العيش في مقابل التخلي عن دعوته، غير أنه فَضّل حياة الضنك والشدة على حياة الرفاهية والغِنى، وذلك في سبيل دعوته...[٧] فضل حياة العبد الرسول الذي يجوع فيتضرع أو

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير ١٦٤/٢؛ «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي ١٩٧/٤

(٢) البخاري، التهجد، ٦؛ مسلم، صفات المنافقين، ٨١

(٣) تحسست: أي تطلبته. (المترجم)

(٤) إني لفي شأن: تعني أمر الغيرة. (المترجم)

(٥) أي في السجود. (المترجم)

(٦) مسلم، الصلاة، ٢٢١، ٢٢٢؛ الترمذي، الدعوات، ٧٥، ١١٢؛ النسائي، الطهارة، ١١٩، التطبيق، ٤٧؛ أبو داود، الصلاة، ١٤٨، الوتر، ٥؛ ابن ماجة، إقامة الصلاة، ١١٧، الدعاء، ٣؛ «المسند» للإمام أحمد ٩٦/١، ١١٨

(٧) «السيرة النبوية» لابن هشام ٣١٣/١-٣١٤؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٨٠/٣

يشبع فيشكر على حياة المَلِك الرسول؛[1] لقد كان أسلوب حياته البسيطة الخشنة هو الذي ربط الناس به.

لقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعيش أيضاً حياة بسيطة جداً، غير أن ما شاهده من طراز حياة الرسول ﷺ جعل الدموع تملأ عينيه. يقول عمر رضي الله عنه:

...وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء وتحت رأسه وسادة من أدم حَشْوُها لِيفٌ وأنّ عند رجليه قَرَظاً[2] مصبوباً، وعند رأسه أَهَبٌ[3] معلقة فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت. فقال: «ما يبكيك؟» فقلت: يا رسول الله. إن كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت رسول الله. فقال: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟.»[4]

صحيح أن زمام الدنيا يجب أن يكون بأيدينا، وقد كان رسول الله ﷺ يدرك هذا أكثر من غيره. ولكنه كان يعيش حياته الشخصية بشكل بسيط جداً... وفي الحقيقة إنه ما كان يعيش لنفسه بل لغيره... ألم يكن تمثيله لدعوته بهذه الكيفية من أكبر عوامل جذب الأرواح إليه؟

إن في حياة الرسول ﷺ وسلوكه وتصرفاته وطراز حياته دروساً قيمة للدعاة... أجل، فإن الشرط الأساسي للنفوذ إلى القلوب هو تطبيق الدعوة ومبادئها على النفس أولاً وقبل كل شيء كما فعل ذلك رسول الله ﷺ.

إذا أردت أن تشرح لأحدهم معنى مخافة الله والبكاء من خشيته..؟ فعليك أولاً أن تقوم في الليل وتبلل سجادتك بالدموع... في نهار تلك الليلة وعندما تدعو الناس ستتعجب من مدى تأثير كلامك عليهم، وإلا ستتلقى صفعة من الآية الكريمة ﴿لِمَ

---

(١) «المسند» للإمام أحمد ٢٣١/٢؛ «مجمع الزوائد» للهيثمي ١٩/٩-٢٠

(٢) قَرَظاً: ورق شجر يدبغ به. (المترجم)

(٣) أَهَب: جمع إهاب وهو الجلد الذي لم يدبغ. (المترجم)

(٤) البخاري، تفسير سورة (٦٦) ٢؛ مسلم، الطلاق، ٣١

تقولون ما لا تفعلون﴾ (الصف: ٢) فتلاقيك الخيبة في التأثير على الناس.

٣- ﴿عدم انتظار الجزاء﴾

كان عدم انتظار أي جزاء دنيوي أو أخروي مقابل القيام بمهمة الدعوة والتبليغ كما فعل ذلك رسول الله ﷺ دليلاً آخر على نبوته. لأن هذا من أخلاق النبوة؛ والدعاة الحقيقيون الذين جاؤوا وسيجيؤون من بعده هم الذين يتخلقون بهذا الخلق، والقرآن الكريم يأمرنا باتباع أمثال هؤلاء الذين لا يسألون أجراً من أحد.[1]

لقد أنفقت ثروة السيدة خديجة ﵂ في سبيل الدعوة، ولم يطلب الرسول ﷺ من أحد لنفسه شيئاً. وهذا هو أبو بكر ﵁ من أقرب أصدقائه الذي كان يتهيأ لمرافقته في هجرته إلى المدينة، فأجر راحلة للنبي ﷺ... فأبى النبي ﷺ أن يركب تلك الراحلة حتى يدفع الثمن.[2] في تلكم الظروف القاسية: التي لا يفكر الإنسان فيها إلا في شيء واحد، هو مطاردة الأعداء له يفكر النبي ﷺ هكذا. ألا يدل ذلك على شدة تجرده وإخلاصه؟ إذ كيف يستطيع إنسان أن يفكر في مثل هذا الأمر الثانوي في ذلك الوقت العصيب. إن هذه الحادثة درس جيد لدعاة هذا العصر، ينبغي عليهم أن يعوها جيدا.

عن أبي هريرة ﵁ قال:

دخلت على النبي ﷺ وهو يصلي جالساً. فقلت: يا رسول الله أراك تصلي جالساً فما أصابك؟ قال: «الجوع يا أبا هريرة.» فبكيت فقال: «لا تبكِ، فإن شدة القيامة لا تصيب الجائع إذا احتسب.»[3] كان الجوع ضجيعه الذي لم يتركه أبداً. عن أبي هريرة ﵁:

---

(١) انظر هذه الآية: ﴿اتّبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون﴾ (يس: ٢١).

(٢) البخاري، البيوع، ٥٧، مناقب الأنصار، ٤٥، اللباس، ١٦؛ «المسند» للإمام أحمد ٦/١٩٨؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٣/٢١٨

(٣) «حلية الأولياء» لأبي نعيم ٧/١٠٩؛ «كنز العمال» للهندي ٧/١٩٩

خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر. فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟» قالا: الجوع. يا رسول الله. قال: «وأنا، والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما»[١] أجل، الجوع... لقد أنفق ثلاثتهم كل ما يملكون في سبيل الله ولم يبق عندهم ما يسدون به رمقهم، وعندما عضهم الجوع لم يستطيعوا النوم وخرجوا إلى طرق المدينة.

هذه هي السواعد القوية التي حملت عبء الدعوة والتبليغ آنذاك، والدعوة الآن تحتاج إلى مثل هذه السواعد القوية لحملها ونشرها بين الناس.

وهذه هي ابنته فاطمة رضي الله عنها التي قال عنها رسول الله ﷺ «فاطمة بَضْعَة مني فمن أغضبها أغضبني»[٢] والتي كانت تقوم بأعمال البيت من نقل الماء وطحن الحبوب إذ لم تكن لها خادمة تعينها على ذلك، حتى بدا الإرهاق عليها ووضح أثره في يديها وعلى كتفيها، وكان زوجها علي بن طالب رضي الله عنه يأسى لهذا الأمر غير أنه لم يكن يملك شيئا حياله؛ ودامت هذه الحال طويلا، غير أنها لم تشتك، ذلك لأنها كانت تحمل خلق والدها، كما كانت أشبه الناس بوالدها في قيامها وقعودها ومشيتها.[٣]

وعندما أصاب المسلمون في إحدى المعارك غنائم وأسرى، وجلبت هذه الغنائم والأسرى إلى المدينة ذهب كل من له حاجة إلى الرسول ﷺ فأعطاه ما تيسر له، فأشار علي رضي الله عنه على فاطمة أن تذهب وتسأل النبي ﷺ أن يعطيها خادماً يعينها... ولنستمع إلى الحادثة من علي رضي الله عنه وهو يروي أن فاطمة عليها السلام شكت ما تلقى من أثر الرحى، فأتى النبي ﷺ سبي، فانطلقت فلم تجده فوجدت عائشة فأخبرتها، فلما جاء النبي ﷺ أخبرته عائشة بمجيء فاطمة، فجاء النبي ﷺ إلينا وقد أخذنا مضاجعنا فذهبت لأقوم فقال: «على مكانكما.» فقعد بيننا حتى وجدت برد قدميه على صدري. وقال: «ألا أُعلِّمكما خيراً مما سألتماني،

---

(١) مسلم، الأشربة، ١٤٠؛ الترمذي، الزهد، ٣٩

(٢) البخاري، فضائل أصحاب النبي، ١٢، ١٦؛ مسلم، فضائل الصحابة، ٩٣-٩٤

(٣) البخاري، المناقب، ٢٥؛ مسلم، فضائل الصحابة، ٩٨-٩٩

إذا أخذتما مضاجعكما تُكبّران ثلاثاً وثلاثين -وفي رواية أربعاً وثلاثين- وتُسبّحان ثلاثاً وثلاثين وتَحمدان ثلاثاً وثلاثين، فهو خير لكما من خادم.»[(١)]

وها هو يرأى يوماً عند فاطمة ﷺ سلسلة من ذهب فقال لها:

«يا فاطمة! أيغُرُّكِ أن يقول الناس ابنة رسول الله وفي يدها سلسلة من نار»، فأرسلت فاطمة بالسلسلة إلى السوق فباعتها واشترت بثمنها غلاماً فأعتقته فحُدّث بذلك فقال: «الحمد لله الذي أنجى فاطمة من النار.»[(٢)]

ومما تجدر ملاحظته في هذا الأساس الثالث أن رسول الله ﷺ إضافة إلى عدم انتظاره أي جزاء أو منفعة من أحد فإنه كان يتحمل مظاهر العدوان والأذى والخصومة من الآخرين. فكم من مرة حثَوا على رأسه التراب فلم يسرع له سوى ابنته فاطمة؛ وكم من مرة دميت رجلاه من الأشواك التي كانوا يرمونها على طريقه... وفي إحدى المرات كان يصلي في الكعبة فتَجَمّع عليه بعض المشركين ووضع أحدهم رداءه في عنقه فخنقه به خنقاً شديداً، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه فقال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم.[(٣)]

ولم تثن هذه الأفعال رسول الله ﷺ عن دعوته، لذا نراه يقول لابنته زينب وهي تبكي من أذى المشركين لوالدها: «يا بنية! لا تخشيْ على أبيكِ غِيلةً ولا ذِلَّة...»[(٤)] ولم يضيعه الله ولم يذله، بل جعل حبه أبدياً في قلوب الملايين من أتباعه.

وقبل أن ننتقل إلى موضوع آخر نورد هنا كلمات حول الدعوة والتبليغ. لقد حاولنا حتى الآن أن نشرح أن الدعوة هي غاية وجود الأنبياء ووجود نبينا، فما خلقوا إلا للدعوة والتبليغ. أما نحن فعند قيامنا بهذه المهمة مهمة الدعوة والتبليغ فإننا نقوم بها

---

(١) البخاري، فضائل أصحاب النبي، ٩

(٢) النسائي، الزينة، ٣٩؛ «المسند» للإمام أحمد ٢٧٨/٥

(٣) البخاري، فضائل أصحاب النبي، ٥؛ «المسند» للإمام أحمد ٢٠٤/٢

(٤) «مجمع الزوائد» للهيثمي ٢١/٦

كوظيفة معينة ومهمة يجب تنفيذها ومسؤولية ينبغي أداؤها، ولكن الأنبياء يقومون بها لأنهم خلقوا لأجلها، فهي بذلك غاية لوجودهم.

كما أننا عندما قمنا بتحليل هذا الموضوع حاولنا بيان كيفية أن الرسالة التي جاء بها رسول الله ﷺ مكتوب عليها "محمد رسول الله". كما قمنا ببيان الطرق والأساليب التي اتبعها في تبليغ رسالته هذه، وكيف أن هذه الأساليب دليل قائم بذاته حول نبوته ورسالته، وأشرنا إلى الطرق السليمة التي لا يتيه ولا يضل فيها الدعاة. فنحن على يقين تام بأنه إذا أريد النجاح الدائم الباقي فليس أمامنا إلا اتباع الطرق والأساليب التي اتبعها النبي ﷺ، وقد أثبتت آلاف من الحوادث استحالة النجاح والتوفيق بالطرق الأخرى. لذا، فإننا نذكر مرة أخرى بأن على الدعاة الذين يريدون أن يكونوا هداة ومرشدين للناس أن يتبعوا الرسول محمد ﷺ. فهو المرشد الحقيقي. والطريق الذي خطه هو طريق الهداية الرشيدة، ذلك لأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

ب- كان ﷺ مفطوراً على التبليغ

لقد كان التبليغ لدى سيد المرسلين فطرة وسجية. كانت نفسه تضيق عندما لا يجد قلباً طاهراً يبلّغه دعوته، مثلما نضيق نحن إن حُرِمْنا من الأكل والشرب أو عندما نحرم من تنفس الهواء. والحقيقة أنه ما كان يهتم بالأكل والشرب فقد كان يصوم أحياناً صوماً متواصلاً.[1] وكان يأكل أحياناً ما يكفي لسد رمقه فقط وإبقائه حيا.[2] فقد كان قلبه المفعم بآلام دعوته لم يدع لديه شهية للأكل. فكما تعيش الملائكة بالتسبيح كان رسولنا ﷺ يعيش بالدعوة. وعندما يجد أمامه صدراً رحباً وطاهراً فرح ونشط. والقرآن الكريم يصف وضعه هذا فيقول: ﴿لعلك باخع نفسك ألاّ يكونوا مؤمنين﴾ (الشعراء: ٣). وفي آية

---

(١) البخاري، الصوم، ٢٠؛ مسلم، الصيام، ٥٦

(٢) البخاري، الأطعمة، ٢٣، الرقاق، ١٧؛ مسلم، زهد، ٢٠، ٢٦

أخرى يقول القرآن الكريم: ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إنْ لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾ (الكهف: ٦).

أجل، فلو رأى إنساناً متمرداً على الله لا يسجد له، لتغلغل الألم في أعماق نفسه، وكان هذا الإنسان مبعث حزن عميق له. فكل إنسان خلا قلبُه من الإيمان كان مصدر حزن غاصف في قلبه... وقد كان هذا مستقراً في أعماق روحه، وعندما بعث نبياً ازداد عمقا.

ومع التسليم بكل أوامر الدين وتعليماته وسننه، نسمع هذا الحواب المليء بالمعاني من أحد تلاميذ هذا النبي ممن حمّلوا آلام وآمال الأمة الإسلامية في هذا العصر،[1] إذ قال لمن سأله عن سبب عدم زواجه:

"إنني من كثرة تفكيري وانشغالي بآلام ومشاكل الأمة الإسلامية لم أجد متسعاً من الوقت ولا فرصة للتفكير في الزواج." أجل، فهذا هو حال الأنبياء وورثة الأنبياء. وأنا أعتقد أن العالم بأسره ينتظر مثل هؤلاء الأشخاص الملتهبة قلوبهم بآلام الدعوة ومشاكلها.

وما دمنا وصلنا إلى هنا في هذا الموضوع، فإني أود ذكر مثال طالما كررته، لأن هذا المثال يكسب موضوعنا بُعدا آخر؛ فقد سكن أحد أصدقائنا الأطهار في إحدى الشقق في ألمانيا، واستطاع بروحه الطاهرة وبسلوكه النظيف –وبعون من الله تعالى– التأثير في نفوس أصحاب البيت وأصبح وسيلة لهدايتهم، فأسلم الأب أولاً ثم تبعته الزوجة ثم الأولاد وأصبح ذلك البيت قطعة من الجنة بالجو الذي أصبح سائداً فيه... وفي أحد الأيام بينما كان صاحب البيت جالساً مع هذا الصديق يتسامران إذ قال له صاحب البيت الذي بدأت أحاسيس الهداية ومشاعرها تهبّ على قلبه فتملأه سعادة:

"يا صديقي..! إنني أحبك... أحبك إلى درجة أتمنى معها أن أفتح قلبي وأضعك فيه، ذلك لأنك كنت وسيلة لهدايتي، وأكسبتني أنا وعائلتي حياة أبدية... ولكني غاضب منك في الوقت نفسه غضباً شديداً إلى درجة أنني أود لو أقوم فأضربك ضرباً مبرحا، وقد تسأل:

(١) المقصود هو الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي منشئ حركة طلاب النور في تركيا. (المترجم)

لماذا؟ سأشرح لك الأمر... فقبْل مجيئك بوقت قصير توفي والدي، مع أنه كان لائقاً لأن يكون مسلماً أكثر منا... كان يملك روحاً صافيةً وعاش حياة نظيفة، فلو أتيت إلى هنا قبل وفاته لكنت وسيلة لهدايته، لذا فإنني غاضب منك غضباً شديداً لتأخرك في المجيء."

إن هذا العتاب يبدو مثل أنين من أوروبا... بل من الدنيا كلها... وأنا أخشى جداً من أن أجر من ناصيتي وأحاسب على هذا... ذلك لأنني لم أستطع تبليغ رسالة الإسلام لهم بالمستوى اللائق.

ج- الحرص في تبليغ الدعوة

كان الرسول ﷺ حريصاً أشد الحرص في دعوته، إذ كان لا يريد أن يبقى هناك شخص واحد لم تصل إليه دعوة الحق والحقيقة، لذا كان يتهالك في تبليغ الناس وفي دعوتهم بالأسلوب الصحيح والمناسب؛ فانظروا مثلاً إليه وهو واقف على رأس عمه أبي طالب وهو على فراش الموت يعيش دقائقه الأخيرة.

لقد قام أبو طالب برعاية وحماية رسول الله ﷺ مدة تقارب أربعين عاماً. وعندما قام النبي ﷺ بإعلان نبوته وجد مشركو مكة أبا طالب سداً بينهم وبينه لا يمكن اختراقه؛ وما كانوا يستطيعون الوصول إلى الرسول ﷺ إلا على جثة أبي طالب.

لقد رضي أبو طالب أن يتجرع كل الآلام ويتحمل جميع المصاعب والشدائد في سبيل حماية رسول الله ﷺ، وعلى رغم فقره وعمره المتقدم إلا أنه قد اضطر لتحمل مشاق الحصار والمقاطعة التي أعلنها مشركو قريش والتي استمرت ثلاث سنوات.

والآن أبو طالب متمدد على فراش الموت ورسول الله ﷺ واقف على رأسه يقول له كلما سنحت الفرصة: «أي عم! قل لا إله إلا الله، كلمة أُحاجُّ لك بها عند الله» غير أن أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية حالوا دون هداية وخلاص أبي طالب، وقالا له: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ ولم يزالا يكلماه حتى قال آخِر ما كلّمهم به: على ملة عبد

المطلب... فقال رسول الله ﷺ: «لأستغفرَنَّ لك مالم أُنْهَ عنك.»[١] فنزلت آية منعته من الاستغفار له حيث ذكرت: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾ (التوبة: ١١٣).

لقد كان أبو بكر ﷺ أكثر الناس معرفة بمدى رغبة الرسول ﷺ في هداية أبي طالب. فبعد فتح مكة جاء بوالده الشيخ أبي قُحافة إلى رسول الله ﷺ ليصافحه معلناً إسلامه، يقول ابن عباس ﷺ:

جاء أبو بكر بأبي قُحافة وهو شيخ قد عمي فقال رسول ﷺ: «ألاَ تركتَ الشيخَ حتى آتيه.» قال: "أردتُ أن يأجره الله، والذي بعثك بالحق لأنا كنتُ أشدَّ فرحاً بإسلام أبي طالب مني بإسلام أبي ألتمس بذلك قرة عينك."[٢]

وكما كان الرسول ﷺ يرغب في هداية عمه أبي طالب، فإنه كان يرغب أيضاً في هداية "الوحشي" قاتل عمه حمزة ﷺ. والتاريخ حفظ لنا قصة هذا الموضوع.

١ - دعوة وحشي

عن ابن عباس بعث رسول الله ﷺ إلى وحشي بن حرب قاتل حمزة يدعوه إلى الإسلام. فأرسل إليه: "يا محمد! كيف تدعوني وأنت تزعم أن من قتل أو أشرك أو زني يلق أثاما، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا. وأنا صنعت ذلك فهل تجد لي من رخصة." فأنزل الله عزّوجلّ: ﴿إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدِّل الله سيئآتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً﴾ (الفرقان: ٧٠). فقال وحشي يا محمد هذا شرط شديد إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فلعلِّي لا أقدر على هذا. فأنزل الله عزّوجلّ ﴿إن الله لا يغفر أن يُشرَك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ (النساء: ٤٨). فقال

---

(١) البخاري، الجنائز، ٨٠؛ مسلم، الإيمان، ٢٤؛ النسائي، الجنائز، ١٠٢؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ١٥٣/٣

(٢) «الإصابة» لابن حجر ١١٦/٤؛ «المسند» للإمام أحمد ١٦٠/٣؛ «السيرة النبوية» لابن هشام ٤٨/٤

وحشي: يا محمد، هذا أرى بعد مشيئة، فلا أدري يغفر لي أم لا، فهل غير هذا. فأنزل الله عز وجل ﴿قل يا عباديَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾ (الزمر: ٥٣). قال وحشي: هذا نعم فأسلم.[1]

وأصبح ضمن الصحابة الكرام الذين ما نذكر اسم أحدهم إلا ونكتب بعده رضي الله عنه. غير أنه كان قاتل حمزة رضي الله عنه، ولم يكن في مقدوره ولا في مقدور أحد غيره أن ينسى هذا. صحيح أنه لن يحاسب على هذا يوم القيامة، ذلك لأنه عندما ارتكب تلك الجريمة لم يكن مسلماً والإسلام يجُبُّ ما قبله، فذنوبه السابقة مغفورة له...[2] ومن ثم فقد كان محظوظاً من تلك الناحية... إلا أنه مع كل هذا كان قاتل حمزة رضي الله عنه.

حمزة الذي كان بمثابة بطل خرافي يصيد الأسود ويبقر بطونها استسلم للنبي ﷺ وأعلن إسلامه، ولأنه رضع من نفس الثدي الذي رضع منه رسول الله ﷺ، فقد احتلّ مرتبة أخ له من الرضاعة[3] وقد كان المسلمون يعيشون في خوف قبل إسلامه، فلما أسلم رنت جنبات جزيرة العرب بصوت المسلمين ودعوتهم... هذا هو حمزة الذي قتله الوحشي في عهد جاهليته، إذ رماه في معركة أُحد برمح فأصابه في صدره، فوقع على الأرض وهو يرسم بجسده حرف "لا..." فمنذ إسلامه وهو يقول "لا" لكل شي ما عدا الله تعالى. بعد قليل شاهده رسول الله ﷺ وأحشاؤه مقطعة، فجلس عند رأسه وأجهش بالبكاء... بكى وذرف الدموع عليه... وها هو وحشي يمد يده الملطخة بدماء حمزة رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ ويبايعه، ولتنظروا إلى مفهوم التبليغ والدعوة عند الرسول ﷺ فهو الآن يمسك بيد الوحشي ويهنئه لإسلامه... بل هو الذي دعاه للإسلام.

وبعد إسلام وحشي وإيمانه قال رسول الله ﷺ «فهل تستطيع أن تغيّب وجهك عني»

---

(١) «مجمع الزوائد» للهيثمي ٧/-١٠١

(٢) انظر الحديث: «إن الإسلام يَجُبّ ما كان قبله.» («المسند» للإمام أحمد ١٩٩/٤)

(٣) «الإصابة» لابن حجر ٣٥٣/١؛ «أسد الغابة» لابن الأثير ٥١/٢

ذلك لأنه كلما رآه تذكر حمـزة وتجـددت آلامـه فـلا يستطيع أن يُظهِر لـه الرحمـة الواجبـة على النبي إظهارها لأصحابه فيكون نكد الحظ ويكون النبي ﷺ غير قائم بواجبه.

ومثل أي صحابي آخر انقاد الوحشي لتوصية الرسول ﷺ وأمره ولم يخالفه فحـاول ألا يظهر أمامه وأن يكون بعيداً عنه، ولكنه في الوقت نفسه كـان ينتظر كـل دقيقـة بـل كـل ثانية دعوة ثانية من رسول الله ﷺ... كان يقف وراء سارية وينظر إلى النبي ﷺ ويحـاول أن يتصيد نظراته... ألن يأتي يوم يقول فيه لي: "آن لك أن تظهر أمامي."

وبينما كان ينتظر هذا اليوم السعيد فوجئ بالخبر المذهـل... لقـد تـوفي رسـول الله ﷺ وفارقنا... كان خبراً صاعقاً له... إذن، فلم يبق هناك أمل أن يدعوه أحد.

مضت أيام وحشي بعد ذلك في التكفير عـن خطاياه السـابقة، إلى أن اشتعلت حـرب اليمامة فأسرع الوحشي والتحق بجيش خـالد بـن الوليـد الـذي أرسـل إلى اليمامـة، كـانت هذه فرصة له يجب ألا يضيعها. فقد سبق له وأن تورط في إثـم قتـل أحـد أبطـال الإسـلام الكبار ومع أن ذنبـه قـد غفـر لـه، إلا أن ضـمير الوحـشي كـان يضطـرم بنـار ذلـك الإثـم، والآن سنحت أمامه فرصة كبيرة وهي قتل مسليمة الكـذّاب أعـدى أعـداء الإسـلام. أخـذ وحشي معـه ذلـك الرمـح الصـديء الـذي قـد قتـل بـه حمـزة ﷺ واشـترك بـه في معركـة اليمامة... استمرت الحرب عدة أيام... وكانت حرباً ضروساً.

وعندمـا بـدت أمـارات الهزيمـة حـاول مسـليمة الكـذاب الخـروج والهـروب مـن القلعـة فلمحه أحد الحراس من الصحابة الكرام فصاح بالوحشي: ها هو عدو الله.

وما إن سمع الوحشي هذا حتي هز رمحه الصديء وأرسله إلى صدر مسيلمة الكـذاب -كما كان أرسله من قبل إلى صدر حمزة ﷺ- فاخترق الرمح صـدر مسـليمة فهـوى إلى الأرض من فوق فرسه... ما إن رأى الوحشي هذا حتى انكب على الأرض يسجد شكراً لله...[1] وانهمـرت الدمـوع مـن عينيـه، لقدكـان وكأنـه يخـاطب روح رسـول الله ﷺ

(١) البخاري، المغازي، ٢٣؛ «المسند» للإمام أحمد ٥٠١/٣؛ «السيرة النبوية» لابن هشام ٧٦/٣-٧٧

ويقول له: أأستطيع أن آتي الآن يا رسول الله..؟

نحن لا نعلم ماذا أجابه رسول الله... ولكن من المحتمل أن روحانية الرسول ﷺ التي حضرت إلى معركة اليمامة قد رقت لدعاء وحشي وانكساره وباركته لرجولته وشجاعته وقالت له: "تستطيع من الآن فصاعداً أن تظهر لي" هذا ما لا نعرفه، لأنها قضية بُعد آخر، ولكن غايتنا من سرد هذه الحادثة هي شرح ماهية الدعوة والتبليغ عند رسول الله ﷺ.

أجل، فنحن نرى هنا شفقته ورحمته لقاتل بطل كبير وحبيب أثير لديه مثل عمه حمزة الذي كان يجله مثل والده ويحبه مثل أخيه. ولكي يدعو وحشي إلى الإسلام جرب طرقاً عديدة، واستطاع أن يجعل من مثل هذا الشخص صحابياً، فلو لم تكن الدعوة والتبليغ جارية منه مجرى الدم وموجودة في فطرته، وقطعة من روحه أفكان من الممكن مشاهدة مثل هذا الإصرار في دعوة شخص مثل وحشي للإسلام؟ كلا... ولكن إصراره وتهالكه يدلان على أن الدعوة والتبليغ عند النبي صفة من صفاته، لذا فلم يكن من الممكن أن يسلك إلا هذا الدرب.

٢- دعوة عكرمة

كانت عداوة عكرمة للإسلام أكثر من عداوة الوحشي. إذ كان عدواً للإسلام نفسه، أي كانت عداوته عن سابق إرادة وتصميم. والبيت الذي نشأ فيه عكرمة كان بيت عداء للإسلام؛ وأفراده كلهم فطروا على عداوة الإسلام؛ فرب البيت كان أبو جهل، وقد سرى جهله إلى سائر أفراد البيت فأصبح مباءة للجهل وللظلام المعنوي، فمن أسلم من أفراده تعرض لأذى لا يوصف.

كان عكرمة في عدائه للإسلام وكأنه يتسابق مع والده، فما من أمر اشترك فيه والده ضد الإسلام إلا واشترك فيه عكرمة فقد أعماه الكفر والضلالة. ومع أن المسلمين فتحوا مكة وأسلم أهلها، إلا أن عكرمة بقي معانداً في خصومته للإسلام وقاتل المسلمين بسيفه، ثم هرب إلى اليمن.

وكانت أم حكيم بنت الحارث بن هشام زوجتُه وبنتُ عمه امرأةً عاقلةً وكانت قد أسلمت، فذهبت إلى اليمن بدافع الوفاء لزوجها وأقنعته بالرجوع إلى بلده. ولكن عكرمة كان يستحي من مقابلة الرسول ﷺ، ذلك لأنه لم يدع خصومة إلا أبداها له، ولم يدع أذى إلا عمله، فإن كان المطلوب نثر الأشواك في طريقه كان هو في رأس القائمين بذلك، وإن كان المطلوب نثر التراب على رأسه ﷺ كان هو في مقدمة الناثرين. غير أن رسول الله ﷺ كما كان حريصاً على إسلام الوحشي كان حريصاً على إسلام عكرمة. وعندما دخل عليه عكرمة رحب به النبي ﷺ قائلاً له: «مرحباً بالراكب المهاجر، مرحباً بالراكب المهاجر مرحباً بالراكب المهاجر.» صحيح أن الهجرة انتهت بالمعنى الإسلامي بفتح مكة، إلا أن النبي ﷺ قال هذا إشارة إلى قدومه من بلد بعيد. كان هذا الترحيب كافياً لإذابة جليد العداوة في قلب عكرمة. وبعد أن نطق بالشهادتين قال للنبي ﷺ وهو مطأطأ الرأس حياء: "يا رسول الله! استغفر لي كل عداوة عاديتكها أو موكب أوضعت فيه أريد فيه إظهار الشرك."

فرفع رسول الله ﷺ يديه بالدعاء: «اللهم اغفر لعكرمة كل عداوة عادانيها أو موكب أوضع فيه يريد أن يَصُدّ عن سبيلك.» فما أن سمع عكرمة هذا الدعاء حتى استولى عليه انفعال شديد... إذ ما كان يتوقع مثل هذا الاستقبال وهذا الترحيب فقال للنبي ﷺ وهو في أوج الانفعال:

"أما والله يا رسول الله لا أدع نفقة كنت أنفقتها في الصد عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قاتلت قتالاً في الصد عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل الله."

وبَرَّ عكرمة بوعده، وفي معركة اليرموك جاد بنفسه واستشهد فيها. اشترك عكرمة في معركة اليرموك مصاحباً معه زوجته وأطفاله وعندما جرح جرحاً بليغاً حملوه إلى خيمة. فبدأت زوجته وأطفاله يبكون فقال عكرمة لزوجته: "لا تبك! لن أموت قبل أن أرى النصر" كان هذا كرامة له... بعد قليل دخل الخيمة عمه الحارث بن هشام قائلاً: "أبشروا! لقد نصرَنا الله تعالى" فحمد عكرمة الله تعالى وقال قبل أن يجود بنفسه:

﴿توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾ (يوسف: ١٠١).[١]

أجل، لقد كان رسول الله ﷺ حريصاً على هداية الناس، فقد كان يمثل في الدعوة وفي التبليغ قمة لا يمكن بلوغها. إذ مد يده للآلاف ولمئات الآلاف ليقودهم إلى عالم النور والهداية، ولكنه لم يكن يعرف الاكتفاء، لذا نراه يمد يد الشفقة والرحمة حتى لألدّ أعدائه فيبرهن بذلك كيف أن صفة الدعوة والتبليغ لدى الأنبياء قمة سامقة وذروة شاهقة لا يمكن بلوغها.

د- هـمّ الـدعـوة يـؤرِّقـه

ما عرفت عينا النبي ﷺ النوم المريح منذ إعلان نبوته، لأنه كان يشارك الإنسانية كلها آلامها ويشاطرها أحزانها، وهذا لا يصح إسناده إلا للنبي ﷺ الذي أنفق حياته كلها في الدعوة والتبليغ.

لقد كان يذهب في السنوات الأولى من مرحلة الدعوة في مكة من سوق إلى سوق ومن حارة إلى حارة، ليدعو الناس في الأسواق إلى الدين الحق ويتعرض في هذا السبيل إلى صنوف الأذى، فقد يقذف بالحجارة أو يهال التراب على رأسه... وما كان يعبأ بذلك، بل كان يمضي قُدُماً في سبيل دعوته؛ وبينما كانت الملائكة تستحي من النظر إلى وجهه المبارك، كان مشركو مكة الغلاظ يبصقون عليه. وبينما كانت الغيوم تحجب عن وجهه حرارة الشمس أحياناً كان الكفار يقابلونه بأحطّ أنواع التحقير والإهانة.

فها هو عندما نزلت آية ﴿وأَنْذِرْ عشيرتَكَ الأقربين﴾ (الشعراء: ٢١٤) يجمع جميع أقربائه من أفخاذ وبطون القبائل ويقول لهم: «أرأيتم إنْ أخبرتكم أنّ خَيْلاً تَخرج من سَفْح هذا الجبل، أكنتم مصدِّقيّ؟» قالو ما جرّبنا عليك كذبا، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.»

(١) «أسد الغابة» لابن الأثير ٤/٧٠-٧٣؛ «الإصابة» لابن حجر ٢/٤٩٦، ٤٩٧

وعندما قال لهم هذا خيم الصمت على الجميع وبدوا وكأنهم قطع من حجارة، ولم يجيبوه بكلمة واحدة فانبرى أبو لهب يقول -ويا ليته ما تكلم- للنبي ﷺ: تباً لك! ما جمعتنا إلا لهذا؟..[١] وانتهى الموقف على هذا وانصرف الجميع.

وقد أنفقت السيدة خديجة ﵂ معظم ثروتها في المآدب التي كان النبي ﷺ يصنعها ويدعو لها أشراف مكة لكي تتيسر له فرصة تبليغهم ودعوتهم إلى دين الحق... ولكنها لم تأت بنتيجة...

يصف علي بن أبي طالب ﵁ مجلساً من هذه المجالس فيقول ما معناه: دعا رسول الله ﷺ أشراف مكة إلى بيته فاكلوا الطعام. ثم بدأ رسول الله ﷺ بالحديث فقال إنه رسول الله، وإنهم أقرب الناس إليه لذا، يجب أن يكونوا عوناً له. وفي ختام كلامه قال:

«فأيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي؟» قال: فلم يقم إليه أحد قال: فقمت إليه، وكنت أصغر القوم، قال: فقال: «أجلسْ»، قال: ثلاث مرّات، كل ذلك أقوم إليه فيقول لي: «أجلسْ» حتى كان الثالثة ضرب بيده على يدي.[٢]

وهكذا مرت الأعوام ورسول الله ﷺ لا يعرف الكلل ولا الملل بل يستمر في دعوته وفي تبليغه، ولم يعره أقرباؤه أذناً صاغية أبداً. فبدأ بالبحث عمن يستجيب له من الناس البعداء عنه... غير أن العثور على أناس ذوي قلوب حية ليس بالشيء الهين. فقد رجموه بالحجارة في الطائف.[٣] وطرد من أكثر الخيام التي زارها في الأسواق المقامة.[٤] ولكن إصراره في الدعوة كان يجذبه إلى عالم المفاجآت. فقد ساقه القدر إلى العَقَبة حيث التقى ببعض الأشخاص الطاهرين. في هذه العقبة الأولى تعرف على اثني عشر نفراً، وزاد عدد هؤلاء في العقبة الثانية في السنة الثانية إلى بضع وسبعين نفراً. فأبلغهم رسول الله ﷺ بعض

---

(١) البخاري، تفسير سورة (١١١) ١؛ مسلم، الإيمان، ٣٥٥

(٢) «المسند» للإمام أحمد ١٥٩/١

(٣) «السيرة النبوية» لابن هشام ٦٠/٢

(٤) «السيرة النبوية» لابن هشام ٦٣/٢

الأمور، فإن كانوا مؤمنين به فعليهم الإيمان به ضمن هذه الشروط. وقبل هؤلاء كل ما قاله رسول الله ﷺ دون أي تردد. وهنا طلب العباس ﷺ منهم أن يفكروا ملياً قبل إعطاء القرار، إذ شرح لهم أن قبولهم هذا يعني أنهم سيقفون أمام العرب أجمع، فلم ينكص أحد على عقبيه، وبايعوا النبي ﷺ على أن يفدوه بأرواحهم، فأرسل معهم النبي ﷺ مصعب بن عمير ليعلمهم دينهم.(١)

كان مصعب ﷺ الابنَ الوحيد لأغنى عائلة في مكة، وكان في السابعة عشر من عمره عندما أسلم... كان هذا الفتى من قبل إذا مر من أزقة مكة لوحت له الفتيات بمناديلهن من النوافذ، فقد كان أنيق الملبس.(٢) ولكنه ما إن دخل الإسلام حتى نبذته عائلته، وعندما ذهب إلي المدينة لم يكن يملك سوى ملابسه، وعاش هناك فقيراً، حتى أنه عند استشهاده في معركة أُحد –وقد تقطعت أوصاله– لم يجدوا ما يكفنونه به ﷺ.(٣)

ما إن وصل هذا التلميذ الجليل –تلميذ رسول الله ﷺ– إلى المدنية حتى شرع في الدعوة والتبليغ، فلم يبق في المدينة باب لم يطرقه... وكان إخلاصه للدعوة وتفانيه في سبيلها يجعل كلامه يدخل إلى القلوب ويأسر الأرواح. فيسرع مستمعه للدخول إلى الإسلام ونبذ الكفر... لقد أحدث مجيئه إلى يثرب موجة شديدة وهزة عنيفة، فكأنه كان نبع نور صاف يتسرب إلى القلوب فيملكها.

أسكنه أسعد بن زُرَارَة ﷺ في بيته، ومع أن صلاة الجمعة لم نكن قد فرضت بعد، ولم يشرف النبي ﷺ يثرب بمجيئه بعد، إلا أن أسعد بن زُرَارَة ﷺ كان يجمع المؤمنين ويصلي بهم صلاة الجمعة.(٤)

ولم يبق في يثرب رجل ذو شأن إلا أتى إلى بيته واستمع إلى مصعب ﷺ. لقد كان

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٧٣/٢

(٢) «رجال حول الرسول» لخالد محمد خالد ص٣٩

(٣) البخاري، الجنائز، ٢٨

(٤) «السيرة النبوية» لابن هشام ٧٧/٢

بعضهم يأتي وهو محنق، ولكنه يغادر البيت وهو قرير النفس... كان سعد بن معاذ من بين هؤلاء، فقد أقسم مغضباً أنه لن يسمح لأحد بإحداث الفتنة في يثرب بعدما حُدّث أن مصعباً يريد إحداث فتنة فيها، لذا شعر بأن عليه أن يقف في وجه هذه الفتنة ويخمدها. ودخل سعد إلى بيت مصعب ﷺ فرآه وهو يحدث بصوته العذب الرخيم... لم يملك نفسه سعد فقال كلاماً خشناً لمصعب ﷺ، فقال له مصعب ﷺ:

"أوَ تقعد فتسمع، فإن رضيت أمراً ورغبتَ فيه قبلتَه، وإن كرهتَه عزَلْنا عنك ما تكره."

فجلس سعد وقد سكن غضبه وبدأ يستمع إليه، وأحس بأنه ينتقل إلى عالم آخر لم يعهده من قبل... عالم ترفرف فيه أجنحة الملائكة... ولم يطل به الأمر فقد أسرع بنطق الشهادتين من أعماق قلبه ودخل في صفوف المسلمين.(١)

وكما هز إسلام عمر بن الخطاب ﷺ مكة، كذلك هز إسلام سعد بن معاذ يثرب، فقد انتشر هذا الخبر المذهل فيها وفي القبائل المجاورة لها.

وهكذا فكما كان رسول الله ﷺ مشغولاً بنشر الدعوة، كان أصحابه المخلصون الصادقون يبذلون ما في طاقتهم لنشر الإسلام والحق في أحسن شكل وأجمل صورة... كان العالم كله في انتظار هؤلاء ليرفعوا المشاعل التي تضيء أرجاءه، ولم يكن إرسال مصعب إلى يثرب وطلحة إلى دومة الجندل والبراء وخالد –بعد سنوات– إلى اليمن إلا ثمرة الرغبة نفسها... رغبة تبليغ الدعوة ونشرها في العالم.

وإذا لم يوفق أحد هؤلاء الصحابة في دعوته في مكانه الذي أرسل إليه، كان رسول الله ﷺ يقوم بإرسال غيره ليحل محله، وكان هذا التغيير يأتي دائماً بنتائج إيجابية. فمثلاً عندما أرسل خالد بن الوليد إلى اليمن لم يوفق خالد هناك توفيقاً يذكر، فأرسل علي بن أبي طالب ﷺ إلى هناك ونقل خالد بن الوليد ﷺ إلى "نَجْران" حيث يوجد فيها النصارى.

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٧٩/٢

يخبرنا البراء بن عازب عن هذه الحادثة فيقول:

إن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوه، ثم إن رسول الله ﷺ بعث علي بن أبي طالب إلى أن يقول: ...فكنت فيمن عقب مع علي فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا ثم تقدم فصلى بنا علي ثم صفّنا صفاً واحداً ثم تقدم بين أيدينا قرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ فأسلمت همدان جميعا.(١)

أجل، لقد وفق علي بن أبي طالب ﷺ في اليمن، ذلك لكونه يملك تاريخاً طويلاً مع رسول الله ﷺ ولأنه والد الحسن والحسين ﷺ ورئيس السلسلة الذهبية لجميع الأقطاب والمقربين والأولياء والأصفياء الذين سيظهرون حتى يوم القيامة. ولايزال الحق والحقيقة حتى اليوم تحت أجنحة حمايتهم. فتح علي ﷺ.قلوب أهل اليمن بكلماته التي كانت تذيب القلوب، وعندما تم فتح مكة جاء هؤلاء والتحقوا بالإسلام.(٢)

هـ- الرسائل إلى رؤساء الدول

بينما كان رسول الله ﷺ يرسل أهل الكفاءات والقابليات إلى هنا وهناك للقيام بوظيفة إرشاد الناس إلى الإسلام كان يقوم بإرسال الرسائل إلى رؤساء وملوك الدول يدعوهم فيها إلى الإسلام، الذي هو الدين الحق... وكان هذا بُعدا آخر في مضمار الدعوة والتبليغ.

١- النجاشي

كان النجاشي حاكم الحبشة... لم يكن صحابياً لأنه لم ير الرسول ﷺ، ولكنه كان شخصاً كبير القدر، أرسل إليه رسول الله ﷺ رسالة بيد عمرو بن أمية جاء فيها:

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير ١٢١/٥

(٢) «البداية والنهاية» لابن كثير ١٢٠/٥

«من محمد رسول الله إلى النجاشي أصْحَمَة ملك الحبشة:

سلام عليك فإني أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة الطيبة الحصينة... وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له.»[1]

في خطاب رسول الله ﷺ للنجاشي نرى أنه سلم عليه "سلام عليك" إذن، فقد كان يأمل منه خيراً وكأنه كان يرى بعين الغيب أنه سيهتدي؛ ثم إن الأسلوبَ الذي استعمله الرسول ﷺ أسلوب رائع جداً، إذ نراه يتناول موضوع خطاب النجاشي من زاوية مريم عليها السلام لأنه يعرف مدى توقير النجاشي وحبه لها. ونحن أيضاً نوقر مريم عليها السلام لأنها ولدت نبياً كريماً وكانت مظهراً للإلهام الإلهي.

والشيء الذي يلفت النظر أن النجاشي كان نصرانيا، لذا عندما خاطبه الرسول ﷺ ذكر الآيات القرآنية المتعلقة بالمسيح عليه السلام. فكان هذا أسلم طريق وأفضله للدخول إلى قلب النجاشي... وهكذا كان.

عند ورود الرسالة نزل النجاشي من عرشه... أخذ الرسالة وقبلها ووضعها على رأسه، وبعد قراءتها أعلن إسلامه وأمر كاتبه بكتابة الجواب في هذه الرسالة:

"إلى محمد رسول الله من النجاشي: أشهد أنك رسول الله... فإني لا أملك إلا نفسي وإن شئتَ أن آتيك فعلتُ. يا رسول الله، فإني أشهد أنما تقول حق."[2]

كان النجاشي مؤمناً واعياً، فقد قال لأحد خلصائه يوماً: "ولولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أحمل نعليه."[3] بعد مرور فترة من الزمن قال رسول الله ﷺ لأصحابه وهو

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير ١٠٤/٣

(٢) «البداية والنهاية» لابن كثير ١٠٥/٣

(٣) «دلائل النبوة» للبيهقي ٣٠٠/٢

يدخل المسجد: «إن أخاً لكم قد مات فقوموا فصلوا عليه.»[(١)]

وقد اختلف الفقهاء في موضوع صلاة الغائب، فأصحاب المذاهب -عدا مذهب أبي حنيفة- يجوزون هذه الصلاة، ويقول علماء المذهب الحنفي بأن تابوت النجاشي حضر أمام رسول الله ﷺ بمعجزة إلهية وأنه صلى صلاة الحاضر. وهذا موضوع فقهي لا نريد الدخول إلى تفاصيله هنا.[(٢)]

٢- ﴿ هرقل ﴾

أرسل الرسول ﷺ رسالته الثانية إلى هرقل إمبراطور الروم بيد دِحْيَة الْكَلْبِي، وكانت الرسالة تقول:

«بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد فإني أدعوك بدِعاية الإسلام، أسلِمْ تَسْلَمْ يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين. ﴿ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ (آل عمران: ٦٤).»[(٣)]

أثرت كلمات هذه الرسالة على هرقل، وكان أبو سفيان موجوداً آنذاك في بلده... وجرى الحوار التالي بينه وبين أبي سفيان:

- كيف نسبه فيكم؟
- هو فينا ذو نسب

---

(١) مسلم، الجنائز، ٦٦-٦٧؛ البخاري، الجنائز، ٤؛ ٦٥

(٢) «كتاب الفقه على المذاهب الأربعة» للجزيري ٥٢٢/١

(٣) البخاري، بدء الوحي، ٦؛ مسلم، الجهاد، ٧٤

- فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟
- لا
- فهل كان من آبائه من ملك؟
- لا
- فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟
- بل ضعفاؤهم.
- أيزيدون أم ينقصون؟
- بل يزيدون.
- فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه
- لا
- فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟
- لا
- فهل يغدر؟
- لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها.

هذا هو الحوار الذي جرى بين هرقل وبين أبي سفيان الذي لم يكن قد أسلم بعد، ولم يستطع أن يقول شيئاً ضد الرسول ﷺ سوى إبداء التردد في الجملة الأخيرة.

وكرر هرقل ذكر أجوبة أبي سفيان واعتبرها دليلاً على صدق نبوة الرسول ﷺ، ثم أخذ رأي صاحب له برومية، وكان عالماً مثله، فكان رأيه مثل ما رأى. وفي رواية أنه قال لأبي سفيان: "فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدميّ هاتين" وقد حدث هذا فعلاً كما نعلم.[1]

وعندما وجد عظماء الروم ميل هرقل إلى الإسلام ثاروا وغضبوا، فلما رأى هرقل منهم ذلك أيس منهم وقال لهم: "إني قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم،

(١) البخاري، بدء الوحي، ٦؛ مسلم، الجهاد، ٧٤

فقد رأيتُ، فسجدوا له ورضوا عنه.»[١]

أما صاحبه في رومية فقد أسلم وبايع النبي غيابياً.[٢]

٣- ﴿والآخرون﴾

أرسل الرسول ﷺ رسائل أخرى إلى جهات مختلفة وإلى أشخاص آخرين، فكان منهم من اهتدى وقبل الإسلام ومنهم من تصرف باحترام تجاه رسول الله وإن لم يسلم كالمقوقس عظيم القبط، إذ أرسل له الرسول ﷺ حاطب بن أبي بلتعة. ومع أن المقوقس لم يسلم إلا أنه أكرم وفادة حاطب طوال إقامته هناك وأرسل معه هدايا عديدة للرسول ﷺ، وكانت أُمّنا مارية ضمن هذه الهدايا حيث ولدت له إبراهيم، وكان من ضمن هذه الهدايا بغلة[٣]. بيضاء اسمها "دُلْدُل" كانت الأولى التي يراها العرب.

أما كسرى فقد مزق رسالة النبي ﷺ وألقاها إلى الأرض، فمزق الله مُلكه، ولم تلبث فارس أن تمزقت إرباً إرباً.[٤]

قام رسول الله ﷺ بدعوة الحكام ورؤساء الدول ورؤساء مختلف القبائل... أي بتبليغ العالم كله بدعوته؛ كان كل يوم يمر يزداد نفوذه على القلوب، كان كأنه يملك جاذبية قدسية وسرية تجذب إليه -بخيوط سرية وغير مرئية- القلوب وتشرح له الصدور... وكل فرد أو مجتمع انجذب إليه أصبح يسمو إلى عالم النور. وبعد أن أقرمقعده في القلوب على هذا النحو أصبحت محاربته والاستمرار في عدائه وخصومته عملاً يائساً مثل محاولة طمس نور الشمس وحجبه بغربال.

---

(١) البخاري، بدء الوحي، ٦، تفسير سورة (٣) ٤

(٢) «مجمع الزوائد» للهيثمي ٢٣٦/٨، ٢٣٧؛ «الإصابة» لابن حجر ٢١٦/٢

(٣) «البداية والنهاية» لابن كثير ٣٢٤/٥

(٤) البخاري، العلم، ٧؛ «المسند» للإمام أحمد ٢٤٣/١

ولم يلبث الجميع أن أدركوا هذا... أدركوا مدى عقم الوقوف في وجهه وصد دعوته، فألقوا أسلحتهم وطلبوا العفو والغفران منه.

و- صلح الحُديبية من زاوية الدعوة

يشكل صلح الحُديبية بُعداً آخر في مجال فرص الدعوة والتبليغ، فقبول رسول الله ﷺ الشروط القاسية للصلح قوبل في بداية الأمر من قبل بعض الصحابة أمثال عمر بن الخطاب ﷺ -الذي لا يشك أحد في قوة ارتباطه بالرسول ﷺ وتعلقه به- بردود فعل سلبية وباعتراض، وبدا لفترة قلقة أن فرصة الصلح ستضيع.

ولكن الذي حدث هو أن المسلمين استطاعوا في السنة التالية الدخول إلى مكة بكل حرية... هذا الدخول الذي أصبح موضوع حديث أهل مكة لسنة كاملة، مما فتح مغاليق كثير من القلوب للإسلام شيئاً فشيئا، فأسلم كثير من الشخصيات المهمة في مكة بمحض إرادتهم أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص.[1] وقد لعب دخول هؤلاء إلى الإسلام بمحض إرادتهم ودون أن ينخدش كبرياؤهم دوراً مهماً من زاوية الخدمات الكبرى التي أدّوها فيما بعد للإسلام.

كما أن إظهار الصحابة شدة تعلقهم برسول الله ﷺ في أثناء البيعة ما غاب عن أنظار الوفد المكيّ، مما يَسّر تفتح القلوب للإسلام.

ز- الدعوة الفردية

عندما كان رسول الله ﷺ في ذروة الصعود والانتصار لم يهمل العلاقات الفردية، بل أولاها اهتماماً كبيرا؛ فمع أنه كان يعلم أن أهل مكة جميعاً سيطلبون منه الصفح والغفران

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير ٢٦٩/٤-٢٧٣

قريباً وسيستسلمون له إلا أنه مع هذا لم يهمل الترحيب الكبير لمقدم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وإسلامهما بين يديه. فأرسل بعض أصحابه لاستقبال هذين الشخصين العبقريين. وعندما أقبل عليه خالد بن الوليد وسلم عليه بالنبوة ونطق بالشهادتين قال له رسول الله ﷺ:

«الحمد لله الذي هداك! قد كنتُ أرى لك عقلاً رجوتُ أن لا يُسلِمك إلا إلى خيْر.»[1]

كان كلام رسول الله هذا من أبلغ آيات الفخر لرجل في ذلك الموقف النفسي. ومن يدري ماذا فعلت هذه الكلمات بروح خالد ودورها في إشعال جذوة الإيمان في قلبه.

أما عمرو بن العاص فقد أمسك بيد رسول الله ﷺ لا يريد أن يدعها وهو يقول له: يا رسول الله أبايعك على أن تغفر لي ما تقدم من ذنبي. فقال رسول الله ﷺ: «إن الإسلام يَجُبّ ما كان قبله والهجرة تَجُبّ ما كان قبلها.»[2]

أجل، كان رسول الله ﷺ قد أخذ بمقاليد القلوب، ولكنه كان يوظف هذا ويستخدمه في صالح الدعوة وفي صالح التبليغ، فأقبل عليه الناس يدخلون في دين الله أفواجا، ومن تلك الأمواج وصلتنا موجة في هذه الأيام؛ وأنا أومن بأن الرسالة المقدسة لرسولنا ﷺ ستبقى وستستمر حتى قيام الساعة.

وحسبما نقرأ في الصحف فإن آلافاً من الأوروبيين يسلمون، والدنيا بأجمعها مقبلة على الإسلام... أجل، أن أوروبا حامل بالإسلام وستلد يوماً ما، وأما العالم الإسلامي فهو في آلام المخاض وسيلد قريباً. ثم انظر إلى شرق العالم حيث كان الفكر المنافق والملحد متحكماً وسائداً؛ فعلى الرغم من مرور أكثر من نصف قرن على سياسة التذويب ومسخ الشخصية فإن البلدان الإسلامية فيها مثل تُركِسْتان وكازاخستان وأَذْرَبيجان وأوزبكستان وداغستان وقرغيزيا (Kirghizia) لم تفقد شيئاً يذكر من روحها ومن فكرها، وهي مقبلة

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير ٢٧٣/٤؛ «كنز العمال» للهندي ٣٧٤/١٣

(٢) «البداية والنهاية» لابن كثير ٢٧١/٤، «المسند» للإمام أحمد ١٩٩/٤

بتلهف على عالمها الروحي والفكري الخاص بها. وفي القريب سيرتفع الأذان المحمدي في قلب موسكو وسيقبل فيها الناس أفواجاً أفواجاً على الإسلام، فلن يدع ممثلو دعوة النبي ﷺ أي بقعة من بقاع الدنيا دون إيصال صوت الدعوة إليها، وهم إذ يفعلون هذا يتخذون المحبة لهم أسلوبا والحنان صفة.

ح- استحقاق رعاية الله وعنايته

يقول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿يا أيها الرسول بلِّغْ ما أُنزِل إليك من ربك وإن لم تَفْعل فما بلَّغتَ رسالته واللهُ يَعصِمك من الناس إنّ الله لا يهدي القوم الكافرين﴾ (المائدة: ٦٧).

ما خاطب الله تعالى أي نبي من أنبيائه بمثل هذا الخطاب، فعند خطابه لأنبياءه السابقين كان يخاطبهم بأسمائهم المجردة. أما هذا الخطاب بصيغة التعظيم فهو خاص برسوله محمد ﷺ.

فالرسول هو الشخص الذي يحمل رسالة من الحق ﷻ، ويبلغ أخبار عالم الغيب إلى الناس. وخطاب الله تعالى له بهذه الصفة تشريف له من جهة، وتذكير لنا بسمو منزلته عنده من جهة أخرى. فهو يعلن شرف نبوته، والنبي ﷺ يبلغنا رسالة نبوته وهو سيظل تحت ظل هذا الشرف وهذه المرتبة الرفيعة. أي يقول لنا بأن النبي الذي يخاطبكم وتخاطبونه شخص -إن جاز التعبير- يوقّره الله تعالى ويحترمه فلا يخاطبه باسمه: "يا محمد... يا محمد..." بل يخاطبه بـ﴿يا أيها الرسول﴾.. أي يا أيها الذي يحيي القلوب والنفوس بالوحي الإلهي... ويا أيها النبي الذي يهرع لنجدة الإنسانية وإنقاذها... وبهذا فقد سما به الله تعالى إلى ذروة نورانية، وشرفه بالرسالة والنبوة وجعله أهلاً لأن يخاطبه مباشرة؛ لذا، نرى أن بعض المحققين يرون أن الله كلمه مباشرة في ليلة المعراج.. فكما أن سائر الوحي تم من وراء حجب -وإن كان من قبل الله تعالى- كذلك فقد تم هذا في

المعراج ولكن من دون حجاب.[١]

فهذا هو نبينا محمد المصطفى عليه الصلاة والتسليم، وهذه هي المرتبة التي وضعه فيها ربه وقال له: بَلِّغ ما أنزل إليك من ربك، ولا تجعل أي شيء عائقاً أمامك من خوف أو قلق أو أي مانع آخر كالجوع أو العطش أو حب الجاه والمنصب في الدنيا.

ونحن نشهد أن الرسول ﷺ لم يعقّه أي عائق بل قام بتبليغ الرسالة وأداء الأمانة حق الأداء... لقد انفرج أمامه باب الرسالة، فقام بفتح الباب على مصراعيه بصورة لم يسبقه بها أحد من قبله، وعلى ضوء ذلك يمكننا أن نفهم قوله تعالى: ﴿فكـان قـاب قوسين أو أدنى﴾ (النجم: ٩) من هذه الزاوية، إذ أنه تخطى جميع الحدود حتى وصل إلى حد يصفه فيها أمير الشعراء فيقول:

حتى بلغتَ سماء لا يُطار لها   على جناح، ولا يُسعَى على قدم
وقيل: كل نبيٍّ عند رتبته   ويـا محمد هـذا العرش فاستَلِم

وهذا يعني تجاوز عالم الإمكان وتخطيه. وبهذه المناسبة أتذكر "اوغست كومت (August Comte)" أحد مؤسسي المدرسة "الوضعية (Positivism)" والذي قضى حياته في معاداة الدين، لأنه كان يرى أن أي شيء لا يدخل إلى ميدان التجربة العلمية فهو هراء وكلام لا معنى له. غير أن هناك حادثة متعلقة به ذكرت في أحد كتب التاريخ وهو كتاب "تاريخ مراد"، فقد ذهب "كومت" إلى الأندلس وعندما رأى الآثار والفنون الإسلامية الرائعة هناك ذهل وبقي مدة يتأملها بإعجاب كبير ثم بدأ يسأل هناك من بعض الأشخاص عن الإسلام، وعندما أخبروه أن محمداً ﷺ كان أمياً ذهل بل صعق ولم يصدق هذا القول وذهب إلى روما وقابل البابا التاسع وسأله عن هذا الأمر مستحلفاً إياه أن يقول له الصدق، وعندما أكّد له البابا صحة ما قيل له لم يملك نفسه إلا أن يقول: "إن محمداً ليس بإله... ولكنه ليس بشراً أيضاً"

---

(١) انظر: البخاري، الصلاة، ١؛ مسلم، الإيمان، ٢٥٩؛ «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير ٤٢٤/٧

ألم يقل شاعرنا البوصيري:

فمَبْلَغُ العِلم فيه أنه بَشَرٌ   وأنه خيُر خَلق الله كلِّهِمِ

أجل، كان إنساناً له أب وأم وله جانبه المادي، ولكن لا يمكن فهمه ولا إيضاحه من جانبه المادي أبداً... فهو طائر في سماء النبوة، ولكن حديثنا عنه يدور على الدوام عن البيضة التي خرج منها... بينما وصل في المعراج إلى موضع نعجز عن إدراك ماهيته، لأن هذا خارج الإدراك البشري وخارج شعوره.

إن التبليغ ضروري إلى درجة أن الله تعالى وظف له أحب خلقه إليه وأحاطه علما بمدى ضرورة القيام به وحذره من التقصير في أي جانب منه.

ومن ثم فإن التبليغ والدعوة هما من أهم واجباتنا نحن الذين ننتسب إلى أمته. ويجب ألا ننسى أن خلاص البشرية لا يتم أبداً إلا بدعوته وبأنفاسه، ثم بأنفاس متبعيه والسائرين في دربه.

الفصل الرابع: الفطنة

الفطنة هي تجاوز العقل بالعقل، وقد بينا سلفا أننا يمكن أن نقول إنها منطق النبوة؛ وهذا المنطق هو مجمل مجموع الروح والقلب والحس واللطائف الأخرى وتجمعها في بؤرة واحدة.

إن الفطنة ليست عقلاً ومنطقاً جافاً فحسب، بل إن إضافة الإسلام إلى العقل والمنطق فحسب والقول بأن "الإسلام دين العقل" أو "دين المنطق"، ليس فقط جهلاً بالإسلام، بل يعد الخطوة الأولى لتحريف كبير... كلاّ! ليس الإسلام لا دين العقل أو المنطق كما يدعون... بل إنه دين الوحي الالهي.

وإنّ عدم تناقض المسائل الإسلامية مع العقل والمنطق يعود إلى كون الإسلام آتياً من العلم الإلهي المحيط بكل شيء، ومفسَّر بالمنطق النبوي الشامل بما يليق بمصدره السماوي... أي أنه إلهام نبوي ومنطق نبوي... هذا المنطق الذي له قدرة على تلقي الوحي الإلهي والذي ينفتح للحس والقلب والعقل والفسلفة التي تأتي بمعنى اللطائف والحكم... أي أنه منطق فوق المنطق العادي، لذا نستطيع أن نسميه بـ"الفطنة العظمى".

إن كل وحي إلهي يجب أن ينعكس ضمن هذا المنطق... فهو حاجة وضرورة في الوقت نفسه... غير أن هذه الحاجة حاجة إنسانية فقط، ذلك لأن الوحي الإلهي إن لم يمر من المنطق النبوي ويعيَّر فيه وينظَّم –كما يعيَّر التيار الكهربائي ذو الضغط العالي، أو يتم تبديل التيار المتقطع إلى تيار دائم– ووصل إلى البشرية مباشرة لانصعقت منه ولاحترقت أمام هذا الوحي الإلهي. مثلما يحترق كل شيء إنْ رفع الله تعالى الحجب والأستار عن وجهه.[1]

أجل، إن فطنة الأنبياء تقوم بوظيفة الغلاف الجوي للشهب الحارقة للوحي. والحقيقة

---

(١) عن أبي موسى: «حجابه النور –وفي رواية: النار– لو كشفه لأحرقت سبُحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه.» مسلم، الإيمان، ٢٩٣؛ ابن ماجة، المقدمة، ١٣؛ «المسند» للإمام أحمد ٤/٤٠١

أن هذا هو ما نطلق عليه اسم "الدين". أي التنزلات الإلهية التي تنزل إلى مستوى الإدراك البشري؛ والمنطق النبوي أي الفطنة النبوية هي التي تقوم بهذه المهمة. لذا، كان وجود الفطنة لدى كل نبي شيئاً ضرورياً. ومن الخطأ أن نصف هذا المنطق الذي يوجد لدى الأنبياء بكلمة "العبقرية"، لأن منطق الأنبياء فوق كل منطق، ويسمى "الفطنة".

ولو لم توجد الفطنة لدى الأنبياء لما كان بإمكانهم الإجابة عن كل اعتراضات أعدائهم وعن كل استفسارات وأسئلة أنصارهم وإيضاح جميع المسائل لهم. ولو عجزوا عن القيام بهذا لأدّى ذلك إلى نتيجة محددة وهي عدم وضوح الدين وصعوبة فهمه، فلا يكون هناك معنى لفروضه، وعندما لا يكون هناك معنى لفروض الدين أصبح خلق الإنسان عبثاً.

ولكي لا تحصل كل هذه النتائج السلبية كان من الضروري تجهيز الأنبياء بمنطق خارق للعادة، مما مكنهم من حل جميع المشاكل والعقد والمصاعب بيسر وسهولة.

فطنة نبينا ﷺ

لو تأملنا العهد الذي عاش فيه نبينا ﷺ؛ لوجدنا أن الصحابة كانوا يسألونه عن المسائل الشرعية المستعصية عليهم، وكما كانت هناك الأسئلة والشبهات التي تدور في أذهان بعض الذين يرغبون في الدخول إلى الدين الإسلامي والتي تنتظر الإجابة عليها إجابة شافية؛ وإضافة إلى كل هذا كانت هناك الشبه والشكوك التي كان يشيعها بين الناس بعض أهل الكتاب الذين كانوا يحسدون النبي ﷺ ويغارون منه. ولم يكن في الإمكان الإجابة عن كل هذه الإسئلة والشكوك إلا بمنطق النبي، أي بالفطنة النبوية.

كما كان الناس الذين كان يخاطبهم النبي ﷺ على درجات مختلفة من الفهم ومن الإدراك؛ فبعضهم كان من رجال الدين الذين قضوا جزءاً كبيراً من حياتهم في الكنائس والأديرة واكتسبوا علماً في بعض المجالات وعمقاً في فهم النفوس؛ ومنهم من تعمق في الأمور الفلسفية وأصبح رجل عقل ومنطق؛ ومنهم من أصبح له اليد الطولى في التجارة والاقتصاد، أو أصبح قائداً محنكاً في الحروب أو سياسياً داهية، أو كان بدوياً لا يعرف شيئا من أمور الدنيا... وكل واحد من هؤلاء كانت له مشكلته التي تنتظر الحل وأسئلته التي تحتاج إلى أجوبة. ومن ثم فقد كان على رسول الله ﷺ إذا تحدث أن يقول كلاماً يفهمه البدوي ويفهمه من هو في الذروة من الفهم، وأن يأخذ كل واحد منهم نصيبه من الفهم على قدر علمه، وأن تستمر هذه الصفة الشمولية للدين حتى قيام الساعة.

إن الإنسان كائن ناطق وكائن عاقل ومفكر. وهو بهذه الصفة يمثل -بشكل جزئي- صفة تعود لله تعالى. فإن انقلبت الأفكار إلى كلام، وإن انقلب الكلام إلى كتابة تم اكتساب الديمومة. إن الأفكار والمبادئ التي لا يتم الحديث عنها، والتي لا تسجل ولا تكتب أفكار تموت بموت صاحبها وتفنى وتزول. فكما أن قابلية التفكير لدى الإنسان نعمة، كذلك فإن قابلية الكلام والتعبير عن الأفكار نعمة إلهية كبرى للإنسان؛ لذا، نرى

القرآن الحكيم عندما يتحدث عن رحمانية الله تعالى يذكر بعد خلق الإنسان مباشرة ﴿علّمه البيان﴾ (الرحمن: ٤).

فالإنسان يفكر ويتكلم منذ عهد آدم عليه السلام، وسيظل يفكر ويتحدث حتى يوم القيامة؛ فالأفكار والكلام والبيان لا يمكن أن ينتهي، وهذا من الرحمة الشاملة لله تعالى. وتتمثل هذه الرحمة الشاملة وتتجلى أكثر لدى الأنبياء ولاسيما لدى رسولنا محمد ﷺ. وهذا المستوى السامي لهم في هذا الأمر لا يفسر إلا بوجود الفطنة عندهم، فبغير الفطنة ما كان لهم أن يحتلوا هذه المرتبة، إذن، فالفطنة من أهم صفات الأنبياء.

إن كل نبي يملك قدرة إدراك كبيرة، وقدرة علي التعبير عنها، إذ يستطيع حل أعضل المشاكل بسهولة ويعبر عنها بأسهل العبارات وأوضحها. فبيانهم من نوع "السهل الممتنع" أي من النوع الذي يحسب السامع أنه يستطيع قول مثله. ولكنه عندما يحاول أن يتحدث وأن يتكلم مثلهم يرى أنه عاجز عنه. ذلك لأن قدرة شرح وبيان المسائل المعضلة هبة إلهية لهم. فسحر الحديث ورونقه لدى الأنبياء لا يوجد عند غيرهم.

كل مشكلة أو معضلة تعرض على النبي تجد لها حلاً بكل تأكيد؛ ومهما كانت تلك المشكلة فريدة في نوعها فإن النبي يتحدث عنها ويحلها وكأنه يملك خبرة أربعين سنة في ذلك الموضوع. لهذا نرى "جورج برنار شو (George Bernard Shaw)" يقول في حق رسول الله ﷺ: "إن محمداً يستطيع أن يحل أعقد المشاكل التي يعاني منها عالمنا الحالي وهو يشرب فنجاناً من القهوة."

أجل، فما أكثر المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي يزخر بها عصرنا الحالي والتي تنتظر الحلول. ولقد وضح للأصدقاء وللأعداء أن هذه المشاكل لا يمكن حلها أبداً دون الرجوع إلى نبع بيان الرسول ﷺ. هناك أقوال كثيرة حول فطنته ﷺ؛ ولو جمعت هذه الأقوال لأصبحت مجلداً ضخماً. وسنذكر هنا مثلين اثنين فقط حتى ننهي هذا البحث الواسع.

يقول عبد الله بن عباس رضي الله عنه حبر الأمة وترجمان القرآن: "إن أفضل الناس وأعقلهم هو

نبيكم محمد ﷺ." وقال وَهْب بن مُنبِّه، وهو من علماء التابعين، وقد قرأ التوراة والإنجيل بدقة: "قرأتُ في أحد وسبعين كتاباً فوجدت في جمبعها أن النبي ﷺ أرجح الناس عقلاً وأفضلهم رأياً." وفي رواية أخرى: "فوجدت في جميعها أن الله تعالى لم يُعْطِ جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقله ﷺ إلا كحبة رمل من بين رمال الدنيا."[1]

أ- أمثلة من فطنته ﷺ

١- تعمير الكعبة

كان الناس في الجاهلية أهل فتنة وفساد. فكأن وظيفتهم في هذه الحياة هي إيقاد الفتنة. فما أن يجتمع منهم ثلاثة، حتى تظهر بينهم فتنة. ولا شك أن القيام بجمع مثل هؤلاء الناس على صعيد واحد وتربيتهم وتهيئهم ليكونوا أساتذة العالم فيما بعد يعد معجزة خاصة برسول الله ﷺ، وقد أنجز هذه المهمة بفطنته ذات البعد السماوي.

لقد توافق أن بدأ المشركون في تعمير الكعبة قبل نبوة سيدنا محمد ﷺ. وما أن انتهوا من تعمير البناء حتى كادت أن تقوم بينهم فتنة عظيمة وحرب ضروس بسبب اختلافهم على وضْع الحجر الأسود في مكانه. فكل قبيلة تتمنى أن يكون لها هذا الشرف، ومن ثم استلت السوف من أغمادها وأخرجت السهام من كنائنها وأشرعت الرماح. ولم يكن رسول الله ﷺ قد بُعِث بعد نبياً؛ ولكن بذرة النبوة كانت مكنونة في روحه تنتظر مجئ الربيع لكي تزهر وتتفتح... كان الوضع ينذر بقتال مشؤوم؛ وما كان أحد يدري كم ستطول هذه الحرب الداخلية إن نشبت، ولا عدد الضحايا الذين سيقعون فيها، ولا مقدار الأموال التي ستتلف، ولا يدري أحد كيف خطر ببال أحدهم أن يقترح تحكيم أول من يدخل عليهم من الباب الفلاني، وأن عليهم أن يقبلوا حُكْمه، وكيف قَبِل الجميع

(١) «الشفاء» للقاضي عياض ١/٦٧؛ «حلية الأولياء» لأبي نعيم ٤/٢٦

هذا الاقتراح. لقد بدأوا ينتظرون بلهفة أول قادم عليهم من هذا الباب... وهنا كان سيدنا محمد ﷺ أول الداخلين من هذا الباب.. عندئذ هتفوا بسرور: "هذا الأمين، رضينا، هذا محمد" وعندما أخبروه بالأمر ودون حاجة إلى أي تفكير طلب منهم أن يأتوه برداء، فلما فعلوا وضع الحجر الأسود في وسطه وأمسك كل رئيس قبيلة بطرف منه وساروا حتى موضع الحجر حيث حمله سيدنا ووضعه في مكانه.[1]

وهكذا حال دون وقوع حرب داخلية كبيرة بين القبائل. ولم يجد حاجة إلى أي تفكير لحل هذه المعضلة، بل توصل إلى الحل بسرعة وفي سهولة ويسر... أليس هذا منطق النبوة؟.. في الحقيقة إنه لم يكن قد بُعث بعدُ نبياً ولم يكن الوحي قد نزل عليه. غير أن هذا كان منطق وفطنة الشخص المرشح لوظيفة كبيرة ومهمة صعبة مثل مهمة النبوة... أجل، كان عنده منطق فوق المطق الاعتيادي وعقل فوق العقول وفطنة فوق الفطن... وكان هذا ضرورياً لشخص سيحمل دعوة كدعوة القرآن الكريم.

٢- إسلام حُصين

لقد جاء حُصين إلى النبي ﷺ ناويا نصحه وإقناعه بترك دعوته. ولقد كان النبي ﷺ يملك قدرة خارقة في معرفة محدِّثه والوقوف على مستواه، لذا نراه يخاطب محدثه بعبارات غاية في الدقة بحيث لو بُدّلت كلمة واحدة منها، أو وُجهت نفس العبارات إلى إنسان آخر له شخصية مختلفة عن الأول لَما وصل إلى الهدف المنشود أبدا؛ فرسول الله لا يبارَى أبداً في انتقاء الكلمات المناسبة وفي معرفة مستوى الشخص الذي يخاطبه؛ ومن المستحيل أنَ تجد أحداً آخر له مثل هذه القابلية. لقد كانت هذه ملَكة طبيعةَ عنده بحيث يَعرِف ويَعيِّن بسرعة أينَ، ومع مَنْ يتكلم، وكيف يتحدث؛ ومن ثم كانت كل كلمة ينطقها ضرورية وفي محلها تماما؛ فكما لا تجد في أي كلام أو حديث له كلمة خاطئة، كذلك

(١) «المسند» للإمام أحمد ٤٢٥/٣؛ «السيرة النبوية» لابن هشام ٢٠٩/١

لن تجد فيه أي كلمة زائدة ليس لها ضرورة. دققوا إن شئتم كل كلام تحدث به كلمة كلمة فلن تجدوا كلمة واحدة زائدة لا لزوم لها في أي جملة من جمله... فإذا لم يكن هذا فطنة فما هو؟

انظروا كيف سحرت هذه الفطنة حُصيناً... فبعد أن أنهى حُصين كلامه سأله رسول الله ﷺ بكل رقة وأدب: «يا حُصين! كم تعبد من إله؟» قال: سبعاً في الأرض وواحداً في السماء.[1] قال ﷺ: «فإذا أصابك الضر من تدعو؟» قال: الذي في السماء. قال «فإذا هلك المال من تدعو؟» قال: الذي في السماء. قال: «فيستجيب لك وحده وتُشرِكهم معه، أرضيته في الشكر أم تخاف أن يغلب عليك؟» قال: ولا واحدة من هاتين. قال: «وعلمت أني لم أكلم مثله» قال: «يا حُصين! أَسْلِمْ تَسْلَمْ.» قال: إن لي قوماً وعشيرة، فماذا أقول؟ قال: «قل اللهم إني أستهديك لأرشد أمري. وزِدْني علماً ينفعني.» فقالها حُصين فلم يقم حتى أسلم.فقام إليه عمران[2] فقبَّل رأسه ويديه ورجليه، فلما رأى ذلك النبي ﷺ بكى وقال:

«بكيتُ من صنيع عِمران، دخل حُصين وهو كافر فلم يقم إليه عِمران ولم يلتفت ناحيته، فلما أسلم قضى حقه فدخلني من ذلك الرقة»، فلما أراد حُصين أن يخرج قال ﷺ لأصحابه: «قوموا فشيِّعوه إلى منزله.» فلما خرج من سدة الباب رأته قريش فقالوا: صبأ. وتفرقوا عنه.[3]

والحقيقة أن الجمل الواردة في هذا الحوار جمل بسيطة جداً وواضحة ومختارة بشكل مناسب لوضع حُصين ولمستواه العقلي، فلم يبق أمام حُصين بعد الجملة الأخيرة للرسول

---

(١) الإله الذي عناه في السماء هو الله تعالى، الذي لم يستطيعوا إزالته من القلوب. ذلك لأن فكرة الله تعالى فكرة وإيمان راسخ قد امتدت جذوره إلى القلوب، بحيث أن العهد الجاهلي الطويل لم يستطع مسحه وإزالته. ويكفي هنا أن يقوم اللسان بالترجمة الأمينة والصادقة لصوت القلب.

(٢) عمران وهو ابن حصين. (المترجم)

(٣) «الإصابة» لابن حجر ٣٣٧/١

ﷺ سوى التلفظ بالشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

أي أن الشخص المخاطب هنا ليس أمامه سوى سبيلين: إما النطق بالشهادتين والحصول على النجاة الأبدية، أو الاستمرار في العناد وترك مجلس الرسول ﷺ دون النطق بكلمة واحدة... ولم يكن أمامه خيار آخر.

٣- التحدث حسب مستوى البدوي

البدوي إنسان يعيش في الصحراء... قد ينسى حاجاته في مكان، وقد يصادف عاصفة رملية فيجأر بالشكوى... تأملوا حال مثل هذا الإنسان... ماذا يفعل إن ألمّت به مصيبة أو حاصرته ضائقة..؟ لا شك أنه سيقول ما قاله حمزة رضي الله عنه لرسول الله ﷺ... قال حمزة للرسول ﷺ في أثناء اهتدائه للإسلام: "يا محمد، يا ابن أخي..! عندما أجوب الصحراء بالليل أُدْرِك أنّ الله أكبر من أن يوضع بين أربعة جُدران."

أجل، هكذا كان يقول كل من رأى عدم نفع اللات والعُزّى وهُبَل، لأن ضمائرهم كانت تهتف بهذه الحقيقة الموجودة في أعماقهم... وكانت هذه الضمائر تقول الحق. لذا، فكم من أناس جاءوا إلى الرسول ﷺ وهم في هذه الحالة النفسية والروحية؛ وبعد قيامهم بطرح أسئلتهم البدوية وتلقيهم أنسب الأجوبة وأكثرها ملاءمة لحالتهم ولعالمهم الروحي، يعلنون عن اهتدائهم للحق ويصبحون نجوماً متلألئة في سماء الهداية.[1]

يروي الإمام أحمد بن حنبل عن أبي تميمة الهُجيْمي رضي الله عنه عن رجل من قومه أنه أتى رسول الله ﷺ أو قال: شهدت رسول الله ﷺ وأتاه رجل فقال: أنت رسول الله؟ أو قال: أنت محمد؟ فقال: «نعم»، قال: فإلامَ تدعو؟ قال: «أدعو إلى الله عز وجل وحده مَنْ إذا كان لك ضُرٌّ فدعوتَه كشفه عنك، ومن إذا أصابك عام[2] فدعوته أنبت لك. ومن

(١) انظر: «كشف الخفاء» للعجلوني ١٣٢/١

(٢) عام: أي جدب ومجاعة وقحط. (المترجم)

إذا كنت في أرض قفر فأضللت فدعوته رَدَّ عليك» قال: فأسلم الرجل.[1]

ما أروع هذا الكلام الموجه للبدوي! فكل جملة فيه تخاطب موضوعاً حيوياً بالنسبة إليه: الجدب، البلايا، المصائب، المصاعب في حياة الصحراء...

فهو يحدثه عن هذه البلايا والضنك والمصاعب التي يعرفها البدوي عن قرب، ثم يحدثه عن القوة اللانهائية التي لا ملجأ ولا منجى منها إلا إليها. إنه يخاطب ضميره الذي يرتفع فيه صوت هذه المعاني؛ ولكن البدوي لم يكن قد أدرك بعدُ معنى هذا الصوت. فكأن رسول الله ﷺ قام بتفسير وتعليم معاني هذا الصوت الداخلي عنده بحديثه هذا. كان تأثير حديث الرسول ﷺ قوياً في نفس البدوي الذي لم يجد بداً من إعلان إسلامه.

إن الحديث مع بساطته وخلوه من تكلف البلاغيين إلا أنه كان مطابقاً لحال البدوي وملائماً لمستواه ومالكاً عليه جوانب نفسه؛ فلم يجد البدوي بداً من الاستسلام.

هل غيرُ رسول الله ﷺ استطاع أن يحول أناساً قاسية قلوبهم إلى ملائكة رحيمة على مدار التاريخ كله؟ إنه استطاع باستخدام الطاقات الموهوبة له من قبل الله تعالى استخداماً حكيماً أن يحدث انقلابا عظيما وثورة عظمى لا يزال المؤرخون وعلماء الاجتماع يرون فيها لغزاً مستعصياً على التفسير. فالجواهر التي أودعها النبي ﷺ أودية الحياة الاجتماعية صنعت أمواجا متلاحقة وصلت حتى ساحل عصرنا الحالي، وسيستمر هذا إلى يوم القيامة بلا شك. فاليوم نرى أن هناك إقبالا على الإسلام في جميع أنحاء العالم؛ وليس هذا إلا نتيجة للأمواج التي أحدثها النبي ﷺ في الحياة الاجتماعية والتي وصلت إلى ساحل عصرنا الحالي؛ وإلا فإلى من يُعْزَى إحداث هذه الجاذبية المقدسة وهذا التأثير الذي دام عصوراً عديدة إن لم يُعْزَ إلى النبي محمد ﷺ؟ وهل هناك إنسان آخر يمكن أن يكون صاحب هذا التأثير وهذه الجاذبية القوية؟.. كلاًّ! أبداً، إنه هو الفرد الفريد في الكون وفي الزمان... نعم، كل شيء كان لوجهه الكريم.

---

(١) «المسند» للإمام أحمد ٦٥/٤، ٦٤/٥؛ «مجمع الزوائد» للهيثمي ٧٢/٨ ,

٤- خطابه للأنصار في حُنين

مثلما كان سيد الأنبياء ﷺ يحل أعضل المسائل بكل سهولة ويسر، ويفك عقد أعقد المشاكل بأسرع وقت ودون أي تأخير؛ كان كذلك يحتفظ بهدوئه ورباطة جأشه أمام المشكلات والحوادث الفجائية، فيتعرض لتلك المشكلة ويجد لها الحل الملائم في أقصر وقت. فإن دققتَ كل حركة من حركاته وكل خطوة من خطواته، وكل جملة بل كل كلمة من كلماته وجدتَ أنها جميعاً حُسبت بحساب دقيق ووُزنت بميزان حساس جدا، وأنها كانت في موضعها المناسب وفي وقتها الملائم تماماً. فلو كان هناك أي خطإ في التوقيت، أو لو أ هملت أي جملة من كلامه لما كان في الإمكان تحقيق كل هذا النجاح وهذا التوفيق. علماً بأن رسول الله ﷺ لم يعيِّر حركاته هذه ولم يكن له الوقت الكافي للتفكير فيها طويلا. إذن، فكيف يفسر متل هذه الحوادت إن لم يكن صاحب فطنة خارقة..؟ أجل، كان نبيا، وكان منطقه منطق الأنبياء... يفكر كنبي، ويتصرف كنبي فلا يعرف الفشلُ إليه سبيلاً. بل لا يعرف إلا النجاح في أعلى ذروته، فلا يمكن لأحد أن يصل إلى ما وصل إليه أبدا. وهناك الكثير من الحوادث عديدة التي تبرهن على هذا ولقد احترنا منها حادثة واحدة نظراً لأهميتها.

دارت معركة حُنين بعد فتح مكة، وقام الرسول ﷺ بتوزيع أكثر غنائمها على الأشخاص الذين أراد تأليف قلوبهم، وكان معظم هؤلاء من أشراف القوم ورؤساء القبائل ممن لهم كلمة مسموعة، وكان هذا أمراً ضرورياً لتأليف قلوب هؤلاء بعد فتح مكة لكي تستمر الفتوحات ولا يتوقف زخمها، لأن قسماً من هؤلاء أسلموا دون رغبة كافية، فإن لم تُطيَّب قلوبهم وإن لم تتم إذابة الجليد فيها لكان من المحتمل أن يكون خطرهم أشد من خطرهم وهم في مرحلة الكفر فيُضروا بالإسلام ضرراً بالغاً ويكونوا خطراً عليه. ومن ثم فإن قيام الرسول ﷺ بخطوة تأليف قلوبهم كان نتيجة فطنته عليه الصلاة والسلام. كانت الغنائم المفروض تقسيمها آنذاك تبلغ ٦٠٠٠ أسير و٢٤٠٠٠ ناقة

و ٤٠٠٠٠ من الماشية و ٤٠٠٠ أقة من الذهب والفضة.[١]

وعند توزيع هـذه الغنـائم خـص الرسـول ﷺ أهـل مكـة بمعظمهـا وأعطـى بعـض الأشخاص عطايا كبيرة. وهؤلاء كانوا –كما قلنا– من الذين يريد الرسول ﷺ تـأليف قلوبهم واستمالتها إلى الإسلام، وكان هـذا شيئاً مفيداً وضروريا؛ فمثلاً أعطى آل أبي سفيان ٣٠٠ ناقة و ١٢٠ أقة من الفضة، وأعطى حَكيم بن حِزَام ٣٠٠ ناقة ونصير بن حارث ١٠٠ ناقة، وقَيْس بن عَدِيّ ١٠٠ ناقة وصفوان بن أمية ١٠٠ ناقة وحويطب بن عبد العُزّى ١٠٠ ناقة والأقرع بن حابِس ١٠٠ ناقة وعيينة بن حصن ١٠٠ بعير ومالك بن عوف ١٠٠ ناقة. وعدا هؤلاء خص بعض الرجال المهمين بـ(٤٠–٥٠) ناقة.[٢]

كانت الغنائم المقسمة عبارة عن نوق أو ذهب أو فضة... ولكن الغاية كانت منحصرة في الذود عن الدين وتأليف القلوب وتقريبها للإسلام، ذلك لأن فتح مكة كان قريب العهد وكانت بعض قلوب أهل مكة منكسرة، لقد كان شرف مكة في نظر أهلها كل شيء ، لذا فقد قام رسول الله ﷺ باستغلال فرصة هذه الغنائم أفضل استغلال لجبر الخواطر ومداواة الجروح.

غير أن هذا التقسيم أثار بعض حفيزة بعض الأنصار ولاسيما الشباب منهم حتى قال بعضهم: يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم. لقد كان هذا الكلام بداية لفتنة... لم يكن من المهم أن قائليه كانوا قِلَّة. فلو لم توقف هذه الفتنة لاتسعت وانتشرت كانتشار النار في الهشيم... كما أن أي اعتراض على النبي ﷺ يحبط عمل صاحبه ويجرده من دينه وإيمانه ويجعله من الخاسرين خسراناً أبديا، وهذه المصيبة لعمري أعظم من مصيبة الفتنة.

---

(١) «كتاب المغازي» للواقدي ٣/٩٩٣–٩٤٣

(٢) «كتاب المغازي» للواقدي ٣/٩٩٣–٩٩٦؛ «السيرة النبوية» لابن هشام ٤/٤١٣–٤١٤؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٤/٣٥٩–٣٦٠

قام سعد بن عبادة على الفور بإخبار رسول الله ﷺ بالأمر. ومع أن قائلي هذا الكلام كانوا من الشباب، إذ لم يخطر شيء من ذلك على عقول المسنين، إلا أنه كان من الضروري إطفاء هذه الفتنة بسرعة وإلا اتسعت. أمر رسول الله ﷺ أن يجتمع الأنصار في مكان وحدهم دون غيرهم... ثم خطب فيهم الرسول ﷺ الخطبة التالية.

«يا معشر الأنصار! مقالةٌ بلغتني عنكم وَجِدَةٌ وجدتموها عليّ في أنفسكم.»

هذه البداية بداية مذهلة من الناحية النفسية للحاضرين؛ ذلك لأن أحداً لم يكن يتوقع هذا الكلام، فمعظمهم لم يكن يعرف سبب الاجتماع، لذا كانت هذه الجملة بمثابة لطمة فجائية ثابت معها النفوس إلى رشدها. ولم يكن في وسع الصحابة حينئذ أن يعترضوا على رسول الله... كل ما هنالك أنه كان من الممكن حدوث غضاضة في بعض النفوس وكان بإمكان النبي ﷺ إزالتها.

أحدثت هذه الجملة الأولى لرسول الله ﷺ تأثيراً كبيراً في قلوب الذين شعروا من قبل بالغضاضة... إذ لَمُّوا شتات نفوسهم واتجهت عيونهم إلى الرسول ﷺ، فلا ريب أن ما سيقوله بعد ذلك بالغ الأهمية. كان على رسول الله ﷺ أن يديم هذا الزخم حتى يصل إلى النتيجة المرجوة، فقال ﷺ: «ألم آتكم ضُلاّلاً فهداكم الله، وعالةً فأغناكم الله وأعداءً فألّف الله بين قلوبكم؟.»

فقال الأنصار: بلى يا رسول الله... الْمَنّ لله ورسوله.

عند ذلك حوَّل رسول الله ﷺ دفة الحديث... فبعد أن ثارت المشاعر وهاجت العواطف بدأ رسول الله ﷺ يتكلم باسم الأنصار ويقول بما كان يمكن أن يقوله الأنصار في أسوإ الظروف، علماً بأن أيّ مسلم لو قال مثل هذا الكلام لنبيه لحبط عمله.

استمر رسول الله ﷺ في خطابه فقال:

«ألا تجيبُون يا معشر الأنصار؟» قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ وبماذا نجيبك؟ المنّ لله ورسوله. قال: «واللهِ لو شئتم لقلتم فصدقتم وصدقتم جئتنا طريداً فآويناك، وعائلاً

فآسيناك، وخائفاً فأمَّنّاك، ومخذولاً فنصرناك»

فقالوا: المن لله ولرسوله.

فقال رسول الله ﷺ:

«أوجدتم في نفوسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألَّفْتُ بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام. أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رِحالهم بالشاء والبعير وتذهبون برسول الله ﷺ إلى رحالكم؟ فوالذى نفسي بيده لو أن الناس سلكوا شِعْباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، ولولا الهجرة لكنتُ امرءاً من الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار.»

فبكى القوم حتى اخضلّت لحاهم وقالوا: رضينا بالله رباً ورسوله قسماً ثم انصرف وتفرقوا.[1]

هذه الخطبة القصيرة المركزة أطفأت فتنة كادت أن تقع، وكسبت قلوب الأنصار مرة أخرى، ولا أظن أنه يمكن إيضاح هذا الموقف إلا بالرجوع إلى صفة "الفطنة" مرة أخرى.

فلتقوموا الآن بتحليل هذا الخطاب جملة جملة وكلمة كلمة، وضعوا التوقيت في نظر الاعتبار، ثم قوموا بقياس المسافة التي قطعتها أرواح الصحابة ونفوسهم اعتباراً من الجملة الأولى وانتهاء بالجملة الأخيرة. وضعوا أيديكم على ضمائركم وقولوا بالله أيستطيع أحد –غير رسول الله محمد ﷺ– القيام بإلقاء مثل هذا الخطاب الرائع بصورة ارتجالية ودون تفكير مسبق أو تحضير مسبق؟ إن صاحب كل ضمير حي يسمع الجواب نفسه في أعماق وجدانه بشرط أن يطالع الأمور ويحللها بصورة حيادية وموضوعية وألاّ يكون معانداً أو صاحب فكر مسبق.

ولنحلل سويا هذا الخطاب بشكل موجز، ولندع التحليل التفصيلي له لعلماء النفس وعلماء الاجتماع في المستقبل، لكي يُهدوا للإنسانية بُعدا آخر في فهم فطنة النبي ﷺ من وجهة نظرهم.

---

(١) مسلم، الزكاة، ١٣٢-١٤١؛ البخاري، مناقب الأنصار، ١-٢، المغازي، ٥٦؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٤/٤١١

أولاً: كان هذا الخطاب موجهاً للانصار فقط، ذلك لأنه لم يكن للمهاجرين ولا لأهل مكة أي دور أو ضلع في هذه الحادثة التي استوجبت هذا الخطاب؛ فلم يكن هذا الخطاب ليجذب انتباههم أو يعنيهم في شيء؛ لذا، فوجودهم بين المستمعين كان سيَحُول دون حصول التركيز المطلوب للاهتمام لدى الأنصار، علماً أن هذا التركيز كان مهماً آنذاك.

ثانياً: أن السماح للأنصار فقط بحضور ذلك الاجتماع أرضاهم نفسياً وجعلهم يشعرون بالفخر وبالمباهاة، فانفرادهم في اجتماع مع رسول الله ﷺ كان له تأثير نفسي إيجابي عليهم.

ثالثاً: كان من الممكن أن يكون في الخطاب ما يمس –ولو قليلاً– مشاعر أهل مكة أو مشاعر المهاجرين مثل تعبير: «أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعير.»

رابعاً: في ختام الخطاب كان هناك مدح خاص للأنصار ودعاء لهم. وكان من الممكن أن يجد المهاجرون –وهم الذين تركوا أموالهم وديارهم في سبيل الله– غضاضة من عدم اشتراكهم مع الأنصار في مثل هذا المدح وهذا الدعاء.

خامساً: هذا الخطاب خطاب رائع من ناحية الفصاحة والبلاغة، أي خطاب رائع إن نظرنا إليه من زاوية الأدب والبلاغة فحسب.

سادساً: في بداية الخطاب كانت هناك هزة لمشاعر المستعمين، ثم ترضية لنفوسهم وتسكين لها. وعندما تكلم باسمهم جعلهم في موقف المستمع والمنصت فقط وهذا شيء رائع.

سابعاً: إن أسلوب الخطاب الذي كان ينضح بالإخلاص الكامل والصدق الخالص والتجرد السامي، والخالي من اللعب بالكلمات أو التزويق المصطنع لم يبق للمستمعين قول أي شيء آخر. وهذا شيء مهم جداً من ناحية الوصول إلى النتيجة المطلوبة.

ثامناً: إن إلقاء الخطاب بشكل ارتجالي ودون تفكير مسبق أو تهيئة مسبقة زاد من التأثير الإيجابي له.

هذه الأمور وأمور أخرى أيضاً قد تخطر على البال ترينا أن رسول الله ﷺ لم يكن يحل المشاكل والمصاعب تبعا لهواه الشخصي، بل كان الوحي والإلهام والفطنة المهداة له من رب العالمين.

ب- نبينا ﷺ وجوامع الكلم

البُعْد الآخر لفطنة رسولنا ﷺ هو أنه أوتي جوامع الكلم.

أجل، لقد كان سيد البلغاء. وكيف لا وقد اختاره الله ترجماناً لكلامه ولكلماته. لقد أبدع الكثيرون حتى الآن الكثير من أروع الكلام وأبلغه وأجمله، كل حسب درجته وموهبته، ولكن هناك عمق آخر ولذة أخرى وحلاوة أخرى في كلام سيد البلغاء ﷺ.

ولقد كان بيانه عذبا، وتعابيره ساحرة تدير الرؤوس وتخلب الألباب وتخفق لها القلوب حتى لتكاد أن تقف، وتستسلم له العقول، وتحيا به المشاعر الإنسانية وتنمو، وتعلو الأرواح به وتسمو وترفرف. لقد وهبه الله تعالى قدرة بيان جعلت مستمعيه المحظوظين يستمعون إلي بيانه الجامع الآسر للقلوب وكأن على رؤوسهم الطير، تغمرهم مهابته فينصتون له وقد انعقدت ألسنتهم وسحرت نفوسهم... عندما يتكلم ويسرد جواهر الحكم لا يملك أرباب العقول إلا الإنصات إليه... وعندما يصف الخير والجمال والصدق يأسر بحديثه االعذب الخلاب الأرواح؛ وعندما يهاجم الشر والفساد بكلماته النارية يُغرِق الكفر والمنكر في مستنقعه ذاته. أما عندما يزأر ببراهين دعوته ورسالته يفرّق خفافيش الظلام ويخرس أصحابَ الأرواح المظلمة.

كان ﷺ يدرك أهمية ما خصه الله من ألطاف ونعم إدراكاً واعياً؛ فكان لا يرى بأسا من إعلانها تحدثاً بنعم الله عليه لذا، نراه يقول: «أنا محمد النبي الأمي»

«أُوتيتُ فواتح الكَلِم وجوامعه وخواتمه.»[1]

«إنما بُعثت فاتحاً وخاتماً وأُعطيتُ جوامع الكلم وفواتحه.»[2]

كان ببيانه الذي يشع نوراً وضياء يعلن أنه سيد خطباء الأولين والآخرين.

كان سيد الأنبياء ﷺ بأنفاسه التي تحيي النفوس بلبلاً يشدو في روضة الحق... كلما شدا عبَّر عما في قلبه فتنساب الألحان الإلهية الساحرة من فمه... كلماته الرقيقة الشبيهة بأكمام الورود النضرة وزهوره المتفتحة على أنداء الصباح لم تكن تشبه زهور الآخرين. كانت كل كلمة له على مائدة أقواله نضرة يانعة وجديدة وطرية طراوة قطرة الندى... ولم تتيسر نعمة تذوق وفهم عمق بيانه الساحر الأخاذ هذا إلا لمن سعد بحضور مجلسه من للمحظوظين الأوائل.

لقد حد سيد الفصحاء من جوهر الكلام سيفاً صقيلاً قام -بمجرد رسمه حلزوناً فوق الرؤوس- بمطاردة كل خفافيش البيان الكاذب والمزخرف، وفرت كل الأكاذيب إلى أقصى بلاد العنقاء.

...أسال من أودية البيان ينابيع وعيوناً حَوَّلت صحارى الجاهلية إلى رياض زاهرة، وشلالات هادرة بحيث وجد كل أصحاب القلوب المنفحتة على الإيمان أنفسهم في بحار هذه العيون المتدفقة نحو محيطات الأبدية والأزلية.

كانت كلماته نابعة من وراء الغيب... ولولا كلماته المضيئة بنور الوحي لبقيت العوالم في فوضى واضطراب وعماء؛ لقد أزال بسيف بيانه السِتار عن وجه الطبيعة وزيَّن كتاب الشريعة بنقوش أقواله... الكلام عنده كان بمثابة متاع الفارس، والسهم ذي الريش الذهبي في جعبته... ما زار مكاناً إلا وملأ بالجواهر حجر من يفهم الكلام حق الفهم، وشد قوسه وهاجم بفرسه مواضع الظلام. وعندما شاء الله أن يرسي -وللمرة

(١) «المسند» للإمام أحمد ٢/٢٥٠، ٤١٢؛ «كنز العمال» للهندي ٤١٢/١١

(٢) البخاري، الجهاد، ١٢٢؛ مسلم، المساجد، ٦؛ وانظر: «كنز العمال» للهندي ٤٢٥/١١

الأخيرة– قواعد دولة بكلامه جاء بسيد البلغاء ليقوم بهذه الوظيفة وأعطاه ختمه وسكته.

كان كل فرسان الكلام منذ فجر التاريخ ممن تطلعوا إلى ماوراء أستار هذا العالم بمثابة أفراد كورس غنائي في تمجيد الله تعالى... أما هو ﷺ فكان بمثابة قائد هذا الأوركسترا... وبمثابة رئيس الذاكرين في الحلقة القدسية بالأولياء والأصفياء... جاء فدوى صوته في أرجاء الدنيا وترددت أصداؤه في جنبات العالم فهزته هزاً عنيفاً.

كانت كل ثمرة من الثمار المتزينة بكلماته والتي قدمها للإنسانية من المائدة السماوية مجنية ومهداة له من حديقة حبيبه وخالقه... ومن أكثر جوانب هذه الحديقة خصوصية وسرية وقدسية والتي لم يطلع عليها أحد من قبل، بل قُدِّمتْ له من مولاه كهدية خاصة، إذ لم ير هذه الثمار ولم يقربها ولم يلمسها أحد من قبل.

وعندما كان يجيش قلب هذا العندليب صاحب المكانة السامية ويغمره الوجد والهيام يبدأ بالشدو بأرقّ الألحان وبالغناء بأرق النغمات بأزهار تلك الحديقة الخاصة المقدسة... هنا كانت الألسن الأخرى تصمت... والأرواح تنصت... والقلوب تهيم... والنفوس تذهل أمام قطرات معاني كلماته البليغة الساحرة.

أجل، إن كلماته تشبه البحار التي تنثر اللآلئ على السواحل بأمواجها أو بالشلالات المنهمرة من الآعالي أو بالعيون الفوارة من الأعماق الآخذة بمجامع القلوب... فلا نستطيع قياس غنى أعماق هذه البحار ولا محتوياتها ولا ترجمة هذه الشلالات ولا بلوغ الذُّرَى التي تبلغها هذه العيون الفوارة أو الإحاطة بها.

لقد صرف المئات من الأدباء والمحققين أعمارهم في تدقيق جواهر كلامه والطواف حولها... وتوجه آلاف وآلاف من المفكرين إلى نبع الحياة هذا، وأفنى الكثير من الدهاة حياتهم في الغوص إلى أعماق معاني كلامه... ولكن معاني كلماته بقيت وراء أي نقطة تم الوصول إليها.

أجل، فكما لا تستطيع القطرة الواحدة تمثيل البحر بأكلمه، وكما لا تستطيع الذرة

الواحدة التعبير الكامل عن خصائص الشمس، لا يستطيع العلماء ولا الأولياء ولا الأصفياء الذين يمثلون جزءاً من الحقيقة المحمدية مهما كانوا كاملي الصفات بالنسبة للناس الآخرين أن يمثلوه التمثيل الكامل، ولا أن يعكسوا صورته بأكملها.

إن رسول الله ﷺ رغم أميته وعدم دراسته في المدارس مرشد كامل، بسبب متانة بنيته المادية والمعنوية وصفاء أحاسيسه ورصانة تفكيره وقلبه الواسع المنفتح والمتوجه نحو المعالي؛ فاستطاع بذلك تسلم الرسالة الإلهية كما هي، وحافظ عليها كما هي، وأبلغها للناس كما هي... فقد كانت فطرته وخلقته ميسَّرة لتنفيذ هذه المهمة، إذ تمت المحافظة على صفاء روحه وصانه الله من أي تأثير سلبي للتربية أو المعرفة البشرية ثم زينه بالوحي وأرسله للناس... هذا هو معنى النبي الأمي والمرشد الكامل الذي لم ير مدرسة ولم يتعلم من الناس.

لقد كانت طبيعته وسجيته وأحاسيسه الظاهرة والباطنة وعقله ومنطقه مهيئاً وصالحاً للقيام بوظيفة النبوة ومهامّها، حيث قام بنقل الوحي حتى أصغر تفاصيله ودقائقه دون تعريضه لأي تبديل أو تغيير، بل ينقل الوحي الإلهي للناس كما ينقل المنشورُ الضوءَ المارّ من خلاله لكي يكون ملائماً لعقول البشر...

هذه الرسالة الإلهية النابعة من أطهر مكان والمتدفقة إلى أطهر قلب بُلّغت للناس بألطف وأنزه وأفصح لسان حسب قدرة واستيعاب العقل البشري. وكما أنها أمارةٌ من أمارات النبوة وإشارة إليها فإنها في الوقت نفسه دليل من أدلتها، وحجة من الحجج الدامغة وزادُه أثناء قطعه لتلك المفاور الموحشة والطرق الوعرة وبُراقُه[1] فيها.

وعندما كان يقدم للناس رسائل ربه كان يصرح في الوقت نفسه بنبوته ويعلن رسالته؛ وكذلك عندما كان يستعمل جواهر وأسرار خزائن الوحي الإلهي الساحر في حل معضلات ومشاكل محدّثيه وأصحابه، كان يستعمل الوحي الإلهي نفسه كسيف ماسي في إلزام خصومه وإفحامهم وإسكاتهم.

---

(١) البراق: المركب الذي ركبه الرسول ﷺ في أثناء إسرائه ومعراجه. (المترجم)

كان القرآن بالنسبة إليه كل شيء ... كالهواء والماء... سلاحاً ودرعاً... حصناً وقلعة... وراية ترفرف فوق هذه القلعة... كان يتنفس بالقرآن، ويعلو به كالسحاب إلى الأعالي... يسرع به لنجدة الملهوف المحتاج مثلما تسرع قطرات الرحمة لري عطش المخلوقات وظمإها... ينافح به الظلام ويلوذ به من شرور الأشرار... يصول به ويجول، ويكون نوراً ينتشر في الآفاق.

علماً بأن سيد البلغاء، وسلطان الفصحاء وممثل الحكمة إضافة إلى كنز العلم الإلهي الذي لا ينفد كان كثيراً مّا يوجه إليه العديد من الأسئلة، وكان هناك العديد من المسائل والمشاكل والمعضلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي كانت تنتظر الحل والأجوبة الشافية من لدن رسول الله ﷺ؛ فكان ﷺ يقوم بإيفاء وظيفته النبوية هذه لأن القلب المحمدي الصافي كان المرآة المجلوة لعكس العلم اللانهائي، ومركزه ومنزله ومهبطه وحديقته وبستانه؛ فكان يقوم بشرح القرآن الكريم فيقيد المطلق، أو يطلق المقيد، أو يخصص العام، أو يعمم الخاص، وذلك باستعمال أسلوبه الخاص وبيانه الفصيح علاوة إلى تبليغ رسالة القرآن. فهذه هي مهمة الرسول المبعوث إلى الناس كافة. وما كان بإمكان أي مصلح ومجدد ومرشد للإنسانية جمعاء ومبلّغ للناس أجمعين إلا أن يكون هكذا.

في العهد الذي شُرِّف فيه النبي ﷺ بشرف النبوة كانت الفصاحة والبلاغة أروج شيء في سوق الجاهلية. فقد كانت هذه الأمة –التي حكمت فيما بعد العالم بذكائها ودرايتها– أمة أدبية. لذا، فقد سحرها ما سمعته من الرسول ﷺ من تلاوة للقرآن الكريم أو من حديث أو خطاب، واستمعت إليه مذهولة مفتونة به ومعجبة بما تسمعه منه؛ أما هو ﷺ فقد فرض نفسه عليهم في كل فرصة، ولم يجد أعداؤه ما يَصِمونه به أو ما ينتقدونه به؛ ولو فعلوا هذا أيْ لو قاموا بتقديم أقل اعتراض أو نقد لما تأخر خصومه الموجودون حالياً من تناول ذلك الأمر وتضخيمه وتكبيره وإيصال ذلك إلى كل شخص وإلى جميع أنحاء العالم من أجل إزالة محبته من النفوس، وأمثال هؤلاء لا يتورعون عن تلفيق أحقر الاتهامات وأرذل الافتراءات حوله. ولكنهم مع تفتيشهم هذا لا يجدون شيئاً ضده. وأمام

بيان رسول الله ﷺ وفصاحته وقوة تعبيره لم يستطيعوا أن يقولوا له حتى ما قاله فرعون لسيدنا موسى عليه السلام.[1]

إن صوت من قال: «أدَّبني ربي فأحسن تأديبي» يهدر من فوق ذروة سامقة بشكل لا يملك معه الأصدقاء والخصوم سوى الشعور بالاحترام والإعجاب والتوقير له ولبيانه المملوء فصاحة وبلاغة..

كان من بين أصحابه الكرام العديدُ من أصحاب البلاغة أمثال لبيد، والخنساء، وكعب بن مالك وحسّان بن ثابت وعبد الله بن رواحة، والكثير من الخطباء أمثال أبي بكر وعمر وعلي ومعاوية وعمرو بن العاص وابن عباس والعديد من الفقهاء وأصحاب الحكم... كل هؤلاء قبلوا به مرشداً وأستاذاً وهادياً لهم في كل مسألة وفي كل موضوع.

أما الذين جاءوا من بعده من كبار حفاظ الحديث وشراحه ومن عباقرة مفسري القرآن ومدققيه، ومن أعلام أئمة الفقه والمجتهدين والمجددين الذين سبقوا عصورهم، وآلاف الأولياء العظام والأصفياء والأبرار والمقربين من الذين كان لهم قصب السبق في عالم الأرواح وعلماء الكلام والمنطق، والعديد من العلماء الآخرين في كل فن وعلم، فقد رأوا في أحاديثه وكلامه مرجعاً أميناً وفياضاً صافياً دفاقاً لا يجف ولا ينتهي ولا ينفد، فراجعوه ولجأوا إليه ليشبعوا ظمأهم منه ويطفئوا جوعهم من هذه المائدة الربانية.

أجل، لقد كانت سُنَّته من الأمس حتى اليوم منبع المجتهدين الذي لا يضل وباب العلم الفسيح، والجناح القوي للسابحين في سماء المعرفة والنبع الصافي الرقراق لإلهامات الأولياء والأصفياء. فخلاصة علوم الشريعة، وكل طرق الصوفية وكل العلوم الكونية وأسرار القلب والوجدان نابعة من النبع الصافي لجواهر كلامه النوراني.

لقد بَيَّن بياناً واضحاً كثيراً من المواضيع اعتباراً من بدء الخليقة وخلق الإنسان وانتهاءً إلى يوم القيامة، يوم يساق المرء إما إلى الجنة أو إلى الجحيم... وتحدث عن القلوب

---

(١) يشير الى خطاب فرعون لموسى عليه السلام : ﴿أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين﴾ (الزخرف: ٥٢).

المتفتحة للمعارف الربانية، وعن مشاهدتهم جمال الله في الآخرة... عن الإيمان والعقائد... عن أدق تفاصيل العبادات... تحدث في مواضيع عديدة، واستعمل في كل موضوع اللسان المناسب والبيان المناسب إلى درجة أننا إذا استثنينا القرآن فلن نجد بياناً مثل بيانه ولا فصاحة مثل فصاحته.

تكلم عن الله: ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى بما يناسب هذه المواضيع الحساسة من دقة وتوازن، وعن القيامة والحشر والنشر وعن يوم الحساب وعن الجنة والجحيم فأعطى الأمل الممزوج بالخشية والرهبة المنقلبة إلى سعادة، وعن الملائكة والروح والجن والشياطين وعن أسرار الغيب الأخرى فكأنك تنظر إليها من وراء زجاج بلوري مضبب؛ وتحدث عن الإيمان وعن العمل، وعن الإخلاص في العمل وعن قابلية البذرة للنمو وقابلية التربة للإنبات وعن الحياة التي يهديها المطر وعن جمال الربيع الزاهر والزاخر بالألوان والعطور؛ فكأنك ترى أمامك لوحة مرسومة بريشة فنان عظيم... لوحة تعلم عندما تتأملها كيف تسمو بالإيمان فطرة الإنسان النظيف وكيف تتوسع وتنمو هذه الفطرة بالإسلام، وكيف تنقلب بالإخلاص إلى شجرة طوبا تظلل ما حولها.

تَعْلَم من بيانه أن الصلاة صديق مرافق للإنسان في جلوسه وقيامه، تطرد عنه وحدته وتنير دربه... وأن الوضوء شيء يجري في عروق الإنسان مجرى الروح والدم... نهر أمام بيته يغسله من كل درن. أما الأذان والإقامة فشجرة باسقة... وهدير رعد قاصف يفزع الشياطين ويلقي في قلوبهم الرعب... أما للمؤمنين فروح وريحان يلف أرواح الذاهبين إلى الصلاة.

الزكاة والصدقة كقنطرة توصل بين الجماعات المتشتتة والمتقطعة الروابط، وكمادة تلتحم بها القطع المتكسرة فتصبح قطعة واحدة.

الصيام جنة يحفظ صاحبه فيكون باباً سرياً في أسوار الجنة يساعده في الولوج إلى الجنة. ويكون لصاحبه ساقياً يقدم له شراب الكوثر.

الحج مثل خيّاط يرتق الرتوق... ومثل غاسل يزيل البقع والأوساخ... ومثل مجلس كبير للشورى يجمع الناس على صعيد واحد.

الجهاد مثل فدائي منتصب القامة سد الطرق المؤدية إلى جهنم ومثل موظف استقبال يفتح لك أبواب الجنة ويقول لك مرحَّباً: تفضل بالدخول. ومثل أب رحيم يقيِّد أيدي المعاندين ويسوقهم إلى أبواب الفردوس. أما الذِكْر والدعاء عنده فمثل هاتف لاسلكي يقيم رابطة وعلاقة وحواراً بين المخلوق وخالقه... أما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فمثل موظف ينظم السير... مثل بواب أو حارس واقف على مفترق الطرق وعلى الأبواب ينظم المرور في الطرق أو الدخول من الأبواب.

أما صلة الرحم فمثل أم فتحت حضنها تنتظر، وتتحاسب مع الإنسانية وتتحدث معها وتقف منها موقف المدعي العام، وتبذل لها الوعود، وتمسك بتلابيبها لتحذرها من الانحراف... أي تتشكل هنا لوحة من الموزائيك الحي الرائع تسحر القلوب.

أجل، إن قيامه بشرح وتصوير كل هذه الأمور تصويراً فنياً موضوع يحتاج إيضاحه إلى كتابة مجلدات في كيفية قيامه بذلك، والمواد الأولية التي استعملها في تصويره وفي نقشه وفي زينته، وطراز حركته وأدائه وقوة تصويره وقدرته البلاغية والموسيقية، وكيف قام بذلك دون تصنع ولا تكلف.

إذن، فلندع الشرح الدقيق والعميق لمثل هذه المواضيع المختلفة إلى أربابها والمتخصصين فيها، ولنتناول هنا بعض أحاديثه المباركة التي يعلمها الجميع لكي نشير إلى معانيها العميقة وقوة بيانها ورصانتها.

١- تحليل باقة من الأحاديث

إن أبرز صفة في كلام نبينا ﷺ هو أنه أوجز كلام قيل في موضوعه، وهناك آلاف الأمثلة الممكن إبرازها في هذا المجال، ولا يسعنا هنا إلا إيراد بعض هذه الأمثلة التي يمكن إيرادها في كل عصر كأنموذج على "جوامع الكلم". ولاننسى هنا أن نذكر ونكرر بأن كل أحاديث الرسول ﷺ بهذه الصفة.

أ- بضع كلمات هي ذروة التوحيد

يورد الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ:

«يا غلام! إني أعلّمك كلمات: إحْفظ الله يَحفَظْك. إحْفظ الله تجده تجاهك. إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك. ولو اجتمعوا على أن يَضرّوك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. رُفِعَت الأقلام وجَفَّت الصُّحُف.»[1]

إنه بهذه الجمل الموجزة الفياضة بالمعاني استطاع أن يشرح أعقد مواضيع القدر وتسليم الأمور لله في أسلوب سهل وبسيط. كما أوضح بكلماته القليلة معنى العبادة في مجال الدعوة والحركة.

بـ - الإنسان شخص مسافر

يروى عن ابن عمر رضي الله عنهما الحديث التالي:

«كُنْ في الدنيا كأنكَ غريب أو عابرُ سبيل وَعُدّ نفسَك في أهل القبور.»[2]

إن هذه الجمل الثلاث أوجز كلام في موضوع الزهد والتقوى وفي حفظ التوازن بين الدنيا والآخرة وأكثرها ثراء بالمعنى. ولوكانت هناك جملة أوجز من هذه فلا بد أن يكون هو صاحبها أيضاً.

إن الإنسان غريب في هذه الدنيا، فهو –حسب تعبير جلال الدين الرومي– ناي مقطوع من نبتة القصب، ولأنه أبعد عن صاحبه الحقيقي، فإنه في أنين دائم طوال الحياة. الإنسان شخص مسافر... بدأ بسفره من عالم الأرواح إلى رحم الأم ثم إلى الدنيا فمرحلة

---

(١) الترمذي، القيامة، ٥٩

(٢) البخاري، الرقاق، ٣؛ الترمذي، الزهد، ٢٥؛ ابن ماجة، الزهد، ٣

الطفولة ثم الشباب فالشيخوخة فالقبر ومنه إما إلى الجنة أو إلى النار... ولكن يا ترى أيعي الإنسان أنه مسافر..؟

لو كان واعياً ومتذكراً على الدوام أنه مسافر لما تعثر في طريق الحياة ولما تهالك على لذائذ الدنيا التي لا تساوي شروى نقير، بل لسار في طريقه بقدم ثابتة مطمئنة. نعم، إن لم يَعُدّ الإنسان نفسه من أصحاب القبور، أي بتعبير القدماء "موتوا قبل أن تموتوا"،[1] ولم يمزج حياته بهذه الحقيقة السامية لا يستطيع أن يتخلص من دسائس الشيطان وحيله أبداً... أجل، يجب على الإنسان أن يموت من ناحية النفس الأمّارة بالسوء ومن ناحية شهوات الجسد حتى يحيا من الجانب الروحي.

أليس الذين يرون الحياة عبارة عن النفس وشهواتها فقط مساكين انسحقوا تحت أثقال الجسد؟

ج – عاقبة الصدق والكذب

يروي البخاري ومسلم وأبو داود عن عبد الله بن مسعود الحديث التالي:

«عليكم بالصدق، فإنّ الصدق يَهدي إلى البر، وإنّ البر يهدي إلى الجنة وما يزال الرجل يَصْدُق ويَتَحرَّى الصدق حتى يُكتَب عند الله صِدِّيقاً. وإياكم والكذبَ، فإن الكذب يَهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار. وما يزال الرجل يَكذِب ويَتحرَّى الكذب حتى يُكتب عند الله كذّاباً.»[2]

الصدق شعار الأنبياء، والكذب شعار الكفار والمنافقين.. الصدق أساس مهم يحتضن الحاضر والمستقبل، والكذب لطخة سوداء على جبين الزمن. ليس هناك فرد واحد عاش سعيداً ووصل إلى السعادة الأبدية في ظل الكذب أبداً. وليس هناك فرد واحد مشى في

(١) انظر: «كشف الخفاء» للعجلوني ٢/٢٩١

(٢) البخاري، الأدب، ٦٩؛ مسلم، البر، ١٠٥؛ أبو داود، الأدب، ٨٠

طريق الصدق المنير وباتجاه السعادة الأبدية فأصابه نكد الحظ وشقي في الدنيا وفي الآخرة.

الكذب من أبرز أسس الكفر ومن أوضح علامات النفاق، وهو ادعاء مخالف لعلم الله تعالى. لقد خرّب الكذب كل شيء في أيامنا الحالية.. خرب الناس وجعل الدنيا داراً ومسكناً للكذابين، إنه علة اجتماعية خطيرة ومفزعة إلى درجة أنك لو أعطيته حق الحياة وفتحت له أبواب الوطن والبيت والسوق والبرلمان والمعسكر، وأعطيته حرية التجول فيها لخابت الأمة وما أفلحت أبداً.

وعلى النقيض من هذا فإن الصدق أهم أسس الإسلام وأبرز صفة في الخلق المحمدي وحجره الأساسي والصفة المميزة للأنبياء وللأولياء والمحور الأساسي للرقي المادي والمعنوي. الأول صفة الملائكة والآخر صفة الشياطين. الأول صفة العبيد المكرمين عند الله، والآخر صفة الأرواح الخبيثة. الأول صفة فخر الكائنات عليه أكمل الصلوات وأتم التسليمات والآخر صفة الدجالين.

وكلمة "البرّ" الواردة في متن الحديث تعني جماع الخير، وهي كلمة شاملة تعني صدق التفكير وصدق الحديث وصدق النية وصدق السلوك وصدق العيش... أي يمكن جمع الكثير من صور الخير تحت عنوانه وإرجاعها إليه.

أما كلمة "الفجور" فعلى عكس الكلمة الأولى تعني جماع الشر، ولأنها ضد كل صفات الخير والصلاح فهذا يعني أنها تعني كل الأفكار المنحرفة وكل الكلام المنحرف والسلوك المنحرف، فكأنها بذرة جهنمية.

وفي الحديث هناك مقابلة بين "الصديق" و"الكذاب". ففي الأول نرى الصدق وقد أصبح طبيعة وفطرة لديه فأصبح مثالاً للصدق. أما الثاني فقد عجن الكذب في طبيعته فأصبح من الكذابين المحترفين.

وقد استعملت صيغة المبالغة عند وصف كلتا الصفتين، فالذي نذر نفسه للصدق يكون رمزاً لصدق التفكير وصدق الحديث وصدق السلوك في الدنيا وفي الآخرة ورمزاً للقرب من

الله، إن لم يكن اليوم فغدا، أما الذي ترك نفسه للكذب، فسيكون رمزاً لكذب التفكير وكذب الحديث وكذب السلوك في الدنيا وفي الآخرة، إن لم يكن الآن فغداً.

وهذان الطريقان: أحدهما طويل والآخر قصير، أحدهما نير والآخر مضبب، أحدهما خطير والآخر أمين... هذان الطريقان لابد أن ينتهي أحدهما إلى الجنة والآخر إلى الجحيم... في كل محطة من محطات الطريق الأول هناك مكافآت وجوائز لصاحبه ثم ينتهي الطريق إلى الجنة. وفي الطريق الثاني الخيبة والسوء ثم ينتهي الطريق إلى جهنم وإلى الخسران الأبدي.

كنا قد ذكرنا هذا الحديث في موضوع صدق رسولنا ﷺ. غير أننا نريد أن نقف هنا على نتائج الصدق في الدنيا وفي الآخرة، وعلى أضرار الكذب على مستوى الفرد وعلى مستوى الحياة الاجتماعية، وكيف أن الحديث النبوي استطاع أن يغطي كل هذه المعاني في جمل قصيرة ومركزة.

أجل، إن المدقق لهذا الحديث فقط يدرك ويتأكد تماماً بأن جَمْع كل هذه المعاني الطويلة والمفصلة في مثل هذه الجمل القليلة والقصيرة وإظهار هذه المعاني بهذه الطريقة الساحرة للنفوس ليس إلا ميزة خاصة برسول الله ﷺ فما من أحد غيره يستطيع ذلك.

د – المرء مع من أحب

يروي البخاري ومسلم أيضاً عن عبد الله بن مسعود الحديث التالي: «المرء مع من أحب.»[1]

إن شرح وإيضاح معاني هذا الحديث يتطلب مجلداً كاملاً على الأقل. فالمرء الذي تعثر وظل في منتصف الطريق... الذي لم يستطع السير تماماً وراء مرشده... الذي لم يستطع إنجاز ما كان يجب أن ينجزه... هذا الحديث هو بمثابة قدح كوثر لمثل هؤلاء المنكسرة

(١) البخاري، الأدب، ٩٦؛ مسلم، البر، ١٦٥

قلوبهم. هذا الحديث يوضح أن الإنسان -سواء أكان في جانب الخير أم في جانب الشر- سيكون مع من أحب، فالإنسان هنا أو هناك يكون دائماً مع من يحب. فمن كان يريد أن يكون مع الأنبياء والصديقين والشهداء عليه أولاً أن يحبهم وبتعبير آخر فإن الذين يكونون يوم القيامة مع الأنبياء والصديقين والشهداء هم أولئك الأشخاص الذين كانوا يحبونهم في الدنيا. كما يسري معنى الحديث فيشمل الذين يمثلون الشر والفساد أيضاً؛ ومن ثم فإن الحديث المكون من جملة واحدة فقط يشمل كل هذه المعاني ومعاني أخرى كثيرة وبكل هذا الإيجاز الشديد... وليس هذا في وسع أحد إلا من كانت فطنته مفتوحة للإلهام الرباني والوحي الإلهي.

لقد كان نُعَيْمان يشرب الخمر أحيانا، وكان الرسول ﷺ يطبق عليه الحد الشرعي. نعم لقد كان ما يقترفه ذنبا، ولكن لـمّا تلفظ أحد الصحابة بكلمة توبيخ في حقه وسمع هذا رسول الله ﷺ قطّب حاجبيه وقال: «لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم فوالله ما علمتُ أنه يحب الله ورسوله.»[1]

فلمّا كان حب الله ورسوله يؤدي إلى كونه معهم لذا، فليس من اللائق شتمهم وإن اقترفوا بعض الذنوب. ويكفي لهذا الحب أن يؤدي الإنسان الفرائض الواجبة ويتجنب اقتراف الكبائر لكي يكون مع رسول الله ﷺ، ذلك لأن المرء مع من أحب.

هـ - التقوى

يروي الإمام أحمد بن حنبل عن معاذ بن جبل رضي الله عنه الحديث التالي:

«اِتّقِ اللهَ حيثما كنتَ وأَتْبِع السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها وخالِق الناس بخُلق حَسن.»[2]

ليس هناك شيء آخر مثل الخلق الحسن يرفع الإنسان. فالخلق الحسن هو خُلق الله،

(١) البخاري، الحدود، ٤-٥؛ أبو داود، الحدود، ٣٥؛ «المسند» للإمام أحمد ٢/٢٩٨-٢٩٩

(٢) الترمذي، البر، ٥٥؛ «المسند» للإمام أحمد ١٥٣/٥

والخلق الحسن هو التخلق بخلق الله تعالى.

فنحن أمام حديث يشرح التقوى وكيفية المحافظة عليه وهو موضوع يمكن أن يكتب في حقه المجلدات. ونظراً لأن هدفنا هنا هو إعطاء بعض الأمثلة، فإننا لن نشرح هنا هذه الحقائق السامية المتعلقة بالتقوى.

و – كما تكونوا يُوَلَّى عليكم

في حديث آخر يقول رسولنا ﷺ: «كما تكونوا يُوَلَّى عليكم.»[1]

حسب نوعيتكم يكون نوع رؤسائكم... من أي نبع كنتم فرؤساؤكم محصول هذا النبع... هذا كلام يمكن أن تصنف فيه مجلدات وخاصة في موضوع الإدارة. وإذا سمحتم لي فسنتناول هذا الموضوع قليلاً بالشرح:

طبقا لحديث: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيته.»[2] فلكل واحد حدود لمسؤولبته... ويستمر هذا حتى نصل إلى رئيس الدولة الذي تشمل مسؤوليته كل البلد الذي هو على رأسه. غير أن حديث «كما تكونوا يُوَلَّى عليكم» يكسب هذا الموضوع بُعدا آخر من زاوية القانون الاجتماعي.

أولاً: يقول الحديث منذ البداية للمواطنين: إنكم في غاية الأهمية. لأن الذين سيحكمونكم لا بد أن يطرقوا بابكم ويكونوا في حاجة إليكم مهما كان الطريق الذي سيسلكونه في هذا، أي أنتم الذين تقومون برسم الطريق أمامهم.

إن لعلم الاجتماع قوانينه التي لا تتغير ولا تتبدل، فكما توجد لعلوم الفيزياء والكيمياء وعلم الفلك قوانينها الفطرية (أو شريعتها الفطرية) ومبادؤها التي لا تتغير، كذلك توجد لعلم الاجتماع قوانينه ومبادئه التي لا تتغير إلى يوم القيامة. فإذا رأينا الناس

---

(١) «كنز العمال» للهندي ٨٩/٦

(٢) البخاري، الجمعة، ١١؛ مسلم، الإمارة، ٢٠

يسمحون بتواجد الشر ونموه فما ذلك إلا لأنهم سمحوا لهذا الشر أن يستوطن قلوبهم وصدورهم، فكان من الطبيعي أن يداروا ويحكموا بوساطة الأشرار... لأن هذا ناموس إلهي لا يتغير.

أجل، لنتساءل: هل يعيش الشر في نفوس الناس وهل يجد فيها تربة صالحة للنمو والانتشار؟ وهل ينبت الفساد في هذه النفوس؟ إن كان الجواب "نعم" فإن الله تعالى سيأتي لهؤلاء بحكام من نفس طينتهم، ليقوموا بإدارة وحكم هؤلاء الناس.

ثانياً: يقول هذا الحديث أيضاً إن القوانين والأنظمة ما هي إلا مدونات في السطور، وليس لها تأثير كبير، فلو اجتمع الناس وتعاونوا ليكتبوا أفضل القوانين فليس هذا مهماً، بل المهم هو مدى تطبيق هذه القوانين؛ لأن أخلاق هؤلاء الناس هي المعيار الأول؛ لأنهم إن كانوا على خلق وحلّوا مسائلهم وما يعرض لهم من مشاكل بصيغة أخلاقية فإن الذين سيأتون لإدارتهم لن يكونوا أشخاصاً سيئين. ولأنقل لكم هنا حادثة واقعية تتعلق بهذا الموضوع:

كان "طاهر أفندي" أحد النواب في المجلس النيابي الأول. وكان عالماً فاضلاً. وبينما كان النواب الآخرون منهمكين في إلقاء الخطب الرنانة في الساحات، كان طاهر أفندي يفضل لزوم الصمت. غير أن محبيه وأنصاره ألحوا عليه كثيراً لإلقاء خطبة في أحد الميادين وأقنعوه بذلك، ولكونه شخصاً لا يحب الثرثرة، بل يفضل الكلام الموجز المفيد فقد قال لهم في خطبته تلك:

"أيها الحاضرون! اعلموا أنكم منتخِبون وأننا منتخَبون ومجلسنا هو منتخَب إليه. وإن ما قمتم به يدعى عملية الانتخاب وكلمة الانتخاب مشتقة من كلمة "النخبة". والنخبة تعني زبدة الشيء فلا تنسوا أن زبدة كل شيء ترجع إلى نوعية ذلك الشيء. ففوق الحليب تتكون زبدة الحليب، وفوق اللبن تتكون زبدة اللبن، وفوق مادة الشب تتكون زبدة الشب."

ويضاهي هذا الجواب الذي أجابه الحَجّاج بن يوسف الثقفي للشخص الذي حدثه عن عدالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ قال الحجاج:

"لو كنتم أنتم مثل أصحاب عمر ﷺ لكنتُ أنا مثل عمر بن الخطاب."

ثالثاً: إن على كل إنسان أن يبحث عن التقصير في نفسه. فما دام كل إنسان يحامي عن نفسه ويدافع عنها فقط، ويبحث عن التقصير عند غيره، فلن يمكنه إحراز أي تقدم إيجابي. فلو لم يغير الناس أنفسهم فإن الله لا يغير ما بهم.[1] فإذا كان هناك فساد في الداخل فلابد أن يسري ذلك الفساد إلى كل مكان حتى يصل إلى القمة.

ويمكن أن نقول نفس الشيء حول صلاح الناس الداخلي واستقامتهم. إذن، يمكن القول بأن وضع ولاة الأمور مرتبط بوضع المواطنين ارتباط النتيجة بالسبب. ومن يدري ماذا يحتوي هذا القول الموجز من جواهر أخرى، وماذا يستطيع أهل العلم من استخراج وحدس المعاني الأخرى منه. فليس هناك قول بشري آخر يشير ويحث إلى وجوب بناء المجتمع بناء صالحاً بكلمات في غاية الوجازة مثل هذا القول... ولا عجب فإنه من صاحب الفطنة العظمى الرسول محمد ﷺ الذي يحلق كل بيان له في سماء الفصاحة والبلاغة.

أجل، إنه يحتل أسمى مكان بين الناس جميعاً في ميدان البيان والفصاحة، فليس هناك من أديب يستطيع أن يبلغ تلك الذروة. صحيح أن أقواله ليست آيات من القرآن، ولكنها بمجملها تحمل صفة الإلهام، ولهذا السبب فإن جميع الأدباء والفصحاء –كما قلنا في بداية الموضوع– لن يصلوا إلى درجة الخدم عنده.

لقد كان حَسّان بن ثابت شاعراً كبيراً... دعا له الرسول ﷺ ومدحه وأيده جبريل عليه السلام. ومع هذا فقد استطاعت الخنساء أن تجد ثمانية أخطاء في أربع أبيات من شعره... هذه الشاعرة العظيمة التي أسلمت عندما استمعت إلى رسول الله ﷺ، وأصبح كل همها هو الاستماع إلى سلطان البيان الذي سحرها كلامه إلى درجة أنها عندما بلغها استشهاد أربعة من أولادها في معركة القادسية لم تنطق بكلمة شكوى واحدة، وهي نفسها التي أغرقت عهد الجاهلية بأشعار الرثاء لأخيها صَخْر والبكاء عليه. ولكن عندما يبلغها نبأ استشهاد أولادها الأربعة في معركة

---

(١) انظر الآية: ﴿إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ (الرعد: ١١).

القادسية لا تشتكي بل تقول: "الحمد لله الذي شرّفني بقتلهم."[١]

كانت الخنساء من الملهمات... فكلما سقط ابن لها شهيداً في المعركـة تلوَّتْ من الألم وهي تحس كأن السهم أصاب صدرها هـي، ولكـن ارتباطها بالرسـول ﷺ كـان قويـا إلى درجة أنها لم تتلفظ بكلمة شكوى واحدة.

ز – الأعمال بالنيات

يروي البخاري ومسلم وأبو داود عن عمر بن الخطاب ﷺ هذا الحديث:

«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يُصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه.»[٢]

لما كانت الهجرة هي السبب وراء هذا الحديث فقد كانت الهجرة هي صلب الموضوع فيه، ذلك لأن سبب هذا الحديث كان الحادثة التالية حسب إحدى الروايات:

كان الجميع يهاجرون من مكة إلى المدينة في سبيل الله، ولكن صحابياً لا نعرف اسمه هاجر من أجل امرأة اسمها أم قيس...[٣] لقد كان هذا الصحابي مؤمنا، غير أن نيته في الهجرة لم تكن مثل الآخرين. كان مهاجراً أيضاً... ولكن في سبيل "أم قيس"، التي عانى كل مشقات الهجرة في سبيلها، لذا أصبح هذا العمل موضوع حديث رسول الله ﷺ دون ذكر أي اسم؛ فحكم هذا الحديث عام يشمل كل شيء وكل شخص، لأن العبرة بعموم الحكم لا بخصوص السبب.

---

(١) «الإصابة» لابن حجر ٢٨٨/٤

(٢) البخاري، بدء الوحي، ١؛ مسلم، الإمارة، ١٥٥؛ أبو داود، الطلاق ١١

(٣) «فتح الباري» لابن حجر ٢٤/١-٢٥

١- * النية

أجل، إن جميع الأعمال حسب النيات، وليست الهجرة وحدها. فإن كانت نية الشخص المهاجر متوجهة إلى الله ورسوله وجد مقابل هجرته الله ورسوله. والشيء نفسه نجده في الصلاة وفي الصيام والزكاة. وكما ورد في حديث سابق فمن يحفظ حقوق الله يجده تجاهه «إحْفَظ الله يَحفظْكَ»؛ وهذا يعني أنه سيجد أمامه عناية الله وكرمه ورحمته. وعندما يجد الإنسان أمامه هذه العناية والكرم تجيش عواطفه ويخر ساجداً لربه فيزداد قرباً منه... وكلما ازداد قرباً من الله كلما صفت نياته في جميع أعماله وأفكاره... وفي ظل إخلاص النية هذه وعندما ينتقل إلى العالم الآخر الذي يتبدل فيه كل شي... أي في القبر وفي البرزخ وفي الحشر وفي الصراط سيجد الله تعالى أمامه، فإن استطاعت أعماله أن توصله إلى درجة "لواء الحمد" فسيجد أمامه رسول الله ﷺ وسيسعد بصحبته فيلقى صحبة وراء كل تصور أو خيال.

أما من كانت نيته لغير الله، بل كانت هجرته وتعبه ومشقته من أجل امرأة أي أن نيته كانت للذة مادية، فهذا يعني في نهاية الأمر أن جميع جهوده والمشقات التي عاناها تكون هباء منثوراً.

إن من يعيش لجسده، ولملذات بدنه، ولا يستمع لصوت روحه ووجدانه سيقضي حياة فارغة لامعنى لها، ولن يجني أبداً النتائج التي يجنيها من نظم حياته في سبيل مرضاة الله تعالى. وقد ورد في حديث آخر: «نية المؤمن خير من عمله.»[1] ذلك لأن الإنسان مهما جهد فلن يصل إلى الهدف الذي نوى الوصول إليه. فكان من رحمة الله الواسعة أن يعامل المؤمن حسب نيته، لأن نيته ستكسب المؤمن أكثر من عمله. ومن ثم كانت نية المؤمن خيراً من عمله من هذه الجهة.

وأنا أود لفت نظركم إلى حديث آخر له علاقة بهذا الموضوع إذ يقول الرسول ﷺ:

---

(١) «مجمع الزوائد» للهيثمي ٦١/١، ١٠٩

«ألا وإن في الجسد مُضْغَةً إذا صلَحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب.»[١]

إذا كنت خالص النية ووجدت تربة صالحة، فإن كل بذرة تبذرها ستنبت نباتاً حسناً. ومع أنها ستكون نبتة ضعيفة في بداية الأمر إلا أنها ستصبح فيما بعد شجرة باسقة نتفيأ تحت ظلالها في الدار الآخرة. وكلما كانت نيتنا صافية كلما بسقت هذه الشجرة وأعطت ثمارها لنا في الجنة. بالنية تنقلب عادات الإنسان وحركاته الاعتيادية إلى عبادة خالصة، فالشخص الذي ينام ناوياً قيام الليل تكون أنفاسه وهو يغط في النوم بمثابة ذكر لله. ولولا ذلك كيف كان يمكن للإنسان وهو بهذا العمر القصير وبهذه الأعمال القليلة أن ينال الجنة؟

أجل، إن كانت الحياة الأبدية مهداة إلى المؤمن، فهي لطف ونعمة مهداة لنيته في العبودية الأبدية مما يكسب بها الجنة الخالدة. والشيء نفسه وارد في القطب المقابل أي قطب الكافر الذي يستحق النار الأبدية. أجل، إننا نكسب الجنة بسبب نيتنا في العبودية الأبدية. ويكسب الكافر النار بسبب الجحود الأبدي الموجود في نيته.

إن النية وحدها هي التي تعطي القيمة لجميع الأعمال بلا أي استثناء سواء أكانت هذه الأعمال كبيرة أم صغيرة، وتنفخ فيها الحياة فتحييها. بل إن النية وحدها في أعمال الخير والبر تكسب الإنسان الكثير من الأجر؛ فمثلاً إنْ همّ الإنسان بحسنة مّا ولم يعملها فِعْلاً فإنه يكتسب أجراً من جراء نيته، فإنْ عملها اكتسب أجر عشر حسنات أو مائة أو أكثر كما يشاء الله تعالى. أما إن هم بسيئة ثم لم ينفذ ذلك السوء فلا تكتب له سيئة من جراء نيته السيئة تلك، وإن قام بذلك العمل السيء كُتبت له سيئة واحدة فقط.[٢] ولا شك أن كل سيئة لها عقاب من جنسها.

---

(١) البخاري، الإيمان، ٣٩؛ مسلم، المساقاة، ١٠٧؛ «المسند» للإمام أحمد ٤/٢٧٠

(٢) البخاري، الرقاق، ٣١؛ مسلم، الإيمان، ٢٠٦-٢٠٧

٢- * الهجرة

ومن الجدير بالملاحظة مدى إشارة الحديث لأهمية الهجرة... صحيح أن الهجرة بمعناها الخاص قد انتهت، لأن رسول الله ﷺ يقول: «لا هجرة بعد الفتح»[(١)] ولكن الهجرة في معناها العام مستمرة حتى يوم القيامة، ذلك لأن الهجرة توأم للجهاد، وُلِدا معاً ويعيشان معاً. والنبي ﷺ يخبرنا بأن الجهاد مستمر حتى يوم القيامة إذ يقول: «الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة.»[(٢)]

أجل، إن الشخص الذي يترك أباه وأمه ودياره ووطنه قاصداً ديار الغربة من أجل إيصال دعوة الله إلى الناس... هذا الرجل الداعية وكل إنسان مؤمن هو في هجرة دائمة وسينال ثوابها.

ومن جهة أخرى لم يعيّن الله ثوابا محدَّداً للهجرة في سبيل الله ورسوله، مما يشير إلى أن ثواب مثل هذه الأعمال تعطى يوم القيامة على شكل مفاجأة سارة؛ فالملائكة تسجل هذه الأعمال كما هي، والله ﷻ هو الذي يقدر ثوابها.

إن أداة "إنما" الواردة في بداية الحديث تفيد الحصر، وهذا معناه أن العمل لا يكون عملاً إلا بالنية... فأي عبادة دون نية لا تعد عبادة، لذا فإنْ صلّى أحدهم ركعة دون نية، أو بقي جائعاً لسنوات أو وهب جميع أمواله، أو قام بجميع مناسك الحج دون نية لا يعد هذا الشخص مصلياً أو صائماً أو مزكياً أو حاجاً؛ لأن النية هي التي تحول جميع هذه الأعمال إلى عبادة.

أ – الهجرة من الذنوب

وعندما ندقق النظر في الحديث نرى أن رسول الله ﷺ شرح موضوع النية وهو

---

(١) البخاري، الجهاد، ١؛ مسلم، الإمارة، ٨٥

(٢) أبو داود، الجهاد، ٣٣؛ «مجمع الزوائد» للهيثمي ١٠٦/١

موضوع واسع بثلاث كلمات، ثم أشار إلى موضوع الهجرة وهو موضوع متشعب بجملتين أو ثلاث مبتدئاً بذكر الهجرة التي تعني ترك المعاصي والذنوب ومتناولاً جميع الهجرات في سبيل الحق حتى يوم القيامة بجملتين أو ثلاث وبأسلوب "السهل الممتنع"، وهذا لا يتيسر إلا لسيد الفصحاء والبلغاء، ومن المفيد القول بأن أفضل المهاجرين هو من هجر المعاصي والذنوب وأخلى قلبه من جميع أنواع الحب عدا حب الله تعالى.[١]

دعا إبراهيم بن أدهم ربه يوماً فقال:

"يا رب! لقد فَنِيتُ في حبك، هجرتُ كل شيء وجئت إليك، لم تَعُدْ عيوني ترى شيئاً غيرك..." وبينما كان مستغرقاً في جو هذا الدعاء الحار، رأى ابنَه بجوار الكعبة، ورآه ابنُه كذلك، فدَفعتْ لَوعة فراق السنين كلاً منهما نحو الآخر... وفي لحظة العناق الحار سمع إبراهيم بن أدهم هاتفاً:

"يا إبراهيم..! لا يجتمع حبان في قلب واحد" فصرخ إبراهيم: "خذ إليك يا رب من كان حائلاً بيني وبين حبك" فهوى ابنه تحت قدميه ميتا.[٢]

ب – الهجرة إلى الرحمة الإلهية

من الهجرة الفرار من المعاصي إلى باب الرحمة الإلهية، ولزوم هذا الباب حتى مجيء العفو الإلهي. وما أحسن قول القائل معبراً عن هذا المعنى:

إلهي عبدك العاصي أتاك   مُقِراً بالذنوب وقد دعاك
وإن تغفر فأنت أهل لذاك   وإن تَطْرُدْ فمن يرحم سواك

إن الإنسان الذي يكره العودة إلى المعاصي والذنوب التي تاب منها، أكثر مما يكره

(١) الحديث الذي يذكر هذا هو «المهاجر من هجر ما نهى الله عنه.» انظر: البخاري، الإيمان، ٤؛ النسائي، الإيمان، ٩؛ أبو داود، الجهاد، ٢؛ ابن ماجة، الفتن، ٢

(٢) «تذكرة الأولياء» لفريد الدين العطار (ترجمته باللغة التركية) ص١٤٦-١٤٩

إلقاءه في النار هو الإنسان الذي يسلك طريق الهجرة بحق وصدق.

إن الإنسان الذي ينظر إلى حمى الله في أرضه نظرته إلى ساحة ملغومة بالمتفجرات، والذي يصون يده ورجله وعينه وأذنه وفمه وشفته عن المعاصي يعد مهاجراً في سبيل الله طوال حياته سواء أكان بين الناس، أم كان منزوياً ومعتكفا، فالهجرة مستقرة في أعماق قلبه وهي رفيقته، غير أن الهجرة في الاعتكاف لها طعم آخر وبعد آخر، إذ يصل الإنسان فيه إلى "الأنس بالله" ويستقبل النفحات الإلهية.

وإذا أردنا تلخيص هذا الموضوع يمكننا أن نقول إن هذا الحديث الشريف يومئ إلى عدة مسائل:

أ- أن النية هي روح العمل، والعمل يعد ميتاً إن كان بغير نية.

ب- أن النية إكسير نوراني حافل بالأسرار يحول الحسنات إلى سيئات والسيئات إلى حسنات.

ج- أن ارتباط العمل بالنية هو الذي يجعله عملا، فالهجرة دون نية تعد سياحة، والجهاد دون نية يعد بغيا، والحج دون نية نزهة، والصلاة دون نية رياضة، والصوم دون نية حمية لغاية صحية... ولكي تكون كل هذه العبادات أجنحة تطير بالإنسان إلى الجنة فلابد من النية الخالصة.

د- أن الجنة الخالدة الأبدية نتيجة لنية العبودية الأبدية، والنار الأبدية نتيجة لنية الجحود والإنكار الأبدي.

هـ- أن الإنسان يستطيع بنيته الحصول على نتائج كبيرة وجوائز ثمينة بجهد صغير وبثمن قليل.

و- أن من يستعمل سر النية كما ينبغي يستطيع أن يطالب بالدنيا كلها.

ز- أن الدنيا والمرأة رغم كونهما من نعم الله إلا أن سوء استعمال هذه النعم، وعدم

مراعـاة الموازيـن الشـرعية عنـد التعـامل معهمـا يعـني إقامتهمـا بديلين لرضـا الله ورسـوله، وذلك يجر إلى خسارة الإنسان كل شيء في مجال الكسب.

وفي النهاية لقد استطاع هذا الحديث في ثلاث أو خمس جمل أن يضم كل هذه المعـاني الكبيرة وغيرها والذي يحتاج كل معنى فيها إلى كتاب كـامل لشرحه. أي استطاع سيد البيان ﷺ أن يرينا الشمس في ذرة، والبحر الزاخر في قطرة.

ح – بلاء اليد واللسان

يروي البخاري من صاحب جوامع الكلم ﷺ هذا الحديث:

«المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه.»[1]

١– * المسلم المثالي

والآن لنحلل هذا الحديث باختصار:

للام التعريف في كلمتي "المسلم" و"المسلمون" هنا معنى محدد. فالمسلم المثالي هو الذي دخل إلى جو السلم والسلامة والثقة وأذاب كيانه فيه. وهو المؤمن الذي لا يمد لسانه ولا يده بالأذى للمؤمنين من أمثاله، وليس الـذي مكتـوب في هويتـه أو بطاقتـه الشـخصية أنـه مسلم أي المسلم بالجنسية، فالموضوع هنا يتعلق بصفات المسلم الحقيقي والمؤمن المثالي.

فـلام التعريـف هنـا للعهـد، والقـاعدة تقـول: إن إطـلاق الذكـر يصـرف نحـو كمـال الوصف. لذا، فعندما تـرد كلمـة المؤمـن فـإن الذهـن ينصـرف إلى معنـى "المؤمـن الكـامل" والمؤمن أو المسلم المذكور في الحديث الشريف هو من هذا النوع.

والإنسان لا يعلم عـادة هـذه الأمـور اللغويـة الدقيقـة، فـلا يعلمهـا سـوى مـن تعلـم في المدارس أو في حلقات التدريس أو عند أحد العلماء فيتعلم دقائق النحو ودقائق اللغة. ولم

---

(١) البخاري، الإيمان، ٤؛ النسائي، الإيمان، ٩؛ أبو داود، الجهاد، ٢؛ ابن ماجة، الفتن، ٢

يكن هذا وارداً بالنسبة لرسول الله، فكلامه لم يكن من عنده، بل من عند المعلم الأزلي. لذا، نرى في بيان الرسول ﷺ جميع دقائق اللغة، وإضافة إلى هذا لا نجد فيه أي قصور أو مخالفة أو خطإ لغوي في كلامه.

والآن لنرجع إلى الحديث:

المسلم هو إنسان السلام والأمن إلى درجة أن المسلمين الآخرين يستطيعون أن يديروا له ظهورهم بكل أمن لأنهم يعلمون بأنه لن يؤذي أي أحد. وعندما يضطرون إلى إيداع أهلهم أمانة عنده يستطيعون ذلك دون أن يخالجهم أي خوف، لأنهم يعلمون عدم صدور أي أذى منه، لا من لسانه ولا من يده، وعندما يتركون مجلساً ضمهم معه، فإنهم يتركونه وهم مطمئنون بأنه لن يغتابهم في غيابهم، ولن يستمع إلى غيبتهم من أحد الحاضرين. وهو يراعي كرامة وعرض الآخرين كما يراعي كرامته وعرضه تماماً. قد لا يأكل ولكنه يُطْعِم. قد لا يشرب ولكنه يسقي، وقد يفتدي الآخرين بروحه، بل قد يضحي بأحاسيس فيوضاته الروحية من أجل الآخرين. ونحن نستخرج كل هذه المعاني من لام التعريف التي تفيد معنى الحصر.

٢- * السلم والمسلم

من جانب آخر هناك جناس بين هاتين الكلمتين. فكلمة "المسلم" وفعل "سلم" يأتي كلاهما من جذر "س ل م" ونظراً لوجود بعض التشابه بين حروفهما فالجناس هنا جناس ناقص. غير أن صيغة كل من هاتين الكلمتين مختلفتان فهذا التشابه والاختلاف يذكرنا بالمعنى التالي:

المسلم هو الإنسان الذي تجري جميع الأمور عنده في "سلم" وفي "سلامة" و"سلام" فقد ترك نفسه إلى الشوق الإلهي بحيث أصبحت جميع حركاته وسكناته حول هذه القوة المركزية. هو يسلم على الجميع.. على من يعرفه وعلى من لا يعرفه.. لذا، تستقر محبته في القلوب.[1]

---

(١) البخاري، الإيمان، ٢٠؛ مسلم، الإيمان، ٦٢

عندما ينهي صلاته ينهيها بالسلام فتتلقى الكائنات العاقلة جميعها هذا السلام من إنسها وجنّها وملائكتها. فهو يسلم على هذه الكائنات وإن لم يكن يراها. وليس هناك عدا المؤمنين من أفشى السلام بهذه الصورة الواسعة.

يتم الدخول إلى الإسلام بأداء أركان الفرائض: الصلاة والصوم والزكاة والحج والنطق بالشهادتين، وهذا يتم بالدخول إلى السلم حسب أوامر الآية الكريمة:

﴿أدخلوا في السِّلْم كافّةً﴾ (البقرة: ٢٠٨). أي ينشر شراعه في بحر السلم ويبحر فيه. ومثل هذا الشخص يفوح سلماً وسلاماً في كل حركة من حركاته، ولن يجد أي أحد فيه شيئا سوى الخير ولن يتوقع أو ينتظر منه سوى الخير.

٣- * لِـمَ اليد واللسان؟

كما هي العادة في كلام رسولنا ﷺ فإن جميع الكلمات المتعلقة بالموضوع مختارة بعناية فائقة. وكما يلاحظ فإن الحديث يشير إلى اليد وإلى اللسان، إذن، فلا بد من وجود حكم عديدة في ذكرهما دون سائر الأعضاء، ذلك لأن الإنسان يستطيع أن يضر إنساناً آخر بطريقتين... إما يضره وجهاً لوجه، أو يضره غيابياً أي من وراء ظهره. فالضرر الذي يقترفه وجهاً لوجه يمثله الضرر باليد، والضرر الذي يقترفه غيابياً يمثله الضرر باللسان. أي إما أن يعتدي الإنسان بنفسه على حقوق الشخص الموجود أمامه أو يعتدي على حقوقه في غيابه بأن يغتابه ويهينه ويحقره. وكلا الأمرين قبيحان ولا يمكن صدورهما من المؤمن أبداً، لأنه يتصرف دائما بمروءة حيال الآخرين سواء أكانوا في حضوره أم لم يكونوا.

ثم إن رسولنا ﷺ يذكر اللسان قبل اليد، ذلك لأن من المحتمل أن يقوم الشخص الآخر بمقابلة الاعتداء اليدوي، غير أن الغيبة الصادرة في غياب الشخص أو الافتراءات الواقعة عليه تبقى في معظم الأحوال دون مقابل. لذلك فإن مثل هذا التصرف يؤدي إلى زرع العداوات بكل سهولة بين الأفراد بل حتى بين الأمم. فتعقب أضرار اللسان أصعب

من إزالة الأضرار التي تحصل وجهاً لوجه، لذا قدم الرسول ﷺ اللسان على اليد. ومن ناحية أخرى تجد في هذا الحديث قيمة المنزلة التي يحتلها المسلم عند الله، بحيث أن أي مسلم آخر لا يستطيع أن يمد له لسانه أو يده.

إن أحد الأبعاد الخلقية المهمة للدين الإسلامي الذي جاء لتأسيس الأمن والسلام هو أن الفرد المسلم مثلما يجب عليه الابتعاد عن كل ما يضره ماديا أو معنويا كذلك يجب عليه الابتعاد عن الإضرار بالآخرين أي ضرر. وليس هذا فحسب بل عليه أن يكون ممثلاً للأمن والأمان في كل شريحة من شرائح المجتمع. أجل، إن المسلم مسلم حقيقي بدرجة شعور الأمن والأمان الذي يضمه في جوانحه. وهو في غدوه ورواحه، وحركاته وسكناته وقيامه وقعوده ترجمان للشعور النابع من "السلام"[1]: فعند مقابلته للمؤمنين يسلم عليهم، وعندما يفارقهم يتمنى لهم السلامة... يزين تحيات صلاته بالسلام، ويختم صلاته بالسلام على المؤمنين قبل مغادرة الحضور الإلهي. لذا، فإن من المحال لمثل هذا الشخص الذي أرسى حياته حول محور السلام أن يسير في طريق معاكس لفكره الأساسي، ومضاد للأمن وللسلام المادي أو المعنوي.. الدنيوي أو الأخروي. وبعد هذه النظرة من شاهق على هذا الحديث، لنذكر هذه الخصائص المنبثقة من روح الحديث:

أ - إن المسلم الحقيقي أفضل ممثل للسلام العالمي في الأرض.

ب- إن المسلم أينما وجد ينشر حواليه روح السلام هذا الذي تشربت به أعماق نفسه.

جـ- لا يبتعد المسلم عن إلحاق الأذى أو الضرر بالآخرين فحسب، بل يكون رمزاً للأمن والاطمئنان في كل مكان يذكر فيه.

د- لا فرق عند مثل هذا المسلم بين الاعتداء الذي يتم باليد، أو الاعتداء الذي يتم

---

(١) "السلام" هنا اسم من أسماء الله تعالى. (المترجم)

باللسان غيبة ونميمة، أو بالافتراء والبهتان أو بالإهانة والتحقير. بل يكون ذنب الاعتداء باللسان أكبر من ذنب الاعتداء باليد.

هـ- إنْ اقترف المؤمن بعض هذه الذنوب فسيبقى مؤمنا ولا يخرج عن ملة الإسلام، أي لا تكون هذه الذنوب حداً فاصلاً بين الإيمان والكفر حسب عقيدتنا.

ويشير هذا الحديث ذو البيان المعجز في سطر واحد فقط إلى أن الإنسان يجب أن يسعى في موضوع الإسلام والإيمان -كما في غيرهما من المسائل- ليس إلى الإسلام أو الإيمان الاعتيادي بل إلى مراتبها العليا. ويضع الحب والشوق في القلوب لبلوغ هذه الغايات.

ط - من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه

بعد شرحنا الموجز لمعنى الهجرة ننتقل إلى حديث مضيء آخر لرسولنا ﷺ حيث يقول ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إسلام المرء تَرْكُه ما لا يَعْنِيه.»[1]

يبين الحديث سر وصول المؤمن بإسلامه إلى درجة الإحسان والإتقان، أي الوصول إلى إسلام متين ودون شروخ أو قصورمن ناحية المظهر الخارجي وإلى درجة سر الإحسان من ناحية الباطن. فالواصل إلى هذه الدرجة عليه أن يترك ما لايعنيه... وهو لا بد تاركه.

١- * الوقار الداخلي ينعكس على المظهر

إن عبادات الأشخاص المتسمين باللامبالاة وعدم الجدية تكون كذلك أيضاً غير جدية. وشخص من هذا الطراز قد يقوم للصلاة مُظْهِراً الجدية والوقار، ولكن إن لم تكن الجدية والوقار واصلان إلى أعماق قلبه ووجدانه وإلى عالمه الداخلي كيراعة تحاول أن تظهر نفسها نجمة لامعة، لذا لا ينجح في الاستمرار في مثل هذا التمثيل وذلك لاستحالة إخفاء الخُلق والسلوك. فكل إنسان سيتصرف -إن عاجلاً أو آجلاً- حسب طبيعته

---

(١) الترمذي، الزهد، ١١؛ ابن ماجة، الفتن، ١٢

وحسب خلقه، إلا إذا أصبحت الجدية والوقار طبيعة ملازمة له إذ يمكن الوصول إلى هذا المستوى بالتمرين والتدريب والرياضة الجادة للنفس؛ فإن كانت هذه الرياضة موجودة أصبح الجد خلقاً وتراجع "التظاهر" ولكن الإنسان ابن للاشعوره لا يستطيع التخلص منه، فالعصفور لا يستطيع تقليد مشية الطاووس مدة طويلة. ونستطيع جمع أطراف هذا الموضوع كما يأتي:

حتى يبرز الإتقان خارج النفس فلا بد أن يوجد داخلها الإحسان، أي أن المظهر الخارجي يجب أن يستمد العون من الداخل... فيجب أن يكون داخل النفس جاداً وقوراً لكي يسري ذلك إلى المظهر الخارجي.

عندما ذكر أحد الصحابة الكبار أمام عمر بن الخطاب ﷺ وقيل إنه يستحق أن يكون خليفة قال عمر ﷺ: "إنه أهل للخلافة غير أنه فيه بعض المزاح، والخلافة جِدٌّ لا هزل فيها."[١]

فإذا كانت الخلافة التي تقتضي إدارة الناس تتطلب الجدية، ألا تتطلب خلافة الله في الأرض جدية؟ إن الإنسان الذي لا يتسم بالجد والوقار وهو بين يدي خالقه ومولاه، كيف يستطيع أن يكون شخصا جاداً في المواضيع الأخرى؟

٢- * شعور الإحسان والجد

إن كلمة "مِنْ" الوارد في بداية الحديث تفيد الحصر، أي هنا شرح للطريق الذي يوصل المسلم إلى مرتبة الإحسان وهو تركه اللامبالاة. فطالما لم يكتسب الإنسان الجد ولم يترك اللامبالاة فلا يمكنه البلوغ أبداً إلى مرتبة الإحسان.

في حديث جبريل عليه السلام يتم تناول مرتبة الإحسان في المرحلة الأخيرة. فعندما جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ سأله أولاً عن الإيمان ثم عن الإسلام وبعد أن صدّق أجوبة

---

(١) «عمر بن الخطاب: جوانبه المختلفة وإدارته للدولة» لشبلي النعماني ٢٩٩/١

رسول الله ﷺ سأله: ما الإحسان؟ فأجابه نبينا: «أن تَعْبد اللهَ كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[(١)] [(٢)].

والوصول إلى هذه المرتبة لا يتم إلا بعميق التقوى والزهد والولاية. وعلى الإنسان أن يعيِّن الوصول إلى هذه المرتبة كهدف مثالي وأن يجرب الطرق المؤدية إليها. إن الله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد. أجل، إن قلب الإنسان بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبهما كيف يشاء وكل شيء تجلٍّ من تجلياته؛ فمن العبث البحث عنه في الخارج، ذلك لأنه أقرب إليه من نفسه، وانكشاف هذا السر يكون في مرتبة الإحسان.

٣- * الإتقان في كل شيء

عندما يغمر الإحسان قلب ووجدان الإنسان يسود الإتقان جميع تصرفاته. والحقيقة أن الله تعالى يحب العمل المتقن، إذ يقول في القرآن الكريم: ﴿وقل اعملوا فسيرى اللهُ عملكم ورسولُه والمؤمنون وستُرَدّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ (التوبة: ١٠٥)

أي أن جميع الأعمال ستعرض على الله وعلى رسوله وعلى المؤمنين من ذوي القلوب النيرة والعقول الأريبة وتمر من تدقيقهم وتفتيشهم. لذا، يجب أن يضع الإنسان نصب عينيه أن كل عمل سيؤدى فإنه سيمر من التفتيش والتمحيص، ولذا، فعليه أن يعمل عملاً لا يستحيي ولا يخجل منه؛ ولا يتأتى ذلك إلا بإتقان ذلك العمل. ولكي يوفق الإنسان لأداء مثل هذا العمل عليه أن يكون واصلاً لمرتبة الإحسان. وعندما يتعمق العالم الداخلي للإنسان ترتفع درجة الإتقان في عمله فلا يسقط مثل هذا الإنسان في وهدة اللامبالاة، وهكذا يحصل على محاسن الإسلام، أو بتعبير آخر يعيش الإسلام الحقيقي، ويصل إلى منزلة ملائمة للإسلام الحقيقي الجميل في ذاته.

---

(١) البخاري، الإيمان، ١

(٢) سنتناول باختصار هذا الحديث فيما بعد.

و"ما لا يعنيه" هي الأمور التي لا علاقة له بها وغير الضرورية وغيرالمفيدة له لا في حاضره ولا في مستقبله، بحيث لو انشغل بها فلن يستفيد منها لا هو ولا عائلته ولا أمته أي فائدة. وهكذا فالذي استطاع إدراك جمال الإسلام والوصول إليه يكون قد ابتعد في الوقت نفسه عن اللامبالاة وعدم الجدية.

فهذا الحديث يعلم الإنسان ما يعمله أيضاً. إذ أن على الإنسان أن ينشغل فقط بالمسائل العلوية، بحيث أن كل مسألة منها تكون ذات فائدة له ولأسرته ولمجتمعه وهذا في الحقيقة هو تعريف للإنسان الجدي.

ولا أتمالك نفسي هنا من عرض أمر دقيق أتحسسه من خلال هذا الحديث: ما المقصود بـ"ما لا يعنيه"؟

إن الشخص المشغول بما لا يعنيه لا يجد الفرصة أمامه لكي ينشغل بما يعنيه حقا، إذ لا يجد الوقت الضروري والكافي لذلك. إن الشخص الذي لم يجد نفسه بعد، ولم يجد الجو والاتجاه المناسب لا يمكن أن يقدم على إنجاز عمل إيجابي أو عمل جيد. فالإنسان المغمور حتى ذقنه بما لا يعنيه لا يمكن أن يكون منفتحا على ما يعنيه؛ لأن قلبه ورأسه مليئان بأمور تافهة وعرجاء، فكيف ننتظر من مثل هذا الشخص الانشغال بشيء ذي قيمة؟

وهكذا استطاع رسول الله ﷺ التعبير عن كل هذه المعاني بجملة واحدة مؤلفة من بضعة كلمات. وعندما قمت بشرح معانيه لم أقل شيئا أكثر. كل ما قمت به هو أنني حاولت أن أهوي بمعول التعبير على البنية الرصينة الصلبة لذلك الحديث، فكان كل ما وصلكم عبارة عن بعض القطع المتناثرة منها. وقد لا أكون موفقاً في شرح تلك المعاني كما يجب. غير أن عجزي وعجز أمثالي ليس إلا برهاناً لمدى قوة التعبير عند رسول الله ﷺ وقوة بيانه وفصاحته، ذلك لأننا قد لانحيط علماً بكل معاني أقواله ﷺ التي كان يرسلها ارتجالاً دون تحضير سابق. فالمعاني التي يضيق عنها عالمنا الفكري كانت المعاني الاعتيادية التي يتحدث بها كل يوم. فهل يمكن تفسير هذا إلا بالفطنة؟ إن كلمة العبقرية

تبقى هزيلة وعاجزة في شرح هذه الخصلة.

يـ – الصبر

يتفق مسلم والبخاري في رواية هذا الحديث: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى.»(١)

عندما شاهد رسول الله ﷺ استمرار بعض العادات الجاهلية عند زيارة القبور، منع المؤمنين من هذه الزيارة. ولكنه عاد بعد ذلك وأباحها ودعا إليها إذ قال: «قد كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فقد أُذِنَ لمحمد في زيارة قبر أمه، فزوروها فإنها تُذَكِّر بالآخرة.»(٢) ذلك لأن أفضل نصيحة للإنسان وأكثرها تأثيراً في إنقاذه من طول الأمل موجودة في القبر. ولقد كان رسول الله ﷺ الذي كان رمزاً للوفاء يزور القبور كثيراً ويزور شهداء أحد مرة في الأسبوع على الأقل.

عن أنس بن مالك ﷺ قال مرّ النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر فقال: «اِتَّقي الله واصبري»، قالت: إليكَ عني فإنك لم تُصَب بمصيبتي ولم تعرفه. فقيل لها إنه النبي –في رواية: فأخذها مثل الموت– فأتت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوّابين. فقالت: لم أعرفك... فقال: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى.»(٣)

فقد شرح في أربع كلمات بليغة معجزة مسألة يحتاج بيانها إلى مجلدات.

إن للصبر أنواعا متعددة:

الصبر على المصيبة، والصبر في مقاومة الذنوب والآثام، والصبر على العبادة والاستقامة عليها؛ فأداء الصلاة خمس مرات في اليوم وصيام شهر واحد كل عام على الأقل وأداء الزكاة وإيفاء الأوامر الأخرى المتعلقة بالعبودية.. كل هذه الأمور تتطلب

---

(١) البخاري، الجنائز، ٣٢؛ مسلم، الجنائز، ١٤، ١٥

(٢) مسلم، الجنائز، ١٠٦؛ النسائي، الجنائز، ١٠٠؛ أبو داود، الجنائز، ٧٧، الترمذي، الجنائز، ٦٠؛ ابن ماجة، الجنائز، ٤٧

(٣) مسلم، الجنائز، ١٥؛ البخاري، الجنائز، ٣٢

الصبر وتنظم حياة الإنسان وتصبغ حياته صبغة أخروية. وتنقضي مثل هذه الحياة في درب نوراني وجو تغمره البركة مثمراً الجنة في نهاية المطاف. لذا، كان على الإنسان أن يعض بالنواجذ على هذه العبادات ويصبر عليها لكي ينور حياته ويضيئها.

فالصبر مُرّ مثل تناول "عشب الصبر" المرّ المذاق الذي يستعمله الأطباء في تحضير بعض الأدوية؛ غير أن هذه المرارة ليست إلا في البداية، ثم تكون نتائجها بعد ذلك حلوة على الدوام.

إنه ليس من السهل الصبر على الحوادث المرة الأليمة والصرُّ على الأسنان وتَحمُّل كل المصائب دون فقد للأعصاب ودون اهتزاز أو شلل للفكر وللإرادة. غير أن تحمل هذه الآلام يكون عند الصدمة الأولى. ذلك لأن أي تغيير أو انتقال إلى وضع آخر يؤدي إلى تغيير في الحالة النفسية للإنسان ويخفف عنه ويؤدي إلى نسيان الإنسان للحوادث التي هزته.

لنفرض أن مصيبة مّا أصابتنا... سنعتقد في الوهلة الأولى استحالة تحملنا لها.. علينا أولاً أن نزيل أثر الصدمة الأولى، وهذا يكون بتغيير وضعنا الموجودين فيه.. فإن كنا وقوفاً علينا أن نجلس، وإن كنا قاعدين علينا أن نتمدد، أو نغير شيئا في نوع فعاليتنا.. أن نتوضأ مثلاً أو نصلي أو نبتعد عن موضوع الحديث الذي كنا نتحدث فيه.. أو أن نترك موضعنا ونذهب إلى أي موضع آخر أو إلى أي مكان آخر للالتجاء إلى جو آخر. وأحيانا يكون أخذ سِنة من النوم مفيداً في التخلص من أثر الصدمة الأولى. وعلى أي حال فإن تغيير الوضع أو الحال أو المكان يقلل من تأثير الصدمة ويخفف من أثر المصيبة التي حسبنا أننا لن نستطيع تحملها.

كما أن الصبر ضروري أيضا في قضية الاستقامة على أداء العبادات. فالصلاة مثلاً قد تبدو للمبتدئ عبادة صعبة جدا، ولكن ما إن يصبر قليلاً وما إن تمتزج الصلاة بروحه، حتى يكون عدم أدائه لصلاة وقت واحد جحيماً لا يطاق. ويمكن ذكر نفس الشيء بالنسبة للعبادات الأخرى كالصوم والزكاة والحج.

تأملوا معي كيف أن الشخص المؤدي لعبادة شاقة مثل الحج يملأه شوق عارم كل سنة لأداء الحج مرة أخرى، حتى أنه ليكاد أن يجن من التحديدات التي توضع في موضوع الحج.[1] فمثل هذا الحب للعبادة يعني تجاوز صعوبة الصدمة الأولى.. وهذا ينطبق على سائر العبادات الأخرى تقريباً.

وعلى الإنسان أن يتذرع بالصبر نفسه أمام المحرمات أيضاً. لأن المقاومة المعلنة عند الصدمة الأولى لهجوم الإثم على النفس تخمد شرارته وتضعف طاقته، فيتخلص الإنسان من صدمته. لذا، قال رسولنا ﷺ لعلي رضي الله عنه: «يا عليّ! لا تُتْبِع النظرةَ النظرةَ، فإن لك الأولى وليست لك الآخِرة.»[2] أي إن نظر الإنسان قد ينزلق إلى الحرام، فإذا حول الإنسان وجهه ونظره حالاً فلا يُعَدّ ذلك ذنبا له بل يعد حسنة لأنه لم ينظر إلى حرام. ولكن النظرة الثانية والنظرات الأخرى تنغرز في قلب الإنسان وروحه كسهام مسمومة فتعكر صفو خياله وتضعف القوة المعنوية لإرادته؛ لأن كل نظرة إلى الحرام إنما هي بمثابة دعوة لتيسير الولوج إلى دروب الإثم والمعصية. فكل نظرة تشوق؛ وتدعو إلى نظرة أخرى، وهنا يبدأ الإنسان بفتح أشرعته للإبحار نحو الحرام ويبدأ رحلة يصعب الرجوع عنها. فقبل الوصول إلى هذه المرحلة يجب الصبر عند الصدمة الأولى للحرام وعدم التوجه إليه، بل إغماض العين عنه، وهذا من الوصايا الذهبية لرسول الله ﷺ لنا.

وقديما قال "أبكتيتوس (Epiktetos)":

"عندما تحيط بك الخيالات الضارة حاول الهروب منها في أول فرصة. وإلا فلن تستطيع الرجوع من الموضع الذي ستقودك إليه هذه الخيالات" وهذا قول ملهم، ولو عاش هذا الرجل بعد رسول الله ﷺ لقلنا إنه أخذ إلهامه منه ﷺ.

وعندما يتصرف الإنسان هذا التصرف تجاه الحرام، يكون هذا طبعه وديدنه، ذلك

---

(١) المقصود هو التحديدات التي أصبحت توضع في تركيا وفي غيرها من البلدان الإسلامية حول عدد المسموح لهم بالحج في كل سنة ويكون هذا العدد عادة أقل من عدد الراغبين في الحج مما يولد في نفوسهم الألم. (المترجم)

(٢) أبو داود، النكاح، ٤٣؛ الترمذي، الأدب، ٢٨؛ الدارمي، الرقاق، ٣؛ «المسند» للإمام أحمد ٣٥٣/٥، ٣٥٧

لأن النور الذي يتولد في قلبه من جراء هذه التمارين التي يمارسها يكون ستراً له من الذنوب والمعاصي التي هي بمثابة شرارات من جهنم، إلى درجة أن غضه البصر عن الحرام يدخل ضمن سلوكه الفطري الأصيل. ولو هجس بباله هاجس مخالف لَغمس يدَه في خلية عسل الإيمان الموجودة في قلبه ونأى بنفسه في ظل هذه اللذة الإيمانية عن كل ما يبعده عن هذا الجو الإيماني والمعنوي.

لذا، يمكننا القول بأنه من المستبعد جداً أن يدخل مثل هذا الشخص ساحة الحرام بإرادته.

لكل مصيبة صدمة خاصة بها. وعندما يتم تجاوزها تنقلب المصيبة إلى رحمة، والألم إلى لذة، والهموم إلى أذواق... وآلام مثل هذا الإنسان تكون قد سكنت وهدأت وتركت مكانها للنشوة، غير أن كل هذا مرتبط بتجاوز الصدمة الأولى بنجاح. وهكذا بين وعبر رسول الله ﷺ عن هذا الموضوع العميق بأربع كلمات فقط «الصبر عند الصدمة الأولى»

ك - اليد العليا

يقول نبينا ﷺ في حديث رواه البخاري ومسلم وأحمد بن حنبل ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلى.»[1]

واليد العليا هي التي تنفق وتعطي، واليد السفلى هي اليد التي تأخذ، وذلك كما فسره النبي ﷺ في أحاديث أخرى.[2] وكما أن اليد التي تعطي هي في الحقيقة أعلى من اليد التي تأخذ، كذلك فإن في الحديث إشارة إلى أن الثواب الناتج من الإنفاق يجعل اليد التي تنفق أعلى من اليد التي تأخذ. كما أن فيه اثثارة للكرامة الإنسانية لحث وتشجيع ذوي النفوس السليمة على الإنفاق وتنفيرهم من الأخذ. وقد بيّن الحديث كل هذا

---

(١) البخاري، الوصايا، ٩، الزكاة، ١٨؛ مسلم، الزكاة، ٩٤؛ النسائي، الزكاة، ٥٢؛ أبو داود، الزكاة، ٢٨؛ الدارمي، الزكاة، ٢٢؛ «المسند» للإمام أحمد ٤/٢

(٢) الدارمي، الزكاة، ٢٢؛ البخاري، الزكاة، ١٨

بأسلوب رائع وموجـز لا تنبو كـل كلمـة فيـه عـن موضعهـا، فكـل كلمـة في مكانهـا وفي موضعها الصحيح.

وحتى لا تبقى عملية الإعطاء والإنفاق معلقة في الهواء فقد جعل هناك يدا تأخذ مقابل اليد التي تعطي، وقد وصف الحديث اليد المعطاءة بالخير، ولم يصف اليد التي تأخذ بالشر، ومع هذا فإن في الحديث إشارة من طرف خفي إلى أنها "أقل خيرا" وتنبيه إلى عدم ضرر الأخذ في بعض الظروف.

ومع ورود كل هذه المعاني فإن حديث «اليـد العليـا خير مـن اليـد السفلى» لا يعـني مجرد اليد فالرسول ﷺ قد استعمل الكلمات بمعانيها المجازية.

أولاً: لقد عبر بالجزء وأراد الكل، فالمقصود من اليـد هنـا الإنسـان نفسـه أي أن معنى الحديث هو الإنسان المعطي خير من الإنسان الآخذ.

ثانياً: إن الذي ينفق هو المعطي والذي ينفق عليه هو الآخذ، فلو كان الرسول ﷺ قـد استعمل هذه الكلمات لشرح صفات اليد لكان يجب أن يقول "اليد التي تعطي خير من اليد التي تأخذ"، غير أنه لم يستعمل كلمة "المعطي" ولا كلمة "الآخذ" بل استعمل كلمة "العليا" وكلمة "السفلى" في وصف كلمة اليد؛ لذا، يرد إلى الخاطر نكتة دقيقة وهـي: أن اليد التي تعطي ليست أفضل من اليد التي تأخذ في جميع الأحوال. ففي بعض الأحيان قـد تكون اليد الآخذة أفضل بكثير من اليد المعطية، وذلك إذا كانت مضطرة أو كانت تحمل نية إثابة اليد المعطية بإنفاق هذا المال في مواضعه الصحيحة، أو عندما يكون صاحب اليـد المعطية مناناً، ففي كل هذه الأحوال تكون اليد الآخذة هي اليد العليـا، وإن كـانت اليـد المعطية هي العليا في الظاهر غير أنها تكون السفلى في الحقيقة.

فقد ترى البعض من الفقراء الصابرين.. شُعثاً غُبراً.. لا يوقرهـم النـاس في المجالس.. وتغلق في وجوههم الأبواب.. هؤلاء يصفهم الرسول ﷺ فيقـول: «لـو أقسموا على الله

لأبرّهم...» كان البراء بن مالك من هؤلاء.[١] وكان المسلمون إذا وقعوا في ضيق في أي معركة، ذهبوا إلى البراء وطلبوا منه أن يقسم بأن ينتصروا، فيقسم فينتصر المسلمون،[٢] وقد تكون يد مثل هذا الشخص يداً آخذة.

وكان ثَوْبان من فقراء الصحابة، ومع ذلك أوصاه الرسول ﷺ بألا يسأل الناس شيئا، ومن ذلك اليوم لم يسأل ثوبان من أي إنسان شيئا حتى إن السوط كان يسقط منه وهو يسير بناقته فينزل عنها ويأخذ سوطه بنفسه لكي لا يسأل أحداً شيئاً ثم يركب ناقته.[٣] فقد يكون من الناس من أعطى لمثل هذا شيئاً.. وذلك كمن يعطي جبريل عليه السلام المتمثل في شكل إنسان شيئا أو صدقة، فمثل هؤلاء الأشخاص لا يكونون أبداً في وضع أقل أو مرتبة أدنى من مرتبة المعطين والواهبين، ذلك لأننا نعلم من حديث يرويه أبو هريرة أنه عندما يتم إعطاء صدقة لمثل هؤلاء الأشخاص فكأنما أعطاها لله تعالى، وكأن الله تعالى هو الذي أعطى هذه الصدقة لهم.[٤]

١- * الوصايا

كأن رسول الله ﷺ يوصينا بعباراته تلك هذه الوصايا:

كونوا أعزاء النفوس، ولا تذلوا أنفسكم بالتسول. ولا تهبطوا أبداً أفرادا كنتم أو أمة إلى مستوى اليد الآخذة، بل كونوا دائما اليد المعطاء، وبمثل هذا تُبقون على مكانتكم المرموقة وتحافظون على عزتكم؛ ولا تنسوا بأن اليد العليا تكون دائماً في أمن وهي تعطي وتبذل، واليد السفلى تكون دائماً في قلق وهي تلتقط العطايا. كونوا أنتم اليد الحاكمة، ولا تكونوا اليد المحكومة، فإن كنتم فوق كنتم اليد العليا.

---

(١) الترمذي، المناقب، ٥٥

(٢) «الإصابة» لابن حجر ١/١٤٣، ١٤٤

(٣) أبو داود، الزكاة، ٢٧؛ ابن ماجة، الزكاة، ٢٥؛ «المسند» للإمام أحمد ٥/٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨١

(٤) البخاري، الزكاة، ٨؛ مسلم، الزكاة، ٦٣-٦٤

٢- * المقياس الدولي

يشكل هذا الحديث مقياساً وقسطاساً لنا لا يخطئ في المناسبات الدولية؛ فإن كنا يداً عليا كانت لنا مكانتنا في التوازن الدولي. عند ذلك تجد جماهيرنا الفرصة السانحة للتخلص من استغلال القوى العظمى لها ولثرواتها. وإلا لما تخلصت من وضع الجماهير المهانة والمستغلة؛ والمنظر العام الذي نراه اليوم في عالمنا هو مصداق ما نقول فالقوى العظمى تقوم بامتصاص دماء الأمم والشعوب مقابل ما تعطيه لهم من دراهم معدودة غايتها الدعاية، تسترجع فيما بعد أضعاف أضعافها. ونحن الآن نعيش ذلة كوننا "اليد السفلى" لذا، فواجبنا الآن هو السعي على المستويين الفردي والجماعي لتحقيق ما ينتظره العالم الإسلامي بل الإنسانية كلها منا.

هذه المعاني -ومعانٍ أخرى قد لا نعلمها- موجودة في هذا الحديث الوجيز والبليغ لرسولنا ﷺ.

د - زمر ثلاث لا تُزَكّى

يقول رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلّمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم: الْمُسْبِل إزارَه والمنّان الذي لا يعطي شيئاً إلا مَنَّه، والمنفِق سِلْعته بالحَلِف الكاذب.»[1]

كلمة "ثلاثة" ذكرت مطلقة، أي قد تعني ثلاثة رجال أو ثلاث نساء أو ثلاث جماعات، وقد يكون هؤلاء الرجال علماء أو جهلاء. لأن هوية هؤلاء الأشخاص ليست مهمة بل أوصافهم هي الأهم، لذا أطلقت هذه الكلمة ولم تقيد. و"ثلاثة" هنا كلمة نكرة، والتنوين في آخرها يفيد النكور أي أن هولاء الأشخاص مجهولون وغير معروفين

(١) مسلم، الإيمان، ١٧١-١٧٤؛ الترمذي، البيوع، ٥؛ النسائي، الزكاة، ٦٩؛ أبو داود، اللباس، ٢٥؛ «المسند» للإمام أحمد ١٦٢/٥، ١٦٨

ولا يملكون هوية يعرفون بها، لذا فهم وضيعون ومحتقرون إلى درجة لا يستحقون إعطاء أي قيمة أو منزلة لهم، فكما لا ينظر الله إلى وجوههم ولا يكلمهم، كذلك لن تجدوا أنتم فيهم قيمة أو فضلاً لكي تتعرفوا عليهم وتتحدثوا معهم.. هؤلاء لم يسقطوا بأجسادهم بل سقطوا وهزموا بأرواحهم وقلوبهم. فانسحق وجدانهم تحت ثقل أجسادهم فلا يملكون أي استعداد للارتقاء فهم يتدحرجون إلى الدركات السفلى.

وبعد كلمة "ثلاثة" هذه تأتي ثلاثة أفعال تشير إلى المستقبل وترسم أمام الأنظار لوحة قاتمة لهذه الزمر الثلاثة.

١- * محروميات ثلاث:

أ – المحرومية من التكلم

الفعل الأول هو الفعل المضارع الموجود في بداية جملة "لا يكلمهم الله". والفعل المضارع كما يدل على المستقبل فإنه يدل على الحال. والمصيبة تبدأ بخبر أن الله تعالى لن يكلم هذا الإنسان الذي أعطاه ومنحه قابلية الكلام، ولن يخاطبه؛ هذه هي المصيبة الكبرى التي تبدأ بالجملة الأولى. ومع أن الله تعالى يَمُنّ على الإنسان في سورة الرحمن بتعليمه البيان ويَعد ذلك من نعمه، إلا أنه لا يكلم مثل هذا الإنسان، مع أن تكلم الإنسان وتحدثه دليل على صفة الكلام عند الباري عزّوجلّ؛ ولكن هذا الإنسان هبط إلى مستوى لا يقبل فيه الله تعالى التكلم معه، ولا يعطيه هذا الشرف. أهناك عذاب أكبر من عذاب الإنسان الذي يمنع من الكلام والذي لا يُستمع إليه في يومٍ هو فيه في أشد الحاجة إلى الكلام وفي أشد الحاجة إلى شرح حاله والدفاع عن نفسه..؟ إنه يطلب النجدة والغوث.. ويتقلب ألماً وهو يبحث عمن يشرح له حاله.. غير أن الواحد الأحد الذي يستطيع أن ينجده ويغيثه لا يستمع إليه أبداً. وعندما يشرح القران الكريم هذا المنظر يقول ﴿قال اخسؤا فيها ولا تكلّمون﴾ (المؤمنون: ١٠٨). ذلك لأن الدنيا كانت هي محل وموضع كلامكم.. كنتم تستطيعون التكلم هناك والوصول إلى الأنس بالله.. لم تأنسوا بالله في

الدنيا واليوم لا يكون هو أنيسكم.

ب – المحرومية من النظر الإلهي

المنظر التاني أو اللوحة الثانية هي لوحة "ولا ينظر إليهم" إذ لا ينظر الله تعالى إليهم نظرة الرحمة في ذلك اليوم الذي هم فيه أشد الحاجة إلى نظرة عطف ورحمة. وبينما تشرق بعض الوجوه النضرة فرحاً وبشاشة، تعبس بعض الوجوه وتقتم، وهذه هي الوجوه التي لا ينظر الله تعالى إليها يوم القيامة. ويوم يُدعى كل إنسان باسمه ويصل كل إنسان إلى بَرّ النجاة.. في هذا اليوم ما أتعس حال هؤلاء الذين لا يُنظر إليهم.. إن الجلود لتقشعر من هول هذا المصير المفجع. لقد علمنا مدى الألم الفظيع لهذا الأمر من حادثة كعب بن مالك عندما قاطعه النبي ﷺ والمؤمنون لمدة قصيرة نوعاً ما، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم،[1] أما هؤلاء فسيستحقون هذا العقاب إلى أبد الآبدين.. رُحْماك يارب! إن هذا لأفظع من عذاب جهنم.. فما أفظع عاقبة من لا ينظر إليه الرب الرحيم ولو نظرة واحدة، وما أشد عذابه!

مـادا نستطيع أن نقول..؟ لا نستطيع إلا أن نقول بأن الإنسان سيجني ما زرعه، وسيلقى ما عمله.. إن خيراً فخير.. وإن شراً فشر.

ج – المحرومية من التزكية

الوضع الثالث أو المحرومية الثالثة هي "ولا يزكيهم".

عملية تزكية الإنسان، أي عملية تنظيفه وتطهيره من الذنوب تكون في الدنيا.. لأن على الإنسان أن يذهب للآخرة وهو نظيف طاهر، أما في الآخرة فلا ينظف الإنسانَ سوى جهنم... لذا، فإن الله تعالى لا يزكيهم أيضاً.

---

(١) البخاري، المغازي، ٧٩، تفسير سورة (٩) ١٤، ١٩؛ مسلم، التوبة، ٩

إن للإنسان فرصة امتحان واحدة.. فرصة واحدة يستطيع أن ينتهزها وينجح فيها نجاحاً باهراً.. من استغل هذه الفرصة جيداً ربح وكسب، ومن أهملها خاب وخسر، فليس هناك احتمال ثالث.

إن الإنسان المسكين الذي تلوّث وتقرّح قلبه ووجدانه وروحه ومشاعره وجميع اللطائف الربانية الممنوحة له مثل تقرّح جسد النبي أيوب عليه السلام... هذا الإنسان المسكين سينظر إلى حاله يوم القيامة ويسائل نفسه: أأستطيع أن أطهر نفسي..؟ قد تبرق له بارقة أمل غير أن الله تعالى لن يطهر هذه الزمر الثلاث.[1]

٢- * العاقبة: عذاب أليم

والعاقبة هي «ولهم عذاب أليم...» فما أن يخطو هؤلاء خطوة واحدة حتى يجدوا العذاب الأليم أمامهم.. عذاب يحرق النفس ويسرى إلى جميع أوصال الإنسان، فلا يلبثوا أن يجدوا أنفسهم وقد انحدروا إلى هوة وادي العذاب. من هؤلاء الذين تنتظرهم مثل هذه العاقبة المرعبة؟ من هؤلاء الذين لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم؟ ومن هؤلاء الذين أعد لهم هذا العذاب الأليم؟ سيبلغ الفضول مداه لدى قارئ هذا الجزء من الحديث.. وسينقلب كيانه كله ويتحول إلى كتلة من الاهتمام ليرى من هم هؤلاء الزمر الثلاث...

يستمر الرسول ﷺ في حديثه فيقول:

"المسبِل إزارَه" وهذا كناية عن الغرور والكبرياء.. لقد رأيتم ولا شك صور الرومانيين واليونانيين وهم يجرون أرديتهم وأثوابهم. ويمكن مشاهدة هذا بشكل أوضح في الأفلام المتعلقة بهؤلاء القوم. غير أن المهم هنا ليس في إسبال الإزار، بل جعل هذا الشيء رمزاً للغرور والكبرياء، فهذا هو القصد من الحديث.

---

(١) انظر: «اللمعات» لبديع الزمان سعيد النورسي ص١٠

٣- * الغرور والكبرياء

تناولت العديد من الآيات والأحاديث الغرور والكبرياء وشرحت كيف أنهما من الأمراض السيئة التي تؤدي إلى عواقب وخيمة. فمن أحاديث الرسول ﷺ في هذا الخصوص قوله: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه متقال حبّة من خردل من كبر.»[١] ذلك لأن الله تعالى قد سد طرق الهداية أمام من كان في قلبه ذرة من الكبر والعرور إذ قال: ﴿سأصرِف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذّبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾ (الأعراف: ١٤٦).

الكبر ستار يعمي العيون، والقلب الذي داخله الكبر لا يستطيع رؤية المعجزات التي يحفل بها الكون، ولا يدركها ولا يستطيع فهمها، ذلك لأنه عندما تعمى البصيرة فإن البصر الذي يأتي بمعنى الإدراك لا ينفع أبداً.

العظمة والكبرياء لله وحده. وهذه الحقيقة التي تتكرر خمس مرات فوق كل مئذنة في كل يوم كيف يمكن نسبتها إلى أحد آخر؟ يقول الله تعالى في حديث قدسي: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار.»[٢]

والكبر والكبرياء والعظمة صفة من صفات الله تعالى فما يعنيه اللباس والرداء بالنسبة للإنسان يعنيه الكبر والكبرياء والعظمة لله، ولكن بصفة وكيفية لا نستطيع إدراكها. فالذي يريد المشاركة مع الله تعالى في واحدة من هاتين الصفتين وبخه الله وقذفه في جهنم، فالقلب المتكبر لا يجد الإيمانُ إليه سبيلا، وبتعبير آخر فإن القلب المشغول بغير الله لا يستطيع الإيمانُ أن يتربع فيه، فهذا هو وضع الشخص المتكبر المغرور، والحديث يصف مثل هذا الشخص بأنه الذي يجر ثوبه خيلاء.

---

(١) مسلم، الإيمان، ١٤٩؛ الترمذي، البر والصلة، ٦١؛ أبو داود، اللباس، ٢٦؛ ابن ماجة، الزهد، ١٦

(٢) مسلم، البر والصلة، ١٣٦؛ أبو داود، اللباس، ٢٦؛ ابن ماجة، الزهد، ١٦

٤- * المنّان

الزمرة الثانية أو النوع الثاني من الناس هو "المنان". هذا الشخص أعطاه الله تعالى مالاً ، وملكاً لكي يستفيد من نعمه وينفق أيضاً على الآخرين فيجازيه الله تعالى مقابل هذا الإنفاق ألف ضعف.. غير أن هذا الشخص غافل عن هذا الأمر.. غافل ولاهٍ.. وإذا أنفق مرة فإنه يبطل هذا الإنفاق لقيامه بالمنّ على من أنفق عليه، وما علم أن هذا المال الذي أنفقه ملكٌ لله تعالى وهو عبد له.. فكان من المفروض عليه القيام بإنفاق مال الله تعالى ولكننا نراه ينحرف إلى طريق المن وكأن المال ماله.. فما أعظم هذه الغفلة وما أفظع هذا السقوط.

لقد أعطاه الله تعالى مالاً وملكا، وجعل للآخرين حقاً في هذا المال. فإذا به يبخل فلا يعطي، وإذا أعطى منّ على الناس بما أعطاه، وقد كان خيراً له أن يقول معروفاً وكلاماً طيباً بدلاً من القيام بإنفاق أو صدقة يتبعها بالأذى والقرآن الكريم يقول ﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى﴾ (البقرة: ٢٦٣). و"المنّان" بخيل في الوقت نفسه، والبخل يبعد الإنسان عن الله وعن الجنة وعن الناس الآخرين ويقربه من جهنم. يقول الرسول ﷺ في حق البخيل: «البخيل بعيد من الله بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار.»[1]

٥- * الجزاء من جنس العمل

في هذا الحديث قاعدة من قواعد البلاغة، وهي قاعدة "لف ونشر مرتب"، ويستفاد منها ما يلي:

إن قوله "ولا ينظر إليهم" يقابل قوله "المنان"، وقوله "ولا يكلمهم" يقابل "المسبل إزاره"، وقوله "ولايزكيهم" يقابل "المنفق سلعته بالحلف الكاذب"؛ ومن خلال تلك المقابلة نستطيع أن نستخرج النكتة التالية:

إن هذا المنان الذي لم ينظر إلى الناس نظرة رحمة في الدنيا ولم يهتم بهم، بل إنه كان

---

(١) الترمذي، البر، ٤٠

يمن عليهم بعطائه إن أعطاهم شيئاً، ومن ثم أبطل حسنته بهذا المن.. سيلقى في الآخرة جزاء من جنس عمله، وسيعامله الله تعالى بنفس هذه المعاملة فلن ينظر إليه.

وذلك الذي يختال في مشيته ويجر إزاره المسل بغرور ولا يكلم الناس إلا من طرف أنفه، عليه أن يعلم أن الله تعالى لن يكلمه يوم القيامة؛ ومن ثم فليمسك عن هذا السير وعن المضي في هذا السبيل الخطر الذي يفضي به إلى تلك العقوبة المرعبة.

ثم هذا الذي تعود أن يروّج سلعته بالحلف الكاذب لكي يجر من ورائها منافع دنيوية أو يصرّف بضاعته مستهينا بهذا الحلف فإنه ينساق إلى عاقبة وخيمة حيث يتحقق في حقه وعيد "ولا يزكيهم"، والرسول ﷺ رسم له هده اللوحة بقوله "والمنفق سلعته بالحلف الكاذب"؛ فهو يكذب في حياته التجارية لكي يربح ويجر نفعا دنيوياً، وهو يرى بذلك أنه يستطيع غش الناس وخداعهم بالحلف الكاذب، فهؤلاء هم الزمرة الثالثة المستحقة للعذاب.

فلننظر إلى جوامع كلم رسول الله ﷺ. نعم، فهذا القول دين في أعناقنا عند قراءة كل حديث؛ لأن كل عبارة من عباراته تشير إلى أنه رسول الله حقا وصدقا، اللهم صل على سيدنا محمد بعدد أوراق الأشجار وأمواج البحار وقطرات الأمطار وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

هـ - العفة وبلاء الألسنة

في حديث صحيح يرويه الإمام البخاري والترمذي وأحمد يقول رسول الله ﷺ. «من يضمَن لي ما بين لَحيَيْه[1] وما بين رجليه أضمن له الجنة.»[2] إن القائل هذا هو رسول الله ﷺ الذي يعرف معرفة أكيدة وأكثر من أي شخص ما يَضمن وما لا يضمن. فإن

---

(١) لحييه: فكيه، أو منبت لحيته. (المترجم)

(٢) البخاري، الرقاق، ٢٣، الحدود، ١٩؛ الترمذي، الزهد، ٦١؛ «المسند» للإمام أحمد ٣٣٣/٥

قال إنه يضمن الجنة كان هذا ضماناً أكيداً. ومما يدل على ذلك ما جاء في رواية للبخاري عن امرأة عثمان بن مظعون عندما وقفت ترثيه:

...فقالت رحمة الله عليك أبا السائب. فشهادتي عليك: لقد أكرمك الله فقال النبي ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمه؟» فقلت: بأبي أنت يا رسول الله فمن يكرمه الله؟ فقال: «أما هو فقد جاءه اليقين، والله إني لأرجو له الخير. والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي» قالت: فوالله لا أزكي أحداً بعده أبداً.[1]

إذن، فعندما يضمن رسول الله ﷺ الجنة لمن يضمن ما بين لحييه وما بين رجليه فإنه لم يضمن هذا عن هوى في نفسه، بل لا بد أن يكون هذا إخبار من الله تعالى في هذا الموضوع. وأنه لم ينطق ذلك أبداً عن هوى. ولم يُنطقه الله تعالى حسب هوى نفسه بل صانه عن مثل هذا الأمر. إذن، فما قاله كان على الدوام حقا وحقيقة، ويتحقق ما قاله عندما يأتي أوانه دون ريب؛ فإن حفظت لسانك وحفظت ما بين رجليك وعشت عفيفاً فإنني أقول لك دون أي تردد بأن الزبانية إن ألقت القبض عليك يوم القيامة وأرادت سوقك إلى جهنم فإنك تستطيع أن تصرخ بكل ما أُوتيتُ من قوة بأن رسول الله كفيلك وضامنك، فلا تلبث أن تأتيك شفاعة رسول الله وتنجدك.

١- * الكلام نعمة

لسان الإنسان عضو مهم، وله قيمة كبيرة لأنه مظهر لنعمة البيان، ولكن إن استعمل هذا العضو المبارك في السوء انقلب إلى أكثر الأعضاء ضرراً وفساداً وجرّ صاحبه إلى الهلاك. بهذا اللسان نفسه يسبح الإنسان ربه، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويتلو القرآن الكريم الترجمان الأزلي لكتاب الكون ويفسره للآخرين، ويقوم به أحياناً بهداية الملحدين إلى الإيمان فيكون قد حقق عملا أفضل من كل ما طلعت عليه الشمس

(١) البخاري، الجنائز، ٣؛ «المسند» للإمام أحمد ٤٣٦/٦

وغربت، فيسمو بمثل هذا إلى أعلى عليين.

ولكن هذا الفم نفسه قد يُودِي بالإنسان إلى الهلاك أيضاً. فاللسان هو السبيل إلى جميع أنواع الكفر والضلالة. فالذين يشتمون الله ورسوله يفعلون هذا الشيء القبيح المقزز للنفس بألسنتهم، كما أن الكذب والغيبة والافتراء تكون باللسان فيسقط الإنسان إلى هوة الكذب التي سقط فيها مسيلمة الكذاب.

إذن، فرسول الله ﷺ يقول كلمة واحدة ويشير بالتحذير إلى عضو واحد فيطوي في كلمته هذه المعاني التي ذكرناها باختصار ومئات المعاني الأخرى. فكأنه يقول لنا استعملوا أفواهكم في سبيل الخير لكي أضمن دخولكم الجنة. ولا يقول لنا سُدّوا أفواهكم واقعدوا في زاوية، بل استعملوها في مجال الخير والمعروف.

٢- * أدب الحديث

لا يصرّح الرسول ﷺ بذكر العورة بل يكني عنها بقوله "ما بين رجليه"؛ وهذا مظهر من مظاهر أدبه الرفيع. فقد كان دأبه هذا الأدب السامي والرفيع الخاص به حتى وهو يحدثنا عن أمور طبيعية وفطرية بل إنه عندما يتناول مواضع غير محببة إلى النفس يصورها بصورة تبدو كلوحات محببة. لقد كانت نفسه مرآة لكل الأخلاق الرفيعة والسجايا السامية والجمال الدائم. فانظر مثلا إليه يتحدث عن عضو يخجل الناس من ذكره فيلمح إليه رسول الله ﷺ بأسلوبه الجميل فيقول: "ما بين رجليه"؛ نعم إن أثر الجميل جميل كذلك.

٣- * ما بين رجليه

ما بين الرجلين مهم جداً. إذ كان وسيلة لخروج آدم من الجنة بعدما ذاق الفاكهة المحرمة. ولأن شرح وتحليل الآيات حول إخراج آدم من الجنة خارج موضوعنا فإننا لن نتناوله هنا، إلا أننا سنكتفي هنا بإشارة موجزة إلى أهمية "ما بين الرجلين"؛ فبه بقاء

النسل وحفظ النسب، كما يؤدي الزنا والفحش إلى خراب النسل، وذلك بسبب اختلاط الأنساب عند سوء استعماله وانهدام كل الأمور التي يجب على النظم القانونية حمايتها.

مَن أبُ مَن؟ من يترك ميراثه لمن؟ من يطالب بحقه مِن مَن؟ كيف يمكن صيانة العائلة والأمة؟ كل هذه الأسئلة وأشباهها مرتبطة بعفةِ ما بين الرجلين. فبينما يستطيع الأفراد العفيفون والمجتمعات المتكونة منهم من الحفاظ على بنيتهم الداخلية حتى يوم القيامة، لا يستطيع الأفراد السافطون في مستنقع الزنا والفحش ولا المجتمعات المتكونة منهم من إبقاء وجودهم أكثر من نسل واحد.

وكما في المواضيع الأخرى فان دائرة الحلال هنا أيضاً دائرة واسعة تكفي للنفس فلا تكون هناك حاجة للتوجه نحو الحرام إذ يمكن إشباع تلك الرغبة الموجودة في الإنسان بأفضل شكل في دائرة الحلال لذلك يقول الرسول ﷺ: «تناكحوا تكثُروا فإني أباهي بكم الأمم.»[1]

فالرسول ﷺ سوف يباهي بأمته الأمم الأخرى، وستكثر أمته إلى درجة أن الأمم الأخرى ستبقيٰ بجانبها شيئاً لا بذكر. وتكاثر أمته بهذه النسبة يرجع إلى ما بين الرجلين. فالذين لهم أنساب والذين لا يملكون أنساباً سيظهرون عن هذا الطريق، إذن، فما بين الرجلين منبت خصب يؤدي إلى هذين الضدين.

والإنسان الذي يفتش عن الطريق الحلال في هذا الموضوع يكتسب ثواب القيام بالواجب. وعندما شرح النبي ﷺ هذا الأمر لأصحابه تعجبوا واندهشوا: كيف يمكن هذا؟ فتبسم النبي ﷺ وقال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر.»[2] ذلك لأن ترك الحرام واجب، إذن، فمباشرة المرأة عن طريق الحلال يكسب الإنسان ثواب القيام بالواجب.

---

(١) «فيض القدير» للمناوي ٢٦٩/٣؛ «كنز العمال» للهندي ٢٧٦/١٦

(٢) مسلم، الزكاة، ٥٣؛ «المسند» للإمام أحمد ١٦٧/٥، ١٦٨

وهذا الموضوع الذي قد يستحي من بحثه بعضهم مع أنه طريق ولجه حتى الأنبياء، فلو حُرِم آدم عليه السلام من هذه الرغبة فكيف إذن، كان يأتي فخر الكائنات سيدنا محمد ﷺ إلى الوجود. إذن، فإن الغاية الأصيلة من تلك الفاكهة المحرمة هي مجيء النبي ﷺ، وقد سمعتُ من أحد وُعّاظِنا المتحمسين يقول: "لو علم آدم عليه السلام العلاقة الموجودة بين مدّ يده إلى تلك الفاكهة المحرمة ومجيء محمد ﷺ إلى الدنيا. لم يكتف بمد يده بل قلع تلك الشجرة بجذورها."

٤- * الولاية العمودية

أرجو أن أسترعي انتباهكم هنا إلى موضوع مهم جدا، فالرسول كما ذكرنا قد ضمن الجنة لمن ضمن ما بين لحييه وما بين رجليه. ونحن نعرف قدر الذين بشرهم الرسول ﷺ بالجنة، إذن، فهناك خارج هؤلاء أشخاص استطاعوا الوصول إلى الجنة بما حصلوا من مقام وقرب. وحصولهم على هذا يعني أن ضمان ما بين اللحيين وما بين الرجلين أمر صعب وغير سهل، ذلك لأن الشهوة عندما تسيطر على الجسم كله وتأخذ بزمام النفس وتهز الروح وتحل الإرادة وتضعفها، عندها تكون نفس المرء مفتوحة لكل أنواع السوء.. في مثل هذه اللحظة تكون السيطرة على النفس من أجل مخافة الله وفي سبيله مهمة جدا، إلى درجة أنها تكون وسيلة إلى السمو العمودي للإنسان. والذي يوفق إلى هذا يستحق دون شك ضمان رسول الله ﷺ له دخول الجنة.

أجل، إنني أقول بإصرار بأن من يستطيع لجم فوران نفسه وهيجانها وضبطها ومنعها من الولوج إلى الآثام ومقاومتها على الدوام بصبر لا ينفد.. مثل هذا الشخص قد يحصل في لحظة واحدة على فيوضات لا يحصل عليها شخص قضى سنوات من عمره في تكية، أو شخص يصلي كل ليلة مئات الركعات.. يحصل على هذه الفيوضات وعلى رتبة عالية قد تصل إلى رتبة الولاية.. ولا يذهبن بأحد الظن بأننا نهوّن من شأن صلاة النوافل أو من صوم النوافل.. فهذه النوافل وسائل مهمة في التقرب إلى الله وستبقى كذلك، إنما نريد

التذكير بوسيلة أخرى تساعد على ارتفاع الإنسان نحو الكمالات.

لنفرض أن الله تعالى أودع فينا قوة خمسة أو عشرة أشخاص وجهّزنا بكل ما يلزم الإنسانَ للوصول إلى أوج الكمال الإنساني ولكنه صاننا أيضاً من كل ما يؤدي إلى الإثم.. ولكن المهم هنا هو قدرة الشخص على المحافظة على نفسه مع وجود الدوافع إلى الإثم في فطرته. أجل، فالمَثَل يقول "بحسب المغرم المغنم"، أي على حسب المشاق يكون الأجر والغنيمة، وكذلك بحسب المخاطر يكون العلو والسمو. فكلما زاد جو الخطر الذي تعمل فيه، وكلما تحملت مسؤولية في مجالات الخطر كلما رادت مكافأتك.

لنوضح أكثر:

إن الله تعالى وضع مثلا بعض الصفات المضرة في فطرتك كالغضب والحقد والنفور والشهوة.. الخ، ولكن إن لم تستطع أيٌّ من هذه الصفات المضرة أن تتحكم فيك في أيّ وقت، بل على العكس من ذلك كنتَ قادراً على الدوام بإرادتك القوية على التحكم فيها، وعشت رجل إرادة وروح مؤدياً الفروض والسنن متبعاً طريق القلب والروح دون أن تتصيَّدك المظاهر البراقة الجذابة الداعية إلى طريق جهنم، كما استطعتَ تحمُّل مصاعب سلوك طريق الجنة إذا بك تَرى نفسك وقد حشرت مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين. وأنا أعتقد بأن هذا هو السر في نظرة العطف لرسول الله ﷺ لهذه الجماعة المسلمة التي تمثل حركة البعث الإسلامي الجديد التي تعتصم بالإسلام وتتمسك به في مثل هذا العصر العاصف بالفتن والذي أصبحت فيه الأسواق والشوارع والميادين وكل المظاهر الاجتماعية الأخرى تموج بالفتن وتبتلع الإنسان وتذيبه في جوفها؛ لذا، فإن الشخص الذي يصر على أسنانه ويرفض أن يذوب في مثل هذا المجتمع ويحافظ على كيانه وعلى هويته يستحق أن يكون في معية الصحابة يوم القيامة؛ والصحابة هم رفقاء النبي ﷺ وأصدقاؤه، أما هؤلاء فإخوته، ذلك لأن النبي ﷺ قد اشتاق إلى هؤلاء الناس المؤمنين

به والذين سيأتون بعده بعدة عصور وأرسل لهم سلامه وتحياته وأشواقه.[١]

أجل، فرسول الله ﷺ يخاطب إنسان جميع العصور ولاسيما إنسان هذا العصر ويقول لهم «من يضمَن لي ما بين لَحْيَيْه وما بين رجليه أضمن له الجنة»، وهـذا القول موجه إلى الأشخاص المشتاقين إلى الجنة والمشتاقين إلى لقاء رسول الله ﷺ أشد الشوق. وسيقوم هؤلاء -بإذن الله- بالتصرف بشكل ملائم وموافق لبشارة الرسول ﷺ وينجحوا في هـذا الأمر إن شاء الله.

وهكذا يشرح رسول الله ﷺ الطرق الموصلة إلى الجنة بأوجز وأبلغ عبارة ويرسم لوحة للفرد المثالي وللمجتمع المثالي. وإن حَشْد كل هـذه الحقيقة الكبيرة في مثل هـذه العبارة الوجيزة لا يمكن إيضاحه إلا بكونه ﷺ صاحب فطنة كبيرة.. أجل، فهو سلطان الكلام.. وكلامه كله من جوامع الكلم.

وفي حديث آخر يقول رسول الله ﷺ: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات.» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخُطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط فذلكم الرباط.»[٢]

لنقف ونمعن النظر في عقد لآليء هـذا الحديث حسب قدرتنا. فالرسول ﷺ يبين الطرق التي تنقذ الإنسان من الأخطاء التي تؤدي به إلى أودية جهنم.

يقوم الرسول ﷺ بتنبيه مستمعيه من بدء كلامه باستعمال كلمة "ألا"؛ لأن الأمور التي سترِد في الحديث أمور تستوجب الانتباه. إذ أن تنفيذها يتطلب الانتباه واليقظة. فهناك تصرفات يستطيع الإنسان إتيانها حتى وهو نائم؛ فمثلاً يتجنب الإنسان الوقوع في إثم الزنى أو في إثم الغيبة لكونه نائماً. ولكن التصرفات التي نحن بصددها الآن أعمال تتطلب اليقظة، ولا يستطيع إتيانها إلا المتيقظون. لذا، تم إيراد كلمة "ألا" في بداية الحديث.

---

(١) مسلم، الطهارة، ٣٩؛ النسائي، الطهارة، ١١٠؛ ابن ماجة، الزهد، ٣٦؛ «المسند» للإمام أحمد ٢/٣٠٠

(٢) مسلم، الطهارة، ٤١؛ الترمذي، الطهارة، ٣٩

وكلمة "الخطايا" تجلب انتباه المستمعين؛ لأن كل إنسان يخطئ، ومن يزعم أنه لا يخطئ فهو من أكبر المخطئين؛ فالعصمة وعدم الوقوع في الخطأ من صفات الأنبياء والنبي ﷺ يقول في حديثه: «كل بني آدم خطّاءٌ، وخير الخطائين التوابون.»[1] ولكن رسول الله ﷺ يريد أن يرشد الإنسان إلى حلول للخلاص من الأخطاء التي ستسوقه إلى أودية جهنم.

إن الخلاص من الأخطاء فحسب لا يكفي؛ لأن على الإنسان أن يرقى ويسمو درجات وأن يقطع بعض الأشواط في سبيل ذلك. إلا أننا يمكن أن نقول إن محو خطايا الإنسان يعد بذاته ارتفاعا؛ فإذا ما قام ببعض أعماله الأخرى قد يصل إلى شواهق أخرى. وهكذا فبهذه الأعمال الإيجابية يتقدم إلى الأمام على الدوام، وأنا أعتقد أن هذا هو معنى السير في درجات المعرفة الإلهية. وإن أول هذه الأعمال هو إسباغ الوضوء على المكاره وضوءاً تام الأركان والسنن دون عيوب أو قصور.. الوضوء في البرد وفي الشتاء وفي الثلج، وفي ظروف يبدو أن الوضوء فيها غير ممكن. والثاني قضاء العمر في طريق المسجد.. مثل هذا العمر يكون مثل بذرة تتحول في الآخرة إلى شجرة باسقة ضخمة تعطي ثمار الجنة.. إذن، فهذا هو العمل الثاني: التوجه إلى المساجد البعيدة وعدم الانقطاع عن المساجد.

١- * الهدف: الصلاة

والعمل الثالث هو انتظار الصلاة القادمة في شوق بعد الانتهاء من الصلاة، وهذا -كما جاء في حديث آخر- يعني تعلق القلب بالمسجد.[2] الصلاة هي راحة الروح ونزهة القلب. إن لكل إنسان رغبة شديدة في شيء ما، أما رغبة الرسول ﷺ الشديدة فقد كانت في الصلاة.[3] لذا، كان يقول لبلال: «يا بلال! أرحنا بالصلاة.»[4] ويشير إلى

(١) الترمذي، القيامة، ٤٩؛ ابن ماجة، الزهد، ٣٠؛ الدارمي، الرقاق، ١٨؛ «المسند» للإمام أحمد ١٩٨/٣

(٢) البخاري، الأذان، ٣٦؛ مسلم، الزكاة، ٩١؛ الترمذي، الزهد، ٥٣

(٣) «مجمع الزوائد» للهيثمي ٢٧١/٢

(٤) أبو داود، الأدب، ٧٨؛ «المسند» للإمام أحمد ٣٦٤/٥، ٣٧١

هذا بقوله: «وجُعل قُرّة عيني في الصلاة.»[١] وأنا أظن بأن الشـوق الـذي سيغمرنا ونحن ندخل الجنة هو الشوق الذي كان يحسه الرسول ﷺ في كل مرة وهو يقوم للصلاة، لذا فإنه كان بعد كل صلاة ينتظر الصلاة الأخرى بكل شوق.

مع أن هذا الحديث يتناول أمورا ثلاثة، إلا أننا إن دققنا النظر نجد أن جميعها تدور حول محور واحد هو الصلاة؛ فالصلاة عامل مهم في حياة الإنسان، وهي معراج المؤمن، وهذه الصلاة التي تمتد وتسمو إلى مدارج المعارف أفضل منبِّه للإنسان للحقائق الإنسانية. الصلاة عماد الدين،[٢] وهي التي تقود سفينة الدين؛ ولو لا وجودها لما استطاع الدين البقاء طويلاً. وبما أن الصلاة عملية تنبيه لذا، يجب أداؤها بحيث تؤدي وظيفة التنبيه هذه. فعلى الإنسان أن يصلي وقد أفرغ قلبه من أمور الدنيا ومشاغلها. ولهذا السبب لا تقبل صلاة من يدافعه الأخبثان.[٣] أجل، فعندما يكون عقل الإنسان مشغولاً بمتل هذه الأمور عليه ألا يقوم للصلاة؛ لأن عقل الإنسان يكون آنذاك مشغولاً بشيئين. وفي مثل هذه الأوضاع تضيع أمور كثيرة في معظم الأحيان، كما أن القيام للصلاة بهذه الكيفية يعد إهانة للصلاة. ذلك لأنها ليست من الأمور البسيطة التي يمكن أداؤها كيفما كان. فالصلاة موجودة لكي تقوم بإنارة حياتنا ولا يصح الخروج منها بسرعة وبأي شكل من الأشكال.

٢- * التهيؤ للصلاة

من جهة أخرى فإن كل الترتيبات المتخذة لأداء صلاة بحضور قلب تكسب الإنسان الثواب، مثلها في ذلك مثل الصلاة. لذا، يجب على الإنسان أن يطرح عنه جميع مشاغله قبل أن يدخل ساحة العبادة، وأن يدخلها بشعور العبادة وحدها وأن يخلص نفسه من

(١) النسائي، عشرة النساء، ١؛ «المسند» للإمام أحمد ١٩٩/٣

(٢) «كنز العمال» للهندي ٢٨٤/٧

(٣) انظر: ابن ماجة، الطهارة، ١١٤؛ «المسند» للإمام أحمد ٢٥٠/٥

جميع المشاغل والمؤثرات الأخرى. في هذه الحالة يكتسب الإنسان في فترة الاستعداد للصلاة أجراً وثواباً، لأن نية هذا الإنسان كانت معقودة لأداء صلاة باطمئنان وحضور قلب، ونية المؤمن خير من عمله.[1] أليس من العجيب أن الآخرين عندما يذهبون للخلاء يقومون فقط بدفع حاجة طبيعية، بينما المؤمن عندما يذهب إلى الخلاء وهو يتهيأ للوضوء و للصلاة فإنه عندما يدفع حاجته يؤجر على ذلك أيضاً.

والحقيقة أن دفع الحاجة ثم التوضؤ لأداء الصلاة أمور مهمة لتهيئة الإنسان روحيا للصلاة. ومهما قيل في تفسير التهيؤ للصلاة بالوضوء من أن الوضوء يعادل الكهربائية الستاتيكية المتراكمة في الجسم في أثناء غسل ودلك الأعضاء، أو أي تفسير آخر فإن النتيجة لا تتغير. وفي الواقع فإن المؤمن عندما يتوضأ لا يخطر بباله مثل هذه الحكم أو التفاسير. فهو يفكر فقط في السبب الذي يتوضأ من أجله وهو الصلاة. والتهيؤ للوضوء هو التنبيه الأول، أما الوضوء فهو التنبيه الثاني وسماع الأذان هو التنبيه الثالث للصلاة. والحقيقة أنه في أثناء الوضوء، وفى ختامه يسنّ له الشرب من ماء الوضوء وقراءة بعض الأدعية؛ وهذا كله يدفعه إلى عالم ما وراء الطبيعة، فإذا أتبع هذا بصلاة السنة فإنه يكون قد تهيأ تماماً لصلاة الفرض.

أجل، كل شيء فى جو الصلاة يذكرنا بالصلاة بدءاً من الأذان المرتفع من فوق المآذن الذي يمس قلوبنا ويذكرنا بعظمة الله.. فنقوم ونسرع إلى المسجد تلبية لنداء الأذان، وعندما تنتهي آخر كلمة في الأذان نحس وكأن قلوبنا وأرواحنا قد ذابت معها، ثم نذهب إلى المسجد ونصلي النافلة، وهي بمثابة فتح أبواب صلاة الفرض.. ذلك لأننا نتوجه إلى الله في صلاة النافلة وكأن كل فرد منا نقول لله تعالى: يا رب!. إنني أريد أن أتوجه إليك وحدك.. أن أجد مثيل ما أبحث عنه... أن أراك وأن أسمعك.. وأن أعيش بك وحدك، ذلك لأن النظر إلى ما سواك، ومشاهدة غيرك والانشغال بسواك جهد ضائع وعمل

---

(١) «مجمع الزوائد» للهيثمي ٦١/١، ١٠٩

خاسر، بينما أرغب أن أبتعد عن الأمور الفارغة وأتوجه إلى الأمور المهمة المثمرة.

وهكذا فإن صلاة النافلة تكون وسيلة مهمة في الاقتراب من باب الله والتهيؤ لصلاة الفرض بوعي كامل وتركيز كاف. الوضوء يؤدي دوره.. والأذان كذلك.. والخطوة الثالثة التي تؤديها هي صلاة النافلة.. في هده الأثناء يقوم مؤذن جميل الصوت متوجها إلى الله ويقيم الصلاة.. هنا يكون الانفعال قد بلغ مداه واشتعلت العواطف والتهبت المشاعر. إن لم تلتهب هنا العواطف؛ ولم يتم التوجه الكامل لله تعالى ولم يحن الإنسان إلى محرابه فمعنى ذلك أن هناك نقصاً ما في مكان ما. عندما تتم الإقامة يكون المؤذن قد أنزل الضربة الأخيرة على كل ما يشغل الإنسان عن الله فيدخل العبد إلى الصلاة بقول: "الله أكبر" في مثل هذا الجو وبهذه النية، ويكرر هذا القول وهو يركع وهو يسجد فيعلن في كل ركوع وفي كل سجود عظمة خالقه: يا رب..! أنت كبير عظيم الشأن وأنا ضعيف عاجز. أي يقف أمامه وقفة العبد المعترف بعبوديته وبضعفه. فيصل إلى لب وجوهرها.

يصل الإنسان في الصلاة إلى الله.. يصل إلى درجة أنه يوجه التحية إلى الله تعالى مباشرة.. هذه التحية التي وجهها الرسول ﷺ إلى الله تعالى في أثناء المعراج.

٣- * محو الخطايا

عندما يذكر الحديث الشريف إزالة الخطايا يقول "يمحو الله". وكلمة "يمحو" تستعمل في إزالة شيء مكتوب. إذن، فالخطأ أو الخطيئة موجودة في الطبيعة البشرية بشكل نواة. والإنسان يستطيع أن يسقي هذه البذرة وينميها إن أراد، أو لا يعطي الفرصة لها لمثل هذا النماء. وعندما يقوم الإنسان باتباع وصايا الرسول ﷺ يمحو الله الخطايا ويحوّل قابلية الشر إلى قابلية خير. والآية الكريمة ﴿يمحو الله ما يشاء ويُثبِت وعنده أم الكتاب﴾ (الرعد: ٣٩) تشير إلى هذه الحقيقة. فهناك استعداد في الإنسان لمقارفة الخطأ؛ لأن طبيعة فيه لا يمكن فصلها عنه؛ وهذه صفة مهمة في الإنسان، لذا فإن التوجه والاهتمام بتطهير النفس شيء يهم كل إنسان.

يمكن أن يقع كل إنسان في الخطأ، وقد يقضي حياته وهو منحرف عن الطريق القويم، غير أن الفرصة موجودة دائماً أمام الإنسان لكي يصلح هذه الأخطاء ويمحوها، وأن يرتفع في الدرجات العلى للخير. وإحدى الطرق الموجودة لتحقيق هذا هي الوضوء مهما كانت الظروف صعبة، والطريق الثاني هو السعي بشوق إلى المساجد وتعلق قلبه بها، وعقد النية على الرجوع للمسجد وهو يغادره. والطريق الثالث انتظار الصلاة بعد الصلاة.. هذه الطرق تؤدي إلى محو الخطايا من ناحية وإلى رفع الإنسان في مدارج الخير والكمال من ناحير أخرى.

٤- * الرباط

وصف رسول الله ﷺ هذه الأعمال بكلمة "الرباط" وكرر هذه الكلمة ثلاث مرات، وكما تطلق كلمة الرباط على كل نوع من أنواع البركة الفياضة المادية منها والمعنوية، فإنها تأتي بمعنى الحذر والانتباه لكل نوع من أنواع البلايا والمصائب، كما تطلق على ارتباط المرء بعمل ما أو نذر نفسه له. لذا، أُطلقت كلمة "المرابط" على الجندي الذي يحرس مواضع خطرة ينذر نفسه لمثل هذه الحراسة.

وتشير الآية الكريمة: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ (آل عمران. ٢٠٠) إلى هذه المرابطة وتأمر بها. وفي آية أخرى: ﴿وأَعِدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل﴾ (الأنفال: ٦٠) يأتي معنى الرباط من زاوية أخرى. وبما أن الرباط يأتي بمعنى حصر المرء نفسه لوظيفة ما ونذر نفسه لها، فإن الوظيفة المقصودة في الحديث هي الوضوء والرواح والغدو بين البيت والمسجد، وتعلق قلبه بالمسجد حتى وهو في بيته أو في وظيفته.. فإنْ عمل هذا فمعنى ذلك أنه نذر نفسه لله.

وعبارة رسول ﷺ تفتح هنا باباً في الجناس إذ يقول: إن الرباط في الأصل يطلق على قيام الجنود في نقاط الحدود بنذر أنفسهم للدفاع عن بلدهم ضد الأعداء. فكما أن التهيؤ ضد الأعداء وحشد الحشود لهم في الأماكن التي يخشى دخول الأعداء منها يعد رباطا،

كذلك فإن هناك معركة بين الإنسان وبين الشيطان والنفس، أي بينه وبين أعدائه، وتعد هذه المعركة من بعض الوجوه جهادا أكبر من ذلك الجهاد. والإنسان مكلف للقيام بكلا هذين الجهادين، أحدهما هو "الجهاد الأصغر" والآخر هو "الجهاد الأكبر"، وعندما يشتبك الإنسان في معركة مع أعدائه فإنه لا يجد فرصة لكي يفكر في أهواء نفسه، لذا فهناك احتمال ضئيل جداً أن ينهزم مثل هذا الشخص أمام نوازع جسده، ذلك لأن نفسه أصبحت مشغولة ومملوءة بفكرة الجهاد. ولكن ما إن يدع نفسه للراحة وللتراخي حتى تبدأ الأهواء بمهاجمة نفسه ويزداد احتمال التفافها حول روحه؛ لذا، فعليه بمراقبة نفسه وصيانتها جيدا، وهذا جهاد أيضا، وأهم سلاح مستعمل في هذا الجهاد هو الصلاة. والجهاد يكون تارة فرض كفاية وتارة فرض عين. وهناك مشابهة بين الجهاد المادي والجهاد الداخلي من ناحية فرضيتهما، لذا قال رسول الله ﷺ وهو راجع من إحدى المعارك: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر.»[1]

إن تعلق قلب المرء بالمساجد، أي كونه مشغولاً بالصلاة -أو حسب الفهم النبوي الارتباط بالصلاة ارتباط عشق وشهوة وأن تكون الصلاة قرة عينه- فإن هذا يعادل عمل الفرد المرابط على جبهة القتال. إن أردنا إيراد خلاصة لملاحظاتنا حول هذا الحديث نقول: هناك ثلاثة أعمال يتعلق إثنان منهما بالتصرف ويتعلق الثالث بالنية بحيث تحيط هذه الأعمال بفكر الإنسان وأحاسيسه، لذا فحسب القاعدة الكريمة والمليئة بالبشارة ﴿إن الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات﴾ (هود: ١١٤) فهي تطهر الإنسان من آثامه الماضية وتجهزه بوجد العبادة وبالارتباط بالله تعالى والنية الصالحة لكي يستطيع مواجهة أخطاء المستقبل وذنوبه.

الأول: عندما تكون الظروف الجوية غير مساعدة لوضوء سهل ومريح، كأن يكون الجو بارداً والماء باردا، أو لا يكون متيسراً بل نادراً بحيث يصعب استعماله للوضوء -طبعاً إن استثنينا الحالات الضرورية والمتعلقة بالحياة- عند الأشخاص العاديين، عندما

---

(١) «كشف الخفاء» للعجلوني ٤٢٤/١

يتوضأ الإنسان في مثل هذه الظروف الصعبة فإن هـذا يكون مؤشراً على عمق إخلاص ذلك المرء وشدة ارتباطه بالله، وعلى رغبة عميقة عنده لنيل الثواب وشوق كبير لأداء وظيفة العبودية حتى عند أصعب الظرورف؛ والقاسم المشترك هنا هو الارتباط بالله تعالى. في مثل هذه الظروف عندما تمس بعض الذنوب مثل هذه القلوب فإنها لن تثبت فيها. أما المواضيع الأخرى المتعقلة بالوضوء كقيامه مثلا بتأمين التوازن الكهربائي.. أو مساعدته للإنسان للتغلب على توتره النفسي، أو تجدد الإنسان روحياً خمس مرات في اليوم فلن نتناولها هنا -مع أننا نسلِّم بها- لأنها حارج موضوعنا.

الثاني : أن الصلاة نوع من المعراج.. وأن التعود على التوجه للمساجد هو توجه لله تعالى وتمرين للبدن ومحافظة على نشاطه وحيويته.. وجيشان الروح جيشاناً يجاوز إدراك العقل، وولوج القلب إلى جو الصلاة قبل الصلاة وتأمينها للتركيز الواجب الوصول إليه قبل المتول بين يدي الله، وسلوك هذا الطريق الذي رمز إليه رسول الله ﷺ بكلمة. "كثرة الخطا".. سلوك هذا الطريق والتحول فيه والتغير فيه والتطهر فيه من الذنوب السابقة السوداء بمشاعر الندم الصادقة، وبالبكاء والأنين لكي تصبح صحيفته بيضاء ناصعة، ويدخل في دائرة صلاح يكون فيها الخير وسيلة لخير آخر وهو ضد الدائرة المفرغة. والذي يعزم على السياحة في هذه الدائرة يكون مَظهراً للآية الكريمة التي تمثل الوفاء ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك﴾ (الفتح: ٢) من ناحية ماضيه، ثم يُدخله إلى حصن حصين بقوله "وما تأخر" من ناحية مستقبله. لذا، فإن الأعين شاخصة دائماً في كل منزل من منازل هذه السياحة إلى "يمحو الله به الخطايا" وتهفو القلوب إلى "ويرفع به الدرجات"

الثالث: أن انتظار الإنسان أوقات الصلاة بلهفة تَقرُب من لهفة العاشق إلى الوصال، وتنظيم أوقات حياته ونشاطه حسب أوقات الصلاة مفهوم خاص للزمان يستطيع به الإنسان أن يملأ الفراغات الموجودة بين مختلف أوقات أعماله، وينقل الهدوء والاطمئنان والارتباط بالله تعالى الموجود في الصلاة إلى خارج أوقاتها، ويربط كل مشاغله الدنيوية

بالله تعالى فيحول كل هذه المشاغل إلى عبادة، فتتحول العبادة المحدودة إلى عبادة غير محدودة فيكون أداء الصلاة بروح الانتظار عنوان ارتباط العبد بربه وبمثابة الجهاد المادي والمعنوي المعبر عنه بكلمة "الرباط".

وهذا الحديث الذي يقدم مقطعاً عميق المعنى من الحياة النيرة للمؤمن، هذا المقطع الذي يتزين بالوضوء ويرتفع في الصلاة إلى السماء... هذا الحديث مثال للحديث الموجز ذي الدلالات العميقة الشاملة. وبدلاً من إطالة الحديث أود الانتقال إلى بيان نبوي مضيء آخر. وهو في هذه المرة حديث قدسي. والأحاديث القدسية كما هي معروفة من قبل الجميع هي الأحاديث التي تكون معانيها من الله وأسلوبها من قبل الرسول ﷺ ومروية عن الله تعالى من قبل الرسول ﷺ.

س – مفاجآت للعباد الصالحين

يقول الله تعالى في هذا الحديث القدسي الذي يرويه البخاري ومسلم:

«أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عَيْنٌ رأت ولا أُذُنٌ سمعت ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَر.»[1] يتناول الحديث أخبار مفاجأة، إذ يفاجأ الإنسان هناك بمفاجآت لم تخطر على باله وفي أوقات لم يتوقعها. صحيح أن القرآن تحدث عن بعض نعم الجنة. إلا أنها ليست سوى خطوط عريضة وعناوين ورصد فكر، وإلا فإن من المستحيل هضم وفهم حقيقة هذه النعم في الدنيا. يقول ابن عباس في تفسيره لآية ﴿وأُتوا به متشابها﴾ (البقرة: ٢٥) "لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء" وفي رواية أخرى: "ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء."[2] فعندما تذوقون نعمة هناك ستقولون "إنها تشبه الشيء الفلاني" ولكنها ليست أبداً ذلك الشيء . ذلك لأن نعم الجنة –مثلها في ذلك مثل الجنة– مخلوقة

(١) البخاري، التوحيد، ٣٥؛ مسلم، الجنة، ٤–٥

(٢) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير ٩١/١

لكي تكون متلائمة ومتوافقة مع الحياة الأبدية والخالدة. لذا، فإن من السذاجة أن نتوقع هناك رؤية البطيخ أو التفاح... الخ من فواكه هذه الدنيا.

الجنة هي دنيا المفاجآت، تندهش فيها العقول وتحتار فيها الأنظار وتنتشي فيها القلوب وتثمل فيها النفوس، حتى يكاد الإنسان أن يحتار ماذا يفعل أمام كل هذه النعم، لأن الجنة معرض للنعم المتنوعة المتسلسلة والمتعاقبة للحياة الأخروية. ثم إن رؤية جمال الله تعالى –التي لا تعادل فرحتها فرحة آلاف من سنين الجنة– هي من مفآجات الجنة. أي أن المؤمنين بعد دخولهم الجنة سيرون هناك ربهم وإلا فإن الله تعالى منزه عن الزمان وعن المكان حتى ولو كان المكان والزمان مكان الجنة وزمانها. أجل، فقد هيأت مفاجأة مشاهدة جمال الله تعالى للعباد الصالحين في الجنة.

و"الصالح" معناه الشخص الذي يعمل عملاً لا عيب فيه ولا قصور ولا خلل، أما "الصالحات" فهي الأعمال التي عملت دون عيب أو قصور أو خلل. ولا يمكن تعيين عما إذا كانت أعمال معينة تعد من الصالحات إلا بقياسها بالقسطاس الإلهي. أي أننا نعلم وحسب المقاييس الإلهية كيف تؤدى الصلاة ويتم الصوم ويؤدى الزكاة ويتم الجهاد وكيف تتم المراقبة والعالم الداخلي للإنسان ويُهَذّب الضمير وتثار الروح وتقوى الإرادة وتنمى العواطف والمشاعر. إننا نعلم كل هذه الكيفيات بعرض هذه الأعمال على المقياس الإلهي لنستطيع تقييمها. وبهذا الاعتبار يجب على الإنسان تعيير نفسه حسب البيان الإلهي وبالشكل الذي يستطيع به الحصول على مرضاة الله تعالى، فيكون بذلك قد خطا الخطوة الأولى في عمل الصالحات.

أجل، فكما يقوم الموسيقيّ قبل العزف بتعيير آلاته الموسيقية، كذلك يجب عليكم إن أردتم الحصول على مرضاة الله أن تعيروا وتضبطوا أنفسكم حسب القرآن، وإلا لا ينظر إلى وجوهكم. أجل، إن الله تعالى سميع وبصير. يسمع كل صوت ويرى كل شيء ، ولكن إن كان صوتكم غير ملائم للمقام الالهي فلن يسمعكم، وتكونوا قد فشلتم في إيصال صوتكم.

والصالحات في معنى آخر، هي الأعمال التي تؤدى بكل عناية وبكل دقة. وذلك بناء على معرفة القائم بهذه الأعمال أن الله تعالى يراقب عمله ويلاحظه. إذن، فعلى الإنسان أن يؤدي كل الأعمال الخيرة التي يقابلها بعناية ودقة. ذلك لأنه لا يعلم أحدٌ أيَّ عمل من أعماله سيكون وسيلة لإنقاذه، لذا نرى رسول الله ﷺ يقول: «إتق الله ولا تَحْقِرَنَّ من المعروف شيئاً.»[1] وفي الحديث القدسي الذي نحن بصدده ترد عبارة "لعبادي الصالحين"، ومن ثم فإن أصحاب الأعمال الصالحة لهم قربتهم من الله تعال التي جعلتهم عباداً محبوبين من قبله تعالى. وفي حديث قدسي آخر يشرح موقف الذي يحبه الله تعالى: «فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يَسمع به وبصره الذي يُبصِر به ويده التي يبطش بها ورِجْله التي يمشي بها.»[2]

أي إن العبد يكتسب بأعماله الصالحة قرباً من الله تعالى بحيث ينصبغ بصبغته ويصبح الله تعالى هو المحرك له.. أي يصبح كالميت في يد المغسل يحركه كيفما يشاء، فما ألذ هذا الإجبار الذي يتم من قِبل الرب الذي يدفعه إلى طريق الخير. ومثل هذا الشخص يستحيل عليه أن يعرض عن الله، ذلك لأنه أحرز مرتبة كبيرة بحيث يقول الله عنه "لعبادي" أي يصفه بالعبودية له، فقد وصل إلى درجة المقربين. ومثل هذا الشخص يقول ضارعاً: "خذ بيدي يا رب! خذ بيدي، فإنني لا أستغني عنك."

مثل هذا الشخص يعمل كل ما هو جميل، وفي كل عمل يعمله يبحث عن وسيلة لخلاصه، وبما أنه لا يعلم أي عمل صالح سينقذه، فإنه لا يدع أي عمل خير يفلت من يده، وكل هذه الأعمال ستكون بمثابة صندوق مفاجآت له، وعندما يدخل الجنة يوم القيامة تفتح هذه الصناديق أمامه واحداً إثر آخر فيرى مفاجآت لم ترها عين ولا تسمع بها أذن.

---

(١) مسلم، البر والصلة، ٤٣؛ أبو داود، اللباس، ٢٥؛ الترمذي، الأطعمة، ٣٠؛ وانظر: «فيض القدير» للمناوي ١٢١/١؛ «كنز العمال» للهندي ٥٧٦/٦

(٢) البخاري، الرقاق، ٣٨

أحياناً يكون حتى إرواء كلب سبباً في دخول الجنة[١] وأحيانا يكون حبس قطة حتى الموت سبباً في دخول جهنم.[٢] فإذا أخذنا هذه الحقائق بنظر الاعتبار علمنا أن الجنة وما يعطى فيها إنما هي مفاجأة على الدوام. ثم إن الإنسان لا يمكنه إدراك إلا ما يستطيع مشاهدته أو سماعه أو ما يستطيع تصوره. ولكن الإنسان لكونه محدوداً فإن أحاسيسه هذه محدودة أيضا، ومن ثم فإنه لا يستطيع بحواسه المحدودة هذه إلا إدراك الأمور والأشياء المحدودة. أي إنه لا يستطيع إدراك ومعرفة النعم الموجودة في عالم لا نهائي بأحاسيسه القاصرة والمحدودة هذه. يقول الشاعر ضياء باشا:

"لا يمكن لهذا العقل الصغير إدراكُ لمعاني العالية
ذلك لأن هذا الميزان لا يستطيع وزن هذا الثقل"

وقد يكون أحد التوجيهات ما يأتي: يضاعف الله تعالى أجر الأعمال الصالحة، فيعطي أحياناً عشرة أضعاف وأحياناً مائة أوسبعمائة أو ألفاً أو مائة ألف أو مليوناً وأحياناً بعدد لا يعد ولا يحصى. وليس هناك من عبد يعرف بالضبط نوعية المكافأة المعطاة له، لذا فإنه عندما يجازى بمكافآت هي أضعاف أضعاف عمله بشكل يفوق التصور يوم القيامة يكون ذلك مفاجأة كبرى لم تخطر بباله فط.

ورسول الله ﷺ يخبرنا بهذه الحقائق العميقة بكلمات قليلة وبشكل فوري ودون تفكير مسبق ودون تهيئة مسبقة وبشكل ارتجالي. هذا الكلام فقط يكفي لإثبات كيف أنه كان صاحب فطنة كبيرة تفوق الإدراك البشري. ولأننا مفتونون بكلامه ﷺ لذا، لا نملك أنفسنا من الإشارة إلى بعض أحاديثه الأخرى.

---

(١) البخاري، الأنبياء، ٥٤؛ مسلم، السلام، ١٥٣، ١٥٤

(٢) البخاري، المساقاة، ٩؛ مسلم، السلام، ١٥١؛ الدارمي، الرقاق، ٩٣؛ «المسند» للإمام أحمد ٥٠٧/٢

ع - الجنة محفوفة بالمكاره، والنار بالشهوات

يقول رسولنا ﷺ في حديث ينقله مسلم والبخاري: «حُفّت الجنة بالمكاره وحُفّت النار بالشهوات.»[1] جهنم محفوفة بالشهوات وبالأهواء وبالأجواء التي تماشي رغبات النفس، أما الجنة فهي محفوفة -حسب المنطق الظاهري للعقل- بالمكاره وبالصعوبات. والذين يرون كل شيء في المادة ويفسرون كل شيء بالمادة يتوهمون أن الذين يسلكون الطرق الواصلة إلى الجنة لا يتصرفون تصرفاً جيداً.

والحقيقة أن كلا من الجنة وجهنم تعدان نعمة لنا.. ففي عملية سلوك الطريق تقوم الجنة بتشويقنا لسلوك الطريق المستقيم وتقوم جهنم بتحذيرنا من سلوك الطريق المعوج. فكلما نظرنا إلى الوجه المشرق للجنة اشتقنا للوصول إليها، وكلما تطلعنا إلى الوجه المرعب لجهنم بذلنا جهودنا لمنع أنفسنا من الوقوع في هاويتها فنتشبث بالجنة ونتمسك بها، وهكذا يكون كلاهما رحمة لنا. غير أن الله تعالى عرض علينا الجنة وجهنم كمتاع، وقدمهما في سوق العمل، والإنسان بالإرادة المعطاة له يستطيع أن يختار أحد هذين المتاعين، فمن استعمل إرادته اختار الجنة وكان من السعداء، ومن أراد اختيار جهنم سلك طريقها وكان من الأشقياء.

أجل، إن جهنم محفوفة من كل جوانبها بجو من الشهوات، ويبدو هذا الجو من الخارج في منظر جذاب فيه كل شيء: الطعام والشراب والنوم وكل شهوات النفس وكل ما يشبع رغبات الجسد، وتحيط هذه الشهوات وهذه الرغبات بجهنم إحاطة السوار بالمعصم. والخلاصة أن طريق جهنم طريق كل أنواع الرغبات والشهوات النفسية والجسدية.

أما الجنة فهي صدفة محاطة بالمكاره.. الوضوء وأداء الصلاة والذهاب إلى الحج وإيتاء الزكاة والجهاد ومواجهة المتاعب والمصاعب في سبيل الله، وأن يعمل الإنسان معاملة الأسير في وطنه، وجرد من كل حقوقه الإنسانية وينقل من سجن إلى سجن، ويعرض

---

(١) البخاري، الرقاق، ٢٨؛ مسلم، الجنة، ١

للإيذاء وكل صنوف التعذيب دون أن يكون له ذنب سوى قوله "ربي الله"، ونفيه من وطنه بل حتى تعرضه لحكم الإعدام.. الخ من المكاره والمصاعب التي يتعرض لها، والتي تبدو للعقل الظاهري أموراً كريهة وصعبة على النفس. أجل، فالمكاره والمصاعب هي التي تحيط بالجنة وتسترها بستارها. والذين ينظرون من الخارج لا يرون إلا هذه الأستار. وطبقا لهذه الأستار فإن جهنم تبدو مدغدغة لشهوات النفس، والجنة تبدو مفزعة. وهذا هو السبب في أن معظم الناس خدعوا بهذه المظاهر الخارجية لأنهم اكتفوا بمطالعة الوجه الخارجي لهما. لذا، كان طالبوا جهنم كُثُراً وطالبوا الجنة قلة.

يركض أكثر الناس وراء الحسابات القصيرة الأمد. فهذا الذي يقول "نعم إن الصلاة شيء جميل، ولكن أداءها خمس مرات في اليوم يبدو لي أمرا صعبا" قد قصر نظره على المشقة القليلة الموجودة في الصلاة. وكما أن صعوبة الوضوء في أيام الشتاء أصبحت سبباً عائقاً أمام البعض، غير أن هذا الوضوء أصبح سبباً لتقريب الجنة إلى الذين تحملوا مشقته القليلة خطوة فخطوة. ويمكن إيراد الشيء نفسه بالنسبة للصوم والزكاة والحج والجهاد ولكن ما أكثر من منعتهم عقولهم من التصرف بعقلانية فتعثروا بهذه العقبات الصغيرة ولم يستطيعوا القفز فوقها فأصبحت المكاره المحيطة بالجنة حائلاً بينهم وبينها.

أما جهنم فتشبه الساحرة الشريرة التي وضعت الشهوات البسيطة مصائد للناس يهرعون إليها وهم لا يعلمون أنها خطر مميت، فهم مثل الذباب الذي يهرع إلى العسل فيكون فيه مهلكه.. أجل، فالشهوة عندهم عسل سام. أو يمكن أن نشبه هؤلاء بالفراشات التي تحوم حول النار فتحترق فيها وكذلك يجد هؤلاء أنفسهم في جهنم، عندما يقبلون نحو الشهوات المحيطة بها. ذلك لأنهم لا يرون ما وراء هذه الشهوات التي تشكل ستاراً حول جهنم فيقبلون عليها مستجيبين لدواعي رغبات أجسادهم.(١)

(١) يشرح لنا ﷺ هذا الموضوع بالتشبيه التالي: «إنما مَثَلي ومَثَلُ أمتي كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدوابّ والفراشُ يقعنَ فيه، فأنا آخذٌ بِحُجَزِكمْ وأنتم تقحمون فيه.» (البخاري، الرقاق، ٢٦؛ مسلم، الفضائل، ١٨؛ الترمذي، الأدب، ٨٢).

أما الذين تعرفوا على رسول ﷺ في مفترق الطرق وسلكوا في حياتهم طريقهم حسب إرشاده ﷺ والذين تفتحت قلوبهم للحقائق فإنهم لا ينخدعون أبداً بمظاهر المكاره المحيطة بالطرق الموصلة إلى الجنة بل يعرفون حقيقتها. ذلك لأن الجنة موجودة في قلوبهم بذرة تنمو شيئاً فشيئاً حتى تستولي على عوالم أرواحهم. وبينما يبحث الآخرون عن الجنة في الخارج يسعد هؤلاء بالجنة الموجودة في قلوبهم، بينما لا يستطيع الذين يعيشون جنتهم المادية في الحياة الدنيا أن يعيشوا طوال حياتهم دقيقة واحدة من السعادة التي يشعر بها هؤلاء يضمون الجنة بين جوانح قلوبهم. "الإيمان بَذْرة تحمل الجنة في داخلها، والكفر بذرة أخرى تحمل جهنم في داخلها. وهاتان البذرتان بعد نموهما تنقلبان في الآخرة إلى جنة وإلى جهنم حقيقيتين؛ لأن المؤمن يعيش حياة الجنة حتى وهو في الدنيا ولكن الشكل الظاهري لحياته يبدو وكأنه محاط بالمكاره والمصاعب."

إن الأرواح التي تخفق شوقاً إلى الجنة عندما تسير في طريق الجنة وتقطع هذه المنازل –هذه المنازل التي تعد كل واحدة منها سعادة خاصة– ستواجه بما تكرهه النفس والجسد –رغم الروح– من أداء العبادات البدنية كالوضوء والصلاة والصوم والحج، والتكاليف الصعبة الأخرى مثل الزكاة والصدقة وغيرهما من الكلف المالية أو الكلف المادية والبدنية كالحج والجهاد.. هذه التكاليف والأعباء قد تجعل طريق الجنة لبعضهم طريقاً يصعب سلوكه. فبعضهم يشق عليه الوضوء والصلاة، وبعضهم يشق عليه الجوع والعطش في الصوم، وبعضهم يؤثر عليه حب المال والنفس، وبعضهم بمجموع بعض هذه الصعوبات أو كلها فلا يصلوا إلى الجنة بكل مباهجها وزينتها وروعتها وهي على بُعد بضع خطوات منهم.

أجل، فكما أن الجنة عالم للسعادة التي لا يستطيع العقل تصورها ولا بلوغها حتى في الأحلام إلا أن طريقها مملوء بالمكاره والمشقات والصعاب والمسؤوليات، وكذلك جهنم هي بئر غائر وواد مهلك ولكن طريقها مملوء بالشهوات الجسدية والأهواء النفسية والرغبات الدنيوية التي تسترعي إليها الأنظار وتسحر بها الأرواح الضعيفة وتجذب إلى مركزها مثل ثقب أسود كل من يمر بالقرب من ساحتها بقوة عنيفة. ما أكثر من تسحرهم أستار جهنم

الكاذبة فيتركون أنفسهم لتهوي في أوديتها، كما تخيفهم المصاعب التي تبدو في أستار الجنة فينكصون على أعقابهم ويخسرون السعادة الأبدية. أجل، فكيف يوجد من يعرف الجنة ولا يشتاق ويسعى إليها، ومن يعرف جهنم ولا يجتهد في الابتعاد عنها، ولكن سر التكليف والإيمان بالغيب والامتحان في الدنيا اقتضى كل ذلك أن تضع الجنة على وجهها قناع الصعوبة والمشقة والمكاره وأن تلبس جهنم فستاناً من الشهوات والرغبات.

ولكن انظر هنا إلى هذا السحر وتلك القوة في كلام رسول الله ﷺ الذي وصف محتويات وحقيقة هذين الطريقين الطويلين العظيمين بكل الانشراح والسعادة الموجودة في أحدهما، والمخاطر والمخاوف الموجودة في الآخر بأسلوب راعى فيه منتهى الإيجاز كعادته دائماً، فاستعمل في شرح هذا الأمر العظيم بضعة كلمات. ولا ننسى هنا أن نستطرد فنقول إننا نشير فقط إلى جواهر من كلام سيد المرسلين ونكتفي بذلك ولا نتعرض إلى النواحي البلاغية ولا إلى قوتها اللغوية، ولو تناولنا هذه النواحي بالتحليل والدراسة لشاهدنا معاني وأموراً دقيقة أخرى كذلك. ولكن هذا موضوع آخر لا نتعرض له هنا.

ف - حقوق ثلاثة: حق الله، حق الدولة وحق الدين

ينقل الإمام الترمذي الحديث الآتي: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإنْ تَأَمَّر عليكم عَبْدٌ حبشيٌّ، وإنه من يَعِشْ منكم فسيري اختلافاً كثيراً فعليكم بِسُنَّتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضُّوا عليها بالنواجذ. وإياكم ومُحْدَثات الأمور فإنّ كل بِدْعة ضلالة.»[1]

يتحدث هنا رسول الله ﷺ عن ثلاثة حقوق. أولها التقوى التي هي حق الله، والثاني هو السمع والطاعة وهو حق الذين يديرون الدولة، والثالث هو الارتباط بالسنة، وهو

---

(١) الترمذي، العلم، ١٦؛ «منهل الواردين شرح رياض الصالحين» لصبحي صالح ١٥٢/١؛ وانظر إلى الروايات المختلفة في: ابن ماجة، المقدمة، ٦؛ «المسند» للإمام أحمد ١٢٦/٤، ١٢٧؛ أبو داود، السنة، ٥

حق الدين. التقوى: كلمة مشتقة من "الوقاية" وتعني من جهةٍ رعايةَ قوانين الشريعة الفطرية والدخول إلى حماية الله تعالى وتأمين الصيانة والحفظ من قوانين الشريعة الفطرية.

ثم إنه من الواجب إطاعة من تختارونه ليحكمكم حتى ولو كان عبداً حبشياً أسود. وهذه ديمقراطية فوق الديمقراطيات؛ وإن البشرية حتى الآن لم تستطع الوصول إليها؛ ومن الواضح أنها ستأخذ وقتاً طويلاً يصلوا إليها، مع أن هذه الديمقراطية دعي إليها قبل أربعة عشر قرناً. غير أنه ليس من المناسب إطلاق تعبير أو كلمة "الديمقراطية" على النظام الذي أتى به نبي من الأنبياء. ذلك لأنه ما من مفهوم للديمقراطية في الدنيا استطاع الوصول إلى مثل هذا الأفق، إذ لم يتأسس بعد مثل هذا المفهوم أو الفكر في أي أمة من الأمم التي تدعي المدنية. فالسود في أمريكا لا يزالون مواطنين من الدرجة الثانية، وهناك بلدان لا يعدون السود من البشر. بينما أبان الإسلام وقبل عصور عديدة أن الناس إن اختاروا مثل هذا الشخص بملء إرادتهم فيجب عليهم آنذاك إطاعته، كما يتبين من هذا الحديث أن طريق الخلافة مفتوح أمام الجميع. فإن إراد الناس أن يختاروا عبداً أسود ليكون رئيساً عليهم كان لهم ذلك وتجل طاعته على الجميع. فالمهم هنا ليس الشخص المنتخب، بل المهم أن من سينتخبه هم السواد الأعظم من الناس.

إن قوله تعالى ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ (المائدة: ٣) يفيد أن الدين قد اكتمل، أي لم يبق هناك أي شيء يقال. فلا يمكن إدخال أي شيء جديد فيه، ذلك لأن أي بدعة جديدة تدخل إلى الدين تعني إماتة سنة من السنن الشريفة. لذا، كان من الواجب الاعتصام بسنة رسول الله ﷺ وسنة خلفائه الراشدين من بعده. وهذا الاعتصام لا يكون بالأيدي وإما بالعضّ عليها بالنواجذ، فسنته مثل طير السعد الذي يجب الاحتفاظ به جيداً بعد اصطياده. ثم إن سنة الرسول ﷺ تبلغ للآخرين عن طريق الفم، ومن تكلم عليها تحد له الأسنان ولا يسمح له بإطالة لسانه عليها.

كم يتمنى القلب لو أننا استمعنا إلى هذا الحديث من سلطان البيان نفسه واستطعنا فهمه، إذن، لكانت هذه الجوانب التي حاولنا شرحها غنية. فكل نافذة مفتوحة على

كلامه توصلنا إلى معان غنية جديدة. ولا يسعنا ونحن نسمع حديثه ﷺ إلا أن نقول: "صدق رسول الله"

ص - اللدْغ من جُحْرٍ مرتين

يقول رسولنا ﷺ في حديث ينقله البخاري ومسلم:

«لا يُلْدَغُ المؤمنُ من جُحْرٍ واحدٍ مرتين.»(١)

لن نقف طويلاً أمام هذا الحديث الذي يجب على رجال السياسة في المستقبل أن يهتموا به اهتماماً كبيرا، بل سنكتفي ببعض الإشارات حوله. ومثقفو الغد من الذين انتبهوا فاهتموا بثقافة ومفاهيم أمتهم والذين سيقيمون أسس ومعالم عالمهم من داخل عالمهم .. هؤلاء المثقفون السائرون في قوافل النور يجب أن يقفوا طويلاً أمام هذا الحديث ويتأملوه جيداً ويقيموا جميع أسس سياستهم الداخلية والخارجية على الدروس المستنبطة منه، فيكونون بذلك قد وجدوا طريقاً مهماً يقودهم إلى النجاح، وإلا فإن الانخداع في ساحة السياسة والخداع لن ينتهي أبدا، وسيبقى شعبنا مخدوعاً على الدوام.

ق - الناس معادن

على علماء التربية في المستقبل أن يمحصوا جيداً هذا الحديث الشريف الذي يرويه البخاري ومسلم: «الناس مَعادِنُ كمعادن الفضة والذهب. خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا.»(٢)

كأن الرسول ﷺ بحديثه هذا يلقي على المربين وعلماء النفس هذا الدرس: إن تعيين ومعرفة شخصية الإنسان وطبيعة معدنه ضروري ومهم جداً عند تربيته. وسيماء الشخص قد يكون من أمارات عالمه الروحي. لذا، يجب أولاً معرفة العالم الداخلي والعالم الروحي

---

(١) البخاري، الأدب، ٨٣؛ مسلم، الزهد، ٦٣

(٢) البخاري، المناقب، ١؛ مسلم، البر، ١٦٠؛ «المسند» للإمام أحمد ٥٣٩/٢

لكل إنسان، لكي يوضع وصهر في البوتقة المناسبة له، لأن التربية تعني فيما تعني إعطاء شكل ما. وهذا لا يتم إلا بالقدرة على إذابة ذلك الإنسان في بودقة معينة. والقيام بجهود تربوية بشكل عشوائي لن يكون له أي فائدة بل قد يكون وسيلة لإلحاق الضرر. لذلك قال الله تعالى لرسوله الكريم منذ البداية: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرةٍ أنا ومَنْ اتّبعني﴾ (يوسف: ١٠٨). أجل، إن أي دعوة إلى التفكير يجب أن تكون على بصيرة. والدعوة ببصيرة هي الدعوة الواعية التي تعرف من تخاطب وما غاية الخطاب وبأي مقياس تتم الدعوة. إذن، فرسول الله ﷺ يختار الطريق الواعي لدعوته ويوصي أمته بذلك، والحقيقة أن الله تعالى هو الذي يأمر بذلك مباشرة.

يجب معرفة طبيعة كل شخص: في أي درجة يذوب ويجد ذاته. من وإلى أي بوتقة يؤخذ.. من وفي أي أنبوب اختبار يصفى.. كل هذه الأمور يمكن معرفتها عند الدعوة على بصيرة. الأشخاص الواعون في الجاهلية والذين كانوا على بصيرة وأصحاب عقل وإنصاف عندما فتحوا أعينهم على الحق والحقيقة وتعرفوا على الإسلام ودانوا به أصبحوا في مقدمة صفوف المسلمين. ذلك لأن الذهب عندما يذوب في بودقة يبقى ذهبا، والفضة تبقى فضة والنحاس يبقى نحاساً فلا ينقلب أي معدن إلى معدن آخر أبدا، فالذي كان معدنه ذهباً في الجاهلية معدنه ذهباً عندما أسلم، ولكن بشرط واحد وهو "إذا فقهوا"، أي بشرط أن يتفقهوا في الدين ويتعمقوا في فهمه.

ولكي يكونوا كذلك فلا بد لهم من معلم ومن مرشد، أي يحتاجون إلى كيمائي يتناول نفوسهم فيذيب كلا منها في بوتقة خاصة بها. أجل، فلا بد من هذا لنفخ الإسلام فيهم ولا يمكن لهؤلاء الوصول إلى الفقه إلا بهذا الشكل.

ر – الظلم وخيم العاقبة

لا نملك أنفسنا من إيراد هذا الحديث لرسول الله ﷺ: «إن الله لَيُمْلي للظالم حتى إذا أخذَه لم يُفْلِتْه» ثم قرأ: ﴿وكذلك أخْذُ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إنّ أخْذَه أليم

شديد﴾ (هود: ١٠٢).[١] إن الله يمهل الظالم المرة تلو الأخرى، أي يقابل الظالم والذي أعلن عصيانه له بالإمهال، ولكن إن أخذه أخيراً لم يفلته. وهذا معناه أن الظالم تجاوز حده وأن الكأس قد فاض فلم يعد هناك مجال للمهلة.

لله تعالى قوانين حارية في الكون لا تبديل لها ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ (الروم: ٣٠). ومن هذه القوانين كون الظالم سيفاً بيد الله، حيث يقول رسول الله ﷺ في هذا الخصوص: «الظالم عَدْلُ الله في الأرض يَنتقم به ثم يُنتقم منه.»[٢] الظالم هو سيف الله يؤدب به الله من تجاوز حده، ثم يأخذ الظالم أخذاً وبيلاً.. الظالمون اليوم سادرون في غيهم، ولكن إياك أن تيأس وأنت تشاهد هذه الأوضاع فكم من قرى أمهلها الله تعالى وكان يقول لها "كلي واشربي وتمتعي" ثم أخذها أخذ عزيز مقتدر.[٣]

انظروا حواليكم بتمعن ستجدون أمثلة حية على ما نقول. "سَدوم" و"عامورة" و"بومبيي (Pompei)" ليست إلا أمثلة ثلاثة فقط... من يدري كم من أمثلة أخرى موجودة لا نعرفها، أو كانت أقل عبرة من هذه الأمثلة فتم نسيانها.. ولكن كل هذه الأمثلة شاهدة على هذا القانون الإلهي. ولماذا نذهب بعيدا..؟ ألم تكن فوق هذه الأراضي التي نعيش عليها دولة عليّة عثمانية.. هذه الدولة التي لم يكن يخطر على بال أحد إمكانية زوالها، ولكنها عندما سقطت أصبحت إحدى ذكريات التاريخ التي نتذكرها بقلوب مفجوعة. واليوم تكافح فئة قليلة حصرت داخل حدود ضيقة من أجل البقاء أمام التيارات الداخلية والخارجية التي تستكثر عليها حتى حق الحياة في هذه المساحة الصغيرة. والقانون الالهي الذي لا يتغير هو ﴿وكذلك أَخْذُ ربك...﴾ (هود: ١٠٢)

ويستطيع المؤرخون الحقيقيون وعلماء الاجتماع أن يستفيدوا من هذا القانون الإلهي الذي لا يتغير، ومن الأمثلة التي تحفل بها مقابر التاريخ، يستطيعون الاستفادة وأن يخلدو

---

(١) البخاري، تفسير سورة (١١) ٥، مسلم، البر، ٦١

(٢) «كشف الخفاء» للعجلوني ٤٩/٢

(٣) تشير الآية إلى هذا الأمر: ﴿وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلي المصير﴾ (الحج: ٤٨).

أنفسهم عصوراً عدة. ونحن نترك تفسير هذا الحديث لهم لننتقل إلى حديث آخر.

ش - في ظل عرش الرحمن

«سبعةٌ يُظِلُّهم اللهُ في ظِلِّه يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلّه: الإمام العادل، وشابٌ نَشَأَ بعبادة الله عزوجل، ورجل قلبُه معلَّق في المساجد ورجلان تَحابَّا في الله اجتمعا عليه وتَفرَّقا عليه، ورجل دعته امرأةٌ ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله، ورجل تَصَدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تَعلم يمينُه ما تنفق شمالُه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه.»(١)

هذه موضوعات سبعة يمثل كلُ موضوع منها أهمية كبرى من ناحية الإرادة الإنسانية. فإيفاء بعضها صعب وشاق، وبعضها شباك مصيدة للروح، ولو تخلص الإنسان من بعض هذه المصايد فهناك احتمال على الدوام أن يسقط في البعض الآخر ولكن إمكانية الوقاية من الوقوع في هذه المصايد أمر وارد إن التجأ الإنسان إلى عناية الله وحمايته، وبذل كل إرادته.. أي إن مقومات هذا الطريق هو استعمال الإنسان إرادته حق الاستعمال مع الاستعانة التامة بالله والالتجاء إليه.

مثل هذه الجماعة القدسية التي يذكرها النبي ﷺ في حديثه هذا والتي اتحدت فيها الإرادة مع الارتباط بالله والاستعانة به.. هذه الجماعة هي الجماعة التي تخيلها الكتّاب المثاليون في المدن الفاضلة والتي لا يجدونها في الواقع العملي، مما يملأنا رغبة وطموحاً في الوصول إلى مثل هذه الجماعة وتحقيقها واقعياً.

أجل، في ذلك اليوم الذي لا تحجب الشمسَ فيه غيمةٌ واحدة.. في ذلك اليوم الذي ترسل الشمس حرارتها اللاهبة إلى كل مكان فتغلي الأدمغة في الرؤوس ويرتفع العرق حتى الأذقان وتنقطع الأسباب ويبدو كل شيء وكأنه عدو للإنسان.. في ذلك اليوم لا يبقى هناك ملجأ ولا منجى ولا ظل إلا حماية الحق تعالى وعنايته.. وسواء أكان هذا ظل

---

(١) البخاري، الأذان، ٣٦؛ مسلم، الزكاة، ٩١؛ الترمذي، الزهد، ٥٣

العرش أم غيره فهذا لا يهم إذ المهم تغير النظام الذي نعرفه وانقلابه رأساً على عقب وتبدل المقاييس وتبدل الأرض والسماء. في هذا اليوم المرعب لن يكون أحد عوناً لاحد، إذ لن تنفع أي معونة ولا أي مساعدة آنذاك.. فمن يستطيع فعل ذلك في هذا اليوم الذي تنقطع فيه الأصوات، وتبلغ القلوب الحناجر، وتدور الرؤوس وتشخص فيه الأبصار..؟ في مثل ذلك اليوم من يحمي من..؟ من يستطيع ذلك؟ في مثل ذلك اليوم ليس هناك إلا ملجأ واحد.. اللجوء إلى ظل الله أيْ إلى حمايته، وهذه الحماية تشمل هؤلاء الأشخاص:

أ- رؤساء الدول الذين وعوا مسؤولياتهم في الدنيا وراعوا الأمانة المودعة لديهم.. أي راعوا الحق والعدل والاستقامة.

ب- الشاب الذي نشأ في طاعة الله تعالى وذلك في أوج فترة غليان النفس والجسد.

ج- رجل العبادة الذي تملكه حب العبادة فأصبح قلبه معلقاً بالمساجد.

د- المتحابين في الله.. الذين يجتمعون على حب الله.. ويتفرقون على حبه.. أي الذين جعلوا رضا الله ومحبة الحق محراباً لهم.

هـ- الرجل الكامل الرجولة الذي يستطيع أن يديم حياته على خط "مخافة الله" و"مهابة الله" والذي يستطيع المحافظة على عفته بكل حساسية، والمصمم على الوقوف أمام رغباته وشهواته، القائل دائماً لنفسه الأمّارة بالسوء: "إنني أخاف الله رب العالمين."

و- الشخص الذي يقتصد من مصاريفه ولو كان به خصاصة لكي ينفق في سبيل الله رمزاً على إخلاصه ووفائه لله بحيث لا يعلم أحد غير الله انفاقه هذا، وتبلغ حساسيته في هذا الموضوع إلى درجة الغيرة فلا تعلم يساره ما تنفق يمينه...

ز- رجل القلب والعواطف الذي يغني أوقات وحدته وعزلته بالتأمل وبالتفكر والمراقبة ويترجم عواطف قلبه دموعاً تجري من مقلتيه ويستمد قوة إرادته من الله تعالى، وبجواجز هذه الإرادة الفولاذية يحطّم كل رغبات المعصية وينسفها نسفاً... فهذا هو رجل القلب والعاطفة.

أجل، فقد ورد في أحاديث أخرى أن هذا الإمام العادل يكون يوم القيامة على منابر من نور يتلقى عطايا الله،[١] ويرتشفها، وهذا الشاب الذي قضى شبابه عفيفاً ينال رضا الله، وذلكم الرجل المعلق قلبه بالمساجد يكون في ظل الحماية الإلهية، والمتحابون في الله ينالون المحبة الإلهية، والذي ربط قلبه بمهابة الله ومخافته سيكون في أمان مما يخشاه يوم القيامة. وهذا الرجل رجل الوفاء الدي يؤدي صدقته بمقياس دليل صدقه سيجد مقابلها من نعم الله –الذي هو خير الأوفياء– ما يفوق حياله، وأخيراً رجل العاطفة والقلب الذي يكون ظاهره حافلاً بالمعاني وباطنه عميق الغور القدوة الحسنة للناس الذين يعرفونه بجوانبه المشرقة هذه، مثل هذا الرجل عندما يخلو إلى ربه تتفجر أحاسيسه وعواطفه دموعاً منهمرة، وهو إلى جانب اجتيازه جميع المصاعب والمفاوز وإلى جانب نيله العطايا في الآخرة فإنه يعطي نموذجاً للمجتمع المثالي وإطاراً للأمة المثالية التي تقود الإنسانية إلى هذه المثل الرفيعة.

ولا أدري أهناك حاجة لتكرار القول أن معان عميقة عمق البحار والتي لا يمكن التعبير عنها إلا بمجلدات قد صيغت في أسطر قليلة فكأن القطرة الواحدة استوعبت بحراً زاخراً.

ت – الدنيا ظل

في حديث آخر يقول الرسول ﷺ:

«ما لي وما للدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استَظلّ تحت شجرة ثم راح وتركها.»[٢]

ما الدنيا؟ وكيف يتصرف الإنسان تجاه شيء زائل ووقتي؟ ثم لماذا أتى الإنسان إلى هذه الدنيا وإلى أين يغادرها؟ هذه هي المسائل الرئيسة للفلسفة والتي قيل الشيء الكثير عنها طوال عصور عديدة. وكما هو واضح فقد بين رسول الله ﷺ هذا الأمر بشكل

---

(١) مسلم، الإمارة، ١٨؛ النسائي، القضاة، ١؛ «المسند» للإمام أحمد ١٥٩/٢

(٢) الترمذي، الزهد، ٤٤؛ ابن ماجة، الزهد، ٣؛ «المسند» للإمام أحمد ٣٠١/١

وجيز وبليغ. وهذه المسألة وغيرها من المسائل التي لا يستطيع الآخرون شرحها وإيضاحها في مجلدات يشرحها النبي ﷺ بأوجز شكل وأبلغه وأوضحه. أجل، إن الإنسانية جمعاء معجبة ببيانه الوجيز.

ذ – مميزات خمسة لسيد البشرية ﷺ

«أُعْطِيتُ خمساً لم يُعْطَهنّ أحدٌ قبلي: نُصِرْتُ بالرُّعْب مسيرةَ شهر، وجُعلتْ لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ. وأُحِلَّت لي الغنائم ولم تُحلّ لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يُبعَث إلى قومه خاصةً وبُعثتُ إلى الناس عامة.»(١)

أعطى الله النعم بمعناها الكلي للجميع، وبمعناها الخاص لكل أمة ولكل نبي،. فلكل منهم نعمة خاصة ولطف خاص، فلآدم عليه السلام ولأتباعه أعطاهم الصفوة ونيل شرف فَهْم معاني الأسماء الحسنى، ولنوح عليه السلام روح الكفاح والعزم والعزيمة، ولإبراهيم عليه السلام درجة أبوة العديد من الأنبياء وعشق التوحيد وخلة الرحمن، ولموسى عليه السلام قابلية التعليم والتربية والعلوم الاجتماعية والدراية في إدارة المجتمع ولعيسى عليه السلام جانب اللين والشفقة والصبر والتحمل ونشر المسامحة في المجتمع والمحبة بين الناس، ولسيد الزمان والمكان محمد ﷺ ولأمته الإرادة والحكمة والموازنة وصفات التحليل والتركيب وغيرها من الصفات التي تستوجبها الرسالة العالمية، وذلك إضافة إلى الصفات الممنوحة للأنبياء السابقين. لذا، فإنه بجانب كون الدين الإسلامي أكثر الأديان مسؤولية وواجبات فإنه ألطفها وأسماها وأبركها وأكثرها قرباً من النفس البشرية، ويعد هذا من صفاته كدين عالمي.

يتناول هذا الحديث الشريف رسول الإسلام ورسالته العالمية الشاملة بأسلوب آخاذ ويبسطها أمام الإنظار. عندما قام مبلغ هذا الدين العالمي وهذه الدعوة العالمية وتلاميذه

---

(١) البخاري، التيمم، ١، الصلاة، ٥٦؛ مسلم، المساجد، ٣

الأوائـل بنشـر هـذا النظـام العـالمي في أرجـاء العـالم، كـانوا يشـعرون بمـدى مســؤوليتهم ويدركونها. فكانوا يسرعون من جبهة قتال إلى أخرى يجاهدون في سبيل الله لاستلام قيادة العالم... يقتلون ويُقتَلون.. يبرهنون على أحقيتهـم في الدخـول إلى الجنة ورؤية جمـال الله.. يستهينون بحياتهم الدنيوية في سبيل دعوتهم. وبحرص أكبر من حرص الآخرين ورغبتهم في الحياة الدنيا، كانوا يذوبون شوقاً للقـاء الله ويسعون لتحقيـق الخلافة في الأرض. لـذا، فما كان بقدرة أحد قتال أمثال هؤلاء الذين ارتبطوا بالعالم الآخر مثل هـذا الارتبـاط. أما الذين ساقهم سوء حظهـم لمواجهـة هـؤلاء فقـد أخذهـم الخـوف والرعـب إلى درجة الشـلل منـذ الخطـوة الأولى.. لاسيما عندما يبلـغ تعظيـم الله تعالى عنـد المؤمنـين درجـة المهابـة، فوعـد «نُصرتُ بالرعب مسيرةَ شهر» سلاح رهيب بيد المؤمنين الصادقين وقلعة حصينة لهم.

ثم إن كون الأرض مسجداً وطهوراً لمنتسبي هـذا الديـن واستطاعتهم أداء الصـلاة في كل مكان دون حاجة إلى وجود معبد أو مصلى بُعـدٌ آخر مـن أبعـاد هـذا الديـن العـالمي. والبعد الآخر هو إباحـة الغنـائم لكـي يمضـي الجهـاد في سبيل الله حتـى يـوم القيامـة دون عائق أو مانع.. وبُعدٌ آخر هو الشفاعة العظمى يوم القيامة حيث يؤخـذ بيـد كـل شـخص –ضمن معايير ومقاييس معينة– لإيصاله إلى مستوى معين من الأمـن ومـن السـلامة.. أمـا كون جميع الأنبياء بعثوا إلى أممهم خاصة، وبعثته ﷺ إلى النـاس عامـة فهـو البُعدُ الصريح الواضح في هذا الشأن. كما يمكننا استنباط الأمور التاليـة مـن الحديـث الشريف دون أي تكلف أو تعسف:

أ– أن النبوة ورسالتها المصاحبة لها موهبة إلهية لا يمكن تحصيلها بجهد بشري.

ب– أن هذه المميزات الخمسة من خصائص الدعوة المحمدية فلم تعط لأي نبي أو رسول.

جـ– أن إرسال الرعب إلى قلوب الأعداء من مسافة بعيـدة حالـة نبويـة خاصـة وهديـة إلهية إلى من يعيش في ظل ذلك الخط النبوي.

د- أن عدم ارتباط العبادة بالمعابد وبرجال الدين[1] كما يشكل بُعدا في عالمية هذا الدين وشموله، فإنه يشكل تيسيراً لعلاقة العبد بالمعبود في كل زمان وفي كل مكان. وهنا ترد خاصية أخرى وردت مع الرسالة الإسلامية وهي أن التراب مطهِّر أيضاً كالماء. ونرى هنا من الفضول نتحدث عن أهمية الاغتسال في الإسلام وعن خاصية التطهير بالماء وكونه منبعاً للحياة وعن خاصية التطهير بالتراب.

هـ- أن أخذ الغنيمة لم يكن في حد ذاته حراما، وإنما كانت حرمة الغنيمة متعلقة بالزمن وامتحاناً. وقد تم تجاوز هذه المحرمات في زمن رسول الله ﷺ ولاسيما إنها كانت المصدر الرئيس للجهاد الذي هو ماض إلى يوم القيامة.[2] لأنها تكون مصدر إعاشة للذين وهبوا أنفسهم له وعاملاً مشوقاً لهم، وسبباً فعّالاً في إضعاف جبهة الأعداء من الناحية المالية وعدم تمكينهم من لَمّ صفوفهم، لكونها مهمة ومباحة -مع أنها غير واجبة- فهي ليست منافية للإخلاص لأنها وسيلة لإعلاء كلمة الله.

و- أن الشفاعة حق.. ويجوز أن يقوم كل واحد بالشفاعة بإذن الله تعالى.. ولكن الشفاعة العظمى يوم القيامة من ناحية شمولها وإحاطتها وعلاقتها بكل الناس تقريبا نعمة وميزة معطاة له ﷺ وحده وهي من الخصائص الأحمدية ومبعث سرور وفخر لنا.

ز- كان الأنبياء السابقون مبعوثين لأممهم وقبائلهم لا غير، أي في دائرة ضيقة، أما خاتم الرسل وسيد الأنبياء فقد أرسل للناس وللوجود بأكمله، لذا فإن دعوة الأنبياء السابقين كانت قائمة ما دامت قبائلهم وأقوامهم موجودة، أما هذه الرسالة فهي عامة وشاملة وتضم الوجود كله؛ لذا، فهي باقية ومستمرة حتى يوم القيامة.

هاكم إذن، سلسلة وضيئة أخرى منقوشة حول معاني مشتركة جامعة ورصينة وقوية من ناحية محتواها وطريقة التعبير عنها.

---

(١) نفهم من الحديث الشريف عدم ارتباط العبادة بالمعابد ومن ثم برجال الدين.

(٢) أبو داود، الجهاد، ٣٣؛ «مجمع الزوائد» للهيثمي ١٠٦/١

خـ – المؤمن إنسان مسؤولية

«كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رَعِيَّته. الإمامُ راعٍ ومسؤول عن رعيته والرجل راع في أهله وهـو مسـؤول عن رعيتـه. والمرأة راعيـة في بيت زوجها ومسـؤولة عن رعيتها. والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته وكلكم راع ومسؤول عن رعيته.»[1]

ترد كلمة "راع" بمعنى الشخص الذي يحرس ويصون ويراقب ويهتم. لذا، أطلقت كلمة "الراعي" على الشـخص الـذي يحفـظ الحيوانـات الموجـودة في عهدتـه ويصونهـا من الحيوانـات المفترسـة ويجد لها أفضل المراعي، وعندما يقوم بمهمته هذه يكـون بفطرتـه السليمة بعيداً عن كل حرص معيب، ويكون شغله الشاغل الرحمة والشفقة التي يحسها تجاه قطيعه حيث يتألم لألمها ويسعد لراحتها.

وهكذا فإن العلاقة بين رئيس الدولة وبين المواطنين تشبه –في وجه من الأوجه– هـذه العلاقة. كما أن على ممثليه في الدوائر المختلفة وعلى مختلف المستويات مراعاة أحوال من هـم تحـت أيديهـم ومقـاسمتهم آلامهـم وأفراحهـم وأن يهيئوا لهـم مسـتقبلاً أمينـاً وسـعيداً ويجابهوا المشكلات التي تعترضهم.

والعلاقة نفسها موجودة عند رئيس الأسرة، فهو المسؤول الأول عن نفقتهم وإلباسـهم وإسكانهم في مسكن مناسب، ثم عن تعليمهم وتربيتهم وحسن معاشرتهم وإرشـادهم إلى الطرق التي توصلهم للسعادة في الدار الآخرة. والأمر نفسه يرد في علاقة المرأة بزوجها في تدبير شؤون بيتها والمحافظة على مال زوجها وعرضه.

والخادم أيضا في موضع الراعي بالنسبة لمال سيده وملكه، كما يراعـي الابـن مـال أبيه وشرفه وكرامتـه، حتى يمكـن أن يقـال إنه مـا مـن إنسـان في الإسـلام يخـرج عـن دائـرة "الراعي" و"الرعية"، فهو من جانب "راع"، ومن جانب آخر "رعية" حتى أنه لو لم تكن

---

(١) البخاري، الجمعة، ١١؛ مسلم، الإمارة، ٢٠

هناك "رعية" لراع فهو مسؤول أيضاً لأنه مسؤول عن رعاية عقله وجسده وأحاسيسه وأعضائه، فهي كلها أمانة عنده يجب مراعاتها والاهتمام بها.

والإسلام من بين كل النظم والأديان هو النظام الوحيد في الحياة الذي بين مسؤولية كل شخص حتى أدق تفاصيلها بدءاً من رئيس الدولة وانتهاء بالخادم في المنزل، وذلك في عهد لم ير أحد الديمقراطية حتى في المنام. وليس هناك من نظام حياتي آخر يستطيع منافسته في هذا الموضوع. يقول نبي الإسلام إن «الإمام راع ومسؤول عن رعيته» ويعدد مسؤوليته ويعيّن حدود هذه المسؤولية ويشير إلى وظائفه ومهامه.. ويذكر بمسؤوليات الرجل والمرأة كل على حدة وفي ساحاتها المختلفة، ويحمل كلا منهما مسؤولياتهما... مسؤولية الأب نحو ابنه، ومسؤلية الابن نحو أبيه. كما بحث عن حقوق ومسؤوليات العمال والخدام في وقت مبكر جداً إن أخذنا التطور العالمي في هذا الموضوع بنظر الاعتبار، وقدّم حلولاً للمشاكل الاجتماعية قبل حدوث الهزات الاجتماعية في تاريخ البشرية.

هذه بعض الكلمات النبوية حول الحقوق المتقابلة بين الإمام والرعية -شرحت معظم هذه الحقوق في كتب "الأحكام السلطانية" وغيره- وبين الابن والوالدين وبين الزوج وزوجته، وبين العامل وصاحب العمل، وقد تم تفصيل هذه الحقوق في كتب الفقه وفي رسائل الأخلاق والتربية، وفي كتب علم الاجتماع والحقوق وشغلت فيها مواضع بارزة.

ذ - بعض أنواع الحرام والمكروهات

«إن الله حرّم عليكم عُقوقَ الأمهات ووأْدَ البنات ومَنْعاً وهاتِ وكَرِهَ لكم قيل وقال وكثرةَ السؤال وإضاعة المال.»[1]

(١) البخاري، تفسير سورة (١١) ٥؛ مسلم، الأقضية، ١٢

١- * عـقوق الأم

إن الابن الذي يعق أمه ويعصيها كأنه يقطع كل حقوقية العلاقة بينه وبينها ويدفعها نحو الوحدة. ومع أن عقوق الأب أيضا محرم، إلا أن ذكر الأم هنا ينبع من كون النساء أكثر حاجة للحماية، وكذلك لكونها أرق شعوراً وإحساسا، لذا فإن عقوقهن يجرح شعورهن بشكل أقوى ويزيد في حزنهن. ولأن الأب يشترك مع الأم في حقها على الابن فإن عقوق الأب حرام أيضاً ولكن لا يمكن قياسه مع حرمة عقوق الأم.

٢- * وأد البنات

كان عرب الجاهلية يقومون –في بعض المناطق وفي بعض المستويات الاجتماعية– بوأد البنات أي دفنهن وهنّ أحياء.. كان البعض يقومون بهذا العمل الوحشي بدافع غريب من شعور الغيرة؛ والبعض الآخر بدافع الفقر والضيق الاقتصادي، وغيرهما بدافع قَبَلي لمنع انتقال ثرواتهم إلى الغرباء.. ومهما كان الدافع لهذا العمل، فقد كان عملاً وحشياً يجب منعه والقضاء عليه وقد تم هذا فعلا، لذا حرم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هذا الموضوع بأوامر مشددة.

٣- * خيانة الأمانة

رمّز الحديث الشريف إلى الامتناع عن دفع الديون والحقوق الأخرى اللازمة بكلمة "منعا" ومحاولة أخذ أو طلب الأشياء الممنوعة بطرق مختلفة بكلمة "هات"، أي يحرم الامتناع عن دفع الحقوق الواجب أداؤها، كما يحرم أخذ الأشياء دون وجه حق. وخَطُّ الحرمة هنا هو نفس خط الحرمة لعقوق الوالدين ولوأد البنات.

كما يمكن فهم الكلمة الأولى هنا أي كلمة "منعا" بمنع الزكاة المفروضة عليه والصدقات وسائر الإعانات الأخرى وعدم أدائها إلى المستحقين من الفقراء. وفهم الكلمة

الثانية "هات" في مجال التسول والسؤال. وإذا أردنا أن نخطو خطوة أخرى إلى الأمام لقلنا إن الكلمة الأولى تعني فيما تعنيه إنكار الديون بعد أخذها وأكل حقوق الآخرين وعدم تسديد قيمة الصكوك والسندات، والقيام بحيل معينة في سبيل ذلك كإعلان الإفلاس وغير ذلك من الحيل والطرق غير المشروعة في كسب المال وأكل حقوق الآخرين ثم إهمال إيصال هذه الحقوق إلى أصحابها بل حتى التمرد في هذا. وعن الكلمة التانية نقول إنها تشمل حاليا حالات عديدة بدءاً من التسول العادي إلى قيام بعض الدوائر –رسمية كانت أم غير رسمية– باستغلال العواطف الدينية أو الوطنية في الشعب لامتصاصها وخداع الجماهير وأخذ أموالها بالباطل بطرق عديدة.

يتناول هذا الحديث المليء والموجز عقوق الأولاد لوالديهم وقطعهم لصلة الرحم أو قيام الوالدين بتصرفات قاسية وغير إنسانية تجاه أولادهم دون الاهتمام بعواطف الرحمة والشفقة المركوزة في فطرتهم، وقيام بعض الأنانيين في المجتمع –الذي يعد عائلة كبيرة– بوضع مصالحهم ومنافعهم الشخصية فوق كل اعتبار، وهزهم بذلك قواعد النظام والثقة والاطمئنان والأمن في المجتمع، وبعد أن جمع الحديث هذه الأمور في خط الحرام لصفة مشتركة بينها أشار إلى أمور أخرى ثلاثة ممنوعة أيضاً وإن لم تكن في المستوي السابق من ناحية الحرمة وهي "قيل وقال" أي نشر الشائعات و "كثرة السؤال" أى طرح أسئلة عديدة في غير أماكنها، أو المقصود جعل الشحاذة والتسول صنعة ومهنة. و"إضاعة المال"، أي تبذير المال بالإسراف هنا وهناك.

٤– * الشائعات

رمز إلى الشائعات هنا بـ"قيل وقال". وقيل وقال هو كل كلام لا ينفع لا في الدنيا ولا في الآخرة.. هو الكلام التافه وغير الضروري.. هذا قد يكون كلاماً لا يعنينا في شيء أو بياناً يقترب من حدود الممنوعات، ونشر الشائعات مرض اجتماعي يختلف في شدته باختلاف المستوى الاجتماعي للناشرين وباختلاف واسطة الشائعة –قد تكون جريدة أو

مجلة أو إذاعة أو تلفزيونا– ومدى وسعة دائرة انتشارها. وهذا مرض اجتماعي يسري في المجتمعات التي تعطلت فيها مواهب الأفراد وتسطحت فيها مشاعر الجماهير وضاقت آفاق تفكيرهم.

إن كل الآثام القاتلة التي يكون الفم مصدرها والتي حرمها الإسلام تنمو وتنتشر عن هذا الطريق "القيل والقال". ولهذا أورد الرسول ﷺ قول المعروف أو الصمت من بين أشياء ثلاثة أوصاها إذ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جارَه. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكْرِمْ ضيفَه.»[1]

٥- * كثرة السؤال

وهي إما الإسراف في طرح أسئلة لا معنى لها أو القيام بالتسول دون ضرورة ماسة واتخاذ التسول مهنة وعادة، وكلا الأمرين مذموم. فقد حرم القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة التسول خارج نطاق الضرورة. كما أنّ طرح أسئلة هنا وهناك وفي كل وقت وحين شيءٌ مذموم وغير مستحب، إذ الأفضل أن تتوجه مشاعر الناس وأفكارهم إلى أمور مفيدة مثمرة. وعلى أي حال فإننا نرى أن القرآن الكريم يقسم الأسئلة إلى نوعين. نوع مقبول ومستحسن ومثاله ﴿يسألونك ماذا ينفقون﴾ (البقرة: ٢١٥) ونوع مذموم وغير مستحب ومثاله ﴿يسألونك عن الروح﴾ (الإسراء: ٨٥).

طرح السؤال أو عدم طرحه.. التسول أو عدم التسول.. وجود ضرورة أو عدم وجود مثل هذه الضروة، وجود حاجة أو عدم وجودها. كل هذه الأمور هي التي تعين عما إذا كانت أفعال المكلفين واجبة أم حراماً أم مباحة. لذا، فإن هذين الموضوعين وإن بدا مختلفين إلا أنه يمكن مطالعتهما وتفسيرهما معاً من جهة وحدة اتجاههما.

---

(١) البخاري، الرقاق، ٢٣؛ مسلم، الإيمان، ٧٥

أما "إضاعة المال" فيمكننا تفسيرها بأنها إنفاق المال دون أن يكون لهذا الإنفاق أي فائدة دنيوية أو أخروية، أي تبديد الثروة هباء منثوراً فيما لا ينفع. وهذا مرض فردي ومرض اجتماعي. أجل، قد يبدو قيام فرد ما بتبديد ثروته وإضاعتها فيما لا ينفع وكأنه ضرر فردي يصيب ذلك الفرد فقط، غير أن ثروته لكونها جزءاً من ثروة البلد والمجتمع فإن تبديدها وإضاعتها فيما لا ينفع يضر المجتمع ويضر البلد ككل. وينتهي هذا الحديث الشريف بهذه المسألة الأخيرة التي اكتسبت أهمية كبيرة في أيامنا الحالية والتي ستكتسب أهمية أكبر في المستقبل ألا وهي الاستقلال الجيد للثروة والاستثمار الاقتصادي لها. ولا ننسى أن ننوه إلى سعة وشمول المعاني العميقة التي أكسبها سلطان الأدباء والبلغاء للكلمات التي اختارها والتي استعملها في مواضعها الصحيحة.

ضـ - الإحسان

«الإحسان أن تَعْبد الله كأنك تراه فإنْ لم تكن تراه فإنه يراك.»[١]

إن شعار المؤمنين الكاملين هو أن يتكامل الإيمان ويتحد بالإسلام ويقترب من درجة الإحسان. وقيام المؤمنين ضمن الإيمان والإسلام بالوصول إلى درجة الإحسان، أي الوصول إلى بُعد أسمى ومستوى أرقى من الإيمان والإسلام، وإيفاء هذه الدرجة حقها يؤدي إلى أن يكون مظهراً لعناية الله ولطفه على قاعدة "إن الخير ينتج الخير"، لذا يجازيه الله تعالى بـ«ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.»[٢] أي بمفاجاة من جنس الإحسان.. إذ ترد هنا قاعدة ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ (الرحمن: ٦٠). فإحسان العبد هو إخلاصه بمقدار عمق إيمانه وأدبه وخشيته؛ وإحسان الله تعالى بمقدار عظمته وغناه وقيامه بملء قلب عبده بالإيمان واستثارته بالإلهام ورفع الغشاوة عن عينه ليريه الأشياء على حقيقتها، وحفظ لسانه عما لا يعنيه، وإنطاقه بالحكمة وإلهاب عاطفته

---

(١) البخاري، تفسير سورة (٣١) ٢؛ مسلم، الإيمان، ٥، ٧

(٢) البخاري، التوحيد، ٣٥؛ مسلم، الجنة، ٢-٤

حتى تسرح في آفاق التجليات.. وعندما يصل المؤمن إلى هذا وتنفرج أمامه أستار الوجود، يصبح وكأنه يراه ولكن "دون كم أو كيف"، ولكن لكونه تعالى ﴿لا تدركه الأبصار﴾ (الأنعام: ١٠٣) فإن المؤمن المتيقن من رؤية الله تعالى له، وبمهابة وسعادة إحسان هذه الرؤية يكاد يغيب عن صوابه، فكما يَتخيل الصائم وهو ينتظر ساعة الأفطار لذة الإفطار، كذلك يحس المؤمن– الذي قضى حياة حافلة بألوان الطاعة والإخلاص والخضوع والخشوع – من الرؤية العأجلة وغير التامة في هذه الحياة لذّةَ تلك الرؤية التامة والأجلة في الدار الآخرة. فكأن حياته الدنيوية – التي هي أيام معدودات – بمتابة صوم وصال حتى لقاء حبيبه. ففي كل جزء من أجزاء الثانية الواحدة تتضاعف هذه اللذة أضعافاً مضاعفة، فكأن حياته الواحدة تصبح ألف حياة.

أجل، فكما أن العبد يسعد سعادة لا حدود لها عند رؤية سلطان الأزل والأبد فهو يسعد عندما يشعر أن الله يراه، أي يحس بسعادة ولذة من معرفته بأن الله يراقب ما يقدمه من خدمات ويشاهده. يسعد بعمق وهو يؤدي حتى أقل أعمال الخير والبر وأصغرها.

وما قلناه ليس إلا نافذة صغيرة على معاني كلام سيد المرسلين ﷺ الوجيز والبليغ والذي يتسع شرح لآلئه وجواهره لمجلدات. إذن، فهذه قطرة من بحر.. ولمعة من شمس.. وشعلة من عالم تسبح فيه النجوم.. فالتصدي لشرح هذه الكلماتْ النورانية –التي هي مرآة مجلوة لعكس الحقيقة الأحمدية– شيء يتجاوز قدراتنا، ومع أننا ارتكبنا هذا الأمر عمداً إلا أننا نضرع إليه وإلى الله تعالى أولاً وآخراً أن يغفر لنا هذه الجرأة. ولقد سبق وأن قلنا بأن شرح كلماته النيرة بكل أبعادها شيء يتجاوز طاقتنا وقدرتنا وأننا بانتظار من يكون أهلاً للقيام بهذا العمل. إلا أننا مع هذا أظهرنا بعض الجرأة وقمنا بمحاولة تحليل بعض جوانب من بعض أحاديثه. والشيء الذي تجرأنا على الخوض فيه –بأسلوب عامي– هو تناول بضعة أحاديث مضيئة من عالمه ﷺ .الواسع الفسيح، ومن زاوية عمق محتواها ورصانة أسلوبها وبلاغة بيانها. لذا، نرجو الله أن يغفر لنا، وأن ينظر إلينا أرباب العلم نظرة تسامح.

٢- ﴿ وباقة من أدعيته ﴾

نود هنا أن نتناول بعض أدعيته ﷺ وأن نلفت أنظاركم إليها، فالكلمات والمعاني الموجودة في أدعيته ﷺ من العمق ومن التميز والسمو والغنى بحيث لا يستطيع أحد الوصول بل حتى الاقتراب منها. ونستطيع أن نقول دون تردد بأن كل دعاء من أدعيته يحتوي من ناحية المعاني ما يملأ كتاباً بكامله. فكما أن أقواله وأحاديثه أسمى من كل الأقوال والأحاديث البشرية الأخرى، فإن أدعيته أعمق بكثير من كل الأدعية التي تلفظت بها الإنسانية سابقاً أو ستتلفظ بها في المستقبل. ذلك لأنه كان أعلم الخلق بالله تعالى وأشدهم خشية له، لذا كانت أدعيته أعمق الأدعية وأسماها وأرقها. فرسول الله ﷺ يعلمنا الدعاء التالي عند التهيؤ للنوم:

«إذا أتيتَ مَضْجعَك فتوضأْ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل: اللهم أسلمتُ نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وفوَّضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبةً ورهبةً إليك. لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك. آمنت بكتابك الذي أنزلتَ ونبيك الذي أرسلت.»[1] ما أروع هذه الكلمات المستعملة!. ما أعذبها وما أرقاها..! ما أصفاها وما أنقاها..! وما أدفأ معانيها، وما أعمق محتوياتها.ولكوننا سنورد هذه الأدعية في فصل خصصناه لأدعيته فإننا نؤجل شرحها ونكتفي بلفت الأنظار إلى بلاغتها وإيجازها فقط.

ودعاء آخر له: «اللهم باعِدْ بيني وبين خطاياي كما باعدتَ بين المشرق والمغرب. اللهم نقِّني من خطاياي كما يُنَقَّى الثوبُ الأبيض من الدَنَس.»[2] معاني هذا الدعاء تملأ كتاباً.. لا أملك قول شيء آخر.. أجل، لقد كان ﷺ سلطان الداعين.

ودعاء آخر له: «اللهم إني أسألك من الخير كله؛ عاجله وآجله، ما علمتُ منه وما لم

---

(١) البخاري، الدعوات، ٦، ١، ٩؛ مسلم، الذكر، ٥٦، ٥٧

(٢) البخاري، الأذان، ٨٩؛ مسلم، المساجد، ١٤٧؛ ابن ماجة، الدعاء، ٤

أعلم. وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله، ما علمتُ منه و ما لم أعلم.»[١]

ومن لآلئ أدعيته ﷺ الذي أوتي جوامع الكلام: «اللهم لا مانعَ لِما أعطيتَ، ولا معطي لِما منعتَ، ولا يَنفع ذا الجَدّ منكَ الجَدّ.»[٢]

ثم دعاء آخر: «اللهم ما قلتُ من قول أو حلفت من حلف أو نذرتُ من نذر فمشيئتك بين يدي ذلك. ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن. لا حول ولا قوة إلا بك. إنك على كل شيء قدير. اللهم ما صليتُ من صلاة فعلى من صليتَ، وما لعنتُ من لعنٍ فعلى من لعنتَ، أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين.»[٣]

و«وأسألك اللهم الرضا بعد القضاء وبَرْدَ العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك وشوقاً إلى لقائك من غير ضَرّاء مُضِرّة ولا فتنة مضِلّة، أعوذ بك أن أظلِم أو أُظلَم أو أَعتدِي أو يُعتدى عليّ أو أكسِب خطيئة أو ذنباً لا تغفره.»[٤]

و«...وأشهد أنك إن تكلني إلى نفسي تكلني إلى ضَيعة وعورة وذنب وخطيئة. وإني لا أثق إلا برحمتك فاغفر لي ذنبي كله إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم.»[٥]

ودعاء آخر: «اللهم أنت أحَقُّ من ذُكِر وأحقّ من عُبِد وأنصَرُ من ابتُغي وأرأف من مَلَك وأجود من سُئِل وأوسع من أعطى أنت المِلِك لا شريك له والفردُ لا يهلك، كل شيء هالك إلا وجهك، لن تطاع إلا بإذنك ولن تُعصى إلا بعلمك. تطاع فتشكر وتُعصى فتغفر، أقربُ شهيد وأدنى حفيظ. حُلتَ دون الثغور وأخذتَ بالنواصي وكتبتَ الآثار ونسخت

---

(١) «المسند» للإمام أحمد ١٤٧/٦

(٢) البخاري، الأذان، ١٥٥؛ مسلم، الصلاة، ٢٠٥؛ أبو داود، الصلاة، ١٣٩

(٣) «المسند» للإمام أحمد ١٩١/٥؛ «مجمع الزوائد» للهيثمي ١١٣/١٠

(٤) «المسند» للإمام أحمد ١٩١/٥؛ «مجمع الزوائد» للهيثمي ١١٣/١٠

(٥) «المسند» للإمام أحمد ١٩١/٥؛ «مجمع الزوائد» للهيثمي ١١٣/١٠

الآجال، القلوبُ لك مفضية، والسِّرُّ عندك علانية، الحلال ما أحللتَ، والحرام ما حرمت والدين ما شرعتَ، والأمر ما قضيت، والخلق خلقك والعبد عبدك وأنت الله الرؤف الرحيم. أسألك بنور وجهك الذي أشرقت له السموات والأرض بكل حقٍّ هو لك وبحق السائلين عليك أن تقبلني في هذه الغداة وفي هذه العشية وأن تجيرني من النار بقدرتك.»[1]

«اللهم إنا نسألك من خيرِ ما سألك منه نبيك محمد ﷺ ونعوذ بك من شر ما استعاذ منه نبيك محمد ﷺ .»[2] «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها.»[3]

«اللهم إني أسألك الثبات في الأمر وأسألك عزيمة الرشد وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك، وأسألك لساناً صادقاً وقلباً سليماً وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأسألك من خير ما تعلم، وأستغفرك مما تعلم إنك أنت علام الغيوب.»[4]

«اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردتَ فتنة الناس فتوفني غيز مفتون. وأسألك حبَّك وحبَّ مَن يحبك وحُبَّ عمل يقربني إلى حبك.»[5]

«اللهم إني أسألك فواتح الخير وخواتمه وجوامعه وأوله وآخره، وظاهره وباطنه والدرجات العلى من الجنة. آمين.»[6] «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.»[7] «اللهم إني أسألك الهدى والتُّقَى والعَفاف والغنى.»[8] «اللهم أحسن

---

(١) «مجمع الزوائد» للهيثمي ١١٧/١٠

(٢) الترمذي، الدعوات، ٨٨

(٣) مسلم، الذكر، ٧٣؛ أبو داود، الوتر، ٣٢

(٤) الترمذي، الدعوات، ٢٣؛ النسائي، السهو، ٦١؛ «مجمع الزوائد» للهيثمي ١٧٣/١٠

(٥) الترمذي، تفسير سورة (٣٨) ٢؛ الموطأ، القرآن، ٤٠

(٦) «المستدرك» للحاكم ٥٢٠/١

(٧) «المستدرك» للحاكم ٤٩٩/١

(٨) ابن ماجة، الدعاء، ٢؛ مسلم، الذكر، ٧٢؛ الترمذي، الدعوات، ٧٢؛ «المسند» للإمام أحمد ٤١٦/١، ٤٣٤، ٤٣٧

عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.»[1]

في هذه الأدعية لا يمكنك تبديل كلمة واحدة، أما الانسجام الموجود بين الكلمات فشيء رائع حقا، وليس في إمكان أحد الوصول إلى أبعاد هذه الأدعية.. أجل، لقد كان رسول لله ﷺ قمة شاهقة في الأدعية أيضاً. لقد اقتبس كل الأولياء والزهاد كلمات من أدعية رسول الله ﷺ ليزينوا أدعيتهم بها ويعطوا لها حيوية ودفئا، ولكي يطرقوا بدعائه ﷺ باب رحمة الله. ويتميز أسلوب رسول الله ﷺ في الأدعية بإشراقة مضيئة بحيث تستطيع معرفته ضمن الأساليب الأخرى وتشخيصه بسرعة قائلاً "هذا كلام رسول الله ﷺ."

عندما أقرأ أدعية عمالقة الروح والقلب ومناجاتهم من أمثال أبي الحسن الشاذلي وأحمد البدوي وأحمد الرفاعي والشيخ الكيلاني يغمرني الوجد والهيام وأكاد عندما أقرأ بعض المقاطع منها أن أغيب عن الوعي، فأدعيتهم مؤثرة جداً ومدهشة، ولكنهم جميعاً اقتبسوا من أدعية الرسول ﷺ وأدخلوها في هذه المقتبسات ضمن أدعيتهم لكي يغنوها ويزينوها بها. ونحن بدورنا نستخدم أدعيتهم هذه عندما نطرق باب رحمة الله تعالى بأمل قبولها.

وختاماً نقول إن كلام رسول الله ﷺ وأحاديثه بأجمعها دليل على فطنته، وبعض كلماته لكونها من "جوامع الكلم" تحمل أهمية خاصة. والأسلوب الذي يستخدمه في تعابيره في الأدعية يدخل ضمن هذا القسم، فإن أحاديثه وأدعيته تشيران إلى منطق النبوة أي إلى منطق العقل ذي بُعد العالم الأخروي ويشير إلى بعده الإلهامي... فما هو إلا سلطان الأنبياء والرسل.

ج- الرحمة النبوية بعد من أبعاد فطنته ﷺ

إن رحمة النبي ﷺ وشفقته تشكلان بعداً آخر من أبعاد فطنته. ويمكن رؤية عمق آخر في فطنة رحمة النبي ﷺ وشفقته. أجل، لقد كان سيدنا محمد ﷺ هو الممثل الوحيد لتجلي صفة

(١) «المسند» للإمام أحمد ١٨١/٤؛ «المستدرك» للحاكم ٥٩١/٣

الرحمة والرحمانية لله تعالى في الأرض. واستعمل هذه الصفة كإكسير شاف لفتح القلوب والتربع على عروشها. ذلك لأن صفة الشفقة والرأفة واللين في الإنسان هي العامل الثاني في جذب الناس وفتح قلوبها بعد صفة الإخلاص والتجرد الحقيقي. لقد كانت رقة وجمال العالم الداخلي للرسول ﷺ وقابليته غير الاعتيادية ورحمته وشفقته -اللتان كانتا بُعدا آخر من أبعاد فطنته- من عوامل نجاحه التي استعملها واستغلها، ومن دلائل نبوته كذلك.

لقد أرسله الله تعالى رحمة للعالمين.. أجل، لقد كان مرآة مجلوة تعكس رحمة الله تعالى... كأنه كان نبعاً وسط الصحارى أو حوض كوثر... تقاطر عليه الجميع وفي يد كل منهم وعاؤه... يشرب حتى يطفئ ظمأه ويروي غلته ويملأ وعاءه... أجل، إنه بسرّ بُعد الرحمة المتجلية فيه مثل حوض كوثر للجميع، من أراد استطاع الاستفادة منه.

غير أنه بهذه فطنته الرائعة جعل الرحمة الموجودة في فطرته شباك رحمة لصيد القلوب، فمن وجد نفسه في ذلك الجو الساحر وجد نفسه في طريق الجنة وفي قمة الوجد... هكذا كانت "الرحمة" في يد رسول الله ﷺ مفتاحاً سحرياً... فبهذا المفتاح فتح معاليق أقفال صدئة لم يكن أحد يتوقع فتحها بأي مفتاح، وأشعل شعلة الإيمان في القلوب... أجل، لقد سلّم هذا المفتاح الذهبي إلى محمد المصطفى ﷺ لأنه كان أليق الناس به، والله تعالى دائما يسلم الأمانة لمن هو أهل لها؛ لذا، سلم مفتاح القلوب التي أعطاها أمانة للناس إلى من هو أكثر أهلية له من بين كل الناس وكل البشر... إلى محمد ﷺ. أجل، لقد أرسله الله رحمة للعالمين، فقام ﷺ بتقييم هذه الرحمة بشكل متوازان جدا، لأن التوازن شيء مهم في موضوع الرحمة.

١- الإفراط والتفريط في الرحمة

هناك إفراط وتفريط في مسألة الرحمة كما في المسائل الأخرى. ويمكن مشاهدة أفضل مثل على سوء استعمال الرحمة في فكر وتصرفات الماسونيين، فهم مع كونهم يتحدثون بمبالغة عن الحب وعن الإنسانية نراهم لا يستطيعون إقامة أي علاقة حميمة مع أي شخص

متدين، بل لو كان في مقدروهم أن يقتلوا كل شخص متدين ومسلم لفعلوا. فالحب الذي يتحدثون عنه مقتصر عليهم وعلى من يفكر مثلهم، وهذا الحب في الحقيقة ليس الحب الخالص الذي نعرفه نحن، بل هو حب قائم على المنافع وعلى المصالح بينما كانت رحمة سيد المرسلين رحمة متوازنة شاملة لم تشمل الناس فقط بل شملت الوجود باجمعه.

يستطيع المؤمنون الاستفادة من الرحمة التي كان يمثلها النبي ﷺ، ذلك لأنه ﴿...بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ (التوبة: ١٢٨) ويستطيع الكافرون والمنافقون أيضا -إلى جانب المؤمنين- الاستفادة من هذه الرحمة كذلك. حتى أن لجبريل حصة من هذه الرحمة.[١] وانظروا وتأملوا مدى شمولية وسعة هده الرحمة بحيث أن الشيطان نفسه بعدما شاهد هذه الرحمة انبعث فيه بعض الأمل فيها.[٢] الرحمة التي يمثلها غير مقتصرة على أناس معينين ولا على جماعات معينة ولم يقم أبداً باستغلال هذه الرحمة كما فعل البعض.

٢- خدعة "الإنسانية (Humanizm)"

في أيامنا الحالية تيارات اتخذت من فكرة "الإنسانية" ستاراً لخداع الإنسان. وأنا أتساءل: ما الفرق بين هذا التصرف وبين تصرف العقارب والثعابين التي تقترب من الإنسان لتلدغه..؟ إن الحب الذي كان الرسول ﷺ يمثله لم يكن من هذا النوع أبداً ويجب ألا يخلط به. أجل، إن مفهوم الحب في الإسلام حب متوازن يضم في إطاره الدنيا والآخرة كما هو شأنه في الأمور الأخرى كذلك. لقد احتضن محمد ﷺ برسالته الإنسانية كلها بل الوجود كله بالحب، غير أن حبه الواسع وشفقته الشاملة لم تبق في إطار الكلام أو في بطون الكتب كما فعل الآخرون، بل سرعان ما انعكست في الحياة العملية وبكل معانيها العميقة وأبعادها الشاملة. علماً بأنه ما من فكر من أفكاره ﷺ أو عمل من أعماله

---

(١) «الشفاء» للقاضي عياض ١/١٧

(٢) «مجمع الزوائد» للهيثمي ١٠/٢١٦؛ «كنز العمال» للهدي ٤/٢٤٤

إلا وأخذ طريقه إلى التطبيق العملي، ذلك لأنه كان رجل فكر وحركة وعمل.

إن الرحمة الواسعة لرسول الله ﷺ التي ضمت الوجود كله بإخلاص وجدت طريقها إلى التطبيق. لأنها كانت معنى منبعثاً بكل تجرد وإخلاص من قلب الوجود كله، فمثلا نراه يعبر عن شفقته على الحيوان بمثالين حيين: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «أن امرأة بغياً رأت كلباً في يوم حارٍّ يُطِيف ببئرٍ، قد أَدْلَعَ لسانَه من العطَش، فنَزَعَتْ له بِمُوقِها فغُفِر لها.»(١)

ثم يروي ﷺ حادثة مقابلة لذلك: «عُذِّبتْ امرأةٌ في هرّة سجنتْها حتى ماتت فدخلت فيها النارَ، لا هي أطعمتْها ولا سقتْها إذ حبستْها، ولا هي تركتْها تأكل من خَشَاش الأرض.»(٢)

لقد جاء رسول الله ليبلغ رسالة الرحمة هذه، فقد كان المنهلَ العذب المورود، فمن جاءه وجد الرحمة عنده، ومن شرب ماء الحياة من يده فقد حصل ووصل إلى الخلود المعنوي. فيا ليت الذين سيقفون أمام حوض الكوثر بقدَر ولطف من الله تعالى يعلمون قدره وفضله ﷺ حق العلم. ولكي لا يبقى ما قلناه مفهوماً مجرداً فإنني أود تقديم أمثلة ملموسة، غير أنني أود قبل هذا لفت انتباهكم إلى ما يأتي:

٣- كان ذروة في كل شيء

هناك أناس يتقدمون الصفوف في بعض المسائل، ولكنا نجدهم في أواخر صفوف مسائل ومجالات أخرى.

فمثلا نرى القائد الموفق في ساحات القتال وفي فنون الحرب مهما بلغ في مهارته هذه

---

(١) البخاري، الأنبياء، ٥٤؛ مسلم، السلام، ١٥٤

(٢) البخاري، المساقاة، ٩؛ مسلم، السلام، ١٥١؛ الدارمي، الرقاق، ٩٣؛ «المسند» للإمام أحمد ٢/٥٠٧

فإنه لا يكاد يبلغ درجة راع بسيط في ساحات أخرى في الشفقة ورقة العاطفة والفهم، بل لكونه معتاداً على القتل فلن يكون إنساناً رحيماً في معظم الأحوال. ذلك لأن عواطفه وأحاسيسه قد فقدت حساسيتها ورقتها من كثرة ما اقترف من أعمال القتل فلا يشعر بأدنى عاطفة وهو يقوم بقتل إنسان. وقد يكون هناك سياسي ناجح في ميدان السياسة، ولكنك قد تراه مبتعداً عن الصدق بسبة نجاحه هذا وقد لا يحترم حقوق الناس. أي أن ابتعاده عن الصدق وعن المروءة بنسبة نجاحه في ميدان السياسة يكون أمراً وارداً. وهذا يعني أن ارتفاعاً في ميدان مّا قد يستتبعه هبوط في ميدان آخر.

كما تستطيع مشاهدة كيف أن الإنسان الذي افتتن بتيار الوضعية (Positivism) فأصبح يجري وراء إجراء التجارب على كل شيء .. وكيف أن الحياة الروحية والقلبية لمثل هذا الرجل لا تتجاوز خط الصفر. بل هناك أشخاص وصلوا بعقولهم إلى "قمة إفرست". ولكنهم في حياتهم القلبية والروحية تراهم هابطين إلى مستوى "البحر الميت" "بحيرة لوط". فكم من شخصٍ انساب عقلُه إلى عينيه فلا يرى شيئاً سوى المادة، يقف ذاهلاً أحمق أمام منطق الوحي، قد عميت عيناه عن رؤية الحقيقة. من هذا الشرح القصير نعرف أن هناك أشخاصاً ينجحون في ساحات وميادين معينة ولكنهم يفشلون في ساحات وميادين أخرى أكثر أهمية. أي أن الصفات المتناقضة الموجودة في الإنسان تعمل إحداها ضد الأخرى. فعندما تتوسع صفة ما وتقوى يكون هذا ضد صفات أخرى، وعندما تنمو إحداها وتقوى تضمر الأخرى وتضعف.

ولكن هذا الأمر غير وارد بالنسبة لرسول الله ﷺ، فهو إلى جانب كونه محارباً كان صاحب شفقة عظيمة.. كان سياسياً ولكنه في الوقت نفسه صاحب مروءة كبيرة وقلب كبير.. وبيسما كان يعطي أهمية للأمور الملموسة وللتجارب فإنه كان ذروة في حياة الروح وفي حياة القلب. ويمكن العثور على أمثلة كثيرة بهذا الصدد في معركة أُحد.. ففي تلك المعركة استشهدَ عمه حمزة رضي الله عنه الذي كان يراه شقيق نفسه. لم يُستشهد فقط بل مزق

جسده تمزيقاً.[1] كما مزق جسد ابن عمته عبد الله بن جحش تمزيقاً.[2] وشج رأسه المبارك، وكسرت أسنانه وغطى الدم جسده الشريف؛[3] وبينما كثّف أعداؤه الهجوم عليه جاهدين الوصول إليه لقتله كان هذا الإنسان العظيم فوق كل عظمة فاتحاً يديه يبتهل إلى الله تعالى قائلاً: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.».[4] فما أعظم وما أروع هذه الشفقة من شخص يحاول أعداؤه قتله فلا يدعو عليهم.. بل يبتهل لله تعالى أن يغفر لهم.

حتى فتحِ مكة لم يبق في يد أعدائه أيُّ وسيلة للإيذاء لم يجربوها معه ولم يوجهوها نحوه.. تأملوا معي كيف أنهم أخرجوه هو ومن يقف معه من بيوتهم إلى منطقة صحراوية معلنين عليهم المقاطعة، ومعلقين بنود هذه المقاطعة الشريرة على جدار الكعبة؛ وكانت تقضي بعدم التعامل معهم بيعاً وشراء وعدم التزوج من بناتهم أو تزويج بناتهم لهم... وقد دامت هذه المقاطعة ثلاث سنوات بحيث اضطروا إلى أكل العشب والجذور وأوراق الأشجار، حتى هلك منهم الأطفال والشيوخ من الجوع دون أن تهتز منهم شعرة، أو تتحرك عندهم عاطفة رحمة.. ولم يكتفوا بهذا بل اضطروهم لترك بيوتهم وأوطانهم والهجرة إلى أماكن أخرى بعيدة.. ولم يدعوهم في راحة هناك فبدسائسهم المختلفة سلبوا منهم طعم الراحة والإطمئنان.. وفي معارك بدر وأُحد والخندق اشتبكوا معهم في معارك ضارية.. وحرموهم حتى من أبسط حقوقهم كزيارة الكعبة وأرجعوهم إلى ديارهم بعد إبرام معاهدة ذات شروط قاسية. ولكن الله تعالى أنعم عليهم ففتحوا مكة ودخلها رسول الله ﷺ على رأس جيش عظيم..

فكيف كانت معاملته لأهل مكة بعد كل هذا التاريخ المملوء عداوة وبغضا..؟ لقد قال لهم: «اذهبوا فأنتم الطُلَقاء» ولولا أنني أخذت هذا الدرس منه لما كنت قد تصرفت هكذا لو كنت في موقعه، ولا أشك أنكم تشاطرونني رأيي هذا. ولكنه يدخل مكة على مركبه

---

(١) البخاري، المغازي، ٢٣

(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام ١٠٣/٣

(٣) البخاري، المغازي، ٢٤؛ مسلم، الجهاد، ١٠٠، ١٠١

(٤) البخاري، الأنبياء، ٥٤؛ مسلم، الجهاد، ١٠٤، ١٠٥

والدرع على صدره والمغفر على رأسه والسيف في يده والنبال على ظهره.. ولكنه مع كل مظاهر لباس الحرب هذه كان أنموذجاً للشفقة والرأفة.. سأل أهل مكة: «ما ترون أني فاعل بكم؟» فأجابوه: "خيراً أخٌ كريمٌ وابن أخ كريم." فقال لهم ما قاله يوسف عليه السلام لإخوته: ﴿لا تثريبَ عليكم اليوم يَغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾ (يوسف: ٩٢).[١]

لم يقصر في حياته أبداً من ناحية اتخاذ الحيطة. وليس هناك من استطاع مثله الجمع بقوة بين اتخاذ التدبير والتوكل. عندما خرج بأصحابه إلى بدر امتحنهم.. كان كل منهم كالطود الشامخ لا يخاف الوقوف وحده أمام جيش بكامله، وعندما قال له سعد بن معاذ -وفي رواية: سعد بن عبادة-: "يا رسول الله! والذي نفسي بيده لو أمرتَنا أن نخيضها البحار لأخضناها ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى بَرْكِ الغِمَاد لفعلنا ما تخلَّف منا أحد."[٢] فإنه كان يعطي أنموذجا لهؤلاء.. ثم ما أكثر المعاني التي يحملها قوله للرسول ﷺ "...فصِلْ حِبال من شئتَ واقطعْ حبال من شئت وعادِ من شئت وسالِمْ من شئت وخذ من أموالنا ما شئت."[٣]

كان المقاتلون متهيئين فكأن كل واحد منهم سعد بن معاذ، ومع ذلك لم يقصر رسول الله ﷺ في اتخاذ التدابير، بل كان يهيئ كل الوسائل والأمور الضرورية للحرب. وبعد هذا الدعاء الفعلي -لأن اتخاذ الوسائل دعاء فعلي- رفع يديه إلى السماء مبتهلاً إلى الله من كل قلبه ضارعاً وملتجئاً إليه... واندمج في دعائه بحيث كان رداؤه يسقط دون أن يشعر بذلك ولم يتحمل أبو بكر الذي كان يراقب هذا المنظر، فكان يعيد عليه رداءه ويقول: "يا نبيّ الله! كفاك مناشدتك ربك، فإن الله منجز لك ما وعدك."[٤]

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٤/٥٥؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٤/٣٤٤

(٢) «البداية والنهاية» لابن كثير ٣/٣٢١، ٣٢٢؛ «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/٢٦٦

(٣) «البداية والنهاية» لابن كثير ٣/٣٢٢

(٤) مسلم، الجهاد، ٥٨؛ الترمذي، تفسير سورة (٨) ٣؛ «المسند» للإمام أحمد ١/٣٢؛ «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/٢٧٩؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٣/٣٣٢

فمثل هذا المستوى الرفيع من التوكل على رب العالمين بعد اتخاذ كل هذه التدابير صفة تميز بها ذلك الإنسان... إنسان الذروة ﷺ، وتفرد بها.

٤- ﴿ الرحمة العالمية ﴾

لقد ذكرت في بداية هذا الموضوع أن رسول الله ﷺ كان مثال الرحمة التي استفاد منها الكل، المؤمن والكافر والمنافق. يستفيد المؤمن من رسول الله ﷺ لأنه يقول بأنه أقرب للمؤمنين من أنفسهم. صحيح أن المفسرين يقولون إن الرسول ﷺ يجب أن يكون أعز وأحب إلى المؤمنين من أنفسهم استناداً إلى الآية الكريمة: ﴿النبي أَوْلَى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ (الأحزاب: ٦). ولكن الحقيقة أن المعنيين متقاربان من بعضهما، فنحن نحب رسول الله ﷺ أكثر من أنفسنا، والرسول ﷺ يحب من يحمل له هذه العاطفة بالحب نفسه، ذلك لأنه رجل مروءة كبير.

هذا حب عقلي ومنطقي، ومع أن لهذا الحب جانبه العاطفي إلا أن بُعد المعرفة وعمق المنطق يشكلان الجانب الأساسي فيه. ولو تم بحث هذا الموضوع وتسليط الأضواء عليه، تجذر هذا الحب عند الإنسان وقوي إلى درجة أن يسير وراء ذكره كما سار "قيس" وراء ليلاه، وكلما ذكر اسمه أحس كأن دخاناً يخرج من أنفه، ويعد حياته التي انقضت دون رؤيته كأنها حياة منفى وهجر. أجل، إن رسول الله ﷺ أقرب إلينا من أنفسنا، كيف لا ونحن نرى الكثير من الشرور والآثام من أنفسنا، بينما لم نر منه سوى الكرم والرحمة والخير والشفقة والمروءة، فهو يمثل الرحمة الإلهية، لذا فلا شك أنه أقرب إلينا من أنفسنا.

وعندما يقول الرسول ﷺ بأنه أقرب إلى المؤمنين من أنفسهم فقد صدق، فالله تعالى يقول ﴿النبي أَوْلَى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ (الأحزاب: ٦)، ويقول الرسول ﷺ: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفي وعليه ديْن فعليّ قضاؤه، ومن ترك مالاً فهو لورثته.»[1]

(١) البخاري، الكفالة، ٤؛ مسلم، الفرائض، ١٤

وبداية هذا الحديث: عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يؤتى بالرجل الميت عليه الدين، فيسأل: «هل ترك لدينه من قضاء؟» فإن حدث أنه ترك وفاء صلّى عليه، وإلا قال: «صلّوا على صاحبكم.» فلما فتح الله عليه الفتوح، قال: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفي وعليه دين فعليّ قضاؤه، ومن ترك مالاً فهو لورثته.»[1] وكون الرسول ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم في الدنيا والآخرة يعد رحمة، وناحية الرحمة هذه مستمرة إلى الأبد.

كان رحمة للمنافقين أيضاً. فبسبب هذه الرحمة الواسعة لم ير المنافقون العذاب في الحياة الدنيا، فقد حضروا إلى المسجد واختلطوا بالمسلمين واستفادوا من كل الحقوق التي تمتع بها المسلمون. ولم يقم رسول الله ﷺ بفضحهم وإفشاء أسرار نفاقهم أبداً مع أنه كان يعرف دخائل نفوسهم ونفاقهم، حتى إنه أخبر حُذيفة ﷺ بذلك.[2] لذا، كان عمر بن الخطاب ﷺ يراقب حُذيفة، فإن رآه لا يصلي على جنازة لم يصلها هو كذلك.[3]

ومع ذلك فلم يهتك الإسلام سرهم، فبقوا بين المؤمنين، وانقلب كفرهم المطلق إلى ريبة وشك على الأقل، فلم يحرموا من لذائذ الدنيا، لأن الإنسان الذي يعتقد أنه سيفنى ويذهب إلى العدم لا يمكن أن يهنأ في عيشه، ولكن إن انقلب كفره إلى شك وشبهة فإنه يقول في نفسه: "ربما توجد هناك حياة أخروية"، عند ذلك لن تكفهر حياته تمام الاكفهرار. ومن هذا المنطلق كان رسول الله ﷺ رحمة لهم بهذا المعنى.

كما استفاد الكفار من رحمة رسول الله ﷺ، لأن الله تعالى كان يهلك من قبل الأمم الكافرة بسبب كفرها وعصيانها هلاكاً جماعياً، بينما رفع الله تعالى بعد بعثة نبينا هذا الهلاك الجماعي، فاستفاد الناس من خلاصهم من مثل هذا العذاب، فكان ذلك نعمة

---

(١) البخاري، الاستقراض، ١١؛ مسلم، الفرائض، ١٤؛ «المسند» للإمام أحمد ٣/٣١١

(٢) البخاري، فضائل أصحاب النبي، ٢٠؛ «أسد الغابة» لابن الأثير ١/٤٦٨

(٣) «أسد الغابة» لابن الأثير ١/٤٦٨

دنيوية بالنسبة للكفار. يخاطب الله تعالى نبيه في هذا الخصوص فيقول: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ (الأنفال: ٣٣)

أجل، فمن أجل حرمة النبي ﷺ رفع الله تعالى العذاب والهلاك الجماعي. وبينما كان النبي عيسى عليه السلام يقول لله: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ (المائدة: ١١٨) نرى أن الله تعالى يقول لنبيه ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾، فتأمل قدر النبي ﷺ ومنزلته عند الله، أي طالما أنت تعيش بينهم فلن يعذبهم الله، طالما أن ذكرك موجود، وتلهج به الألسنة، وطالما أن الناس يتبعون طريقك فلن يعذبهم الله ولن يهلكهم. وإحدى الجهات التي استفاد الكفار من رسول الله ﷺ هو أن الرسول ﷺ يقول: «إني لم أُبعث لعّاناً، وإنما بُعثت رحمة»،[١] أي إنني بعثت رحمة من قبل الله تعالى للناس أجمعين، ولم أبعث لكي أستمطر اللعنة والبلايا والمصائب على الناس. ولهذا تمنى رسول الله ﷺ اهتداء ألدّ أعداء الإسلام، وبذل كل جهوده ومساعيه لتحقيق هذا.

حتى جبريل عليه السلام قد استفاد من النور الذي جاء به الرسول ﷺ، فقد سأله رسول الله ﷺ يوماً وهو يشير إلى القرآن: «هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟» قال: "نعم، كنت أخشى العاقبة، فأمنت لثناء الله عز وجل عليّ بقوله: ﴿ذي قوة عند ذي العرش مكين ۞ مُطاعٍ ثَمّ أمين﴾ (التكوير: ٢٠-٢١)".[٢]

ويقول الرسول ﷺ في حديث آخر: «أنا محمد وأحمد والمقفّى[٣] وأنا الحاشر[٤] ونبي التوبة ونبي الرحمة.»[٥] وباب التوبة مفتوح حتى يوم القيامة؛ لأن رسول الله نبيُّ الرحمة والتوبة، ونبوته وحكمه ماض إلى يوم القيامة.

---

(١) مسلم، البر، ٨٧

(٢) «الشفاء» للقاصي عياض ١٧/١

(٣) المقفّي: أي خاتم الأنبياء. (المترجم)

(٤) الحاشر أي ليس بينه وبين الحشر نبي آخر في معنى، وفي معنى آخر أن الله سيحشر الناس أمامه يوم القيامة. (المترجم)

(٥) مسلم، الفضائل، ١٢٦؛ «المسند» للإمام أحمد ٣٩٥/٤

كـان إذا رأى طفـلاً أو صبياً يبكي جلس وبكى معـه، إذ يشعر في وجدانـه ألم الأم وعذابها. ففي الحديث الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه نجد أنموذج هذه الرحمـة وهـذه الشفقة التي لهجت بها الألسن إذ يقول رسول الله ﷺ: «إني لأدخل الصلاة أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبي فأخفف من شدة وَجْد أمه به.»[1]

كانت صلاة رسول الله ﷺ طويلة، ولاسيما النوافل منها، إذ كـانت تتجاوز طاقة الصحابة، ولكنه عندما يقف للصلاة يريد إطالتها ويسمع بكاء طفل في أثنائها إذ به يخفف صلاته ويتَجوَّز فيها، ذلك لأن النساء كن يقفن للصلاة خلف رسول الله ﷺ أي يشتركن في أداء صلاة الجماعة خلفه، فخوفاً من أن تكون أم ذلك الطفل موجودة بين المصليات فإنه كان يخفف صلاته، ويسرع بها لكي يريح قلب تلك الأم. كـان في كل مسألة أنموذجا للشفقة؛ فبكاء طفل كان يؤلمه، بل كان يبكيه. ولكن المهـم هو أنه بكل شفقته الواسعة الباهرة، ورحمته كان متوازنا. فمثلاً رحمته الواسعة هذه لم تكن حائلة أمامه في تطبيق الحدود الشرعية مهما كان شكل هذه الحدود وكيفيتها.

جاءه أحد الصحابة وهو ماعز رضي الله عنه قـائلاً لـه: "طهِّرْني يـا رسـول الله." فـأعرض عنه رسول الله ﷺ قائلاً له: «ويحك، اِرْجعْ فاستغفر الله وتب إليه»، إلا أن ماعزاً كـان يصر على التطهر ويطلبه. وعندما كرر طلبه للمرة الرابعة سأله الرسول ﷺ: «فيم أطهرك؟» فقال ماعز: من الزنا يا رسول الله. كـان مـاعز متزوجـا، أي محصنـا، وعقـاب الزنـا للمحصن هو القتل رجماً. ولكي يبقى هذا الأمر منقوشاً في الأذهان حتى يوم القيامة فقـد التفت إلى من حوله سائلاً: «أبه جنون؟» فأُخبر أنه ليس بمجنون. وفي رواية: مـا نعلمه إلا وفيّ العقل، من صالحينا فيما نرى. فسأل رسول الله ﷺ: «أشَرب خمراً؟» فقـام رجـل فاستنكهه، فلم يجد منه ريح خمر. فقال رسول الله ﷺ لماعز: «أزَنيت؟» فقال: نعم. فأمر برجمه، فسيق ماعز إلى المصلى لرجمه، فلما أصابته الحجارة أدبر يشتد، فلقيه رجل بيده

---

(١) البخاري، الأذان، ٦٥؛ مسلم، الصلاة، ١٩٢

لحي جمل فضربه فصرعه، فذُكر للنبي ﷺ فراره فقال: «فهلاً تركتموه.»

فكان الناس فيه فرقتين، فقائل يقول: لقد هلك، لقد أحاطت به خطيئة، وقائل يقول: ما توبة أفضل من توبة ماعز، إنه جاء إلى النبي ﷺ فوضع يده في يده، ثم قال: اقتلني بالحجارة. فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة، ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس، فسلّم ثم جلس فقال: «استغفروا لماعز بن مالك.» فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك. فقال رسول الله ﷺ: «لقد تاب توبة لو قُسِّمت بين أمة لَوَسِعتهم.»[1] كان رسول الله ﷺ رجل موازنة، ولو فرضنا المستحيل وقلنا إن ماعزاً عاد للحياة، واقترف الذنب نفسه لكرر الرسول ﷺ العقاب نفسه.

كان لدى بني مقرّن خادمة، فلطمها أحدهم، فجاءت تشتكي إلى رسول الله ﷺ باكية، فاستدعى الرسول ﷺ مالكها قائلاً له: «أعتِقوها»، فقالوا ليس لهم خادم غيرها. قال: «فليستخدموها، فاذا استغنوا عنها، فليخلّوا سبيلها.»[2] أجل، فلو بقي إثم هذه اللطمة الظالمة ليوم الحساب لكانت اللطمات هناك أشد وأقسى، لذا كان العتق هو بديل هذه اللطمة لكي تكون ديتها يوم القيامة عن عذاب جهنم.[3]

٥- الأطفال

أما شفقته على أطفاله فكان أمراً مختلفاً تماماً، فكثيراً ما ذهب إلى الأسرة التي ترضع ابنه إبراهيم حيث يأخذه في حجره طويلاً ويقبله ويعطف عليه.[4]

وعندما رأى الأقرع بن حابِس التميمي رسول الله ﷺ وهو يقبل الحسن والحسين ﷺ

---

(١) مسلم، الحدود، ١٧-٢٣؛ البخاري، الحدود، ٢٨؛ «المسند» للإمام أحمد ٢٣٨/١، ٤٥٠/٢

(٢) مسلم، الأيمان، ٣١، ٣٣؛ أبو داود، الأدب، ١٢٣؛ «المسند» للإمام أحمد ٤٤٧/٣

(٣) مسلم، الأيمان، ٣٠

(٤) «المسند» للإمام أحمد ١١٢/٣

ويأخذهما في حضنه، قال: "إنّ لي عشرة من الولد، ما قبّلتُ منهم أحداً"، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «من لا يَرْحم لا يُرحم.»[١] وفي حديث آخر: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.»[٢] وجاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: تقبّلون الصبيان؟ فما نقبّلهم. فقال النبي ﷺ: «أوَ أملك لك إن نزَع الله من قلبك الرحمة.»[٣]

وكما كان رسول الله ﷺ يعطف على أقربائه، فإنه كان يعطف كذلك على أصدقائه القريبين منه والبعيدين عنه. وفي رواية لابن عمر ﷺ قال: اشتكى سعد بن عبادة شكوى له، فأتاه النبي ﷺ يعوده مع عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقّاص وعبد الله بن مسعود ﷺ، فلما دخل عليه فوجده في غاشية أهله قال: «قد قضى؟» قالوا: لا يا رسول الله. فبكى النبي ﷺ، فلما رأى القوم بكاء النبي ﷺ بكوا. فقال: «ألا تسمعون، إن الله لا يعذّب بدمع العين، ولا بحزن القلب، ولكن يعذب بهذا»، وأشار إلى لسانه.[٤]

أجل، إن الله لا يعذب بسبب دمع العين، على العكس من ذلك فهناك دموع يرفع الله بسببها العذاب؛ ففي حديث آخر يقول رسول الله ﷺ: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرُس في سبيل الله.»[٥] إحدى العينين عين الرهبان، والأخرى عين الفرسان؛ ففي الليل كانوا رهباناً يذرفون الدموع في عبادتهم وسجودهم، وفي النهار كانوا فرساناً يصولون ويجولون ويهاجمون الأعداء كالأسود. دموع هؤلاء كانت دموع المؤمنين الحقيقيين، والصحابة كانوا من هذا النوع من المؤمنين: رهبان في الليل فرسان في النهار.

عندما أُخبر رسول الله ﷺ بوفاة عثمان بن مظعون أسرع ﷺ إلى بيته، فقد كان عثمان

---

(١) البخاري، الأدب، ١٨؛ مسلم، الفضائل، ٦٥

(٢) الترمذي، البر، ١٦؛ أبو داود، الأدب، ٥٨

(٣) البخاري، الأدب، ١٨؛ مسلم، الفضائل، ٦٤؛ ابن ماجة، الأدب، ٣؛ «المسند» للإمام أحمد ٥٦/٦

(٤) البخاري، الجنائز، ٤٥؛ مسلم، الجنائز، ١٢

(٥) الترمذي، فضائل الجهاد، ١٢

ﷺ من الصحابة القريبين إلى قلبه، فبكى النبي ﷺ عليه بكاء كثيراً، ولكن عندما قالت زوجة عثمان ﷺ: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله. فقال النبي ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمه؟ والله ما أدري وأنا رسول الله ما يُفعل بي.»[١]

أجل، لقد كان رجل توازن؛ فشفقته وبكاؤه لم يكن يمنعه من تصحيح خطأ. فالدموع التي سكبها على أحد أصحابه الأحبة ما كانت لتحول بينه وبين تصحيح كلام مبالغ فيه أو خاطئ، فالوفاء شيء والحق شيء آخر. كان يزور شهداء أحد كل أسبوع[٢] ولكنه لم يكن يقول: لقد طِرتم إلى الجنة. ولا يقولن أحد منا: إن لم يذهب هؤلاء إلى الجنة..!؟ نعم هذا هو الأمر.

ثم ألا تكفي الرتبة والمقام الذي أعطاه لكافل اليتيم دليلاً على شفقته الواسعة؟ انظروا ماذا يقول ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا»، ثم أشار بالسبابة والوسطى، وفرّج بينهما شيئاً.[٣] فكأن رسول الله ﷺ يريد أن يقول بأنه لن يدخل أحد بيني وبين كافل اليتيم في الجنة.

٦- الشفقة على الحيوانات أيضاً

كانت شفقته تشمل الحيوانات أيضاً، فقد مر سابقاً كيف أن امرأة دخلت النار بسبب هرة، وكيف أن بغياً دخلت الجنة بسبب سقيها الماء لكلب ظامئ. وهنا أنقل لكم حادثة أخرى بهذا الخصوص كخاتمة للموضوع:

عن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق

---

(١) البخاري، الجنائز، ٣

(٢) البخاري، المغازي، ٢٧؛ مسلم، الفضائل، ٣٠؛ النسائي، الجنائز، ١٠٣؛ «الطبقات الكبرى» لابن سعد ٢/٢٠٥؛ «السيرة النبوية» لابن هشام ٤/٣٠٠

(٣) البخاري، الطلاق، ٢٥، الأدب، ٢٤؛ مسلم، الزهد، ٤٢

لحاجته، فرأينا حُمَّرَة معها فرخان، فأخذْنا فرخيْها، فجاءت الحمرة فجعلت تَفْرُش، فجاء النبي ﷺ فقال: «من فَجّع هذه بولدها؟ رُدُّوا ولدها إليها»[(١)] أجل، لقد كانت شفقته تحتضن الحيوانات أيضاً. ثم ألا نتذكر أن الله تعالى عاتب أحد أنبياءه السابقين بسبب بيت نمل؟ إذ قام هذا النبي عن قصد أم عن دون قصد بحرق بيت نمل، فما لبث أن جاءه تأنيب من الله تعالى.[(٢)] ونبينا الذي نقل لنا هذه الحادثة وأمثالها من الحوادث الأخرى أيمكن أن يتصرف إلا هكذا؟ وظهر فيما بعد في أمته أشخاص عندما يُمدحون يقال عنهم: إنه لا يؤذي حتى نملة. هؤلاء الأشخاص كانوا يعلقون أجراساً صغيرة على أقدامهم لكي تبتعد الحشرات عن طريقهم عند سماعها لصوت الأجراس، ولا تنسحق تحت الأقدام.. يا إلهي! ما هذه الشفقة العميقة والشاملة! وما هذا الأنموذج الرائع للرحمة! أجل، حتى النمل لم تخرج عن دائرة رحمته ﷺ ولم تستثن منها. وهل يكون في مقدور إنسان يتحرج عن سحق نملة القيام بظلم الناس الآخرين؟ كلا، لا يستطيع هذا عن علم وعن قصد أبداً.

عندما كان ﷺ في "مِنًى" خرجت حية من بين بعض الصخور، فأسرع بعض الصحابة لقتلها، غير أنها استطاعت أن تنسلّ بين شقوق الصخور، فقال رسول الله ﷺ الذي كان يراقب المنظر عن بُعد: «وقاها الله شرّكم، ووقاكم شرّها.»[(٣)]

فالرسول كان يرى فيما هم به الصحابة شراً، والمقتول وإن كان حية إلا أن لها مكان أيضاً في نظام هذه الدنيا، فأي قتل غير ضروري سيضر بالتوازن البيئي، ويؤدي إلى أضرار لا يمكن تلافيها. والحقيقة أن إعلان الحرب على الحشرات باسم الزراعة والمحافظة عليها، يعد جريمة بالنسبة للتوازن البيئي، والغريب أن هذه الجرائم ترتكب اليوم باسم العلم.

يروي ابن عباس ﷺ: أن رجلاً أضجع شاة يريد أن يذبحها، وهو يحد شفرته، فقال النبي

---

(١) أبو داود، الأدب، ١٦٤، الجهاد، ١١٢؛ «المسند» للإمام أحمد ٤٠٤/١

(٢) البخاري، الجهاد، ١٥٣؛ مسلم، السلام، ١٤٨

(٣) البخاري، جزاء الصيد، ٧؛ مسلم، السلام، ١٣٧؛ النسائي، الحج، ١١٤؛ «المسند» للإمام أحمد ٣٨٥/١

ﷺ: «هلاَّ حددتَ شفرتك قبل أن تضجعها.»[1] كان هذا بمثابة عتاب لذلك الشخص.

يروي عبد الله بن جعفر ﷺ: جاء بعير يشتد حتى سجد لرسول الله ﷺ، ثم قام بين يديه، فذرفت عيناه، فقال رسول الله ﷺ: «من صاحب هذا البعير؟» قالوا: فلان. فقال «ادعوه، فأتوا به»، فقال له رسول الله ﷺ «يشكوك.» فقال: يا رسول الله، هذا البعير كنا نسنو عليه منذ عشرين سنة، ثم أردنا نحره. فقال رسول الله ﷺ: «شكا ذلك، بئسما جازيتموه، استعملتموه عشرين سنة حتى إذا أرق عظمه، ورق جلده أردتم نحره بعينه.» قال: بل هو لك يا رسول الله. فأمر به رسول الله ﷺ فوجه نحو الظهر، أي الإبل.[2]

لقد كانت رحمة رسول الله ﷺ وشفقته تتجاوز بكثير الرحمة المدعاة من قبل ما يطلق عليهم اليوم اسم "أنصار الإنسانية"، ولكنه استطاع أن يصون رحمته الواسعة هذه من الإفراط ومن التفريط أيضاً، وذلك بفضل فطنته الكبيرة.

أجل، لم يتهاون أبداً مع أي شر أو إثم تحت اسم المرونة أو الرحمة أو المسامحة، ولم يدع له فرصة لوضع بيانه ومد جذوره، ذلك لأنه كان يعرف جيداً أن أي مسامحة لمجرم أثيم ذي روح متوحش تعني الاعتداء على حقوق آلاف من الأبرياء. ونعترف بكل أسى بأن أيامنا الحالية مملوءة بمثل هذه الاعتداءات أكثر من أي عهد مضى. فقد رأينا بأم أعيننا إلى أي حال جرّنا هذا التسامح مع الفوضويين ومع أعداء عقائدنا وتراثنا وماضينا، ولا نزال نرى ذلك ونشاهده، وقلوبنا تتفطر ألماً. فإن لم تستخدم الرحمة والشفقة بشكل متوازن أدى ذلك إلى نتائج وخيمة جداً في مستوى الفرد، وفي مستوى المجتمع ككل، بينما لا يمكن الإشارة إلى أي مثال على مثل هذا الاستعمال السلبي للرحمة عند رسول الله ﷺ.

أجل، لقد كان رسول الله ﷺ يحب الناس إلى درجة يكاد يتلف فيها نفسه، والقرآن

---

(١) «المستدرك» للحاكم ٢٣١/٤، ٢٣٣

(٢) «مجمع الزوائد» للهيثمي ٩/٩؛ «الخصائص الكبرى» للسيوطي ٩٥/٢

الكريم يشير إلى هذا الأمر في بعض المواضع إذ يقول: ﴿فلعلك باخع نفسك[1] على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾ (الكهف: ٦). هذا علماً بأنه عندما اقتربت منه نسائم النبوة كان معتكفاً في مغارة، وجاءه الوحي لأول مرة هناك. إذن، فقد كان يحب الناس، ونذر نفسه من أجل هذه الغاية.

والحقيقة أن مفهوم الجهاد عنده ﷺ كان ينبع من منبع الرحمة. أجل، قد يلحق بعض الضرر الدنيوي بالناس بسبب جهادهم، ولكن ما يرجونه في حياتهم الأبدية كبير إلى درجة أن هذا الضرر يعد صفراً بجانبه؛ فرسول الله ﷺ كان يفتح بحد سيفه الطرق المؤدية إلى الجنة. وهذا بُعد آخر من أبعاد الرحمة التي بعث بها للعالمين.

د- الحلم

حاولنا في الفصل السابق بيان كيف أن رسول الله ﷺ كان أصفى مرآة وأجلاها للرحمانية وللرحيمية الإلهية، وكيف أنه استطاع بفطنته الرائعة إقامة التوازن في مجال الرحمانية والرحيمية. ومع أنه يصعب تقصي كل هذه الحقائق وإعطائها حقها إلا أننا حاولنا إعطاء صورة واضحة وإن كانت مختصرة. وهنا سنحاول تقديم جانب آخر، ومتعلق أيضاً بموضوع رحمته، وهو حلمه ﷺ وخلقه اللين.

الحلم مفتاح ذهبي آخر أُهدي للنبي ﷺ، ففتح به قلوباً كثيرة وتربع فيها. فلولا حلمه هذا لصدمت الخشونة الكثير من النفوس التي لا تملك مرونة، وجعلتهم في صفوف أعداء الإسلام، ولابتعدوا عن النبي ﷺ. ولكن حلمه ﷺ حال دون هذا، فأقبل الناس أفواجاً إلى الإسلام. أجل، لقد كان الحلم من أهم الصفات التي جهزه الله تعالى بها، والتي تعكس رحمة الله تعالى عليه، والقرآن الكريم يشرح هذا الأمر فيقول: ﴿فبما رحمة من الله لِنْتَ لهم ولو كنتَ فَظاًّ غليظ القلب لانْفَضُّوا من حولك فاعفُ عنهم واستغفر لهم وشاوِرْهم

---

(١) باخع نفسك: قاتلها ومهلكها من شدة الغم. (المترجم)

في الأمر فإذا عزمتَ فتوكَّلْ على الله إنّ الله يحب المتوكلين﴾ (آل عمران: ١٥٩).

كما نفهم من القرآن، فإن الحلم ينبع من رحمة الله تعالى، ولو كان رسول الله ﷺ فظًّا غليظ القلب – إذ لم يكن كذلك– لانفض الناس من حوله. فكانت من رحمة الله الواسعة أن جعله ليِّن الطبع إلى درجة أن الأيدي التي امتدت بالأذى إليه، والتي توقعت رد فعل عنيف لم تجد عنده سوى اللين والعطف، فكيف بالذين أحبوه من أعماق قلوبهم!

نزلت هذه الآية بعد معركة أُحد، فمع أن رسول الله ﷺ شرح لهم تكتيك الحرب بتفاصيلها إلا أن البعض منهم لم يفهموا الأوامر المعطاة لهم حق الفهم، فتركوا مواضعهم قبل صدور الأوامر إليهم بذلك، فكانت النتيجة الهزيمة المؤقتة للمسلمين. صحيح أنها لم تكن هزيمة تامة، ولكنها لم تكن نصراً تاماً أيضاً. هزت شائعة مقتل رسول الله ﷺ قلوب كثير من المسلمين وأفزعتهم، فنرى مثلاً الصحابي أنس بن النضر يقول للمسلمين: "فما تصنعون بالحياة بعده، قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ."[1] فذهبوا وقاتلوا حتى استشهدوا.. كان هذا هو طريقهم.. الموت في السبيل الذي مات فيه الرسول الله الكريم ﷺ.

لو انصاع المسلمون لأوامر النبي ﷺ لكان من المحتمل أن يصلوا إلى النصر، ولكن إظهارهم أقل انحراف عن أمره غيَّر النتيجة كل هذا التغيير المفجع. والآن لنقف هنا لنتأمل قليلاً: لو كان على رأس هذه الجماعة زعيم آخر غير رسول الله ﷺ فكيف كان سيتصرف أمام هؤلاء الناس الذين لم يطيعوا الأوامر الصادرة إليهم وخالفوها؟ أكان يتصرف معهم وكأن لم يحدث شيئاً؟ ثم إنه كان زعيمهم مادياً وروحياً. أجل، فكل خير أو فضيلة عرّفوها عن طريقه، وشاهدوا مئات المرات كيف أنه يصدر القرار الصائب في كل مسألة.. مثل هذا الشخص أصدر إليهم تعليمات مشددة ألا يبرح أحدهم مكانه، وهم الآن يقاسون عاقبة مخالفتهم له. فبجانب كل هؤلاء الشهداء لم يسلَم تقريباً أحد من الجروح، حتى رسول الله ﷺ فقد شج رأسه، وكسرت سنه، وسال الدم على جسده. أجل، لو كان قائد آخر غير

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٨٨/٣، «البداية والنهاية» لابن كثير ٣٦/٤

رسول الله ﷺ في مكانه آنذاك أما بدت على وجهه علامات الغضب؟ ألم يكن في الأقل يعاتبهم قائلاً لهم: ألم أقل لكم أن تعملوا كذا وكذا؟ ليذكرهم بأخطائهم؟ ولكن الآية الكريمة السابقة تخاطبه، وتضع سداً أمام ورود هذه الخواطر في نفسه.

كانت هذه اللحظة لحظة دقيقة جداً وحساسة، فأي كلام أو إشارة أو غمز كان سيؤثر لا محالة تأثيراً مضاعفا، لذا كان من الضروري تجنب أي تصرف يمكن أن يجرح قلوبهم أو يخدش نفوسهم، فنزلت الآية الكريمة: ﴿فبما رحمة من الله لِنْتَ لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضُّوا من حولك﴾ (آل عمران: ١٥٩). هذا علماً بأن الصحابة لم يغيروا سلوكهم أبداً مع رسول الله ﷺ، إذ بقوا ملتفين حوله يبذلون له مهجهم.

كان خلقه القرآن،[1] والقرآن هو الذي يعلمنا هذا الخلق الإلهي؛ ألا نرى أن الله تعالى يستمر في إعطاء الرزق للناس حتى وإن عصوه وتمردوا عليه؟ فمع أن بعضهم يفترون عليه فيشركون به أو يدعون له ابناً أو زوجة فإن الله تعالى يسبغ عليهم بفضل رحمانيته أفضالاً عديدة. فالشمس تشرق كل يوم بنورها ودفئها، والسحب تهب لنجدتهم بأمطارها، والنباتات بأنواعها مستمرة في إعطاء ثمراتها اللذيذة، ومع ذلك فهؤلاء يقابلون كل هذه النعم والأفضال بجحود لا يسعه العقل. أجل، إن الناس لا يحمدون ولا يشكرون جزءاً من مليون جزء من نعم الله التي أسبغها عليهم، ولكن الله تعالى لا يعاقبهم حالاً لأنه حليم، فلا يغير الله تعالى سنته من جراء هذه الأخطاء البشرية، لذا فإنه يستمر في الإنعام وفي الرزق. والرسول ﷺ متخلق بخلق الله، إذ يعكس هنا صفات الله تعالى وأسماءه الحسنى، فالقرآن الكريم يقول عنه إنه ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ (التوبة: ١٢٧)، ليس هو فقط، بل جده إبراهيم عليه السلام كذلك، فعندما يصفه القرآن الكريم يقول عنه: ﴿إن إبراهيم لحليم أوّاهٌ منيبٌ﴾ (هود: ٧٥).

كانت صفة الحلم في إبراهيم عليه السلام ذروة لا يمكن بلوغها، ذلك لأنه كان يعطف حتى

---

(١) مسلم، صلاة المسافرين، ١٣٩؛ ابن ماجة، الأحكام، ١٤؛ «المسند» للإمام أحمد ٩١/٦

على الذين رموه في النار وحاولوا حرقه، وكان يخشى أن يصيبهم بلاء من الله تعالى، لذا كان يسهر الليل حتى الصباح وهو يتأوه ويتألم لهم.. وكان مسيباً متوجهاً إلى الله تعالى في كل آن مقبلاً عليه، واقفاً أمام باب الله بقلب خاشع وعين دامعة. كان رسول الله ﷺ يشبه نفسه دائماً بإبراهيم عليه السلام.[1] أجل، لقد كان مثل جده إبراهيم في حلمه ولينه.

والحلم أساس مهم بالنسبة لدعاة الحق، إذ على الإنسان أن يقابل بالحلم حتى الأناس الذين ملئوا حقداً وكرهاً. فحُسين بن منصور الحلاّج غَفر لمن قطع يديه ورجليه. أما داعي القرن العشرين[2] الذي نفي من بلده وكأنه مجرم شرير، والذي قضى حياته متنقلاً من سجن إلى سجن، فإنه لم يدعُ على من ظلمه، بل دعا الله أن يغفر لهم، وأن ينقذ إيمانهم، فضرب لهم مثلاً رائعاً في الحلم، فيا ليت الذين أتوا من بعده استطاعوا فهم سحر حلمه هذا.

لنرجع إلى النبي إبراهيم عليه السلام مرة أخرى: رماه خصومه في النار، ولكن الله تعالى أمر النار أن تكون برداً وسلاماً عليه: ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ (الأنبياء: ٦٩)، أي لا تكوني عليه حارة ولا باردة، بل سلاماً. ذلك لأن إبراهيم كان قد زين نفسه هكذا أمام العالم.. لا يغضب عليهم ولا يقابلهم ببرود.. كان إنسان "سلام"، لذا لقي المعاملة نفسها من قبل الله تعالى. وما كان في الإمكان تصور أن يقوم إبراهيم عليه السلام بالتخلق بخلق الله تعالى ثم يلقى معاملة أخرى منه تعالى. كلا، فالسلام اسم الله تعالى، لذا، أصبحت النار "سلاما" على إبراهيم.

خلق الحلم هذا الذي بدأه إبراهيم عليه السلام أخذه النبي ﷺ وصعد به إلى الذروة. فعندما ملك كل القدرات التي تمكنه من القضاء على أعدائه السابقين قضاء مبرما لم يبتعد عن المروءة. ولو أراد معاقبة المذنبين فهل كان هناك من يقف في وجهه؟ كلا، على العكس من ذلك، فربما كان هناك المئات من أمثال عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الذين كانوا دائماً

---

(١) البخاري، الأنبياء، ٢٤؛ مسلم، الإيمان، ٢٧٢

(٢) المقصود هو بديع الزمان سعيد النورسي صاحب حركة النور في تركيا والذي قضى حياته متنقّلاً من محكمة إلى محكمة ومن سجن إلى آخر. (المترجم)

على أهبة الاستعداد لإزالة أي شيء يمكن إيذاء النبي ﷺ أو يكدر خاطره، وحاضرين على الدوام للإطاحة برأس من يقوم بذلك، ويطلبون منه الإذن لذلك، ولكنه ﷺ كان على الدوام يهدئ أصحابه ويدعوهم إلى الحلم.

في أحد الأيام افتروا على شرف زوجته وهو واثق من عفتها وشرفها. ولو أومأ إيماءة صغيرة إلى أي مسلم لطارت رؤوس عديدة من المنافقين، وما كان هناك مسلم يتأخر عن تنفيذ أمره. ومضت أيام وهو يبتلع كلاماً كالأشواك ولا يقول شيئاً.. ويشعر بعذاب كبير في قلبه ولكنه يصمت.. دام هذا حتى نزول الأيات التي برأت ساحة أمنا عائشة رضي الله عنها مع أن المسلمين كانوا ينتظرون خروج أي كلمة من بين شفتيه.

كان هناك أحياناً من يقف أمامه ويتصرف بخشونة معه، بل يسمعه كلمات جارحة. ولو أشار إشارة خفيفة بأصبعه لارتفعت مئات السيوف لقطع رأس ذلك الشخص، ولكنه كان قد عقد عزمه على مقابلة أمثال هذه التصرفات باللين وبالحلم على الدوام. كان يبذل عناية في عدم إخافة أي شخص أو ترويعه، كيف لا وهو القائل: «لا يحل لمسلم أن يروِّع مسلماً»،[1] وهو القائل: «لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح.»[2] فكيف يمكن أن يقوم مثل هذا الشخص بالاعتداء على حياة أي شخص ظلماً ودون وجه حق.

كان إنسان ذوق رقيق، لذا كان يتأثر جداً من التصرفات الخشنة أو الحمقاء التي يبديها البعض أمامه، ولكنه كان يقابلها ببحر حلمه، ويذيبها فيه، ويتصرف تجاهها باللين. هكذا كان اتساع عالمه الحسي والعاطفي، حتى أنه عند مرضه كان يقاسي أضعاف الآلام التي يقاسيها أي مريض آخر. فقد دخل عليه عبد الله بن مسعود وهو مريض، ومس يده فأحس وكأنها تشتعل، فقال: "يا رسول الله! إنك لتوعَكُ وَعْكاً شديداً. فقال رسول الله ﷺ: «أجل، إني أُوعَكُ كما يوعك رجلان منكم.»[3] أجل،

(١) أبو داود، الأدب، ٨٥؛ الترمذي، الفتن، ٣؛ «المسند» للإمام أحمد ٣٦٢/٥

(٢) البخاري، الفتن، ٧؛ مسلم، البر والصلة، ١٢٦

(٣) البخاري، المرضى، ٣، ١٣؛ مسلم، البر، ٤٥؛ «المسند» للإمام أحمد ٣٨١/١

لقد كان النظام العصبي لرسول الله ﷺ حساساً جداً؛ فربما كان ألم شوكة يشاكها في أصبعه يعادل ألم سكين مغروز في جسد إنسان آخر، فقد تكون هذه الحساسية المعطاة له ضرورية في أداء رسالته. والأذى الذي يحسه مثل هذا الشخص الحساس أمام التصرفات الخشنة أو الحمقاء يكون أكثر من الأشخاص الاعتياديين. وأيّ شخص بهذه الحساسية يمكن أن يسبب مشاكل عديدة وعواصف كل يوم، غير أن الرسول ﷺ لم يعمل هكذا، فقد كان رجل حلم. هذا علما بأن حلمه كان متوازناً جدا، فكفر أي كافر كان يؤذيه جداً، ويكاد أن يبكيه، لذا كان يحاول عمل كل ما في وسعه لتوصيل أحدهم إلى الهداية. ولكن عندما يكون الأمر متعلقاً بتنفيذ حد شرعي، فإنه لم يكن يتهاون فيه أبداً ومهما كان ذلك الشخص المطلوب إقامة الحد عليه قريباً إلى قلبه. هذا علماً بان العقاب الذي كان يوقعه بسبب الجرائم أو الذنوب المقترفة لم تكن من بينها الذنوب المقترفة بحقه، إذ كان على الدوام يصفح عمن يعتدي عليه، وليس هناك ذنب أو تجاوز تم ارتكابه في حقه ثم لم يصفح ولم يعف عنه.

وفي الحياة الدينية نلاحظ الأمر نفسه؛ فقد كان يختار لنفسه أشق الأمور، ويختار لغيره أهونها، حتى أنه كان يصلي السنن في بيته لكي لا يثقل على أمته ولكي لا يعطي انطباعاً بأن هذه الصلوات فرض من الفروض. ثم إنه ما من إنسان كان يتحمل طول صلاة النوافل التي كان يصليها.

وكان أحياناً يواصل صومه، ففي هذه الأمور الصعبة التي لا يتحملها أحد غيره تراه وحده. هذا علما بأن الله تعالى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وأحد معاني هذا هو: أن الله تعالى أزال منذ البداية أيّ استعداد له لاقتراف أي ذنب أو معصية. وهذا يذكرنا بالحديث المتعلق بالمعراج حيث يخبرنا بأنه مر من خلال إجراء عملية معنوية له،[1] إذ يذكر قيام الملائكة بشق صدره وغسل جوفه، وهذا يعني على الأغلب تطهير نفسه، لذا لم

---

(١) البخاري، التوحيد، ٣٧؛ مسلم، الإيمان، ٢٦١؛ النسائي، الصلاة، ٢

ير صدور أي فعل يعد إثماً أو معصية من قبل رسول الله ﷺ، ومع ذلك كان يستغفر أكثر من سبعين مرة كل يوم،[١] لقد كان إنسان تواضع ومراقبة ومحاسبة للنفس.

ولكونه يقترب في كل خطوة من الله تعالى لذا، كان يستغفره من الحالة السابقة ومن الوضع السابق المرجوح من زاوية الموضع الجديد الذي وصل إليه، أي أنه في كل يوم يذكر اليوم السابق ويستغفر. إن تحمُّل وصبر مثل هذا الإنسان –الخالي من الذنوب– على التواجد بين الناس يكفي للاستدلال على مدى حلمه الواسع، مع أنه كان يواجه تصرفات خالية من الاحترام ومن الذوق فيقابلها بالحلم.

يروي كل من مسلم والبخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه الحادثة التالية: بينما النبي ﷺ يقسم ذات يوم قسماً أقبل شخص يدعى ذو الـخُوَيْصِرَة رجلٌ من بني تميم (يحتمل أن يكون هذا الشخص من عرق مُغولي، ذلك لأن كتب السيرة تصف لنا هذا الشخص بأنه كان غائر العينين ناتئ الجبين مستشرف الوجنتين مدوَّر الوجه كالدرع المضروب)، فخاطب رسول الله ﷺ بوقاحة قائلاً له: "اِعْدِلْ يا محمد!" لو خاطبَنا أحدٌ بهذا الخطاب لهزنا الغضب حتى ولو كنا قد انحرفنا عن العدل فعلاً. ولكن هذا الكلام وُجِّه إلى نبي كانت وظيفته ومهمته هي إرساء العدالة في الدنيا. فقال عمر رضي الله عنه الذي كان متواجداً هناك آنذاك: "دعني فأقتل هذا المنافق"، فلم يرض رسول الله ﷺ. وبعد أن هدّأ من خاطر عمر رضي الله عنه ومَن حوله من الصحابة قال للرجل: «ويلك! ومن يَعدِل إذا لم أكن أعدل؟.»[٢] وفي رواية أخرى: «لقد خبتُ وخسرتُ إن لم أكن أعدل.»[٣] وفي رواية أخرى: «لقد خبتَ وخسرتَ إن لم أكن أعدل.»[٤] أي: بما أنني نبي فأنت مأمور باتباعي في كل شيء، فلو لم أكن رجل عدل –حاشا لله– إذن، فقد خبتَ وخسرتَ،

---

(١) البخاري، الدعوات، ٣؛ الترمذي، تفسير سورة (٤٧) ١؛ ابن ماجة، الأدب، ٥٧؛ «المسند» للإمام أحمد ٢/٢٨٢، ٣٤١

(٢) البخاري، الأدب، ٩٥؛ المناقب، ٢٥؛ مسلم، الزكاة، ١٤٢؛ «المسند» للإمام أحمد ٣/٥٦

(٣) مسلم، الزكاة، ١٤٨؛ «المسند» للإمام أحمد ٣/ ٣٥٤

(٤) البخاري، المناقب، ٢٥؛ مسلم، الزكاة، ١٤٢

ذلك لأنك لن تكون متبعاً آنذاك طريق الحق والعدل. ولم يأذن رسول الله ﷺ –كدأبه دائماً– في قيام أحد بقتله، ذلك لأنه كان رجل حلم من أخمص قدميه إلى مفرق شعره.

غير أنه لم يهمل إخبار أمته أن أمثال هذا الشخص سيتسببون في فتنة كبيرة في المستقبل. أجل، كان رسول الله ﷺ يعلم بما أخبره به ربه بأن أمثال هذا الشخص سيقودون فتنة كبيرة ضد هده الأمة. وهذا ما حدث، إذ تحقق ما قاله رسول الله ﷺ في وقت مبكر، ففي معركة النهروان في عهد علي بن أبي طالب ﷺ كان معظم الخوارج المقاتلين له من نوع هذا الإنسان.

لم يقل الرسول ﷺ شيئاً حتى لهذا الرجل الوقح.. ولو هز رأسه، أو بقي صامتاً أمام اقتراح عمر ﷺ لطار رأس هدا الشخص صاحب الوجه الصفيق، فالرسول ﷺ كان يتصرف كما يأمره الله تعالى ولا يتعرض للجاهلين، فالقرآن الكريم يقول له: ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ (الأعراف: ١٩٩)، أي دعهم وشأنهم، ولا تتعرض لهم، ولا يهمك أمرهم، فالجاهل يتصرف بجهل، وأنت لست بجاهل، إذن، فلن تقابلهم بنفس تصرفاتهم. أنت حليم ولين الجانب، وهذا هو سر فتحك لمغاليق القلوب والتربع بالمحبة على عروشها. وقد تحقق هذا فعلا، فبالحلم أسلم أناس لم يكن أحد يتصور إسلامهم، وفتحوا قلوبهم للنبي ﷺ.

يروي أنس بن مالك ﷺ أن امرأة يهودية بعد فتح خيبر أهدت النبي ﷺ شاة مسمومة، فتناول أحد الصحابة –بشر بن البراء– لقمة منها فمات، أي أن هذه اليهودية وضعت سماً قوياً في الشاة، وهي تنوي تسميم النبي ﷺ؛ ولما كان جانب المعجزة في هذه الحادثة ليس موضوعنا فإننا لا نبحثه هنا، وعندما تناول النبي ﷺ لقمة واحدة أخبرته الشاة أنها مسمومة، فأمر النبي ﷺ برفع الشاة، وإحضار المرأة التي اعترفت بجريمتها، وقالت أنها فعلت ذلك لقتل النبي ﷺ. وتقول الروايات بأنها عندما سُئلت: لم فعلت ذلك؟ قالت للنبي ﷺ: أردت أن أعلم إن كنت نبياً فسيطلعك الله عليه، وإن كنت كاذباً أريح الناس منك. وأراد الصحابة قتلها فوراً إلا أن رسول الله ﷺ عفا عنها عن نفسه، ولم يقل شيئاً عن بشر بن البراء؛ هناك روايتان عن مصير هذه المرأة، رواية تقول: إن

وارثي بشر قتلوها قصاصا، والرواية الثانية: إنها اهتدت وأسلمت، لذا سامحها أهل القتيل، وكان إسلامها سبب نجاتها.[١]

ما نريد الوقوف عليه هنا هو حلم رسول الله ﷺ، إذ عفى عن هذه المرأة اليهودية التي أرادت قتله، فما أجمل الوصول إلى مثل هذه القمة في الحلم. أجل، إن صفة الحلم التي بدأها إبراهيم عليه السلام بصيغتها الكاملة وصلت إلى الذروة عند سلطان الأنبياء.

يروي أبو داود والنسائي عن أبي هريرة: كنا نقعد مع رسول الله ﷺ في المسجد، فإذا قام قمنا، فقام يوماً وقمنا معه حتى لمّا بلغ وسط المسجد أدركه رجل فجبذ بردائه من ورائه –وكان رداؤه خشنا– فحمَّر رقبته، فقال: يا محمد، احمل لي على بعيري هذين، فإنك لا تحمل من مالك ولا من مال أبيك.

ما هذه الوقاحة؟ وما سوء الأدب هذا؟ بدأت هذه الوقاحة بخطاب النبي ﷺ باسمه المجرد، واستمرت في سائر الكلمات. فلما سمعنا قول الأعرابي أقبلنا إليه سراعاً، فالتفتَ إلينا رسول الله ﷺ فقال: «عزمت على من سمع كلامي أن لا يبرح مقامه حتى آذن له.» فقال رسول الله ﷺ لرجل من القوم: «يا فلان! احمِلْ له على بعير شعيراً وعلى بعير تمراً»، ثم قال رسول الله ﷺ «انصرفوا على بركة الله.»[٢]

تأملوا كيف أن رجلاً يعامل النبي ﷺ هذه المعاملة الخشنة بعد أن شهد مجلسه، واستمع إلى حديثه الذي يرقق القلوب، فأي قلب أصم كان يحمله، ذلك لأن مجلس النبي ﷺ لا يشبهه مجلس آخر.. لا مجلس ولي من الأولياء، ولا مجلس مرشد من المرشدين الكبار، وليس بإمكان كلماتنا القاصرة تصوير جو ذلك المجلس، ولكن الحقيقة التي يعلمها الكل هي أن النبي ﷺ كان يستطيع بقلبه الذي كان مرآة عاكسة للتجليات الإلهية، وبنفحة واحدة الارتفاع بمستمعيه إلى الذروة، كانت قابلية الانصباغ والتحول في

---

(١) البخاري، الهبة، ٢٨؛ أبو داود، الدية، ٦؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٢٣٧/٤

(٢) أبو داود، الأدب، ١؛ النسائي، القسامة، ٢٤

مجلسه فوق كل تصوير، فمن حضر مجلسه مرة خرج منه وكأنه أصبح ملاكاً طاهراً صافي القلب.من أهم الأسرار الكامنة وراء عدم وصول أي ولي من الأولياء إلى رتبة الصحابة هي هذه القابلية للانصباغ وللتحول. يقول أحد أعلام هذا العصر:

"لقد خطر على قلبي ذات يوم سؤال وهو: لِمَ لا يبلغ أشخاص أمثال محيي الدين بن عربي مرتبة الصحابة الكرام؟ ثم لاحظتُ في أثناء قولي في سجودٍ في صلاة: "سبحان ربي الأعلى" أنّ شيئا من الحقائق الجليلة لمعاني هذه الكلمة الطيبة قد انكشف لي، لا أقول كلها بل أنكشف شيء منها. فقلت في قلبي ليتني أحظى بصلاة كاملة تنكشف لي من معانيها ما انكشف من معاني هذه الكلمة المباركة، فهي خير من عبادة سنة كاملة من النوافل. ثم أدركت عقب الصلاة أن تلك الخاطرة وتلك الحال كانت جواباً على سؤالي، وإرشاداً إلى استحالة إدراك أحد من الناس درجة الصحابة الكرام في العبادة، ذلك أن التغيير الاجتماعي العظيم الذي أحدثه القرآن الكريم بأنواره الساطعة قد ميّز الأضداد بعضها عن البعض الآخر، فالشرور بجميع توابعها وظلماتها أصبحت في مجابهة الخير والكمالات مع جميع أنوارها ونتائجها. ففي هذه الحالة المحفزة لانطلاق نوازع الخير والشر من عقالها، تنبهت لدى أهل الخير نوازعه، فغدا كل ذكر وتسبيح وتحميد يفيد لديهم معانيه كاملة، ويعبر عنها تعبيرا ندياً نضراً. فارتشفتْ مشاعرهم المرهفة ولطائفهم الطاهرة بل حتى خيالهم وسرهم رحيق المعاني السامية العديدة لتلك الأذكار ارتشافا صافيا يقظا حسب أذواقها الرقيقة. وبناء على هذه الحكم، فإن الصحابة الكرام الذين كانوا يملكون مشاعر حساسة مرهفة، وحواس منتبهة ولطائف يقظة، عندما يذكرون تلك الكلمات المباركة الجامعة لأنوار الإيمان والتسبح والتحميد يشعرون بجميع معانيها، ويأخذون حظهم منها بجميع لطائفهم الزكية."[١]

يجوز أن باب السماء قد انفتح لهذا الشخص الجليل، وأُلهِم بأن سجدته تلك كانت

---

(١) «الكلمات» لبديع الزمان سعيد النورسي ص٥٧٥-٥٧٦

سجدة الصحابة. وخلاصة هذا الموضوع هي أن هذا الشخص الجليل القدر يقول بأنه مستعد لإعطاء كل عباداته مقابل ركعة من هذا النوع. هذا علماً بأنني عندما رأيت صلاة أحد تلاميذه المقلدين له استحييت من صلاتي. إذن، فهذه هي درجة الصحابة ودرجة الصحبة النبوية... درجة الذروة... فالصلاة التي لا نستطيع الوصول إلى مستواهم فيها حتى في ركعة واحدة، مثل هذه الصلاة كانت صلاتهم الدائمية والاعتيادية.

ذلك لأنهم كانوا يتلقون دروسهم من رسول الله ﷺ مباشرة. ثم إن جميع مسائل الدين كانت جديدة آنذاك وطرية؛ ففي يوم يشنف أذانهم صوت جديد هو صوت الأذان، فيعلوهم الوجد، وتثور عواطفهم. وفي يوم آخر هناك شيء آخر على المائدة الإلهية، وحكم آخر للدين يوضع أمامهم وكأنه الثمرة اليانعة لأول القطف، فيتسلل العشق الإلهي إلى قلوبهم، ويبقون في نشوته.

وعلى الرغم من كل شيء فقد بقيت هناك قلوب صماء لا تسمع ولا تعقل ولا تلين. وكان أصحاب هذه القلوب الميتة يتصرفون بخشونة وبصفاقة أمام رسول الله ﷺ. فكان النبي ﷺ يتسامح مع هؤلاء، ويتصرف معهم بالحلم وباللين، فلا يبقى هناك تصرف خشن لا يذوب في بحر حلمه. أجل، لقد كان يتصرف وهو يحسب حساب اليوم والغد وما بعد الغد، ولو أظهر الشدة لانفضّ الناس من حوله كما يذكر القرآن. إذن، فحلمه كان من بين أسباب عدم انفضاض الناس من حوله، فلم يأت لاستعمال الشدة بين الناس، ولا لتشتيت المجتمع، بل جاء من أجل تأمين سعادة الدنيا والآخرة للناس أجمعين، فلم تكن الإنسانية لتحصل على حياتها الأبدية إلا بسلوك الطريق الذي أشار إليه. فقد كانت الأبدية ضمن منهاجه، وكان يخطط تصرفاته ضمن هذا المفهوم.

قام خالد بن الوليد بالتسبب في أضرار كبيرة للمسلمين في معركة أُحد، ولكن عندما حضر إلى الرسول ﷺ وأعلن إسلامه رأى معاملة كريمة جداً من قبله بحيث شعر في اليوم الثاني أنه أصبح قطعة وجزءاً منه، إلى درجة أنه عندما لم يصحبوه إلى المعركة الأولى بعد إسلامه صعب عليه هذا الأمر جداً وبكى حتى الصباح، وهذا يوضح كيف أنه توحد مع

الرسول ﷺ في وقت قصير جداً.

كان عمرو بن العاص وعكرمة ﷺ من الصحابة الذين آذوا النبي ﷺ قبل إسلامهم إيذاء كبيراً، ولكن حلم النبي ﷺ رقق قلوبهم وكسبهم للإسلام بحيث أصبحا من أشد الناس على الكفر وعلى الكافرين. ولولا أن الرسول ﷺ كان يخطط لكي يصلا إلى هذا المستوى الرفيع من الإيمان لما كان من المحتمل أن ينضم مثل هؤلاء إلى صفوف الصحابة.

الكل يعرف ابن هشام، فهو شقيق أبي جهل ووالد زوجة عكرمة. أسلم هذا الصحابي قبل وفاة الرسول ﷺ بقليل، كان قبل إسلامه في مقدمة صف الكفر، وأصبح بعد إسلامه في مقدمة صفوف المسلمين. وأخيراً وفي معركة اليرموك استشهد بعد أن تقطعت أوصاله كلها تقريباً، وتوجه إلى خالقه. وفي لحظاته الأخيرة عندما قرَّب حُذيفة العدوي الماء من فمه سمع صوتاً خافتاً بقربه.. كان هذا شخصاً آخر يطلب الماء، فأبعد ابن هشام الماء من فيه طالباً إعطاءه لهذا الشخص... وتفصيل هذه الحادثة معلوم للجميع، فهذا الشخص عندما قرب الماء من فمه سمع صوتاً آخراً يطلب الماء، فيشير بإعطاء الماء إلي هذا، ولكن هذا الأخير يتوفى قبل وصول الماء إليه، وعندما يرجع للآخرين يراهم كلهم قد توفوا دون أن يشربوا قدحاً من الماء.[1]

الإيثار... الصفة النبوية المتميزة... الصفة التي انصبغ بها الصحابة الكرام مقتدين في ذلك برسول الله ﷺ الذي كان يعيش من أجل إعطاء الحياة الحقيقية للآخرين، ويقدم التضحيات التي لا تصدق. كان شخصاً مضحياً، وكان أصحابه أشخاصاً مضحين، والمثال السابق مثال حي على هذا.

يروي زيد بن سعنة اليهودي أنه باعه بيعاً إلى أجل، ثم جاءه قبل الأجل يتقاضاه ثمنه. فقال له الرسول ﷺ: «لم يحل الأجل»، فقال له زيد: إنكم لَمطل يا بني عبد المطلب. فهمّ به أصحاب النبي ﷺ، فنهاهم عنه، ولم يزده ذلك إلا حلماً، فقال زيد: "كل شيء

(١) «المستدرك» للحاكم ٢٤٢/٣

منه قد عرفتُه من علامات النبوة، وبقيت واحدة، وهي أنه لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً، فأردت أن أعرفها، لأن في التوراة آية تقول: يسبق حلمُه جهلَه، ولا تزيده شدة الجهالة إلا حلماً.» ثم أسلم.[1]

إذن، فقد فتح رسول الله ﷺ قلب العالم اليهودي زيد بن سعنة بحلمه أيضاً، وأصبح سبباً في دخوله إلى الإسلام. أجل، كان رسول الله ﷺ حليماً وليناً إلى درجة لا يتحملها شخص آخر غيره. غير أن حلمه هذا كان متوازنا، فهو بينما كان يقابل كل إهانة لشخصه وكل تصرف طائش نحوه بالحلم نراه كالأسد الهصور عندما يمس الموضوع حقوق الآخرين، ولا ينفك حتى يأخذ الحق لصاحبه دون الْتفاتٍ إلى من هو الظالم ومن هو المظلوم، فالأمر سيان عنده. أما إن كان الأمر متعلقاً بالتعدي على حرمة من حرمات الله فكان لا يعرف الراحة حتى يضع الحق في نصابه، وهذا دليل كونه رجل توازن. وقد يبدو هذا السلوك كقطبين متناقضين، إلا أن هذا التوازن كان من الخصائص النبوية للشخصية الممتازة لرسول الله ﷺ. ولكي يتوضح هذا الأمر نورد هنا بعض الأمثلة:

يروي مسلم والبخاري عن أبي مسعود الأنصاري قال رجل: يا رسول الله، لا أكاد أدرك الصلاة مما يطوِّل بنا فلان. فما رأيت النبي ﷺ في موعظة أشد غضباً من يومئذ فقال: «أيها الناس إنكم منفِّرون، فمن صلَّى بالناس فليخفف، فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة.»[2] وكان يراعي هذا الأمر ويطبقه على نفسه، فأحياناً كان يطيل الصلاة، وأحياناً يقصرها حسب وضع الجماعة.

كان رسول الله ﷺ يحب معاذ بن جبل كثيرا، إلا أنه عندما اشتكوا من تطويله لصلاة العشاء عندما يؤم الجماعة غضب غضباً شديداً وقال لهذا الصحابي الذي يحبه كثيراً:

(١) «الإصابة» لابن حجر ٥٦٦/١؛ «المستدرك» للحاكم ٦٠٤/٣؛ «الخصائص الكبرى» للسيوطي ٢٦/١؛ «زاد المعاد» لابن قيم الجورية ٥٩/١

(٢) البخاري، العلم، ٢٨، الأذان، ٦١، الأدب، ٧٥؛ مسلم، الصلاة، ١٠٢

«أفتّان أنت، أفتّان أنت، أفتّان أنت؟»[١]

كان أسامة بن زيد على رأس سرية، فأدرك رجلاً، فقال ذلك الرجلُ: صبأت. يريد أن يقول أنه قد أسلم، ولكن أسامة عدّ هذا نتيجة الخوف وليس عن إيمان حقيقي، فطعنه وقتله. وفي رواية أخرى أن هذا الشخص قال: لا إله إلا الله. وحسب رأي أسامة فإن كلام الرجل –حسب الرواية الأولى– لا يفيد كونه مسلما، أما حسب الرواية الثانية فقد اعتقد بأنه نطق بالشهادة تعوذاً من القتل. ولكن عندما سمع رسول الله ﷺ بالخبر أحضر أسامة واستنطقه، فاخبره أسامة بالخبر كله، فغضب رسول الله ﷺ: «أقال لا إله إلا الله وقتلته؟» فقال أسامة: يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح. قال: «أفلا شققتَ عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟» قال أسامة: فما زال يكررها عليّ حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ.[٢] أي حتى تمنى أنه لو لم يسلم إلى ذلك اليوم لكي لا يسمع مثل هذا العتاب من رسول الله ﷺ مع أنه تربى في حجر الرسول ﷺ وكان الرسول ﷺ يحبه مثل حبه للحسن وللحسين رضي الله عنهما.

قال أبو ذر لبلال رضي الله عنه ذات يوم: "يا ابن السوداء!" فشكاه بلال إلى الرسول ﷺ، فغضب رسول الله ﷺ وقال لأبي ذر: «يا أبا ذر! أعيَّرتَه بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية.»[٣]

وتخاصم أبو بكر مع عمر رضي الله عنهما، فقال عمر لأبي بكر شيئاً آذاه، فعاتبه الرسول ﷺ ولم يدع حق أبي بكر عند عمر رضي الله عنه مع أن النبي ﷺ كان يحب عمر حباً جماً.[٤]

من هذه الأمثلة وعشرات أخرى يتبين لنا أن حلم الرسول ﷺ كان ذا أبعاد متوازنة. فكان يمثل في هذا الموضوع –وفي المواضيع الأخرى كذلك– الصراط المستقيم، إذ نراه يصفح عن كل الإساءات الموجهة إليه ويقابلها بالحلم، ولكنه لا يرضى أبداً عن أي اعتداء لحقوق الآخرين مهما كان هذا الاعتداء قليلا، ومهما كان الشخص المعتدي. فإنه

---

(١) البخاري، الأذان، ٦٣، الأدب، ٧٤؛ مسلم، الصلاة، ١٧٩؛ النسائي، الإفتتاح، ٧١

(٢) البخاري، المغازي، ٥١، الديات، ٢؛ مسلم، الإيمان، ١٥٨؛ أبو داود، الجهاد، ٩٥

(٣) البخاري، الإيمان، ٢٢؛ مسلم، الأيمان، ٣٨-٤٠

(٤) البخاري، تفسير سورة (٧) ٣

كان يواجهه لكي يضع الحق في نصابه.

هـ- كرمه وتواضعه

قبل أن ندخل إلى الموضوع نحب أن نقوم بتذكير بسيط، فقد أشرنا إلى "الفطنة الكبيرة"، ولنكرر هنا أن الفطنة تعني المنطق النبوي الذي له صفة الوحي والذي يعجز أمامه العقل ويفشل وينعقد تجاهه اللسان. قد يقف المنطق بأجمعه ويتعثر في مكان ما، وقد تصل العلوم إلى نقطة معينة، فلا تستطيع تجاوزها إلا أن الفطنة النبوية والمنطق النبوي -حسب التعريف السابق- تحلق فوق الذرى التي تبدو مستحيلة البلوغ، وهذا الأمر دليل آخر على نبوته.

ونحن نحاول أن نستخرج دليل نبوته في كل صفة من صفاته، فعندما نرى صبره لا يسعنا سوى التصديق بأنه رسول الله. فعلى وجه الصبر يمكن مطالعة عبارة: محمد رسول الله. وأهل الإنصاف بأجمعهم يستطيعون قراءة هذه العبارة.. فالذي تحدّى المهالك جميعها، وتصدّى للمصائب بهذا الشكل لابد أن يكون رسول الله. وعندما ندقق سيرته من ناحية صفة رحمته تظهر أمامنا الحقيقة نفسها كالشمس في رابعة النهار. ذلك لأن الرسول ﷺ لم يكن يعرف حدوداً للرحمة، إذ كان محملاً بالرحمة أكثر من حمولة الغيوم بالمطر. هو باختصار رحمة للعالمين. ولم تقتصر رحمته على الإنسانية وحدها، بل ربما استفاد الكون كله من رحمته هذه، ولا يزال يستفيد وسيستفيد حتى قيام الساعة، وعندما ألقينا نظرة على رحمته رأينا فيها رسالته، فأحببنا أن نعرضها أمام الأنظار.

حاولنا أخيراً شرح حلمه، وذلك كبُعد من ابعاد رحمته، غير أن كل صفة من هذه الصفات تمثل بُعداً من أبعاد فطنته. ويمكن فهم فطنته إن تم تناول كل بعد من هذه الأبعاد على حدة.

١- ﴿ مقطع من الكرم ﴾

بُعد من أبعاد رحمة الرسول ﷺ -وبالتالي فطنته- هو كرمه. لنوضح هذا الأمر قليلاً: الكرم هو خصلة حب الخير والعطاء، وكان الكرم من الخصال المرغوبة لدى العرب، وإذا دققت الشعر الجاهلي رأيت العربي يفخر بما ينحره للضيوف من شاة أو بعير، وكانت القبائل والعشائر تتسابق في هذا. ومن المؤكد أن هذا الكرم كان يتم باسم الفخر وباسم الأنانية.

في هذا الجو الذي كان الكرم فيه مرغوباً ووسيلة للفخر ظهر بينهم أكرم الكرماء. وعندما رأوا كرمه انعقدت ألسنتهم من الحيرة؛ فكرم هذا الكريم كان لوجه الله فقط، ولو قام بتقديم الدنيا كلها هدية لأحدهم لما ذكر ذلك، ولما افتخر بكلمة واحدة، بل إنه لم يكن يرضى من الشعراء ذكر كرمه في أبياتهم، وكان يحول كلماتهم في الفخر إلى الله الذي هو أكرم الأكرمين.

كان مرآة نقية انعكس عليها اسم "الكريم" لله تعالى. كان في ذروة تمثيل خلافة الله تعالى في هذا الموضوع كما في المواضيع الأخرى، ولم يكن هناك على وجه الأرض شخص أكرم منه. كان محمد ﷺ طريقاً للكرم، وكان الكرم طريقاً للجنة. أما البخل الذي عبر عنه القرآن الكريم بـ"الشح" فكان طريقاً إلى جهنم. والذين رأوه -حتى ولو عن بعد- عرفوه من صفاته أنه هو.. فهو المرشد الأوحد للإنسانية إلى طريق الجنة، وهو صاحب الشفاعة العظمى للناس أمام أبواب الجنة، لذا يجب أن يحسب كل إنسان حسابه. ونحن نصفه بصفة من صفات الله تعالى فنقول عنه إنه أكرم الأكرمين، ذلك لأنه بز بكرمه كل المقاييس البشرية، وأصبح في الكرم خليفة ربه.

لقد استطاع بكرمه أن يدخل إلى قلوب استعصى الدخول إليها بصفاته الأخرى، فكأن رحمته تبخرت وصعدت إلى السماء كغيوم، ثم أمطرت على الكون كرما، فرقت القلوب القاسية، وهيأت الجو الملائم لكي تشق النباتات الصغيرة طريقها من التربة، أي

فتح الأرواح بحلمه، ثم تربع فيها بكرمه، فإن لم تعرف هذين الجانبين معاً لم تدركه ولم تعرفه حق المعرفة.

لو أراد لكان أغنى إنسان في الدنيا، فمنذ بداية دعوته عرضت قريش عليه هذا مقابل التخلي عن دعوته.[1] وبعد ذلك كان كل ما يعطيه المسلمون في سبيل الله يمر من بين يديه إضافة إلي الهدايا التي كانت تصله من الحكام ومن الملوك، ولكنه لم يلتفت إلى هذا،ولم يدر بخلده هذا الأمر. لقد عد نفسه على الدوام مسافراً في هذه الدنيا، وعاش ونصب عينيه أنه سيترك هذه الحياة، وأن الدنيا ليست سوى شجرة يستظل تحتها المسافر مدة قصيرة في أثناء سفره الطويل.

إذن، فعليه أن يشغل قلبه في هذا السفر الطويل بالأمور المهمة. ثم كان عليه أن يعلّم الإنسانية الطريق الصحيح، وبعد انقضاء الوقت المقدر له تحت هذه الشجرة عليه أن يستمر في طريق سفره.[2] أما الهدف فهدف علوي، فقد كان الوصول إلى الله تعالى غايته الأولى.. ثم القيام بوظيفة إيصال الناس إلى الهدف نفسه. كان قلبه ممتلئاً حماسة متقدة لتحقيق هذه الغاية. مثل هذا الشخص ماذا يعمل بالدنيا، وما أهمية الدنيا لديه؟! لا أهمية لها عنده طبعا، وهي لا تستحق أن يربط قلبه بها.

وبالنسبة لحياته الخاصة فقد اختار حياة الفقر، وهذا لا يعني أنه يريد أن يصبح الجميع فقراء، ولكنه لم يكن يرضى أن تغلب المعدة الناس جميعاً. ولم يلبث المسلمون أن أصبحوا بفضله من أغنى الأمم في وقت قصير حتى لم يعودوا يجدون بينهم من يقبل الزكاة أو الصدقة؛ وذلك نتيجة ارتفاع مستوى المعيشة عندهم. ولكن كان بينهم زهاد لم يكونوا يقبلون أية هدية مهما كانت جذابة إن كانوا يملكون قوت يومهم. كان هذا نوعاً من الإيثار وعلو الروح، ووَجْد هبة الحياة للآخرين، وترك لذائذ العيش. والذي لم يجرب هذه

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٢٨٥/١

(٢) البخاري، الرقاق، ٣؛ الترمذي، الزهد، ٤٤؛ «المسند» للإمام أحمد ٣٩١/١

الأحاسيس، ولم يمتلئ بها لا يمكن أن يفهم هذا. قُدّم مرة قدح ماء بارد إلى أبي بكر على مائدة الإفطار، ولكنه ما أن رفعه إلى شفتيه حتى بكى، فسئل عن سبب بكائه، فقال: لقد أعطي رسول الله ﷺ مرة قدح ماء بارد، فشربه ثم بكى وقال: "هذا من النعيم الذي سنُسْأل عنه: ﴿ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم﴾ (التكاثر: ٨)، فذكرت ذلك، وبكيت."[١]

وكان أبو بكر قبل أن يشتغل بأمور المسلمين تاجراً، وكان بالسُنح، فأقام هنالك بالسنح بعدما بويع له ستة أشهر يغدو على رجليه إلى المدينة، وربما ركب على فرس له، وعليه إزار ورداء ممشق. فيوافي المدينة فيصلي الصلوات بالناس، فإذا صلى العشاء رجع إلى أهله بالسنح. فكان إذا حضر صلى بالناس، وإذا لم يحضر صلى بهم عمر بن الخطاب. فكان أبو بكر يغدو كل يوم إلى السوق، فيبيع ويبتاع، وكانت له قطعة غنم تروح عليه، وربما خرج هو بنفسه فيها، وربما كُفيها فرُعيت له. وكان يحلب للحي أغنامهم، فلما بويع له بالخلافة قالت جارية من الحي: الآن لا تحلب لنا منائح دارنا، فسمعها أبو بكر فقال: بلى لعمري لأحلبنها لك، وإني لأرجوا ألا يغيّرني ما دخلت فيه عن خُلق كنت عليه. فكان يحلب لهم. فمكث كذلك بالسنح ستة أشهر، ثم نزل إلى المدينة فأقام بها، ونظر في أمره، فقال: لا والله، ما يصلح أمور الناس والتجارة، وما يصلحهم إلا التفرغُ لهم والنظر في شأنهم، ولا بد لعيال مما يصلحهم. فترك التجارة واستنفق من مال المسلمين ما يصلحه ويصلح عياله يوما بيوم، ويحج ويعتمر. وكان الذي فرضوا له في كل سنة ستة آلاف درهم، فلما حضرته الوفاة قال: رُدّوا ما عندنا من مال المسلمين، فإني لا أصيب من هذا المال شيئا، وأرضي التي بمكان كذا وكذا للمسلمن بما أصبت من أموالهم، فدفع ذلك لعمر، ولقوحا وعبداً وصيقلا وقطيفة ما تساوي خمسة دراهم، فقال عمر: لقد أتعب من بعده.[٢]

---

(١) «حلية الأولياء» لأبي نعيم ٣٠/١

(٢) «تاريخ الأمم والملوك» للطبري ٢٥٠/٤-٢٥٢

لقد تعلم أبو بكر ﷺ عيش الزهد هذا من الرسول ﷺ، ذلك لأنه علم صحابته بالمثل الذي ضربه لهم فعلياًفي حياته إمكانية العيش بمثل هذا الزهد.

لقد كان لرسول ﷺ خمس الغنائم، وذلك حسب أمر الله ﷻ، وكان يستطيع التصرف بها كيفما شاء. يقول عمر بن الخطاب ﷺ: دخلت على رسول الله ﷺ وهو على حصير، فجلست فإذا عليه إزار، وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثّر في جنبه، وإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، وقَرَط ى ناحية في الغرفة، وإذا إهاب معلّق. فابتدرتْ عيناي، فقال رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا ابن الخطاب؟» فقلت له: يا نبي الله ومالي لا أبكي؟ وهذا الحصير قد أثر بجنبك، وهذه خرانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذلك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار وأنت نبي الله ﷺ وصفوته وهذه خزانتك. فقال الرسول ﷺ: «يا ابن الخطاب! ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟.»[1]

عندما قال الرسول ﷺ هذا القول لم يكن يقوله كشخص فقير مضطر لمثل هذه المعيشة لا يملك خياراً آخر، فكما قلنا أعلاه فقد كان في إمكانه أن يكون أغنى رجل في العالم. ولكي تكون لدى القارئ فكرة موجزة عن الموضوع فإنا ندرج هنا ما غنمه المسلمون في معركة واحدة فقط هي معركة "حُنين": (٤٠٠٠٠) غنم، (٢٤٠٠٠) بعير، (٤٠٠٠) أوقية فضة (الأوقية هنا تعادل ٤ كغم تقريبا) و٦٠٠٠ أسير.[2] علماً بأن حصة الرسول ﷺ من هذه العنائم هي الخمس.

فإذا أخذنا بنظر الاعتبار الغنائم في المعارك الأخرى وهدايا الملوك له علمنا أنه لم يكن هناك أي مانع أمام رسول الله ﷺ لكي يعيش حياة مرفهة جداً. ولكنه كان يعيش حياة الفقراء، وكان يوزع كل ما يأتيه على الناس، ذلك لأن الكرم تجسد فيه، وما كان بالإمكان أن يكون هناك شخص بمثل هذا الكرم إلا رسول الله. كان رسول الله ﷺ يمثل

---

(١) البخاري، تفسير سورة (٦٦) ٢؛ مسلم، الطلاق، ٣١

(٢) «الطبقات الكبرى» لابن سعد ١٥٢/١

أنموذج الشخص المتوازن في مظهره الخارجي وعالمه الداخلي، فكما كان مظهره الخارجي مهيباً وجميلاً يسحر القلوب والألباب كان عالمه الداخلي الغني يسحر قلوب الناس.

يقول أنس بن مالك ﷺ: "كان رسول الله ﷺ أحسن الناس"،[1] أي أحسن الناس صورة وسيرة. ويصفه جابر بن سمرة ﷺ فيقول: "رأيت النبي ﷺ ليلة أضحيان –أي ليلة كان البدر فيها تاماً– وعليه حلة حمراء، فكنت أنظر إليه وإلى القمر، فلهو أزين في عيني من القمر."[2] ويقول أحد الشعراء على لسان أمنا عائشة ﷺ بأن نساء مصر عندما رأين يوسف ﷺ قطّعن أيديهن، ولو رأين سيدي لضربن صدورهن بالسكاكين التي في أيديهن.

يقول الشاعر نديم: "مُلك العجم كله فداء لحجر من أحجار إسطنبول"، ولو فهم هذا الشاعر رسول الله ﷺ حق الفهم لقال: "الدنيا كلها فداء لشعرة من شعر الرسول ﷺ".. كان أحسن الناس وأجمل الناس. ويستمر أنس بن مالك ﷺ في وصفه فيقول: "وكان أجود الناس."[3] يقول ابن عباس ﷺ عن جود النبي ﷺ: "كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان"، ثم يصف جوده في رمضان، فيقول: "كان أجود بالخير من الريح المرسلة"،[4] أي إنه كان يجود بآخر ما بقي في يده. وهذه حالة إرادية وروحية، فلم يكن يعيش لنفسه، بل عاش لغيره ولسعادة غيره طوال حياته، ولم يجد فرصة للتفكير في نفسه إذ كان أسعد ما يكون عندما يرى غيره سعيداً، وكان أهل بيته وأقرباؤه يأتون في الصف الأخير من إيثاره، فإن كانت هناك غنيمة يجب توزيعها بدأ ببيوت شهداء بدر وأحد، وكان يعتذر عن إعطاء شيء لأهل بيته قبل إعطاء الناس كلهم.[5]

(١) مسلم، الفضائل، ٤٨ (عن أنس)؛ البخاري، المناقب، ٢٣ (عن البراء).

(٢) «كنز العمال» للهندي ١٦٨/٦

(٣) البخاري، الجهاد، ٢٤؛ مسلم، الفضائل، ٤٨

(٤) البخاري، الصوم، ٧؛ مسلم، الفضائل، ٥٠

(٥) البخاري، الدعوات، ١١؛ أبو داود، الأدب، ١٠٠؛ «المسند» للإمام أحمد ١٣٦/١

ولقد كان أشجع الناس، لا يهاب أحداً. أجل، فإلى جانب كل هذه الخصال الرفيعة فقد كان أشجع الناس، وأكثرهم جرأة. فلم يخش أحداً غير الله، على العكس من ذلك، ففي الأوقات التي كان الناس يخافون فيها كان هو كالأسد الضرغام يتقدم نحو الخطر، ونحو أعدائه المتوحشين وحده.(١) وسنعود لهذا الموضوع فيما بعد.

القلوب التي لم يفتحها حلم الرسول ﷺ والجوانب الأخرى الرفيعة من أخلاقه فتحها كرمه، وصفوان بن أمية مثال على هذا: ففي رواية أوردها مسلم في صحيحه عن ابن شهاب قال: غزا رسول الله ﷺ غزوة الفتح، فتح مكة، ثم خرج رسول الله ﷺ بمن معه من المسلمين فاقتتلوا بِحُنين، فنصر الله دينه والمسلمين. وأعطى رسول الله ﷺ يومئذ صفوان بن أمية مائة من النعم ثم مائة ثم مائة. قال ابن شهاب: حدثني سعيد بن المسيب أن صفوان قال: "والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغَضُ الناس إليّ، فما برح يُعطيني حتى إنه لأحَبّ الناس إليّ."(٢)

كان يعطي عندما يستعطى إن كان معه، وإلا وَعَدَ. وأحياناً كان يعطي رداءه الوحيد لمن يسأله؛ جاءه مرة بدوي، وطلب منه شيئاً فأعطاه، ثم جاءه ثانية فأعطاه أيضا، ثم جاءه ثالثة فوعده إذ لم يكن معه شيء يعطيه، وقد حزن عمر بن الخطاب ﷺ لقيام هذا البدوي بمثل هذا الإلحاح المتكرر على رسول الله ﷺ فقال له: "سُئلتَ فأعطيتَ ثم سُئلت فأعطيت ثم سُئلت فوعدتَ"، ولكن الرسول ﷺ لم يهش لهذا القول، فقام عبد الله بن حُذافة السهمي، وقال: "أنفق يا رسول الله! ولا تخش من ذي العرش إقلالاً"، فسكت رسول الله ﷺ هنيهه، ثم قال: «بذلك أُمِرْتُ.»(٣) وما أحسن ما قاله الفرزدق:

ما قال لا قط إلا في تشهده   لولا التشهد كانت لاؤه نعم

---

(١) البخاري، الجهاد، ٥٢؛ مسلم، الجهاد، ٧٨، الفضائل، ٤٨

(٢) مسلم، الفضائل، ٥٩؛ «الإصابة» لابن حجر ١٨٧/٢؛ «المسند» للإمام أحمد ٤٦٥/٦؛ «كنز العمال» للهندي ٥٠٥/١٠؛ «السيرة النبوية» لابن هشام ١٣٧/٤

(٣) «البداية والنهاية» لابن كثير ٦٣/٦

كان يقول "نعم" لكل سائليه، ولكن بشرط أن يكون في دائرة الشريعة. أجل، لم يكن له نظير في الجود وفي الكرم، كان كريماً إلى درجة أن هذا الكرم لايمكن تعليله أو تفسيره إلا بالنبوة. ثم إذا كان الكرم طريقاً للقرب من الله تعالى فكيف لا يكون الرسول ﷺ كريما؟ علماً بأنه كان أقرب إلى الله حتى من جبريل عليه السلام. أليس هو القائل: «السخي قريب من الله، قريب من الجنة، قريب من الناس، بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الجنة، بعيد من الناس، قريب من النار.»(١)

إن بعض الكتب ترسم شجرة طوبا كشجرة جذورها في الهواء وأغصانها ممتدة إلى الأسفل، هل شجرة طوبا هكذا؟ لا أدري، ولكني موقن أن رسول الله ﷺ شجرة وارفة ممتدة من الجنة تظللنا. فما أسعد من استظل بهذه الشجرة واحتمى بها!

يقول الرسول ﷺ في هذا الخصوص: «يا أيها الناس! إن الله قد اختار لكم الإسلام ديناً، فأحسنوا صحبة الإسلام بالسخاء وحسن الخُلق.» الإسلام مع السخاء وحسن الأخلاق، فإن لم يكن عندك ما يؤهلك لقطع المراتب نحو الكمال، فإنك تستطيع الوصول إلى هذه المراتب بحسن الخلق، والسخاء والكرم ضمن نظام هذا الخلق. يقول الرسول ﷺ:

«يا أيها الناس! إن الله قد اختار لكم الإسلام دياً، فأحسنوا صحبة الإسلام بالسخاء وحسن الخلق، ألا إن السخاء شجرة من الجنة، وأغصانُها في الدنيا، فمن كان منكم سخياً لا يزال متعلقاً بغصن منها حتى يورده الله الجنة. ألا إن اللؤم شجرة في النار، وأغصانها في الدنيا، فمن كان مكم لئيماً لا يزال متعلقاً بغصن من أغصانها حتى يورده الله النار.»(٢)

وإذا كان البخل نوعاً من عدم التوازن ونوعاً من التفريط، فإن التبذير نوع من الإفراط، فكلاهما نوع من عدم التوازن. والفطنة النبوية تستعمل الكرم والسخاء من

---

(١) الترمذي، البر، ٤٠

(٢) «كنز العمال» للهدي ٥٧١/٦

أجل إعلاء دين الله. فكما تسلل الرسول ﷺ إلى القلوب بخلقه اللين وبرحمته، فإنه استعمل ما أفاض الله عليه من النعم لفتح القلوب المغلقة والقاسية.

كانت أمنا خديجة رضي الله عنها أول مسلمة، ومعنى كلمة خديجة "المولودة مبكرا"، لقد ولدت قبل رسول الله ﷺ بخمسة عشر عاماً، واهتدت إلى الإسلام قبل الجميع. ومن ثم فقد كان هناك توافق بين الاسم والمسمى، وهذه المرأة التي كانت من أغنى الأغنياء في مكة أنفقت ثروتها كلها في سبيل الله وفي سبيل رسوله حتى أنها عندما توفيت لم يكن عندها ثمن الكفن. ولعل رسول الله ﷺ استدان ثمن كفنها، لقد كان هذا أنسب شكل وفاة لها.. فقد أنفقت آخر قرش لها في سبيل الله..[1] كانت أنموذجاً آخر لمن سلك الصراط المستقيم. وقد استعمل الرسول ﷺ كرمه هذا بفطنة كبيرة بحيث لم يذهب كرمه هذا هباء منثوراً، بل استفاد منه في زيادة قوة الإسلام.

٢- تواضعه

كان تواضعه بعداً متلألئاً آخر من أبعاد فطنته، فكلما زادت شهرته، وأصبح معروفاً ومقبولاً من قبل الناس زاد تواضعه، فكأن تواضعه ولد معه، واستمر معه حتى وفاته، فهو صاحب القول المعروف: «من تواضع لله، رفعه الله»،[2] وهو صاحب التطبيق العملي لقوله هذا. لقد عد نفسه على الدوام فرداً من الأفراد، ولم يميز نفسه عن غيره. وكان يمثل في نفسه تمثيلاً جيداً حكمة : "كن عند الناس فرداً من الناس."

أجل، إذ لا ينبغي على الإنسان أن يغترّ بمقامه أو بمنصبه فينسى نفسه؛ فكل الناس بشر، والمناصب لا تغير الناس، ولا تجعل منهم مخلوقات أخرى، فعلى الإنسان في كل حال من الأحوال ألا ينسى أنه فرد من الأفراد. إن كانت الديمقراطية أفضل نظام حسبما

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير ١٥٨/٣، ١٥٩؛ «أعلام النساء» لعمر رضا الكحالة ٣٢٦/١-٣٣١

(٢) «المسند» للإمام أحمد ٧٦/٣؛ «مجمع الزوائد» للهيثمي ٣٢٥/١٠؛ «كنز العمال» للهندي ١١٣/٣

يراه البعض، فإن الإسلام وصل إليها قبل عدة عصور، ولكننا ضد إطلاق تعبير النظام الديمقراطي على النظام الإسلامي.

وإليكم مقاطع اجتماعية من النظام الإسلامي: علي بن أبي طالب ﷺ أمام القاضي شريح ليحاكم مع خصمه الذمي الذي شكاه، فأشار القاضي شريح لعلي ﷺ بالجلوس، فقطب علي بن أبي طالب ﷺ حاجبيه ولم يقبل ذلك، لأنه لم يرض أن يجلس وخصمه واقف، فهذا ليس من العدالة في رأيه. وتصوروا أن علياً ﷺ كان آنذاك خليفة المسلمين، أي رئيس الدولة.(١)

كان الرسول ﷺ رجل فطرة، ممتزجاً مع الحياة، فكثيراً ما كان الداخل إلى مجلسه لا يعرف النبي ﷺ من بين أصحابه إلا إذا استنتج ذلك من سلوك وتصرفات الصحابة، أو عندما كان النبي ﷺ يتحدث إليهم. وفي أثناء الهجرة عندما دخل النبي ﷺ وأبو بكر ﷺ المدينة هرع العديد ممن لم يروا النبي ولم يعرفوه، هرعوا ليقبلوا يدي أبي بكر ﷺ إذ ظنوا أنه هو النبي، ولكن ما إن أخذ أبو بكر ﷺ مروحة بيده ليروح عن رسول الله ﷺ حتى عرفوا أيهما النبي. ذلك لأن النبي ﷺ لم يكن يتصرف أي تصرف يميزه عن أبي بكر.(٢)

وكيفية دخوله ﷺ إلى مكة عند فتحها مشهورة ويعلمها الجميع، ففد كان منحنياً على مركبه حتى يكاد السرج أن يلمس جبهته. بهذا التواضع دخل هذا النبي الكريم تلك البلدة الكريمة.(٣) وفي حديث ترويه أمنا عائشة ﷺ وهي تصف الرسول ﷺ: "كان يكون في مهنة أهله -تعني في خدمة أهله- فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة"، وفي رواية أخرى: "كان بشراً من البشر، يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه."(٤)

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير ٨/٥

(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام ١٣٧/٢

(٣) «مجمع الزوائد» للهيثمي ١٦٩/٦؛ «السيرة النبوية» لابن هشام ٤/ ٤٧، ٤٨

(٤) الترمذي، الشمائل، ٢٨٣؛ «المسند» للإمام أحمد ٢٥٦/٦

عندما كان يقوم بهذا كان الإسلام واسمـه يترددان في أقطار عديدة. لقد نظم وقته جيداً بحيث أنه كان يجد وقتاً لهذه الأعمال من بين الأعمال والمسؤوليات والمهام الكبيرة التي كان مكلفاً بها.. لقد كان ذروة في كل خصلة جيدة.

أ – كان بين الناس

التواضع هو علامة العظمة في العظماء، والتكبر هو علامة الصغار فيهم. ولما كان رسول الله ﷺ أعظم الناس، كان أكثرهم تواضعاً.

عند بناء مسجد المدينة بينما كان الجميع يكُدُّ ويعمل، كان هو أيضا يحمل معهم اللبن كفرد من أفرادهم، فعن أبي هريرة أنهم كانوا يحملون اللَّبِنَ لبناء المسجد ورسول الله ﷺ معهم، قال: فاستقبلتُ رسول الله ﷺ وهو عارضٌ لبنةً على بطنه، فظننت أنها قد شُقَّتْ عليه. قلت: ناوِلْنِيها يا رسول الله. قال: «خذ غيرها يا أبا هريرة، فإنه لا عيش إلا عيش الآخرة.»[1] وفي حفر الخندق كان كل واحد من الصحابة يربط حجراً على بطنه، أما هو فحجرين.[2] وعندما حضر رجل إلى مجلسه وقابله ارتجف من مهابته، فقال له الرسول ﷺ: «هَوِّنْ عليك، فإني لست بملِك، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القَدِيد.»[3] لقد كان أكثر الناس تواضعاً.

الذين يجلسون في المجالس، ويضعون رِجلاً على أخرى دليلا على التكبر والغرور.. هؤلاء أعدهم مرضى من الناحية النفسية، أما رسول الله ﷺ فكان يجلس مثل سائر الناس، ويتصرف مثلهم، ولكن ضمن أدب جم. كان جل نظره إلى الأرض، وكانت عظمته تبدو عندما يضع جبهته للسجود على الأرض، يقول الرسول ﷺ: «من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر وضعه الله.»[4]

---

(١) «المسند» للإمام أحمد ٣٨١/٢؛ «السيرة النبوية» لابن هشام ١٤١/٢

(٢) الترمذي، الزهد، ٣٩

(٣) «مجمع الزوائد» للهيثمي ٢٠/٩؛ ابن ماجة، الأطعمة، ٣٠

(٤) «كنز العمال» للهندي ١١٣/٣؛ «مجمع الزوائد» للهيثمي ٣٢٥/١٠؛ «المسند» للإمام أحمد ٧٦/٣

التواضع وعدم التكبر جناحان يطيران بالإنسان إلى الأعالي. وبهذا التواضع الجم استطاع الرسول ﷺ أن يكون هادياً أبدياً للإنسانية. فقد استطاع الناس أن يقابلوه، ويتكلموا معه بكل إطمئنان وراحة، ويبتوا إليه مشاكلهم، ويعرضوا عليه أسئلتهم، لأن سلوكه المتواضع كان ييسر لهم هذا.

يورد القاضي عياض أن امرأة كان في عقلها شيء جاءته، فقالت: إن لي إليك حاجة. قال ﷺ: «اِجلسي يا أم فلان، في أي طرق المدينة شئت أجلس إليك حتى أقضي حاجتك.» قال: فجلست فجلس النبي ﷺ إليها حتى فرغت من حاجتها.[1]

ولم يكن قيامه بمثل هذه الأعمال يعد ذلاً ولا صعاراً، فقد كان أشجع الناس، ووقف أمام الكفر بكل شجاعة وجرأة. يقول عنه علي ابن أبي طالب ﷺ: "لقد رأيتُنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً."[2] بل إن وجوده وحضوره كان ينشر الأمن والطمأنينة فيما حول، أي أن تصرفاته البعيدة عن الغرور كانت تنبع من تواضعه.

ب – تصرفاته الفطرية

كما أن التواضع ليس ذلاً فإن الغرور والكبرياء ليس وقاراً. لقد كان ﷺ متوازناً في التواضع كما في كل خلقه وتصرفاته حتى أن صفته هذه تسوقنا إلى شهادة أن محمداً رسول الله.

عندما يتصرف القاضي في المحكمة بجدية فهذا وقار، ولكن إن تصرف بالأسلوب نفسه في البيت أمام أطفاله وأهله يكون هذا كبرباء، لأن على الإنسان أن يتصرف في البيت كأحد أفراد البيت. فهذا دستور إسلامي، وكان رسول الله ﷺ أفضل من طبقه، أما من جاء بعده فقد امتثلوا له وقلدوه. كان الجميع يرونه أكبر من كل كبير، وأعظم

(١) «الشفاء» للقاضي عياض ١/١٣١

(٢) «المسند» للإمام أحمد ١/٨٦

من كل عظيم، ولكنه كان يقول: «لن ينجي أحداً منكم عملُه» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة.»[1] أجل، لقد كان رجل فطرة إلى الدرجة التي استطاع فيها أن يقول مثل هذا القول، إذ يرى نفسه إنساناً بين الناس، وفرداً بين الأفراد، ثم يضبط وينظم سلوكه وتصرفاته على هذا الأساس.

جاءه عمر بن الخطاب ﷺ يوماً يسأله الإذن، للعمرة، إذ كانوا يسألونه الإذن لأداء العمرة، لأنهم كانوا أفراداً ملتزمين بالنظام، يهرعون إلى رسول الله ﷺ في كل أمر من أمورهم، وفي كل مشكلة تعرض لهم. فمثلاً إن كان لأحدهم بنت في سن الزواج جاء إليه قائلاً: لي بنت بالغة أريد لها كفؤاً، وإن كان لأحدهم بستان يريد أن يجعله وقفاً لله تعالى عرض الأمر أولاً على الرسول ﷺ، ومن أراد الاعتكاف أو السفر راجعه واستأذن منه، فلا يرد طلب أحد. عندما جاءه عمر ﷺ يستأذنه لأداء العمرة قال له رسول الله كلاماً ظل عمر ﷺ يذكره حتى آخر حياته، إذ قال له ﷺ: «أي أُخَيّ أشركنا في دعائك ولا تَنْسَنا»، فسُرّ عمر ﷺ سروراً كبيراً، وقال ما معناه "لو وهبت لي الدنيا ما سررت مثل سروري لكلامه هذا."[2]

ج – تواضعه وعبوديته

فتح تواضعه القلوب مرة أخرى. كان ﷺ يأخذ بيد أمته، ويرقى بها إلى مدارج الرقي والسمو. كان عُمَرُ قد ارتقى بطفرة واحدة إلى مدارج عليا، ولكن رسول الله ﷺ كان يرتقي بصحابته أكثر وأكثر، فاستطاع أن يحول أمة بدوية إلى أمة معلمة ومرشدة. وبينما كان يرقى بأمته إلى الذرى كان ارتقاؤه هو أكبر وأسمى، وكلما سما إلى الأعالي زاد تواضعه بالنسبة نفسها، أما نظرته إلى نفسه فقد امتلأت بإحساس وبعاطفة العبودية لله تعالى عبودية خالصة.

يروي أحمد بن حنبل عن أبي هريرة ﷺ قال: جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى

---

(١) البخاري، الرقاق، ١٨، المرضى، ١٩؛ مسلم، ٧١-٧٦

(٢) الترمذي، الدعوات، ١٠٩؛ أبو داود، الوتر، ٢٣؛ ابن ماجة، المناسك، ٥

السماء فإذا ملك ينزل، قال جبريل: إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خُلق قبل الساعة. فلما نزل قال: يا محمد أرسلني إليك ربك، قال: أفملكاً نبيا يجعلك أو عبداً رسولاً؟ قال جبريل: تواضع لربك يا محمد ﷺ. ثم ألا يأمره القرآن الكريم بالتواضع؟ ﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾ (الشعراء: ٢١٥). فكان جواب النبي ﷺ للملَك: «بل عبداً رسولاً.»[١] وعندما اختار العبودية جعل الله تعالى عبوديته هذه مدار فخر له، لذا تحدث القرآن عنه في كثير من الأحيان من زاوية صفة عبوديته هذه، وعندما يتشهد المسلمون يشهدون أنه عبد الله ورسوله، أي هو عبد الله ثم هو رسوله، فعبوديته تأتي قبل رسالته.

هناك أناس يكونون عبيداً لغيرهم، ويضعون طوق العبودية في أعناقهم، أما محمد ﷺ فقد كان عبداً لله أولاً وآخراً، فلم يكن في أي عهد من عهود حياته عبداً لأحد، ولم ينحن أمام أحد، فعبوديته لله وحده صفة أصيلة فيه. وكإشارة إلى مظاهر عبوديته ترتفع من فوق المآذن كل يوم خمس مرات أصوات الشهادة تعلن للعالم كله بأنه عبد لله ورسول له. هو عبد لله، فقد وصفه القرآن الكريم بهذا الوصف اذ يقول: ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لِبَداً﴾ (الجن: ١٩). وسواء أكان هؤلاء الذين كادوا يكونون عليه لبداً من الجن أم من مشركي قريش فإن المهم عندنا هو أنه جرى ذكره في القرآن بصفة "عبد الله."

وكذلك تطلق عليه صفة العبد عندما يتم شرح كيف أن القرآن كلام الله، وأن من كان عنده شك في هذا فليأت بسورة من مثله: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ۞ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أُعِدّتْ للكافرين﴾ (البقرة: ٢٣-٢٤).

كذلك يصفه القرآن بصفة العبد في مناسبة صعد فيها النبي ﷺ إلى ذروة الذرى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾ (الإسراء: ١).

---

(١) «المسند» للإمام أحمد ٢٣١/٢؛ «مجمع الزوائد» للهيثمي ١٨/٩-١٩

كانت حادثة المقاطعة ثم وفاة زوجته خديجة رضي الله عنها ووفاة عمه أبي طالب قد جعلته وحيداً بين الناس لا حامي له، أي عندما انقطعت الأسباب، وزالت كل المساند الواحد منها تلو الآخر تجلت الرحمة الإلهية في برج الأحدية من قبل مسبب الأسباب. يقول مفكر العصر سعيد النورسي رحمه الله بأن نور التوحيد ظهر في برج الأحدية حيث دُعي رسول الله ﷺ كضيف كريم إلى السموات السبع ليرى ربه وخالقه ومالكه.

ليست غايتنا هنا شرح الإسراء والمعراج، لذا لن ندخل في هذا الموضوع، ولكننا نريد جلب أنظاركم إلى ناحية مهمة في هذا الموضوع وهو أن الله تعالى عندما خاطبه في صدد هذه المعجزة المهمة لم يخاطبه بأي اسم من أسمائه الواردة في القرآن أو الإنجيل أو التوراة، أي لم يخاطبه بـ محمد أو أحمد أو أحيد بل خاطبه بكلمة "عبده". فكأنه عندما قال: "إنني عبد الله" قال له الله تعالى: "ما دمت أصبحت عبداً فإنني أجعل العبودية لي أرفع وأسمى درجة، لذا فأينما أحببت أن أوضح قيمتك ذكرت عبوديتك، وأجعل كل مسلم يشهد أنك عبد الله قبل أن تكون رسولاً له، وسترتج السموات والأرض بهذه الشهادة."

و- الخلاصة

الكتب التي ذكرت شمائل رسول الله ﷺ ذكرت كل شمائله بدءاً من أوصاف بدنه ووصولاً إلى أخلاقه وإلى عالمه الروحي العميق. كان إنساناً كاملاً في كل شيء، يقول عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وهو يصفه: "كان رسول الله أجود الناس كَفاً، وكان أشرح الناس صدراً، وكان أصدق الناس لهجة، وكان ألينهم عريكة، وأكرمهم عشيرة. مَن رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه."[1]

ليس في الإمكان ذكر أحد أحبه الناس مثله... لا من قبله ولا من بعده... ولا عجب في هذا، فقد كان هو حبيب رب العالمين.

---

(١) «الشمائل» للترمذي/ ٢٧٦-٢٧٨؛ الترمذي، المناقب، ٨؛ «الطبقات الكبرى» لابن سعد ١٢١/١

الفصل الخامس: العصمة

والعصمة أيضاً من صفات الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وهي حفظ الله تعالى لأنبيائه ورسله عن الوقوع في الذنوب والمعاصي صغيرها وكبيرها. وسنتناول هذا الموضوع إن شاء الله في الجزء الثاني من هذا الكتاب تحت بحث مستقلّ. والله وليّ التوفيق.



القسم الثاني:

النبي ﷺ مربياً

الفصل الأول: تربية النبي ﷺ ورئاسته للعائلة

إن أفضل ممثل لصفة "الرب" لله تعالى هو سيدنا محمد ﷺ، أي هو أفضل من يمثل هذا الاسم من الأسماء الحسنى حتى بين سائر الأنبياء، لأنه كان صاحب فطرة متميزة. ولا شك أن الصحابة الذين تلقوا التربية منه كانوا أفضل الناس من بعد الأنبياء. فليس في الإمكان رؤية أو تنشئة نماذج أخرى من أمثال أبي بكر أو عمر أو عثمان أو علي رضوان الله تعالى عليهم.

ليس هؤلاء فحسب، بل لا يمكن الوصول إلى مرتبة أي صحابي آخر، لأن هؤلاء تربوا على يد رسول الله ﷺ. وهناك من تربوا في نفس جو التربية النبوية، وكانوا مثل الدرر المنثورة في العصور التي جاءت بعده، حيث نستطيع أن نقول إن هؤلاء أيضاً ربوا من قِبَل رسول الله ﷺ، وأصبحوا مدار فخر الإنسانية.. هؤلاء يصعب مجيء أمثالهم أو تربية أناس في مستواهم أمثال الفُضيل بن عياض وبشر الحافي وأبي يزيد البسطامي وجنيد البغدادي وأبي حنيفة والشافعي والإمام مالك وأحمد بن حنبل والإمام الرباني والإمام الغزالي ومولانا جلال الدين الرومي والشيخ الكيلاني والشاذلي والنقشبندي وأحمد الرفاعي وبديع الزمان سعيد النورسي.. الخ. لقد تلقن هؤلاء دروسهم منه، ونشأوا على نظم تربيته. وهناك قول جميل ينسب إلى النبي ﷺ ولكنه ضعيف من حيث السند يقول: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل.»[1]

لا يمكن أن يبلغ أحد مرتبة الأنبياء من ناحية الفضل العام، ولكن هناك أوضاع خاصة يكاد يصل فيها بعضهم في مضمار السباق إليهم، وذلك من أمثال الذين ذكرنا أسماءهم آنفاً. وأسماء أخرى يمكن ذكرها أيضاً. هؤلاء الأعلام مدار فخرنا، ولو طلب

---

(١) «كشف الخفاء» للعجلوني ٢/٦٤؛ «الفوائد المجموعة» للشوكاني ص٢٨٦

إشغال أماكنهم من قبل آخرين لكان من اللازم إنزال الملائكة من السماء إلى الأرض، ذلك لأن الملائكة وحدهم هم الذين يستطيعون تمثيلهم.

وهذا الأمر خاص بالنبي محمد ﷺ وحده. فالانتساب إليه وحده هو الذي يستطيع إعطاء مثل هذه الثمار، و هذا العطاء سيستمر حتى يوم القيامة. وبعد دور وعهد الجفاف الذي نعيشه من يدري من سيظهر من أصحاب هذه الخلال والصفات المقدسة من عظماء القلب والروح، فإن آمالنا معقودة عليهم من زاوية الأسباب. ولا أزال –منذ عرفت نفسي– أنتظرهم وأعقد أملي عليهم.

وقبل أن ننتقل إلى أصول تربيته العامة لنر أصول تربيته البيتية؛ فقد كان رئيس عائلة، وكان في بيته أولاد، وله زوجات وأحفاد.

أ- النبي ﷺ كرئيس عائلة

لا شك أن هذه العائلة كانت أفضل وأسعد وأبرك عائلة في تاريخ الدنيا كلها، فالسعادة كانت تفوح منها أبداً.. لقد كانت هذه العائلة من أفقر العائلات في العالم من ناحية القدرة المادية، لأنها كانت تمضي شهور عديدة دون أن يطبخ في البيت طعام كالحساء مثلاً.[1] أما الأماكن المخصصة لزوجاته فكانت عبارة عن غرفة صغيرة لكل منهن أو كوخ صغير. ومع ذلك كانت زوجاته المحظوظات لا يبادلن الساعة الواحدة التي قضينها مع رسول الله ﷺ بالدنيا كلها.. كن محظوظات ومطمئنات وسعيدات.

توفي أبناؤه جميعاً قبله سوى بنته فاطمة رضي الله عنها التي قضت حياتها في ضنك، أي أن رسول الله ﷺ لم يوفر لها أيضاً حياة مرفهة مع أنه كان يحبها جداً وكذلك زوجاته أما موقعه في قلوب الجميع في البيت فخارج عن الوصف. وبعد وفاة والدها ذرفت فاطمة

---

(١) البخاري، الهبة، ١، الرقاق، ١٧؛ مسلم، الزهد، ٢٨

ﷺ دموعاً ساخنة لأيام طوال،[1] ولم تستطع الصبر على ألم فراقه سوى ستة أشهر فقط إذ لحقت به وهي متلهفـة للقائه.[2] لم يحب أي ولد أباه مثل حب فاطمة لوالدها، ولم يحب والد ولده مثل حب الرسول ﷺ لبنته.. طبعاً ضمن إطـار مـن التوازن. لم تحب قط امرأة زوجها مثلما أحبت زوجات الرسول ﷺ رسول الله ﷺ، ولم يكن أي زوج محبوباً من قبل زوجاته مثلما كان رسول الله ﷺ محبوباً من قبل أمهات المؤمنين. وما من شك أن هناك سبباً لوجود مثل هـذه الهالة من الحب حوله، إذ أن قيام الرسول ﷺ بتطبيق أصول تربوية مع القريبين منه أحدث هالة حب وتعلق كبيرين في القلوب. وتموج هذا الحب من هذه الدائرة الضيقة المحيطة به، وتوسع حتى شمل العالم بأسره، وكـان هـذا بُعداً آخر من أبعاد فطنته.

تصوروا أنه عندما توفي لم يترك بيتاً واحداً لزوجاته، إذ عشن حياتهن معه في غرف صغيرة.. هذه الغرف الصغيرة هي ما ورثنه منه ﷺ.. هكذا ترك سيد المرسلين زوجاته في مثل هذا الفقر والضنك وارتحل عنهن، غير أنه ما من واحدة منهن اشتكت بكلمة واحدة طوال حياتها من بعده من هـذا الفقر. ومع أن هـذا الأمر خطر ببال واحدة أو اثنتين منهن، إلا أن تنبيه القرآن الكريم لهن أزال من رؤوسهن هذا.[3] وقام أبو بكر ﷺ بإعطاء شيء لهن من بيت المال، ولم يكن هذا بالشيء الكثير، بل كان من قبيل ما يعطى لأي فرد من المسلمين، ولم يجعل أعطياتهن مثل أعطيات السابقين إلى الإسلام بل دونها بكثير، كان هذا هو اجتهاده. ولكن عندما جاء عمر بن الخطاب ﷺ إلى الخلافة جعل راتبهن من رواتب الصف الأول من المسلمين، إذ رأى أنه وإن لم يكن من السابقين إلى الإسلام إلا أنهن يستحققن رواتب السابقين للإسلام لكونهن من أقرب الناس إلى الرسول الله

(١) انظر: البخاري، المغازي، ٨٣؛ ابن ماجة، الجنائز، ٦٥؛ الدارمي، المقدمة، ١٤

(٢) البخاري، فرض الخمس، ١؛ مسلم، الجهاد، ٥٢؛ «مجمع الزوائد» للهيثمي ٢١١/٩؛ «الطبقات الكبرى» لابن سعد ٢٩/٨؛ «الإصابة» لابن حجر ٣٧٩/٤

(٣) انظر الآيتين. ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً ۝ وإن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً﴾ (الأحزاب. ٢٨-٢٩).

ﷺ، ولكونهن أمهات المؤمنين حتي يوم القيامة. وكان هذا هو اجتهاد عمر رضي الله عنه في هذا الموضوع، إلا أن هذا ليس موضوعنا، فالقضية الأولى التي تهمنا في هذا المجال هي المستوى الرفيع الذي وصلن إليه نتيجة تربية الرسول ﷺ لهن. فما هذه التربية التي دخلت إلى قلوب وأرواح هذه النسوة بحيث أصبحن لا يفكرن في شيء غير رسول الله ﷺ مع أن صحبتهن له لم تستغرق كثيراً، علماً بأنه لم يعطهن من الدنيا سوى ما تقدم ذكره. إذن، فقد كان لدى رسول الله ﷺ جاذبية مختلفة تماماً.. جاذبية تسحر ما حولها، وكان هذا الأمر أحد جوانب رسالته.

إن تعدد زوجات الرسول ﷺ دليل من أدلة رسالته، ولكوننا سنتعرض لهذا الموضوع فيما بعد فإننا لن نبحث هذا هنا، ولكننا نكتفي هنا بالقول بأن البيت المبارك للرسول ﷺ أصبح مدرسة لتعليم المسائل المتعلقة بالنساء. فالأوضاع الخاصة له كانت تُعرَف ضمن هذا النطاق الشخصي والخاص ثم تنقل فيما بعد إلى أمته. إن تسعين بالمائة من الأحكام المتعلقة بالحياة الأسرية نقلت إلينا من قبل الزوجات الطاهرات للرسول ﷺ، لذا فقد كان من الضروري تواجد نساء من مختلف المستويات والقابليات في بيته، ولكي لا تضيع الأحكام الدينية الخاصة بالنساء والعائلة فقد تحمَّل ﷺ الزواج من عدة نساء بعد أن جاوز سنه ثلاثة وخمسين عاماً.

أجل، لقد كانت هناك ضرورة ماسة لوجود عدة نساء في بيت رسول الله ﷺ، ذلك لأن الرجال كانوا يرونه ويستمعون إليه في المسجد على الدوام. فإن فات أحدَهم حضورُ مجلس واحد من مجالس الرسول ﷺ، قام أصحابه بتدارك الأمر ونقل كل ما دار في ذلك المجلس إليه. ولكن النساء كن محرومات من مثل هذا الامتياز إذ لم يكن متاحاً لهن الاستماع إلى الرسول ﷺ في كل حين.. إذن، فمن يستطيع نقل الأحكام.. ولاسيما ما يتعلق منها بالنساء إليهن؟ ومن كان يستطيع نقل الحياة الخاصة للرسول ﷺ والأوضاع المتعلقة بطبيعته وأدبه في غرفة نومه إلى أمته؟ وهل كان باستطاعة امرأة واحدة فهم ونقل الدين وأحكامه كاملة بكل أسسه ونظمه؟ وبما أنهن كن متعرضات –حسب الطبيعة

البشرية– للأعراض التي تصيب النساء الأخريات فإن الأحكام الخاصة الجديدة العائدة للنبي ﷺ تجاه هذه الأمور ما كان بإمكان امرأة واحدة القيام بهذه المهمة. وما كانت امرأة واحدة تكفي لإيضاح هذه الأمور وهذه الأحكام. لذلك فقد كانت هناك ضرورة ماسة لتواجد عدة نساء قريبات من الرسول ﷺ يراقبن أحواله عن كثب وعن قرب ثم ينقلنها إلينا، لقد كانت هذه ضرورة دينية محضة، ولم تكن لها علاقة بالحاجة البشرية للرسول ﷺ. وكان هذا هو السبب في تحمل رسول الله ﷺ لهذا العبء الثقيل.

وبالإضافة إلى كون هؤلاء النسوة وسيلة لربط أقوامهن وقبائلهن برسول الله ﷺ بأواصر القرابة فقد أصبحن وسيلة أيضاً لحفظ مئات بل آلاف من الأحاديث الشريفة. ونستطيع أن نقول بكل اطمئنان وتأكيد بأن عالم النساء مدين لنساء الرسول ﷺ بالشيء الكثير، ومهما فعلن فلن يوفيهن حقهن.. أجل، فهذه هي درجة خدمتهن للدين.

ومن ثم فإن زواج الرسول ﷺ بهن لم يكن نتيجة أهواء بشرية أو حاجات جسدية؛ ذلك لأنه من غير الممكن وجود حاجة لشخص يبلغ عمره ثلاثاً وخمسين سنة للزواج من عدة نساء في بلد حار مثل الجزيرة العربية. ولم يكن زواجهن منه أيضاً نابعاً من رغبات دنيوية أو جسدية، ذلك لأنه كان يعيش عيشة أفقر الناس، وكانت نساؤه يعرفن هذا ويطلبن الزواج منه على الرغم من هذا، وكان رسول الله ﷺ يعدل معهن فلا يبقى عند أي واحدة منهن سوى يوم واحد في الأسبوع، ومع ذلك كانت كل واحدة منهن ترى أن رسول الله ﷺ كان أطلق الناس وجهاً وبشاشة وألطفهم مع نسائه.

ألم يكن من حق هؤلاء النسوة أن يبدين بعض الغضب وبعض الحدة لعدم وجود ما يطعمنه في البيت مدة طويلة ولاضطرارهن إلى لبس الملابس نفسها مدة طويلة؟ من يقرأ التاريخ والسيرة يرى أنهن كن راضيات بالعيش مع الرسول ﷺ رغم كل هذه الأمور. ومع كل المهابة والوقار الموجودين في شخصية رسول الله ﷺ فإنه كان يلاطف نساءه ويشعرهن بقربه منهن واهتمامه بهن، ومع هذا فقد أبقى هناك ستاراً رقيقاً على الدوام، وهو الستار الناشئ عن ارتباطه بالله وما ينتجه هذا الارتباط من الجو الذي يفوح منه جو

الحياة الأخروية ذلك لأنه كان نبيا، وكانت نساؤه -قبل كل شيء- جزءاً من أمته. لم يكن في الإمكان ملء الفجوة الحاصلة معه في علاقته معهن، إذ كان فريداً وممتازاً في هذا أيضا، فلم يكن في مقدور نسائه تصور عالم من غيره.

عقد النبي ﷺ نكاحه على سودة بن زمعة في مكة، أي أصبحت الزوجة الثانية للرسول ﷺ وأُماً للمؤمنين، ولكن لسبب مّا أراد النبي ﷺ أن يطلقها. فلما سمعت سودة بذلك أحست وكأن صاعقة نزلت على رأسها فأرسلت إليه من يكلمه في شأنها ثم أسرعت إليه وقالت له: يا رسول الله مالي رغبة في الدنيا إلا لأحشر يوم القيامة في أزواجك فيكون لي من الثواب ما لهن." ووهبت يومها لعائشة ﵂.[1]

فاستجاب الرسول ﷺ لرجائها وأبقاها عنده. هذا هو الموقع الذي بلغه النبي ﷺ في قلوبهن، فلو طلق إحداهن لبقيت عند عتبة داره تنتظره إلى آخر عمرها.

وعندما أحس نوعاً من الشكوى من حفصة ﵂ قال: «إن أرادتْ سرّحتُها»، فكان كلامه هذا كافياً لكي يقلب عالم حفصة رأساً على عقب، وتدخل الوسطاء ورجوه عدم تطليقها لأنها امرأة صالحة صوامة قوامة فاستجاب الرسول ﷺ لهم وأبقى على بنت أوفى صحابته ضمن زوجاته.[2]

كن يعتبرن فراق رسول الله ﷺ مصيبة أمرّ من الموت. وهذا الشعور كان مشتركاً بينهن ولم يكن هناك أي استثناء بينهن. ذلك لأن النبي ﷺ احتلّ في قلوبهن محلاً وموضعاً لا يمكن تعويضه أو تبديله أبداً؛ فقد أصبح جزءاً لا يتجزأ من حياتهن ومن كيانهن، إذ عاش معهن عيشة حياة فطرية سليمة وطبيعية وبخلق لين هين سهل. ولو افترقن عنه لأصبحن مثل إنسان محروم من الهواء يكاد يختنق.

---

(١) البخاري، النكاح، ٩٨؛ «مجمع الزوائد» للهيثمي ٢٤٦/٩

(٢) أبو داود، الطلاق، ٣٨؛ النسائي، الطلاق، ٧٦؛ ابن ماجة، الطلاق، ١؛ الدارمي، الطلاق، ٢؛ «مجمع الزوائد» للهيثمي ٢٤٤/٩

والمنظر الذي نراه بعد وفاته ﷺ هو هذا المنظر.. منظر الفراق الأليم والهجران الموحش، ففي كل مرة يزور فيها أبو بكر وعمر ﷺ إحدى أمهات المؤمنين كانا يشاهدانها تبكي بحرقة فيجلسان ويبكيان معها، وقد دامت حال البكاء هذه حتى نهاية حياتهن.. كان هذا هو الأثر الذي استعصى على الزوال والذي تركه رسول الله ﷺ في قلوبهن. ومع أن مدة بقائه معهن لم تكن طويلة إلا أنه أصبح بالنسبة لهن منبعاً للحياة... وهذا هو ما أردنا التأكيد عليه.. أي أن رئاسته ﷺ للعائلة كانت أيضاً تجهر بحقيقة كونه رسولاً لله تعالى.

مرت فترة وُجدت معه تسع من الزوجات حيث استطاع إدارتهن بحيث لم تظهر أي مشكلة جدية في البيت.. فقد كان رئيس عائلة رقيق الحاشية موفّقاً ومحبوباً. قبل وفاته بعدة أيام خطب رسول الله ﷺ الناس وقال: «إن الله خيّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله» فما أن سمع أبو بكر ﷺ هذا -وكان صاحب ذكاء وفطنة- حتى أجهش بالبكاء.[1] ذلك لأنه علم أن العبد المخيَّر هو رسول الله ﷺ. ولم يطل مرضه، إذ اشتد هذا المرض يوماً بعد يوم، وبدأ يتقلب من ألم صداع شديد.. وحتى في هذه اللحظات لم يترك سلوكه الرقيق تجاه زوجاته فطلب منهن الإذن في البقاء في غرفة عائشة لعدم استطاعته زيارتهن، فوافقن على طلبه. وهكذا قضى الرسول ﷺ آخر آيامه في غرفة عائشة ﷺ...[2] أجل، لقد راعي حقوق زوجاته حتي في أصعب الظروف... هكذا كان إنسان روح وأدب ورقة.

ب- القيمة التي أعطاها لزوجاته

ليس هناك مثيل آخر للقيمة التي أعطاها رسول الله ﷺ للمرأة لا من قبل ولا من بعد. فلو زار في إحدى الليالى إحدى زوجاته للسؤال عنها فإنه كان يطوف على زوجاته

---

(١) البخاري، الصلاة، ٨٠، فضائل أصحاب النبي، ٣؛ مسلم، فضائل الصحابة، ٢

(٢) البخاري، الوضوء، ٤، الأذان، ٤٩ مسلم، الصلاة، ٩١-٩٢

الأخريات أيضاً للسؤال عنهن. إذ لم يكن يظهر أي فرق من ناحية معاملته لهن. وكانت كل واحدة منهن ترى أنها أقرب إلى قلب الرسول ﷺ. وكان هذا ينبع من مروءته التي لا مثيل لها. غير أنه لما كان الإنسان عاجزاً عن التحكم في قلبه، فإن تكليفه بما لا يطاق لم يكن وارداً. لذلك كان الرسول ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول مستغفراً الله: «اللهم هذه قسمتي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك.»[1]

ما أروع هذا اللطف وهذه الرقة وهذا الظرف! وأنا أسألكم هل راعيتم مثل هذه الدقة في المعاملة بين بنتين من بناتكم أو بين ولدين من أولادكم..؟ اسمحوا لي أن أقول "لا" نيابة عنكم.. أجل، "ألف مرة لا" ليس هذا فقط، بل إننا إن استطعنا ضبط عواطفنا وعدم إظهارها عددنا هذا من مفاخرنا وعلامة على قوة إرادتنا، بل ربما تحدثنا فخورين بذلك بينما يستغفر رسول الله ﷺ ربه لاحتمال خطور ميل أكثر بباله نحو إحداهن.

لقد نفذت رقته هذه وأدبه الجم إلى قلوب نسائه، فأحدث فراقه عنهن جرحاً لا يندمل في أرواحهن ووجدانهن. ولو لا أن الإسلام يحرم الانتحار لربما أقدمن عليه. ولكن الدنيا أصبحت لديهن بعد فراقه دار حزن وهجران وغربة.

والحقيقة أن رسول الله ﷺ كان وقوراً ورقيقاً مع جميع النساء، وكان يوصي الجميع باتباع هذا السلوك، وكان يطبق عملياً مع نسائه ما يوصيه للناس. وكمثال على هذا يورد البخاري الحادثة التالية عن محمد بن سعد عن أبيه سعد بن أبي وقّاص قال: استأذن عمر بن الخطاب ﷺ على رسول الله ﷺ وعنده نسوة من قريش يسألنه ويستكثرنه، عالية أصواتهن على صوته، فلما استأذن عمر تبادرن الحجاب فأذن له النبي ﷺ فدخل والنبي ﷺ يضحك فقال: أضحك الله سِنَّكَ يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ فقال: «عَجِبْتُ من هؤلاء اللاتي كن عندي لما سمعن صوتك تبادرن الحجاب.» فقال: أنت أحق أن يهبن يا رسول الله. ثم أقبل عليهن فقال: يا عدوات أنفسهن أتهبنني ولم تهبن

---

(١) النسائي، عشرة النساء، ٢؛ أبو داود، النكاح، ٣٧، ٣٨؛ الترمذي، النكاح، ٤٢؛ «الطبقات الكبرى» لابن سعد ٢٣١/٢

رسول الله ﷺ؟ فقلن: إنك أفظُّ وأغلظ من رسول الله ﷺ.[١]

والحقيقة أن عمر ﷺ لم يكن يتصرف بخشونة أو بفظاظة، إذ كان هين الطبع مع النساء، إلا أنه كما أن أجمل الناس إن قيس بيوسف ﷺ يبدو قبيحاً فكذلك كان لين عمر ﷺ عندما يقارن مع لين وحلم الرسول ﷺ يبدو خشونة وفظاظة... أي أن هذا الحكم كان نسبيا، إذ لا يمكن مقارنة أحد برسول الله ﷺ. أجل، لقد تعودن على ظرف ورقة وحلم الرسول ﷺ، ومن ثم كانت تبدو لهن تصرفات عمر ﷺ خشنة، هذا علما بأن عمر ﷺ كان من المؤهلين لحمل عبء خلافة رسول الله ﷺ في المستقبل، وعندما أصبح فعلاً خليفة أعطى أفضل النماذج بعد نماذج الأنبياء عليهم السلام، إذ كان من خلقه وطبعه البحث عن الحق وعن العدالة، وأن يكون سيفاً قاطعاً يفرق بين الحق والباطل. كانت لعمر ﷺ طبيعة خاصة أهلته لتسلم منصب الخلافة، وهذه الطبيعة قد تبدو للبعض قاسية بعض الشيء. ولكن هذا الخلق أو هذا الطبع هو الذي ساعده على حمل أعباء الخلافة بكل نجاح.

ج- استشارته مع نسائه

كان الرسول ﷺ يجلس ويتحدث مع نسائه، وأحياناً يتذاكر معهن بعض المسائل. ولم يكن في الحقيقة في حاجة إلى آرائهن لأنه كان مؤيداً بالوحي، ولكنه كان يريد أن يعلم أمته أمراً، وهو رفع مكانة المرأة؛ وذلك خلافاً لما كانت عليه سابقاً، وبدأ هذا عملياً في بيته.

بدا صلح الحديبية قاسياً جداً للمسلمين إلى درجة أنه لم يبق هناك عند أحد منهم قدرة على النهوض من مكانه. في هذه الأثناء أمر رسول الله ﷺ من نوى العمرة القيام بذبح ذبيحته والخروج من الإحرام. غير أن الصحابة تباطؤا في هذا على أمل أن يكون هناك

(١) البخاري، الأدب، ٦٨؛ مسلم، فضائل الصحابة، ٢٢

تغيير لهذا القرار.. كرر النبي ﷺ الأمر ثانية، غير أن الصحابة بقوا على الأمل نفسه.. لم يكن هذا معارضة للرسول ﷺ. ولكنهم كانوا ينتظرون ويأملون في أمر آخر. إذ أنهم خرجوا من المدينة على أمل الطواف حول الكعبة. وما قيل في الحُديبية كان من الممكن –حسب اعتقادهم– أن يتعرض لبعض التبديل والتغيير قبل وضع الاتفاقية موضع التنفيذ.

عندما شاهد النبي ﷺ هذا الأمر لدى الصحابة دخل خيمنه واستشار زوجته أم سلمة التي كانت امرأة ذات فطنة واسعة. وأبدت أم سلمة رأيها لإعطاء المشورة حقها وهي تعلم أن الرسول ﷺ ليس بحاجة إلى ما تقول، وإنما كان الرسول ﷺ يريد أن يعلم أمته درساً اجتماعياً بمشورته هذه مع إحدى نسائه. قالت أم سلمة: "يا نبي الله! أتحب ذلك. أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدْنك وتدعو حالقك فيحلقك." كان هذا هو ما يفكر به الرسول ﷺ، لذا أخذ سكّينة وخرج فنحر بدنه وحلق شعره. فلما رأى الصحابة ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتي كاد بعضهم يقتل بعضاً غما.[1] فقد علموا أخيراً أن القرار نهائي ولا رجعة فيه.

وأنا أريد أن أسألكم: أيكم بلنفت مثل هذه الالتفاتة الكريمة لزوجته؟ كم رئيس دولة استشار زوجته في الأمور الخطيرة لبلده؟ كم رب عائلة بضع في منهجه في إدارة البيت التشاور مع زوجته؟ ونستطيع أن نكثر من هذه الأسئلة ونوجهها إلى كل وحدة من وحدات المجتمع.. فليسمع هذا كل أصحاب الأصوات المنكرة التي تدعي بأن الإسلام يقوم بأسر المرأة، وأنا أتساءل: أي نصير من أنصار المرأة استطاع الارتفاع إلى هذا المستوى؟

ومثل أي أمرٍ خيرٍ آخَر فإن الشورى والمشورة طُبِّقت في بادئ الأمر في بيت رسول الله ﷺ، إذ كان يستشير زوجاته، ولم نَصلْ نحن بعدُ إلى مستوى هذا الأمر ولا نعرف كيف نفتح مغاليق هذا الباب السري؛ بل لم نصل بعد إلى الطَّرْق على هذا الباب. أجل،

(١) البخاري، الشروط، ١٥

فلا تزال المرأة -حتى لدي الذين يدّعون الدفاع عن حقوقها- إنساناً من الدرجة الثانية؛ بينما نحن ننظر إليها باعتبارها نصف الوحدة الواحدة. فهي النصف الذي لا ينفع النصف الآخر بدونه، ومن اجتماع النصفين يتم تشكل الوحدة الإنسانية الواحدة. وعند غياب هذه الوحدة الواحدة لا يمكن الحديث عن وجود أي شيء .. لا الإنسانية ولا الأنبياء ولا الأصفياء ولا الإسلام ولا الأمة.

وكان الرسول ﷺ يتصرف بلطف مع النساء فإنه بأحاديثه كان يشجع مثل هذا التصرف. يقول في أحد أحاديثه: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وخياركم لنسائهم خياركم خُلقاً.»[1] وهكذا يظهر أن قضية المرأة إن حققت ما تصبو إليه في تاريخ الإنسانية فقد حققته في العهد النبوي.

د- حادثة التخيير

وهي حادثة تخيير رسول الله ﷺ نساءه في العيش أو عدم العيش معه. ومهما كان مبدأ هذه الحادثة فإنها كانت أمراً من الله تعالى لرسوله. فالآية الكريمة التي نزلت في هذا الخصوص تقول: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أُمتِّعكن وأُسرِّحكن سراحاً جميلاً ۞ وإن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعَدّ للمحسنات منكن أجراً عظيماً﴾ (الأحزاب: ٢٨-٢٩).

فقد طالبت نساءُ النبي ﷺ زيادة نفقاتهن، إذ دارت بخلدهن: ألا نستطيع نحن -مثل سائر المسلمين- العيش بقليل من الرفاهية، مثل تناول طبق من الحساء كل يوم؟ ألا يمكن أن تكون ملابسنا أفضل قليلا؟ ولما كانت هذه المطالب مشروعة وضمن دائرة الحلال فقد بدت لهن مطالب طبيعية وبريئة، ولكن فاتهن أنهن في بيت سيبقى حتى يوم القيامة

---

(١) الترمذي، الرضاع، ١١؛ أبو داود، السنة، ١٥؛ الدارمي، الرقاق، ٧٤

أنموذجاً للبيوت الإسلامية، وأنهن يمثلن مركز وقلب هذا الأمر، لذا فلا يمكن أن يتصرفن مثل سائر نساء المسلمين، ذلك لأنهن من المقربات، وحسنات الآخرين تعد سيئات بالنسبة إليهن.

ما إن أحس الرسول ﷺ هذا حتى اتخذ منهن موقفاً محدداً.. اعتزلهن وحلف ألا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن واعتكف في مشربة البيت. وانتشر الخبر بسرعة، وعم الحزن الجميع، وسارع الكثيرون إلى المسجد وهم يبكون، ذلك لأن المسلمين كانوا يبكون لأقل حزن يصيب رسول الله ﷺ.. هكذا كان التحام المسلمين معه. وكان أقل كدر يحدث له في بيته سرعان ما يسمعون به فيحزنون ويغتمون ويبدأون بانتظار زوال ذلك الأمر بفروغ صبر.. وكان هذا هو ما حدث في ذلك اليوم. ويطلق اسم حادثة "الإيلاء" أيضاً على هذا التصرف من رسول الله ﷺ. وهناك من ينظر إلى هذه الحادثة من زاوية أخرى. وكان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما في إطار هذه الحادثة، لأن بنت كل منهما كانتا ضمن زوجات النبي ﷺ. لذا، فما أن سمعا بالنبأ حتى أسرعا إلى المسجد مثل غيرهما.

طلبا الإذن للدخول على رسول الله ﷺ فلم يؤذن لهما، فبدءا ينتظران في المسجد مثل غيرهما من المسلمين. وفي الطلب الثالث أذن لهما وبدأ كل منهما يجأ عنق بنته ورسول الله ﷺ يقول: «هن حولي كما ترى يسألنني النفقة.»[1] هذا علماً أن القرآن يقول لهن: ﴿يا نساء النبي لستن كأحد من النساء﴾ (الأحزاب: ٣٢).

فقد ينجو الآخرون بأداء الفرائض فقط، ولكن من كانت في بؤرة هذا الأمر، وضمن حرمه ﷺ ممن يعرفن أسرار الكثير من الأمور يجب أن يضحين بكيانهن في هذا السبيل لكي لا يظهر أي ضعف في المركز. أجل، إن كون إحداهن زوجة للرسول ﷺ له جوانب إيجابية ولكن له مسؤوليات ثقيلة أيضاً. وكان الرسول ﷺ يهيئهن لكي يكن قدوات حسنات ولكي لا يصيبهن الخسران ولا ينطبق عليهن الآية الكريمة ﴿أذهبتم

---

(١) «المسند» للإمام أحمد ٣٢٨/٣

طيباتكم في حياتكم الدنيا﴾ (الأحقاف: ٢٠). فكان يريد صيانتهن وحفظهن من هذا المنزلق. لذا، فقد كانت المعيشة في بيت الرسول ﷺ يسودها الضيق من بعض الوجوه. وبسبب هذا الضيق ترتفع أحياناً بعض الطلبات بشكل ضمني أو صريح. غير أن أوضاعهن لم تكن مثل الآخرين فهناك أوضاع خاصة كانت تجلب معها بعض المسؤوليات.. فما كان بمقدور إحداهن أن تضحك مثل الآخرين ولا أن تأكل مثل الآخرين. هذا علماً بأن بعض كبار الزهاد لم يضحكوا في حياتهم إلا مرة أو مرتين ولم يشبعوا مرة واحدة طوال حياتهم.

يقول أحد أصحاب الفُضيل بن عِياض: صحبت الفُضيل بن عِياض ثلاثين سنة ما رأيته ضاحكاً ولا مبتسماً إلا يوم مات ابنه علي. فقلت له في ذلك فقال: "إن الله عز وجل أحب أمراً فأحببت ما أحب الله."[1]

فإذا كان هذا هو الوضع بالنسبة لعظماء الدين، من الطبيعي أن يكون وضع الزوجات الطاهرات لسيد الرسل ولأعظم العظماء شيئاً مختلفاً عن المعتاد.

ليس من السهل ولا من الميسور أبداً الوصول إلى درجة وإلى مرتبة اللياقة لمصاحبة الرسول ﷺ في الدنيا وفي الآخرة. لذا، دخلت هؤلاء النسوة المتميزات –حسب إشارة القرآن– إلى امتحان للإرادة وللعزم. فقد خيرهن الرسول ﷺ بين العيش معه في البيت في فقر وفي ضيق وبين زينة الدنيا وملاذّها. فلو اخترن الدنيا لمتعهن الرسول ﷺ ثم سرحهن سراحاً جميلاً. وإن اخترن الله ورسوله فعليهن الرضا بمستوى عيشهن، ذلك لأن هذا كان خاصية وصفة العيش في ذلك البيت. ولما كان هذا البيت بيتاً متميزا وبيتاً فريدا، لذا كان من الطبيعي أن يكون ساكنوه متميزين ومتفردين.. كان رئيس العائلة متميزاً بالطبع فاستوجب أن تتبعه الزوجات والأولاد.

كان أول من فاتح رسول الله ﷺ هي أمنا عائشة رضي الله عنها في الأمر إذ قال لها: «يا عائشة!

---

(١) «حلية الأولياء» لأبي نعيم ١٠٠/٨

إني ذاكر لك أمراً فلا عليك أن لا تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك» ثم تلا عليها ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً ۞ وإن كُنتنَّ تُرِدْنَ الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً﴾ (الأحزاب. ٢٨-٢٩). فقالت عائشة ﵂: "أوَ في هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة." وتقول أمنا عائشة ﵂: ثم فعل أزواج رسول الله ﷺ مثل ما فعلتُ.[1]

لقد كان جواب أزواج رسول الله ﷺ الجواب نفسه، ذلك لأنهن امتزجن وتوحدن مع الرسول ﷺ. فما كان باستطاعتهن قول شيء آخر. ولو قال لهن الرسول ﷺ بأن عليهن أن يصمن طوال حياتهن ولا يفطرن قط لما ترددن في قبول أمره ولنفذن طلبه بكل شوق وفرح وتحملن ذلك عن طيب خاطر.. وقد تحملن كل المصاعب حتى أواخر حياتهن ولم يفطرن من ذلك الصوم الطويل حتى ارتشاف شراب الموت.

كانت من زوجاته من عشن حياة القصور أيضاً، وكانت صفية ﵂ منهن، فقد فقدت أباها وزوجها في معركة "خيبر" وكانا من سادة خيبر، وأسرت صفية وصعب عليها كثيراً أن تكون ضمن الأسرى، ولا شك أن الرسول ﷺ كان أكره شخص لديها في الدنيا حتى رؤيتها له. ولكن ما أن رأته حتى تغيرت مشاعرها وعواطفها نحوه.[2]

أجل، لقد كانت في بيت الرسول ﷺ زوجات مثل صفية تحملن العيش في بيت لا يستطعن فيه إشباع بطونهن مع أنهن قضين حياتهن في السابق في نعيم القصور، وشاركن غيرهن من الزوجات في نمط هذا العيش، إذ دخل رسول الله ﷺ بخلقه الفذ إلى قلوبهن إلى درجة أنهن فضّلن العيش معه مع كل أنواع الفقر والحرمان. بل أصبح استمرار العيش معه غاية حياتهن وهدفها.

---

(١) البخاري، المظالم، ٢٤؛ مسلم، الطلاق، ٢٢، ٣٥

(٢) «الطبقات الكبرى» لابن سعد ١٠٨/٢

كانت صفية أم المؤمنين رضي الله عنها يهودية النشأة، وفي أحد الأيام خاطبتها زوجتان من زوجات الرسول ﷺ وهما تعيّرانها بأنها كانت يهودية: "يا بنت اليهودي" فاشتكت صفية ذلك إلى رسول الله ﷺ، فطيّب رسول الله ﷺ خاطرها قائلاً لها: «ألا قلتِ فكيف تكونان خيراً مني وزوجي محمد وأبي هارون وعمي موسى؟.»[1] وعندها خرجت صفية رضي الله عنها من عند رسول الله ﷺ راضية النفس قريرة العين، ذلك لأن زوجها هو محمد ﷺ. ومن يدري كم من مرة تمتمت من بين شفتيها بهذه الكلمات.

وخلاصة القول أن الرسول ﷺ أكثر وأكمل من رئيس عائلة مثالي. فإدارته لهؤلاء الزوجات بكل هذه السهولة واليسر وكونه محبوباً من قبلهن كلهن غاية الحب يشير إلى هذا.. فقد كان حبيب قلوبهن ومعلم عقولهن ومربي أرواحهن، وعندما كان يقوم بهذا لم يكن يفرط قيد شعرة بوظيفته تجاه الدولة وتجاه الأمة، وهذا دليل ساطع على نبوته، ولو لم يكن هناك دليل آخر لكانت رئاسته العائلية والخط الذي سار عليه دليلاً كافياً على ذلك.

---

(١) الترمذي، المناقب، ٦٣

الفصل الثاني: صفة الأبوة لدى النبي ﷺ

كان النبي ﷺ ذروة في كل وحدة من وحدات الحياة وفي كل أمر فيها. وعندما يريد أي إنسان البحث عنه يجب ألا يبحثوا عنه في مستواهم ولا في مستوى عظماء عصره، بل عليهم أن يبحثوا عنه في أعلى الذرى وأن يطيروا بخيالهم فوق هذه الذرى لكي لا يخطئ فيقصروا في فهم عظمته وقدره. أجل، من أراد البحث عنه، عليه أن يبحث عنه في أفقه. وليس بين مستويات الأشخاص العاديين من أمثالنا، ذلك لأن الله تعالى وهبه قابليات كبيرة في كل ساحة.

عاش فخر الإنسانية مثل شمس ساطعة ثم غرب، فلم تر الإنسانية مثيلاً له من قبل ولن تراه من بعد. وكما لم تر الإنسانية هذا، كذلك لم يره معاصروه والقريبون منه. وربما لم يدرك الكثيرون آنذاك غروبه إلا بالوحشة التي أحسوها في قلوبهم بعده، كمثل الزهرة المتعلقة حياتها بضوء الشمس لا تحس بغروب الشمس إلا بعد إحساسها بالذبول جراء انقطاع ضوء الشمس عنها.. أحسوا بالوحشة ولكن الأمر كان قد فات وانقضى.. ومن الطبيعي أن من يفهمونه ويعرفونه في أمته يزداد يوماً بعد يوم. وعلى الرغم من مرور ١٤ قرناً فلا نزال نقول "أمُّنا" لخديجة، ولعائشة ولأم سلمة ولحفصة رضي الله عنهن جميعاً ونحس بلذة وبهجة من هذا القول أكثر من لذتنا عندما نخاطب أمهاتنا. ولا شك أن الشعور بهذه اللذة وبهذه البهجة كان أعمق في ذلك العهد وأكثر حرارة وإخلاصاً، وذلك من أجله ﷺ. لذا، نرى أبا بكر رضي الله عنه يخاطب ابنته عائشة قائلا لها: "يا أمي" لأن الآية الكريمة تقول ﴿وأزواجه أمهاتهم﴾ (الأحزاب: ٦). نعم، لقد كان أبو بكر رضي الله عنه يقول لبنته التي رباها في حجره "يا أمي".

ولكن كل هذا الحب وهذا التقدير الذي أحاط بهن لم يكن يجدي في إزالة حزنهن وألمهن من فراقه ﷺ. ولم تستطع الأيام الحلوة التي أتت بعد أيام الفتوحات في أن تقلل

هذا الحزن العميق في قلوبهن.. بل استمر هذا الحزن حتى غروب حياة كل واحدة منهن. وكما كان زوجاً مثالياً لزوجاته، فقد كان أبا مثالياً أيضا.. وعلى المقياس نفسه كان جداً مثالياً لا يوجد له نظير أو شبيه.

كان يعامل أولاده وأحفاده بحنان كبير، ولم يكن ينسى وهو يعطي كل هذا الحنان أن يوجه أنظارهم إلى الآخرة وإلى معالي الأمور. كان يضمهم لصدره ويبتسم لهم ويداعبهم، ولكنه في الوقت نفسه لم يكن يغض طرفه عن أي إهمال لهم حول شؤون الآخرة، وكان في هذا الأمر واضحاً جداً وصريحاً جدا، ووقوراً ومهيباً وجادا فيما يتعلق بصيانة العلاقة بينه وبين خالقه. فمن جهة كان يعطي الحرية لهم ويرشدهم إلى طرق العيش بشكل يليق بالإنسان، ومن جهة أخرى كان لا يسمح بانفلات الانضباط أو سلوك طريق اللامبالاة. ويبذل كل جهوده وبكل دقة لمنع إصابتهم بأي تعفن خلقي، ويهيئهم لعوالم علوية وللحياة الأخروية. وفي أثناء هذه التربية كان الرسول ﷺ يحذر من الوقوع في الإفراط أو التفريط، بل يختار الطريق الوسط ويمتثل الصراط المستقيم. وكان هذا بُعداً آخر من أبعاد فطنته.

أ- شـفـقـتـه على أولاده وأحـفاده

يروى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه الذي خدم رسول الله ﷺ عشر سنين ما يأتي "ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ "[1] أجل، كان يتصرف بشفقة ورحمة وعن عاطفة حقيقية نابعة من صميم قلبه بحيث لم يكن بوسع أحد أن يكون مثيلاً له لا في مجال رئاسته للعائلة ولا في مجال أبوته.

ولو كان هذا كلاماً صادراً منا فقط لكان من الممكن بقاء أهميته محدودة. إلا أن

---

(١) مسلم، الفضائل، ٦٣؛ «المسند» للإمام أحمد ١١٢/٣

الملايين من أمته التي تعمقت الرحمة والشفقة في قلبها إلى درجة التورع عن إيذاء نملة.. هذه الملايين كلها تعلن وتعترف بأنه لم يكن هناك مثيل له ﷺ في احتضانه الوجود كله بشفقته ورحمته. صحيح أنه خلق بشراً من البشر. ولكن الله تعالى ألهمه ووضع في قلبه عاطفة الاهتمام بالوجود كله لكي يوطد علاقته مع الناس أجمعين. ولهذا كان رسول الله ﷺ مشحوناً بعاطفة قوية وباهتمام كبير تجاه أفراد بيته وتجاه الناس الأخرين.

وتوفي أولاده الذكور في حياته.[1] وقد ولدت له أمنا مارية ﷺ ولداً ذكراً فتوفي كذلك، وكان هذا آخرهم. وكان رسول الله ﷺ يجد وقتاً من بين مشاغله الكثيرة والمهمة فيذهب إلى مرضعة ابنه ويحتضن ابنه ويقبله ويداعبه ويشمه ويظهر له علامات حبه له.[2] وعندما توفي ابنه احتضنه أيضاً وقد ملأت الدموع عينيه. ثم قال وهو ينظر إلى المستغربين لحزنه: «إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون.» وفي حديث آخر: «إن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب ولكن يعذب بهذا» وأشار إلى لسانه.[3]

ولنكرر مرة أخرى فنقول إنه كان أرحم الناس وأكثرهم شفقة وحناناً. كان الحسن والحسين ﷺ يركبان على ظهره ويطوف بهما.. هل تتصورون شخصاً في هذا المستوى يأخذ حفيده على ظهره ويكون لهما فرساً أمام الآخرين..؟ أما هو فكان يفعل هذا وكأنه كان يريد إظهار وإعلام الموقع الممتاز الذي سيناله كل من الحسن والحسين ﷺ. وفي أحد الأيام وبينما كان الحسن والحسين ﷺ على ظهره دخل عليه عمر بن الخطاب ﷺ فقال لهما: نِعْمَ الفرس تحتكما. فقال الرسول ﷺ: «نعم الفارسان هما.»[4]

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير ٣٢٨/٥

(٢) مسلم، الفضائل، ٦٣؛ «مجمع الزوائد» للهيثمي ١٦١/٩

(٣) البخاري، الجنائز، ٤٤، ٤٥؛ مسلم، الفضائل، ٦٢، ٦٣، الجنائز، ١٢؛ ابن ماجة، الجنائز، ٥٣؛ «المسند» للإمام أحمد ١٩٣/٣؛ أبو داود، الجنائز، ٢٤

(٤) «مجمع الزوائد» للهيثمي ١٨٢/٩

يجوز أن الحسن والحسين رضي الله عنهما فهما ما قاله أو لم يفهما، ولكنه كان يمدحهما هكذا. وفي إحدى المرات عندما قال أحدهما للحسن رضي الله عنه وهـو على عـاتق النبي ﷺ: يا غلام! نعم المركب ركبت. فقال رسول الله ﷺ: «ونعم الراكب هو.»[١]

أجل، لقد كان يظهر عناية واهتماماً خاصين بهذين الإمـامين من أهل البيت الحسن والحسين رضي الله عنهما اللذين لهمـا الشرف والعزة والكرامة في كونهما أباً لجميع الأولياء الذين سيظهرون حتي يوم القيامة. لذا، كان يحملهما على كتفه من حين لآخر، ولا شك أن لجميع أهل البيت ولجميع الأولياء نصيب من هذا الاهتمام. وعن جابر قال: دخلت على النبي ﷺ وهـو يمشي على أربعة وعلى ظهره الحسن والحسين رضي الله عنهما وهو يقول: «نعم الجمل جملكما ونعم العدلان أنتما.»[٢] لقد كانت هذه هي منزلة أولاده وأحفاده عنده، فدخل حبه إلى قلوبهم وأصبح مظهراً وموضعا لحب يتجاوز علاقة الأبناء والأحفاد.

وكما كان في جميع الأمور فقد سلك رسول الله ﷺ الطريق الوسط في موضوع تربية الأطفال. فقد كان يحب أولاده وأحفاده حباً جماً. ويُشعِر هذا الحب لهم، ولكنه لم يكن يسمح بأي استخدام سيء لهذا الحب. هذا علماً بأنه لم يكن يوجد بين أولاده وأحفاده من يحاول هذا أصـلاً. غير أنه عندما يقومون بتصرف خاطئ من دون عمد نرى مِن تصرّف رسول الله ﷺ وكأن ضباباً من الوقار لف هذا الحب العميق. وبسلوك ملئه الدفء يسعى لمنعهم من التجول في مناطق الشبهات. فمثلاً مد الحسن رضي الله عنه وهو طفل صغير يده إلى تمر صدقة، فأسرع رسول الله ﷺ وانتزع تلك التمرة من فيه قائلاً له: «أما علمتَ أن الصدقة لا تحل لآل محمد.»[٣] فقد رباهم منذ الصغر على التوقي من الحرام وإبداء منتهى الحساسية في هذا الموضوع، وهذا من أفضل الأمثلة على إقامة التـوازن التربوي منذ الصغر. وفي كل مرة كان يدخل فيها المدينة كنت تراه وقد ركب معه على

---

(١) «كنز العمال» للهندي ٦٥٠/١٣

(٢) «مجمع الزوائد» للهيثمي ١٨٢/٩

(٣) البخاري، الزكاة، ٥٧؛ مسلم، الزكاة، ١٦١؛ «المسند» للإمام أحمد ٢٧٩/٢

مركبه بعض الصبيان ملتفين حوله.[١] فلم يقصر رسول الله ﷺ حبه على أولاده وعلى أحفاده فحسب، بل على أولاد وصبيان جيرانه وغير حيرانه أيضاً.

لم يكن أولاده الذكور وأحفاده هم الداخلين فقط ضمن دائرة حبه وحنانه، فقد كان يحب حفيدته أُمامة مثلما يحب حفيده الحسن أو الحسين ﷺ فكثيراً ما شوهد وهو يخرج من البيت وعلى كتفه أُمامة. وكان يحملها أحياناً على ظهره وهو في صلاة النافلة فإذا ركع وضعها على الأرض وإذا قام رفعها.[٢] كان رسول الله ﷺ يظهر حبه لأُمامة في مجتمع كان الناس فيه حتى عهد قريب يئدون البنات. لذا، كان هذا التصرف منه تصرفاً جديداً غير مسبوق من قبل أحد آنذاك.

ب- حبه وحنانه تجاه فاطمة رضي الله عنها

ليس في الإسلام تفاضل بين الذكر والأنثى، وهذا هو ما أظهره الرسول ﷺ بنفسه. ففاطمة هذه كانت بنته وأم أهل البيت حتى يوم القيامة وهي والدتنا. كانت فاطمة عندما تقبل على رسول الله ﷺ وتزوره يقوم لها ويأخذ بيدها ويجلسها بجانبه ويسأل عنها وعن أحوالها ويظهر حبه لها، وعندما تقوم يقوم معها ويودعها بكل لطف.[٣]

رغب علي بن أبي طالب رضي الله عنه مرة الزواج من بنت أبي جهل. صحيح أن هذه المرأة كانت قد دخلت الإسلام مثل أخيها عكرمة فالتحقت بقافلة النور. ولكن هذا الزواج كان من الممكن أن يضايق فاطمة رضي الله عنها. ويجوز أن علياً رضي الله عنه لم يخطر على باله قط أن فاطمة يمكن أن تستاء من مثل هذا الزواج. ولكن عندما أتت فاطمة إلى رسول الله ﷺ تخبره بالأمر وتظهر حزنها حتى همه أمرها وصعد المنبر وقال: «إن بني هشام بن المغيرة

---

(١) انظر: «حياة الصحابة» للكاندهلوي ٢/٦٨٨-٦٨٩

(٢) البخاري، الأدب، ١٨؛ مسلم، المساجد، ٤١-٤٣

(٣) مسلم، فضائل الصحابة، ٩٨؛ البخاري، المناقب، ٢٥؛ «مجمع الزوائد» للهيثمي ٩/٢٠٣

استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم عليّ بن أبي طالب. فلا آذن لهم ثم لا آذن لهم ثم لا آذن لهم. إلا أن يحب ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم. فإنما ابنتي بضعة مني يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها.»[1] وكان علي رضي الله عنه من بين المستمعين فتراجع عن نيته تلك وعاد إلى فاطمة رضي الله عنها.[2]

ولا شك أن عليا رضي الله عنه كان يعز بنت رسول الله ﷺ معزة كبيرة، وكانت فاطمة رضي الله عنها تعرف هذا جيداً لذا، كانت تحبه أكثر من نفسها. والحقيقة أن هذه المرأة الرقيقة كانت تبدو وكأن وظيفتها في الحياة هي أن تكون بذرة لكل الأولياء والأصفياء. فكان جل اهتمامها منصباً على والدها وعلى دعوته. وعندما أخبرها والدها –وهو في أواخر أيام حياته– بأنه سيتوفى سبحت في بحر من الدموع. ولكن عندما أخبرها بأنها ستكون أول من يلتحق به غمرها الفرح والحبور.[3]

أجل، لقد كان والدها يحبها كثيراً وكانت بدورها تبادله الحب العميق. ولكن رسول الله ﷺ كان عندما يحبها يعرف كيف يحفظ التوازن ويعدها لكي يوصلها إلى العالم الذي يجب أن ترتفع الأرواح وتسمو إليه، ذلك لأن الرفقة الأبدية لا تكون إلا هناك. ولم يترافق رسول الله ﷺ وابنته في الحياة سوى خمسة وعشرون عاماً. إذ توفيت فاطمة رضي الله عنها بعد ستة أشهر فقط من وفاة والدها وكان عمرها آنذاك خمسة وعشرون سنة فقط.[4]

---

(١) البخاري، فضائل أصحاب النبي، ١٦؛ مسلم، فضائل الصحابة، ٩٣

(٢) البخاري، فضائل أصحاب النبي، ١٦؛ مسلم، فضائل الصحابة، ٩٣

(٣) مسلم، فضائل الصحابة، ٩٨، ٩٩؛ البخاري، المناقب، ٢٥

(٤) البخاري، فرض الخمس، ١؛ مسلم، الجهاد، ٥٢؛ «مجمع الزوائد» للهيثمي ٢١١/٩؛ «الطبقات الكبرى» لابن سعد ٢٩/٨؛ «الإصابة» لابن حجر ٣٧٩/٤

ج- تهيئة أولاده للحياة الأبدية

كان رسول الله ﷺ يطلب الحياة الأبدية. أي يطلب ما تطلبه الفطرة التي أودعها الله في الناس جميعاً... أجل، إن الإنسان للخلود. وليس في الإمكان إشباع هذا الإنسان إلا بالحياة الخالدة وبصاحب هذه الحياة الخالدة... لذا، لا يطلب شيئاً غيره. وسواء أشعر بذلك أم لم يشعر فإنه لا يطلب غيره ولا يرغب في سواه. ومهما أعطيت هذا الإنسان فلن تستطيع إشباعه إلا عندما تعطيه الحياة الخالدة... ذلك لأن للإنسان آمالاً لا نهاية لها ورغبات لا تحد ولا تحصى، لذا فلن تستطيع إشباع هذا الإنسان مهما أعطيته. وهذا هو السبب في أن أساس رسالات جميع الأنبياء والمرسلين قائم على هذا النظام ذي البعد الأخروي. وعلى هذا الاعتبار فإن رسول الله ﷺ بينما كان يحمل لهم باقات السكينة والطمأنينة فإنه لم يكن ليهمل أبداً تهيئتهم للسعادة الأبدية والطمأنينة الأبدية. ويمكن رؤية هذا بكل وضوح في الحادثة التالية:

جاءت فاطمة رضي الله عنها إلى رسول الله ﷺ وفي عنقها سلسلة من ذهب فقال لها: «يا فاطمة! أيغُرُّكِ أن يقول الناس ابنة رسول الله وفي يدها سلسلة من نار.» ثم خرج ولم يقعد. أجل، فمن جهة كان يعزها، ومن جهة أخرى كان يعدها للحياة الأخروية الخالدة ويوجهها نحو الله وتكملة الحادثة هي: فأرسلت فاطمة بالسلسلة إلى السوق فباعتها واشترت بثمنها غلاماً فأعتقته، فحُدِّث بذلك فقال: «الحمد لله الذي أنجى فاطمة من النار.»[1]

لا شك أن قيام فاطمة بالتزين بسلسلة من الذهب لا يُعد حراما، ولكن رسول الله ﷺ كان يريد أن يحفظها في دائرة المقربين، وتنبيه الرسول ﷺ لها يعود إلى هذا الأساس، وهو أساس التقوى والقرب من الله. وهو من جهة عدم الاهتمام بزينة الدنيا وشواغلها. ولكن

---

(١) النسائي، الزينة، ٣٩؛ «المسند» للإمام أحمد ٢٧٨/٥

الأهم هنا وجوب كونها أنموذجا وقدوة لائقة بأم أهل البيت وإظهار الحساسية الشديدة في هذا الخصوص. أجل، فليس من الهين أبداً أن تكون أما للحسن وللحسين ﵄ وللعابدين المشهورين من بعد أمثال "زين العابدين" الذين كانوا منارة هدى للناس. فرسول الله ﷺ كان يعدها لكي تكون أما لأهل البيت أولا ثم أما لقمم سامقة أمثال الشيخ الكيلاني ومحمد بهاء الدين النقشبندي وأحمد الرفاعي والشاذلي وغيرهم، فكأنه كان يقول لها: "يا بُنيتي! أنت ذاهبة لكي تكوني عروسة في بيت ستخرج منه سلسلة ذهبية من النسل المبارك، فدعي أنت هذه السلسلة الذهبية وكوني أُماً لهذه السلسلة الذهبية من النسل".. السلسلة الذهبية لرجال الطرق السامية أمثال الطرق النقشبندية والرفاعية والشاذلية وغيرها.

أجل، ليس من السهل أبداً أن تكون أماً للأولياء وللأصفياء وللأبرار وللمقربين. لذا، فقد كان رسول الله ﷺ أكثر حساسية في هذا الخصوص تجاه بيته وأكثر حزماً. فبتصرفه هذا كان –بجانب رأفته بهم وحنانه عليهم– يريد أن يوجه أنظارهم إلى عالم الآخرة، ويسد أمامهم جميع أبواب ونوافذ الشر أو الإثم أو السوء مهما صغر لكي يقصروا هممهم على الآخرة ولسان حاله يقول لهم: يجب أن يكون الله غايتكم. إذ سيظهر من أمته من يقول بقول الشاعر:

"هذه الجنة التي يذكرونها
قصور عدة.. وبضعة حوريات
أعطها لمن يريدونها
أما أنا فأنت مُنايَ.. أنت"

ويقضون أعمارهم كلها تحت ألوان وفي ظلال هذه الحياة الأخروية. لذا، كان الرسول ﷺ يعد كل من يحبه –نتيجة طبيعية لهذا الحب– من قاذورات الدنيا ويطهرهم منها، ويحوّل نظرهم واهتمامهم إلى العوالم العلوية ويهيئهم لرفقته هناك لأن «المرء مع من أحب.»[1]

(١) البخاري، الأدب، ٩٦؛ مسلم، البر، ١٦٥

فإذا كنت تحب محمداً ﷺ فستسلك طريقه، وإذا سلكت طريقه كنت معه في الآخرة. وهكذا فالرسول ﷺ بجانب حبه لهم كان يهيئهم لرفقته هناك. أجل، هناك حب، وهناك رأفة ولكن لا محل لأي تراخ في أي أمر من أمور الآخرة... وهذا هو الصراط المستقيم... الصراط الوسط أفضل وأعدل طريق... طريق على رأسه رسول الله ﷺ.

وجانب آخر من جوانب نظام تربيته يعرضه علينا الإمام البخاري ومسلم ﷺ وذلك رواية عن علي بن أبي طالب ﷺ أن فاطمة ﷺ شكت ما تلقى من أثر الرحى فأتى النبيَّ ﷺ سَبْيٌ فانطلقت فلم تجده، فوجدت عائشةَ فأخبرتها فلما جاء النبي ﷺ أخبرته عائشة بمجيئ فاطمة فجاء النبي ﷺ إلينا وقد أخذنا مضاجعنا فذهبتُ لأقوم فقال: «على مكانكما» فقعد بيننا حتي وجدتُ برد قدميه على صدري وقال: «ألا أُعلِّمكما خيراً مما سألتماني: إذا أخذتما مضاجعكما تُكَبِّرا أربعاً وثلاثين وتُسَبِّحا ثلاثاً وثلاثين وتحمدا ثلاثاً وثلاثين فهو خير لكما من خادم.»[1]

أي أنني أوجه نظركِ إلى العالم الأخروي، فلكي تصلي وتكوني معي في ذلك العالم أمامك طريقان: الأول هو عدم التقصير في أداء وظيفة العبودية تجاه ربك. والثاني القيام بإيفاء وظيفتك تجاه زوجك، فلو قام الخادم بإيفاء بعض الخدمات لزوجك من الخدمات التي كان من المفروض عليك أداؤها فذلك يعني أن هناك نقصا ما عندك. علما بأن عليك أن تكوني ذات جناحين. لذا، عليك أن تفتشي عما يجعل الإنسان عبداً كاملاً لله، وكيف يكون إنساناً كاملاً يؤدي كل وظائفه دون قصور.

كوني أولاً أمة[2] كاملة لله وأدي كل وظائف العبودية تجاهه، ثم كوني إنسانة كاملة بإيفائك جميع وظائفك تجاه زوجك عليّ الذي يحمل في صلبه كل المقربين من أهل الله حتى يوم القيامة.. اعملي هذا لكي تكوني في الجنة التي هي مكان كل الأخيار والكاملين.

---

(١) البخاري، فضائل أصحاب النبي، ٩؛ مسلم، الذكر، ٨٠، ٨١؛ أبو داود، الأدب، ١٠٠

(٢) أمة: عبدة. (المترجم)

ولا أملك نفسي هنا من الاستطراد وذكر شيء يخص علياً ﷺ، فقد زوجه رسول الله ﷺ ابنته دون تردد ذلك لأنه رأى فيه اللياقة لكي يكون زوجاً لفاطمة وصهراً له، لأنه كان سلطان الأولياء وخلق لكي يكون أبا للأولياء، ويروى في حديث ضعيف قول الرسول ﷺ لعلي: «إن الله عزّ وجلّ جعل ذرية كل نبي في صلبه وإن الله تعالى جعل ذريتي في صلب علي بن أبي طالب ﷺ.»[1]

أي ستقوم أنت بإدامة نسلي، وفي النتيجة فإن الذين يقطفون الثمرات سيذكرونك ضمن آل البيت عندما يذكرونني، لذا فإن نظرنا من هذه الزاوية يكون من أطاع علياً ﷺ قد أطاع الرسول ﷺ، ومن أطاع الرسول ﷺ فإنه يكون قد أطاع الله. ثم إن الرسول ﷺ يذكر بشكل عام عن حق الزوج فيقول: «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن لما جعل الله لهم عليهن من الحق.»[2]

ولو كان مثل هذا الشيء جائزاً لكان علي ﷺ أول من يستحقه، ولو قامت فاطمة ﷺ باستخدام خادمة لكان معنى ذلك انكسار جناح من جناحيها، وبجناح واحدة ما كان بمقدورها أن تكون جديرة لأن تكون أما للحسن والحسين ﷺ وللشيخ الكيلاني وللأقطاب المجددين والمجتهدين الذين سيظهرون حتى يوم القيامة. لذا، كان لا بد من قطع كل اهتمام لها بالدنيا وتوجيه كل نظرها إلى الآخرة.. وفي الحقيقة فإن الله تعالى فعل الشيء نفسه بالنسبة لرسول ﷺ ورباه على هذا النحو، إذ مات والده قبل أن يأتي ﷺ إلى الدنيا، وعندما فتح بصره على العالم لم يجد أباً يستند إليه ويستمد المعونة منه. وعندما بلغ السادسة من عمره فقد السند الآخر له، وفتح أمامه منذ بداية حياته الطرق المؤدية إلى نور التوحيد وإلى سر الأحدية. صحيح أن هناك فترة حماية عبد المطلب له، إلا

---

(١) «مجمع الزوائد» للهيثمي ١٧٢/٩؛ «فيض القدير» للمناوي ٢٢٣/٢؛ «تاريخ بغداد» للبغدادي ٣١٧/١

(٢) أبو داود، النكاح، ٤١؛ الدارمي، الصلاة، ١٥٩

أن هذه لم تكن سوى ستار العزة والعظمة الإلهية[١] من جهة وشرف للحامي، ولكن هذه الحماية لم تكن تعني من ناحية الأسباب شيئاً يذكر. لأن الحماية الظاهرية لأبي طالب -فيما بعد- لم تكن تتجاوز حماية الشخص لابن أخيه والوصاية عليه.. أما البعد الأخروي فهو نعمة كون أبي طالب أباً لعلي ﷺ.. وبسبب هذه القرابة سيأتي يوم يقوم فيه النبي ﷺ بكفالة علي ﷺ وتربيته ويسمو به حتى يجعل منه الفارس الكرار والحيدر المغوار وسلطان الأولياء.[٢] هكذا تعامل الله تعالى معه، إذ سحب جميع الأسباب لكي يوجهه إليه وحده ولكي يظهر عنده سر الآية الكريمة ﴿ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير﴾ (الممتحنة: ٤)، فعليه أن يثق بالله ويعتمد عليه.

كانت فاطمة ﷺ ابنته، لذا كان عليه أن ينقل لابنته التربية التي تلقاها من الحق تعالى وأن يوجه نظرها إلى الله وحده وإلى الحياة الأخروية.

د- الجو العام للتربية في بيته الكريم

كان الطابع العام الذي يسري في جو بيته الكريم هو التقوى والخشية، فهذا الجو كان يسري في كل حركة وسكنة فيه. فمن استطاع مشاهدة نظرات رسول الله ﷺ رأى فيها غبطة الوصول إلى الجنة وخشية الوقوع في النار. ومن رآه في صلاته رآه يرتجف أحياناً إلى الأمام وأحياناً إلى الخلف مهتزا من خشية الله أو متولهاً بالشوق إليه.. كانت هذه المناظر المشاهدة من حياة هذا البيت؛ فمن رآه تذكر الله تعالى. ينقل النسائي الحديث التالي عن مُطَرِّف عن أبيه قال: "أتيت النبي وهو يصلي ولجوفه أزِيز كأزيز المِرْجَل"، يعني يبكي.[٣]

---

(١) يريد المؤلف أن يقول إن الله تعالى لا يظهر ظهوراً واضحاً في الحوادث، بل يجعل بينه وبين هذه الحوادث ستاراً وهو ستار الأسباب. (المترجم)

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام ٢٦٢/١

(٣) النسائي، السهو، ١٨؛ أبو داود، الصلاة، ١٠٧؛ «المسند» للإمام أحمد ٢٥/٤-٢٦

كان دائم البكاء في الصلاة متجهاً بأعماق قلبه إلى الله. وكم من مرة افتقدته أمنا عائشة رضي الله عنها فوجدته وهو ساجد يسبح الله تعالى في خشوع.[1] ومن البديهي أن حاله هذه كانت تؤثر على أهل بيته تأثيراً إيجابياً وقوياً من الناحية التربوية. فقد سرى هذا الخشوع والتقوى والخوف من الله إلى نسائه وأولاده، ذلك لأن رسول الله ﷺ كان يعيش ما يقوله ويقول ما يعيشه. وليس هناك أحد استطاع أن يؤثر بسلوكه المطابق لفكره مثلما أثر الرسول ﷺ في بيته. ولو جمع كل علماء النفس وعلماء التربية كل معلوماتهم من جميع النظم التربوية واستخدموها بأجمعها في تعبئة عامة لما استطاعوا أن يقتربوا في تأثيرهم إلى مستوى التأثير الذي أحدثه الرسول ﷺ في بيته.

أجل، لقد كان الرسول ﷺ يعبر بتصرفاته وسلوكه عما يريد أن يبلغه للناس ثم يترجم تصرفاته وسلوكه إلى الناس ويبلغها ويفهمها لهم... يريهم كيف تكون الخشية من الله وكيف تؤدى السجدة بكل خشوع وخضوع وكيف يكون الركوع. وكيف يكون الجلوس للتحيات وكيف يبتهل إلى الله في ظلمة الليل... كان رسول الله ﷺ يفعل هذا في بيته وعندما يكون بين أصحابه يرشدهم كيف يتصرفون وكيف يربون أطفالهم وكيف يكونون مرآة للحق وللحقيقة في كل أمر. فتجد أقواله صدى حسناً في بيته وبين أصحابه وتدخل إلى قلوبهم وتتشربها نفوسهم.

لقد كان قبل كل شيء أبا وجداً لا نظير ولا مثيل له.. وقد يبدو لنا هذا أمراً بسيطاً من الناحية الاجتماعية، إلا أنه في الحقيقة من أصعب العقبات التي يجب على الإنسان تخطيها، وكان رسول الله ﷺ في الصف الأول من الذين تخطوها بسهولة وبنجاح، فأصبح أفضل أب وأفضل جد. ثم إنه ربى أولاداً وأحفاداً جاء من صلبهم معظم رجال السلسلة الذهبية في التأريخ الإسلامي من الذين كانوا شموساً وأقماراً ونجوماً هادية. وهذه إحدى المزايا التي اختص بها رسول الله ﷺ، وتفرد بها بنعمة من الله وفضل منه، ولم

(١) مسلم، الصلاة، ٢٢١؛ النسائي، عِشْرَة النساء، ٤

يظهر من نسله مرتد واحد، وهذه مزية أخرى. علماً بأن عدد أفراد نسله يبلغ الملايين.

كم من رجال كبار من أهل الحقيقة نراهم فقراء من ناحية الأولاد الذين تربوا عندهم. إذ نرى أولادهم وأحفادهم وقد طغوا وضلوا سبيلهم وانحرفوا ووقعوا في مصائد الشيطان. ومن الممكن مشاهدة أمثلة كثيرة من هذا النوع حتى في أيامنا الحالية، بينما لم يقم أولاد الرسول ﷺ ولا أحفاده بخيانة المعنى والمثل والهدى الذي انبثق من البيت الذي نشأوا فيه. بل بقوا أوفياء لهذا البيت المبارك وللمعنى الذي مثله.[1] أجل، إن هذا الأمر دليل آخر من دلائل نبوته ﷺ، إذ مهما كان الإنسان ذكياً وعبقرياً فليس باستطاعته أن يكون مربياً بهذا المستوى الرفيع.

---

(١) إن ظهور بعض الأفراد الفاقدي التوازن من الذين استغلوا هذا النسب لا يجرح القاعدة العامة.

الفصل الثالث: تربية الرسول ﷺ للناس وأسلوب تربيته

قبل أن ننتقل إلى الإطار العام لأسلوب تربية الرسول ﷺ لنلق نظرة سريعة على تفسير هذه الآية، ذلك لأنه من المستحيل علينا معرفة الذروة التي وصل إليها الرسول ﷺ في التربية دون أن نعلم مستوى الناس الذين قام بمخاطبتهم والتعامل معهم وتربيتهم ﴿هو الذي بَعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ (الجمعة: ٢).

إن بعض الكلمات الواردة هنا تجذب الانتباه، إذ تبدأ الآية بضمير الغائب "هو"، ذلك لأن الناس آنذاك لم يكونوا يعرفون الله. فقد كانوا جاهلين وبدواً ومتخلفين، فلم يكن الله متجلياً في قلوبهم؛ فالآية تشير إلى بعدهم عن الله إلى درجة أنها لا تخاطبهم مباشرة بل تستعمل ضمير الشخص الثالث، وضمير الغائب "هو" ثم تقول الآية عنهم إنهم "أميّون".. أميون لا يعرفون ما الكتاب وما العلم، ولا يعرفون الله ولا رسوله... إلى مثل هذه الجماعة الأمية الصعبة المراس التي لا يرجى منها خير أرسل شخصاً ذا إرادة صلبة وروح عالية وقلب واسع وعميق؛ فاستطاع أن يربي من هذه الأمة البدوية رجالاً ساسوا الإنسانية وقادوها. ومع أن الله تعالى يعطي أهمية إلى القلم وإلى الكتاب والقراءة فقد كانوا بعيدين عنها جميعاً فأرسل الله "منهم" رسولاً، أي رسولاً من هؤلاء. وكون الرسول ﷺ "منهم" هو من جانب كونه لا يعرف القراءة والكتابة، ولا يعني أنه كان جاهلياً مثلهم، والحقيقة أن الرسول ﷺ كان يجب أن يكون أمياً، ذلك لأن الله تعالى سيكون معلمه ومربيه اختاره من بينهم وأرسله معلماً لتلك الأمة الأمية.

"يتلو عليهم آياته" أي يتلو عليهم آيات الله البينات آية بعد آية ويشرحها لهم ويربيهم عليها ويعلو بهم إلى سماء الكمالات الإنسانية. "وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين" أي مع أنهم كانوا قبل مجيء رسول الله ﷺ في ضلال وفي جهالة وانحراف، فإن الله تعالى

أرسل إليهم من يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة.. كل هذا بوساطة نبي أمي. والمراد هنا من تعليم الكتاب هو القرآن. وكما استطاع القرآن أن يحتضن جماعة وأمة ويرفعها إلى مستوى إنساني رفيع فإنه يستطيع إنجاز الشيء نفسه للأجيال القادمة. أما الأفكار الموجودة حاليا والتي يقدمونها كأفكار جديدة وجذابة، فمصيرها إلى الانطفاء واحدة بعد أخرى مثل شموع تعرضت للريح، إذ سيكون الكتاب الوحيد الذي يقول للشموس في بلد النور "أنا الشمس التي لا تغرب." وستكون رايته هي الراية الوحيدة الخفاقة، وستحطم جميع الأجيال قيود الأسر عن أعناقها لتسرع إليه وحده، وقد بدت الدلائل على هذا منذ الآن.. فهذه هي روسيا.. وهذه هي الصين.. فلو سمعت ما يجري فيهما الآن وقبل عشر سنوات لما صدقت ما تسمعه الآن وحسبته خيالاً وأوهاماً... ولكن انظر الآن كيف تتحطم الدكتاتوريات المرعبة، وكيف تتهدم الإمبراطوريات السابقة وتهوي إلى الأرض جذاذاً واحدة إثر أخرى، وكيف يظهر القرآن وكأنه جذوة متقدة من تحت الرماد، وكيف ينبعث عالم التوحيد انبعاثاً جديداً. وبالرغم من كل هذا الظلم والاستبداد والتسلط يسري الروح الإسلامي إلى أرجاء المعمورة روحا يانعاً نضراً يتسلل إلى القلوب وتنبهر به الأنظار.

والمعنى الآخر لها هو قيام النبي ﷺ بفضل هذا الكتاب المنير الذي علمه الله تعالى بتربية نفوسهم والسمو بها إلى المعالي، والسمو بالإنسان إلى المرتبة اللائقة بالإنسان، أي إرشاده إلى الطرق المؤدية إلى مرتبة الإنسان الكامل. فكما صعد وارتفع في المعراج فعليه أن يرتفع بهم روحيا وأن يحقق لهم معراجاً معنويا وروحيا في أعماق قلوبهم، حتى ولو كانت هذه الأمة في ضلال بين وفي انحراف كبير عن الحق، فالله تعالى إن شاء جعل من الفحم ماساً ومن التراب ذهباً وتبراً.. بل فعل ذلك فأخرج من هذه الأمة التي كانت قلوبهم سوداء كالفحم أمة بقلوب من ماس إلى درجة أن ذلك النسل الذهبي الذي رباهم الرسول ﷺ لا يزالون يبهرون الأنظار.. هذا هو الفضل الإلهي الذي تم بوساطة النبي ﷺ. لذا، يمكن القول بأن الرسول ﷺ هو الإنسان الذروة الذي استطاع أن يعلو بالبشرية إلى المستوى اللائق بالإنسان.

وبعده فإن أي إنسان عندما كان يقترب من الله تعالى بجناح الولاية أو البر والتقوى كان يرى في أماكن القرب منه تعالى ألوية محمد ﷺ وهي تتموج هناك، وما خطا أحدهم خطوة في مدارج الرقي إلا رأى آثار أقدامه ﷺ.

من الخطأ أن نظن أن تربية رسول الله ﷺ اقتصرت على تزكية النفوس، إذ أنه أتى بنظام شامل للتربية يخاطب العقل والروح والقلب. والحقائق القرآنية الشاملة تفعل الشيء نفسه. فالرسول ﷺ يخاطب العقل ويحضه ويشوقه، ويصل بهذا العقل ذي البعد الوحيي إلى الحد النهائي للعقول. ثم يتناول الروح ليسمو به إلى مراتب أعلى بكثير من المراتب التي يستطيع أن يصل إليها أي متخصص في التربية، ويأخذ بالقلب إلى العوالم التي يشتاق إليها ويهفو.. ثم يتناول مشاعر الإنسان ولطائفه الأخرى ليرتفع بها أيضاً إلى عوالم يتعثر فيها الخيال.. وبعد أن ارتفع بأرواح وعقول وقلوب تلاميذه وطلابه فتح أمامهم أبواب المؤسسات العلمية والاقتصادية والاجتماعية والإدارية والعسكرية والسياسية، لأنه أتى برسالة تستطيع أن تربي فتحصل على أفضل رجال الإدارة والاقتصاد والسياسة، وعلى أكمل القواد العسكريين... أجل، لقد جاء رسول الله ﷺ برسالة شاملة فيها الاقتصاد والمال والإدارة والتعليم والتربية وفيها أحكام العدل والقوانين الدولية... الخ. والخلاصة أنه أتى برسالة تحتضن كل ضرورات التقدم، ذلك لأنه لو كان هناك أي نقص في أي ناحية من نواحي رسالته لما تحققت الغاية من إرساله، بينما يقول النبي ﷺ في حديث له:

«إن مَثَلي ومَثَل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وُضعت هذه اللبنة! قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين.»[1]

يقول القرآن الكريم في هذا الصدد: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ (المائدة: ٣). أي أن جميع الأنبياء والأصفياء والأولياء كانوا يقولون: متى يتم هذا البنيان؟ فأنا أرسلتك نبياً

---

(١) البخاري، المناقب، ١٨؛ مسلم، الفضائل، ٢٠-٢٣؛ «المسند» للإمام أحمد ٢/٢٥٧، ٣٩٨

كاملاً لتكملة هذا البنيان، وكما رضيت لكم هذا الدين فقد أقمته على الأسس التي يرضى الناس عنها.

أجل، لقد جاء النبي ﷺ لتكملة النواقص، والذين يحاولون البحث والتفتيش عن نقص في رسالته، عليهم أولاً أن يبحثوا عن الثغرات الموجودة في عقولهم وفي قلوبهم.. لقد قام النبي ﷺ بمهمة التتمة والتكملة وبمهمة الإصلاح والبلوغ إلى الكمال... كان عليه تعديل كل عوج. وإصلاح كل نقص، وتكملة كل قصور.. وقد أنجز هذا وأتمه. نستطيع أن نشاهد عظمة أي شخص مرب في المسائل الآتية:

أ- السموّ بالروح والنفس والعقل

الأول هو السمو بروح الإنسان ونفسه وعقله، والبلوغ بها إلى أعلى نقطة يمكن الوصول إليها. والتأريخ يشهد أن الرسول ﷺ استطاع أن يحقق هذا في طلابه وفي المنتسبين إليه بعون من الله تعالى..

يأتي ذكر النفس الأمّارة في القرآن الكريم... هذه النفس التي تضع العراقيل والعثرات أمام سمو الإنسان وتحاول الضغط عليه للحيلولة دون هذا السمو. فبدلاً من إنسان حقيقي مشتاق إلى عالم الروح، تجعله إنساناً يهتم بمتطلبات جسده فقط. وقد التجأ سيدنا يوسف عليه السلام إلى الله تعالى من هذه النفس ﴿إن النفس لأمّارة بالسوء إلا ما رحم ربي﴾ (يوسف: ٥٣). إن النفس بطبيعتها أمّارة بالسوء، إلا أنه من الممكن التخلص من الوقوع في بئرها العميق عمق بحيرة لوط، والارتفاع مرحلة فمرحلة إلى أعلى وإلى الذروة، والقرآن يشير إلى أوضاع النفس هذه إذ يقول: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ۞ إرجعي إلى ربك راضية مَرضيّة﴾ (الفجر: ٢٧-٢٨).

كما يشير القرآن إلى حالة تتحول فيها النفس من النفس الأمّارة بالسوء إلى "النفس

اللوّامة"، أي النفس التي تحاسب نفسها. ولأنه يعد هذه النفس مرتبة معينة، فإنه يقسم بها و﴿لا أقسم بالنفس اللوّامة﴾ (القيامة: ٢)

ثم هناك "النفس الصافية" وهي صفة النفس لدى المقربين، وأصحاب هذه الصفة تتجلى فيهم الشفافية والنقاء والصفاء إلى درجة أن الذين يشاهدونهم يتذكرون الله تعالى. وكانت نفس محمد ﷺ من هذا النوع. كما استطاع تحويل العديد من أصحاب القابليات وأصحاب الكفاءات إلى هذه المرتبة بدرجات مختلفة كل حسب قابليته واستعداده. لقد استطاع الرسول ﷺ -بعون الله- بالتربية المستمرة للنفس وتزكيتها إيصالها إلى أعلى هدف تستطيع النفس الإنسانية بلوغه. وهذا يبرهن على أنه كان مربياً لا مثيل ولا نظير له. وعندما نتفحص عهده نرى أنه لم يدع أي ثغرة تربوية في موضوع السمو بالعقل والنفس والارتفاع بهما إلى الذروة.

ب- كون دعوته عالمية

والثاني هو أن نجاح المربي وكماله يقاس بمدى عالمية وشمول دعوته وبالأبعاد الكمية والنوعية لمنتسبيه، فقد قام المعلمون والمرشدون الذين رباهم في حياته بنشر الحق في مناطق واسعة شاسعة ما بين مَراكَش ونهر أمودَريا القريب من بخارى، وتأملوا كيف أن المربي الوحيد في تلك المساحة الشاسعة من البلدان آنذاك لم يكن سوى النبي ﷺ، وكان النظام الذي أتى به نظاماً شافياً ووافياً لمشاكل مختلف الأقوام والجماعات التي كانت تموج بها هذه المنطقة الشاسعة.

فكل من الإيراني والتركي والصيني.. الخ على اختلاف أمزجتهم ومشاربهم وثقافاتهم كانوا يهرعون إليه ويتقبلونه هو وكل ما أتى به. إذن، فإن نظم التربية التي جاء بها نظم عالمية تصلح دواء للبشرية كلها. إذن، فإن محمداً ﷺ كان أكثر المربين تأثيراً في طول التاريخ وعرضه وأكثرهم مصداقية. ثم إننا نبحث عن مدى عظمة المربين في

مدى بقاء وثبات أسس النظم التربوية التي يأتون بها، والآن انظروا إلى الناس الذين يتربون على أسس النظم التربوية التي جاء بها محمد ﷺ قبل كل هذه القرون، فسترون أن الملائكة تغبط معظم هؤلاء في أخلاقهم. وإن نظم تربيته لا تزال تربي الأجيال حتى الآن.

والآن لنفكر ولنتأمل: لقد ظهر النبي ﷺ في أمة بدوية متخلفة بل متوحشة وبدائية، ولكنه استطاع أن يربي من هذه الأمة طوال عصور وعصور قادة أطهاراً قادوا الإنسانية إلى الخير. إذن، فإن الرسالة التي جاء بها كانت رسالة كافية لإنقاذ البشرية بنفحة واحدة منها. وأنا شخصيا لا أحب تصوير الباطل، ولكني لا أملك نفسي من عرض بعض المناظر التي تبين مدى فساد المجتمع في العهد الذي ظهر فيه الرسول ﷺ.

لقد ظهر في مجتمع تغلغلت فيه الوحشية إلى نفوس أفراده وأصبحت طبيعة فيهم: كانوا يشربون الخمر ويلعبون القمار ويقترفون الزنا علنا، ولم يكونوا يعدون هذه الفواحش شيئاً معيباً. انتشر الزنا حتى أصبح علنيا، فقد خصصوا بيوتاً للدعارة ونصبوا أمامها الأعلام..[1] كانت الفواحش منتشرة بشكل يجعل الإنسان يخجل من إنسانيته... ولو لا الحياء لذكرت أموراً أخرى. ثم إن هؤلاء القوم كانوا من النوع الذي لا يتورعون عن إثارة المشاكل الكبيرة والمنازعات الخطيرة لأسباب تافهة، وكان من المستحيل تقريباً جمعهم على صعيد واحد ومزجهم بعضهم مع بعض وتأليف قلوبهم، فقد سادت الفرقة والشحناء في أرجاء شبه الجزيرة العربية إلى درجة بدت أنها غير قابلة للعلاج.. أجل، فما من سوء إلا وجدته هناك. ولم يكن من الممكن أبداً لمثل هذا القوم الاستماع إلى النبي ﷺ، ولكنه استطاع أن يسل هذه العادات السيئة منهم واحدة بعد واحدة، ثم زينهم بمزايا وأخلاق عالية بحيث سبقوا الأمم كلها وأصبحوا لها أساتذة ومعلمين.

من هذه الأمة البدوية المتوحشة أنشأ أمة مدنية لا تستطيع الأمم المدنية حتى في عصرنا الحالي بلوغ كعبها، لذا يقول "موليير (Molière)" بحقٍّ "يستحيل أن توجد جماعة أخرى

---

(١) البخاري، النكاح، ٣٦؛ أبو داود، الطلاق، ٣٣

مستعصية على العلاج مثل جماعة نبي الإسلام. والاستحالة الثانية هي القيام بإصلاح مثل هذه الجماعة في وقت قصير جداً لا يتجاوز ٢٣ عاماً ورفعها إلى مصاف الإنسانية، ولم يتيسر هذا إلا لمحمد ﷺ "

ويقول مفكر غربي آخر: "لقد استطاعت البشرية أن تقطع ٢٥٪ من التقدم المقدر لها من يوم ميلادها وحتى عهد محمد ﷺ، أما في عهده فقد ازدادت هذه النسبة بشكل عمودي وأصبحت ٥٠٪ وعلى الرغم من كل الجهود المبذولة منذ عهده حتى الآن فإن النسبة ارتفعت إلى ٧٥٪ فقط."

ومعنى هذا الاعتراف المخلص أن الثمار الناتجة من جهود جميع الأنبياء والفلاسفة وكبار رجال العلم والدولة والسياسة وصل إلى مثلها الرسول ﷺ في مدى ثلاثة وعشرين عاماً فقط، وأنه رغم جميع التقدم التقني والعلمي الحاصل منذ أربعة عشر قرناً فإن البشرية لم تستطع سوى إنجاز نفس النسبة التي استطاع الرسول ﷺ من إنجازها في حياته وهي نسبة ٢٥٪، أما نسبة ٢٥٪ الباقية فستحصل عليها البشرية فيما بعد ضمن عمرها الباقي... هذا هو محمد ﷺ، وهذه هي خدماته للبشرية التي تنعكس في القلوب والضمائر الحية. وتقول "الموسوعة البريطانية" في هذا الخصوص: "لقد جاء مصلحون كثيرون في تأريخ البشرية كان من بينهم أنبياء استطاعوا إنجاز بعض النجاح، غير أننا لا نشاهد عند أي أحد منهم النجاح الذي سجله محمد."

ويقول الباحث "وهل (Wahl)" وهو من المنصفين: "لقد ترك كل رجل عظيم أثراً وراءه. أثر للنبي، وأثر للمصلح وأثر للمجدد وأثر لرجل الدولة العظيم. وقد ترك محمد ﷺ أيضاً أثراً بعده. وهذا الأثر عظيم إلى درجة أننا إن ذكرنا "الأثر" تبادر إلى الذهن أثره هو وحده، وهو أثر عظيم إلى درجة لا يمكن مقارنته مع الآخرين." وهذا الباحث رجلُ علمٍ أيضاً وقد حصل على جوائز علمية، إذن، فالصديق يعترف، والعدو يعترف أيضاً ولا أدري ماذا يقول بعض الجهلاء عندنا.

يعرفنا الله تعالى نفسه إلينا فيقول: ﴿يُخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحيّ﴾ (الأنعام: ٩٥). فكأن الله تعالى يسري عن رسوله محمد ﷺ بعرض صفاته المدهشة هذه عليه. فكأنه أعطى لرسوله ﷺ التراب والحجر والمعدن في تلك الصحراء الموحشة وبين البدويين المتخلفين لكي يصنع منهم رجالاً من الذهب الخالص من أمثال.أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وخالد بن الوليد وعُقبة بن نافع وطارق بن زياد ﷺ أجمعين حتى يوم القيامة.

عندما ظهر سيدنا محمد ﷺ بنبوته وبرسالته في ذلك المجتمع وتعرف على معاصريه، كان لمعاصريه هؤلاء استعداداتهم وقابلياتهم القلبية والروحية والعقلية الخاصة بهم، فلم يحاول النبي ﷺ طمس هذه القابليات وإضعافها، بل استغلها وحركها وقواها وجعل منها قوة عظيمة وطاقة كبيرة. ويقدم أحد المفكرين الكبار[1] أنموذج عمر ﷺ قبل الإسلام وعمر بعد الإسلام... فعمر قبل الإسلام شخص جبار مهيب يملك الاستعداد لأن يكون رجلاً عظيماً. وقيامه في مراحل طفولته بالتسابق مع هذا أو ذاك ولوي أعناق الإبل وصرعها قد يكون إشارة إلى بذرة نفسه.. أما عمر بعد الإسلام فهو الإنسان الرقيق الحساس الذي يحذر من أن تطأ قدمه نملة، وكان إحساسه المرهف وشفقته إلى درجة جعلته يقول: "والله لو مات جمل ضياعاً على شط الفرات لخشيت أن يسألني الله عنه."[2] وهكذا بلغ عمر وأمثاله إلى مستوى فوق مستوى البشر، وذلك بالتربية التي تلقوها عن الرسول ﷺ...

أجل، فقد استطاع الرسول ﷺ أن يربي أمثال هؤلاء الرجال من بين أولئك البدو المتخلفين الملتزمين بعاداتهم وعنجهياتهم بتعصب لا مثيل له. والآن لنشرح هذا الموضوع بمثال صغير شرحاً مختصراً: تحاول الدولة بكل وسائلها ووسائطها وإمكانياتها مكافحة عادة التدخين —التي تعد عادة بسيطة— فلا تستطيع ذلك، بل لا تستطيع بمجرد خفض نسبة

---

(١) المقصود هو الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي. (المترجم)

(٢) «تاريخ الأمم والملوك» للطبري ١٩٥/٥؛ «حلية الأولياء» لأبي نعيم ٥٣/١؛ «الطبقات الكبرى» لابن سعد ٣٠٥/٣

التدخين -المستمرة في التصاعد- إلى نسبة معقولة. ولا تعجز دولتنا فقط في هذا الموضوع، بل تعجز كل دول العالم، هذا بالرغم من كل المحاضرات وكل المقالات وكل الندوات التي تعقدها لمكافحة هذه العادة. ومع أن العلم وعالم الطب يصرحان بأن التدخين يؤدي إلى الإصابة بسرطان الحنجرة والرئة وسقف الفم، ومع أن الإحصاءات تقول إن نسبة الإصابة بهذه الأمراض نسبة كبيرة قد تبلغ ٩٥٪ إلا أن كل هذه الجهود وهذه المعلومات والإحصاءات لا تفيد في مكافحة عادة التدخين. إلا أن أهل ذلك العهد كانت لهم عشرات العادات الضارة التي تشربتها نفوسهم واختلطت مع دمائهم فأصبحت أقوى بكثير من عادة التدخين، ولكن رسول الله ﷺ استطاع بنفحة واحدة أن يزيل هذه العادات الضارة. وأن يزينهم بدلاً منها بعادات جميلة وبخلق حسن وبخصال حميدة إلى درجة كانت ملائكة السماء تغبطهم عليها وتتعجب فتقول: "عجباً! هؤلاء ليسوا ملائكة.. ولكنهم أفضل منها." وفي يوم الحشر عندما تكاد أنوار هؤلاء تطفئ نار جهنم ستذهل الملائكة وتقول: من هؤلاء؟ أهم من الأنبياء أم من الملائكة..؟[1] إنهم ليسوا بأنبياء ولا ملائكة ولكنهم أفراد من أمة محمد ﷺ نشأوا على تربيته وتربوا على مبادئه.

كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يرعى غنم عُقبة بن أبي مُعيط،[2] فأخذه النبي ﷺ وجعله من أصحابه ومن تلاميذه وجعل منه مرشداً كبيراً بحيث يمكن القول إنه صاحب مدرسة الكوفة.. هذه المدرسة التي خرجت علماء أمثال علقمة وحمّاد والثوري وأبي حنيفة حيث كان كل منهم قمة في ساحة علمه وقد استقوا معظم مصادر علومهم من ابن مسعود رضي الله عنه الذي كان في الجاهلية راعي إبل وغنم... وهكذا جعل رسول الله ﷺ من راعي الغنم مثل هذا الشخص العبقري.

هناك بعض علماء الإسلام الذين أصبحوا موضوعاً للدراسة من قبل علماء الغرب منذ سنوات وكتبت حولهم مجلدات عديدة.. أحد هؤلاء العلماء هو أبو حنيفة رضي الله عنه الذي يعد

---

(١) «مجمع الزوائد» للهيثمي ٣٦٠/١٠

(٢) «المسند» للإمام أحمد ٣٧٩/١؛ «الطبقات الكبرى» لابن سعد ١٥٠/٣

"سولون (Solon)" و"حَمّورابي" في مرتبة تلاميذه حسب رأى أحد المفكرين... بينما يُعد هذا الرجل العظيم أي أبو حنيفة تلميذ تلميذ تلميذ ابن مسعود راعي الغنم وتلميذ رسول الله ﷺ... وأنا لا أريد هنا التهوين من شأن أبي حنيفة حاشا لله ولكني أريد بيان عظمة أستاذهم. أجل، فبفضل تربية الرسول ﷺ وتنشئته ظهر هؤلاء العظام بعد أن لم يكونوا شيئاً يذكر.. فقد تم إخراج الحي من الميت، وجعل الفحم ماساً.

وبفضل التربية نفسها استطاع عبد بربري، أن يعبر برج هرقل وأن يغير اسمه لكي يقول لأهالي بلاد ما وراء البحار ما لم يسمعوه من قبل، ويعرض أمامهم ما عجزت عقولهم عن إدراكه... فأوروبا قبل تعرفها بالإسلام ما كانت لتعرف معنى الرغبة في الشهادة واستحقار الحياة واستصغارها والشوق إلى الموت وإلى الشهادة، لذا فإنها لم تفهم كيف يقوم طارق بن زياد ومعه اثنا عشر ألف مقاتل بحرق سفنه والالتحام في قتال ضارٍ مع (٩٠-١٠٠) ألف من جيش أعدائه الإسبان والاستمرار في القتال حتى في أقسى الأحوال وأكثرها مدعاة للتشاؤم واليأس... لقد ذهلت منه... ذهلت من هذا الشخص الذي يحارب جيشاً يبلغ تقريباً تسعة أضعاف جيشه ويجمع جيشه ليقول لهم:

"أيها الناس! أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر. واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام."

والتأريخ يقول لنا إن القتال لم يستمر سوى عدة ساعات انتصر بعدها جيش طارق انتصاراً كبيراً على أعدائهم.. ولم يلبث طارق إلا وكان في قصر طُلَيطُلة / توليدو (Toledo) حيث توجد فيه خزائن الملك الإسباني.. إذن، فانظر إلى حال هذا القائد الذي كان من قبل عبداً... انظروا إليه لكي تدركوا ما يفعله الإسلام عندما ينفخ معانيه في القلوب وفي النفوس.. لقد وضع طارق قدمه على خزائن الملك قائلاً: "يا طارق! لقد كنت من قبل عبداً، فأعتقك الله وجعلك قائداً، ونصرك ففتحت الأندلس وأنت الآن في قصر الملك، ولكن لا تنسى فغداً ستكون بين يدي الله."

يا سبحان الله..! ما هذا الفهم العميق!! المعتاد هنا أن الشخص الوضيع عندما يصل إلى القمة يحمل معه عقدة النقص فيتظاهر بالكبرياء وبالغرور ويكون دائم الفخر بنفسه ودائم الحديث عنها إلى الناس. هذا ما نراه لدي الذي تسلطوا على رقاب الأمة. ما هذه التربية المذهلة التي جعلت من عبد شخصاً عزيز النفس كريمها، وجعل منه إنساناً يراقب نفسه ويحاسبها بدلاً من الوقوع في خلق الخسة كما كان منتظراً من غيره في مثل هذه المواقف.

ومن الذين نشأوا في ظلال تربيته عُقبة بن نافع الذي فتح إفريقيا من أقصاها إلى أقصاها. وعندما بلغ المحيط الأطلسي خاض بجواده البحر حتى الركبة قائلاً: "يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك."[1] ويتناول الشاعر التركي "عبد الحق حامد" هذا الموضوع في مسرحيته "طارق بن زياد" فيقول: "لا أدري أهذا القول من عُقبة بن نافع أسمى أم قول الملائكة في السماء؟"[2] أجل، هذا هو عُقبة بن نافع... تلميذ من تلاميذ محمد ﷺ.

لقد كان ﷺ يتناول الإنسان من جميع جوانبه العقلية منها والقلبية والروحية والوجدانية دون أن يهمل أو يطمس أي قوة منها، بل نشطها جميعاً وحركها كلها فأخرج من أفسد الناس أفضل الناس. وتسجيله كل هذا النجاح وكل هذا التوفيق في التوجيه وتربيته القابليات وبهذا القدر من الإصابة ومن التفوق دليل آخر من أدلة نبوته، ولا يمكن تقديم أي تفسير آخر في هذا الصدد، لأنه لم يعرف الإحباط أو الفشل أو الإخفاق في هذا الموضوع.

---

(١) «الكامل في التاريخ» لابن الأثير ١٠٦/٤

(٢) «طارق» لعبد الحق حميد طرخان (باللغة التركية)

ج- الحركة والعمل

يقول الرسول ﷺ في حديث له عن العمل والنشاط يحتاج إلى التأمل والتفكير: «إن الله تعالى يحب العبد المؤمن المحترف.»[1] ولم يكن بالإمكان قول غير هذا لأن القرآن الكريم يقول: ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ (التوبة. ١٠٥). أي إن عملكم سوف يقيم حسب مقياس ومعيار معين. وهذه الأعمال بأجمعها سوف تشهر وتعرض يوم القيامة أمام الأنظار حيث يأتي الناس ويشاهدونها ويدققونها: أتُعد هذه أعمالاً أم لا..؟ إذن، فالناس يجب أن يعملوا آخذين هذا بنظر الاعتبار.

ويقول الرسول ﷺ في حديث آخر: «إن الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه.»[2] والآية الكريمة من أهم الآيات التي تحض على العمل، وأنا أعتقد أنها تصلح للكتابة على غلاف كل كتاب. ويشير حديث «إن الله تعالى يحب العبد المؤمن المحترف» إلى أحد أبعاد هذا العمل. أجل، إن الله تعالى يحب العبد الذي يعمل ويكدح ويتعب في الأعمال التي تسمح بها الشريعة. والرسول ﷺ يقول: «ما أكل أحد طعاما قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده.»[3] ويقول أيضا: «لأن يحتطب أحدكم حُزْمَة على ظهره خير من أن يسأل أحدا فيعطيَه أو يمنعَه.»[4]

ونستطيع تناول الموضوع في ظلال سورة العصر: ﴿والعصر ۞ إن الإنسان لفي خسر ۞ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ (العصر: ١-٣).

فالإيمان والعمل الصالح والارتباط بالحق والتواصي بالحق والصبر والتعلق بالصبر

---

(١) «فيض القدير» للمناوي ٢/٢٩٠

(٢) «كنز العمال» للهندي ٣/٩٠٧

(٣) البخاري، البيوع، ١٥؛ ابن ماجة، التجارات، ١

(٤) البخاري، الزكاة، ٥٠، ٥٣، البيوع، ١٥؛ الترمذي، الزكاة، ٣٨؛ النسائي، الزكاة، ٨٥؛ «المسند» للإمام أحمد ١/١٣٤

والتواصي بالصبر... كل هذه أنواع من العمل والحركة، والله تعالى يحب أصحاب هذه الأعمال. فالعمل والنشاط حسب مفهوم النبي ﷺ وضمن دائرته يعد من أفضل الأعمال وأقربها لنيل رضى الله تعالى، فهو لم يقل أبداً كونوا كالرهبان واقضوا حياتكم في الصوامع وتجنبوا الرواج وابتعدوا عن الأكل الطيب وعن الشراب، ولا تهتموا بالدنيا بل انبذوها لكي تحصلوا على رضا الله تعالى وتصلوا إليه.

فقد تناول الشهوة الجنسية ووجهها نحو الجهة المشروعة فقال ﷺ: «تزوجوا الودود الولود.»[1] وفي حديث آخر يقول: «تناكحوا تكثُروا فإني أباهي بكم الأمم.»[2] أي كلما كثرتم فرحت وسعدت بذلك وعندما أنظر إلى خلفي فأرى الجموع الكثيرة وهي تركع وتسجد وتكبر وتهلل بخشوع فإن فرحي يزداد. فلم يحاول الرسول ﷺ تحجيم الغريزة الجنسية أو تحريفها أو حبسها، ولم يسلك أي طريق يؤدي بالإنسان للإصابة بالعقد النفسية في هذا الموضوع. فقد أدار هذه الغريزة وصبها في مسار مشروع ووضع الطرق التي توصل الأمة الإسلامية في هذا الموضوع أيضاً للحصول على رضا الله تعالى، فتربيته هي توجيه الفطرة والطبيعة البشرية نحو الاتجاهات التي تحقق الغاية من الخلق.

د- التجارة والزراعة والجهاد

ليس هناك مثيل له ولا شبيه في موضوع موازنة الأشياء. ففي حديث شريف يقول ﷺ: «إذا تبايعتم بالعِينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذُلاًّ لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم.»[3] والتبايع بالعينة هي قيام شخص بشراء بضاعة من شخص آخر عن طريق الدين ثم بيعه له بسعر أرخص. هذا هو أحد تعاريف هذا البيع وهو يكفي هنا.

---

(١) أبو داود، النكاح، ٤؛ النسائي، النكاح، ١١؛ «المسند» للإمام أحمد ١٥٨/٣، ٢٤٥

(٢) «فيض القدير» للمناوي ٢٦٩/٣

(٣) أبو داود، البيوع، ٥٤؛ «المسند» للإمام أحمد ٨٤/٢

وسواء عدّ هذا البيع صورة من صور الربا المخفي أو شيئاً آخر فإن صاحب الشرع لا يرضى به. وأنا أعتقد بأننا لم نعرف المعنى الحقيقي لهذا الحديث إلا بعد الثورة الصناعية إن كنا قد فهمناه بحق.. كنا قد نسينا الجهاد، وعندما نوينا التوجه للصناعة لم نحسن موازنة الأمور فأهملنا الزراعة وتربية الحيوانات.

علماً بأن الرسول ﷺ كان يخبرنا –وقبل أربعة عشر قرناً– بما يجب علينا فعله. فقد كان متوازناً في هذا الأمر مثلما هو متوازن في جميع الأمور الأخرى. طبعا يجب أن تكون هناك زراعة وتربية الحيوانات. والدليل على هذا وجود أحاديث شريفة تحض على هذا.. ولكننا نخطئ عندما نقصر كل جهودنا في هذين المجالين فقط.

وهذا يشمل من يترك المدينة لكي يقضي حياة هادئة على قمة جبل ويبقى هناك وحده ليستغرق في تأملاته، ويشمل كذلك المزارع ومربي الحيوان الفاقدين للنشاط والحيوية في مهنتهما... إذن، فهذا الحديث الشامل يعلمنا درساً مهماً في الاقتصاد، كما يقول لنا: إنكم إن تركتم الجهاد، أو لم تمتلكوا القوة التي تؤهلكم لأن تأخذوا مكانكم اللائق ضمن التوازن الدولي فإن الله تعالى سيرسل عليكم ذُلاًّ لا يزول بسهولة.. إذ ستبقون تحت الاحتلال وتحت القهر والظلم إلى أن تعودوا إلى الإسلام وتحيون حياة إسلامية.. وهذا المعنى غيض من فيض، فلرسول الله ﷺ أحاديث أخرى عديدة حول هذا الموضوع، ولكننا نكتفي هنا بهذا الحديث. وكما أن الرسول ﷺ لم يحدد القابليات والمهارات والاستعدادات ولم يضيق عليها، فإنه لم ينظر إلى القوة البدنية نظرة تحقير واستهانة، على العكس من هذا فقد قال: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف.»[١]

والذين يريدون أن يكونوا محبوبين من قبل الله تعالى عليهم أن يكونوا أقوياء في أبدانهم وأقوياء في قلوبهم. أي يكونوا أقوياء في الروح بجانب القوة الجسدية. وهكذا يتبين لنا أن

(١) مسلم، القدر، ٣٤؛ ابن ماجة، المقدمة، ١٠

الرسول ﷺ لا يقول لنا: صوموا لكي تضعفوا، واضعفوا بدنيا لكي تحصلوا على رضا الله وقبوله. بل يحارب الرهبانية بقوانين الفطرة الإلهية ويوجهنا إلى هذه القوانين.

هـ- ملاحظة حول العلم

إن ما أتى به النبي ﷺ لساحة العلم وما أكسبه للعلم وللحياة الفكرية يعد من مظاهر رسالته العالمية الشاملة. يهتم القرآن بالعلم ويحض الناس جميعاً لاكتسابه فيقول: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ (الزمر: ٩). فيجعل للذين يعلمون مرتبة أسمى من الذين لا يعلمون. ويقول في آية أخرى: ﴿إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ﴾ (فاطر: ٢٨).

فالعلماء الذين هم أقرب إلى معرفة عظمة الله تعالى هم الذين يخشونه حق الخشية. وهناك قراءة شاذة تسند إلى أبي حنيفة يقرأ فيها لفظ الجلالة مرفوعاً ويكون المعنى آنذاك: "إن الله يحترم من عباده العلماء فقط" ولا شك أن هذا الاحترام هو بشكل يناسب الذات الإلهية المنزهة. ولكن القراءة كما قلنا قراءة شاذة[1] ولكنها من ناحية معناها جديرة بالوقوف عندها أيضاً.

عندما يقوم فخر الدين الرازي بتحليل موضوع متعلق بالعلم ينتبه إلى نكتة لطيفة جداً فيقول: "إن المذاهب الثلاثة خارج المذهب المالكي تعد الكلب نجساً عيناً"، أي أن الكلب نجس بأجمعه فلا يصح وجوده في البيوت، ولكن إن كان الكلب "كلباً معلَّماً"، أي تم تعليمه وتدريبه على الصيد أو على حراسة الغنم عند ذلك يتغير الوضع. حيث يصح أكل الصيد الذي يمسكه بفمه ويأتي به، وتعد الأماكن التي يتجول فيها ويتمسح بها أماكن نظيفة، ولا يكون هناك بأس من وجوده في البيوت."

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي ١٤/٢٢٠؛ «روح المعاني» للآلوسي ٢٢/١٩١؛ «تفسير النسفي» للنسفي ٣/٣٤٠؛ «الكشاف» للزمخشري ٣/٣٠٨

هنا يقف الإمام فخر الدين الرازي هُنيهة ليقول: "إذا كان الكلب يتخلص من نجاسته نتيجة لتعلمه الصيد بل يصبح كأحد أفراد العائلة فما بالك بالإنسان العالم وإلى أي ذروة يستطيع هذا الإنسان العالم أن يبلغ؟"

هذه هي وجهة نظر الشريعة..وهذه هي الرسالة التي أتى بها محمد ﷺ. فالذين لا يعرفون الله جهلاء والذين يعرفون الله وينقادون له علماء. وحسب منطق الشريعة لا تطلق كلمة "العلماء" على الذين لا يعرفون الله ورسوله. أما الذين يعرفون الله تعالى ورسوله فهم "علماء" وإن كان نصيبهم من العلوم قليلاً. فإذا أعتبرنا أن كلمة "يخشى" في القراءة الشاذة تأتي بمعنى "يحترم" إذن، فالله تعالى بالمعنى اللائق بذاته وبصفاته يحترم من يؤمن بالله وبأنبيائه وكتبه واليوم الآخر وبالحشر والنشر وبالجنة وبجهنم.

وسأكتفي هنا في موضوع الفكر بالحديث النبوي الشريف: «تفكر ساعة خير من عبادة سنة.»[1] لم ير الغرب شيئاً مثل هذا ولم يصل إلى هذه المرحلة بعد.. إن قمتم بالتفكر وبالتأمل المنظم ساعة واستطعتم التوصل إلى شيء تستطيعون تقديمه لخير الإنسانية، أو لو قمتم بالتفكر والتأمل باسم حياتكم الروحية والقلبية ولصالح حياتكم الأخروية وحياتكم الأبدية بشكل صحيح ومشروع فإن مثل هذا التأمل والتفكير قد يكون خيراً لك من عبادة سنة، وقد يكون ثوابه أكثر.

لقد ابتعدنا منذ سنوات طويلة عن التأمل والتفكير المنظم وكذلك عن العبادة ذات الأبعاد العميقة.. ابتعدنا أو أُبعِدنا.. ولا يرجع هذا العيب إلى الإسلام، بل إلى المسلمين. فقد فتح رسول الله ﷺ أبواب ونوافذ التفكير على مصاريعها قائلاً لنا: ﴿أدخلوها بسلام آمنين﴾ (الحجر: ٤٦).

وكلما أصبحنا غرباء عن العلم زادت سطحيتنا، وعجزنا عن صيانة مواقفنا في التوازن الدولي أمام الغرب فأصبحت الكلمة كلمتهم وأصبحنا نتلقى الأوامر منهم.

---

(١) «كشف الخفاء» للعجلوني ٣١٠/١

ولكني مؤمن بأن هذه الأمة الأصيلة ستنهض يوماً وتشغل المكان اللائق بها بين الأمم.

أجل، لقد جاء رسول الله ﷺ برسالة خلقية وتربوية، ولكنه نجح في تربيته هذه للإنسان حسب استعدادات وقابليات كل فرد ولم يحرف هذه القابليات أو يقف أمامها بل أخذ الإنسان كما هو، مما جذب إليه الناس آنذاك وأصبحت طريقته التربوية هذه قوة دافعة لهم لأنها لم تقف أمام الفطرة الإنسانية ولم تحاربها ولم تناقضها. فكل تعليم من تعاليمه كان عاملاً دافعاً. هذا علماً بأنه كان يطبق طريقته التربوية في مجتمع لا يعرف أي شيء تقريباً من الأخلاق أو التربية أو السلوك السليم. وفي الأمثلة التي سأقدمها يظهر لنا بوضوح من أين أخذهم الرسول ﷺ وإلى أين أوصلهم في النهاية.

الفصل الرابع: أمثلة من نظام تربيته وتعليمه ﷺ

أ- موقفه من الأعرابي الذي بال في المسجد

ينقل البخاري ومسلم الحادثة التالية عن أنس بن مالك ﷺ:

بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد فقال أصحاب رسول الله ﷺ مَهْ مَهْ. قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُزرموه [1] دعوه.» فتركوه حتى بال. ثم أن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر. إنما هي لذكر الله عز وجل والصلاة وقراءة القرآن» فأمر الرسول ﷺ رجلاً من القوم فجاء بدلو من ماء فشنّه[2] عليه.[3]

أجل، لقد كان معظمهم في البداية في مثل هذا المستوى من البداوة والتخلف بحيث لا يرون بأساً من البول في المسجد... من هؤلاء البدو شكل وكون ذلك المجتمع المثالي العظيم.. ومن يدري كم من عظيم أتى من صلب هذا البدوي!

ب- القيمة التي أعطاها للمرأة

انطوت الجاهلية في صفحات الماضي، ولم يعد أحد يذكرها إلا بابتسامة مرة أو بابتسامة هازئة.. أجل، فعندما كانوا يتذكرون عهد الجاهلية كانت المرارة ترتسم على الشفاه وعلى الوجوه. ففي يوم جاء أعرابي من البادية إلى مسجد رسول الله ﷺ وتحدث مع رسول الله ﷺ فكان مما قاله:

---

(١) لا تُزرموه: معناه لا تقطعوا. والإزرام القطع. (المترجم)

(٢) فشنه: أي فصبه. (المترجم)

(٣) البخاري، الوضوء، ٥٦-٥٨؛ مسلم، الطهارة، ٩٨-١٠٠

يا رسول الله إنا كنا أهل جاهلية وعبادة أوثان فكنا نقتل الأولاد، وكانت عندي ابنة لي، فلما أجابت، وكانت مسرورة بدعائي إذا دعوتها، فدعوتها يوماً فاتبعتني، فمررت حتى أتيت بئراً من أهلي غير بعيد، فأخذت بيدها فرميت بها في البئر، وكان آخر عهدي بها أن تقول: يا أبتاه، يا أبتاه فبكى رسول الله ﷺ حتى وكف[١] دمع عينيه، فقال له رجل من جلساء رسول الله ﷺ: أحزنت رسول الله ﷺ. فقال له: «كُفَّ،[٢] فإنه يسأل عمّا أهمّه.» ثم قال له: «أعِدْ عليّ حديثَك» فأعاده، فبكى حتى وكف الدمع من عينيه على لحيته ثم قال له: «إن الله قد وضع عن الجاهلية ما عملوا، فاستأنف عملك.»[٣]

أجل، كان هذا وضع الناس آنذاك.. لم تكن للمرأة حق الحياة، وقد ظهر رسول الله ﷺ من بين مثل هذه الجماعة فقام بإعطاء كل شيء حقه وأعطى للمرأة قيمة كبيرة.. هذه المرأة التي كانت مهانة ومحتقرة من جميع الأطراف حتى من قبل والدها؛ حتى إن النساء كن يخفين البنات عن آبائهن، ومع أن الإحصاء لم يكن معروفاً آنذاك فأنا أعتقد بأن ٥٠٪ من النساء اللواتي عشن كن من النساء اللواتي أخفين عن أعين آبائهن. ولم يأنف عن عملية القتل والوأد هذا إلا بعض الرجال من ذوي الفطر السليمة مثل أبي بكر رضي الله عنه. وعدا هؤلاء فإن معظم الشباب الذين لم يتعرفوا على الإسلام كانوا من قتلة بناتهم.. في مثل هذا المجتمع ظهر النبي ﷺ ورفع المرأة إلى المستوى اللائق بها.

تأملوا الحادثة التي روتها أمنا عائشة رضي الله عنها ونقلها النسائي وأحمد:

إن فتاة دخلت عليها فقالت: إن أبي زوجني ابن أخيه ليرفع بي خسيسته وأنا كارهة. قالت: أجلسي حتى يأتي النبي ﷺ. فجاء رسول الله ﷺ فأخبرته فأرسل إلى أبيها فدعاه فجعل الأمر إليها فقالت: يا رسول الله. قد أجزت ما صنع أبي ولكن أردت أن أعلم النساء من الأمر شيء؟ [٤]

---

(١) وكف: تقاطر. (المترجم)

(٢) كف. أي أمسك عن تأنيبه ولومه. (المترجم)

(٣) الدارمي، المقدمة، ١

(٤) النسائي، النكاح، ٣٦؛ «المسند» للإمام أحمد ١٣٦/٦

إذن، فالمرأة التي كانت تدفن حية، والمرأة التي كانت مهانة ومحتقرة سابقاً أصبح لها الحق في أن تأتي إلى رسول الله ﷺ وتطالب بحقها بكل حرية وترغب في معرفة عما إذا كان لوالدها الحق في استعمال القوة في موضوع الشخص الذي سيتزوجها. ولو أن أحدهم قبل عدة سنوات ذكر بأن هذا سيحدث لما صدقه أحد ولظنوا أن بعقله خللاً.

ج- رجل الاستغناء

يروي الإمام مسلم وابن ماجة وأبو داود عن عوف بن مالك ﷺ: كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال: «ألا تبايعون رسول الله؟» وكنا حديث عهد ببيعة، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله ثم قال: «ألا تبايعون رسول الله؟» فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله! ثم قال: «ألا تبايعون رسول الله؟» قال: فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله فعلام نبايعك؟ قال: «على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً والصلوات الخمس وتطيعوا (وأسرّ كلمة خفية) وأن لا تسألوا من الناس.» فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله إياه.[1] وأسر الرسول ﷺ جملته الأخيرة حتى لكأنه لا يريد أن يسمعه أحد، والظاهر أنه فعل هذا لكي لا يتسبب في إحراج أي صحابي من أصحابه فقد كان النبي ﷺ شخصاً حساساً جداً تجاه أصحابه.

ومرت السنوات وافتقر العديد من هؤلاء ولكنهم لم ينسوا عهدهم له لذا، نراهم يبدون اهتماماً كبيراً على ألا يسألوا أحداً شيئا، حتى أن سوط أحدهم ليسقط وهو على ظهر ناقته أو جواده فلا يسأل أحداً أن يناوله وينزل من دابته ليلتقط السوط بنفسه.. ويجوز لنا أن نتصور أن هؤلاء الذين بايعوا الرسول ﷺ مثل هذه البيعة لم يطلبوا ولو قدح ماء من أي شخص.

---

(١) مسلم، الزكاة، ١٠٨؛ أبو داود، الزكاة، ٢٧؛ ابن ماجة، الجهاد، ٤١

يروي الإمام البخاري في صحيحه والترمذي أن حَكيم بن حِزَام ﷺ قال: سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني ثم قال لي: «يا حكيم! إن هذا المال خضر حلو، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى» قال حكيم: فقلت: "يا رسول الله! والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا" فكان أبو بكر يدعو حكيما ليعطيه العطاء فيأبى أن يقبل منه شيئاً. ثم إن عمر دعاه ليعطيه فأبى أن يقبله فقال: يا معشر المسلمين إني أعرض عليه حقه الذي قسم الله له من هذا الفيء فيأبى أن يأخذه. فلم يرزأ حكيم أحداً من الناس بعد النبي ﷺ حتى توفي رحمه الله.[1]

د- مقطع من الجاهلية

قام الرسول ﷺ بمحاربة ومكافحة الآلاف من العادات الجاهلية حتى استطاع أن يحول ظلمة الجاهلية إلى نور الإسلام. ولإيضاح هذا الأمر ننقل كلام جعفر بن أبي طالب للنجاشي:

"أيها الملك! كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف؛ فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه. فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده ونخلَع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الأرحام وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء؛ ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات؛ وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام. -فعدّد عليه أمور الإسلام- فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من عند الله، فعبدنا الله فلم نشرك به شيئاً وحرّمنا علينا وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدَا

(١) البخاري، الزكاة، ٥٠، الوصايا، ٩؛ الترمذي، القيامة، ٢٩

علينا قومنا فعذّبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى؛ وأن نستحلّ ما كنا نستحلّ من الخبائث. فلما قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على ما سواك؛ ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نُظلَم عندك أيها الملك.»[1]

وهذا يشير كيف أن العالم كان في ظلام حالك قبل بعثة محمد ﷺ، وكيف أن المجتمع الجاهلي كان يسبح في لجة من الفساد والفواحش.. فالزنا فيه حلال، والسرقة فيه شجاعة وبطولة.. يندر فيه من لم يدمن على الخمر... في هذا المجتمع الفاسد الوحشي استطاع الرسول ﷺ أن يقتلع كل هذا الفساد من النفوس وأن يزينها بالأخلاق العالية وبالفضائل السامية، وبأرفع المزايا الإنسانية.. أي أنه حقق في الواقع العملي "المدينة الفاضلة" التي حلم بها أفلاطون (Platon) في جمهوريته وحلم بها "توماس مور (Thomas More)" وغيرهما في المفكرين.

علماً بأن إخراج جماعة من حياة الفساد والبدائية والتوحش وجعلها مرشدة للإنسانية إلى طريق المدنية والفضيلة ليس إلا إخراج هذه الجماعة من الظلمات إلى النور. وقد استطاع الرسول ﷺ تحقيق هذه المعجزة فبرهن على أنه رجل الإعجاز.

ونحن الذين نعجز عن تبديل خصلة واحدة من الخصال التي تشربت بها نفوس من نعيش معهم عمراً نقف باحترام وخشوع أمام محمد ﷺ ونشهد أنه رسول الله بحق وبصدق.

ولقد حاولت بنفسي ولم أستطع إقناع أقرب الناس إلي بنظام التربية المثلى التي وضعتها والتي استلهمتها طبعاً من رسولنا ﷺ تمام الإقناع.. دعوت إلى الفضيلة حتى تعبت، ولكني لم أستطع تنبيه الناس لها. إذن، فما أعظم تلك المقدرة وما أكبر تلك القوة التي كان يملكها الرسول ﷺ بحيث استطاع تحويل الناس من الحياة البدائية والمتوحشة إلى

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ١/٣٥٩-٣٦٠؛ «المسند» للإمام أحمد ١/٢٠١-٢٠٢

المدنية، ومن الدناءة إلى السمو بل جعل من رجال الجاهلية معلمين ومرشدين للأمم المتمدنة. وأنا أرى أن أناساً مثلي يعجزون عن إسماع كلامهم إلى ثلاثة أو أربعة أشخاص في أسرته هم الذين يقدرون تمام التقدير ما قام به الرسول ﷺ حيث نقل أمة بكاملها من وهدتها وسما بها وصب في روحها إلهام قلبه... بشرط واحد وهو أن لا يتعثر هؤلاء بموانع العناد والتعصب.

اتصل عهده وعهد أصحابه بشعوب إيران وبالشعوب التركية... كانت إيران تحت تأثير ثقافة أخرى، وكانت طوران والشعوب التركية تحت ثقافة أخرى مختلفة وكذلك الرومان، ولكن الرسالة التي أتى بها الرسول ﷺ لاءمت كل هذه الشعوب وكأنها فصلت خصيصاً لكل منها... وهنا تكمن المعجزة... أجل، إنها لمعجزة كبرى أن يأخذ الكرة الأرضية بين يديه ويطبق رسالته في كل أرجائها، وهي من دلائل نبوته ورسالته، أي أنه رسول الله.. وهذا ما أردنا قوله على الدوام.

قد لا يستطيع الشخص أن يكتشف بدهائه ويعرف عصره، فمثلاً يجوز أن "الإسكندر" قد أدرك عصره بمقياس معين، وقد يكون "قيصر" قد اجتاز وتقدم على عصره، ويجوز أن نابوليون (Napoléon) أدرك عصره وفهمه... وهكذا. ولكن أن يفهم إنسان العصور التي ستأتي بعده والأمم والشعوب العديدة والمختلفة وأن تكون رسالته ملائمة لجميع هذه الشعوب وهذه الأمم ومقبولة من قبلها جميعاً أمر خاص برسولنا ﷺ، ولا نملك إلا أن نقول إن هذه معجزة، فليست هناك كلمة غيرها يمكن أن تصف هذا النجاح.. لقد وجد "آلب آرسلان" الذي عاش بعد رسول الله محمد ﷺ بأربعة أو خمسة عصور أن رسالته مناسبة وملائمة لروحه ولقلبه فآمن بها من كل قلبه، كما تقبل رسالته فاتح وقائد عظيم مثل محمد الفاتح الذي يُعد من أشهر قواد التاريخ والذي فتح عهداً وأغلق عهداً[1] تَقبّل رسالة النبي ﷺ مثلما تقبلها سلفه، وسار خلفه أيضاً وعلى أثره وفي

---

(١) ذلك لان سنة فتح اسطنبول (وهي سنة ١٤٠٣ م) تعتبر نهاية القرون الوسطى المظلمة في أوروبا وبدء عهد النهضة فيها. (المترجم)

الخط نفسه مع أنهم كانوا من عظماء التاريخ ودهاته، ولكنهم لم يقصروا في التسليم والتصديق برسالة النبي ﷺ.

ونحن الآن على أبواب القرن الحادي والعشرين، ومرور أربعة عشر قرناً لم يغير من هذا الأمر شيئا، إذ لم تزل الرسالة التي أتى بها رسول الله ﷺ رسالة يانعة نضرة وغضة تخاطب أرواحنا وقلوبنا وعقولنا، ذلك لأنها آتية ممن يعلم سرنا ونجوانا، وإلا فإن من المستحيل على أي إنسان أن يضع نظاماً يصلح لكل العصور.. فهذا موضوع يفوق طاقة أي إنسان مهما كان ذلك الإنسان من الذكاء والعبقرية.

يمكن أن نجد تفاصيل النظام التربوي الذي أتى به الرسول ﷺ في القرآن والسنة. ولو كان عمل الرسول ﷺ مقتصراً على تبليغ القرآن الكريم للناس وإقناعهم به لكان ذلك عملاً رائعا، ومع أن القرآن ليس موضوعنا الآن إلا أنني اضطررت إلى الاستطراد في هذا الموضوع.

لقد ظهر سيد المرسلين في مجتمع أمي جاهل لا يعرف المدارس ولا يعرف القراءة والكتابة. وعندما ارتحل إلى الرفيق الأعلى لم يكن في الجماعة التي تركها خلفه من لا يعرف القراءة والكتابة بدءاً ممن بلغ الرشد حديثاً إلى الشيخ الكبير الذي ينتظر دخول القبر، وعندما ننظر إلى عهدنا الحالي بكل الإمكانيات المتوفرة فيه وبالرغم من كل الجهود –حتى الإكراه والضغط أحياناً– فإن قسماً كبيراً من المواطنين لا يعرفون القراءة والكتابة رغم مرور خمس وستين سنة على قبول تركيا للحروف اللاتينية. أما رسول الله ﷺ فقد استطاع في زمن قصير يبلغ نيفاً وعشرين عاماً أن يؤسس الإيمان في النفوس ثم المعرفة ثم علمهم القراءة والكتابة. وأنا أظن أنه عندما ارتحل من هذه الدنيا إلى دار الخلود لم يكن هناك من بين أصحابه من لا يعرف قراءة القرآن الكريم... ليس قراءة القرآن فحسب، بل إن مزارعي المدينة المنورة كانوا يتلون القرآن بقراءاته السبعة أو العشرة وهم يعملون في الحراثة. وكاتب هذه الأسطر لا يعرف وجوه هذه القراءات التي يطلق عليها اسم "علم الوجوه" والذين يعرفونها اليوم أشخاص قليلون.

صحيح أن الناس كانوا أذكياء آنذاك بالفطرة ويمتلكون ذاكرة قوية غير متعبة... غير أن هذا الأمر لا يمكن تفسيره بالذكاء وقوة الذاكرة، بل يمكن تفسيره بالنظام التعليمي الذي جاء به الرسول ﷺ والذي ربط قلوبهم بالقرآن بهذا الشكل المتين.

علماً بأن هؤلاء الناس كانوا قد فتحوا نوافذ قلوبهم لكل أنواع الشرور والآثام، فاستطاع الرسول ﷺ بإجراءاته المدهشة والرائعة أن يستل منهم كل عاداتهم السيئة وأن يصوغهم صياغة جديدة رائعة. فمثلاً يقول القرآن الكريم: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾ (الإسراء: ٢٣). أثرت هذه الآية عليهم إلى درجة أن الذين كانوا يظلمون آباءهم وأمهاتهم أشد الظلم بل حتى يقتلونهم تغيروا فجأة فأصبح أحدهم يسأل الرسول ﷺ عما إذا كان هناك عقاب عليه إن لم يقابل نظرة والده إليه بالابتسامة.

ويقول القرآن الكريم أيضاً: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم﴾ (الأنعام: ١٥٢ والإسراء: ٣٤). فأصبح معظم المسلمين تحت تأثير هذه الآية يراجعون الرسول ﷺ ويسلمونه أموال الأيتام التي بحوزتهم. وإذا دققنا النظر نرى أن الآية لا تقول: "لا تأكلوا مال اليتيم" بل تقول: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم﴾ لذا، فإن الصحابة ﷺ بقلوبهم الحساسة كانوا يريدون التخلص من أموال اليتامى الموجودة في ذمتهم بعد أن أبدت الآية الكريمة كل هذه الحساسية في هذا الموضوع... فماذا دهى هؤلاء القوم الذين كانوا من قبل يأكلون أموال اليتامى ويضمون هذه الأموال إلى أموالهم دون أي تردد... ماذا دهاهم حتى تغيروا هذا التغير وتبدلوا كل هذا التبدل؟!

كان الزنا منتشراً بينهم ومباحا، ولم يكن هناك تقريباً من يستنكر هذا الإثم في ذلك المجتمع، فإذا بالقرآن الكريم يصرح بعد فترة من نزوله ﴿ولا تقربوا الزنى﴾ (الإسراء: ٣٢). فإذا به يقطع دابر كل العلاقات الآثمة وغير المشروعة... أجل، فلم يحدث سوى حادثتين أو ثلاث حوادث زنا فقط في تلك الفترة.

كان النهب والسرقة من أمارات الشجاعة والبطولة آنذاك فلما نزلت الآية بأمر ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾ (المائدة: ٣٨). تبدل كل شيء تبدلاً جذرياً. وأنا لا أعلم سوى وقوع حادثتين أو ثلاث حوادث فقط للسرقة طوال ذلك العهد.(١)

وقال القرآن الكريم لهؤلاء الذين كان القتل أهون شيء عليهم ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله﴾ (الإسراء: ٣٣ والأنعام: ١٥١). فإذا به يقطع دابر جرائم القتل. ولم تحدث طوال ذلك العهد سوى جريمتين إحداهما قيام أحد اليهود بجريمة مقصودة،(٢) والأخرى قيام أحد المسلمين بقتل أحد الأشخاص خطأ ودون تعمد.(٣)

والآن تأملوا... في غضون ثلاث وعشرين سنة من العهد النبوي لا نشاهد سوى حادثة واحدة للزنا اعترف بها صاحبها وحادثة واحدة لقتل يهودي وحادثة واحدة قطعت فيها يد امرأة سارقة... هذه الحوادث المنفردة والنادرة تحدث في مجتمع كان الناس فيه قبل سنوات قليلة يأكلون الميتة ويشربون الدم وكأنهم أفراد من مصاصي الدماء... من هذا المجتمع أخرج النبي ﷺ مجتمعاً كالماء الزلال... ومن هذا المجتمع الملوث والفاسد، ومن هذا الوسط العفن والآسن ربّى النبي ﷺ أشخاصاً أمثال أبي بكر وأبي هريرة وماعز والغامدية وغيرهم وغيرهم فأسس مجتمعاً نظيفاً ونورانياً... إن لم يكن هذا معجزة فما هي المعجزة إذن؟

ليس في إمكاني استعراض تفاصيل هذا الموضوع العريض والعميق بكل جوانبه، لذا فسأستعرض هنا -إن سمحتم- مبادئ بعض الخصال والأخلاق العالية وإيراد مثال أو مثالين حولها لمعرفة مدى عظمة إجراءات الرسول ﷺ.

---

(١) البخاري، الحدود، ١٣؛ مسلم، الحدود، ١٠

(٢) البخاري، الديات، ٥؛ مسلم، القسامة، ١٥، ١٦

(٣) البخاري، الديات، ١٠

هـ- الكرم والإيثار

لم يكن ذلك المجتمع يفكر في شيء عدا مصلحته ومنفعته، حتى في موضوع الكرم الذي أصبح عندهم وسيلة للتفاخر والشهرة وليس من أجل إغاثة الملهوف. أما الإيثار فلم يكن معروفاً بينهم. وكما غيرت رسالة النبي ﷺ أموراً كثيرة في هذا المجتمع فقد غيرت هذه الناحية أيضا، فطاردت البخل وتبنت خصلة الكرم والإيثار وجعلهما -ككل شيئ- في سبيل الله ورجاء ابتغاء مرضاته فقط.

عن أبي هريرة ﷺ: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني مجهود[1] فأرسل إلى بعض نسائه فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء. ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك حتى قلن كلهن مثل ذلك: لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء. فقال: «من يضيف هذا الليلة رحمه الله؟» فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله! فانطلق به إلى رحله فقال لامرأته: هل عندك شيء؟ قالت: لا إلا قوت صبياني. قال: فعلّليهم بشيء، فإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج وأريه أنّا نأكل. فإذا أهوى ليأكل فقومي إلى السراج حتى تطفئيه. قال: فقعدوا وأكل الضيف. فلما أصبح غدا على النبي ﷺ فقال: «قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة.» ونزلت آية: ﴿ويُؤْثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ (الحشر: ٩) في حق هذا الصحابي وإثر حادثة هذا الإيثار.[2]

وهكذا ربى النبي ﷺ أصحابه وأمته على خصلة الإيثار؛ فقد علمهم أن الإيمان يستوجب التسليم والتسليم يستوجب التوكل، والتوكل يستوجب سعادة الدنيا والآخرة... أجل، فإن كنت مؤمنا فيجب أن تسلم أمرك لله وتتوكل عليه وتثق به وتستند إليه، عند ذلك ستصل إلى سعادة الدنيا والآخرة.

---

(١) أي أصابني الجهد وهو المشقة والحاجة وسوء العيش والجوع. (المترجم)

(٢) البخاري، تفسير سورة (٥٩) ٦؛ مسلم، الأشربة، ١٧٢، ١٧٣

و- بطولة الخنساء

أبكت الخَنْساء الناس كلهم بأبيات رثائها لأخيها صخر... كان ذلك في الجاهلية إذ لم تكن قد عرفت الرسول ﷺ بعد، ولا تعرفت على تعاليمه ولا سمعت شيئاً عن بيان القرآن الكريم ولا تفتحت نفسها وقلبها عليه. فلما عرفت القرآن وسمعت به وأشرب به قلبها تغيرت فجأة... تغيرت إلى درجة أن هذه المرأة التي قالت عشرات الأبيات في رثاء أخيها في الجاهلية تحملت بصبر خارق استشهاد أربعة من أولادها في معركة القادسية واحداً إثر واحد... كانت تحس بقلب الأم الملهمة باستشهاد كل ابن لها، وتتلوى في مكانها من الألم ولكنها كفكفت دموعها وقالت بعد أن استشهدوا كلهم: "الحمد لله الذي شرّفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته."[1]

هاكم نوعية التغيير ومدى هذا التغيير الذي أحدثه النبي ﷺ... إنه كمن أخرج النور من الظلمات... وأكرر مرة أخرى وأسأل: إن لم يكن معجزةً تغيير الناس هذا التغيير المذهل في مدة قصيرة فما هي المعجزة؟

ز- الراكب المهاجر

بعد فتح مكة فر عكرمة، وبعد مشقة كبيرة استطاعت زوجته إقناعه بالرجوع... كان من ألد أعداء الرسول ﷺ، ولكنه عندما رجع ودخل على رسول الله ﷺ قام إليه النبي ﷺ ورحب به قائلاً له: «مرحباً بالراكب المهاجر.»[2] فتح هذا الترحيب قلبه فعاهد الرسول ﷺ أن يجاهد في سبيل الله. وعندما كان ينتظر الاستشهاد في معركة

---

(١) «أسد الغابة» لابن الأثير ٧/٨٩-٩٠؛ «الإصابة» لابن حجر ٤/٢٨٧-٢٨٨

(٢) الترمذي، الاستئذان، ٣٤؛ «المستدرك» للحاكم ٣/٢٤١-٢٤٢؛ «الإصابة» لابن حجر ٢/٤٩٦؛ «مجمع الزوائد» للهيثمي ٩/٣٨٥

اليرموك أخبروه باستشهاد ابنه الوحيد "عامر" ومن يدري فقد يكون عكرمة تمثل وجه رسول الله ﷺ ليقول له: ألم أعاهدك على الجهاد؟ فهل وفى الراكب المهاجر بوعده؟

وكيف يمكن أن يكون ابن أبي جهل مهاجراً وهو الذي صرف حياته كلها في عداء الرسول ﷺ ومحاولة قتله..؟[1] وهل يمكن أن يكون عنوان الشر مثالاً للخير..؟ أجل، هذا هو ماحدث فعلاً.

لقد كان في الجاهلية رجلاً غنياً وقويا، يسحق الضعفاء ويظلمهم، ولم يكن للضعفاء من يحميهم ولاسيما النساء إذ لم يكن لهن حتى حق الحياة، لقد كان الأطفال يُقتلون دون سبب.. نعم، كانت هناك بعض القوانين وبعض الأعراف ولكنها كانت تستعمل ضد الضعفاء.. ولا تزال تستعمل هكذا حتى يومنا هذا. من هذا المجتمع البدائي والمتوحش والذي ضاع فيه الحق والعدل استطاع الرسول ﷺ أن يربي جيلاً يمثل أرقى مستويات العدل.

ح- الـوقّـاف عند الحق

عمر بن الخطاب ﷺ هذا الخليفة العظيم الذي كان على رأس دولة تمتد من اليمن حتى نهر "أمودَريا" قرب مدينة بخارى. هذا الخليفة حدث بينه وبين أُبيّ بن كعب خلاف فقال له عمر: اجعل بيني وبينك رجلا، فجعلا بينهما زيد بن ثابت فأتياه فقال عمر: أتيناك لتحكم بيننا، وفي بيته يؤتى الحَكَم. فلما دخلا عليه وسّع له زيد عن صدر فراشه فقال: ها هنا يا أمير المؤمنين. فقال له عمر: هذا أول جَوْرٍ جُرْتَ في حكمك. ولكن أجلسُ مع خصمي.[2]

---

(١) انظر: «كنز العمال» للهندي ٥٤١/١٣؛ «السنن الكبرى» للبيهقي ٤٤/٩

(٢) «كنز العمال» للهندي ٨٠٨/٥

ط-٢) حادثة ماعز ونظام المراقبة الوجدانية

إليكم مقطعاً من حادثة ماعز، وهي حادثة مراقبة وجدانية مدهشة.

جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله طهرني. فقال: «ويحك، إرْجِعْ فاستغفر الله وتب إليه» قال: فرجع غير بعيد. ثم جاء فقال: يا رسول الله! طهرني فقال رسول الله ﷺ: «ويحك، إرْجِعْ فاستغفر الله وتب إليه» قال فرجع غير بعيد ثم جاء فقال: يا رسول الله! طهرني فقال النبي ﷺ مثل ذلك. حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله ﷺ: «فيم أطهرك؟» فقال: من الزنى. فسأل رسول الله ﷺ: «أبه جنون؟» فأخبر أنه ليس بمجنون. فقال: «أشَرب خمراً؟» فقام رجل فاستنكهه فلم يجد منه ريح خمر. قال: فقال رسول الله ﷺ: «أزَنيت؟» فقال: نعم. فأمر به فرجم. وفي رواية أنه عندما مسته الحجارة جال وجزع فبلغ النبي ﷺ فقال: «فهلاً تركتموه.»

قال فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس فسلم ثم جلس. فقال: «استغفروا لماعز بن مالك» فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك. فقال رسول الله ﷺ: «لقد تاب توبة لو قُسِّمت بين أمة لَوَسِعتهم.»

قال: ثم جاءته امرأة من غامد[1] من الأزد فقالت: يا رسول الله طهرني. فقال: «ويحك، إرْجِعِي فاستغفري الله وتوبي إليه.» فقالت: أراك تريد أن تردني كما رددت ماعز بن مالك. قال: «وما ذلك؟» قالت إنها حبلى من الزنى. فقال «آنت؟» قالت: نعم. فقال لها: «حتى تضعي ما في بطنك» قال: فكفلها رجل من الأنصار حتى وضعت، قال: فأتى النبي ﷺ فقال: قد وضعت الغامدية. فقال: «إذن، لا نرجمها وندع ولدها صغيراً ليس له من يرضعه» فقام رجل من الأنصار فقال: إليّ رضاعه[2] يا نبي الله. قال فرجمها.

---

(١) بطن من جهينة. (المترجم)

(٢) إنما قاله بعد الفطام وأراد بالرضاعة كفايته وتربيته وسماه رضاعاً مجازاً. (المترجم)

وعند رجمها طفر من دمها على وجه خالد فسبها فسمع نبي الله ﷺ سبه إياها فقال: «مهلاً يا خالد! فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس[1] لغفر له» ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت.[2]

لماذا كانت هذه التوبة بمثل هذه المرتبة؟ ذلك لأن هناك إثماً ارتكب خفية ولم يعلم به أحد، ولكنها لم ترغب أن يبقى حسابها ديْناً على رقبتها تؤديه يوم الحساب، بل اعترفت بذنبها وهي تعرف عواقب هذا الاعتراف، إذ ظلت حتى يوم إقامة الحد عليها في خجل من الذنب الذي اقترفته في حق الله وحق المجتمع، وفي عذاب ضمير محرق... أجل، لقد زلت قدمها، ولكنها بحثت في الدِّين عن سبيل لخلاصها.

ليس في الإمكان ذكر كل النظم الأخلاقية التي جاء بها النبي ﷺ، إذ يبلغ عددها المئات، ولم يتيسر لنا سوى الإشارة إلى البعض منها. ولو كان في مقدورنا تعداد كل هذه القواعد الخلقية لكان من الممكن التوصل إلى معرفة أفضل لما أنجزه النبي ﷺ من أمور تفوق القدرة الإنسانية، ذلك لأن إنسان ذلك العهد كان متصفاً بجميع أضداد هذه القواعد الخلقية، فقام النبي ﷺ باقتلاع هذه المفاسد الخلقية من جهة وتنمية كل الأصول الأخلاقية الحميدة في نفوسهم من جهة ثانية وتجهيزهم بها.

لقد أظهر رسول الله ﷺ معجزة في ميدان التربية أيضاً. إذ وضع أسساً ومبادئ رئيسة لبعض القواعد التربوية للإنسانية التي لها صفة العمق والشمول وتحتضن الإنسانية كلها في كل عصر وفي كل وقت. وحسب قناعتي الشخصية المتواضعة فإننا إن استطعنا فهم ما تحتويه هذه المبادئ من أفكار عميقة ووصلنا إلى معرفتها بحق لكسبنا مستوى تغبطنا عليه الملائكة، ولكن ما العمل فنحن لا نزال –كما تقول حميدة قطب– في الطريق، حيث يروى أن موسى عليه السلام أظهر لله تعال حيرته وعجبه قائلاً له: "يا رب! إنني أرى كثيراً من

---

(١) صاحب مكس: أي صاحب جباية وقد أصبحوا عنواناً للظلم.(المترجم)

(٢) مسلم، الحدود، ٢٢، ٢٣؛ أبو داود، الحدود، ٢٤؛ الدارمي، الحدود، ١٧

الناس يمشون في طريقك بعد أن اهتدوا إليك، ولكنهم -ويا للعجب- يغيرون طريقهم ويتوجهون إلى جهات أخرى" فيقول له الله تعالى: "يا موسى! إن هؤلاء لم يتوجهوا نحوي ولم يجدوني... كانوا أناساً في الطريق وغيروا طرقهم."

(نسأل الله تعالى ألا يجعلنا من الذين يتعثرون في الطريق ويضلون سبيلهم).

...أجل، ليس هناك من ضمان، ولا يستطيع أحد أن يضمن عدم انحرافه عند سيره في الطريق إلى الله. كل شيء بيد الله تعالى، لذا نسأله أن يحفظنا من الانحراف ومن الضلال، وألا يدعنا لأنفسنا طرفة عين، وندعوه تعالى أن تتبوأ هذه الأمة المجيدة -التي قل نظيرها في التاريخ- المكانة اللائقة بها بين الأمم.

أجل، عندما تأخذ هذه الأمة مكانها التاريخي اللائق بها فستتوفر أمامنا فرصة أفضل وأكثر إقناعاً وأعلى مستوى لتبليغ الخلق الإسلامي والخلق القرآني. عند ذلك سترى الإنسانية أن ما بحثت عنه في "المدن الفاضلة" كان قد طبق وعيش قبل عصور، وستذهل من هذا الاكتشاف. ونحن نقرأ الآن "جمهورية أفلاطون" ونرى كيف يقترح أفلاطون قيام الفلاسفة بإدارة الدولة... دعوا هذا واعلموا أن هناك عهداً تمت فيه إدارة الدولة بشكل لا يصل إليه حتى خيال الفلاسفة... هاكم عهد بداية الإسلام، وهاكم عهد الدولة العثمانية. فلو شكلت الملائكة دولة في السماء لما استطاعت إلا أن تصل إلى ذلك المستوى.

ولكن إلى أن نقوم بشرح الإسلام بهذا المستوى فستسد الأمم آذانها ولن تستمع إلينا... صحيح قد يسلم أفراد معدودون منها نتيجة تسلل نور القرآن إلى قلوبهم بقوته الذاتية. ولكن لن يحدث إقبال جماعي على الإسلام من قبل هذه الأمم إلا عندما تتبوأ أمتنا الأصيلة هذه مكانتها اللائقة بها بين الأمم وتقوم بتمثيل الإسلام أمام العالم.

ونعود إلى الموضوع الأصلي فنقول إن الرسول ﷺ أحدث انقلابا يحير العقول في ذلك المجتمع الجاهلي الغارق حتى أذقانه في العادات الجاهلية. وهذا الانقلاب كان انقلابا شاملاً يحتضن كل شؤون الحياة.

لقد ظهر العديد من العباقرة في التاريخ الإنساني، ونجح قسم منهم في إحداث بعض التغيير في بعض ساحات الحياة والمجتمع. فمثلاً قد يظهر عبقري في علم الاجتماع فيصل بأتباعه إلى مستوى رفيع في هذا الموضوع، ولكنه لا يستطيع شيئاً في ساحة الاقتصاد مثلا، كما يعجز أن يقدم شيئاً في ساحة التربية وعلم النفس، ويفشل تماماً في ساحة الروح ولا يستطيع تقديم أي شيء في هذا الأمر. ومثلاً قد يظهر عبقري في علم الاقتصاد وينجح في رفع المستوى الاقتصادي للبلد إلى مستوى معين، ولكنه لا يستطيع تقديم أي شيء لبلده من النواحي الاجتماعية الأخرى، ويعجز عن تقديم شيء حول التربية وحول مراقبة النفس ومحاسبتها مثلاً. ويظهر غيره في ساحة أخرى وآخر في ميدان مختلف، ولكن لا يستطيع أحد منهم أن يتوصل إلى الكمال بجميع وحداته ومفرداته... ليس هناك من استطاع هذا سوى محمد ﷺ الذي احتضن الحياة كلها وبكل مفرداتها وجوانبها ونقلها إلى الذروة وضمن بقاءها هناك إلى الأبد... أجل، هو ذروة في الاقتصاد... وذروة في الاجتماع... وذروة في القيادة والحرب... وذروة في محاسبة النفس... وذروة في النجاح في دعوة الناس... وذروة في إقامة التوازن بين الدنيا والآخرة... وذروة في النفوذ إلى بواطن الأمور وإلى النفوذ إلى ما وراء الوجود... ذروة في كل شيء. أجل، فليست هناك حاسة إنسانية ضامرة في نظام تربيته، وليس هناك أي شيء تعرض عنده للإهمال... على العكس من ذلك فقد تناول كل شيء ووسع كل شيء ونماه وفتح أمام الإنسان طرق الرقي والكمال، وبمعونة الله وفضله استطاع أن يربي في كل ساحة وفي كل ميدان أفضل النماذج الإنسانية.

الفصل الخامس: ﴿ الجوّ الذي صنعه الرسول ﷺ والعباقرة الذين نشأوا في جوّه المعنوي ﴾

كان الرسول ﷺ يعرف الأيام المقبلة مثلما يعرف يومه، بل مثلما يعرف راحة يده، وكان هذا كيفية خاصة به. وهذا هو الدرس الذي استنبطناه في صلح الحُديبية. فالرسول ﷺ كان يضع دساتير جديدة تبقى نضرة يانعة رغم تقدم الزمان... يشيخ الزمان ولكن يتجدد شباب هذه الدساتير على الدوام.

قام الرسول ﷺ بتبليغ بعض المبادئ الدينية التي وضعها الله تعالى إلى الناس في عصره وتعليمها إياهم، وقام هؤلاء بإيصالها لنا، فرضي الله تعالى عنهم أجمعين. والقرآن يعلمنا أدب عرفان الفضل فيخبرنا أن ندعو لهم ونقول ﴿ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غِلاً للذين آمنوا﴾ (الحشر: ١٠). فنحن ندعو لهم كلهم انتهاء إلى الصحابة الكرام ﷺ اعترافاً بفضلهم. وعندما نقف عند كل مقبرة ونرفع أيدينا بالدعاء لهم فإننا نعبر بذلك عن امتناننا لهم. لقد أبدى أسلافنا نجاحاً منقطع النظير، وكوّنوا بعد رسول الله ﷺ دولاً متعاقبة. يقول أحد الكتاب الغربيين:

"إن محمداً ﷺ رجل عظيم حقاً. لماذا؟ لأنه شُكّلت ما يقارب مائة من الدول على أسس المبادئ والأنظمة والدساتير التي وضعها، وكان مهندس مدنيات عديدة، وأرسل الجيوش إلى مختلف أنحاء العالم وعلى رأسها قواد أكفاء نجحوا أيما نجاح في مهماتهم. ولم يكن هؤلاء القواد فاتحين فحسب، بل حملوا معهم مشاعل العلم أيضاً ونوروا بهذه المشاعل أرجاء المعمورة وزوايا العلم والعرفان."

فهذه بغداد وهذه آثارنا في آسيا الوسطى من معابد وكليات ومستشفيات وجوامع لاتزال باقية رغم محاولة الأعداء هدمها وطمس معالمها. وهذه الأندلس بآثارها القديمة

التي تذهل عباقرة العلم والفن... هذه الأندلس بثقافتها وفنها وأخلاقها وباحترامها للقيم الإنسانية العامة... إن ما تبقى من هذه الآثار التي تضاءلت تدريجياً بمرور أكثر من خمسمائة سنة غدارة لا تزال تأخذ بالألباب. ومن يدري ماذا يقول المفكرون من الفنانين والمعماريين والمتخصصين في علم الجمال حول هذه الآثار الرائعة.

أجل، لقد تشكلت الآلاف من بيوت العلم من بعده وعلى الخط الذي خطه، وظهر مئات الآلاف من رجال العلم والفن وتشكلت مئات من الدول على هدي النظام الذي وضعه... ويعد الأمويون والعباسيون والسلاجقة ودولة القره خانيين والدولة العثمانية من بين هذه الدول، ولا يجوز مقارنة الدين الإسلامي مع الدين المسيحي، فالمسيحية لم تستطع أبداً تجاوز الكنيسة، فقد أديرت الدولة إما بالنظام الثيوقراطي، أي حسب اجتهادات القسس ورجال الدين، وإما بالنظم الدنيوية الوضعية أي من قبل أناس يحملون أفكار الفلسفة المادية، ولكن رسالة محمد ﷺ ودينه لم يكونا هكذا، إذ أنه تأسس على الأسس الشاملة والعميقة والحية للكتاب والسنة، والمتجددِ على الدوام لكونه منفتحاً على الاجتهاد. فقد يتغير الزمان وتتبدل الصور ولكن محتوياته ومعانيه باقية. فما أن تغرب مدنية في هذه الدنيا أو تزول دولة إلا وتبعتها مدنية أخرى ودولة أخرى... أجل، فمئات من الدول كانت تستمد روحها وفلسفتها ومعنى وجودها منه ﷺ.

لقد استطاع الرسول ﷺ بنظرته الواسعة المؤيدة من قبل الوحي أن يعين الأسس التي تقوم عليها الدولة وأن يستعملها كل في مكانها الصحيح والملائم. وشق الطريق المؤدي إلى تهيئة كوادر الدولة وقوادها ورجال العلم والصناعة والفن. وقد ربى في عهده العديد من القواد، ورجال الدولة ونشأ على طريق فتح العالم قواد عظماء بدءاً من خالد بن الوليد إلى عُقبة بن نافع ومن عقبة إلى الأحنف بن قيس ومن الأحنف إلى طارق بن زياد ومنه إلى محمد بن القاسم. ولو نظرنا إليه من هذه الزاوية لحسبناه قد كرس وقته للأمور العسكرية فحسب. وقد نظر كثير من مفكري عصرنا -مثل عباس محمود العقاد- إلى عصر النبوة كعصرٍ منفتح على الطاقات الكبيرة والعبقريات العظيمة.

أجل، فإن المدرسة المحمدية هي المدرسة الوحيدة التي استطاعت أن تسمو بالمواهب والكفاءات إلى أعلى المستويات فمن قصد هذه المدرسة استطاع أن ينمي كل قابلياته العقلية والقلبية والروحية وجميع ملكاته الأخرى إلى مداها النهائي...

فأبو بكر ﷺ رجل عبقري في الحرب وفي إدارة الدولة وفي العلم. وكذلك عمر وعثمان وعلي ﷺ؛ أما خالد وسعد بن أبي وقّاص وأبو عبيدة والعلاء الحضرمي والقَعْقَاع بن عمرو ﷺ فكانوا عباقرة حرب... ومئات غيرهم... فكأن ذلك العهد عهد عباقرة... بل هو في الأصح عهد لم يهمل في الإنسان ذرة واحدة من قابلياته واستعداداته وكفاءاته، بل غذاها ونماها بأجمعها فكان عامراً بمئات من العباقرة.

فإذا لم يكن عُقبة بن نافع الذي فتح إفريقيا من أقصاها إلى أقصاها بضربة واحدة عبقرياً فمن العبقري إذن؟ لقد أصبح عقبة فارساً وهو في الخامسة عشر من عمره، وتقلد مهاماً مختلفة ومهمة في عهود عدة خلفاء ووصل إلى ساحل المحيط الأطلسي، وقد اشتهر قوله الذي قاله وهو يغوص بجواده في مياه الشاطئ الأطلسي الذي كانوا يطلقون عليه اسم "بحر الظلمات" إذ قال: "يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك."[1]

ومن المدرسة نفسها نجد طارق بن زياد الذي كان عبداً بربريا، فنراه ينتصر بجيشه البالغ ١٢٠٠٠ جندي على الجيش الإسباني الذي كان تعداده ٩٠-١٠٠ ألف جندي وأن يصل في مدة قصيرة إلى قصر الملك في "طُلَيطُلة / توليدو (Toledo)".[2] وكان طارق أيضاً قائداً عبقرياً وفارساً عظيماً. والأمر نفسه وارد بالنسبة لعلاء الحضرمي الذي كان قائداً عظيماً، حتى قيل في عهد عمر بن الخطاب ﷺ أنهم لا يستطيعون استغلال كل هذه الكفاءات، حتى أنهم اضطروا إلى إصدار أمر إلى علاء الدين الحضرمي بالتوقف عن الحرب في البحرين. ولعلاء الحضرمي تاريخ حياة مليء بالعبر. ويقول المؤرخون بأنك لو

---

(١) «الكامل في التاريخ» لابن الأثير ١٠٦/٤

(٢) «الكامل في التاريخ» لابن الأثير ٥٦٢/٤

نقلت خالد بن الوليد إلى موضع علاء الدين، ونقلت علاء الدين إلى موضع خالد لما تبدل أي شيء ولما حدثت أي ثغرة.

كيف حدث هذا؟ كيف ظهر كل هؤلاء العباقرة والعظماء في عهد واحد..؟ سعد بن أبي وقّاص كان عبقريا، فلو تتبعت آثاره في فارس لوصلت إلى هذه القناعة... أبو عبيدة بن الجراح كان عبقرياً... وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان، ثم دهاة آخرون في سلسلة العبقريات هذه بعد الرسول ﷺ... ولولا هؤلاء لما كان في الإمكان قطع الصحارى والوصول إلى أسوار الصين وإلى جبل طارق، ولما كان في الإمكان الاستيلاء على كل هذه المناطق في فترة قصيرة جداً لا تتجاوز ٢٥ سنة، وما كان في الإمكان أيضاً تأسيس الأمن والطمأنينة في هذه المناطق وإدارتها إدارة جيدة، ولما كان في الإمكان بقاء هذا النظام طوال ١٢ عصراً في الذروة رغم الدنيا كلها ورغم مقاومة الأديان السابقة له وقيامها بالاعتداء وبالتضليل.

أجل، لقد كانت هذه العبقريات التي كان الوحي منبعها وملهمها هي التي يسرت حكم العالم عصوراً عديدة بقبس من النظام النوي. فكأن هؤلاء العباقرة أخذ كل منهم قبساً من شمس الشموس رسول الله ﷺ فأنجزوا مهمات كبيرة وبمقياس عالمي. ولا أدري أيمكن أن نتصور عهداً مثيلاً لذلك العهد..؟ لا أقول نشاهد ولكن أقول نتصور... نتخيل... فالأسماء التي أدرجتها لكم بسرعة والمهام التي أنجزوها يحتاج كل منها إلى بحوث كاملة. وبين العبقريات العسكرية والإدارية التي رباها الإسلام لم نذكر سوى بعض الأسماء الأولى التي خطرت على بالنا، أما شرح كل تلك العبقريات فعمل يحتاج إلى مجلدات، ولم يكن في إمكان هذا الفصل الصغير أن يستوعب كل هذا، ولم ندخل إلى هذا الموضوع إلا بصورة غير مباشرة وذلك عندما تحدثنا عن رسالة الرسول ﷺ والجوانب المتعلقة بهذه الرسالة، وكل أملي وتطلعي هو قيام أهل الاختصاص بتناول هذه المواضيع وشرحها بشكل واف. وعند ذلك سوف تتوضح المدرسة المحمدية بكل أبعادها وسيهتف كل بُعد منها: "محمد رسول الله."

أ- عباقرة العلم لهذه المدرسة

كما كانت هذه المدرسة تفتح أبوابها لعباقرة الحرب ولعباقرة رجال الدولة فقد كانت مفتوحة الأبواب للعلم بالدرجة نفسها، لذا فقد ربت وخرّجت العديد من رجال العلم ورجال الفكر وعلماء القانون والمجتهدين والمجددين. فليس من السهل وليس في إمكاننا هنا سرد أسماء كل رجال العلم الذين نشأوا في ظرف ثلاثة قرون بدءاً من عهد الخلفاء الراشدين. ولكننا سنكتفي بتناول ابن مسعود ﷺ الدي كان راعياً في مكة وذلك كأنموذج فقط، فهذا يكفي هنا.

أصبحت الكوفة بفضله مركزاً علمياً، ونشأ في مدرسته هذه المئات من العلماء الأجلاء في الفقه والحديث وعلم الكلام أمثال الأسود بن يزيد، وعلقمة بن قيس النخعي وإبراهيم النخعي وحمّاد بن أبي سليمان وأبي حنيفة، وكلهم يدينون له بالفضل. ولو تناسينا نحن هذه الحقيقة الكبيرة فإن تاريخ العلم سيقيم هذا ويسجله رغم أنف المعاندين.

١ - في مجال الفقه

سنأخذ أنموذجا واحداً ونشرحه باختصار كمثال لغيره من العلماء الكبار الذي نعتذر إليهم كلهم لعدم استطاعتنا ذكرهم كلهم هنا.

من كان أبو حنيفة..؟ كان أبو حنيفة عالماً كبيراً وواضع مذهب... جمع حوله في حلقات الدراسة والتعليم رجالاً أذكياء في ذلك العهد المبكر الذي كان العلم والثقافة فيه تنقل مباشرة بطريقة التقرير والإملاء في حلقات الدراسة. وقد شغل أحد طلابه منصب قاضي القضاة وهو الإمام أبو يوسف؛ ومن طلابه المعروفين الإمام محمد بن الحسن الشيباني والإمام زُفر، كما درس عنده الإمام وكيع الذي تلقى الإمام الشافعي العلم عنه... أي كان أستاذ الأساتذة، وضع توقيعه على العصور وخاطب الأجيال الآتية من بعده وأصبح إماماً

لمئات الملايين من المسلمين. فما أملاه على تلاميذه الأوائل ولاسيما على الإمام محمد قام شمس الأئمة الإمام السرخسي بشرحه في كتابه المشهور "المبسوط" المؤلف من ثلاثين مجلّداً...[1] والحقيقة أن الإمام السرخسي أملى هذا الكتاب القيم وهو سجين في قاع بئر على تلاميذه المتحلقين حول البئر... ومن الطرائف المروية أن أحد تلاميذ الإمام السرخسي قال له يوماً بأن الإمام الشافعي كان يحفظ ثلاثمائة صحيفة من الحديث، فقال الإمام السرخسي بكل تواضع: إذن، فقد كان يحفظ زكاة حفظي للحديث.[2]

كان الإمام الشافعي أيضاً عبقرياً وشخصية علمية مرموقة. وكذلك الإمام مالك وأحمد بن حنبل ﷺ أجمعين. والآن لنسأل مرة أخرى: من هو أبو حنيفة؟ أكان تلميذاً لأحد صحابة رسول الله ﷺ مثل ابن مسعود؟ أم كان تلميذاً لأحد التابعين أمثال علقمة؟ كلاَّ... بل كان تلميذ تلميذهم... أي تلميذ حمّاد بن أبي سليمان... صحيح أن حمّاداً كان أيضاً فقيهاً كبيراً إلا أنه كان تلميذاً لتلميذ رسول الله ﷺ.

أجل، فبينما كان العالم كله يسبح في الظلام فاقدا أمله حتى من بزوغ الفجر الكاذب، كان هؤلاء العلماء الأفذاذ الذين نوروا الإنسانية والعالم ينشأون في مدرسة رسول الله ﷺ. فهؤلاء العلماء الأعلام الذي نوروا العالم بعلومهم وعرفانهم كانوا في الذروة من القيمة رغم كثرة عددهم... أي أن قيمتهم لم تكن ترجع إلى الندرة... فمن الممكن أن نذكر ما يقارب الخمسين من العلماء الكبار وفي مستوى أبي حنيفة في الكوفة آنذاك أي في عهد أبي حنيفة... ولا يمكن تفسير هذه الظاهرة بالعامل الجغرافي أو الزمني، بل كانوا نتيجة الفيوض النورانية للمدرسة التي انشأها الرسول ﷺ. فبفضله تربى -ومن مجتمع بدوي- كادر من العلماء الذين أناروا أرجاء العالم أربعة عشر قرنا، وسينيرون العالم إن شاء الله إلى يوم القيامة.

---

(١) أي جزءا من أربعين جزء مما يحفظ. (المترجم)

(٢) «أصول السرخسي» للسرخسي ١/٥

٢- ﴿ في مجال التفسير ﴾

التفسير بالنسبة لنا بحر بذاته، ولكنه يعد قطرة في بحره ﷺ... إنه القطرة التي تمتل البحر وتشير إليه. فابتداء من علي ﷺ إلى ابن عباس ﷺ ثم إلى مجاهد وسعيد بن جبير ثم إلى ابن جرير وفخر الدين الرازي وابن كثير إلى المفسرين الأعلام في عهدنا الحالي نرى سلسلة نورانية متصلة الحلقات من كبار الدهاة والعباقرة الذين يشكلون وحدهم -بانتسابهم إليه- أكبر دليل على نبوة سيدنا محمد ﷺ وكونه سيد الإنسانية وسيد المرسلين.

فابن جرير مثلاً رمزٌ للعبقرية والدهاء، فعندما تطلع على تفسيره تراه يفسر الآيات والأحاديث تفسيراً يجاوز به الزمن ويتناول تفسير الآيات التي تتناول السماء والأرض وكيف أنهما كانتا وحدة واحدة ثم انفجرت... وتراه يتناول المبادئ الأساسية لهبوب الرياح ونزول الأمطار، أي تَناوَل مواضيع لم تُفهم حق الفهم إلا بعد مرور ألف عام. وقد ظهرت من البحوث العلمية التي جرت حول الكتب التي ألفها أن معدَّل كتابته في كل يوم من أيام حياته هو ١٥ صفحة. فإذا لم يكن ابن جرير عبقرياً فمن العبقري إذن؟

وفي مجال التفسير إن انتقلنا من ابن جرير إلى فخر الدين الرازي، ومنه إلى الإمام السيوطي الذي ألف كتباً ضخمة بعد أن قرأ مئات التفاسير، ومنه إلى العلماء الكبار في عصرنا الحالي نرى أن هناك أناساً برزوا في ميدان التفسير ونبغوا فيه إلى درجة لو أن واحداً منهم ظهر في الغرب لنصبوا له التماثيل وافتخروا به أمام العالم أجمع.

٣- ﴿ في مجال الحديث ﴾

أما عمالقة علم الحديث فهم يشغلون مكاناً بارزاً ومكاناً فضيلاً... فكل من البخاري والإمام مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والإمام أحمد بن حنبل والدارقطني والبيهقي والدارمي يعدون علَماً من أئمة الأعلام في ساحة علم الحديث، وكل واحد منهم يكفي العالم وحده. وليس من الممكن طبعاً الوقوف عند كل واحد

منهم والقيام بتحليل بيئتهم العلمية فهذا خارج هدفنا هنا. ولكننا نكتفي هنا بالقول بأن الإمام البخاري بعد أن حفظ ٦٠٠،٠٠٠ من الأحاديث أدرج أربعة آلاف حديث غير متكرر فقط في صحيحه... وكان يبدي اهتماماً ودقة كبيرة عند أخذ الحديث. فكان يتوضأ لكل حديث ويصلي ركعتين[1] مثل هذا الإمام الكبير كان مجرد تلميذ من تلاميذ الرسول ﷺ... وفي إحدى المرات قضى أياماً طويلة في سفر شاق ومرهق ليأخذ حديثاً من شخص، ولكنه عندما رأى هذا الشخص يوهم حصانه لكي يأتيه بأن في حجره شعيراً بينما هو فارغ... عندما رأى هذا رجع دون أن يكلمه ودون أن يأخذ الحديث الذي قطع كل هذه المسافة من أجله. وعندما سئل عن السبب قال: "إن الشخص الذي يريد خداع فرسه قد يخدعني أنا أيضاً." ومن يدري فكم من عالم من علماء الحديث أبدى كل هذه الدقة والحرص عند القيام بجمع وتدوين الأحاديث.

٤- في مجال العلوم الوضعية

بعد مطالعة الكتب العديدة التي كتبت حول تاريخ العلم القديم والحديث والمقارن... المحايدة منها وغير المحايدة لا يملك الإنسان إلا الشعور بالفخر بماضينا المجيد. ففي العهود الذهبية للمسلمين كتبوا في الطب والرياضيات والهندسة وفي جميع العلوم الطبيعية مؤلفات كانت تتنافس بجدارة مع كتب الفقه والتفسير والحديث وعلم الكلام. فهناك الجابر مرشد علم الجبر وابن سيناء والخوارزمي والزهراوي العالم في الجراحة والذي ظلت كتبه التي كتبها في علم الجراحة تدرس في الغرب لعدة عصور حتى أن إحدى المجلات العلمية وصفته تحت عنوان "العالم الذي عاش ألف عام..." المئات والآلاف من أمثال هؤلاء هم خريجو مدرسة رسول الله ﷺ:

وإن الإنسان ليتساءل: لماذا لا يعرف معظمُنا هؤلاء حاليا؟ إن عدم رؤية هؤلاء هي

---

(١) «هدي الساري» لابن حجر العسقلاني ص٩

من أخطاء الحس. ففي الغرب لا يمكن عدم رؤية شخصياتهم، ذلك لأن هؤلاء يعدون مثل تلال ترتفع وسط السهول لا يمكن أن تخطئها الأبصار وإن لم تكن مرتفعة جداً. أما الذرى الموجودة عندنا فهي مستمرة ومتكاملة وعدم التمكن من قياسها يؤدي إلى الجهل بهم، أي أنهم مثل الذرى المتقاربة بعضها من بعض لا توجد بينها وديان لكي تعرف هذه الذرى. أما نحن فقد بعدنا عن خصلة الوفاء فكانت هذه هي حالنا، فلم نستطع تقييم تلك الآثار بينما استطاع الغرب الاستفادة منها وحقق عصر النهضة عنده... فالخطأ ليس في المبادئ ولكن في الأشخاص الذين عاشوا عالة على الماضي، فعلى الرغم من كونهم داخل بحر فإنهم لم يعرفوا قيمة ذلك البحر.

ب- أبطال عالم الروح

والدرجة الثانية من أبعاده ﷺ هي الولاية... فباسم الولاية خرّج أشخاصاً وفتح أمامهم باباً إلى أوج الكمال الإنساني إلى درجة يقول أحدهم: "لو كُشف الغِطاء ما ازددتُ يقيناً"[1] ووصل بعضهم إلى درجة رأى فيها بعض أمور عالم الغيب، وقضى قسمٌ منهم حياته في تدقيق أسرار القرآن والسنة لفهم إشاراتها وإيماءاتها... فها هي "الجلجلوتية" وها هو "نهج البلاغة" وها هو "المثنوي" و"فتوح الغيب" و"الفصوص" و"الفتوحات".

لقد قال "إديسون (Edison)" في لحظة من لحظات عِرفان الجميل: "لقد تعلمت الطريق المؤدي إلى الكهرباء من كتاب الفتوحات المكية لمحيي الدين بن عربي."

إن الفتوحات المكية ببيانها المليء بالأسرار موجودة في أيدينا، صحيح أن هناك نقاشاً حول صحة استنباط الكهرباء والألكترونات والمصباح الكهربائي من التعابير القرآنية

(١) «الأسرار المرفوعة» لعلي القاري ص١٩٣

المحملة بالأسرار، إلا أن النقاش لا يجدي في موضوع ظهر تأويله. إن الإنسان يستطيع التوصل إلى الكثير من الأسرار عن طريق الولاية أو عن طريق البحث في المختبرات العلمية، فإن عجزنا نحن عن الوصول في السابق وعجزنا حالياً فهذا يرجع إلى فقرنا في التفكير المنطقي وضعف قلوبنا وعجز إرادتنا وعزمنا. إذ ليس من السهل فهم ابن عربي أو مولانا جلال الدين الرومي أو الإمام الرباني أو بديع الزمان سعيد النورسي وهم من الأشخاص الذي سبقوا عصورهم، بل ليس من السهل إدراك ما اكتشفوه. فكيف نستطيع فهم الشيخ النقشبندي أو معروف الكرخي أو الشاذلي أو الشيخ الكيلاني أو الشيخ الحَرّاني، علما بأن كل هؤلاء يعدون تلاميذ في مدرسة الرّسول ﷺ، وكانوا مثل الفراشات الدائرة حول نور شمعته ﷺ... كانوا عشاق النور فانفتحت أعينهم على عالم الغيب. يقول الإمام السيوطي إنه رأى الرسول ﷺ مرات عديدة في اليقظة وليس في المنام.[1] فإذا كانت عيونهم قد تفتحت هكذا فبفضل ما تعلموه من الرسول ﷺ، وإذا كانوا قد هرعوا إلى النور فبقوة جذبه ﷺ.

أما نحن فقد حبسنا ضمن سجن المكان ذي الأبعاد الثلاثة وضمن الزمان الذي هو بُعد نسبي، أما هم فقد اجتازوا أبعاد الزمان والمكان إلى بُعد آخر لا ندركه. هؤلاء هم تلاميذ الرسول ﷺ وسينشأ في المستقبل إن شاء الله تعالى أمثالهم. إن الولاية ليست من ساحتي، إذ لست إلا شخصاً معجباً بهم ولا أستطيع أن أبلغ كعبهم، وإن شاء الله تعالى ستنفتح الكثير من العيون على الكثير من الحقائق، وعند ذلك سيعلنون تصديق ما قلت.

إن الرسول محمد ﷺ مرشد كبير إلى درجة أن تلاميذه سبقوا الجميع في عالم الروح وتربية النفس وسبقوا كل مدعي الإرشاد حاليا. وإذا جرت الأمور في سيرها الطبيعي فإنهم يستطيعون القول من الآن: "إن مستقبل العالم لنا." أجل، إن محيي الدين بن عربي سحر الغرب أيضاً إلى درجة أن الآلاف من الألمان وصلوا إلى نور اليقين عن طريق الأنوار

---

(١) «جامع كرامات الأولياء» للنبهاني ١٥٨/٢

التي نشرها ابن عربي وأمثاله. فإذا كان عبد القادر الكيلاني أو جلال الدين الرومي أو الإمام الرباني أو بديع الزمان سعيد النورسي يحولون القلوب ويوجهونها نحو الرسول محمد ﷺ فهذا بفضل القوة القدسية التي استمدوها من مرشدهم ومن أستاذهم ﷺ.

كان جلال الدين الرومي رجلاً في القمة – مع أن بعضهم قد أفرط في حقه– إلا أنه كان من العمالقة الذين فتحوا قلوبهم على العالم اللانهائي وسبحوا بفكرهم في عالم الملكوت... لقد كان ممثلاً للعشق والوجد الإلهي...أنموذجا للأخلاص والتفاني، ومن أكبر المكتشفين لطرق الوصول إلى الحقيقة المطلقة والدالين عليها بأسلوب ضرب الأمثلة وإيراد القصص. كما كان في الوقت نفسه من أبطال الكلمة والبيان.. يستطيع بعصاه السحرية فتح وسحر القلوب.

ج- أرباب البيان

لقد كان رسول الله ﷺ سلطان الفصحاء للعرب والعجم... وهناك شهود ملء الدنيا على ما نقول، فاعتباراً من حَسّان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة إلى كعب بن زهير بن أبي سلمى. ومن لبيد إلى الخنساء بت زهيرة... ثم من أدباء العصر الأموي والعباسي والسلجوقي نرى أن جميع أمراء البيان وفرسان البلاغة يعدون الرسول ﷺ في أوج قمة البلاغة ويزينون كلامهم ببيانه وبفصاحته وبأقواله الجامعة المانعة ولا يقصرون في إبداء الاحترام والتوقير له...

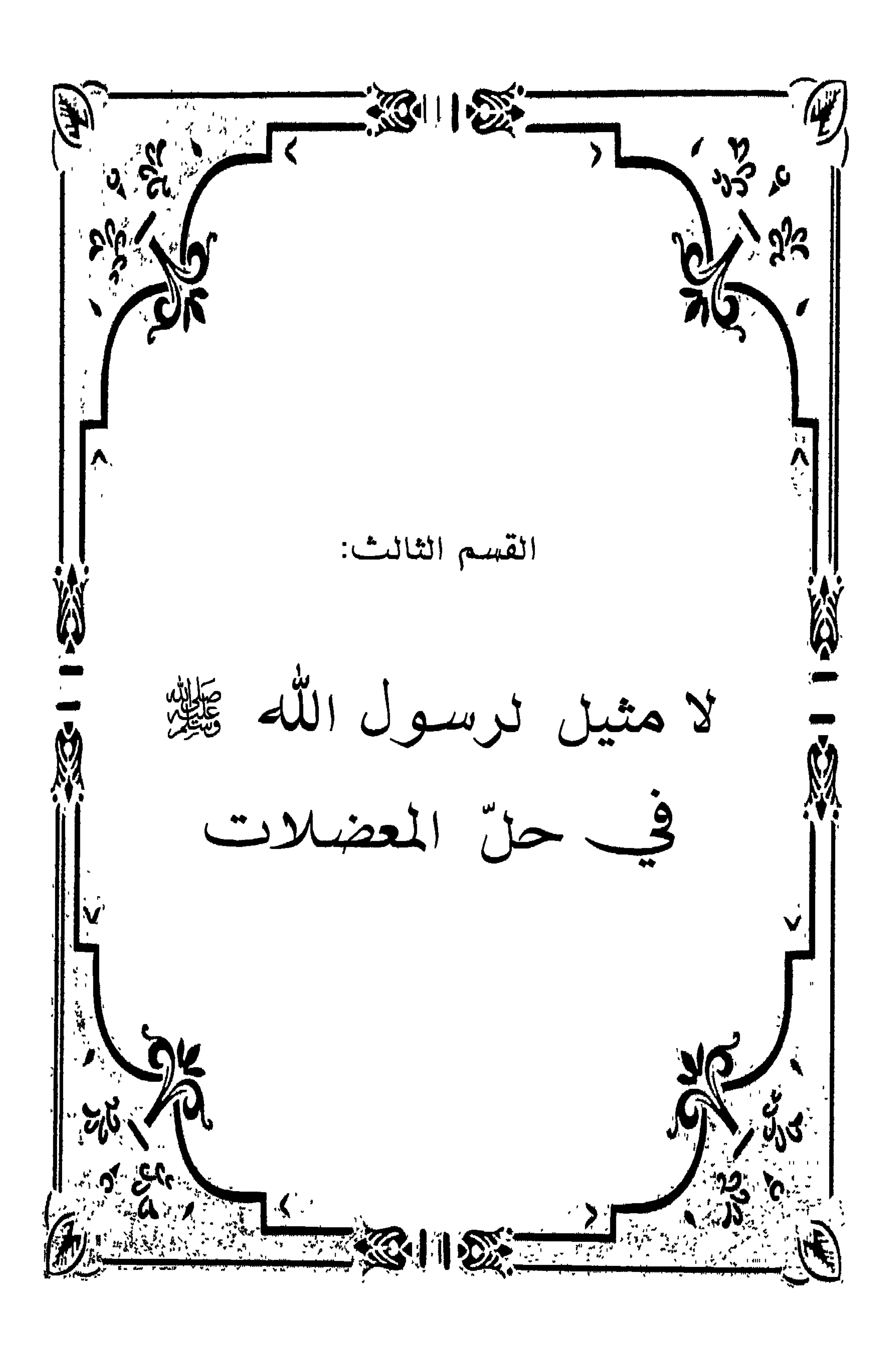
وهذا نشاهده بكل وضوح عند الشعراء الإيرانيين. وينقل لنا حيدر بامّاد هذا القول للشاعر الألماني "غوته (Goethe)": "نرى في التاريخ الإسلامي ولاسيما في العهود التي حكم فيها العباسيون والسلاجقة وإيران بروزَ نبوغ شعراء عمالقة في إيران، ولكن العالم الإسلامي اختار من بين هؤلاء أربعة أو خمسة من الشعراء فقط."

ويستمر "غوته (Goethe)" –وهو الأديب الذي فتح عهداً جديداً في الأدب الألماني

بروايته "فاوست (Faust)"– في كلامه فيقول: "لقد نبغ في هذا البلد أدباء عمالقة. ولكن العالم الإسلامي اهتمّ بخمسة منهم فقط وهم: مولانا جلال الدين الرومي، وحافظ والفردوسي والأنوري ونظامي. وأهمل الباقين، أي لم يعدهم شعراء. ومن الذين أهملوا ولم يعتبروا من الأدباء أشخاص تمنيت لو أنني كنت تلميذاً على أيديهم."

أجل، لا تندهشوا! فهذه هي الحقيقة... واعلموا إذن، لمن نكيل المديح وننفخ فيه كالبالون، ومن الذين أهملناهم. إن كنا لا ندري فلندر... لا يوجد هناك أديب غربي لا يقلد "حافظ الشيرازي"، والأدب العثماني متأثر كثيراً بـ"حافظ" وبروح وعالم "حافظ..." أجل، فكل هؤلاء الأدباء سواء أكانوا إيرانيِّين أم عرباً أم أتراكاً... كلهم من تلامذة مدرسة الرسول ﷺ حيث استخدموا المعاني التي تلقوها من هذه المدرسة.

هناك أمور كثيرة حوله ﷺ كنت نويت أن أعرضها ولكني أقف هنا لكي لا أطيل الكلام... ومن بين هذه الأمور الجانب العسكري فيه ﷺ.



القسم الثالث:

لا مثيل لرسول الله ﷺ في حلّ المعضلات

تمهيد

هناك بُعد آخر في فطنة رسولنا الكريم ﷺ وهو قيامه بحل كل المشاكل والمعضلات التي تظهر أمامه -مهما كان نوعها- بكل سهولة ويسر وكأنه يستل شعرة من عجين، وهذا دليل من أدلة رسالته ونبوته. هناك أمور مهمة يجب توفرها في كل إداري ناجح وفي كل قائد وزعيم نسطر بعضها فيما يأتي:

١- يجب ألا تكون الرسالة التي يحملها تتناقض مع الحياة أو تتصادم معها. ويجب أن يكون مصراً على دعوته متمسكاً بها واثقاً أنها صالحة الآن وستكون صالحة في المستقبل. فكما يستطيع أي إنسان أن يشرح بكل ثقة ويصف بكل دقة حادثة رآها بأم عينيه ولا يخشى أن يتهم بالكذب في شهادته تلك، لأنه واثق من نفسه ومطمئن إلى قوله الحقيقة، كذلك لا بد أن يكون القائد أو الزعيم واثقاً نفس هذه الثقة من صحة الرسالة التي يحملها وكونها حقا وخيراً. بل إن ثقته وحدها لا تكفي إذ يجب ألا تكون رسالته متناقضة مع الحياة ومعاكسة لها، أي يجب ألا تقف أمام رحى الحياة الدائرة.

٢- على القائد أن يكثف جهوده لتربية وإعداد الأفراد، وأن ينشغل على الدوام مع العنصر الإنساني، وأن تأخذ الثقافة محلا مرموقاً في جهوده.

٣- على القائد أن يعرف عناصر مجموعته معرفة جيدة، ويعرف لمن يعهد مسؤولية معينة، ويعرف جيداً مدى قابلياتهم والأعمال التي يستطيعون إنجازها. وعليه أيضاً أن يعير خططه بشكل لا ينزعج من سرعةِ وتيرة التخطيط لا الفردُ الاعتيادي في المجتمع ولا أنشطُ الأفراد.

٤- يجب أن يكون القائد منفتح الصدر لحل مشاكل أتباعه. وهذه المشاكل قد تكون مشاكل فردية أو عائلية، أو إدارية أو قانونية أو اقتصادية أو اجتماعية، فعلى القائد أن يكون قادراً على حل جميع هذه المشاكل.

٥- يجب أن تكون تعليمات القائد وأوامره وتوجيهاته من النوع القابل للتطبيق، فالقائد الناجح يبتعد على الدوام من التعليمات والاقتراحات الخيالية التي لا يمكن تطبيقها، أي على القائد أن يحدس أحداث اليوم وموضوعاته من اليوم السابق، وأن يحدس أمور المستقبل منذ اليوم ويضع خططه على أساس هذه الرؤية البعيدة لكي لا تعرقل خطة اليوم الحالي التنفيذ في المستقبل وإلا تضاربت أعمال اليوم وأعمال المستقبل وعملت إحداهما ضد الأخرى. أجل، فالقائد الحقيقي يجب أن يحدس ما ستؤول إليه الحوادث الاجتماعية الحالية في المستقبل، لكي لا تفسد المفاجآت المستقبلية أعماله وخططه الحالية.

إذن، إن المبادئ الواقعية وغير الخيالية للقائد يجب ألا يسبقها الزمن، بل يجب أن تحتفظ هذه المبادئ بنضارتها وحيويتها على الدوام، بحيث أن إنسان كل عهد عندما يتوجه نحوها ويقبل عليها يجد فيها دواء لمشاكله وحلا لمعضلاته كمن يشرب من ماء الحياة، وتكون هذه المبادئ عصية على الزمان، فلا تتبدل بتبدل العصور والعهود، بل تزداد شباباً وحيوية على مر العصور. ويكون على الدوام أفضل وأحسن من يطبق اقتراحاته وتعليماته ويعيشها بنفسه ويراعيها حتى أدق تفاصيلها.

عندما نطالع هذه المبادئ التي هي بعض شروط القيادة الناجحة ونأخذها بنظر الاعتبار نرى أن أفضل وأنجح قائد في تاريخ الإنسانية كلها هو محمد ﷺ صاحب الفطنة العظمى، وهذا يشمل جميع الأنبياء أيضا، ذلك لأنه كان قمة لم يصل إلى مستواها أحد في تطبيق جميع هذه المبادئ للقيادة الناجحة.

صحيح أننا نعتقد هذا من منطلق إيماننا، إلا أن الغرب بدأ يدرك هذه الحقيقة باستخدام الحاسبات والعقول الألكترونية، وهذا شيء مفرح لنا. والحادثة التي عدت بنظر الكثيرين مفاجأة كبيرة خلاصتها وأساسها هي القيام بتثبيت الأوصاف والصفات والمميزات التي جعلت من أشخاص عديدين رجالاً عظماء وقادة كباراً ثم إعطاء هذه

المعلومات إلى العقول الألكترونية لكي تقوم بترتيب تسلسل هؤلاء العظماء حسب درجة عظمتهم، وبعد عمل طويل وشاق تم هذا الأمر وظهر على الشاشة اسم رسولنا ﷺ... أجل، لقد ظهر لهم أن أكبر قائد وأكبر زعيم وأعظم رجل هو رسول الله ﷺ.[1] والآن لنتناول هذه المبادئ التي ذكرناها ونعطي حولها بعض الأمثلة الشاخصة بعد أن ذكرناها بشكل تجريدي:

(١) يشير الكاتب هنا قيام أحد الكتاب الأمريكيين، وهو "ميشيل هارات" بتغذية الحاسب الألكتروني بالمعلومات الضرورية لمعرفة أهم مائة شخص أثروا في التاريخ الإنساني، فكان الرسول ﷺ هو الأول في تلك القائمة. وصدر كتاب حول هذا اسمه "The Hundred". (المترجم)

الفصل الأول: رسالة القائد والحياة

لقد أتى رسولنا ﷺ بمبادئ عديدة للإنسانية، ولم يكن أي مبدأ منها يتصادم مع الحياة أو يتناقض معها. ثم إنه ذكر هذه المبادئ وهو واثق منها تمام الثقة ودون أن يحمل أي شك أو تردد أو ريبة حولها.

تناول في أحاديثه كل شيء تقريباً... من العرش إلى الفرش... من الجنة إلى جهنم... من الإنسان الأول حتى يوم القيامة... تناول كل هذه الأمور بالشرح والإيضاح. واهتم على الأخص بشؤون أمته والحوادث الآتية المتعلقة بها حتى إنه عدد بعضها وأعطى لها الأسماء وكأنه يراها على شاشة تلفزيون دون أي تشوش... أجل، لقد كان واثقاً من كل ما يقوله، ذلك لأن الله تعالى بسط أمام ناظريه الكتاب المبين والإمام المبين وأراه الشيء الكثير من ألواح القدر... كان يرى ذلك ثم يشرحه، لذا فمن الطبيعي أن تكون المبادئ التي أتى بها مثل هذا الشخص العظيم مبادئ أبدية. وما أجمل ما قاله سلطان الشعراء نجيب فاضل:

الغد لنا... طبعاً لنا...

إن أشرقت الشمس أو غربت... فالأبد لنا.

يشرح هذا الشاعر بكلماته هذه مدى ثقته بمبدئه وعقيدته. وعندما نطالع كلمات هذين البيتين على ضوء دعوة الرسول ﷺ فإنها تأخذ أبعاداً عميقة... الشمس تشرق وتغرب... والأيام والسنين والعصور تمضي، ولكن الرسالة التي أتى بها رسول الله محمد ﷺ ستبقى خالدة إلى الأبد.

أ- كان واثقاً وذا عزم

يروي ابن إسحاق رحمه الله أن قريشاً قصدت أبا طالب للتفاوض مع رسول الله ﷺ فاستدعى أبو طالب النبي ﷺ وقال له: هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليعطوك

وليأخذوا منك. كان رسول الله ﷺ واثقاً من نفسه ويعرف ما يريده فقال: «أريد منهم أن يقولوا كلمة واحدة يحكموا بها العرب والعجم.» ففرح القوم وقالوا: فدينـاك بأنفسنا... وما هي؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: «قولوا لا إله إلا الله تملكوا بها العرب والعجم.»[1] وفعلاً حكموا العرب والعجم...

وما أكثر الدول والأمم التي أسرعت إلى ظلال الإسلام... وأمتنا الأصيلة[2] هـذه انتبهت إلى الإسلام مبكراً وأسرعت إليه قبل أحد عشر عصراً دون أن تفقد وقتاً كثيراً... تأملوا..! لقد أسرعت جماعة تتألف من ألف خيمة إلى الإسلام في ظرف سنة واحدة ودون أن يكون هناك أي إكراه. وهذا الإقبال المخلص على الإسلام هو الذي يسر لهم رفع راية الإسلام في العالم أجمع والدفاع عنه طوال عشرة قرون تقريباً... فظهر منهم حملة لراية الإسلام مثلما كان حمزة ومصعب والزبير وابن جحش من الحملة الأوائل لراية الإسلام في عهد النبي ﷺ... جاءوا من سفوح جبال الهملايا ليحملوا مسؤولية الذود عن هذه الراية وعن هذا الدين طوال عصور وعصور (ندعو الله تعالى أن يحفظ هذه الأمة النجيبة في طريق الدفاع عن الإيمان وعن القرآن).

أجل، لقد كان رسول الله ﷺ يبلغ رسالة ربه بثقة دون أن يتنازل عن شيء منها ودون أن يساوم على شيء منها... كان واثقاً من يومه ومن غده إذ يقول لهم «إن اتبعتموني دانت لكم العرب والعجم وسيكون البيت الحرام مثابة للناس وأمنا...» وعندما حان الوقت المناسب تحقق كل ما قاله لهم، ففي كل عام يطوف الملايين من الناس حول البيت الحرام مثلما ينجذب الفراش إلى هالة النور. وحينما قال النبي ﷺ هذا القول لم يكن هناك أي أمارة أو إشارة أو علامة في تؤيد هذا القول... أجل، فإن من الضروري أن يثق الزعيم والقائد بما يقوله لكي ينشر الثقة بين الآخرين.

---

(١) «المسند» للإمام أحمد ٣٦٢/١؛ «السيرة النبوية» لابن هشام ٥٨/٢-٥٩؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ١٥٢/٣؛ «المستدرك» للحاكم ٤٣٢/٢

(٢) يقصد الكتاب الأمة التركية. (المترجم)

ينقل الحاكم في المستدرك حادثة عَدِيّ بن حاتِم التي سبق وأن ذكرتها وأستسمح القراء في إعادتها هنا... وعدي هو ابن حاتم الطائي المشهور في التاريخ العربي بسخائه وجوده. ينقل لنا عدي بن حاتم ﷺ حادثة إسلامه وكيف زار النبي ﷺ وهو متردد فقال له النبي ﷺ: «فلعلك إنما يمنعك عن الإسلام أنك ترى من حولي حصاصة. إنك ترى الناس علينا إلباً.» ثم قال: «هل رأيت الحِيرة؟» قلت: لم أرها وقد عرفت مكانها قال: «فليوشكن أن الظعينة ترحل من الحِيرة بغير جوار حتى تطوف بالبيت، وليفتحن علينا كنوز كسرى»، قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «كسرى بن هرمز، ويوشك أن لا يجد الرجل ماله صدقة» وقال: فرأيت الظغينة ترحل وأحلف ليفتحن الثانية بقول رسول الله ﷺ وهو الحق.[1]

هكذا كان رسول الله ﷺ يخاطب بكل ثقة أصحابه والذين التفوا من حوله. ولم يكن يدور بخَلَد أحدهم ذرة واحدة من الشك أو الريبة حول ما يقوله، كما أن الأيام كانت تؤيد ما يقوله عندما يحين أوانه.

ب- طلب الأغنياء التمايزَ

كان الفقراء أول من استجابوا للرسول ﷺ، وكانوا في الأغلب من الشباب، أما الأغنياء من مشركي قريش من الذين تحجرت أدمغتهم في بوتقة الكفر فكانوا في عناء دائم. ولكن عندما ظهر سر الآية ﴿ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً﴾ (النصر: ٢). أدرك هؤلاء أيضاً ضرورة الدخول في دين الله. ولكن معظم من كانوا حوله في البداية كانوا من الشباب... من الشباب الفقراء.

ولم يكن أشراف مكة وأغنياؤهم ورؤوس القوم مرتاحين من هذا، فكانوا يراجعون الرسول ﷺ ويطلبون منه أن يخصص لهم يوماً لا يدخل فيه أحد عليه غيرهم... أي لم

(١) «المسند» للإمام أحمد ٢٥٧/٤؛ «المستدرك» للحاكم ٥١٨/٤

يكونوا يرغبون في حضور الفقراء أمثال بلال وعمّار وياسر وخبّاب، فهم أشراف القوم فكيف يجلسون معاً مع الفقراء والدهماء![1] ولأنهم اعتادوا في ذلك المجتمع على مثل هذا التصرف والسلوك فإنهم عدوا طلبهم هذا طلباً اعتيادياً وطبيعياً ومشروعاً. ولكن الأمر لم يكن كما يتصورونه، ومع أنهم كانوا يتوقعون من الرسول ﷺ الترحيب بطلبهم هذا إلا أن الله تعالى كان قد نبه نبيه قائلاً له ﴿ولا تَطْرُدِ الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين﴾ (الأنعام: ٥٢).

أنت رجل الشؤون والمهمات الكبرى، فلا تشغَل نفسك بالحسابات الصغيرة أمثال طرد المؤمنين الفقراء رجاء هداية الأغنياء... لأن هذا ظلم، وأنت بعيد عن الظلم... أجل، إن من الظلم أن تطرد الفقراء لكي يرضى عنك الأغنياء. وعصم الله تعالى نبيه –وهو أعدل إنسان– منذ البداية في هذا الأمر.

ويتناول الموضوع نفسه في سورة الكهف فيقول لنبيه: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تَعْدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبَه عن ذِكْرِنا واتّبع هواه وكان أمره فُرُطاً﴾ (الكهف: ٢٨).

كان القرآن يقول له: كن مع الذين يدعون ربهم ويذكرونه على الدوام، ولا تصرف نظرك عنهم إلى غيرهم، وعاشر هؤلاء لأن رحمة الله معهم، فقد يرحم الله الناس بفضل هؤلاء... بفضل عمّار أو ياسر أو بلال وعلي وخبّاب وابن مسعود، فهؤلاء هم مطمح أنظار الرحمة الإلهية وقد يدفع بهم الله البلايا فكأنهم يقومون بوظيفة مانعة الصواعق. كان القرآن الكريم يقول هذا في الوقت الذي لم يكن حول الرسول سوى أربعة أو خمسة من الفقراء... ولكنه مع هذا كان متفائلاً وواثقاً من المستقبل ويؤمن بأن معظم هؤلاء المتمردين العتاة سيسلسون قيادهم وسيقبلون على الإسلام وسيضعون القرآن فوق

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير ١٢٩/٣

رؤوسهم، لذا فلماذا يقوم بطرد المؤمنين الفقراء المتحلقين من حوله من أجل هؤلاء؟ ثم كيف يستطيع الرسول ﷺ إبعاد هؤلاء عنه وهو الذي كان يقول: «إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة: عليّ وعمّار وسلمان.»[١]

أجل، فبينما يشتاق الجميع إلى الجنة فإن الجنة تشتاق إلى هؤلاء... تشتاق إليهم كما يشتاق العاشق إلى معشوقه، وكما تشتاق العين إلى الجمال وكما يشتاق الوجدان إلى الرؤية والقلب إلى المشاهدة.

كان سيد المرسلين يعلم أن هذا الكادر المحيط به هو بالمستوى الذي يستطيع أن يحكم العالم وأن يجري انقلابا كبيرا فيه، لذا كان يتصرف حسب علمه هذا، لذ لم يكن يشك لحظة واحدة أن الدنيا كلها من شرقها إلى غربها ستدين بالمبادئ وبالحقائق التي جاء بها، إذ كان واثقاً من إنجاز الله تعالى وعده له ومطمئناً لذلك. ومن ثم رد طلب المشركين ولم يلق لهم بالا، بل أحاط هؤلاء الفقراء بحبه واحتضنهم برعايته.

(١) الترمذي، المناقب، ٣٣

الفصل الثاني: القائد والعنصر الإنساني

لم يهمل الرسول ﷺ العنصر الإنساني طوال حياته السنية، حتى أنه عندما كان يرسل بعضهم إلى جبهة القتال كان يحاول في الوقت ذاته المحافظة على المستوى الرفيع لمواضيع الأمور الثقافية والعلمية للإنسان. وما كان يمكن أن يكون إلا هذا. ذلك لأن القرآن الكريم كان يخاطبه قائلاً: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾ (التوبة: ١٢٢).

أجل، فعندما يجاهد المؤمنون يجب أن تبقى طائفة منهم في الوراء لكي تتفقه في الدين ولكي تقوم بنقل تعاليم الدين إليهم، فحتى عندما يكون الجهاد فرض عين يجب أن تبقى أبواب بيوت الثقافة مفتوحة على مصاريعها، ولو سدت جميع أبواب معاهد العلم والثقافة عندما يحيط الأعداء بالبلاد من كل جانب فإنه حتى لو تم إحراز النصر من الناحية المادية فإن البلاد تكون قد خسرت الشيء الكثير باسم العلم والثقافة. لذا، فإن الإسلام يوصي بأن تبقى طائفة من الناس ولا تذهب إلى جبهات القتال حتى في مثل هذه الظروف غير الطبيعية لكي يتفرغوا لمسائل العلم والثقافة. فلم يهمل رسول الله ﷺ مواصلة التعبئة العلمية والثقافية حتى في أصعب الظروف، إذ كرس الذين لم يذهبوا إلى جبهات القتال أنفسهم لدراسة العلم والثقافة، وكما قلنا سابقاً فإنه بينما كان عدد الذين يقرأون ويكتبون في بداية الدعوة الإسلامية يعدون على أصابع اليد لم يبق هناك فرد واحد لا يعرف القراءة والكتابة بعد عشرين عاماً من بدء الدعوة الإسلامية وكان هذا نتيجة لجهود الرسول ﷺ.

أجل، إنه لم يهمل في أي وقت من الأوقات الاهتمام بالعنصر الإنساني، وعرف كيف يربي الفرد من جميع جوانبه ويربي الأمة تربية صحيحة وسليمة، علم وأمر بالتعليم، وقلب الأشياء النظرية إلى أمور فعلية وقام بنفسه بوظيفة معلم فربى التلاميذ، فأنشأ مجتمع علم وإيمان في دنيا خامدة وبين جماعات هامدة.

وبعد المنشئ والمعماري الأول يستطيع المجتمع أن يستخرج الإداريين من بين أفراده، ويجب ألا يخلط هذا مع الأول.

أجل، إن المجتمع المنفتح على العلم وعلى الفكر وعلى التقنية يدار من قبل أشخاص يمثلون هذا المجتمع ويكونون دائماً من زبدة هذا المجتمع. فإن وجد العمل والثقافة والتقنية فإن الزبدة تتشكل على الدوام في هذا المجتمع. ويشرح رسول الله ﷺ هذا الأمر بكلمات وجيزة وجامعة فيقول: «كما تكونوا يُوَلَّى عليكم.»[1]

هناك آيات كريمة عديدة تهتم بالعنصر الإنساني وتشوق على هذا الاهتمام وتدعو إليه. وبمطالعة هذه الآيات بأجمعها يتوضح مدى الاهتمام الذي يبديه الدين الإسلامي للإنسان. ولكوننا لا نريد تدقيق هذا الموضوع والدخول إلى تفاصيله فإننا نكتفي هنا بالإشارة إلى آية أو آيتين لإعطاء فكرة مبسطة عنه.

﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلي الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ (آل عمران: ١٠٤) و ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ (آل عمران: ١١٠).

هذه الآيات وأشباهها مهمة جداً من زاوية اهتمام الإسلام بالإنسان وبالعلم.

لقد تناول الإسلام قلب الإنسان وروحه ومشاعره وعواطفه وتفكيره بشكل متوازن ووجهها نحو الغاية من خلقه... لا إهمال ولا عدم توازن. بل التوجه بهذه المشاعر والأحاسيس بأجمعها لمشاهدة ما وراء أستار الوجود، ولم يهمل الرسول ﷺ هذا الأمر طوال حياته السنية، وهذا شيء مهم بالنسبة للمرشد.

فكم من مرشدين لم يستطيعوا استغلال العناصر البشرية والإمكانيات المتاحة لهم فواجهوا الفشل... أي لم يستطيعوا صيانة أنفسهم من الوقوع في الأخطاء وهو على

---

(١) «كنز العمال» للهندي ٨٩/٦

أبواب النصر. فالذين ملأوا الشوارع بمظاهرات الشباب إنما خاطبوا المشاعر واهتموا بها. ولكن مخاطبة المشاعر وحدها لا تنفع في الاعمال التي تتطلب الاستمرارية والدوام، علماً بأن رسول الله ﷺ لم يفكر أبداً في جمع الناس خلفه بإثارة مشاعرهم وعواطفهم، ذلك لأن هؤلاء الذين يتجمعون بمثل هذه العاطفة يمكن أن ينفضوا عنه نتيجة عاطفة أخرى فيبقى وحيدا، بينما لم يتخل أصحاب رسول الله ﷺ عنه حتى في أحلك الساعات وأصعبها وأثقلها... دع عنك التخلي عنه، بل كانوا يفدونه بأرواحهم ويعدون الموت في سبيله وفي سبيل دعوته أمنية حياتهم.

ولنرجع إلى الصدد: إذا كان بلد ما بلداً معموراً فهو معمور بإنسانه، وهذا هو ما فعله الرسول ﷺ، فالأفراد الذين بعثهم إلى مختلف أقطار الأرض أبْدَوْا دراية وحنكة في إدارة الدولة والشعوب ولم يقصروا في فتح المدارس ودور العلم، وهذا يظهر لنا أن الرسول ﷺ نجح في تربية وتنشئة وإعداد أصحابه وتابعيه... والأهم من ذلك أنه أولى الإنسان عناية أكبر من غيره.

الفصل الثالث:

القائد واستخدام الكفاءات في المكان المناسب

لقد استخدم الرسول ﷺ أصحابه ومن اتبعه بشكل صحيح، فوضع كلا منهم في مكانه المناسب، وعندما كان يعطي مهمة ما لأحدهم فمن المؤكد أنه كان أنسب الأشخاص الموجودين لتلك المهمة وإجراءاته شاهدة على هذا، إلى درجة أنه لو لم يكن هناك دليل آخر على نبوته لكان اكتشافه لقابليات الأفراد واستعمال كل فرد منهم في موضعه الصحيح وفي مكانه المناسب وإعطاء كل واحد منهم الوظيفة المناسبة والملائمة له للاستفادة القصوى من قابلياته وطاقاته وعدم وقوعه في أي خطأ في هذا الموضوع، أي استمراره في استخدام الأشخاص في الوظائف التي وكلها إليهم حتى أواخر أعمارهم –هذا باستثناء الحالات التي استخدم بعضهم لمدة مؤقتة تألفاً لقلوبهم ومراعاة لحالاتهم النفسية– دليلاً قائماً بذاته على هذه النبوة بحيث لا نملك إلا أن نهتف: "محمد رسول الله."

لقد حفلت المرحلة الأولى للإسلام بالآلام وبالمحن وبأيام شديدة قاسية، ففي ظرف (٥–٦) سنوات بلغ عدد المؤمنين أربعين شخصاً فقط... وما كان في الإمكان آنذاك أن تحدث شخصاً حول الإسلام دون أن تخاطر بحياتك: حتى أن شخصاً في مكانة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ضرب مرات عديدة وأغمي عليه من شدة الضرب[١] وعمر بن الخطاب رضي الله عنه... هذا الرجل القوي الجبار الذي كان يصارع الجمل، ضرب مرات عديدة وديس عليه.[٢] فإذا كان الظلم والقهر قد وصلا إلى هذا المستوى مع هؤلاء الأشخاص المعروفين. فتصوروا أنتم حال الآخرين من الناس.

في هذا الجو القاتم والمكفهر تعامل الرسول ﷺ مع كل واحد معاملة خاصة، فلم يأمر

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير ٣/٤٠–٤١

(٢) «البداية والنهاية» لابن كثير ٣/١٠٢؛ «السيرة النبوية» لابن هشام ١/٢٣٤

مثلا أبا بكر وعمر رضي الله عنهما بالهجرة إلى الحبشة، ولم يأمر كذلك علياً وزبيراً لصغر سنهما، ذلك لأن أمثال هؤلاء كانوا من الذين يستطيعون تحمل ما يجري في مكة.

كان عثمان بن عفان رضي الله عنه ذا بنية نحيفة، وكان من الصعب عليه أن يتحمل ذلك الجو القاسي الذي كان يعصف في مكة، ثم كان هو أفضل من يستطيع حماية المسلمين في الحبشة، لذا كلفه الرسول ﷺ بهذه المهمة وأرسله إلى الحبشة.[١]

إليكم نماذج من هذا الأمر:

أ- أبو ذر الغفاري رضي الله عنه

فمثلاً جاء أبو ذر الغفاري رضي الله عنه إلى مكة ثم أعلن إسلامه، ولكن وجود مثل هذا الشخص ذي المشاعر الفوارة والعواطف المتأججة في مكة آنذاك لم يكن مناسباً بل ضاراً له ولغيره، لذا أمره الرسول ﷺ بالرجوع إلى قبيلته والقيام بمهمة الإرشاد هناك وقال له: «ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري.» فرجع إلى قومه ولم يأت إلى الرسول ﷺ إلا بعد فتح خيبر.[٢]

كان أبو ذر عابداً زاهدا،[٣] ومن أنصار العدالة الاجتماعية إلى درجة قد تحير علماء الاجتماع الحاليين، وهو في نظر البعض منهم أول من طرح الفكر الاشتراكي. لندع أفكارهم هذه لهم ولنرجع ونتساءل. ما الفقر؟ وكيف يمكن محاربته؟ كان أبو ذر رضي الله عنه أول بطل طرح هذا الأمر، وهو أحد الثلاثة الذين تشتاق لهم الجنة.[٤] ومع ذلك فإنه عندما جاءه يطلب الإمارة رده. ففي الحديث الوارد في صحيح مسلم عن أبي ذر: قال:

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٢٤٤/١؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٨٤/٣

(٢) البخاري، مناقب الأنصار، ٣٣؛ مسلم، فضائل الصحابة، ١٣٢-١٣٣؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٤٥/٣-٤٧

(٣) «مجمع الزوائد» للهيثمي ٣٣٠/٩؛ «الإصابة» لابن حجر ٦٢/٤

(٤) «مجمع الزوائد» للهيثمي ٣٣٠/٩

قلت: يا رسول الله! ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي ثم قال: «يا أبا ذر! إنك ضعيف. وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدّى الذي عليه فيها.»[١]

عندما قال النبي ﷺ هذا لأبي ذر ﷺ، لم يقل القول نفسه لأبي بكر أو لعمر ﷺ، على العكس من ذلك فقد أشار إلى إمارتهما عندما أمسك بيده اليمنى يد أبي بكر ﷺ وبيده اليسرى يد عمر بن الخطاب ﷺ وقال: «إن لي وزيرين من أهل السماء ووزيرين من أهل الأرض. فوزيرايَ من أهل السماء جبريل وميكائيل ووزيرايَ من أهل الأرض أبو بكر وعمر.»[٢]

ومن ناحية أخرى فقد اطلع من وراء ستار الغيب إلى خلافة الصحابة الأربعة الراشدين وأعطى بعض الإشارات والإيماءات حولها. وعندما جاء ذكر عثمان بن عفان ﷺ قال ﷺ: «ائذن له وبشره بالجنة مع بلوى تصيبه.»[٣] وفعلاً أحاطت البلايا بأواخر خلافة عثمان ﷺ.

أجل، كان يعرف أفراد كادره معرفة جيدة... بل كان يعرفهم أكثر مما يعرفون هم أنفسهم، فلم يخطئ أبداً عند إسناد المهمات إلى أي فرد منهم، فقد يعتقد أبو ذر ﷺ أنه أهل للإمارة، ولكن رسول الله ﷺ كان يعرف أبا ذر أكثر مما يعرف أبو ذر نفسه، لذا قال له: «يا أبا ذر! إنك ضعيف. وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة...» قال له هذا ولم يعطه إمارة. والآن لنعط مثالاً حول هذا الأمر.

---

(١) مسلم، الإمارة، ١٦، ١٧؛ «المسند» للإمام أحمد ١٧٣/٥

(٢) «كنز العمال» للهندي ٥٦٣/١١، ١٥/١٣

(٣) البخاري، فضائل أصحاب النبي، ٥-٧؛ مسلم، فضائل الصحابة، ٢٩

ب- عمرو بن عَـبَـسَـة رضي الله عنه

جاء في صحيح مسلم ومسند ابن حنبل ﷺ عن عمرو بن عَبَسَة أنه جاء إلى النبي ﷺ بمكة فقال له بغلظة: ما أنت؟ قال: «أنا نبي.» فقلت: وما نبي؟ قال: «أرسلني الله.» قلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: «أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان وأن يوحّد الله لا يُشرك به شيء» قلت له: فمن معك على هذا؟ قال: «حرٌّ وعبد» قال ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به. فقلت: إني متبعك.

حدث هذا في العهد المكي وفي وقت كان الرسول ﷺ في حاجة ماسة إلى أي رجل فرد يقف بجانبه ليزداد قوة، ولكن الرسول ﷺ كان يعلم من يستعمل وأين يستعمل ذلك الشخص، وما المهمة التي يعهدها إليه، لذا فقد قال لعمرو بن عَبَسَة ما قاله لأبي ذر الغفاري... قال له أن يرجع إلى قومه لأنه لن يستطيع المكوث في مكة ومقاومة الظلم والإرهاب فيها: قال: «إنك لا تستطيع ذلك يومَك هذا. ألا ترى حالي وحال الناس؟ ولكن ارجع إلى أهلك فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني»

وهكذا كان... إذ رجع عمرو إلى قومه... ومرت السنوات وبدأت الانتصارات تتوالى على الرسول ﷺ وعلى المسلمين، وبلغت أنباؤها عمراً فتوجه إلى المدينة المنورة وقصد المسجد النبوي حيث كان النبي هناك مع أصحابه... لنتابع الرواية: فقدمتُ المدينة فدخلت عليه فقلت: يا رسول الله أتعرفني؟ قال: «نعم، ألست أنت الذي أتيتني بمكة؟.»(١)

واندهش عمرو من ذاكرة النبي ﷺ... لأن تذكّر عمرو للحادثة في مكة ليس مهماً، لأنه لا يمكن أن ينسى هذه الحادثة التي تعد أهم حادثة في حياته ولكن الوضع يختلف بالنسبة لرسول الله ﷺ، فقد مرت عليه حوادث مشابهة عديدة ضمن هذه

---

(١) مسلم، صلاة المسافرين، ٢٩٤؛ «المسند» للإمام أحمد ١١٢/٤

السنوات العديدة الحافلة بالآلام وبالمشقات، فكان من الغريب أن يتذكر وجهاً رآه لمدة خمس دقائق فقط بعد كل هذه السنوات الثقيلة التي تنسي الشخص أقرب أصدقائه. ولكن الرسول ﷺ تذكره حالما رآه لأنه لم يكن ينسى أي إنسان ارتبط به. ولو لم يأت إليه عمرو بن عَبَسَة وأبو ذر ﷺ بعد فتح مكة لأرسل في طلبهما، لأن النصر إنما تم بعد فتح مكة.

أجل، لقد كان يعرف أتباعه أكثر مما نعرف نحن أولادنا. ذلك لأنه كان لكل إنسان مكانه الخاص في قلبه، لأن مثل هذه المعرفة كانت ضرورية له لكي يستطيع أن يوكل المهمات إلى أصحابها الذين يستطيعون إنجازها وحمل عبئها.

هل هناك في التاريخ قائد آخر كان على هذا القدر من العلم بكادره وأتباعه..؟ لا أظن ذلك... ذلك لأن رسول الله ﷺ لم يكن قائداً وزعيماً فقط بل نبيا أيضا، وكل كلامنا يدور حول محور نبوته هذه.

ج- جُليبيب ﷺ

كنا قد تكلمنا سابقاً عن جُليبيب... وكان ككل شاب آخر في مثل هذا العمر يتعرض لبعض المشاكل النفسية تجاه الجنس الآخر، وقد فهم الرسول ﷺ مشكلته هذه ودعا له. ولكن رسول الله ﷺ استطاع ببيانه الساحر أن يقنعه بترك هذا ثم دعا له.[1]

أصبح جليبيب من أعف الشباب في المدينة. عن أبي بَرْزَة الأسلمي أن جُليبيبا كان امرأ يدخل على النساء يمر بهن ويلاعبهن فقلت لامرأتي: لا يدخلن عليكم جُليبيب فإنه إن دخل عليكم لأفعلن ولأفعلن. قال: وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أَيِّمٌ لم يزوجها حتى يُعلم هل للنبي ﷺ فيها حاجة أم لا. فقال رسول الله ﷺ لرجل من الأنصار: «زوجني ابنتك» فقال: نعم وكرامة يا رسول الله، ونعم عيني. فقال: «إني لست أريدها

---

(١) «المسند» للإمام أحمد ٥/٢٥٦-٢٥٧

لنفسي» قال: فلمن يا رسول الله؟ قال: «لجُليبيب» قال فقال: يا رسول الله أشاور أمها. فأتى أمها فقال: رسول الله ﷺ يخطب ابنتك. فقالت: نعم ونعمة عيني. فقال: إنه ليس يخطبها لنفسه إنما يخطبها لجُليبيب. فقالت: أجليبيب إنيه أجليبيب إنيه أجليبيب إنيه؟ لا لعمر الله لا تزوجه. فلما أراد أن يقوم ليأتي رسول الله ﷺ ليخبره بما قالت أمها قالت الجارية: من خطبني إليكم؟ فأخبرتها أمها فقالت: أتردون على رسول الله ﷺ أمره؟ ادفعوني فإنه لم يضيّعني. فانطلق أبوها إلى رسول الله ﷺ فأخبره قال: شأنك بها فزوجها جُليبيبا. قال: فخرج رسول الله ﷺ في غزوة له قال: فلما أفاء الله عليه قال لأصحابه: «هل تفقدون من أحد؟» قالوا: نفقد فلانا ونفقد فلانا. قال: «انظروا هل تفقدون من أحد؟» قالوا: لا. قال: «لكني أفقد جُليبيباً» قال: «فاطلبوه في القتلى» قال: فطلبوه فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه. فقالوا: يا رسول الله ها هو ذا إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه. فأتاه النبي ﷺ فقام عليه فقال: «قتل سبعة، ثم قتلوه. هذا مني وأنا منه، هذا مني وأنا منه» مرتين أو ثلاثا ثم وضعه رسول الله على ساعديه وحفر له ما له سرير إلا ساعدا رسول الله ﷺ، ثم وضعه في قبره.[1]

أجل، لم ينسه... إذ لم يكن ينسى أيّا من أتباعه وأصدقائه، لأنه كان رمز الوفاء.

د- علي بن أبي طالب رضي الله عنه

كانت معركة خيبر قائمة والحصار مستمراً، ولكن الأيام مضت دون إحراز أي نتيجة. وفي أحد الأيام قال الرسول ﷺ: «لأعطين هذه الراية رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» فبات الناس يَدُوكُونَ[2] ليلتهم أيهم يُعطاها فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجون أن يعطاها فقال: «أين عليّ بن أبي طالب؟» فقالوا: هو يا رسول الله! يشتكي عينيه. قال: فأرسلوا إليه فأُتي به فبصق رسول

---

(١) مسلم، فضائل الصحابة، ١٣١؛ «المسند» للإمام أحمد ١٣٦/٢، ٤٢٢/٤، ٤٢٥

(٢) يَدُوكُونَ: يخوضون ويتحدثون في ذلك. (المترجم)

الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية.[١] وفعلاً فتحت خيبر على يد علي بن أبي طالب ﷺ وتحققت نبوءة الرسول ﷺ فما من أحد كلفه بمهمته إلا وأنجزها... فمثلاً قال عن خالد بن الوليد ﷺ إنه سيف الله[٢] وفعلاً أصبح خالد سيفاً من سيوف الله، فما من معركة دخلها إلا وانتصر فيها، لذا قال أبو بكر الصديق ﷺ: "لم تلد الأمهات رجلا مثل خالد."[٣]

وأودع الرسول ﷺ إلى القَعْقَاع بن عمرو التميمي أيضاً وظائف مهمة أنجز جميعها بنجاح حتى قال أبو بكر ﷺ في حقه: "لا يُهزم جيش فيه مثله."[٤]

وعيَّن أسامة قائداً على جيش وهو في السابع عشرة أو الثامن عشرة من عمره، وأرسله إلى مؤتة، وقد أظهر أسامة طوال حياته أنه كان أهلاً لمثل هذا الموقع.[٥]

هـ- الزوجات الطاهرات ﷺ

كان اختياره لزوجاته من بين المئات من النساء اختياراً موفقاً يستحق الوقوف عنده. إذ كان عليه أن يختار زوجات يستطعن تحمل عبء مسؤولية أمومتهن للمؤمنين، وكان مصيباً تماماً في اختياره. فقد بينت الأيام أنهن من الذهب المصفى، فقد أصبحن مرشدات ومعلمات وخدمن الإسلام خدمة كبيرة، وقمن بوظيفة التبليغ والإرشاد للعديد من الرجال العظام الذين ازدحموا على أبوابهن. فكم من زاهد وعابد وعالم أمثال مسروق وطاووس بن كيسان وعطاء بن أبي رباح أخذوا الدروس وتعلموا منهن وكانوا تلاميذ لهن ونهلوا من علمهن.

---

(١) البخاري، فضائل أصحاب النبي، ٤٩ مسلم، فضائل الصحابة، ٣٤

(٢) البخاري، فضائل أصحاب النبي، ٢٥

(٣) «رجال حول الرسول» لخالد محمد خالد ص٢٩٣

(٤) «الإصابة» لابن حجر ٢٣٩/٣-٢٤٠

(٥) البخاري، فضائل أصحاب النبي، ١٧؛ مسلم، فضائل الصحابة، ٦٣؛ «الإصابة» لابن حجر ٣١/١

فالرسول ﷺ كـان يختـار المرأة الـتي ستكون في المستقبل مرشـدة، ويهيئ لها إمكانيـة التعلم في بيته وإمكانية التعليم بحيث تصبح من ورثة دعوة النبوة في المستقبل، ولا توجد ضمن زوجاته الطاهرات امرأة واحدة لم تخدم هذا الهدف، فكما خدمت السيدة خديجة رضي الله عنها الإسلام في بدء الدعوة ووضعت كل ثروتها في هذا السبيل، خدمت الزوجات الأخريات هدف نشر المعرفة الإسلامية بنفس التصميم، وهكذا نعلم أنه ما اختار زوجاته بدءاً بخديجة رضي الله عنها وانتهاء بزوجاته الأخيرات إلا بفراسة النبوة، صحيح أنه تزوج خديجة رضي الله عنها قبل نبوته إلا أنه كان في ظل بشائر تلك النبوة وأماراتها، ولا يمكن تفسير اختياراته الصائبة كل هذا الصواب تفسيراً آخر.

الفصل الرابع: صاحب الفراسة المتنورة بالوحي

إن حصول أي قائد على ثقة جماعته وأتباعه مرتبط بحصوله على قبولهم له ورضاهم عنه من كل جانب من جوانبه ونظرهم إليه كشخص موثوق يمكن الاعتماد عليه. وهذا متعلق بقدرته على حل جميع مشاكل هؤلاء الأتباع سواء أكانت فردية أم عائلية، اجتماعية كانت أو اقتصادية أو سياسية. وكلما كان هذا القائد موفقاً في حله لهذه المشاكل كلما زاد قبوله من قبل أتباعه وزادت محبتهم وتقديرهم وتوقيرهم له، وأصبح لهم رمزاً أبدياً، وكان رسولنا محمد ﷺ قائداً للإنسانية لا شبيه له في حل مشاكلها ومعضلاتها.

هناك بديل لحل المشكلات، وهو اللجوء إلى الضغوط وإلى استخدام القوة وسن العقوبات والطرد من البلاد وحرمان الشخص من حقوق المواطنة وفتح أبواب السجن على مصاريعها وتطبيق صنوف التعذيب وبث العيون والجواسيس بين الناس وإشاعة جو من الإرهاب والفزع بين المواطنين... لن تستطيع حل أي مشكلة بهذا الأسلوب... لا تعجز فقط عن حل المشكلات بل ستتسبب في خلق تعقيدات عديدة وهزات عنيفة في المجتمع، لذا فهذا ليس أسلوبا للحل وإن كان البعض يتصوره طريقا ناجحا في حل المشكلات، إلا أنه في الحقيقة طريقا لإثارة المشكلات ودخول إلى دائرة مفرغة، وبينما تفرح لاعتقادك أنك حللت كل شيء، إذا بك تفاجأ بتعقيدات لم تخطر لك على بال. وعندما تتشكل مثل هذه الدائرة المفرغة فإن كل حركة تتحركها تغرقك في الوحل أكثر فأكثر حتى تكسر هذه الدائرة.

بينما قام رسول الله ﷺ بحل جميع المشكلات والمعضلات بكل سهولة ويسر دون أن يدخل داخل هذه الدائرة المفرغة ودون أن يستعمل الضغوط والإرهاب والقوة، بل أخذ الإرادة الإنسانية الحرة بنظر الاعتبار واحترمها. ولو أخذت هذه الناحية فقط بنظر الاعتبار دون النظر إلى حالاته الخارقة للعادة ودون النظر إلى معجزاته العديدة لآمنت بأنه رسول من عند الله... أجل، إنه رسول الله لا غير... وإلا كيف يمكنه حل كل هذه

المشكلات..؟ كيف كان يمكنه هذا مع أنه نشأ في مجتمع كان يثير المشكلات لأتفه الأسباب، وتنشأ بينهم الخصومات الدموية لأحقر الأمور وتشتعل الفتن لأهون الأشياء... مجتمع غارق في البداوة والضلالة والطغيان والظلام، لقد وضع الله تعالى عبء إرشاد مثل هذا المجتمع على كاهل النبي ﷺ. يقول القرآن الكريم:

﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾ (الحشر: ٢١). فهذه الآية تشرح كيف أن هذه المهمة التي أعطيت للرسول ﷺ لو أعطيت للجبال لتصدعت من جرائها... أجل، لقد كانت المهمة شاقة وصعبة إلى هذه الدرجة، ولاسيما في ذلك المجتمع البدوي والبدائي الغارق في الضلالة، فتناول الرسول ﷺ مشاكل هذا المجتمع مشكلة مشكلة ومعضلة معضلة وبدأ بفك عقدها وحل مصاعبها، فأوصل هذا المجتمع إلى شاطئ الاطمئنان وإلى ساحل السلامة.

لقد صنع من هذا المجتمع مجتمع أمن وطمأنينة إلى درجة أنك لن تستطيع رؤية مثل ذلك المجتمع إلا في الكتب التي تصف المدن الفاضلة ككتاب أفلاطون (Platon) "الجمهورية"، وكتاب "توماس مور (Thomas More)" "يوتوبيا" وكتاب كامبانللا (Campanella) "مدينة الشمس"... لقد كتبت كل هذه الكتب بأمل البحث أو بدافع الشوق إلى مجتمع مثل المجتمع الذي أنشأه الرسول ﷺ... لندع هؤلاء يتجولون في أودية الخيال ولننظر إلى الرسول ﷺ الذي أنشأ قبل قرون مجتمعاً أزال منه الجوانب السلبية الموجودة حتى في هذه المجتمعات المثالية والخيالية، وجعله مجتمعاً مثالياً يبرق في السماء بريق النجوم ليهتدي به من يأتي من بعده... فمن اهتدى بهذا النجم اهتدى إلى الحق وملأ الاطمئنان قلبه... ونحن نرى هذه الحقيقة في أيامنا الحالية بكل وضوح. ونفهم أن مجتمع الصحابة كان مجتمعاً حقيقياً وواقعيا، ونطمح في أيامنا القادمة السير نحو ذلك المجتمع النوراني.

لو لم يقم الرسول ﷺ بحل جميع مشاكل ومعضلات إنسان ذلك العصر أكان من الممكن ظهور الصحابة الذين هم فخر الإنسانية..؟ كلا بالطبع. ولكن هل كان الرسول ﷺ يحل كل هذه المشاكل بعقله الخاص فقط..؟ كلا بالطبع. ونضيف فنقول إن الله

تعالى وهب له فطنة نوية، أي فطنة ينورها الوحي بحيث استطاع بهذه الفطنة أن يحل جميع المشاكل بكل يسر، وهذا من أدلة نبوته وهي منطلق بحثنا هذا. والآن لنتعرض لبعض الأمثلة في هذا الخصوص:

أ- التحكيم حول الحجر الأسود

كان الناس في ذلك العهد يراجعونه ليحل لهم مشاكلهم المتعددة. وعندما تم تعمير الكعبة -الذي شارك فيه شخصياً- كان وضع الحجر الأسود في مكانه مشكلة قابلة للانفجار بين القبائل العربية مؤدية إلى إراقة الدماء. وكان من الواضح أن المشكلة إن لم يتم حلها في ظرف يوم أو يومين فإن الحرب آتية دون ريب. وكما قلنا سابقاً إن الرسول ﷺ إن لم يحل هذه المشكلة بوضع الحجر الأسود في مكانه بطريقة يرضى عنها الجميع لنشب نزاع دموي. وكما هو معلوم فقد وضع الحجر الأسود فوق قطعة قماش ودعا زعماء القبائل إلى الإمساك من أطرافها وحمل الحجر الأسود جماعياً. وعندما اقتربوا من مكان الحجر الأسود رفعه بيديه ووضعه في مكانه.

هذه الحادثة -التي لا ندخل في تفاصيلها- تبين لنا كيف أن الرسول ﷺ كان حتى قبل نبوته صاحب فطنة كبيرة.

عندما قام بهذا التحكيم كان عمره يتراوح بين العشرين وخمس وعشرين، أي قبل أن يتشرف بالنبوة ويتأيد بها، وقبل اكتسابه أعماقاً أخرى وقبل انفتاح أبواب اللانهاية لمامه وقبل بدء تلقيه الدروس من ربه. ولكن حتى قبل أن يأتيه الوحي، كان قد احتلّ -بالالهامات التي كانت ترد إلى قلبه- مكانة في القلوب إلى درجة أن كفار قريش ما أن رأوه داخلاً من باب المسجد حتى هتفوا فرحين: "هذا الأمين.. رضينا.. هذا محمد"[1] جاء وحلّ تلك المشكلة.

---

(١) «المسند» للإمام أحمد ٤٢٥/٣؛ «السيرة النبوية» لابن هشام ٢٠٩/١

أجل، حل تلك المشكلة دون أن يفكر طويلاً أو ينتظر أو يأخذ رأى فلان أو علان أو يبحث في الأمر مليا... حلها ببساطة وكمن يسل شعرة من عجين... كان ذلك أمراً بسيطاً بالنسبة إليه، ولم يعترض أحد عليه، وما كان بإمكانه أن يعترض، ذلك لأنهم عينوه حَكَماً لهم، وقام هو بوظيفة الحكم خير قيام، دون خطأ أو تعثر أو تردد، وأرضى الجميع.

لم يخطو في حياته خطوة إلى الوراء أبداً، لأنه كان صاحب فطنة كبيرة يفهم ما يُلقى إليه من ربه حق الفهم... كانت فطنته هذه مثل برعم زهرة تفتحت، وكلما تفتحت تلونت وابتسمت في الوجه العابس للإنسان... هذا الإنسان المليئة حياته بالمشاكل وبالرغبات غير المشبعة.

وقد تتصور أن أبعاد عظمته قد انتهت، أو أنك أحطتَ بها... ولكن هيهات... فعلى قول الشاعر المتصوف "يونس أمره" إنه برعم في داخله براعم أخرى...

أجل، لقد راجعه الآخرون طوال حياته السنية، ولم يَرُدّ هو أحداً راجعه حزيناً أو مهموما، بل قام بحل مشاكله. فمنذ البداية قام بحل مشاكل قومه الذين كانوا مهيئين لإثارة المشاكل والفتن على الدوام... كانوا يثيرون المشاكل، وكان يقوم بحل تلك المشاكل واحدة تلو الأخرى.

كانت الهجرة مشكلة قائمة بحد ذاتها... مشاكل الحرب والنزاع والسلام، مشاكل المنافع والمصالح المادية مشاكل الغنيمة... ولو لم يستطع الخروج من بين هذه المشاكل، لكان من المحتم دخول قومه المحبين للجدل والنزاع والخصام في نزاعات دموية فيما بينهم.

ب- تقسيم غنائم حُنين

وأشرنا إلى هذه الحادثة أيضاً وإلى حكمته البالغة وبُعد نظره وفراسته الحساسة في منع وقوع فتنة بين المسلمين وأوردنا خطابه الرائع الذي شرح لهم فيه كيف أنه تألف بهذه الغنائم قلوب زعماء قريش وأنه وكلهم إلى إسلامهم، وأن هذه الغنائم ليست إلا لعاعة

من لعاعات الدنيا الفانية وأنهم الرابحون حقاً لأنهم سيرجعون برسول الله ﷺ معهم، ثم دعا لهم ولأولادهم ولأحفادهم. ففتح ببيانه الرائع قلوبهم حتى بكوا واخضلت لحاهم بالدموع.[1] وهذا مثال من أمثلة فراسته وفطنته وسرعة بديهته. ولا نفصل هنا هذا الموضوع فقد سبق وأن شرحناه ببعض الإسهاب.

ج- مشكلة الهجرة

تُعد الهجرة مشكلة على الدوام، وهي تقع في أيامنا الحالية أيضاً،[2] ونرى كيف أن دولتنا بدأت تقاسي الأمرين من جراء هذه الهجرة، وقد أظهرتُ قلقي في عدة خطب، وقلت إن هذه نتيجة مؤامرات تحاك في الخارج وتوضع كتمثيلية على مسرح تركيا... وغداً سيفتحون باباً للنفاق في الشرق وباباً للشقاق في الغرب، وفتنة في الشمال وأخرى في الجنوب... يستطيعون فتح هذه الأبواب، ذلك لأن الكفار والظالمين ومنافقي آسيا متهيئون على الدوام لفتح أبواب الغوائل أمامنا. وكانوا قد انتهزوا فرصة ضعفنا في السابق فأزالوا الدولة العثمانية التي كانت عنصر توازن دولي آنذاك، ولو لم تلتجئ الأمة في النهاية إلى معاني روحها وإلى جذور عقيدتها في معركة "شنق قلعة" وفي "حروب الاستقلال" لما كانت هذه الأمة قائمة وموجودة اليوم... بل لتضرر العالم الإسلامي كله من هذا الأمر، ولكن فدائيي "شنق قلعة" و"حرب الاستقلال" استطاعوا استغلال واستعمال القوى الديناميكية الموجودة في روح هذه الأمة والتي تنبع من عقيدتها ومعنوياتها واستعانوا بالله تعالى فأنقذوا هذه الأمة من أن يكون مصيرها مثل مصير بلغاريا أو مصير تُركِستان أو أوزبكستان أو مُنغوليا (Mongolia)... وندعوا الله تعالى أن

---

(١) البخاري، المغازي، ٥٦؛ مسلم، الزكاة، ١٣٢-١٣٥؛ «السيرة النبوية» لابن هشام ٤/١٤١-١٤٢

(٢) فقد سيق مثلا (٣٠٠) ألف أخ من إخواننا في الدين والقومية إلى الهجرة من بلغاريا إلى تركيا في سنة ١٩٨٩ ووقعت في أثناء هذه الهجرة مآسي وفواجع عديدة.

يمكن هذه البلدان أيضاً من كسر سلسلة العبودية التي تطوق أعناقها[1] وأن يمكنهم من محاسبة خصومهم ذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ (آل عمران: ١٤٠). فإذا كانت الأيام متوجهة نحو أعدائهم اليوم، فقد تدبر عنهم غدا، وقد تهدي الابتسامة والانشراح في المستقبل إلى هذه البلدان المظلومة البائسة.

أجل، إن الهجرة مشكلة قائمة بذاتها وما ذكرناه باختصار عن الهجرة الحالية التي وضعت أمة تعدادها ٥٥ مليون نسمة وحكومتها في وضع حرج وصعب مثال واضح. غير أن الهجرة التي حدثت آنذاك كان عدد أفرادها يكاد يقترب من عدد أهل المدينة ولكن النبي ﷺ استطاع بفطنته أن يجنب الذين هاجروا سواء إلى الحبشة أو إلى المدينة من الضوائق المادية. وإضافة إلى تخطي المتاعب الدنيوية فقد تحققت نتائج جيدة. والحقيقة أنه لا توجد هجرة في تاريخ العالم تحققت بهذا النجاح الذي تم على يد رسول الله ﷺ فكيف حل الرسول ﷺ هذه المعضلة الكبيرة؟ لنشرح هذا بعض الشيء دون الدخول في تفاصيل كثيرة:

كانت يثرب مدينة صغيرة يعمل أهلها في الزراعة، لذا فقد كانت سوقها في يد اليهود، صحيح أن المهاجرين من أهل مكة كانوا يجيدون التجارة إلا أنه لم يكن عندهم الرأسمال اللازم للتجارة؛ ومن ثم فما كان يمكنهم منافسة اليهود، فكيف كان بإمكانهم التعامل بالتجارة وقد تركوا كل أموالهم وأملاكهم في مكة؟ ثم إن أعداد المهاجرين كانت في تزايد مستمر، وكانت نفوس أهل المدينة في تصاعد سريع، فأين يستقر هؤلاء ومن أين يأكلون ولاسيما أن أهل المدينة فقراء..؟ كانت المشاكل تتراكم وتزداد وتنتظر كلها الحلول من الرسول ﷺ. كان الجميع يتطلعون إليه ويثقون بقدرته على حل هذه المشكلات جميعها. وفعلاً قام بحلها بضربة واحدة.

ما أن حل الرسول ﷺ في المدينة حتى آخى بين المهاجرين والأنصار، فقد نفخ في أرواحهم روح آصرة أخوة أقوى من أخوة النسب وأبعد منها مدى، إلى درجة أنهم

---

(١) قال المؤلف هذا قبل انهيار الاتحاد السوفييتي. (المترجم)

توارثوا لفترة من الزمن...[١] كانت هذه الأخوة قوية إلى درجة أن الأنصار قسموا أموالهم قسمين وأعطوا قسماً منها إلى المهاجرين، حتى لقد بلغت هذه الأخوة مرتبة جرت فيها هذه الحادثة التي تذهل العقول:

جاء في رواية ينقلها البخاري أن المهاجرين عندما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، قال لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالاً فاقسم مالي نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها، فإذا انقضت عِدتها فتزوجها. قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟ فدلوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أَقِط[٢] وسَمْن، ثم تابع الغدو، ثم جاء يوماً وبه أثر صفرة فقال النبي ﷺ: «مَهْيَمْ.»[٣] قال: تزوجت، قال: «كم سقتَ إليها؟» قال: نواة من ذهب.[٤]

أي أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أسرع بالزواج حالما توفرت له فرصة إعالة بيته، وهذا نوع من الاحترام لمشاعر الذين كان يتردد على بيوتهم، ومثال على رهافة الحس ورقة الروح والذوق.

لا شك أن أعظم المشكلات تذوب أمام هذه الأخوة؛ فهؤلاء المضحون الذين ارتبطوا ببعضهم بمثل هذه الرابطة القوية كانوا هم المرشحين لفتح العالم؛ وروح الأخوة التي كانت ترفرف في سماء المدينة سيأتي يوم تحلق فيه على أرجاء العالم كله.

---

(١) انظر إلى تفسير هذه الآية ﴿والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم﴾ (الأنفال: ٧٥) من «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير ٤/٤٢-٤٣ و«الدر المنثور» للسيوطي ٤/١١٧-١١٨

(٢) أَقِط: نوع من جبن. (المترجم)

(٣) مَهْيَمْ: أي ما حالك؟ أو: ما شأنك؟ (المترجم)

(٤) البخاري، مناقب الأنصار، ٣

١- ﴿نـزاع بين الاستغناء والكرم﴾

كان رسول الله ﷺ جالساً وحده فدخل عليه بعض زعماء المهاجرين بعد الاستئذان منه... لم يكن بينهم أحد من الأنصار، وكان هذا جالباً للانتباه، فلماذا أتى المهاجرون ولم يدعوا معهم أحداً من الأنصار؟

وبعد الاستئذان من الرسول ﷺ عرضوا عليه ما جاءوا من أجله فقالوا: "يا رسول الله! ما رأينا قوماً أبذل من كثير ولا أحسن مواساة من قليل من قوم نزلنا بين أظهرهم لقد كفونا المؤنة[١] وأشركونا في المهنأ[٢] حتى خفنا أن يذهبوا بالأجر كله." فقال النبي ﷺ: «لا ما دعوتم الله لهم وأثنيتم عليهم.»[٣]

كانت هذه هي الأخوة التي نفثها رسول الله ﷺ في قلوب أصحابه، وهذه هي الأخوة التي جعلت منهم جسداً واحداً. فالأنصار كانوا يحبون أن يبقى المهاجرون في بيوتهم، لأن فراق هؤلاء الإخوة كان شيئا مؤلما ألم الموت. فمع أنهم كانوا يلتقون بهم خمس مرات في اليوم في المسجد إلا أن فراقهم لهم من الغرف ومن وجبات الطعام التي تقاسموها معهم كان يحزّ في نفوسهم...

أجل، كان هناك استغناء من طرف وكرم ومروءة وتضحية في الطرف الآخر وكان كلا الطرفين يصرّ على موقفه. وأخيرا قد توصل الطرفان إلى اتفاق يقضي بأن يقوم المهاجرون بالعمل في مزارع الأنصار مقابل أجرة، وهكذا يستطيعون إعالة أنفسهم ويسكنون في مساكن مستقلة بهم ولا يبقون تحت منة أحد. وهكذا ساعد الأنصار المهاجرين باستخدامهم في العمل. وهكذا حل الرسول ﷺ مشكلة الهجرة على نطاق كبير بشعور الأخوة الذي أسسه في المدينة.[٤]

---

(١) أي تحملوا عنا مؤنة الخدمة في عمارة الدور والنحيل وغيرهما. (المترجم)

(٢) المهنأ: ما أتاك بغير تعب، والمعنى: أشركونا في ثمار نخلهم. (المترجم)

(٣) الترمذي، القيامة، ٤٤؛ «المسند» للإمام أحمد ٣/٢٠٠، ٢٠٤

(٤) البخاري، مناقب الأنصار، ٣

وكانت المشكلة الثانية التي حلها هي التجارة، فقد رأى الرسول ﷺ أن اليهود هم المسيطرون على الحياة التجارية في المدينة، فأصدر أمره بتأسيس سوق للمسلمين في مكان آخر[١] لكي يتعاطى المسلمون عمليات البيع والشراء فيما بينهم في سوقهم الخاصة بهم من أجل أن يدخل المسلمون إلى عالم التجارة ويزدادوا قدرة وقوة ويؤسسوا محالهم التجارية الخاصة بهم ويقضوا على هيمنة وسيطرة غير المسلمين على السوق.

تأسست سوق جديدة وبدأ المسلمون يتعاطون البيع والشراء فيما بينهم فنرى كتاب المغازي ينقلون بأنه لم يمر وقت طويل حتى عجز اليهود عن مواصلة التجارة في المدينة المنورة. أجل، فلم يعد باستطاعة أحد منافسة المسلمين تجارياً في سوق المسلمين. وهذا ما كان الله تعالى يريده... فالله تعالى لا يريد من المسلمين أن يكونوا تابعين لأحد... إن الله لا يرضى لنا أن ننتظر الأوامر الصادرة من الآخرين ولا أن نلتجئ للآخرين ونرجو منهم أن يحلوا لنا مشاكلنا ونستعطفهم قائلين: نرجو ونتوسل منكم أن تحلوا لنا المشكلة الفلانية... هذا لا يرضاه لنا. يجب أن يكون المؤمن عزيز الجانب واقفاً على قدميه ينجز أعماله بيده ويحل بنفسه مشاكله، ويرى بعينه لا بعيون الآخرين ويعيش حسب معتقداته ويحافظ على أصالته... وهذا ما أسسه الرسول ﷺ في المدينة.

٢- أول دستور

ما أن وصل الرسول ﷺ المدينة حتى نشر بياناً.[٢] ويطلق المتخصصون في القانون اسم "دستور رسول الله ﷺ " على هذا البيان الذي أعلنه بعد وصوله إلى المدينة بوقت قصير. ففي هذا البيان أو هذه المعاهدة نرى وجود أسس معظم ما جاء في بيان حقوق الإنسان وفي "فرمان التنظيمات" عندنا. فالحقوق التي تعهد بها للمسيحيين واليهود ساعدت على

---

(١) ابن ماجة، التجارات، ٤٠؛ «مجمع الزوائد» للهيثمي ٧٦/٤

(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام ١٤٧/٢

إرساء وحدة بين أهل المدينة وقربهم إليه وأبعدهم عن خصومه من البيزنطيين والساسانيين والقرشيين. لذا، عاش اليهود مدة تحت جناح المسلمين بكل اطمئنان وراحة وأمن. وقد عبر المنافق المعروف عبد الله بن أُبَيّ بن سَلول عن قلقه أمام قريش فقال إنه لا يخشى قيام الرسول ﷺ بنشر دينه في المدينة. ولكن الخطر هو قيامه بجذب اليهود والنصارى إلى جانبه وضد المشركين.

وقد أصبحت هذه المعاهدة أو هذا البيان أو الدستور مدة طويلة سبباً في إرساء الصلح والأمن بين المسلمين واليهود حتى نقضها اليهود. وكان اليهود يراجعون الرسول ﷺ ويرضون به حكماً.

أجل، إن كتب الحديث تبين لنا أنهم راجعوه في مواضيع السرقة والقصاص والزنا. ونعلم من هذا أن المسلمين وإن تركوا شؤون اليهود إليهم وجعلوهم أحراراً فيها إلا أن اليهود كانوا يرون في المسلم ولاسيما إن كان هذا رسول الله ﷺ عدالة أكثر وقابلية أكثر، لذا كانوا يراجعونه ويجعلونه حكماً في كل مسألة. وهذا المصدر والنبع القدسي الذي سيصبح في المستقبل مرجع الإنسانية كلها كان قد أثبت مرجعيته بدأ من تلك الأيام.

وهكذا حل الرسول ﷺ مشكلة الهجرة بضربة واحدة ليتفرغ المسلمون للتوجه نحو العالم أجمع باطمئنان قلب.

د- مشكلة الحرب

للحرب وللهزائم مشاكلها... أجل، هناك مشاكل للحروب وللانقلابات وللانتصارات وللصلح... قمنا بعملية إنزال في قبرص سنة ١٩٧٤، ولكننا لا نزال نعاني من مشاكلها حتى الآن. إنني أقبّل جبين الجندي التركي الذي جابه الأعداء هناك وحاربه، ولا أستهين أبداً ببطولته ولكنكم ترون أننا لم نستطع حل مشاكلها حتى الآن. علماً بأن جزيرة قبرص تم فتحها في عهد معاوية بسهولة وبسرعة ودون أن يخلفوا

وراءهم أي مشكلة. ولكن الوضع أصبح يختلف الآن تماماً. وقد ذكرت مسألة قبرص كمثال فقط، وإلا فإن غايتي الأصلية هي الإشارة إلى صعوبة حل المشاكل ولاسيما مشاكل الحرب والصلح. فقد مرت سنوات طويلة على حرب البلقان، ولكن آثار مشاكلها لا تزال باقية حتى اليوم.

لقد شهد رسول الله ﷺ الحروب أيضاً... أولاً مع قومه وقبيلته ثم مع اليهود في المدينة وحواليها، ثم دخل حرباً مع الإمبراطورية البيزنطية، فقد كان محاطاً بالأعداء، وكان هؤلاء الأعداء مصدر مشاكل عديدة له. ولكنه كان يستطيع في كل مرة أن يستل نفسه من هذه المشاكل مثل استلال الشعرة من العجين.

١- ﴿ التكتيك في معركة أُحد ﴾

لن أتناول هنا الانتصار في معركة بدر، ولا التعبئة في معركة الخندق ولا المفاخر التي سطرها الأبطال في مؤتة، ولا البطولات النادرة في معركة اليرموك بل سأتناول بإيجاز المسائل التي نتجت عن معركة أُحد التي تعد –في جانب منها– معركة كان للهزيمة فيها نصيب، والإشارة إلى تعامله مع هذه المسائل والقرارات الصائبة التي اتخذها في شأنها.

تُعد معركة أُحد أول معركة ظهرت فيها بوادر الهزيمة في صفوف المسلمين، وأنا أعوذ بالله من إسناد الهزيمة إلى أي مسلم حقيقي، ذلك لأنه كان لله تعالى تقدير خاص في ذلك أولا، إذ كان هناك أمام المسلمين أشخاص أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص من الدهاة العسكريين والسياسيين، وهؤلاء سيردون جيوشاً عديدة للأعداء على أعقابهم في المستقبل... صحيح أنهم كانوا آنذاك لسوء حظهم في صفوف المشركين، إلا أنهم كانوا صحابة المستقبل.

أجل، لقد غلب صحابة المستقبل صحابة اليوم، والمسألة الثانية هي أن الرماة –عين لهم الرسول ﷺ موضعاً خاصاً وأعطى لهم أوامر معينة– لم يلتزموا بتوجيهات الرسول ﷺ بل

ظهر عند بعضهم حب جمع الغنائم، ولكنهم وجدوا عكس ما أملوا... والحقيقة أننا لا نرى في أنفسنا صلاحية وحق نقد هؤلاء الصحابة الأجلاء، فهم أولاً قد شرفوا برتبة المقربين، والمقربون لهم مستوى خاص من التعامل. ما أريد قوله هو أن هؤلاء الناس الشبيهين بالملائكة كانوا يعاملون معاملة خاصة، وإلا فإن حسناتنا تعد سيئات بالنسبة إليهم...

أجل، لو أننا فعلنا ما فعلوه آنذاك لاكتسبنا الثواب دون شك لكون باب الاجتهاد مفتوحاً على الثواب دائما. أما هم فقد كانوا من الرجال المخلصين المضحين الذين صافحوا يد الرسول ﷺ، والذين عاهدوا على نبذ الدنيا وهجرها لحساب الآخرة والذين سبقوا الملائكة المقربين... ولكون هؤلاء قد أسقطوا ظلاً على مرتبة "المقربين" عندهم فقد ظهروا بمظهر المغلوبين... فماذا حدث؟ الذي حدث هو سقوط سبعين شهيداً من الذين نعرف أسماءهم من بين بضع مئات من الصحابة.[1]

وجرح مثل هذا العدد منهم جرحاً بليغاً حتى أنهم عجزوا عن الحركة. وقد كان بإمكان المشركين إنزال ضربة أخرى بالمسلمين لولا أن المسلمين التجأوا إلى جبل أُحد. ورأى المشركون أن أصواتهم قوية وليست واهنة، فلم يرغبوا في الدخول إلى مخاطرة أخرى لذا، تركوا ساحة القتال فورا، إذ داخل الخوف قلوب المشركين، وكان عذر المشركين لهذا الخوف ولما يشبه الهزيمة هو: لقد آذيناهم إلى درجة أنهم لن يستطيعوا التخلص سريعاً من أثر هذه الهزيمة، إذن، فلنذهب، فمن يدري ما الذي سيحصل إن هجمنا عليهم مرة أخرى. فانسحبوا على هذا الأساس وتركوا ساحة القتال، ثم حين حرض أحدهم قريشاً (أصبح هذا فيما بعد صحابياً وقدم خدمات جليلة) على مواصلة القتال، والذي جاء وصفه في القرآن بأن الشيطان حرض قريشاً، وقال لهم أن أذهبوا إلى المدينة ما دام الوضع مساعداً. كان من الواضح أنه يريد منهم التوجه إلى المدينة لهدمها على رؤوس أهاليها مثلما فعل الرومان بمدينة قارطاجة، ولا يبقوا فيها فرداً واحداً، لأنه

---

(١) البخاري، المغازي، ٢٦

إن بقي منهم أحد تكاثروا بسرعة وأصبحوا مشكلة لهم.[(١)]

ما أن سمع الرسول ﷺ هذا حتى أصدر أمره بأن من كان معه يوم أُحد من الأصحاء أو الجرحى فليجتمعوا في المكان الفلاني لأنه سيذهب لملاقاة العدو.[(٢)]

فهؤلاء الجرحى والمصابين الذين التجأوا قبل يوم إلى سفح جبل أُحد كانوا يستعدون لحملة أخرى، ذلك لأنه كان من الضروري إبداء قوة معنوية كبيرة تقوم بجبر وإزالة مظاهر خيبة الأمل التي أصابت المسلمين والتي سنذكرها هنا:

أول مظهر من مظاهر خيبة الأمل هو انكسار القوة المعنوية للمسلمين، ثانياً تزايد شهية الكفار، ثالثاً تزايد شماتة المنافقين من حال المسلمين مما كان يؤثر على معنوياتهم. لذا، فإن الفكرة التي طرحها ذلك المشرك من وجوب التداعي والهجوم الجماعي على المسلمين لاستئصال شأفتهم بدأت تنتشر هنا وهناك وتتداولها الألسن، فكان هذا الأمر نذير خطر كبير على المسلمين، ولولا فطنة الرسول ﷺ وسرعة تداركه للأمر لكان من الممكن ظهور مشكلة كبيرة وخطر عظيم يصعب على المسلمين مواجهته... أجل، لقد أصابت المسلمين آنذاك أضرار فادحة -مثلما أصاب الجندي التركي في معركة شنق قلعة- ولكنهم استطاعوا أن يلموا شعثهم ويقلبوا الهزيمة التي كانت تلوح قريبة منهم إلى نصر بعون من الله تعالى.

أجل، فما أن أصدر الرسول ﷺ أمره إلى هذه الجماعة بالتهيؤ والتجمع حتى تهيأوا وتجمعوا وانتقلوا إلى حالة الاستعداد للهجوم... كان بعضهم مصاباً في أيديهم أو في أرجلهم، وبعضهم لا يستطيع المشي إلا بمشقة، ومع ذلك فما أن سمعوا دعوة الرسول ﷺ حتى تجمعوا في المكان المعين، فكأن أنفاس الرسول ﷺ قد أحيتهم ونفخت فيهم القوة والعزيمة. فبدأوا يتسابقون في الاستجابة إليه. وكما قال الشاعر البوصيري:

لو ناسبتْ قدرَه آياتُه عِظما أحيا اسمُه حين يُدْعى دارسَ الرِّمم

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ١٢٨/٣

(٢) «البداية والنهاية» لابن كثير ٥٦/٤

أي لو كانت معجزاته على قدر قيمته ﷺ لأحيا ذكر اسمه الرمم الدارسة في القبور... لقد أحيت دعوته الجميع في أحد فتسابقوا إلى إجابة دعوته.

والآن لنستمع إلى شرح هذه الحادثة من أحد الصحابة حيث يقول ما معناه:

"كان لي صديق لا يستطيع المشي فكنا نحمله على أكتافنا لأنه قال لنا أن نحمله إلى موضع القتال فإن لم يستطع رمي السهام فهو يستطيع استعمال الرمح. كان أحدنا يحمل الآخر، وربما سقط أحدنا وأغمي عليه، وهكذا حتى وصلنا إلى وادي حمراء الأسد. وهو موضع يستطيع فيه المشركون رؤية دخان مواقد المسلمين. فما أن رأى المشركون تجمع المسلمين الذين ظنوا أنهم أصابوهم إصابة بالغة لا يرجون منها شفاء حتى ذهلوا واحتاروا. وإذا بأبي سفيان الذي أصابه الفزع يصرخ فيهم: "الرحيل! الرحيل!" ذلك لأنه بدأ يخشى أن تدور الدائرة عليهم بعد أن فكروا في الإغارة على المدينة... أما الآن فإن همهم الوحيد كان هو الإسراع إلى مكة."[1]

فلو تأملتم لرأيتم كيف قام الرسول ﷺ بحل جميع مشاكل الحرب بنفحة واحدة وبضربة واحدة ودون أن يخلف أي مضاعفات ولا أي مشاكل. والقرآن الكريم يشير إلى هذا الموقف الحرج فيقول: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ (آل عمران: ١٧٣).[2]

أجل، لقد تركت قريش كل شيء وهربت، أما المسلمون فقد تخلصوا من أثر الهزة التي أصابتهم أمس، ثم رجعوا إلى المدينة دون أن يصيبهم أي ضرر بنعمة من الله وفضل.[3] هناك بعض من كتاب السير والمغازي يذكرون أن معركة أُحد كانت هزيمة بالنسبة للمسلمين... أجل، إن كان هناك جانب من الهزيمة في معركة أُحد فهو يرجع إلى

---

(١) البخاري، المغازي، ٢٥؛ «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/٩٩-١١١؛ «الطبقات الكبرى» لابن سعد ٢/٤٢-٤٩

(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/١٢٨

(٣) البخاري، المغازي، ٢٥؛ «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/٩٩-١١١؛ « لطبقات الكبرى» لابن سعد ٢/٤٢-٤٩

بعض الصحابة الذين لم يستمعوا إلى تعاليم النبي ﷺ واستشهدوا في تلك المعركة فرحلوا إلى الآخرة طاهرين مطهرين. ولكن هناك جانب نصر في أُحد، وأنا أرى الوقوف عند هذا الجانب الذي حققه الرسول ﷺ... أجل، فإن المهم هو القيام بقلب الهزيمة إلى نصر وهو ما فعله الرسول ﷺ.

هناك مقولة للغرب تقال في حق الأمة التركية وهي: "هناك أوقات تنتهي فيها مقاومة كل أمة، في هذا الوقت تبدأ هذه الأمة بالهجوم."

والحقيقة أن هذه المقولة يجب أن تُقال في حق المسلمين الصادقين حيث تصبح صحيحة على الدوام، أي في الأوقات وفي الظروف التي تنتهي فيها مقاومة الأمم وتبدأ بالاستسلام يقوم الرسول محمد ﷺ ببدء الهجوم. وهذا الهجوم يقوم بحل المشاكل المتراكمة الواحدة فوق الأخرى، ويهب الأمل والإيمان إلى قلوب المؤمنين واليأس والقنوط إلى قلوب المنافقين، ويجعل أمنية المشركين حسرة في قلوبهم. فماذا يمكن أن يقال هنا بعد أن حول الرسول ﷺ الهزيمة إلى نصر وأعاد المسلمين إلى المدينة فرحين غالبين، وحل بحكمته هذه المشكلة المعقدة.. سوى الشهادة بأن محمداً ﷺ رسول الله حقا وصدقا؟

٢- الشورى

كان الرسول ﷺ يقوم بحل بعض المشكلات التي تعرض له عن طريق التشاور. وهو مع عدم حاجته إلى المشورة إلا أنه كان يريد إرساء قضية الشورى كقاعدة مهمة لأن الذين سيأتون من بعده كممثلين للأمة الإسلامية سيكونون في حاجة للشورى. أجل، فقد كان شخصاً وهب له التأييد الإلهي، فلم يتركه الله تعالى وحده في أي مسألة من المسائل، فلو ألم به مرض لتلقى الإلهام الإلهي بطريقة العلاج والشفاء؛ فقد كان على ارتباط وثيق بعالم الملكوت، ولكنه كان يعطي أهمية كبيرة لموضوع الشورى، وكان هذا بُعداً آخر من أبعاد فطنته وجانباً آخر من جوانب فراسته.

لقد أصبحت الشورى بعده بعدة عصور نظاماً لا يستغنى عنه في إدارة الدولة. ولكون الإدارة في الإسلام مفتوحة على الشورى ولكونها مرنة وواسعة وتستطيع أن تحتضن العصور بعالميتها فقد تخطت العصور عصراً عصراً حتى وصلت إلى أيامنا الحالية.

إليكم بعض الأمثلة:

١- كان ﷺ يشاور الجميع ويأخذ وجهة نظر الكل لأنه كان يريد إشاعة فكرة الشورى في حياة المجتمع وجعلها سائدة فيه. استشار علياً رضي الله عنه، وهو الإنسان الذي قال: "لو رُفع الغِطاء ما ازددتُ يقيناً"[1] ولكنه كان مع هذا تلميذاً في مدرسة الرسول ﷺ، وقد استشاره الرسول ﷺ مع أنه كان شاباً يافعاً.[2]

كان المنافقون قد افتروا على أمنا عائشة رضي الله عنها فيما اشتهر بحادثة "الإفك" التي برأ الله تعالى فيها أمنا عائشة رضي الله عنها. ومع أن الرسول ﷺ كان موقنا بأن الوحي سيقول القول الفصل في هذا الأمر. ورغم كونه غير قلق من ناحية عائشة رضي الله عنها، إلا أنه قام مع هذا باستشارة أصحابه عدة مرات لأنه كانت هناك مصلحة في مثل هذه الاستشارات. لأن الاستشارة دائما مغانم وليست لها خسائر. وما بعث النبي ﷺ إلا لهدايتنا لما فيه الخير لنا.

وهناك رواية ضعيفة عن حادثة جاء فيها أن الرسول ﷺ تدعى عمر رضي الله عنه وسأله عن رأيه في عائشة رضي الله عنها فقال عمر: يا رسول الله! إن عائشة بريئة وإنها طاهرة ونقية. فسأله الرسول ﷺ كيف عرف ذلك فأجاب عمر: "لقد عرفنا فيما بعد أنك كنت تصلي مرة دون أن تعرف أن نجاسة صغيرة قد مست نعلك فنزل جبريل عليه السلام وأخبرك بالأمر. وقال لك بأن تخلع نعلك.. فإذا كان الله تعالى يخبرك عن مثل هذه النجاسة الصغيرة فكيف يرضى لك أن تكون لك زوجة تقترف -حاشاها- مثل هذا الإثم؟ لا شك أن جبريل سيأتيك ليخبرك عن مدى عفة عائشة رضي الله عنها."

---

(١) «الأسرار المرفوعة» لعلي القاري ص١٩٣

(٢) البخاري، المغازي، ٣٤؛ «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/٣١٣

أجل، لقد قال الرسول ﷺ: «ما ندم من استشار.»[1] لذا، فقد استشار عمر. فمثل هذه الاستشارة لا تفقده شيئا، بل ربما كسب قلب عمر ﷺ مرة أخرى. أجل، لقد كان الرسول ﷺ يتشاور مع طلابه ويأخذ آراءهم. ولا شك أن الرابح في هذه الاستشارات كان هؤلاء الطلاب، ذلك لأن الرسول ﷺ كان يلقن طلابه درساً أخلاقياً في هذا الخصوص. ثم أليس هو القائل: «ما ندم من استشار.»

٢- عندما خرج لمعركة بدر استشار الرسول ﷺ المهاجرين والأنصار وأخذ آرائهم، فتكلم المقداد بن عمرو باسم المهاجرين فقال: يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك. والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْكِ الغِمّاد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه." فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له. ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليّ أيها الناس» وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم كانوا عدد الناس وأنهم حين بايعوه بالعَقَبة قالوا: يا رسول الله إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فكان رسول الله ﷺ يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم.

فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال ﷺ: «أجل.» قال: فقد آمنّا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك، فامض يا رسول الله لما أردتَ فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضتَ بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلّف منا رجل واحد، وما نَكْرَهُ أن تَلقى بنا عدونا غدا. إنّا لصُبُرٌ في الحرب صُدُق عند

---

(١) «مجمع الزوائد» للهيثمي ٢/٢٨٠

اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقرّ به عينُك فسِرْ على بركة الله.[1]

كان الرسول ﷺ يقوم بالاستشارة لإظهار روح الاتفاق بين المسلمين. كان الأنصار والمهاجرون متفقين على شيء واحد... عزمهم على القتال وعلى الاستشهاد... أجل، لقد كان هذا هو الشيء الوحيد الذي كان عليهم أن يعملوه تجاه الجمع الحاشد لأعدائهم المملوئين حقداً وغيظاً والمتهيئين بسيوفهم ورماحهم وسهامهم للقضاء عليهم. أما رسول الله ﷺ فقد كان متهيئاً للدفاع عن الحق وعن الحقيقة وعن شرف الإسلام وعن كرامة الأمة الإسلامية، وكان يقوم باستشارة أصحابه ويبدي رأيه السامي على أوسع نطاق ويرسيه على أصلب أساس ويدع رأيه هذا أمانة لدى مشاعر وأحاسيس الصحبة عند الجميع. كما كانت الاستشارة غاية من غاياته. لقد رسم الله تعالى له الطريق وبين له ما يعمله، ولكنه إضافة إلى إرشاد ربه فقد كان يستشير أصحابه ليشاركهم وليشاركوه أفكاره ومشاعره في ذلك الموقف المهم. وما كان لأحد من أصحابه المخالفة في اتباعه والانقياد له أبدا، ذلك لأنهم أعطوه على ذلك عهداً وميثاقاً... وسيأتي يوم يقول لكعب بن مالك ﷺ معاتباً: «ما خلّفك، ألم تكن قد ابتعتَ ظهرك؟» كان كعب ﷺ قد أعطاه عهداً في العَقَبة على أن يكون مع الرسول ﷺ في اليسر والعسر ما تعاقب الليل والنهار.[2] لقد أعطوه عهدا، وألقوا بأنفسهم إلى الموت بملء إرادتهم.

كان الرسول ﷺ يقوْم باستشارته هذه ليتبنى المسلمون جميعاً دعوته، فكان الجميع يهرعون لمساعدته على قدر طاقتهم ويرون حمل هذه الدعوة غاية لهم وهدفا لحياتهم، ويرون في الشهادة أحلى أمانيهم.

٣- عندما خرج الرسول ﷺ يوم بدر كان عليه أن يعين المكان الذي ينزل فيه والآبار الموجودة هناك والتل الذي يجب أن يحتله، وكان عليه أن يشاور أصحابه في هذا الأمر.

---

(١) مسلم، الجهاد، ٨٣؛ «المسند» للإمام أحمد ٢٥٧/٣؛ «السيرة النبوية» لابن هشام ٢٦٦/٢-٢٦٧؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٣٢٠/٣-٣٢٢

(٢) البخاري، المغازي، ٧٩؛ مسلم، التوبة، ٥٣

قال ابن إسحاق: فخرج رسول الله ﷺ يبادرهم إلى الماء حتى جاء أدنى ماء من بدر نزل به، فحُدِّثتُ عن رجال من بني سلِمة أنهم ذكروا أن حُباب بن المنذر بن الجموح قال: يا رسول الله أرايت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرأى والحرب والمكيدة.» قال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فامضِ بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القُلُب ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأى.»[1]

٤- كان سلمان ﷺ عبداً فارسيا، كان مجوسياً في أول الأمر ثم تنصر ثم أسلم وهو عبد... وعندما أسلم لم يكن يملك مالا أو أهلاً. وهو يدين بكل شيء إلى الإسلام، وقد عبر سلمان ﷺ عن هذا الأمر بجملة وجيزة. فعندما سألوه مرة عن نسبه، قال: "أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أوتميم" أجل، لقد وجد نسبه الحقيقي؛ فهو ابن الإسلام.

وفي معركة الخندق أو معركة الأحزاب استشار الرسول ﷺ أصحابه كما هي عادته، فأدلى كل برأيه وعندما جاء دور سلمان ﷺ قال للرسول ﷺ بأنهم اعتادوا في بلادهم على حفر خندق حول المدينة إن هاجمهم عدو، لذا فقد اقترح حفر خندق حول المدينة. وأعجب الرسول ﷺ بهذا الرأى فأمر بحفر الخندق وشارك بنفسه في أعمال الحفر وشجع العاملين هناك.[2]

٥- لم يكن يستشير الرجال فقط، بل يستشير النساء أيضا، ففي الحُديبية استشار زوجته أم سلمة ﷺ، ولم ير بأساً في تنفيذ ما اقترحت عليه.[3]

لقد سلك هذا المسلك طوال حياته، واستطاع عن طريق الاستشارة تخطي مشاكل

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٢٧٢/٢؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٣٢٦/٣

(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام ٢٣٥/٣؛ «الطبقات الكبرى» لابن سعد ٦٦/٢؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ١٠٩/٤

(٣) انظر: البخاري، الشروط، ١٥

صعبة. وقد بدأنا نفهم مؤخراً مدى ضرورة وأهمية الشورى في إدارة الدولة. أما المستبدون فقد تركوا وراءهم مئات المشاكل قبل أن يرحلوا. لقد علّم وجوب احترام الفكر والعقل؛ فهناك حكمة في وجود العقل، أي حكمة في التفكير وإجراء المحاكمات العقلية. وهناك حكمة من وجود الفكر البشري بحيث تتم مراجعة هذا الفكر حتى من قبل الدعوات المؤسسة على الوحي، وحتى من قبل الأشخاص المتصلين بالوحي، حيث يتم تفسيرها بهذا الفكر. لذا، فمن لا عقل له لا يعد مكلفا في شرعنا، وهذا أساس من أسس ديننا.

الفصل الخامس: وحدة النظر والقدم

والعمق الآخر لدى رسولنا ﷺ هو وحدة الفكر والتطبيق؛ فأي هدف توخاه استطاع أن يسير نحوه، وأي فكرة اقترحها استطاع تطبيقها؛ وعلى هذا الاعتبار استطاع أتباعه أن يطبقوا كل ما قاله دون أن يبقوا في حيرة أو تردد أو اضطراب.

أ- إنسان التخطيط

أصبحت الخطة من أهم المسائل في أيامنا الحالية. فأصبحت الدول والأمم تهتم بالتخطيط في كل شيء كأساس مهم في التنمية وفي حركة النهوض. ولتحقيق هذه الغاية تأسست عندنا هيئة الدولة للتخطيط، وإلا لما تحقق أي شيء في مجال النمو وفي مجال التقدم والنهوض المتوازن. ويمكن جس نبض المجتمع من خلال الخطط. فالتخطيط -في أحد أوجهه- شرط أولي لوضع بنية المجتمع تحت المراقبة والسيطرة. ولم يكن الرسول ﷺ يملك كومبيوتراً ولا عقلاً الكترونياً ولا هيئة تخطيط، ولكنه كان يعطي القرارات الصائبة في التو واللحظة ثم يخطو لتنفيذها... كان يعطي قراراته لمسائل بعُمْر مئات من السنين، ولم يكن يترك أي مشكلة في أي مسألة من هذه المسائل. أي لم يقل أحد شيئاً ضد ما قاله حول أي مسألة من المسائل ولم يستطع أن يقول. علما بأنه كان مكلفاً -ذكرنا ذلك سابقاً من زاوية مختلفة- بالتبليغ. لذا، فكان عليه أن يكون دقيقاً جداً بحيث يحسب حساب خطواته جيداً؛ فلا يتقدم ولا يتأخر مِليمتراً واحداً أكثر أو أقل من المطلوب. وكل تفاصيل حياته شاهدة على ما نقول. ففي مكة نراه مثال الصبر ومثال التحمل، ينتظر دون كلل أو ملل... ينتظر على رأس الدعوة بصبر وهدوء.. هدوء المياه العميقة الغور بما نستطيع أن نطلق عليه اسم "الفعالية الصامتة". وفي هذا العهد يصدر أوامره بالهجرة إلى هنا وهناك ليحمي الضعفاء، لأنه كان في عهد اختل فيه ميزان القوة لصالح أعدائه، ولأنه لايملك القوة في ذلك العهد نراه يبذل قصارى جهده لعدم تهييج أو إثارة

خصومه قدر الإمكان ومحاولة تهدئة الأمور. أما في المدينة فقد اتبع طريقاً آخر خطط فيه شكل الدعوة حسب القوى والتوازنات الموجودة وحسب قوة الطرف المقابل. والحقيقة أن تغير الاستراتيجية بين عهود مكة والمدينة وما بعدها نتيجة طبيعية لتغير وتيرة توسع الدعوة ونضوجها وتبلورها. فعهد مكة كان يتطلب طرزاً معيناً من التصرف، وعهد المدينة يتطلب طرزاً آخر. فلو تصرف الرسول ﷺ في مكة مثلما تصرف في المدينة لكان ذلك -حاشاه- نقصاً كبيراً في تخطيط هذا الشخص صاحب الخطط والاستراتيجية الدقيقة. فقد بعثه الله تعالى لكي يعطي القرارات الصحيحة ولينقذ البشرية من الاضطراب والحيرة.

أجل، لقد اتبع في المدينة طريقة آخرى... وكان هذا ضروريا، فكل خطوة خطاها كانت مقدمة للخطوة القادمة، والخطوة التالية كانت طبعاً نتيجة للخطوة السابقة؛ فلم يخط في حياته خطوة واحدة إلى الخلف. فكيف يخطو الرسول ﷺ خطوة إلى الخلف وهو الذي استخرج النصر من الهزيمة في معركة أُحد؟ لم يخط أبداً إلى الخلف... بل إن كل خطوة من خطواته تشهد أنه رسول الله. فأسلوبه وطريقة تصرفه في موضوع الهجرة مثال حي على هذا. فما كانت الهجرة إلى الحبشة والمدينة إلا مقدمة وباباً سِريًا لبزوغ عهد الهداية والانتصارات.

ب- المشكلة المحتملة الآن: العنصرية

كم من مشكلة حلها الرسول ﷺ آنذاك ولم تحلّ حتى الآن. أما المشاكل التي ستأتي في المستقبل القريب ثم في المستقبل البعيد فهي كثيرة ومتداخلة بعضها مع بعض. فمثلاً هناك احتمال كبير أن تصبح قضية الزنوج في المستقبل البعيد من أهم المشاكل التي ستدوخ البشرية. فهذه المشكلة المتحفزة للوثوب حالياً والتي تنتظر الفرصة المناسبة للانقضاض والانفجار تقلق كل المراقبين الذين يحدسون مبلغ خطورتها.

لماذا؟ ذلك لأنه لا ينظر إلى الزنجي نظرة إنسان حتى ونحن على أعتاب الدخول إلى القرن الحادي والعشرين. فهو مهان في جنوبي إفريقيا بسبب لونه، وهو لا يستطيع تبوؤ أي منصب مهم في الولايات المتحدة الأمريكية. كما يتعرض الأجانب في فرنسا وألمانيا إلى الضرب وإلى المهانة. بينما وضع الرسول الكريم ﷺ يده العطوفة على هذه المشكلة وحلها بكل بساطة. أجل، فالناس -حسب المبادئ التي جاء بها- سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على أعجمي ولا فضل لأعجمي على عربي.[١] ويجب إطاعة عبد حبشي إن جاء إلى الحكم بشروطه.[٢]

وانسجاماً مع أحاديث كثيرة للرسول ﷺ التي شرحت هذا الموضوع نرى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول عن بلال رضي الله عنه: "أبو بكر سيّدُنا وأَعتَق سيّدَنا" يعني بلالاً.[٣]

كان زيد بن حارثة رضي الله عنه أسود البشرة، وبيع للرسول ﷺ عبداً فأعتقه الرسول ﷺ وجعله حراً وتبناه، أي جعله ابناً له.[٤] وكان هذا أمراً لا يتصوره أحد وشيئاً غير مستساغ. فكيف يقوم إنسان من نسب معروف ومشهور بتبني عبد أسود ثم جعله وارثاً له.[٥] ثم جعل ابنه أسامة قائداً على جيش فيه كبار الصحابة من أمثال أبي بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم.[٦] وأعظم من هذا قيام النبي ﷺ بتزويج زيد من زينب بنت جحش[٧] التي كانت ذات حسب ونسب وكانت جديرة بأن تكون زوجة نبي.

---

(١) «المسند» للإمام أحمد ٥/٤٤١؛ «كشف الخفاء» للعجلوني ٢/٣٢٦؛ «الفوائد المجموعة» للشوكاني ص٢٢٧؛ «المسند الفردوس» للديلمي ٤/٣٠٠

(٢) البخاري، الأحكام، ٤؛ مسلم، الإمارة، ٣٧؛ ابن ماجة، الجهاد، ٣٩

(٣) البخاري، فضائل أصحاب النبي، ٢٣؛ «أسد الغابة» لابن الأثير ١/٢٤٣-٢٤٥

(٤) وذلك قبل تحريم التبني. (المترجم)

(٥) البخاري، المغازي، ١٢، النكاح، ١٥؛ أبو داود، النكاح، ٩؛ النسائي، النكاح، ٨؛ «الإصابة» لابن حجر ١/٥٦٣-٥٦٤؛ «أسد الغابة» لابن الأثير ١/٢٨١

(٦) البخاري، فضائل أصحاب النبي، ١٧؛ مسلم، فضائل الصحابة، ٦٣

(٧) «الإصابة» لابن حجر ١/٥٦٤

وإضافة إلى هذا كان زيد بن حارثة وابنه أسامة رضي الله عنهما مقربين إلى رسول ﷺ إلى درجة أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما شكى إلى والده الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه قائلاً له: يا أمير المؤمنين فضّلت عليَّ من ليس هو بأقدم مني سِناً ولا أفضل مني هجرة، ولا شهد من المشاهد ما لم أشهد. قال: ومن هو؟ قلت: أسامة بن زيد، قال: صدقتَ لَعَمْرُ الله! فعلتُ ذلك لأن زيد بن حارثة كان أحب إلى رسول الله ﷺ من عمر، وأسامة بن زيد كان أحب إلى رسول الله ﷺ من عبد الله بن عمر، فلذلك فعلت.[1]

أجل، لقد كان أمراً جللاً آنذاك أن يكون زيد بن حارثة رضي الله عنه قائداً على جيش يشترك فيه أحد أشراف قريش مثل جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه...[2] ليس المهم هنا سرد المدائح حول هذا الموضوع... المهم هو التطبيق الفعلي لهذا المبدأ في الحياة الواقعية وجعله واقعاً معاشاً.

فالحل الوحيد لهذه المشكلة التي تهدد الإنسانية في المستقبل –كما أشرنا إليها قبل قليل– هو التعامل مع الزنوج على أساس المبدإ الإسلامي دون إضاعة الوقت. لأن على الإنسانية أن تجرب هذا الحل قبل فوات الأوان.

الناس ولدتهم أمهاتهم أحراراً، وليس من حق أحد ولا من صلاحية أحد استعباد أي أحد. ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ (الحجرات: ١٣).

ج- الحُديبية

لنذكر مرة أخرى فنقول إن الرسول ﷺ كان قائداً وزعيماً لا مثيل له في تطبيق أفكاره عملياً وجعلها واقعاً وحقيقة. ويمكن إيراد أدلة وشواهد لا حصر لها في هذا الخصوص، إلا أننا سنكتفي هنا بإيراد مثال واحد.

(١) «الطبقات الكبرى» لابن سعد ٤/٧٠؛ «الإصابة» لابن حجر ١/٥٦٤

(٢) البخاري، المغازي، ٤٤؛ «المسند» للإمام أحمد ٥/٢٩٩

يروي ابن إسحاق أنه في السنة السادسة للهجرة وعد رسول الله ﷺ أصحابه –الذين بلغ بهم الشوق غايته– بأداء العمرة. فمثل هذه العمرة كانت ستطفيء نار اللوعة والشوق التي تتأجج في صدور المهاجرين إلى وطنهم، وتعطي قوة دافعة جديدة للمسلمين، فخرج الرسول ﷺ في ١٤٠٠ من أصحابه متوجهاً إلى مكة.

كان الرسول ﷺ قد أرسل من قبل رجلاً من قبيلة خُزاعة –وأهل مكة لا يعرفون أنه من أصحاب الرسول– ليتقصى له الأخبار. فوردت إليه الأخبار بأن قريشاً جمعت قبائل العرب واتفقت معها على منع الرسول ﷺ والمسلمين من دخول مكة.

أجل، كانت قريش عازمة على منع المسلمين من دخول مكة وإن تطلّب الأمر استعمال السلاح. وفعلاً طبقت ما عزمت عليه إذ وضعت المحاربين في موقع "بَلدَح"، وجاء خالد بن الوليد أو عكرمة بن أبي جهل ومعهما ٢٠٠ محارب إلى كُراع الغَميم وهي بين رابِغ والجُحْفة. وعندما بلغت هذه الأنباء رسول الله ﷺ توجه إلى هناك بالمسلمين، فسمع خالد بذلك فأسرع إلى مكة يخبر قريشاً بما استجدّ من أخبار. وفي هذه الأثناء كان الرسول ﷺ قد بلغ الحُديبية.[1] والحُديبية اسم لمكان يبعد عن مكة ٥٠–٦٠ كم تقريبا، وكان هناك في السابق بئر في هذه المنطقة بهذا الاسم. فأطلق هذا الاسم على قرية موجودة هناك.

١ – معجزة الماء

لم يكن في هذه المنطقة التي نزل بها المسلمون أي ماء... كانت هناك بئر في قبل ذلك، ولكنها الآن جافة لا ماء فيها فقيل له: يا رسول الله ما بالوادي ماء ينزل عليه. فأخرجَ سهماً من كنانته وأعطاه إلى رجل من أصحابه فنزل به في قليب من تلك القُلُب فغرزه في جوفه فجاش بالرواء. كانت هذه معجزة لا شك فيها، إذ أظهر الله تعالى

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/٣٢٣؛ «الطبقات الكبرى» لابن سعد ٢/٩٥

معجزة على يد نبيه ليسعف حاجة الصحابة إلى الماء. وشرب الجميع من هذا الماء وتوضأوا منه وملأوا أوعيتهم.

٢- الرسل

مع أن قبيلة خُزاعة لم تكن قد أسلمت بعد، إلا أنهم تحالفوا مع المسلمين. وعندما سمعت بتهيؤ أهل مكة للقتال أسرع وفدٌ منهم وأخبروا الرسول ﷺ بالأمر... كان بُديل بن ورقاء من بين الوفد ولم يكن مسلماً آنذاك إلا أنه أسلم بعد فتح مكة؛ ونظراً لكون الرسول ﷺ يثق فيه فقد أرسله إلى أهل مكة يخبرهم بأنه لم يأت للقتال بل لأداء العمرة.

جاء بديل إلى مكة وبلغ رسالة النبي ﷺ لهم، وكان عروة بن مسعود الثقفي من بين المستمعين، فرأى أن ما قاله بُديل أمر معقول، فاقترح على أهل مكة إرساله للنبي ﷺ للتفاوض معه، فرضوا به رسولاً.

جاء عروة إلى النبي ﷺ وبدأ يحادثه، ثم جعل يتناول لحية الرسول ﷺ -على عادة العرب- وهو يكلمه والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ في الحديد، فجعل يقرع يده إذ يتناول لحية رسول الله ﷺ ويقول: اكفُفْ يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل أن لا تصل إليك. وسأل عروةُ: من هذا يا محمد؟ قال: هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة. قال: أيْ غُدَر، وهل غسلت سوءتك إلا بالأمس. إذ كان قد دفع الدية عنه عن جريمة ارتكبها مغيرة... لكم تغير ابن أخيه مغيرة بعد إسلامه حتى أنه لم يعرفه... ثم ما هذا الحب الشديد الذي يبديه المسلمون نحو زعيمهم... لقد ذهل إذ رأى ما يصنع به أصحابه: لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه. وعندما رجع إلى قريش قال لهم:

"يا معشر قريش! إني قد جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكاً في قومه قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا

يسلمونه لشيء أبداً فَرُوا رأيكم."

لم يثمر هذا التفاوض عن شيء فأرسل الرسول ﷺ خِرَاش بن أمية الخُزاعي إلى قريش وحمله على بعير له، ولكن قريشاً عقروا جمل رسول الله ﷺ وأرادوا قتل خِرَاش بن أمية الخُزاعي فمنعه الأحابيش فخلوا سبيله حتى رجع إلى الرسول ﷺ.

٣- ﴿ عثمان ﷺ مبعوثاً للنبي ﷺ ﴾

أصبح من الضروري إرسال مبعوث آخر إلى قريش، وتم اقتراح اسم عمر بن الخطاب ﷺ في بادئ الأمر، غير أن أعداء عمر كانوا كثيرين وأصدقاءه قليلون، لذا كان نجاحه في التفاوض مشكوكاً فيه، وعندما أبلغ عمر ﷺ رسول الله ﷺ برأيه هذا تقرر إرسال عثمان بن عفان ﷺ.

قامت قريش بحبس عثمان ﷺ ، ثم شاعت الأخبار أنهم قتلوه، وقويت هذه الإشاعة بعد تأخر رجوع عثمان ﷺ. وعندما بلغ الرسول ﷺ أن عثمان ﷺ قد قتل قال ﷺ: «لا نبرح حتى نناجز القوم.» ودعا إلى البيعة. وجلس الرسول ﷺ للبيعة تحت شجرة، لذا سميت هذه البيعة بـ"بيعة الرضوان تحت الشجرة" فأقبل المسلمون يبايعونه على الموت. وقام عمر بن الخطاب ﷺ في عهده بقطع هذه الشجرة إذ خاف أن يقدسها الناس.[١]

٤- ﴿ بيعة الموت ﴾

ما أن علم المسلمون بأمر البيعة حتى أسرعوا إلى الرسول ﷺ لأداء البيعة... البيعة للقتال حتى الموت... أدى الجميع البيعة بحماسة عدا شخص واحد.[٢]

(١) «الطبقات الكبرى» لابن سعد ١٠٠/٢

(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام ٣٣٠/٣

كان هناك شخص واحد في مكة لم يستطع المشاركة في هذه البيعة، وهو عثمان بن عفان ﷺ الذي لم يكن أحد من المسلمين يعرف عما إذا كان حياً أم ميتاً. في هذه الأثناء كان الرسول ﷺ يعيش إحدى فتراته التي يتجاوز فيها الزمان والمكان وينطويان أمامه... رفع رسول الله ﷺ يده اليمنى قائلاً: «هذه يدي.» ثم رفع اليسرى قائلاً: «وهذه يد عثمان» ثم ضرب إحداهما بالأخرى.[1] ما أقدس هذه البيعة التي يقوم الرسول ﷺ بالوكالة فيها..

كان الأمر خطيراً جداً، لأن المشاعر كانت متوترة والأحاسيس متأججة تكاد تنفجر... كان الرسول ﷺ هو الشخص الوحيد الذي بقي مالكاً زمام نفسه ورباطة جأشه... ومع أن نفسه كانت مثل بركان يغلي ويكاد يقذف بالحمم، إلا أنه استطاع السيطرة عليها والتحكم فيها بإرادته التي تفوق إرادة البشر. رُحْماك يا رب! ما هذه الإرادة الصلبة..!

٥- ﴿ انكشفت الغمة ﴾

وبينما كان هذا الجو المتوتر سائداً شاهد الرسول ﷺ غباراً لفارس متوجه إليهم، فإذا به سُهَيْل بن عمرو وكان الرسول ﷺ يعرفه فقال لمن حوله: قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل. فهل تفاءل الرسول ﷺ باسم سهيل فرأى أن الأمور بدأت تسهل..؟ هذا موضوع آخر. ولكن انظروا إلى مدى معرفة الرسول ﷺ بالناس وخبرته بهم، إذ ما أن رأى سهيلاً حتى حدس النتيجة. صحيح أنه عندما رأى عروة قال إن قريشاً تريد الصلح، إلا أن الأمر تأكد مع سهيل، وقد صدّقت الحوادث تخمين الرسول ﷺ إذ أكد سهيل أنه جاء لإبرام الصلح.

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/٣٣٠

٦- ﴿ الاتفاق ﴾

كانت فقرات الاتفاق أو المعاهدة التي أبرمها النبي ﷺ تبدو وكأنها في غير صالح المسلمين، إلا أن القرآن الكريم أشار إلى كونها نصراً في نهاية المطاف.

كان سهيل يَعُدّ كل تنازل يقتطعه من المسلمين نصراً كبيراً له، لذا فإنه كان يعترض حتى في أصغر المسائل. فمثلاً عندما دعا الرسول ﷺ علياً ليكتب معاهدة الصلح مع قريش قال له: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم.» فقال سهيل: لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم. فقال رسول الله ﷺ: «اكتب باسمك اللهم.» فكتبها ثم قال اكتب: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سُهَيْل بن عمرو.» فقال سُهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن أكتب اسمك واسم أبيك. فأشار الرسول ﷺ لعليّ رضي الله عنه أن يمحو كلمة "رسول" التي كان قد كتبها. وتردد علي رضي الله عنه إذ صعب عليه محو كلمة "الرسول" فقام النبي ﷺ بمحو تلك الكلمة بنفسه وقال: «أُكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سُهَيْل بن عمرو اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن، وليه رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يرده عليه، وأن بيننا عيبة مكفوفة وأنه لا إسلال ولا إغلال وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.»

فتواثبت خُزاعة فقالوا نحن في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم. ثم كان من الشروط التي ذكروها للرسول ﷺ أنه: وإنك ترجع عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وإنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً، معك سلاح الراكب السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها.

٧- هياج عمر ﷺ

بدت بنود المعاهدة في النظرة الأولى مجحفة لحق المسلمين، ولاسيما الفقرة التي كانت تقضي بإرجاع المسلمين الهاربين من أذى المشركين إلى قريش، فقد أثارت هذه الفقرة المسلمين ولاسيما عمر بن الخطاب ﷺ فذهب إلى الرسول ﷺ والألم يعتصر قلبه، وقال له: يا رسول الله! ألست برسول الله؟

قال الرسول ﷺ: «بلى.» قال عمر: أوَلسنا بالمسلمين؟

قال ﷺ: «بلى.» قال: أو ليسوا بالمشركين؟

قال ﷺ: «بلى.» قال: فعلام نعطي الدَّنِيَّة في ديننا؟!

قال الرسول ﷺ: «أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني.»

ثم ذهب عمر ﷺ إلى أبي بكر ﷺ وقال له الكلام نفسه فقال له أبو بكر ﷺ: "يا عمر! الزم غَرْزه، فإني أشهد أنه رسول الله." قال عمر: "وأنا أشهد أنه رسول الله." وقد ندم عمر فيما بعد على فقده أعصابه آنذاك وكان يقول: "ما زلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمته يومئذ حتى رجوت أن يكون خيراً."

٨- أبو جندل

ولنرجع إلى إبرام الاتفاقية... فإنه ما أن تم التوقيع عليها حتى جاء أبو جندل يرسف في الحديد هارباً من مشركي قريش، وكان أبو جندل ابنَ سهيل بن عمرو الذي وقع الاتفاقية مع الرسول ﷺ: فلما رأى سهيل بن عمرو ابنه أبا جندل قام إليه وضرب وجهه وأخذ بتلبيبه وقال: يا محمد، قد لَجّتْ القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا. فقال الرسول ﷺ وهو آسف ومهموم: «صدقت.» فجعل سهيل ينتره بلتبيبه ويجره يعني يرده إلى قريش. وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته:

يا معشر المسلمين أرد إلى المشركين يفتنوني في ديني! فزاد همّ المسلمين. وأراد الرسول ﷺ أن يبشر أبا جندل بأن هذا وضع موقت وأن الفرج قريب فقال له: «يا أبا جندل! اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فَرَجاً ومخرجاً.» وتحقق فعلاً قول الرسول ﷺ.[١]

٩- أبو بَصير وأصدقاؤه

بعد صلح الحُديبية مباشرة هرب من مكة عُتْبَة بن أَسِيد المكنى بأبي بصير والتجأ إلى رسول الله ﷺ في المدينة، فأرسلت قريش رجلين ليطلبا إرجاع أبي بصير، فأعاده الرسول ﷺ إليهما. ولكن أبا بصير استطاع أن يقتل في الطريق أحد الرجلين، وفر الثاني. وجاء أبو بصير إلى الرسول ﷺ وقال: يا نبي الله قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم. فلم يقبل النبي ﷺ بقاءه في المدينة لأنه كان قد أعطى عهداً وهو ملتزم بعهده وبكلمته. فخرج أبو بصير خارج المدينة وانتهى إلى موضع يقال له سيف البحر وهو قريب من ذي المروة. وما أن سمع ضعفاء المسلمين في مكة بأمره حتى بدأوا يهربون إليه –وكان أبو جندل بن سهيل بن عمرو أولهم– حتى اجتمعت منهم عصابة بدأت تترصد قوافل قريش إلى الشام، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده بالله والرحم لما أرسل إليهم فمن أتاه فهو آمن. فأرسل إليهم النبي ﷺ واستقدمهم إلى المدينة، وهكذا زال بند ظالم في هذه المعاهدة؛ وذلك بطلب وإلحاح من أهل مكة أنفسهم. وكان هذا فتحاً مبيناً للمسلمين.[٢]

وفي أثناء الرجوع من الحُديبية بدأت سورة الفتح بالنزول. وقد وصفت السورة معاهدة الحُديبية بأنها كانت فتحاً مبيناً.[٣]

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/٣٢١-٣٣٣؛ «البداية والنهاية» لابن كثير ٤/١٨٨-١٩٣

(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/٣٣٧-٣٣٨

(٣) «السيرة النبوية» لابن هشام ٣/٣٣٤

كان رسول الله ﷺ راضياً جداً... فكل ما فكر فيه كان يتحقق عندما يأتي أوانه... لقد بذر بذور هذا النصر في الحُديبية، ولكنه لم يظهر واضحاً أمام الأعين إلا الآن... فها هو أبطال سيف البحر من الشباب الغض يَفِدون إلى المدينة ويدخلونها عن طريق "ثنيات الوداع" فيستقبلهم أهل المدينة ويستقبلهم الرسول ﷺ بكل بشر وفرح... لقد اضطر المشركون البغاة إلى نقض معاهدتهم بانفسهم...

ثم سيأتي يوم يقوم فيه المشركون باعتداء غادر على إحدى القبائل المتعاقدة والمتضامنة مع النبي ﷺ، أي يقومون بنقض معاهدتهم.[1] فيقوم الرسول ﷺ بالسير إلى مكة وفتحها وإحراز النصر النهائي الذي وضع أساسه في الحُديبية.

د- نتائج صلح الحُديبية

والآن لنستعرض ثمار صلح الحُديبية... فماذا جلب صلح الحُديبية؟ وماذا كسب المسلمون منه؟

كان سيف الإسلام خالد بن الوليد ﷺ أول من أسلم في عهد هذا الصلح. لم يكن خالد بن الوليد شخصاً يسلم نتيجة هزيمة في الحرب... وما كان له أن يكون كذلك... فما كان من الممكن لعزة نفسه التي انقلبت فيما بعد إلى عزة إسلامية أن يكون ممن يسلم بحد السيف. فقد يسّر الله تعالى بلطفه لهذا الشخص الذي سيكون قائداً لا نظير له في المستقبل أن يدخل إلى الإسلام بعزة نفسه؛ فلولا وجود فترة صلح مثل هذه الفترة ما كان في الإمكان ذوبان جليد قلب خالد.

لقد وجد خالد في فترة الصلح هذه الفرصة للتفكير... لقد أثرت ظروف صلح الحُديبية وما بدا ظاهرياً أنه كان ظلما للمسلمين، كذلك أثرت حال المسلمين حين أقبلوا يؤدون العمرة بعد عام... أثرت هذه الظروف على العديد من أصحاب العقول أمثال

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٣٢/٤-٣٧

خالد بن الوليد تاثيراً كبيراً... لقد كانت فترة الصلح هذه فترة تظهر بالنسبة له، ولم تمض سوى فترة يسيرة حتى جاء إلى الرسول ﷺ ليعلن إسلامه.(١)

لقد كان قيامه بإعلان إسلامه طواعية وبملء اختياره سبباً في أن يكون "سيف الله"، وكان رسول الله ﷺ يتوقع منه هذا. كما كان عمرو بن العاص ممن أسلموا في هذه الفترة.(٢) فالحياة الرتيبة المملة التي أتت بعد صلح الحُديبية جعلت السأم يتسرب إلى قلوب هؤلاء الأبطال، ودفعتهم إلى اختيار الجبهة التي تموج بالحركة والحياة... الجبهة التي يقودها الرسول ﷺ.

كان عثمان بن طلحة أيضاً من الرجال العظام الذين كسبهم الإسلام في هذه الفترة، وكانت مفاتيح الكعبة لديه قبل إسلامه وعند فتح مكة أعطاه الرسول ﷺ مفاتيح الكعبة. هؤلاء الأشخاص بدهائهم السياسي والعسكري كانوا يستطيعون دحر الجيوش، ولكنهم رجعوا إلى أنفسهم في فترة الصلح هذه واهتدوا إلى الحق.

١- لا أحد يحتكر الكعبة

كانت قريش حتى ذلك اليوم تنظر إلى الجميع باستعلاء وبكبرياء؛ ولسانُ حالها يقول: "نحن أصحاب بيت الله." فلا يقترب أحد من الكعبة إلا بإذنهم. وكان على كل من يزور الكعبة أن يدفع ضريبة معينة وإلا منع من هذه الزيارة.

وفي صلح الحُديبية لم يذكر شرط دفع هذه الضريبة أو الإتاوة، وكان هذا خطأ كبيراً لحساب قريش، فعندما طاف المسلمون حول الكعبة بعد عام دون دفع هذه الإتاوة تنبهت القبائل الأخرى... إذن، فقريش ليست الصاحبة الوحيدة للكعبة وإلا فكيف استطاع المسلمون الآتون من المدينة الطواف حول الكعبة دون دفع هذه الإتاوة؟ ولماذا لا يملكون

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير ٢٧٢/٤

(٢) «البداية والنهاية» لابن كثير ٢٦٩/٤

هم أيضاً مثل هذا الحق..؟ كان الجميع يتحدثون بهذا... لقد تبين لهم أن قريشاً وحدها لا تملك الكعبة، لذا فقد أتى الجميع في السنوات المتعاقبة إلى البيت الحرام دون أي عراقيل.

٢- السلم أفضل جوّ للقيام بالدعوة

لقد توفر جو من الأمن وتم الخلاص من مشكلة قريش لمدة عشر سنوات. وكانت هذه الفترة مهمة جداً بالنسبة للمسلمين وضرورية لهم، إذ وجد الرسول ﷺ الفرصة مواتية لإرسال الكوادر التي رباها وهيأها إلى مختلف الجهات، وكان هذا يعني ارتفاع صوت الإسلام في جميع أنحاء الجزيرة العربية... أجل، لقد بدأ صوت القرآن يعلو في كل مكان، وبدأ الناس يهرعون ويستجيبون لنداء الإسلام. وهذه هي الفترة التي وصفها القرآن بقوله ﴿ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً﴾ (النصر: ٢). وعشر سنوات يعني تربية نسل جديد. ولم تكن قريش تدرك كيف أنها أعطت للمسلمين فرصة ثمينة، ولو أدركت ذلك لما اقتربت من مثل هذه المعاهدة. واستغل المسلمون هذه الفترة ليقطعوا شوطاً مهماً من الناحية النوعية والكمية. وكان الذين يلتحقون بالإسلام يزيدون القوة العسكرية الإسلامية ويزيدون الأمل لدى المسلمين، لذا فما أن حان الوقت المناسب وتوجه المسلمون لفتح مكة لم يكن أمام قريش سوى الاستسلام.

٣- التعرف على الإسلام في الصلح

وفائدة أخرى وفرها صلح الحُديبية وهي أن العلاقة بين الطرفين -حتى صلح الحُديبية- كانت مقطوعة فلا يذهب أحدهما إلى الآخر. وكانت العلاقة الوحيدة بينهما هي التقابل في ساحات القتال. وفي ظروف الحرب لم يكن من الممكن تبليغ حقائق الإسلام إلى الطرف المقابل. وعندما تأسس الصلح بدأت الزيارات تقع بين الطرفين؛ والذين كانوا يجهلون فضائل الإسلام وجماله بدأوا يرونه عندما يزورون المدينة

فيعجبون بهذا الجمال وينبهرون بهذه الفضائل والمحاسن التي يشاهدونها... كانت الحياة في المدينة كأنها قطعة من الحياة في الجنة يسحر من يشاهدها... الوضوء... الأذان... صلاة الجماعة... خشوع الناس في الصلاة والاطمئنان والأمان الذي يلفهم ويحيط بهم... كل هذا يسحر قلوب أهل مكة ويجذبهم إلى الإسلام. وبفضل صلح الحُديبية لم يبق تقريباً بيت لم يصله صوت الإسلام ورسالة القرآن، حتى بيت أبي جهل ولو كان أبو جهل حيا لبقي وحده في البيت خارج دائرة الإسلام. لذا، فقد كان صلح الحُديبية نصراً وفتحاً قبل فتح مكة.

أجل، لقد كان الرسول ﷺ عندما يخطو خطوة يعرف جيدا كيف يخطوها. وما أن ينكشف أمام ناظريه مجال حتى يضع قدمه فيه؛ كانت وحدة الفكر والحركة عنده تقوم بالتغلب على جميع المصاعب.

٤- الاعتراف بالإسلام رسمياً

والفائدة الخامسة التي أمنها صلح الحُديبية هي أن جميع الأقوام والقبائل اعترفت بالدولة التي أسسها الرسول ﷺ في المدينة وبحقها في إبرام المعاهدات مع من يشاء. فكما تقوم حاليا الدول المتشكلة حديثاً أو التي أعلنت استقلالها حديثاً بإبراز تعامل الدول الأخرى معها كدليل على اكتسابها الشرعية الدولية، كذلك كان الأمر بالنسبة للرسول ﷺ الذي أبرم مثل هذه المعاهدة. فلماذا لا يعترف به أهل الطائف مثلا وهذه قريش قد اعترفت به بل وعقدت معه صلح الحُديبية؟ أجل، لقد تعاقبت الاعترافات بعضها وراء بعض.

هكذا كان الرسول ﷺ شخصاً رائعاً استطاع أن يستخلص هذه الانتصارات من مثل هذه المعاهدة التي كانت تحتوي على شروط قاسية. ففي جو لم يكن متاحاً له التفكير الطويل كان عليه أن يتخذ قراره ويوقع على هذه المعاهدة التي جلبت انتصارات غير متوقعة لم تكن تخطر على بال أحد. ولا شك أن هذه الانتصارات التي تجاوزت حدود تصورات وخيال البشر شاهدة على كونه ﷺ رسولاً من عند الله؛ لأنه ما من إنسان مهما كان

عبقرياً استطاع أن يصل إلى مثل هذا النصر من معاهدة بدت ظاهريا أنها هزيمة بالنسبة للمسلمين. ولأن مثل هذا النجاح منوط بقوة وإرادة وعلم يتخطى الحدود البشرية.

٥- ﴿كان الله وراء ذلك﴾

أجل، فعندما يتأمل المرء المسائل والمشكلات التي حلها ﷺ لا يملك إلا أن يرى القوة المحيطة بالوجود وهي تقف وراءه. وإن أداءه لهذه الرسالة والأمانة -الثقيلة ثقل الجبال- مثل هذا الأداء الممتاز شاهد على أن يد القدرة ويد الصيانة هي التي تولت رعايته ﷺ وحفظه وحمايته وكأنها تقول: "إنه رسول من عندي" فلا نملك نحن تجاه ذلك إلا أن نهتف بوجد: "محمد رسول الله ﷺ "

لقد كان الرسول ﷺ يتخذ قراره بسرعة ويستطيع أن يلم بأطراف الموضوع في أقل وقت، وما من أمر تناوله إلا ونجح في إنجازه. وهذه هي سيرة حياته تشهد بأنه ما من أمر فصله أو قرار اتخذه أو سلوك سلكه اضطر فيما بعد إلى تكملة النقص فيه، أو تصحيح انحراف به. بل إن بعضاً من القضايا التي بدت في نظر الآخرين أولا وكأنها هزيمة ما إن مد يده إليها حتى حول هذه الهزيمة إلى انتصار، وجعل الإدبار إقبالاً... فالهزائم كانت تنقلب في يديه إلى انتصارات. فكأنه كان يقلب طبيعة الأمور، ويغير مجراها وسبل سيرها فيعطي لها طبيعة أخرى ومجرى آخر. هذا علماً بأن كل هذا من الأمور التي ترجع إلى الله تعالى ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ (الصافات. ٩٦).

فالله تعالى كان يخلق أفعاله بيد أكمل وأشرف وأفضل مخلوقاته... لماذا؟ لأنه كان يريد أن يقول: هذا عبدي وهو رسولي... فاعلموا هذا... واعلموا أني مؤيده في كل شيء... فلو تجاوز عددكم الملايين والبلايين وكان هو واحداً فريداً لانتصر عليكم جميعاً... لماذا؟ لأني أؤيّده وأنصره إذ "لا حول ولا قوة إلا بالله." ويجب ألا ينسى أحد أنني وراءه، فمن حارب من كان الله تعالى وراءه فكأنه يحارب الله تعالى.

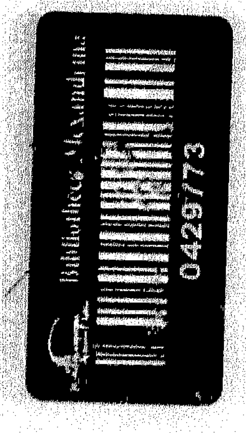
لم يُغلَب محمد ﷺ، ولم يكن من الممكن أن يُغلب، والذين كانوا يحاولون التغلب عليه إنما كانوا يناقضون عقولهم وقلوبهم... أي أنهم لم يكونوا سوى أشخاص بؤساء يحاولون التعرض لعمل مستحيل. والله تعالى يعطي لأمثال هؤلاء بعض الإشارات والإيماءات "أن أفيقوا... أفيقوا أيها المتجاوزون حدودهم." فإن لم يفهموا كل هذه الإشارات أمسك بهم وأنهى أمرهم.

أجل، لا يمكن محاربة محمد ﷺ ولا مجابهته والتعرض له، ذلك لأن الله ناصره، حتى إنه يقول له حين بدر تجاهه شيء من زوجاته ﴿فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير﴾ (التحريم: ٤). أي أن سكنة السماء كلهم بجانبك... وعندما يكون كل هؤلاء من جندك فلن تغلبك الملايين ولا البلايين إن تعرضوا لك، ومن يفعل ذلك فكأنه يناطح الصخر الصوان برأسه حتى يحطمه. وقد يمهل الله تعالى مرة أو عشرا أو عشرين أو ثلاثين مرة لكي لا يبقى لهؤلاء أي عذر وكأنه يقول لهم: "تأملوا! وافهموا... وتعالوا إلى الصراط المستقيم لكيلا يبقى لديكم أي عذر يوم القيامة." ولكنه عندما يأخذهم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، كما ورد في أحد الأحاديث الشريفة.(١)

انتهى الجزء الأول، ويليه الجزء الثاني إن شاء الله تعالى.

والحمد لله أولاً وآخراً.

(١) البخاري، تفسير سورة (١١) ٥؛ مسلم، البر والصلة، ٦١


Bibliotheca Alexandrina
0429773